المؤرخ الإيرانى الكبير

غياث الدين خواندمير

كما يبدو فى كتابه

دستور الوزراء

تأليف وترجمة وتعليق

الدكتور حربى أمين سليمان

تقديم

الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد





المؤرخ الإيرانى الكبير

غياث الدين خواندمير

كما يبدو فى كتابه

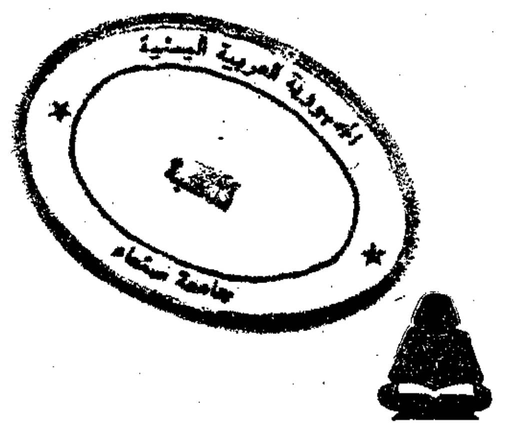
دستور الوزراء

تأليف وترجمة وتعليق

الدكتور حربي أمين سليمان

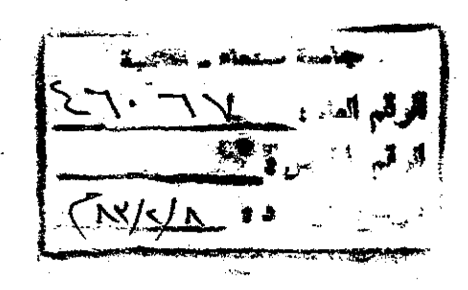
تقديم

الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٠



إهـــداء

الى من وجهتني وعلمتني ••

اليك يا أمي

أهدي ثمرة من ثمار غرسك •••

ابنك الوحيد

حربي



تقديم

الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد

غياث الدين بن همام الدين الملقب بخواندمير مؤرخ عالم أديب . كان يعيش فى القرن العاشر الهجرى فى عهد التيموريين ، وأدرك قيام الدولة الصفوية . كما اتصل بملوك المغول فى الهند الى أن توفى على الأرجح فى سنة ٩٤٢ هـ .

كان خواندمير كاتبا غزير الثقافة ، كثير التأليف . اشتهر على وجه الخصوص بموسوعته التاريخية الكبيرة « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » . وهذا الكتاب من نوع التاريخ العام يشتمل على شرح الحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩٣٠ هـ . ولا شك أن القسم الأخير ـ الذى يتضمن تفصيلات وافية عن السلطان حسين ميرزا بايقرا وأبنائه ومحمد خان الشيبانى والشاه اسماعيل الصفوى وبابر وابنه همايون من ملوك المغول فى الهند ـ ليعد من أوثق المصادر وأدقها . وقد لا يعدله مرجع آخر فى دراسة هذه الفترة . يقول العالم الايرانى الأستاذ « سعيد نفيسى » : « ان المؤلف بواسطة كتاب حبيب السير يعتبر أحد كتاب الفرس المشهورين فى القرن العاشر الهجرى . ويجوز أن يكون كتابه حبيب السير ـ الى عصرنا هذا ـ أوفى كتاب ألف فى تاريخ ايران حتى بدء الدولة الصفوية » .

كذلك من مؤلفات خواندمير القيمة كتابه « دستور الوزراء » . وهو كتاب جامع لأحوال الوزراء فى العهود الاسلامية المختلفة التى حكم فيها الأمويون والعباسيون والسامانيون والديالمة والغزنويون والسلاجقة وطائفة الاسماعيلية والخوارزميون والسلاغرة ودولة الشيخ أبى اسحق اينجو وآل المظفر والمغول والتيموريون . وبذلك يكون هذا الكتاب أعم وأشمل الكتب التى ترجمت للوزراء ، وألفت باللغتين العربية والفارسية .

كان خواندمير يكتب عن أحوال هؤلاء الوزراء باعتباره مؤرخا ، فكانت نظرته نظرة دقيقة متفحصة تقوم على التحليل والنقد ، واصدار الحكم على سلوك

هؤلاء الوزراء . وكان من آن لآخر يشير الى المصادر التى استقى منها مادته العلمية ، وهى كلها مصادر معتبرة وموثوق بها . وبعض هذه المادة حصل عليها المؤلف من كتب ضاعت ، ولم تصل الينا . ومن هنا تبدو الأهمية القصوى لهذا الكتاب .

وعن الوزراء المرموقين الذين شاركوا مشاركة فعالة فى تسيير دفة الأمور فى بلادهم ، وكان لهم أثر بارز فى تكييف الأحداث – ذكر تفصيلات جديدة لم ترد فى غيره من الكتب المماثلة .

وهكذا رأينا كتابته عن أسرة البرامكة فى عهد العباسيين ، وعن نظام الملك الطوسى فى عهد السلاجقة ، وعن أسرة الجوينيين والوزيرين رشيد الدين وابنه غياث الدين فى العصر المغولى ، وعن الوزيرين مجد الدين محمد وقوام الدين نظام الملك الخوافى فى العصر التيمورى – كتابة علمية دقيقة مشتملة على معلومات جديدة نقرؤها لأول مرة .

وأيضا مما يزيد من قيمة هذا الكتاب ، ويعطيه أهمية أكبر هو أن مؤلفه امتنع عن التحيز والتملق ، وبعد عن اخفاء الحقائق ، والتزم بقدر المستطاع الحياد النزيه الدقيق . يتضح هذا على سبيل المثال لا الحصر فى موقفه من الوزير الشيعى مؤيد الدين بن العلقمى وزير الخليفة المستعصم آخر خلفاء الدولة العباسية ، فقد ترجم له ترجمة وافية ، وذكر ما له وما عليه . ورغم أن مؤرخنا كان أيضا يدين بمذهب الشيعة فان هذا لم يمنعه من أن يعلق على تصرفات ابن العلقمى بما يؤيد اتهامه فى قضية خيانته للمستعصم واتصاله المشبوه بالمغول . ويقول خواندمير فى هذا الشأن : « وبعد ! ... فانه ينبغى على من يعملون فى بلاط الحكام أن يطهروا أنفسهم من صفات المكر والخديعة متجنبين نكران الجميل ، محترسين من الانسياق وراء أمور الغدر والخيانة حتى لا يعاقبوا فى الدنيا والآخرة ، مهتدين بقوله تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد) .

من هنا كان كتاب دستور الوزراء جديرا بالبحث والدراسة . وقد تصدى لهذا الموضوع تلميذى وزميلى الدكتور حربى أمين على سليمان المدرس بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر ، فألف عنه رسالة علمية نال بها درجة الماجستير بتقدير ممتاز من كلية الآداب بجامعة عين شمس . وقد أخلص « حربى » لبحثه ، واتبع منهجا سليما فى معالجته اذ قسمه الى قسمين رئيسيين :

درس فى القسم الأول عصر المؤرخ ، وأبان عما فيه من عوامل موجهة كان لها أثرها البالغ فى انتاج هذا المؤرخ . كذلك تحدث عن سيرة الكاتب ، وكشف عن جوانب ثقافته . بعد ذلك تناول مؤلفاته بوجه عام وكتابه دستور الوزراء بوجه خاص . وكانت دراسته لهذا الكتاب دراسة مقارنة تقوم على التحليل والنقد ، وتكشف عن تطور منصب الوزارة منذ الاسلام حتى عصر المؤلف ، فدفعه هذا الى الحديث عن الكتب العربية والفارسية التى تناولت تراجم الوزراء قبل

كتاب دستور الوزراء ، وبيان ما فيها من أوجه الكمال والنقص • ثم انتقل الى الحديث عن الكتاب نفسه وبيان مشتملاته ، ودراسة مصادره ، والكشف عن قيمته الحقيقية ، وابراز خصائصه • وأخيرا اطلاعنا على المدرسة التى تأثرت به •

بعد ذلك يجىء القسم الثانى ، وفيه أورد الباحث ترجمة عربية للمتن الفارسى برمته لكتاب دستور الوزراء • وكانت الترجمة مصاغة فى أسلوب عربى سليم بعيد عن التكلف والتعقيد • وكان المترجم أمينا فى ترجمته اذ جاءت مطابقة للأصل • ومما زاد من قيمة الترجمة الحواشى العديدة والتعليقات المفيدة التى ساعدت على ازالة اللبس وتوضيح المعلومات •

ولا شك أن الزميل « حربى » بهذه الترجمة يكون قد قدم لقراء العربية تراثا جديدا من تراث ثقافتنا الاسلامية المجيدة •

وهو أيضا ببحثه وترجمته يكون قد نجح فى اعطائنا صورة حية متكاملة عن المؤرخ خواندمير كما يبدو فى كتابه « دستور الوزراء » •

واننا لنطمح أن تتاح له الفرصة فيعكف على ما لم يدرس من تراث هذا المؤرخ بحثا وترجمة وشرحا وتعليقا فيضيف بذلك جهدا آخر مشكورا فى سبيل خدمة العلم والثقافة خصوصا فى هذا الوقت الذى اتسعت فيه آفاق أدبنا العربى الخالد ، وأخذ يطل على منافذ الثقافات الأجنبية ، الشرقية منها والغربية •

والله ولى التوفيق ••

فؤاد عبد المعطى الصياد

مقدمة

فى الربع الأخير من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين كان يعيش فى مدينة هراة بايران وفى مدينة دهلى بالهند ، مؤرخ اسلامى كبير ، عشق الكتابة التاريخية وولع بها ، ووضع سبعة من مؤلفاته التسعة فى مجالها ، ووجد كثيرا من الرعاية والاهتمام فى كنف الأمراء والسلاطين التيموريين وخاصة السلطان حسين ميرزا بايقرا ووزيره الشاعر الأمير عليشير نوائى والسلطان بديع الزمان ميرزا ·

وبعد تدهور الدولة التيمورية فى ايران لقى كثيرا من العنت والعذاب الى أن رحل الى الهند والتحق ببلاط الامبراطور ظهير الدين بابر مؤسس أول امبراطورية اسلامية فى الهند ·· ذلكم المؤرخ هو غياث الدين بن همام الدين ، المعروف بخواندمير ·

وخواندمير هو صاحب الموسوعة التاريخية « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » ، أو فى كتاب ألف عن تاريخ ايران حتى بداية الدولة الصفوية (١) ، التى حازت اعجابا كبيرا لدى المهتمين بدراسة التاريخ والأدب فى الشرق والغرب على السواء ·· وهو أيضا ابن كريمة المؤرخ الكبير ميرخواند صاحب « روضة الصفا » ·

وولد خواندمير بين عامى ٨٨٠ – ٨٨١ هـ فى مدينة هراة بايران ، وعاصر فترة من أزهى فترات الدولة التيمورية ·· وهى الفترة التى حكم فيها السلطان حسين ميرزا بايقرا (٨٧٣ – ٩١١ هـ) (١٤٦٨ – ١٥٠٤ م) ، حيث التحق بالخدمة فى بلاطه عن طريق الوزير ميرعليشير نوائى ، ونال عندهما مكانة عالية· كما عاصر فترة تدهور الدولة التيمورية فى ايران وقيام الدولة الصفوية الشيعية على أنقاضها ، وكانت فترة الانتقال هذه من أسوأ فترات حياة مؤرخنا ·

---

(١) دستور الوزراء ، خواندمير – مقدمة سعيد نفيسى ، ص (١) ، طهران ١٣١٧ هـ ش ·

انتقل خواندمير الى بلاد الهند بعد أن سئم الحياة في ايران ، والتحق بخدمة ظهير الدين بابر مؤسس أكبر دولة عرفتها هذه البلاد (١) ، وحظى فى بلاطه بمزيد من التقدير والاحترام ، وبعد وفاة ظهير الدين التحق خواندمير بخدمة ابنه همايون الذى شجعه ورعاه ورفع عنه السأم والملل وجعله من خاصته ، فسجل خواندمير انتصارات ذلك الامبراطور وأعماله فى كتابه « همايون (٢) نامه » ، وبعدها انتقل الى جوار ربه عام ٩٤٢ هـ اثر مرض مفاجيء ، ودفن بمدينة دهلى فى الهنـد ٠

شغل خواندمير بالدراسة والبحث والتأليف منذ نعومة أظافره وحتى آخر عام فى حياته ، لكن الكتابة التـاريخية استهوته ، وملكت عليه معظم وقته ، وشغلت الجزء الأكبر من مؤلفاته ، فوضع سبعة منها فى هذا الفن ، أما الاثنان الآخران وهما : « مآثر الملوك » ، « نامه نامى » ، فقد وضـع الأول منهما عن مخدومه ومكتشفه وراعيه الأمير عليشير نوائى ، وثانيهما وضعه عن فن الكتابة وضروبها المختلفة وآدابها ٠

ومؤلفات خواندمير لم تحظ بالدراسة الكافية ـ باستثناء حبيب السير ـ ولم ينقل واحد منها الى اللغة العربية ، رغم احتواء بعضها على معلومات لا توجد فى غيرها من المصادر ، مثل كتابه دستور الوزراء ٠ ومن هنا كان اختيار أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور/ فؤاد عبد المعطى الصياد وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس وأستاذ اللغة الفارسية وآدابها ، لهذا الكتاب ، والاشـارة على بنقله الى اللغة العربية ، والتعليق على ما جاء به ، وعمل دراسة عنه وعن صاحبه وعصره ومؤلفاته الأخرى ٠ فاستجبت شاكرا لأستاذى فضله ، وجعلت عنوان البحث « خواندمير كما يبـدو فى كتابه دستور الوزراء ، مع ترجمـة النص والتعليق عليه » ٠

وتم عمل خطة للبحث نفذت كما يلى :

يشتمل البحث ـ بخلاف المقدمة والخاتمة ـ على قسمين :

القسـم الأول

« خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء »

وهذا القسم ينقسم الى بابين :

---

(١) د٠ أحمد الساداتى ، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، ص ٢٠٤ ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م القاهرة ٠

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، الجزء التاسع ، ص ٢٥ ، القاهرة ٠

الباب الأول

« خواندمير ، عصره ، أسرته ، مؤلفاته »

وينقسم هذا الباب الى ثلاثة فصول :

الأول : بعنوان « عصر خواندمير » ، تحدثت فيه عن الحالة السياسية فى ايران خلال الربع الأخير من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين ، وهى الفترة التى عاصرها خواندمير ، كما تحدثت عن الشخصيات البارزة التى كان لها أثر كبير في حياة خواندمير وانتاجه وأوضحت مدى تأثر خواندمير بصحبة كل منهم وأثر ذلك فى نفسه ، وبينت أيا من المؤلفات وضعها خواندمير بصحبة كل منهم •

الثانى : بعنوان « خواندمير ، موطنه ـ أسرته ـ سيرته ـ فترة نضجه وحياته السياسية » ، تناولت هذا الفصل بالحديث عن مدينة هراة ـ موطن خواندمير ـ وازدهارها ثقافيا وحضاريا فى العصر التيمورى وخاصة فى عصر السلطان حسين ميرزا بايقرا ، كما تحدثت عن مراحل حياة خواندمير المختلفة وسمات كل مرحلة •

الثالث : بعنوان « مؤلفات خواندمير » ، ومهدت له بالحديث عن ظاهرة ازدهار الكتابة التاريخية فى العصر التيمورى وخصوصا الكتابة فى التاريخ العام ، ثم تناولت كل مؤلف من مؤلفات خواندمير بالحديث عن موضوعه وقيمته وموقعه فى مجاله •

الباب الثانى

وجعلته بعنوان « خواندمير ودستور الوزراء ، دراسة مقارنة » •

وقد قسمت هذا الباب أيضا الى ثلاثة فصول ، سبقتها بالحديث عن تطور منصب الوزارة منذ الاسلام وحتى عصر خواندمير ، ثم تحدثت عن فصوله كما يلى :

الأول : بعنوان « خواندمير ، المؤرخ فى دستور الوزراء » ـ ومهدت لهذا الفصل بالحديث عن الأسباب التى أدت الى ازدهار فن التأريخ فى العصر التيمورى ، ثم تحدثت عن أهم الكتب العربية والفارسية التى تحدثت عن الوزراء وختمته بالحديث عن خواندمير من ثنايا كتابه دستور الوزراء بالمقارنة مع تلك الكتب •

الثانى : وجعلته بعنوان « خواندمير ، رجل الأخلاق فى دستور الوزراء » ، وذكرت فيه وقفات النصح والارشاد التى سجلها خواندمير فى دستور الوزراء ، وحددتها تحديدا واضحا وعلقت عليها •

الثالث : وجعلته بعنوان « خواندمير ، مصادر كتابه وقيمته ، أسلوبه وخصائصه » ، تحدثت فيه عن أهم المصادر التى رجع اليها خواندمير عند تأليفه كتابه وأوضحت مدى تأثر خواندمير بكل منها •

وكانت كلها من أعلام كتب التـــاريخ والأدب ، فمن بينها كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله الوزير المؤرخ ، وكتاب « روضة الصفا » للمؤرخ ميرخواند ، وكتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » ، لعوفى ، وغيرها ·

وفى نهاية هــذا القسم تحدثت عن قيمــة كتاب « دستور الوزراء » ، وعن أسلوب خواندمير فى هذا الكتاب وخصائصه من واقع منهجه فى دستور الوزراء كما تحدثت عن مدى توفيق خواندمير فى اختيار مصادره وكيفية استعماله لأدوات المؤرخ الناجح ·

القسم الثانى

وجعلته بعنوان « ترجمة كتاب دستور الوزراء والتعليق عليه » ويتضمن هذا القسم ما يلى :

أولا : ترجمة كاملة لمقدمة ناشر الكتاب ومصححه الأستاذ سعيد نفيسى والتعليق عليها ·

ثانيا : ترجمة كاملة لمقدمة صاحب الكتاب المؤرخ خواندمير والتعليق عليها ·

ثالثا : ترجمة كاملة لنص الكتاب والتعليق عليها ·

هذا وقد استقيت المعلومات من مصادرها الأصيلة فى حديثى خلال البحث وأثناء التعليق على أجزاء الترجمة المختلفة ، وأثبت ذلك فى موضعه من البحث ·

وقبــل أن أنتهى من قراءة هذه المقــدمة أرجو أن يتقبل أستاذى الفاضل **الأستاذ الدكتور / فؤاد عبد المعطى الصياد** وكيل كلية الآداب بجامعة عين شمس وأستاذ اللغة الفارسية وآدابها بالكلية عظيم شكرى وامتنانى ، حيث كان لسيادته فضــل اختيار هذا البحث والاشراف عليه منذ البداية حتى النهاية ، كما أمدنى سيادته بالكثير من النصائح والتوجيهات ، وبالعديد من المراجع والمؤلفات التى كان دخل كبير فى تكوين هذا البحث · كما أذكر لسيادته فضله فى مراجعة هــذا البحث خلال أشهر الصيف ـ رغم أعباء سيادته الكثيرة داخل مصر وخارجها ·· فلسيادته جزيل شكرى واعترافى بفضله ما دمت حيا ·

كما أرجو أن يتقبل أستاذى الجليل الأستاذ الدكتور/ عبد النعيم حسنين عميد معهد اللغات والترجمة بجامعة الأزهر ورئيس قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب جامعة عين شمس شكرى وعظيم امتنانى ، حيث كان لسيادته فضل توجيهى وتشجيعى على مواصلة البحث ، وانى أعترف أنه لولا نصائح سيادته وتشجيعه لى لما قدر لهذا البحث أن يتم حتى الآن ؛ فلسيادته خالص شكرى واحترامى ·

كما أقدم خالص الشكر والامتنان لأستاذى الكريم الدكتور/ طلعت أبو فرحة أستاذ اللغــة الفارسية وآدابها المساعد بمعهد اللغــات والترجمة جامعة الأزهر

لتفضل سيادته بمراجعة الكثير من النصوص الشعرية والنثرية بالقسم الثانى من البحث .

وختاما .. أرجو أن أكون قد وفقت فى اعطاء صورة صادقة عن المؤرخ الاسلامى الكبير خواندمير ، وعن مؤلفاته عامة وكتابه دستور الوزراء بصفة خاصة .

« وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب »

القسم الأول

« خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء »

ويقع فى بابين

الأول : « خواندمير ، عصره ، أسرته ، مؤلفاته »

الثانى : «خواندمير ودستور الوزراء دراسة مقارنة » .

الباب الأول

« خواندمير ، عصره ، أسرته ، مؤلفاته »

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الأول : « عصر خواندمير »

الثانى : « خواندمير ، موطنه ـ أسرته ـ سيرته ، فترة نضجه وحياته السياسية »

الثالث : « مؤلفات خواندمير »

الفصل الأول

عصر خواندمير

(٨٨٠ - ٩٤٢ هـ - ١٤٧٥ - ١٥٣٥ م)

نظرة عامة :

عاصر خواندمير الربع الأخير من القرن التاسع والنصف الأول من القرن العاشر الهجريين تقريبا • وطبيعة هذه الفترة التى امتدت ثلاثة أرباع قرن تقريبا كانت فى بدايتها أشبه ببركان ينتظر شرارة الانفجار ، وكانت شرارة الانفجار هذه وفاة آخر سلاطين الدولة التيمورية فى ايران السلطان حسين بايقرا عام ٩١١ هـ ، حيث انقض محمد خان الشيبانى من بلاد ما وراء النهر لفتح خراسان ، ولم يفلح الأمراء التيموريون فى صده وتم له الاستيلاء على خراسان ، ودخوله هراة فى عام ٩١٣ هـ • وكانت هذه الأحداث على مرأى ومسمع من خواندمير الذى كان وقتها فى هراة نفسها ، ولقى كثيرا من العنت فى هذه الفترة صوره لنا فى كتبه • وسوف نفصل ذلك عند حديثنا عن حياته السياسية فى الفصل القادم •

أما الظاهرة الثانية من عصر خواندمير فهى أن هذه الفترة شهدت أيضا قيام دولة ايرانية قومية صحيحة (١) بعد فترة من الضعف استمرت ثمانية قرون • هذه الدولة القومية تتمثل فى الدولة الصفوية حيث ظهر الشاه اسماعيل مؤسس هذه الدولة وأول ملك فيها على أنه قائد لسبع قبائل تركية فى أذربيجان تعرف باسم ال « قزل باش » (٢) أى « حمر الرؤوس » • ولم يكن اسماعيل نفسه زعيما تركيا

---

(١) «Iran, Past and Present », by Donald Wilber

ترجمة الأستاذ الدكتور/عبد النعيم حسانين ص ٨٦ القاهرة •

(٢) القزلباشية هم أبناء الأسرى الذين سلمهم تيمورلنك للشيخ حيدر ، وسموا بذلك بسبب غطاء الرأس الأحمر الذى لبسوه ليميزهم عن غيرهم ، وكانوا فرسا وتركا • وفى ذلك الوقت كان القزلباش أقوى فرق الجيش الصفوى الفارسى - والترك يطلقون هذه الكلمة على الفرس عامة ، وتطلق كلمة القزلباشية كذلك على فرقة الباطنية الشيعية فى تركيا •

(كتاب شرفنامه ، لشرف خان البدليسى ، ص ٢٠ الترجمة العربية ، القاهرة) •

ولكنه ظفر بالاحترام ، لانه من نسل سلسلة من الزعماء الدينيين ورئيس جماعة من الدروايش • وفى عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) هزم اسماعيل قبائل «آق قويونلو» أى « أصحاب الخراف البيضاء » وجلس على العرش فى تبريز • وفى عام ٩١٦ هـ (١٥١٠) حارب الشيبانى وقتله وانتزع منه هراة بعد أن كان قد استولى على العراق وفارس وكرمان وهمدان ، وشقت قواته طريقها شرقا حتى بلغت «خيوة» • وقد أعلن اسماعيل الصفوى المذهب الشيعى مذهبا رسميا لايران ، واستعمل القوة الغاشمة فى تغيير مذهب السنيين المتنعين •

والظاهرة الثالثة من عصر خواندمير بعد القضاء على الدوله التيموريه فى ايران على يد الشيبانى وقيام الدولة الصفوية الشيعية فهى الغزو العثمانى لايران ومحاولة الخليفة السنى القضاء على السلطان الشيعى حيث أذكى التحول الى التشيع عداوة الأتراك العثمانيين ضده (١) وكان سلاطينهم فى القسطنطينية قد صاروا خلفاء على جميع المسلمين السنيين ، وأصبح الشيعة فى ايران يفصلون الكتلة السنية فى وسط آسيا والهند وأفغانستان عن السنيين فى تركيا والعراق ومصر والدول الاسلامية الأخرى الواقعة الى الغرب من ايران • وكانت أولى نتائج هذا الاحتكاك المذهبى غزو ايران بجيش يقوده السلطان سليم الأول الذى هزم اسماعيل بالقرب من تبريز ، وقد استمرت الحروب مدة طويلة ، وكان الضغط الخارجى على ايران عاملا قويا فى توحيد جميع أجزائها واخلاص أهلها للملوك الصفويين والمذهب الشيعى • وحكم الملك الصفوى الثانى الشاه طهماسب من ٩٣٠ هـ الى ٩٨٤ هـ (من ١٥٢٤ ـ ١٥٧٦ م) وتمكن من الاحتفاظ بحدوده الشرقية • ولكنه قاسى هزائم عديدة فى الغرب على أيدى السلطان العثمانى سليمان القانونى •

وهكذا نرى مؤرخنا خواندمير قد عاصر أهم أحداث ايران بعد الغزو المغولى الأول ، وعانى منها وتأثر بها وسجلها فى كتاباته • وكان أروع ما كتبه من ناحية الدقة والتفصيل تلك الأجزاء المتعلقة بالسلطان حسين بايقرا آخر سلاطين الدولة التيمورية والشاه اسماعيل الصفوى أول حكام الدولة الصفوية ومؤسسها والتى سجلها فى كتابه « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » (٢) • كما كان للسلطان ظهير الدين بابر وابنه همايون أثر بالغ فى حياة خواندمير •

وحتى تتضح مكانة خواندمير وموقعه فى عصره فاننا نورد فيما يلى نبذة مختصرة عمن اتصل بهم مؤرخنا وكان لهم دور كبير فى حياته سواء منهم من احتضنه وتعهده وأعلاه ، أو من قربه وشجعه ورعاه •

---

(١) « Iran, Past and Present », by Donald Wilber.
ص ٨٧ من الترجمة العربية القاهرة ١٩٥٨ م •

(٢) حبيب السير/خواندمير المجلد ٣ جـ ٤ •

١ ـ السلطان حسين بايقرا
٨٧٣ ـ ٩١١ هـ (١٤٦٨ ـ ١٥٠٤ م)

بعد أن ظلت الدولة التيمورية فى حالة من الفوضى والاضطراب لبضع سنوات على أثر مقتل ألغ بيك (١) تمكن السلطان حسين بايقرا من السيطرة على خراسان فى عام ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) ، وأحيا النهضة الأولى للحضارة والفنون فى هراة بحيث كتب أحد معاصريه يقول (٢) : « لم يكن فى العالم المسكون جميعه مدينة مثل هراة فى عهد السلطان حسين ، فقد كانت خراسان وهراة ـ على رأس مدنها ـ مملوءة بعلماء ورجال لا نظير لهم ، وكان اذا اضطلع أحدهم بعمل ـ مهما كان نوعه ـ هدف الى اتمامه واتقانه ، وكان من الكواكب النيرة فى البلاط جماعة من العلماء من كلا الأصلين الفارسى والتركى ، وكان منهم الشاعران الجامى (٣)

---

(١) ألغ بيك : وهو ابن السلطان شاهرخ التيمورى وحفيد السلطان تيمور كوركان مؤسس السلسلة التيمورية فى ايران . وكان ألغ بيك حاكما على تركستان أثناء سلطنة والده ، وكان راعيا كبيرا للفن والأدب الفارسيين ، كما كان شغوفا أيضا بفنون الصينيين ، ولكن الرغبة الملحة التى كانت تسيطر عليه هى دراسة علم الفلك ، وقد بنى مرصدا لا يزال قائما فى سمرقند وذلك بمساعدة أربعة من كبار العلماء فى عصره هم صلاح الدين موسى الرومى ومولانا علاء الدين على قوشجى وغياث الدين جمشيد الكاشانى ومعين الدين الكاشانى . كما عمل ألغ بيك جداول حسابية تحمل اسمه طبعت بعد ذلك فى انجلترا عام ١٠٧٦ هـ ـ ١٦٦٥ م .

وكان ألغ بيك متبحرا أيضا فى علم القراءة وسائر العلوم الشرعية ، كما حفظ القرآن الكريم وبذل جهدا كبيرا من أجل رفع شأن الدين الاسلامى المبين ، وبعد وفاة والده السلطان شاهرخ عام ٨٥٠ هـ ـ ١٤٤٧ م خلفه على العرش التيمورى ، ولكن حكمه كان لسوء الحظ قصيرا جدا حيث استغرق المدة من ٨٥١ ـ ٨٥٣ هـ (١٤٤٧ ـ ١٤٤٩ م) وانتهى أمره بأن عزله ابنه ميرزا عبد اللطيف وسجنه ، وبعد بضعة أيام من سجن ألغ بيك أمر ابنه المذكور بقتله وكان ذلك فى العاشر من رمضان عام ٨٥٣ هـ ـ ١٤٤٩ م .

براون ، تاريخ الأدب فى ايران ، ج ٣ ص ٤١٨ ، ٤١٩ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش ـ ١٩٤٨ م .

عليشير نوائى ، مجالس النفائس ص ٣١٤ طهران ١٣٢٣ هـ ش

دونالد ولبر ، ايران ماضيها وحاضرها ص ٨٠ ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م .

(٢) « Iran, Past, Present », by Donald Wilber.

ترجمة الأستاذ الدكتور/عبد النعيم حسنين ص ٨٠ .

(٣) وهو مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامى ، ولد فى قرية « خركرد » بولاية جام فى خراسان ، فى الثالث والعشرين من شهر شعبان عام ٨١٧ هـ ، وتوفى فى الثامن عشر من المحرم عام ٨٩٨ هـ بمدينة هراة . ويعد الجامى من كبار شعراء ايران ومتصوفيها .

وأهم آثار الجامى ثلاثة دواوين من الشعر ، الأول بعنوان « فاتحة الشباب » ، اتمه عام ٨٨٤ هـ ، والثانى بعنوان «واسطة العقد» أتمه عام ٨٩٤ هـ ، والثالث بعنوان «خاتمة الحياة» ، أتمه عام ٨٩٦ هـ قبل عامين من وفاته .

وعليشير نوائي ، والمصوران أو الرسامان بهزاد (١) وشاه مظفر والخطاط سلطان علي ، والمؤرخان ميرخواند وخواندميرا » •

وله أيضـــا سبع مثنويات بعنوان « هفت أورنگ » أي العروش السبعة ، قلد فيهـا نظامي الكنجوي في منظوماته المعروفة بـ « خمسة نظامي » •

وللجامي كذلك قطعات شعرية متفرقة ، ومؤلفات في تفسير القرآن ، واثبات نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي علم الحديث ، وتراجم لأحوال الأولياء والصوفية ، وله مؤلفات في علوم الصرف والنحو والعروض والقافية والموسيقى وصناعة الألغاز •

وقد حظي الجامي بمكانة عالية عند السلاطين والحكام التيموريين ، ولقيت تعاليمه ونصائحه قبولا وانتشارا بين معاصريه ، ونال احتراما كبيرا من مواطنيه • ولم يكتف الأمير عليشير نوائي بالحديث عن الشاعر نور الدين عبد الرحمن الجامي في كتابه « مجالس النفائس » ، بل خصص رسالة مستقلة تحدث فيها عن ذلك الصوفي الكبير تعرف باسم « خمسة المتحيرين » تحدث فيها عن مولده ونشأته وأحواله ومؤلفاته ووفاته التي حدثت في هراة عام ٨٩٨ هـ ـ ١٤٩٢ م •

(براون ، التاريخ الأدبي لايران ، جـ٣ ، ص ٥٦٢ ـ ٥٩٧ ، الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش •

عليشير نوائي ، مجالس النفائس ، ص ٥٦ ، طهران ١٣٢٣ هـ ش) •

(١) وهو الرسام الشهير كمال الدين بهزاد ، ولد في مدينة هراة عام ٨٤٤ هـ ـ ١٤٤٠ م تقريبا ، حيث ان تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته غير معروفين حتى الآن على وجه التحديد • وقد أصبحت هراة في أوائل القرن التاسع الهجري مركزا للفنون بعد أن وقع عليها اختيار السلطان شاهرخ لتكون عاصمة للدولة التيمورية •

وقد استخدم شاهرخ عددا كبيرا من الفنانين لتصـوير المخطوطات وتذهيبها ليضمها الى نفائس مكتبة قصره • ولما آل الحكم الى ابنه بايسنقر ، أقام هو الآخر معهدا لفنون الكتاب في هراة ، ووظف في هذا المعهد عددا من الخطاطين والمصورين من داخل بلاده وخارجها •

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، بدأ يظهر أسلوب فني جديد في هراة ، ميزاته توافق التعبيرات الفنية وحسن تنفيذ التفاصيل ، وبراعة انسجام الألوان ، وأثناء ذلك ذاعت شهرة فنانين عديدين من بينهم روح الله الهروي أستاذ الفنان العظيم بهزاد •

وخلال حكم السلطان حسين ميرزا بايقرا (٨٩١ ـ ٩١٢ هـ) ووزيره الشاعر الموسيقي الرسام ميرعليشير نوائي ، بزغ عصر فني جديد في مدينة هراة ، اذ شجعا معا النهضة الفنية ، وفي ظل هذا التشجيع أخذ يعمل الفنان بهزاد في معهد فنون الكتاب ، وظل على هـــذا الحال حتى وفاة السلطان حسين بايقرا •

ولما جاء الشاه اسماعيل الصفوي الى الحكم ، استدعى بهزاد الى عاصمته تبريز ، وشمله بالرعاية والتقدير • ويروى أنه لما خرج الشاه اسماعيل الصفوي لقتال الترك عام ٩٢٠ هـ ، أخفى المصور بهزاد والخطاط محمد النيسابوري في احدى المغارات حرصا منه على حياتهما ، ولما عاد كان الفنان بهزاد أول من استفسر عنهم السلطان •

وفي عام ٩٢٨ هـ عين بهزاد مديرا لمكتبة القصر التي كانت وثيقة الارتباط بمعهد فنون الكتاب ، وأتاح له هذا المنصب الاشراف على عدد كبير من الفنانين منهم المصور والمذهب والخطاط

وكان السلطان حسين بايقرا نفسه أديبا وشاعرا وله ديوان شعر باللغة الجغتائية (١) • وقد قدم مؤرخنا كتابه « دستور الوزراء » أول مرة عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) قبل أن يضيف عليه ، ويخرجه مرة أخرى عام ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م) • وتوفى السلطان حسين بايقرا يوم الاثنين الحادى عشر من شهر ذى الحجة عام ٩١١ هـ (١٥٠٤ م) ، وخلفه ابناه بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا اللذان تقاسما السلطة بناء على وصية والدهما ، وحكم كل منهما مستقلا عن الآخر فى منطقته مما ساعد على التعجيل بنهاية دولتيهما •

والمجلد وغيرهم • يذكر خواندمير أن بهزاد فاق فى مهارته جميع أبناء عصره من أهل صناعته حتى ان شعرة واحدة من فرشاته كانت قادرة بفضل عبقريته على أن تبعث الحياة فى الجمادات •

ولما توفى الشاه اسماعيل بقى بهزاد يعمل فى خدمة ابنه الشاه طهماسب الذى قيل أنه كان يتلقى دروسا فى التصوير على يد بهزاد •

والنظرة الاجمالية لأعمال الفنان بهزاد تجعل منه استاذا مجددا فى ميدان التصوير الاسلامى ، حيث سار فى أعماله وفق أساليب فنية جديدة لا سيما فى معالجة الألوان ، وكان هو وتلاميذه ينهجون منهجا مستقلا مبتكرا بخلاف الأعمال التقليدية السائدة فى عصرهم • ولذلك يعتبر بهزاد خالق أسلوب جديد فى فن التصوير ، يمتاز بدقة الأداء والعناية برسوم الأشخاص ، والواقعية الواضحة فى الأعمال والحركات ، واندماج شخصيات صوره ــ فرادى أو جماعات ــ اندماجا صادقا فى أعمالهم • وموهبة بهزاد فى رسم الأشخاص رائعة جدا تبدو واضحة فى وجوه الأفراد الذين رسمهم ، كما أضاف بهزاد الى قائمة الألوان المستخدمة الوانا من ابتكاره ، واتخذ من اللون الواحد أطيافا عديدة ، واستطاع أن يلعب بها فى توافق وانسجام •

وانتاج بهزاد من صور ولوحات ورسوم تتصدر الآثار والأعمال الفنية العالمية فى متحف كابول بأفغانستان وبالمتحف البريطانى ، ومتاحف ايران وخصوصا متحف كليستان بطهران ، ومتحف اللوفر بباريس ، ومتحف بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية • هذا بالاضافة الى مجموعة كبيرة من آثار بهزاد كانت بمتاحف أفغانستان ولكنها أتلفت أيام انقلاب «بچه سقا» •

وتتحقق قمة براعة بهزاد الفنية فى اللوحات التى زين بها هذا الفنان مخطوطة البستان لسعدى الشيرازى ــ الموجودة الآن بين مخطوطات دار الكتب والوثائق القومية بجمهورية مصر العربية ــ وهى تشتمل على أربع صور صغيرة أمضيت كل منها بعبارة « من عمل العبد الفقير بهزاد » ، كما تضم المخطوطة صورة خامسة فى صفحتى الورقة الاولى للكتاب • تمثل مأدبة للسلطان حسين بايقرا • وتوجد بمصر أيضا لوحات أخرى لتلاميذ بهزاد (أبو العينين ، فهمى ، أفغانستان بين الأمس واليوم ، ص ٢٦٣ ــ ٢٧٥ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، فرع مصر ١٩٦٩ م)

خواندمير ، حبيب السير ، المجلد الثالث ، جـ٣ ، ص ٣٥٠ ، بمباى ١٢٧١ ــ ١٢٧٣ هـ • دونالدولبر ، ايران ماضيها وحاضرها ، ص ٨٥ ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ م) •

(١) Jan Rypka : History of Iranian Literature, p. 281.

٢ ـ السلطان بديع(١) الزمان ميرزا
(٩١١ ـ ٩١٣ هـ (١٥٠٤ ـ ١٥٠٧ م)

وهو الابن الأكبر للسلطان حسين ميرزا بايقرا ، وكان بديع الزمان كوالده يهوى الشعر والنثر • وقد وردت بعض أشعاره فى كتاب « تحفهٔ سامى » (٢) • وكان هذا الأمير شجاعا عالما ، ولكنه لم يكن له تصيب من الدنيا سوى اليأس والقنوط فهزم فى عام ٩١٣ هـ على يد محمد خان الشيبانى ، وتوجه الى جرجان ، ومن هناك لجأ هو وابنه محمد زمان ميرزا الى الشاه اسماعيل الصفوى ، ومكث عنده فترة • ثم قضى فترة أخرى فى مدينة الرى • وبعد ذلك سيطرت الرغبة فى تولى السلطنة على بديع الزمان ميرزا فهاجم جرجان هو وجماعة قليلة من أتباعه ، ولكنه هزم وتوجه بعدها الى الهند • وبعد أن أقام عامين بالهند عاد مرة أخرى الى خراسان ولجأ الى الشاه اسماعيل الصفوى ، وذهب معه الى آذربيجان ، وظل هناك حتى انتهت حرب « جالداران » فى عام ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) حيث صحب السلطان سليم العثمانى الى استانبول • وقد توفى هناك بعد هذه الواقعة بثلاثة أشهر أو أربعة على أثر اصابته بمرض الطاعون •

وقد اتخذ السلطان بديع الزمان ميرزا خواندمير وزيرا له بعد وفاة والده السلطان حسين ميرزا بايقرا واقتسامه السلطنة هو وشقيقه مظفر حسين ميرزا كما يصرح بذلك خواندمير نفسه عند حديثه عن توزيع مناصب كل من السلطانين الأخوين فيقول : « وصدارت بديع الزمان ميرزا بقاعدة مستمرة بمسود أوراق ومولانا غياث الدين جمشيد جلالى تعلق كرفت » (٣) •

وترجمة هذه الجملة : « وقد أسند منصب صدارة بديع الزمان ميرزا ـ كما هو متبع ـ الى محرر هذه الأوراق بالاشتراك مع مولانا غياث الدين جمشيد جلالى •

ظل خواندمير ملازما للسلطان بديع الزمان ميرزا منذ أن عينه وزيرا له وحتى آخر أيام حياة هذا الأمير ، وكان رفيقه فى جميع أسفاره كما كان الأمير يكن له كثيرا من الاحترام ، ويعتبره حافظ أسراره • وكان يقص عليه تفاصيل حروبه

---

(١) رجال كتاب حبيب السير/نوائى ص (يا) من المقدمة •

(٢) كتاب « تحفهٔ سامى » : وهذا الكتاب يتضمن ترجمة لأحوال الشعراء على نمط كتب التذاكر ، وضعه سام ميرزا بن الشــاه اسماعيل الصفوى الأول المولود فى عام ٩٢٣ هـ والمتوفى عام ٩٦٩ هـ • ويضم كتاب تحفه سـامى ترجمة لأحـوال ما يقرب من سبعمائة شــاعر ، بعضهم من المعاصرين للمؤلف والبعض الآخر من القريبين الى عهده ، وقد طبع هذا الكتاب المرحوم وحيد دستكردى فى طهران عام ١٣١٤ هـ ش •

(أنظر براون : تاريخ الأدب فى ايران جـ ٣ حاشية ١ ص ٤٩٥ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش) •

(٣) حبيب السير/خواندمير ـ المجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٥٢ بمباى •

وفتوحاته وحتى هزائمه ، وقليلا ما كان يخفى عنه بعض الأمور • وسوف نوضح ذلك عند الحديث عن الحياة السياسية لخواندمير فى الفصل القادم •

وهكذا نرى أن خواندمير حينما يؤرخ أخبار هذه الفترة يكون كلامه كلام المشاهد الخبير الواقف على بواطن الأمور •

٣ ـ محمد زمان ميرزا

بعد وفاة بديع الزمان ميرزا التحق خواندمير بخدمة أكبر أبنائه محمد زمان ميرزا التافه الشأن (١) وربط مصيره بمصيره مدة من الزمن فى بلخ وغيرها • ومحمد زمان ميرزا هو آخر أعقاب الأسرة التيمورية فى ايران •

والفضل الوحيد الذى يمكن أن يؤخذ من سيرته ذلك الذى حدث بسببه ، وهو لما يزل فى الأيام الأولى لمولده • فعندما هزم والده بديع الزمان ميرزا فى عام ٩٠٢ هـ (١٤٩٦ م) ـ الذى كان خارجا على والده السلطان حسين ميرزا بايقرا ـ حاصر جيش السلطان حسين بايقرا مدينة بلخ • وقد دافع عنها الأمير نظام الدين شيخ على قائد جيش بديع الزمان ميرزا دفاعا مريرا ، ولكنه بعد فترة من الحصار ظهرت آثار القحط فى المدينة ، وأخذ يفكر الأمير نظام الدين فى وسيلة يستطيع بها انقاذ المدينة وتسليمها دون تخريب • وفى هذه الأثناء حدثت ولادة محمد زمان ميرزا فأرسله نظام الدين ملفوفا فى قماط الى جده السلطان حسين ميرزا بقصد التشفع به • وقد نجحت بالفعل الفكرة وتم بهذه الطريقة انقاذ المدينة من عبث جنود السلطان حسين بايقرا (٢) • وبعد هزيمة والده بديع الزمان ميرزا فى « مرل » على يد الشيبانى ، توجه محمد زمان ميرزا معه الى جرجان ثم لجأ الاثنان بعد ذلك الى الشاه اسماعيل الصفوى وبقيا عنده حتى عام ٩٢٠ هـ • وبعد ذلك اضطر الى اللجوء الى ظهير الدين بابر فى عام ٩٢٣ هـ (١٥١٦ م) • وبعد وفاة بابر أصبح محمد زمان ميرزا عدوا لابنه همايون الذى قضى عليه فى عام ٩٤٦ هـ حينما علم بخيانته •

(١) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٩ ص ٢٥ •

(٢) رجال كتاب حبيب السير/نوائى ص (يب) •

٤ - ظهير الدين محمد بابر ميرزا (١)

ولد بابر فاتح الهند المغولى من سلالة تيمورلنك وجنكيز خان في عام ٨٨٨هـ (١٤٨٢ م) في فرغانة التي كان يحكمها والده • وبعد أن طرد على يد الازبك عام ٩١٠ (١٥٠٤ م) ، عزم على اخضاع آفغانستان ، فاستولى على كابول وأخضع قندهار عام ٩١٣ هـ (١٥٠٩ م) • وهناك كثر أتباعه وعظم شأنه ، ففكر في غزو بلاد البنجاب التي كان قد فتحها تيمور منذ مائة سنة وسبع سنين • وقد استطاع بابر أن يجمع جيشا كبيرا زوده بالعتاد اللازم ، ولما آنس في نفسه القوة سار على رأس رجاله من التركمان ونزل في بلاد البنجاب ، وكانت بلاد الهند في ذلك الوقت منقسمة على نفسها وكان أهلها على تمام الاستعداد للترحيب بأى غاز يكفل لبلادهم السلامة والطمأنينة ، ويقر في ربوعها الأمن والنظام ، فسرعان ما احتـل بابر لاهور عام ٩٢٩ هـ (١٥٢٥ م) ، ووضع أسـاس دولة مغولية اسـلامية نسبت اليه •

وفى عام ٩٣٠ هـ (١٥٢٦ م) هزم بابر جيش ابراهيم لودى وآخر سلاطين أسرة لودى (٨٥٥ - ٩٣٠ هـ ، ١٤٥١ - ١٥٢٦ م) وسلطان دهلى هزيمة منكرة عند مدينة « بانيبات » ، وسرعان ما وصلت جيوش بابر مدينتي دلهى وأكره وأخضع شمال بلاد الهند ، وبذلك امتدت فتوحات بابر من نهر السند الى حدود البنغال ، وتلقب بلقب «امبراطور بلاد الهند» • وقد استمر حكم هذه الامبراطورية الاسلامية في أسرة بابر الى عام ١٢٧٥ هـ (١٨٥٩ م) حيث أصبحت الهند بعدها مستعمرة انجليزية •

ومما يجدر ذكره أن بابر كان هو أيضا شاعرا أديبا مفكرا فديوان شعره المنظوم باللغتين الفـارسية والتركية معروف ومشهور كمـا أن كتابه المسـمى بـ « واقعات بابرى » الذى سجل فيه انتصاراته وفتوحاته قد حاز شهرة فائقة في جميع أنحاء العالم ، كذلك أنشأ بابر خطا جديدا سمي باسمه ، ووضع كتابا فى الفقه الحنفي وعدة رسائل في العروض أيضـا ، يقول أحمـد بداونى فى كتابه « منتخب (٢) التواريخ » في هذا الخصوص : واز جملهٔ غرايب اختراعات آن شاه

---

(١) (أ) حبيب السير/خواندمير - المجلد الثالث •

(ب) مجلة كلية آداب القاهرة - المجلد السابع عام ١٩٤٤ م من مقال للدكتور حسين ابراهيم عن الدولة التيمورية فى الهند •

(جـ) رجال كتاب حبيب السير /: نوائى •

(د) منتخب التواريخ/عبد القادر بداونى - المجلد الأول - باريس •

(هـ) تاريخ المسلمين فى شـبه القارة الهند وباكستانية وحضاراتهم ، د/السـاداتى ص ٢٣٣ - ٢٨٤ ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م القاهرة •

(٢) منتخب التواريخ : المجلد الأول ص ٣٤٣ - باريس •

مغفرت بناهى خط بابربست كه مصحفى بدان خط نوشته وبكمه معظمة فرستاده وديوان شـعر تركى وفارسى أو مشهوراست وكتـابى دارد درفقه حنفى ... ... ورسايل عروض أونيز متداول است » . وترجمتها : « ومن بين غرائب اختراعات ذلك الملك ـ ملجأ المغفرة ـ الخط البابرى الذى نسخ به مصحفا ، وأرسله الى مكة المكرمة كما أن ديوان شعره المكتوب باللغتين الفارسية والتركية معروف ومشهور ، وله أيضا كتاب فى الفقه الحنفى ... ورسائل فى العروض متداولة كذلك بين الناس » .

وقد شاءت الأقدار أن يفكر خواندمير فى السفر الى الهند فسافر من هراة الى قندهار فى عام ٩٣٣ هـ (١٥٢٧ م) . وفى الثانى من جمادى الثانية عام ٩٣٤ هـ بدأ رحلته الى الهند ، ولكنه نظرا لسوء الأحوال الجوية وشدة الحرارة فقد استغرقت الرحلة سبعة أشهر وصل بعدها فى اليوم الرابع من المحرم عام ٩٣٥ هـ الى أكره ، ووجد مكانه فى بلاط ظهير الدين بابر امبراطور الهند . وكان وصول خواندمير الى بلاط بابر فى اليوم الثامن من شهر ربيع الأول عام ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م) الذى يوافق اليوم الذى شفى فيه بابر من مرض شديد كان قد ألم به ، ولذلك فانه كان قد أعد فى ذلك اليوم حفلا رائعا شهده خواندمير كما يصرح بذلك بابر نفسه فى كتابه « واقعات بابرى » فيقول انه « أقام فى الثامن من شهر ربيع الأول عام ٩٣٥ حفلا ملكيا فى حديقة غناء حضرها رسل البلاد وأمراء الأقطار ، من بينهم خواندمير المؤرخ ومؤلف كتاب « حبيب السير » ومولانا شهاب الدين معمائى ، وميرزا ابراهيم القانونى الذين كانوا قد جاءوا من هراة ، ولم نجد شبيها ولا نظيرا لأحـــدهم فى فنه ، وفى ذلك اليـوم بلغوا الذروة ونالوا الحظوة وصاروا من المقربين » (١) .

وقد مرض خواندمير فى الهند بسبب سوء الأحوال الجوية . وبعد أن شفى من مرضه صحب بابر الى بنكاله وكتب عنه (٢) أدق ما كتب فى كتابه « حبيب السير » بحيث أصبح هـذا الجزء المتعلق ببابر فى هـذا الكتاب مرجعا لكل من يتناولون بابر بالدراسة .

وبعد أن حقق بابر كل هذه الانتصارات فى بلاد الهند بفترة قصيرة ، ألم به المرض وانتقل الى رحمة الله فى عام ٩٣٧ هـ (١٥٣٠ م) . يذكر عبد القادر بدوانى صاحب كتاب « منتخب التواريخ » ، مسجلا وفاة بابر فيقول : (٣)

« وبعد از اين فتح باندك فرصتى عارضهٔ بيمارى برذات آن بادشاه غازى طارى شد وبعد از آنكه سن شريفش به بنجاه سال رسيده بود درسنهٔ سبع وثلاثين وتسعماية (٩٣٧) از عالم فانى بملك جاودانى انتقال فرمود .....

(١) مقدمة دستور الوزراء / بقلم سعيد نفيس ص (ه) .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية جـ٩ ص ٢٦ .

(٣) المجلد الأولى ، ص ٣٤٣ ، باريس .

ومدت سلطنت أوجه در ولايت ماور النهر وبدخشان وكابل وكاشغر وجه درهند وستيان سي وهشت سال بود ودرسن دوازده سالكي بدرجه سلطنت رسيده بود » .

وترجمتها : « وبعد هذه الفتوحات بفترة قصيرة ، ألم المرض بذلك الامبراطور الغازي وانتقل ــ بعد أن بلغ من العمر خمسين عاما ــ من دنيا الفناء الى دنيا الخلود ، وذلك في عام سبع وثلاثين وتسعمائة ... وكانت فترة حكمه سواء في بلاد ما وراء النهر وبدخشان وكابل وكاشغر أو في بلاد الهند ثمانية وثلاثين عاما حيث كان قد اعتلى السلطنة وهو في الثانية عشرة من عمره » .

وقد تم نقل جثمان بابر بعد ذلك من بلاد الهند الى كابل ، ودفن بربوة تطل على هذه المدينة التي كانت أحب بقاع الدنيا الى قلبه (١) .

٥ ــ نصير الدين محمد همايون بن ظهير الدين بابر (٢)

٩٣٧ ــ ٩٦٣ هـ (١٥٣٠ ــ ١٥٥٦ م)

وقد خلف والده ظهير الدين بابر في حكم الهند ، وكان وقتها في التاسعة عشرة من عمره . ولم يكن همايون أقل جرأة وشجاعة من أسلافه التيموريين ، وهو الذي شارك أباه أغلب حروبه ، وترسم خطاه في التجمل بالصبر واحتمال الشدائد . ولكن همايون لم يوفق في فتوحاته ، وأرغم على العودة الى ايران ، ولم يتمكن من استعادة امبراطوريته الا بعد خمسة عشر عاما حيث طلب مساعدة الملك الصفوي الشاه طهاسب الذي أمده بقوة من الـ « قزل باش » . وبذلك استطاع استعادة سلطنته التي ورثها عن أبيه .

وفي عام ٩٦٣ هـ (١٥٥٦ م) سقط ذلك الامبراطور من على السطح وتوفي ، وخلفه ابنه « أكبر خان » الذي أصبح أعظم امبراطور مغولي في الهند .

وكان همايون ماهرا في علم الهندسة والرياضيات كما كانت له خبرة بفنون الشعر والأدب . وقد التحق خواندمير بخدمته بعد وفاة ظهير الدين بابر في عام ٩٣٧ هـ وكتب باسمه كتابا بعنوان « همايون نامه » أو « قانون همايون » وهو عبارة عن مدائح لهمايون وكذلك القوانين التي وضعها همايون ، وسجل بآثاره

---

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، د/الساداتي ، ص ٢٦٩ ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م القاهرة .

(٢) (أ) منتخب التواريخ ، عبد القادر بداوني ، جـ ١ ، باريس .

(ب) مجلة آداب القاهرة عام ١٩٤٤ م ، مقالة « حسن ابراهيم » .

(جـ) رجال كتاب حبيب السير ، نوائي .

(د) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، د/أحمد الساداتي ٢٨٥ ــ ٣٠٠ ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ م ، القاهرة .

وعمائره • ويعد هذا الكتاب أفضل الوثائق عن سيرة ذلك الامبراطور • وقد ظل خواندمير بقية عمره ملازما للامبراطور همايون وصحبه فى حملته على كجرات وتوفى بعد عودة الحملة فى عام ٩٤٢ هـ •

٦ ـ الأمير نظام الدين عليشير نوائى (١)

وهو من الأمراء الأتراك ، وقد عكف على تحصيل العلوم المتداولة فى عصره كالفلك والطب والشعر والنثر • وأثناء حكم السلطان أبى سعيد كوركان توجه ذلك الأمير الى هراة ، وقضى بضعة أيام فى الخدمة ببلاط ذلك السلطان ثم ترك خراسان بعدها ـ لأنه لم يجد الحظوة فى بلاط أبى سعيد ـ وتوجه الى سمرقند وأقام بخانقاه خواجه جلال الدين فضل الله أبى الليثى مشتغلا بالقراءة والاطلاع ، كما كان يختلط أحيانا ـ فى تلك الفترة ـ بالأمير درويش محمد خان وبالأمير أحمد حاجى الذى كان صاحب الأمر والنهى فى شئون بلاد ما وراء النهر •

وبعد استيلاء السلطان حسين بايقرا على مدينة هراة استأذن الأمير عليشير من الأمير أحمد حاجى ، وتوجه الى هراة والتحق بخدمة السلطان حسين بايقرا ، ووجد لديه الحظوة ، وأصبح من المقربين اليه • وبعد أن وقف السلطان حسين بايقرا على سلامة نفس ذلك الأمير وشاعريته الصافية واخلاصه ، خاصة وأن ذلك السلطان كان يعشق العلم والعلماء ، أعلى من مكانة ذلك الأمير ، وأوكل اليه التصرف فى جميع شئون السلطنة • يقول خواندمير فى كتابه حبيب (٢) السير عن الأمير عليشير أثناء التحاقه بخدمة السلطان حسين بايقرا وكان ذلك فى أيام عيد الفطر المبارك : « ودر روز عيد از نتايج طبع نقاد قصيدة هلاليه كه هربيت از آن رشك لؤلؤ آبدار وغيرت جواهر شاهوار بود نثار بزم همايون فرمود واين معنى موجب ازدياد اعتقاد خاقان عدالت نهاد كشت وروز بروز اعتبار واقتدار أمير فضيلت شعار درخدمت آن بادشاه كامكار زياده ميشد تاكار بجائى رسيدكه سر انجام تمام عظايم أمور جمهور نزديك ودوربراى صوابنمايش تفويض يافت » •

وترجمتها : « وقد ألقى الأمير فى الحفل السلطانى فى يوم العيد قصيدة هلالية ـ كان كل بيت منها تحسده اللآلىء النقية وتغار منه الجواهر الملكية ـ فقوى هذا الموقف من ثقة السلطان العادل به • وأخذت مكانة الأمير الفاضل تعلو يوما بعد يوم فى بلاط ذلك السلطان السعيد الى أن وصل الأمر لدرجة أن أنيط به التصرف برأيه الصائب فى جميع عظائم أمور الرعية القريب منها والبعيد » •

---

(١) (أ) خواندمير : حبيب السير ـ المجلد ٣ جـ ٣ ص ٣١٧ بمباى •
(ب) بهار : سبك شناسى جـ ٣ ص ٢٠٩ •
(جـ) خواندمير : دستور الوزراء ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ •
(د) نوائى : رجال كتاب حبيب السير ـ المقدمة ص (٤٠) •
(٢) المجلد الثالث جـ ٣ ص ٣١٧ طبعة بمباى •

وقد لقب السلطان حسين بايقرا ذلك الأمير الفاضل بلقب « مقرب الحضرة السلطانية » ولم يعرف طوال فترة حكم السلطان حسين أن لقي أمير أو وزير مالقيه ذلك الامير في بلاطه او حظي بمثل ما حظي • وقد اصبح مجلس الامير عليشير نوائي مملوءا بالفضلاء والعلماء والفقهاء ، ففتح لهم صدره وأفسح لهم مجلسه وأسبغ عليهم نعمه فعرفت ايران من ابنائها خيرة من عرفتهم في مجلس ذلك الأمير وبلاط سلطانه ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الصوفي العظيم مولانا عبد الرحمن الجامي (١) والرسام او المصور الشهير كمال الدين (٢) بهزاد والمؤرخ الكبير ميرخواند (٣) وحفيده المؤرخ خواندمير •

وقد أعجب بذلك الامير مؤرخنا خواندمير ولقي عنده من الحظوة والمكانة الكثير لدرجه أن الامير قد ترك لخواندمير مكتبته الخاصة ينهل منها ما وسعه حتى أخرج كتابه « خلاصه الأخبار » في ستة أشهر وقدمه للأمير ، كما خصص أحد مؤلفاته للحديث عن عظمة ذلك الامير وكرم أخلاقه وهو ما أسماه «مكارم الاخلاق» الذي سنفصل القول عنه في الفصل الثالث عند الحديث عن مؤلفات خواندمير •

يضاف الى ذلك أن خواندمير كان دائما ما يذكر ذلك الأمير بالخير في ثنايا مؤلفاته الأخرى ، ويثني عليه ، ويوضح مكانته ومنزلته في بلاط السلطان حسين بايقرا ، فيذكر مثلا في كتابه دستور (٤) الوزراء ـ أثناء حديثه عن الوزير قوام الدين نظام الملك الخوافي ـ قصة سمعها بنفسه من الأمير عليشير نوائي فيقول : « راقم اين كلمات دلپذير از لفظ كوهر بار آن اميرصافي ضمير چنين استماع نموده كه : در آن اوان كه كيفيت رنجش خاطر من از خواجه نظام الملك نزد حضرت أعلى بوضوح پيوست روزى آن حضرت با من خلوت كرده پرسيدكه : تقرب شمانزد من بيشتراست يا از مجد (٥) الدين محمد بيشتر بود • من از جواب اين سخن اعراض نموده ، آن حضرت سؤال راتكرار فرمود ، آنكاه بمعرض رسانيدم كه : مجد الدين محمد را زهره وياراى آن نبود كه بامن برابرى تواند كرد زيراكه شما فرمان داده ايدكه منشيان دركاه عالم پناه در مناشير همايون مرا مقرب الحضرت السلطانى مى نويسند وأولاد أمجاد شماكه درى برج سلطنت ودر درج خلافت اند بتعظيم من قيام مينما يند • ومجد الدين محمد از أمثال اين مواهب وعطايا بهره نداشت !! سلطان صاحب شوكت فرمود كه : يا آنكه مجد الدين محمد درين آستان نسبت بشما بى اعتبار بود ونوبتى من بجهت سعايت أو نظام الملك رامقيد كرده ، فرمودم تا اورا مدتى شكنجه وتعذيب

---

(١) خواندمير : حبيب السير ـ المجلد الثالث جـ ٣ ص ٣٣٧ بمباوى •

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٠ بمباى •

(٣) المرجع السابق ص ٣٣٩ بمباى •

(٤) ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ طهران •

(٥) وكان من أعظم وزراء السلطان حسين بايقرا ـ انظر دستور الوزراء ص ٤٠٠

فرمودند واكنون مى شنوم كه بعنايت من اميد وار كشته باشما طريق مخالفت ومعادات سلوك مى دارد اكر شـــما راضى مى شويد مى فرمايم كه : همين لحظة اوراكرفته حبس مى نمايند · من بعرض رسانيدم كه : در ايام دولت ابد پيوند هركس نسبت بمن بدى انديشيد بسزاى خودرسيد ومى دانم كه نظام الملك نيز ببليه أى كرفتار خواهد شد اما نميخواهم كه سبب ابتلاى أو من باشم » ·

وترجمتها : « ولقـد استمع كاتب هذه الكلمـات الشيقة من ذلك الأمير المخلص ما يلي : في الوقت الذى وضع فيه للسلطان حقيقة غضبى من الوزير نظام الملك ، انفرد بى ذات يوم وسألنى بقوله : هل تعتقد أن قربك منى أكثر أم كان قرب مجد الدين محمد ؟ فأعرضت عن الاجابة على هذا السؤال ، وكرر السلطان سؤاله ، وحينئذ قلت له : ان مجد الدين محمد لم تكن له السلطة والصداقة التى تؤهله للمقارنة بى لأنك قد أمرت بأن يكتب كتاب البلاط السلطانى أسمى فى الأوامر السلطانية بلقب « مقرب الحضرة السلطانية » ، كما أن أولادكم الأمجاد درر عرش السلطنة والخلافة يقدمون لى واجبات التبجيل والاحترام ، ولم يكن لمجد الدين محمد حظ من مثل هذه النعم والعطايا ، فقال السلطان المهيب : رغم أن مجد الدين محمد لم يكن له فى هذا البلاط أى اعتبار بالنسبة لك الا أننى أصدرت بسببه أمرى بالقبض على نظام الملك وأمرت بتعذيبه ، والآن أسمع أن نظام الملك بات مغرورا بعنايتى له ، ويسلك معك سبيل المخالفة والمعاداة ! فلو أنك ترضى فانى آمر فى هذه اللحظة بالقبض عليه وايداعه السجن ، فقلت له : ان كل من أضمر لى سوءا فى ظل دولتكم الخالدة نال جزاءه ، وانى لعلى يقين من أن نظام الملك سوف يبتلى بمصيبة أيضا ، ولكننى لا أحب أن أكون أنا السبب فى ابتلائه » ·

وهكذا يتضح لنا مما ذكره خواندمير مقدار مكانة الأمير نظام الدين عليشير نوائى فى بلاط السلطان حسين بايقرا كما تتضح لنا عظمة ذلك الأمير وترفعه عن الايذاء حتى مع أعدائه والحاقدين عليه أمثال الوزير نظام الملك الخوافى موضوع القصة السابقة أيضا · وقد حاز أيضا الأمير نظام الدين عليشير نوائى شهرة فائقة فى مجال البر والتقوى والخير وتشجيع العلماء والأدباء حيث كان هو نفسـه شاعرا ملهما وكاتبا مبرزا وله مؤلفات باللغة التركية الجغتائية وبالفارسية أهمها ديوان شعر باللغتين التركية والفارسية ومنظومته « خمسة المتحيرين » التى نظمها مجيبا على « خمسة (١) نظامى » باللغة التركية (٢) الجغتائية وكتابه

---

(١) ونقصد نظامى الكنجوى المولود عام ٥٣٥ هـ الذى نظم خمس مثنويات تعرف باسم « الخمسة » أو « بنج كنج » بمعنى الكنوز الخمسة · انظر : (أ) كتاب « تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى » تأليف براون ، ترجمة المرحوم الأستاذ الدكتور الشـــوادبى ص ٥٠٦ ·

(ب) · كتاب «نظامى الكنجوى شاعر الفضيلة » للأستاذ الدكتور / عبد النعيم حسنين ·

(٢) « سبك شناسى » لملك الشعراء بهار جـ٣ ص ٢١٠ ·

« مجالس النفائس(١) » وغيرها . وتوفى الأمير عليشير نوائى فى هراة فى الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ ودفن بها .

---

(١) كتاب مجالس النفائس : ألفه الأمير نظام الدين عليشير نوائى فى عام ٨٩٦ هـ باللغة التركية الجغتائية أو التركية الشرقية ، والكتاب عبارة عن فهرست مختصر لأحوال الشعراء والفضلاء الذين عاشوا فى القرن التاسع الهجرى فى ايران ومن بين هؤلاء سلاطين وأمراء ووزراء وعلماء ومشايخ صوفية وقضاة وطلاب علم وغيرهم. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر السلطان تيمور خان وابنه شاهرخ والسلطان حسين ميرزا بايقر وابنه بديع الزمان ميرزا ومولانا نور الدين عبد الرحمن الجامى والأمير قاسم الأنوار ومولانا شرف الدين على اليزدى . وقد بلغ عدد الشخصيات التى تناولها الكتاب حوالى ٣٨٥ شخصية تقريبا ـ حسب ما جاء فى معظم النسخ ـ موزعة على ثمانية مجالس . والكتاب ترجم الى اللغة الفارسية ثلاث مرات ، الترجمة الأولى ، وقام بها مولانا فخرى هراتى عام ٩٢٨ هـ ـ حسب أرجح الأقوال والمسماة بـ « لطائف نامه » وقد أضاف فخرى هراتى على النص الأصلى لمجالس النفائس فصلا بعنوان « المجلس التاسع » ، تحدث فيه عن ١٨٩ شاعرا ومتحدثا لم يذكرهم الأمير عليشير بين مجالس الكتاب الثمانية .

والترجمة الثانية قام بها محمد بن مبارك القزوينى طبيب السلطان سليم خان العثمانى ـ عام ٩٢٩ هـ فى استانبول ، وقد تصرف القزوينى أيضا فى النص الأصلى حيث أدمج المجلس الثامن فى المجلس السابع وجعل الكتاب الأصلى سبعة مجالس فقط ثم أضاف هو من عنده المجلس الثامن ، تحدث فيه عن الشعراء السابقين على عصر السلطان سليم كما تحدث عن السلطان سليم نفسه والشعراء الذين عاشوا فى بلاطه . وهاتان الترجمتان قام بتصحيحهما ونشرهما الأستاذ على أصغر حكمت فى طهران عام ١٣٢٣ هـ ش بعنوان « مجالس النفائس » تأليف الأمير نظام الدين عليشير نوائى . والترجمة الثالثة قام بها شخص يدعى شاه على بن عبد العلى فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى تقريبا ، وهذه الترجمة تشتمل على سبعة مجالس من المجالس الثمانية الموجودة فى الأصل ، وقد ضاع منها نصف المجلس السابع وأصبح هذا المجلس ينتهى بالحديث عن ميرزا الغ بيك .

وتتركز أهمية كتاب مجالس النفائس فى كونه صورة حقيقية كاملة للأدب الفارسى فى القرن التاسع الهجرى وعن الحياة السياسية والاجتماعية فى تلك الفترة . وبالنسبة للأدب التركى يعتبر هذا الكتاب فى نصه الأصلى أثرا نفيسا من آثار اللغة التركية الفصحى ودليلا قويا على مدى انتشارها بين السلاطين والأمراء التيموريين فى ايران فى ذلك الزمن البعيد .

(براون . تاريخ الأدب فى ايران جـ ٣ ص ٤٩٣ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ . ـ ١٩٤٨ م ، عليشير نوائى ، مجالس النفائس ، طهران ١٣٢٣ هـ ش .)

٧ ـ الأمير غياث الدين محمد بن الأمير يوسف الحسيني (١)

وهو من أكابر سادات وقضاة خراسان يمتد نسبه كما ذكر خواندمير نفسه فى كتابه « حبيب السير » الى الحسين الأصغر بن الامام زين العابدين على بن الحسين عليهم السلام • وقد أصبحت جميع شئون خراسان وخاصة هراة تسير بفضل كفاءته وتدبيره • وعندما حاصر عبيد الله خان الأزبكى هراة عام ٩٢٧ هـ ، قدم القاضى غياث الدين هذا خدمات جليلة لأهالى هراة وكان لتصرفاته المتزنة أثر كبير فى رفع هذا الحصار عن هراة وتخلص أهلها من هذه الكارثة •

ولكن الأمير غياث الدين بعد هذه الحادثة قتل على أيدى الأعداء الداخليين ، وعلى رأسهم الأمير خان حاكم هراة ، والذين كانوا يريدون استمرار الاضطرابات والقلاقل ليتمكنوا من تحقيق مطامعهم فى السلب والنهب ، وقد فوت الأمير غيـاث الدين عليهم تلك الفرصة • وكانت حادثة مقتل غيـاث الدين فى يوم الأربعاء السابع من شهر رجب عام ٩٢٧ هـ ، وكان خواندمير قد بدأ فى أوائل عام ٩٢٧ هـ فى تأليف كتابه « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » بتشجيع من الأمير غياث الدين هذا • وبعد أن وضع الفصل الأول من المجلد الأول من الكتاب تقريبا ، حدثت تلك الواقعة الأليمة للأمير غياث الدين ، فكانت السبب فى توقف خواندمير عن مواصلة تأليف الكتاب الى أن أرسل الشاه اسماعيل الصفوى حاكما آخر على خراسان وهو « أبو المنصور دورميش خان » الذى أعاد الأمن والاستقرار الى هراة ، فواصل خواندمير مرة أخرى تأليف كتابه بتشجيع من « كريم الدين حبيب الله الساوجى » وزير دورميش خان بعد أن بذل جهدا كبيرا من أجل رفع أحزان خواندمير وآلامه بسبب مقتل مشجعه السابق الأمير غياث الدين •

---

(١) (أ) كتاب « حبيب السـير » خواندمير ـ المجلد الأول ص ٤ ، ٥ ، ٦ من مقدمة خواندمير ، طهران •

(ب) المرجع السابق/مقدمة جلال الدين همائى ص ١٢ ، ١٣ •

(ج) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى ص ٢٣٥ ـ ٢٤٠ •

٨ ـ الوزير كريم الدين حبيب الله الساوجي (١)

عرفنا أن خواندمير قد توقف عن تأليف كتابه « حبيب السير » بعد أن وضع الفصل الأول من المجلد الأول من الكتاب تقريبا وذلك بسبب أوضاع هراة وحصار عبيد الله خان الأزبكي لها ومقتل القاضي غياث الدين الذي شجع خواندمير على القيام بهذا العمل على يد حاكم هراة وأعوانه • فبعد مقتل غياث الدين استدعى الشاه اسماعيل الصفوى الأمير خان من خراسان وعين أبا المنصور دورميش خان حاكما جديدا على خراسان ، فاختار دورميش خان كريم الدين حبيب الله الساوجي وزيرا له ، وجاء حبيب الله الى مدينة هراة في يوم الأحد السادس من شهر صفر عام ٩٢٨ هـ بعد أن وكل اليه دورميش خان مهمة التصرف بحرية واستقلال في شئون خراسان وخاصة هراة • وقد بدأ حبيب الله في اليوم التالي لوصوله هراة يتصل بالعلماء والفضلاء ، وأطلعهم على التغيرات الجديدة ، ثم عمل ذلك الوزير على رعاية أهل العلم والأدب ورد الحقوق الى أصحابها وانصاف المظلومين وتوفير الأمن والطمأنينة للجميع •

ومنذ أن جاء ذلك الوزير الى هراة ، توطدت علاقته بكبار رجال هراة وأرباب الفضل والأدب بها وشجع خواندمير على مواصلة تأليف كتابه ورفع عنه الملل والسأم بكرمه وأفضاله كما يذكر خواندمير نفسه في تقديمه لكتابه • ونظرا لانجاز خواندمير القدر الأكبر من هذا الكتاب تحت رعاية ذلك الوزير واعترافا من خواندمير بفضله عليه فقد جعل اسم هذا المؤلف مستمدا من اسم ذلك الوزير حيث جعله « حبيب السير في أخبار أفراد البشر » بعد أن أنهاه في ربيع الأول عام ٩٣٠ هـ الموافق ١٥٢٤ م •

وقد ظلت مكانة حبيب الله الساوجي واستقلاله بتدبير شئون خراسان حتى وفاة درويميش خان في عام ٩٣١ هـ ، وبعد ذلك جاء في نفس العام حسين خان حاكما على خراسان من قبل طهماسب الصفوى وكانت أحوال تلك البلاد قد ساءت في هذه الأوقات وسادها القحط بسبب كثرة اعتداءات الأزبك ، وخلال تلك الظروف قتل الوزير حبيب الله على يد أحد أفراد قبيلة شاملو بعد أن حاصروا بيته وقتلوا ابنه • وهكذا كان الجو الذي عاش فيه خواندمير وكانت تلك الشخصيات التي تعامل معها وعاش بينها عن قرب • هذا غير أمثاله وأقرانه من الفضلاء وخاصة الذين ذخر بهم بلاط السلطان حسين بايقرا وابنه بديع الزمان ميرزا ومجالس مقرب الحضرة السلطانية الأمير نظام الدين عليشير نوائي في ايران ، وبلاط الامبراطور ظهير الدين بابر وابنه همايون في الهند •

---

(١) (أ) خواندمير حبيب السير ـ مقدمة جلال الدين همائى ص ١٣ •

(ب) عبد الحسين نوائي : رجال كتاب حبيب السير ص (ريج) من المقدمة •

الفصل الثانى

خواندمير

(ترجمته وأسرته ، فترة نضجه وحياته السياسية)

اسمه ولقبه :

ليس هناك اختلاف فى اسم ولقب خواندمير لأنه ذكر هو نفسه اسمه وكنيته صراحة فى كتابيه دستور الوزراء وحبيب السير ، فذكره فى دستور الوزراء (١) « غياث الدين بن همام الدين الملقب بخواندمير » كما ذكره فى حبيب(٢) السير « غياث الدين بن همام الدين الحسينى المدعو بخواندمير » ، ولقبه يكتب أحيانا ب « خواندامير أو خواندمير أو خوندامير أو خوندمير » (٣) •

مولده :

هناك اختلاف فى العام الذى ولد فيه خواندمير ولكنه يبدو أنه ولد فى عام ٨٨٠ أو ٨٨١ هـ وذلك استنتاجا من العبارة التى قالها خواندمير نفسه فى مقدمة كتابه « حبيب السير(٤) » حيث يقول فى بداية عام ٩٢٧ هـ عن نفسه عندما أخذ يهم بالبدء فى وضع هذا الكتاب : « از مبادى سن رشد وتميز تا غايت كه سنين عمر عزيزاز حدودأربعين‌هفت هشت مرحله تجاوزكرده همواره بتصحيح روايات أحوال سابقة وتنقيح حكايات آثار لاحقة مايل وراغب ميشود » •

وترجمتها : « ومنذ بلوغه سن الرشد وهو يهوى دائما الاشتغال بتصحيح الروايات السابقة وتنقيح الحكايات اللاحقة الى أن تجاوزت سنين عمره العزيز الآن السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين » •

---

(١) مقدمة خواندمير ص ٧ •

(٢) مقدمة خواندمير ص ٤ •

(٣) مقدمة دستور الوزراء/خواندمير بقلم سعيد نفيسي ص (١) •

(٤) مقدمة خواندمير ص ٤ •

فاذا طرحنا هذه السنوات من عام ٩٢٧ هـ ـ تاريخ بدء العمل فى الكتاب ـ يكون عام ولادته بين عامى ٨٨٠ ، ٨٨١ هـ ، وهذا هو الأرجح بين الجميع ، كما أن ولادته قد حدثت بمدينة هراة لأن أسرة والدته كانت من أهل هراة ولم يعرف قط أن هذه الأسرة قد انتقلت من هراة الى مكان آخر لا فى مؤلفات خواندمير ولا عند غيره من المؤلفين •

موطنـــه (١) :

كانت ولادة خواندمير كما ذكرنا فى مدينة هراة ، حيث نما وترعرع وحصل علومه كلها فيها ، ومن حسن حظ هذا المؤرخ أن هراة فى تلك الفترة كانت فى أوج مجدها وعظمتها بين مدن ايران بل مدن المشرق كله ، ومن المعروف أن هراة كانت من أكثر البلاد عمرانا أيام السلالة الكوشانية ولكنها زادت عمرانا وازدهارا فى عهد الدولة الغزنية • وكانت دائما ذات أهمية استراتيجية وتجارية ، وبعد أن فتحها تيمور لنك فى عام ٧٨٢ هـ نهضت نهضة علمية وفنية رائعة ، وجعلها ابنه شاهرخ عاصمة له ، وكان من أكثر السـلاطين الذين حكموا ايران ثقافة ، فجعلها المركز الثقافى لوسط آسيا وازداد الرخاء فى هراة فى ظل حكمه الرشيد وعلت مكانة المهندسين المعماريين والرسامين والشعراء والعلماء •

وفى عهد السلطان حسين بايقرا ووزيره الشاعر نظام الدين عليشير نوائى كانت هراة من أعظم مدن الشرق وأشهرها تمدنا ونهضة فى العلم والأدب والفن ، فظهر منها كثير من العلماء والفنانين والشعراء والمؤرخين أمثال مولانا عبد الرحمن الجامى وهاتفى وبهزاد وياری وسلطان على وميرخواند وخواندمير وغيرهم ، رفعوا جميعا راية العلم والفن عالية فى بلدهم •

وهراة لا تزال حتى الآن تحتفظ بتراثها القديم ، ويكثر فيها العلماء والأدباء والشعراء والفنانون • وبهراة أيضا مساجد وآثار اسلامية مزدانة بأجمل الزينة والزخرفة على الطـراز الهروى البديع ، فأهـل هراة بطبيعتهم يميلون الى الفن والأدب ، وهم قوم أشداء فارعو القوام عذبو الكلام كريمو الأخلاق • وهكذا كانت الحياة التى نشأ فيها مؤرخنا وكان الموطن الذى تربى وتعلم فيه ، وظهر أثر هذه الحياة وفضل هذا الموطن عليه ، وعبر عن تلك الحياة وسجلها فى انتـاجه أفضل تسجيل •

---

(١) (آ) أبو العينين فهمى محمد ، أفغانستان بين الأمس واليوم ، ص ٢٦٣ • دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، فرع مصر ١٩٦٩ م •

(ب) دونالدولبر ، ايران ، ماضيها وحاضرها ، ص ٧٩ من الترجمة العربية ١٩٥٨ القاهرة •

أسـرته :

والد خواندمير هو خواجه همام الدين محمد بن خواجه جلال الدين محمد بن خواجه برهان الدين محمـد الشيرازى الذى تولى الوزارة معظم فترة سلطنة السلطان محمود ميرزا (المتوفى عام ٩٠٠ هـ) ابن السلطان أبى سعيد كوركان كما يصرح خواندمير نفسه بذلك في كتابه « حبيب (١) السير » فيقول : « وزارت أو در أكثر أوقات براى صوابنماى والدمسـود أوراق خواجه همام الدين بن خواجه جلال الدين محمد ابن خواجه برهان الدين محمد شيرازى مفوض بود » ٠

وترجمتها : وكان ـ يقصـد السلطان محمود ـ يسند وزارته فى أكثر الأحيان الى خواجه همام الدين بن خواجه جلال الدين محمد بن خواجه برهان الدين محمد الشيرازى والد مؤلف هذا الكتاب » ٠

ووالدة خواندمير هى كريمـة المؤرخ الكبير ميرخواند محمـد بن الأمير برهان الدين خاوند شاه بن شاه كمال الدين محمود البلخى مؤلف « روضـة الصفا » المتوفى عام ٩٠٣ هـ ٠ وهو ينتمى الى أسرة من الأشراف من كبار عائلات بخـارى التى يتصـل نسـبها بزيد بن على زين العابدين بن الحسين ٠ يقول خواندمير فى كتابه « حبيب(٢) السـير » عنـد حديثه عن سـيد برهان الدين خاوند شاه والد ميرخواند :

« واز آنحضرت سه بسر ماند أمير خواند محمد كه والد بزركوار والده مسود اوراقست وسيد نظام الدين سلطان أحمد كه سالها در ملازمت سلطان بديع الزمان ميرزا منصب صدارت داشت وسيد نعمت الله كه مجذوب متولد شده بود واز وى خوارق عادات ظهور مينمود » ٠

وترجمتها : « وقد خلف ذلك السيد ثلاثة أبناء أولهم محمد الوالد العظيم لوالدة محرر هذه الصفحات ، وثانيهم سيد نظام الدين سلطان أحمد الذى كانت له الصدارة في بلاط السلطان بديع الزمان ميرزا لعدة سنوات ، وثالثهم سـيد نعمة الله الذى كان قد ولد مجذوبا وكانت تصدر عنه خوارق العادات » ٠

وكان خواندمير يذكر جده لأمه هذا أحيانا بلقب « والدى » ـ احتراما له واعترافا بفضـله عليه ـ مما أوقع بعض الدارسين والمحققين فى خطأ كبير حيث اعتبروا خواندمير ابنـا شرعيا لميرخواند ، ومن بين من وقعوا فى هـذا الخطأ المرحوم (٣) رضا قليخان هدايت مؤلف « متمم روضة الصفاء » ٠ وهناك رأى آخر (٤) يقول بأن ميرخواند هو أيضا عم خواندمير بالاضافة الى كونه جده لأمه ،

---

(١) المجلد الثالث جـ٣ ص ١٩٤ بمباى ٠

(٢) المجلد الثالث جـ ٣ ص ١٨٩ بمباى ٠

(٣) سبك شناسى/محمد تقى بهار ـ جـ ٣ ٠

(٤) حبيب السير/خواندمير ـ مقدمة جلال الدين همائى ، ص ٦ ـ طهران ٠

ولكن هذا الرأى لا يتفق مع الشريعة الاسلامية اذ لا يعقل أن يكون ميرخواند جد خواندمير لأمه وعمه فى نفس (١) الوقت لأنه يترتب على ذلك زواج الأخ بابنة الأخ، وهذا محرم شرعا • أما اذا اعتبرنا برهان الدين ــ جد والد خواندمير ــ هو نفسه برهان الدين والد ميرخواند ، كان ميرخواند أيضــا عم والد خواندمير ، وهذا افتراض صحيح ولكنه لا يوجد دليل على اثباته (٢) •

ونظرا لدور جده هذا فى تنشئته ورعايته وتوجيهه ، وكذا نظرا لاعتراف خواندمير بفضل جده عليه وقيامه باكمال الجزء السابع من كتابه «روضة الصفا» ، فان الواجب يقتضينا أن نورد كلمة موجزة عن المؤرخ الكبير ميرخواند وعن كتابه « روضه الصفا » •

المؤرخ الكبير ميرخواند : (٨٣٨ ــ ٩٠٣ هـ) •

وهو محمد بن أمير برهان الدين خاوند شاه بن شاه كمال الدين محمود البلخى مؤلف « روضة الصفا » • وكان من الأشراف من أسرة تتصف بالعلم والتقوى يمتــد نسبها الى زيد بن على زين العابدين بن الحســين ، وكانت تلك الأسرة تقطن بخارى ثم هاجر والده سيد برهان الدين من بخارى واستقر فى بلخ حيث توفى هناك •

وقد حصل ميرخواند المعارف المتداولة فى عصره وأبدى مهارة فائقة فى علوم المعقول والمنقول ولكنه برز فى فنى التاريخ والانشاء ووصل فيهما الى درجة يعجز عن وصفها البيان كما يتضح فى كتابه « روضة الصفا » على حــد قول خواندمير فى كتابه « حبيب السير (٣) » •

وقد اعتمد ميرخواند عند تأليفه كتابه « روضة الصفا » على الكتب التاريخية العربية حيث ترجم منهــا الى الفارســية ، كما اعتمــد كذلك على بعض الكتب الفارسية حيث اقتبس منها وكان ينقل عن بعضها حرفيا بعد ادخاله تعــديلات بسيطة من أجــل تبسيط العبــارة مثلما اقتبس من كتاب « جامع التــواريخ » لرشـــيد الدين فضـــل الله وكتـــاب « ظفر نامه » يعنى « كتـــاب الظفر » لشرف (٤) الدين على •

وكتاب « روضة الصفا » يشتمل على سبعة أجزاء وضع ميرخواند بنفســه الأجزاء الســـتة الأول ووضع خواندمير الجزء السابع المتضمن فترة سلطنة السلطان حسين بايقرا ، وكذا الحديث عنه منذ ولادته وحتى وفاته وعن أعقابه حتى عام ٩٢٩ هـ • وقد ذكر خواندمير فى نهاية هذا الجزء تسجيلا موجزا لتاريخ

---

(١) سورة النساء آية ٢٢ ونصهــا « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت » •

(٢) حبيب السير/خواندمير ــ مقدمة جلال الدين همائى ص ٧ ــ طهران •

(٣) المجلد الثالث جـ ٣ ص ٣٣٩ بمباى •

(٤) سبك شناسى/محمد تقى بهار ــ جـ ٣ ص ٢٠٥ •

قبـــائل ال « قره قويونلو » يعنى « أصحاب الخـراف السوداء » ، وقبـــائل ال « آق قويونلو » يعنى « أصحاب الخراف البيضاء » •

وقد حاز كتاب « روضة الصفا » هذا شهرة فائقة لدى الايرانيين وغيرهم ، ولكن كتاب حفيده خواندمير « حبيب السير » يمتاز عليه لأن خواندمير أضاف فى نهـــاية كل عصر شرحا وافيـا لأحوال الفضــلاء والعلماء والأدباء والزهاد والســادات والوزراء الموجودين فى ذلك العصر ، وذلك بالاضافة الى شـــموله جميع المعلومات الموجودة بروضة الصفا الذى كان ينقل عنه خواندمير حرفيا فى كثير من الأحيان بحيث أنه يمكن(١) الاستغناء عن قراءة روضة الصفا بقراءة كتاب « حبيب السير » •

وقد ولد ميرخواند عام ٨٣٨ هـ ، وقضى أغلب أيام حياته فى بلاط الأمراء والسلاطين التيموريين • وكان من المقربين للسلطان حسين بايقرا والأمير عليشير نوائى ، وقد توفى بعد ثلاث سنوات تقريبا من اعتزاله الحياة السياسية والعلمية والاعتكاف عن الناس ، لاصابته ببعض الأمراض وانقطاعه للعبادة والتصـوف وذلك فى الثانى من شهر ذى القعدة عام ٩٠٣ هـ بمدينة هراة • يقول خواندمير فى كتابه « حبيب(٢) السير » مسجلا تاريخ وفاة جده ميرخواند : « در دوم ذى قعدهٔ سنة ثلاث وتسعمائة از محنت آباد جهان برياض راحت افزاى جنان انتقال فرمود تدوفات آنحضرت درسن شغت وشش سالكى دست داد ودفنش در مزار شيخ بهاء الدين عمر اتفاق افتاد » •

وترجمتها : « ولقد انتقل فى الثانى من ذى القعدة عام ١٩٠٣ من دنيـا الألم والفناء الى عالم الراحة والبقاء ، وكان رحيل ذلك السيد بعد أن بلغ السادسة والستين من عمره وتم دفنه فى مزار الشيخ بهاء الدين عمر » •

وقد طبع كتاب روضة الصفا مرتين فى بمباى بالهند ، الأولى عام ١٢٦٦هـ والثانية عام ١٢٧١ هـ كما طبع عدة مرات فى ايران ، ولكن طبعات ايران تزيد ثلاثة أجزاء عن طبعتى الهند وهى الأجزاء التى أضافها المرحـوم رضا قليخان هدايت على « روضة الصفا » بعنوان « متمم روضة الصفا » عن تاريخ الدولة الصفوية والأفشارية والزندية والقاجارية • كما ترجم كتاب « روضة الصفا » الى اللغة التركية وطبع فى استانبول عام ١٢٥٨ هـ • هذا عدا الترجمات المختلفة لبعض أجزائه الى مختلف اللغات •

وكان خال خواندمير ـ نظام الدين سلطان أحمـد ـ من رجالات القرن التاسع البارزين ، وتولى الوزارة للسلطان بديع الزمان ميرزا فترة من الوقت •

---

(١) حبيب السير/خواندمير مقدمة جلال الدين همائى ص ٢٣ ، ٢٤ طهران •
(٢) المجلد الثالث جـ ٣ ص ٣٣٩ بومباى •

ولم يذكر خواندمير أنه كان له أبناء ، ولكن « ريو » مؤلف فهرست المخطوطات الفارسية والعربية بالمتحف البريطـانی ، يذكر فی معرض حديثه عن خواندمير تحت عنوان « خلاصة الأخبار » أنه كان له ابن معاصر للسلطان « أكبر خان » وكان يعيش فی بلاطه بالهنـد • وقد أنعم عليه السلطان أكبر بلقب « خان » فاشتهر بـ « سيد عبد الله خان » ثم توفی بولاية كشمير عام(١) ٩٩٦ هـ •

كما يذكر الأستاذ سعيد نفيسی فی مقدمة(٢) كتاب « دستور الوزراء » أن خواندمير : « كان له ابن يدعی (ميرمحمود) يبدو أنه جاء من الهند الی ايران بعد وفاة والده أو ربما أنه لم يذهب مع والده الی الهند ، وعلی أية حال فانه كان يعيش فی ايران ، وليس لدينا معلومات عن أحواله سوی أنه ألف كتابا عن تاريخ الشاه اسماعيل والشاه طهماسب « الصفويين » بدأ تأليفه فی عام ٩٥٠هـ باسم محمد خان شرف الدين أغلی تكلو أحد أمراء البلاط الصفوی ، وأنهاه عام ٩٥٧ هـ • ومن هذا الدليل يتضح أنه ظل علی قيد الحياة خمسة عشر عاما بعد وفاة والده » •

نشـأته وتعليمه :

يتضح من أسلوب خواندمير فيما تركه لنا من مصنفات وخصوصا كتابه « حبيب السير » ، أنه كانت له يد طولی فی فن النثر الفارسی فی النصف الأول من القرن العاشر الهجری ، كما يتضح أيضا من الموضوعات التی تناولها بالدراسة والبحث والتأريخ فی هذه المصنفات أنه اطلع علی كتب المتقدمين ، وتعمق فيهـا واستوعب أيضا أشعارهم ، وأورد بعضها فی ثنايا كتبه حيثما اقتضاه الموقف، بل كان ينظم هو نفسه الكثير من الأشعار •

ويتبين لنا مما سبق أن خواندمير قد قضی فترة طفولته وشبابه فی تحصيل الفنون المتداولة فی عصره كالطب والتفسير والشعر والأدب(٣) واللغة والتاريخ ، وأبدی مهارة فائقة فی هـذه الفنون • وربما يرجع الفضل فی ذلك الی جده لأمه ميرخواند الذی تعهده من الطفولة ، وأشرف علی تعليمه وتنشئته فی هراة • وفی عام ٩٠٤ هـ تقريبا نجد خواندمير موضع اهتمام الأمير عليشير نوائی ـ وهو لما يتجاوز بعد الرابعة والعشرين من عمره ـ وكان قد استدعاه لحضور مجلسه الذی كان يكتظ بفضلاء وعلماء أواخر القرن التاســع وأوائل القرن العاشر الهجری ، أمثال المتصوف الكبير مولانا نور الدين عبد الرحمن الجامی والرسام الذائع الصيت كمال الدين بهزاد والمؤرخ المعروف ميرخواند وغيرهم •

---

(١) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائی ـ المقدمة ص (ی) •
(٢) مقدمة دستور الوزراء ص (ج) •
(٣) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائی ـ المقدمة ص (و) •

ولا شك أن خواندمير قد تأثر بهذا الجو العلمي والفني واستفاد من معاصريه كثيرا كما نال عطف ورعاية الأمير عليشير نوائي الذي تركه ينهل من مكتبته الخاصة ، ويقرأ ما حوته من مختلف العلوم لدرجة أنه جمع مواد كتابه « خلاصة الأخبار » وأنهاه خلال ستة أشهر ، وقدمه لمخدومه الأمير عليشير نوائي • ويعترف خواندمير بفضل ذلك الأمير عليه وتشجيعه له صراحة فيقول في تقديمه (١) لكتابه « خلاصة الأخبار » : « أما عالم السر والخفيات آكا هست كه آكر نه يمن اعتنا وحسن اهتمام عاليحضرت خداوندكارى هدايت شعارى بودى آنجه درقرب ششماه نوشته شده بمدت شش سال باتمام نرسيدى » •

وترجمتها : « يعلم الله أنه لولا فضل سيدى الوافر على واهتمامه الزائد بي لما استطعت في ست سنوات اتمام ما أنجزته في ستة أشهر » •

كما يمكننا أن نستشف من تلك العبارة أيضا تواضع خواندمير — الذي هو من طبيعة العلماء — واعترافه بفضل الأمير عليشير ومكتبته عليه مرجعا الفضل في انجاز كتابه هذا الى الأمير ومكتبته • والحقيقة أن الفضل الأول يرجع لخواندمير نفسه فلولا أنه رزق استعدادا كاملا لتلقى العلوم والمعارف ، وبذل مجهودا كبيرا في البحث والدرس والاطلاع ، لما استطاع أن يستفيد مما حوته تلك المكتبة ، ولما خرج هذا الكتاب بمثل ما هو عليه • وهذا دليل قوي على ذكائه وعبقريته وفراسته التي بدأت تؤتي أكلها في هذه السن المبكرة •

ومنذ ذلك الوقت أخذت منزلة خواندمير تعلو وترتفع يوما بعد يوم عند الأمراء التيموريين الى درجة أن جعلوه نديمهم • ولكنه فضل العمل مع بديع الزمان ميرزا الابن الأكبر للسلطان حسين ميرزا بايقرا • ولم يفارق خواندمير ذلك الأمير وحتى آخر أيام سلطنته •

فترة نضج خواندمير وحياته السياسية :

بعد أن حصل خواندمير هذا القدر من العلم والثقافة أصبح مرموقا لدى الأمراء التيموريين الى درجة أن جعلوه نديمهم • ولكنه فضل العمل مع بديع الزمان دونهم جميعا • وهنا يمكن لنا القول أنه في هذه الفترة يكون خواندمير قد اكتمل نضجه وتخطى مرحلة الشباب الأولى المعروفة بالطيش وعدم الثبات ، فاختياره العمل مع الأمير بديع الزمان ميرزا ، كان اختيار العارف المدرك لخطورة الأمور ، فلم يكن هناك في ذلك الوقت أفضل من هذا الاختيار ، وقد قدر بديع الزمان ميرزا أيضا باحساس الأديب الشاعر موقف خواندمير ، فزاد من احترامه ورعايته ، وعينه وزيرا له وأصبح خواندمير منذ ذلك الوقت لا يفارق بديع الزمان ميرزا ويلازمه في سفره وحضره وكان الأمير يفضي اليه بكل أسراره ، ويقص عليه

---

(١) مقدمة « خلاصة الأخبار/خواندمير » نقلا عن فهرست ريو •

أخبار انتصاراته وحتى هزائمه ، كما كان يوكل اليه تدبير الأمور الهامة التى كانت تصادفه •

وكان أول عمل هام (١) يسنده بديع الزمان ميرزا الى وزيره خواندمير فى عام ٩٠٩ هـ ، حينما تهـدد ملكه من قبل الأزبك ، وخشى من تقـدمهم فأرسل خواندمير الى والده السلطان حسين ميرزا بايقرا طالبا منه النهوض لمساعدته ونجدته ، ولكن السلطان حسين بايقرا كان يكن فى نفسه فى ذلك الوقت الكثير من الألم والمرارة بسبب ما كان من عصيان ابنه الأكبر بديع الزمان ميرزا هـذا وتمرده عليه ، فلم يشأ أن يتقدم لنجدته والوقوف بجانبه •

وفى ربيع عام (٢) ٩١٢ هـ عندما كان محمد خان الشيبانى يتقـدم فى ما وراء النهر ، أخذ بديع الزمان ميرزا وأخوه مظفر حسين ميرزا ــ اللذان كانا شريكين فى الملك بعـد وفاة والدهما السلطان حسـين بايقرا ــ يدبران الأمر للدخول فى حرب مع الشـيبانى وامر خواندمير بأن يتوجه الى قندهار ليطلب من « شاه بك أوغون » حاكمها النهوض لمساعدتهما ، وأخـذ خواندمير طريقه ووصل الى هراة ، ولكنه بسبب موت « جو جوك بيكم » ابنة بديع الزمان ميرزا وتقدم محمد خان الشيبانى ، لم يسـتطع خواندمير الوصول الى قندهار • وفى النهاية قرر بديع الزمان ميرزا والأمراء التيموريون محاربة الشيبانى والتحموا معه فى معركة قصيرة فى « مرل » هرب فيها الامراء التيموريون ، وقتل ذوالنون أرغون أحد رجال البلاط التيمورى • وبذلك سقط الحكم التيمورى على ايران الذي ظل أكثر من قرنين من الزمان ، وجاء بديع الزمان ميرزا من مرل الى هراة ، ثم انتقل لاجئا الى جرجان •

وبعد خروج بديع الزمان ميرزا من هراة والجنود الأزبك على مشارفها ، خشى أهلها بطش هؤلاء الجنود وسطوتهم ، وعزموا على تسليم المدينة للأزبك دون قتال أو سفك للدماء • وعلى هذا الأساس اجتمع أهالى هراة بمسجد شيخ الاسلام فى يوم الجمعة الثامن من المحـرم عام ٩١٣ هـ وأجروا المشورة ، وبعدها كلفوا خواندمير بكتابة رسالة الى محمد خان الشيبانى تفيد قبولهم لحكمه وموافقتهم على تسليم المدينة دون مقاومة ، فكتب خواندمير الرسالة وحملها ابن أخيه عثمان ــ الذى كان محتسبا على هراة ــ حيث توجه بها الى بلاط محمد خان الشيبانى • وبعد أن قرأ الشيبانى رسالة أهل هراة هذه أعطى عظماءها الأمان ، واستدعاهم الى بلاطه وكرمهم واستقبلهم استقبالا طيبـا (٣) وبعـد ذلك كلف الشيبانى عبد الرحيم التركستانى بدخول هراة ، وأوصاه بعدم اعمال القتل والتخريب •

---

(١) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى ــ المقدمة ص (ز) •

(٢) مقدمة دستور الوزراء/خواندمير ــ بقلم سعيد نفيسى ص (ب) •

(٣) حبيب السير ــ المجلد الثالث جـ ٣ ص ٣٦٠ بمباى •

ولكن الطبيعة العسكرية تغلبت على نفسه وتعرضت مدينة هراة لأعمال السلب والنهب ، وتم الاستيلاء على خزائن التيموريين ، بل ان قصور الحريم لم تسلم من الاغارة وأجبرت سيدات الأسر التيمورية ـ طوعا منهن أو كرها ـ على الزواج من أمراء الأزبك ونبلائهم ٠

وكان عبد الرحيم التركستاني ـ حاكم هراة من قبل الشيباني ـ رجلا جاهلا متكبرا ورغم ذلك كان يعتبر نفسه ـ على حد قول خواندمير ـ أعقل من جميع العلماء ، ولهذا فانه لم يكن يهتم كثيرا بالعلماء لدرجة أنه أجبر خواندمير والأمير سلطان ابراهيم أميني ومولانا غياث الدين جمشيد ـ وكانوا من كبار رجال الدولة لمدة طويلة ـ على شراء عدد من الأغنام التي استولى عليها الأزبك عند الاغارة على هراة في مقابل ستمائة دينار تبريزي لكل رأس ٠ ولما لم يكن معهم قيمة هذه الأغنام أمرهم بأن يسوقوا هذه الأغنام ـ كالرعاة ـ بأنفسهم بعصا الصدارة ، ويمرون بها من سوق هراة حتى منزله (١) ٠ وكان هذا المشهد باعثا على السخرية حيث استغرق الناس الذين كانوا يشاهدونهم في الضحك ، وقد ضحك خواندمير والأمير سلطان أميني أيضا على أنفسهما ٠ أما مولانا غياث الدين جمشيد فقد بكى ٠ وهذا يدل على الألم والمحنة التي لاقاها خواندمير أثناء دخول الأزبك الى هراة اذ كانت تلك الفترة ـ التي استمرت من عام ٩٠٣ هـ الى ٩١٦ هـ ـ أظلم فترة في حياة خواندمير السياسية ، لقى فيها الكثير من الألم والعناء ٠ وقد سجل خواندمير بعض أحداث تلك الفترة يوما بيوم الى أن تمكن الشاه اسماعيل الصفوي الأول من قتل الشيباني في عام ٩١٦ هـ ، وقام بطرد الأزبك ودخول هراة ٠ ومنذ ذلك الوقت أصبحت هراة تحت السيطرة الصفوية الايرانية ، وان لم تسلم أحيانا من هجمات الأزبك ٠

وخلال الفترة من ٩١٦ هـ الى عام ٩٢٠ هـ لا نكاد نجد أخبارا عن خواندمير، فربما أنه آثر العزلة والانزواء ـ بسبب أوضاع خراسان المضطربة وهجمات الأزبك المتكررة وتقدم الصفويين للقضاء عليهم ـ وانقطع للقراءة والاطلاع ، وانشغل بالتأليف ٠ يقول الأستاذ سعيد نفيسي (٢) : « درسال ٩١٦ كه شاه اسماعيل صفوى شيبانى راكشته وهرات را ازوى كرفتة است وى هنوز در آن شهر بوده است ولى درسال ٩٢٠ در ديه بشت در غرجستان در انزوا ميزيسته است ودر آنجا بتاليف مشغول بوده » ٠

وترجمتها : « ولما قتل الشاه اسماعيل الصفوي الشيباني في عام ٩١٦هـ، وانتزع منه هراة كان (خواندمير) لا يزال في تلك المدينة ، ولكنه في عام ٩٢٠هـ كان يعيش معتكفا في قرية بشت ـ احدى قرى غرجستان ـ مشغولا بالتأليف » ٠

---

(١) المرجع السابق ـ المجلد الثالث جـ٣ ص ٣٦١ بمباى ٠

(٢) دستور الوزراء/خواندمير ـ مقدمة سعيد نفيسى ص (ب) ٠

وفى عام ٩٢٠ هـ توجه خواندمير للالتحاق بخدمة محمد زمان ميرزا الذى كان يحاول عبثا اعادة الميـاه الى مجاريها ، والعمل على احياء الدولة التيمورية المنقرضة ، ولكن خواندمير لم يذكر السبب فى ذهابه الى محمد خان ميرزا واكتفى بأن ذكر أن محمد زمان ميرزا قد سر واغتبط بمجيئه ، ولم يتركه يغادر بلاطه مهما قدم له خواندمير من أعذار ٠ وقد تمكن محمد زمان ميرزا فى رمضان من عام ٩٢١ هـ من انتزاع بلخ من قبائل الـ « قزل باش » ، ولكنه حدث خلاف بينه وبين أحد أمراء جيشه يدعى الأمير « أردوشاه » ، فتمكن الأخير من السيطرة على المدينة ٠ ولما أحس محمد زمان ميرزا بأن هيبته باتت مهددة بعث بخواندمير الى الأمير أردوشاه فتمكن خواندمير من التأثير على الأمير وقبل الأمير نصائحه ، ورضى بالدخول فى طاعة محمد زمان ميرزا مرة ثانية بشرط أن يكتب له رسالة أمان له ولأسرته ٠ ولكنه نظرا لأن دولة التيموريين قد قدر لها الزوال فان محمد زمان ميرزا لم يوافق على هذا الاقتراح ، فسلمت المدينة لجنود القزل باش الذين هزموا محمد زمان ميرزا هزيمة منكرة توجه بعدها الى ظهير الدين بابر فى قندهار ٠ وقد ظل خواندمير ملازما له أثناء هذه الظروف ، ويقال ان خواندمير عاد مرة أخرى الى هراة وبقى بها حتى منتصف شوال عام ٩٣٣ هـ لأنه يستدل من كلامه أنه بدأ عام ٩٢٧ هـ العمل فى تأليف كتابه « حبيب السير » بتشجيع من الأمير غياث الدين محمد قاضى خراسان الذى قتل على يد حاكمها الأمير سـلطان. فانقطع خواندمير فترة قصيرة عن التأليف ثم استأنفه فى عام ٩٢٨ هـ بتشجيع من الوزير كريم الدين حبيب الله الساوجى وزير دورميش خان حاكم خراسان الجديد ، وفرغ منه فى عام ٩٣٠ هـ ٠ ثم توجه من هراة الى قندهار فى أواسط شوال عام ٩٣٣ هـ ، ولكنه لم يبق بها طويلا حيث توجه فى العاشر من جمادى الثانية عام ٩٣٤ هـ الى بلاد الهند ٠ ونظرا لشدة الحرارة استغرقت رحلة خواندمير سبعة أشهر تقريبا حتى وصل الى بلاط ظهير الدين بابر فى مدينة أكره ، وقد انضم لبلاطه فى الثامن من ربيع الأول عام ٩٣٥ هـ ، وصحب خواندمير بابر فى العام نفسه الى البنغال وسواحل نهر الكنج ، وشهد معه جانبا من فتوحاته ، وقام بتسجيلها ، وظل ملازما لذلك الامبراطور حتى وفاته عام ٩٣٧ هـ ٠

وبعد موت بابر التحق خواندمير ببلاط ابنه نصير الدين محمد همايون ، ووضع عنه كتابه المعروف بـ « همايون نامه » يعنى « كتاب همايون » أو « قانون همايون » ، سجل خواندمير فيه انتصارات ذلك الأمير وآثاره وعمائره ، وذلك فى عام ٩٤١ هـ حسب أرجح الآراء ٠

وفاة خواندمير :

هناك اختلاف أيضا حول العام الذى توفى فيه خواندمير ، فمن قائل بأن الوفاة حدثت فى عام ٩٤١ هـ ومن قائل بأنها حدثت عام ٩٤٢ هـ أو العـــام الذى يليه ٠

يقول صاحب « تاريخ(١) فرشته » : در آن أوان يعنى سنة ٩٤١ هـ مؤلف كتاب حبيب السير كه ملازم ركاب بود بمرض اسهال ازجهان گذران در گذشته برحمت ايزدى بپوست وحسب الوصية نعش اورابد هلى برده در جوار شيخ نظام الدين أوليا قدس سره وأمير خسرو دفن كردند » •

وترجمتها : « فى ذلك الوقت ـ أى عام ٩٤١ هـ ـ توفى مؤلف كتاب حبيب السير الذى كان ملازما للركب(٢) نتيجة اصابته بمرض الاسهال ، وفاز برحمة ربه ، وقد حملوا جثمانه ـ بناء على وصيته ـ الى مدينة دهلى ودفنوه بجوار ضريح الشـــيخ نظــام (٣) الدين أوليا ـ قدس الله سره ـ والأمير خسرو (٤) (الدهلوى) » • كما يقول محمد تقى (٥) بهار عن تاريخ وفاة خواندمير :

« در ٩٤٢ وفات يافت ودر دهلى دفن كرديد » •

وترجمتها : « لقد توفى فى عام ٩٤٢ هـ وتم دفنه فى مدينة دهلى » • ويرجح الأستاذ جلال الدين همائى بأن وفاة خواندمير قد حدثت عام ٩٤٢ هـ فيقول : « وفاتش باصح اقوال در اواخرســـال ٩٤٢ بهندوســـتان اتفاق افتاد وحسب الوصية در مزار خواجه نظام الدين اوليا نزديك أمير خسرو دهلوى بخاك رفت (٦) •

(١) أحداث عام ٩٤١ هـ ص ٤٠٢ من الكتاب •

(٢) يقصد المؤلف ركب نصير الدين همايون •

(٣) نظام الدين أوليا : وهو أســـتاذ الشـــاعر الكبير أمير خسرو الدهلوى والمتوفى عام ٧٢٥ هـ ـ ١٣٢٤ م فى دهلى بالهند ، انظر ، براون ، تاريخ الأدب فى ايران ، جـ ٣ ص ١٣٢ من الترجمة الفارسية طهران ٣٢٧ هـ ش •

(٤) الأمير خسرو الدهلوى : وهو أحد ثلاثة من كبار الشعراء الذين عاشوا خارج ايران ـ وربما لم يشاهدوها مطلقا ـ وكتبوا شعرهم باللغة الفارسية الاثنان الآخران هما حسن الدهلوى وبدر جاجى ، ومكانة الثلاثة تلى مكانة الشاعرين جلال الدين الرومى وسعدى الشيرازى مباشرة ، عاش الثلاثة فى الهند وحققوا شهرة فائقة ونالوا مكانة عالية بين أهلها وحكامها •

والأمير خسرو الدهلوى من أصل تركى ، هرب والده أثناء غارات المغول من بلخ الى الهند واستقر فى ولاية بتيالى حيث أنجب شـــاعرنا فى عام ٦٥١ هـ ـ ١٢٥٣ م • وقد نال الأمير خسرو الدهلوى مكانة عالية ورعاية كاملة لدى خمسة من ملوك الهند فى دهلى ، ونظم أشعارا تربو على مائة وعشرين ألف بيت ، كما أنشأ غزليات تقدر بألفى بيت • ونبغ الأمير خسرو أيضـا فى فن الموسيقى بقدر نبوغه فى فن الشعر • ويشاء القدر أن ينتقل الى جوار ربه بعد سبعة أشهر من وفاة أستاذه نظام الدين أوليا ويدفن بجوار مزاره فى دهلى عام ٧٢٥ ـ ١٣٢٤ م •
(أنظر براون ، تاريخ الأدب فى ايران جـ ٣ ص ١٣٢ ، ١٣٣ الترجمة الفارسية طهران ١٣٢٧ هـ ش ـ ١٩٤٨ م) •

(٥) سبك شناسى ـ جـ ٣ ص ٢٠٦ •

(٦) حبيب السير/خواندمير ـ مقدمة جلال الدين همائى ص ٨ طهران •

وترجمتها : « لقد حدثت وفاته ـ تبعا لأصح الأقوال ـ فى أواخر عام ٩٤٢ هـ فى بلاد الهند ، وتم دفنه حسب وصيته فى مزار خواجه نظام الدين أوليا بالقرب من ضريح الأمير خسرو الدهلوى » • كما يعتقد الأستاذ سعيد نفيسى ـ عند تقديمه لكتاب دستور (١) الوزراء ـ بأن وفاة خواندمير قد حدثت فى أواخر عام ٩٤٢ هـ أيضا ودليله على ذلك العبارة التى كان قد سجلها خواندمير موضحا بها تاريخ وفاة معاصره ورفيقه فى الترحال مولانا شهاب الدين معمائى الذى توفى عام ٩٤٢ هـ •

وقد تيسر لى العثور على ما يؤيد ما يذهب اليه الأستاذ سعيد نفيسى وذلك فى كتاب « منتخب (٢) التواريخ » لعبد القادر بداونى الذى يقول أثناء حديثه عن وفاة مولانا شهاب الدين معمائى : « وفاة مولوى در وقت مراجعت جنت آشيانى محمد همايون بادشاه است از سفر كجرات درسال نه صد وجهل ودو (٩٤٢) وخواندمير مؤرخ « شهاب الثاقب » تاريخ يافت » •

وترجمتها : « وكانت وفاة الشيخ أثناء عودة الامبراطور محمد همايون من كجرات عام ٩٤٢ هـ • وقد سجل المؤرخ خواندمير هذه الواقعة بعبارة «شهاب(٣) الثاقب » •

وعلى هذا يمكننا القول بأن وفاة خواندمير قد حدثت فى أواخر عام ٩٤٢هـ ببلاد الهند ، بعد عودة مخدومه الامبراطور همايون من حملته على كجرات ، وذلك عن اثنين وستين عاما • وقد تم دفنه حسب وصيته فى مزار خواجه نظام الدين أوليا بالقرب من ضريح الأمير خسرو الدهلوى بمدينة دهلى •

---

(١) دستور الوزراء/خواندمير ـ مقدمة سعيد نفيسى ص (د) طهران •

(٢) منتخب التواريخ/بداونى ـ المجلد الأول ص ٣٤٣ باريس •

(٣) عبارة « شهاب الثاقب » اذا جمعناها بطريقة حساب الجمل يكون الناتج ٩٤٢ أى عام ٩٤٢ هـ • انظر كتاب « راحة الصدور وآية السرور » للراوندى ترجمة الأساتذة : دكتور ابراهيم الشوربى ، دكتور عبد النعيم حسنين ، دكتور فؤاد الصياد ص ٦٢٣ القاهرة •

الفصــل الثالث

مؤلفات خواندمير

تمهيــد :

يمتــاز خواندمير بين مؤرخى ايران بأنه كتب أكثـر من الجميع باللغـة الفارسية (١) • وقد تركزت كتاباته فى فن التاريخ الذى مال اليه وعشقه، وربما كان السبب فى ذلك تأثره بجده لأمه المؤرخ الكبير ميرخواند محمد • يضاف الى ذلك رواج سوق هذا الفن ــ وخصوصا التاريخ العام ــ فى العصر التيمورى وأوائل العصر الصـفوى ، ومن قبلهما فى العصر المغولى • كمـا أن خواندمير بالاضافة الى اجادته فن كتابة التاريخ قد أجاد أيضا فن الشعر ولكنه لم يخصص له دواوين بل كان يجعله ــ غالبا ــ من أجل خدمة فنه الأول فينظم بعض الأشعار لاكمال المعنى الذى يتحدث عنه ، أو ليعطى عبرة وعظة اذا اقتضاه الموقف ذلك أو ليرثى به عظيما أحبه ، وكان خواندمير فى هذا الفن أكثر من المتوسط بالنسبة لمعاصريه من الشعراء ــ على حد تعبير ملك الشعراء (٢) بهار ــ وسوف نتحدث عن أسلوبه فى الكتابة ومنهجه فى التاريخ ضمن الدراسة التى سنقدمها عن كتابه « دستور الوزراء » فى الباب القادم •

والآن نستعرض مؤلفات خواندمير وما يتضمنه كل منها وأهميتها وظروف تأليفها فقد اشتغل خواندمير بالتأليف ــ الى جانب مهامه الأخرى ــ مدة ثمانية وثلاثين عاما تقريبا ، أى منذ العام الذى توفى فيه جده لأمه المؤرخ ميرخواند عام ٩٠٣ هـ وحتى عام ٩٤١ هـ تاريخ اتمامه كتاب « همايون نامه » آخر مؤلفاته ، فيبدو أن خواندمير قد عزم على أن يحل محل جده ويكون خليفته فى فن التاريخ، وأن يشغل الفراغ الذى خلا بوفاته • وقد وفق خواندمير فى هذا الى حد كبير

(١) دستور الوزراء/خواندمير ــ مقدمة سعيد نفيسى ص (هـ) ، طهران •

(٢) سبك شناسى/محمد تقى بهار ــ ج ٣ •

جدا رغم القلاقل والاضطرابات التى ميزت عصره كما ذكرنا من قبل وكما سنتبين ذلك فى موضعه عند الحديث عن كل مصنف .

وقبل أن نبدأ الحديث عن مؤلفات خواندمير يجدر بنا أن نذكر عبارة خواندمير نفسه عن مؤلفاته أثناء تقديمه لكتابه «حبيب السير (١)» حيث يقول :

« راقم اين حروف درر نثار بندهٔ فقير وذرهٔ حقير غياث الدين بن همام الدين الحسينى المدعو بخواندمير ..... كا هى بنابر شارت عظماء ملك وملت أحيانا برسبيل رسوم وعادت در شيوهٔ ونثر مجلدات درسلك انشاء كثير ومنشآت مكمل ومرتب كردانيد مانند خلاصة الاخبار واخبار الاخيار ومنتخب تاريخ وصاف ومكارم الأخلاق ومآثر الملوك ودستور الوزراء وديكر نسخ فوايدانتما » .

وترجمتها : « لقد وضع محرر هذه الكلمات ــ التى هى كالدرر المنثورة ــ العبد الفقير والمخلوق الحقير غياث الدين بن همام الدين الحسينى الملقب بخواندمير ــ تحقيقا لطلب عظماء الدولة وأعيانها أحيانا وأحيانا أخرى وضعها على سبيل العادات والتقاليد ــ مجلدات بأسلوب شعرى ونثرى ورتب وأكمل مؤلفات أخرى مثل « خلاصة الأخبار وأخبار الأخيار » ، « ومنتخب تاريخ وصاف » ، و « مكارم الأخلاق » ، و « مآثر الملوك » ، و « دستور الوزراء » ومجلدات أخرى نافعة » .

ومن المعروف أن جميع مؤلفات خواندمير مكتوبة باللغة الفارسية وهى كالتالى :

١ ــ مآثر الملوك (٢)

يظن « ريو Rieu » أن هذا الكتاب كان أول مؤلفات خواندمير ، ويعلل ما ذهب اليه بأن خواندمير لم يشر فيه الى مؤلفات أخرى كما كان جده لأمه المؤرخ ميرخواند لا يزال وقتها على قيد الحياة . ويذكر جلال الدين (٣) همائى بان خواندمير يبدو أنه قد وضع هذا الكتاب عام ٩٠٦ هـ تقريبا باسم الأمير عليشير نوائى . أما سعيد نفيسى (٤) فيرى أن خواندمير قد وضعه باسم الأمير على شير نوائى قبل عام ٩٠٦ هـ .

واذا ناقشنا الرأى الأول القائل بأن عدم اشارة خواندمير لأى من مؤلفاته

---

(١) حبيب السير/خواندمير ــ المقدمة ص ٤ طهران .

(٢) (أ) رجال كتاب حبيب السير/نوائى ص « يد » .

(ب) مجلة آداب القاهرة عام ١٩٤٤ ، مقالة بعنوان « مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى » دكتور/الشبواربى .

(٣) حبيب السير/خواندمير ــ مقدمة جلال الدين همائى ص ٩ طهران .

(٤) دستور الوزراء/خواندمير ــ مقدمة سعيد نفيسى ص (و) طهران .

في هـذا الكتاب يدل على أنه لم يضع مؤلفات سابقة عليه ، فاننا نرى أن هذه الحجة ليست قاعدة دقيقه أو حجة قوية تثبت ما ذهب اليه « ريو » لأن مؤلف خواندمير المتفق على أنه ثاني المؤلفـات ـ ان لم يكن ثالثها ـ وهو « دستور الوزراء » لا يشير خواندمير في ثناياه الى أي من مؤلفيه السابقين «مآثر الملوك» ، « خلاصة الأخبار » مثلا ، ولكن الدليل الثاني الذي يقول به « ريو » بأن تأليف مآثر الملوك كان أول عمل لخواندمير لأن جده لأمه ميرخواند كان لا يزال على قيد الحياة عند اتمام تأليف هذا الكتاب فهذا قول يمكن أن يكون صحيحا الى حـد كبير • وعلى هذا يكون كتاب « مآثر الملوك » قد ألف في عام ٩٠٣ هـ قبل شـهر ذي القعدة الذي توفي فيه ميرخواند وقدمه خواندمير للأمير عليشير نوائي ، كما أنه يمكن أن يكون أول مؤلفات خواندمير أيضا لأن كل من يتصدى للكتابة في أول مـرة لابد له أن يكون ناقلا الى حـد كبير محاولا اشـباع طموحه بتنويع موضوعاته لاظهار قدرته وسعة اطلاعه •

وهذا يظهر واضحا جليا في أبواب وفصول مآثر(١) الملوك حيث يتضمن الحديث عن مآثر وحكم وأمثال الأنبياء والملوك والعلماء وينقسم الى ستة أبواب :

الباب الأول ـ ذكر شيء من آثار ملوك العجم •

الباب الثاني ـ ذكر أقوال الحكماء من بداية آدم الى بزرجمهر •

الباب الثالث ـ ذكر أقوال النبي عليه الصلاة والسلام والأئمة •

الباب الرابع ـ ذكر أقوال ملوك بني أمية •

الباب الخامس ـ ذكر أقوال خلفاء بني العباس وملوك الطاهريين والسامانيين والغزنويين الى آل كرت •

الباب السادس ـ ذكر شيء من آثار وأقوال ملوك الترك •

وربما كانت أهمية هذا الكتاب تنحصر فقط في الجزء الذي يتحدث فيه خواندمير عن الملوك (٢) الذين من أصـل تركي والقريبة أخبـارهم من المؤلف والحائزة على كل اهتمامه وخصوصا في الفترة الأولى من حياته ، وأما ما عدا ذلك فكله أحاديث منقولة اما باختصار أو منقولة بكاملها •

---

(١) توجد بالمتحف البريطاني نسختان من هذا الكتاب تحت رقم ٣٦٤٣ ، ٢٩٢٨ •

(٢) فهرست المخطوطات الفارسية بالمتحف البريطاني/تاليف ريو ص ١٨ ، ١٩ •

٢ ـ خلاصة الأخبار في بيان أحوال الأخيار (١)

يبدو ان هذا الكتاب هو المؤلف الثاني لخواندمير لأنه يذكر في مقدمة الكتاب ـ كما سبق أن أشرنا الى ذلك في الفصل الثاني ـ انه بعد أن وقع عليه نظر الأمير عليشير نوائي ، وشاهد عليه علامات النبوغ ، وضع الأمير تحت تصرفه كل الكتب التاريخية التي كانت تحويها مكتبته الخاصة فأخذ خواندمير يلخصها ويرتبها حتى استطاع أن يخرج هذا الكتاب في غضون ستة أشهر فقط عام ٩٠٤ هـ (٢) .

ويعتبر كتاب « خلاصة الأخبار » بمثابة تلخيص لكتاب « روضة الصفا » الذي سبق أن وضع الأجزاء الستة الأولى منه جده ميرخواند . والكتاب يشتمل على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة :

المقـــدمة : في خلق العالم والانس والجن .

المقالة الأولى : في أحوال الأنبياء والرسل .

المقالة الثانية : في أحوال حكماء الفرس واليونان .

المقالة الثالثة : في أحوال ملوك فارس الأقدمين وملوك العرب واللخميين والغساسنة والحميريين .

المقالة الرابعة : في سيرة النبي وغزواته .

المقالة الخامسة : في أحوال الخلفاء الراشدين والأئمة الاثنى عشر .

المقالة السادسة : في أحوال بني أمية .

المقالة السابعة : في أحوال بني العباس .

المقالة الثامنة : الطاهريون ، الصفاريون ، السامانيون ، آل بويه ، الغزنويون ، الاسماعيلية ، السلاجقة ، حكام خوارزم ، أتابكة الموصل وآذربيجان وفارس ولورستان ، القراختاى ، آل المظفر ، السربداريون ، الغوريون ، ملوك سيستان ، آل كرت .

المقالة التاسعة : في أحوال جنكيزخان وأحفاده .

المقالة العاشرة : في أحوال تيمور وأعقابه الى سنة ٨٧٥ هـ .

الخاتمـــة : وصف هراة وذكر بعض المعاصرين من العلماء .

---

(١) (أ) مجلة آداب القاهرة ـ المجلد السابع عام ١٩٤٤ ـ دكتور الشواربي .
(ب) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائي ص «يه» .

(٢) يذكر حاجي خليفة ان هذا الكتاب تم تأليفه عام ٩٠٠ هـ (كشف الظنون ج ٣ ص ١٦٣) .

وقد أصبح هذا الكتاب(١) ـ فيما بعد الأساس الذى اعتمد عليه المؤلف فى تأليف كتاب « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » • وكتاب خلاصة الأخبار هذا لا تكمن أهميته فى كونه كتابا فى التاريخ العام بل تكمن أهميته فى خاتمته المتضمنة الحديث عن أحوال مدينة هراة وشرح لأحوال مشاهير المعاصرين ، لأن المؤلف كان قد وضعه وهو فى مقتبل الشباب قبل أن تكتمل له الخبرة الكافية بالتـــأريخ •

وهناك نقطة أخرى حول الكتـــاب تجدر الاشـــارة اليها وهى أن بعض العلماء قد اختلط الأمر عليهم واعتبروا هذا الكتاب من تأليف ابن خواندمير ـ من بينهم معتمد الدولة فرهاد ميرزا ـ ولكن بعد أن عرفنا أن المؤلف نفســـه قد ذكر صراحة اسم هذا الكتاب بين مؤلفاته فى مقدمة كتاب حبيب السير (٢) ، فانه لا يبقى هناك مجال للشك فى نسبة هذا الكتاب الى خواندمير •

٣ ـ دستور الوزراء

ويتناول هذا الكتاب شرحا لأحوال وزراء خلفاء الاسلام ووزراء سلاطين ايران ، وضعه خواندمير لأول مرة عام ٩٠٦ هـ ثم أعاد فيه النظر عام ٩١٥ هـ وأضاف اليه شرحا لأحوال اثنى عشر من وزراء السلطان حسين ميرزا بايقرا ، وانتشرت بذلك النسخة الثانية من الكتاب • وعلى هذا فالكتاب توجد منه نسختان خطيتان اعتمد عليهما الأستاذ سعيد نفيسى عند طبعه هذا الكتاب ، ونشره فى طهران لأول مرة عام ١٣١٧ هـ ش بعد تصحيحه ، وســوف نتناول هذا الكتاب بالدراسة فى الباب القادم ونتحدث عنه بشكل أوسع ، وقد نقلناه من النسخة المطبوعة الى اللغة العربية ضمن هذا البحث •

٤ ـ « مكارم الأخلاق » (٣)

كان من حق الأمير عليشير نوائى على مؤرخنا خواندمير أن يسجل مآثر مخدومه ومكارم أخلاقه وعشقه للعلم والعلماء وسيرته • وبالفعل عزم خواندمير على أن يضع مؤلفا فى هذا الموضوع ليكون تذكارا لفضائل ذلك الأمير العظيم وحبه للعلم ، ولكنه للأسف انتقل الأمير عليشير نوائى الى رحمة الله فى عام ٩٠٦ هـ قبل أن يتم خواندمير الكتاب فاضطر أن يقدمه فيما بعد الى السلطان حســين ميرزا بايقرا •

---

(١) توجد نسخة مخطوطة من هـذا الكتاب بالمتحف البريطانى تحت رقم OR ١٢٩٢ كما تحتفظ الجمعية الآسيوية الملكية بلندن بنسخة أخرى •

(٢) المجلد الأول ـ مقدمة خواندمير ص ٤ •

(٣) (أ) حبيب السير/خواندمير ـ المجلد ١ ـ مقدمة جلال همائى ص ٩ طهران

(ب) رجال كتاب حبيب السير/نوائى ص (يز)

والكتاب يتضمن شرحا طيبا لعظمة ذلك الأمير وحسن أخلاقه وينقسم إلى مقدمة وعشرة مطالب وخاتمة :

المقـــــدمة : عن ولادة الأمير عليشير نوائى .

المطلب الأول : عن السيرة الطيبة للأمير عليشير وعظمته .

المطلب الثانى : عن رفعة مكانة الأمير عليشير العلمية .

المطلب الثالث : عن أشعار الأمير عليشير .

المطلب الرابع : عن آثار الأمير عليشير النثرية .

المطلب الخامس : عن كرم الأمير عليشير وعطاياه .

المطلب السادس : عن مراعاة الأمير عليشير واجبات الدين والاهتمام به .

المطلب السابع : عن شفقة الأمير عليشير ومرحمته .

المطلب الثامن : عن تواضع الأمير عليشير نوائى .

المطلب التاسع : عن سير الأمير عليشير وتصوفه .

المطلب العـاشر : عن أقوال الأمير عليشير الحميدة وملاطفاته .

الخاتمـــة : وتتضمن الحديث عن بعض الحكايات والنوادر المنسوبة للأمير عليشير نوائى (١) .

ويقال ان هذا الكتاب قد حاز شهرة فائقة بعد تأليفه فيذكر خواندمير نفسه فى كتاب « حبيب السير » (٢) أثناء حديثه عن الأمير عليشير نوائى قوله :

« ..... دربيان مكارم أخلاق ومحاسن آداب وتفصيل أشعار ومؤلفات وتعداد آثار وعمارات آن فرخنده صفات رسالهٔ عليحده مكارم الأخلاق نام درسلك تحرير كشيده است وآن نسخه درميان فرق انام اشـتهار تمام دارد ... » .

وترجمتها : « من أجل شرح مكارم أخلاق ومحاسن آداب ذلك السعيد الصفات وتفصيل أشعاره ومؤلفاته وبيان آثاره وعمائره فقد تم تأليف رسالة مستقلة بعنوان « مكارم الأخلاق » . وتلك الرسالة تلقى شهرة فائقة بين الناس جميعا .... » .

---

(١) فهرست ريو Rieu جـ١ ص ٣٦٧ .

(٢) المجلد الثالث ، جـ ٣ ، ص ٢٨٩ بمبای .

ولم يشر الأستاذ سعيد نفيسي الى رسالة بهذا الاسم عند حديثه عن مؤلفات خواندمير أثناء تقديمه لكتاب دستور الوزراء (١) ، كما أن الأستاذ جلال الدين همائى يصرح فى مقدمته لكتاب « حبيب السير (٢) » بأنه لم يستدل على تاريخ تأليف هذا الكتاب ولكنه يقطع بأنه ألف قبل عام ٩٢٧ هـ تاريخ الشروع فى تأليف « حبيب السير » .

٥ ـ منتخب تاريخ وصاف (٣)

يبدو أن هذا الكتاب قد فقد ، لأنه لا توجد منه نسخ فى أى من مكتبات العالم . والمعلومات التى بين أيدينا عنه قليلة جدا ، وتكاد تنحصر فى مقدمة حبيب السير التى كتبها خواندمير نفسه حيث يذكر أن كتابا بهذا الاسم من بين المؤلفات التى وضعها ، وماعدا ذلك فهو من قبيل الاجتهادات .

يقول عبد الحسين نوائى فى كتابه « رجال كتاب حبيب السير » اننا لا نعلم على وجه اليقين بأن هذا المنتخب مأخوذ من كتاب « تجزية الأمصار وتزجية الأعصار » لمؤلفه شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى الملقب بوصاف الحضرة ، كما لا نعرف أى الأجزاء قد حذفها خواندمير من هذا الكتاب وأى الأجزاء أبقاها . ومن المحتمل أن يكون كتاب « منتخب تاريخ وصاف » لخواندمير يتضمن النواحى التاريخية الموجودة فى كتاب وصاف الحضرة المشار اليه . وكتاب « منتخب تاريخ وصاف » هذا لم يذكره سعيد نفيسى عند حديثه عن مؤلفات خواندمير فى مقدمة دستور الوزراء ، كما أن جلال همائى مقدم « حبيب السير » ـ طبعة طهران الحديثة ـ اعتبر هذا الكتاب فقط من بين الكتب التى ألفها خواندمير قبل عام ٩٢٧ هـ .

٦ ـ نامهٔ نامى (٤)

أى كتاب الشهرة وهو عبارة عن مجموعة من المراسلات والمنشآت التى جمعها خواندمير من الرسائل والمكاتبات الرسمية المتداولة فى بلاط السابقين تحت عنوان « آداب الكتابة والانشاء من أجل الكتاب والأدباء » . وهذا الكتاب كما يصرح خواندمير نفسه فى مقدمته قد أنهاه وهو ما بين السادسة والأربعين والسابعة والأربعين من عمره أى حوالى عام ٩٢٨ هـ تقريبا .

---

(١) دستور الوزراء/خواندمير ـ مقدمة سعيد نفيسى ص (هـ) طهران .

(٢) حبيب السير/خواندمير ـ مقدمة جلال همائى ص (٩) طهران .

(٣) (أ) حبيب السير/خواندمير ـ مقدمة خواندمير المجلد الأول ص ٤ طهران .

(ب) رجال كتاب حبيب السير/ نوائى ـ ص (يز) .

(٤) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى ص (يح) .

والكتاب يشتمل على مقدمة وثمانية فصول وخاتمة :

المقـــــدمة : في تاريخ فن الانشاء وأصوله وقواعده ·

الفصل الأول : في مراسلات السلاطين والأمراء والوزراء ·

الفصل الثاني : في مراسلات الشيوخ والقضاة والعلماء ·

الفصل الثالث : في مراسلات الحكام والمأمورين ·

الفصل الرابع : في المراسلات التي تخاطب الحرفيين والصناع ·

الفصل الخامس : في مراسلات الأقارب والأصدقاء ·

الفصل السادس : في مراسلات التهاني ·

الفصل السابع : في مراسلات التعازى ·

الفصل الثامن : في المراسلات المتنوعة ·

الخاتمـــــة : وتتضمن مجموعة من الرباعيات والقطعات الشعرية نظمها المؤلف نفسه عن المراسلات والألغاز والمواد التاريخية ·

وتبدو قيمة كتاب « نامه نامى » هذا أو كتاب الشهرة فيما تضمنه من ذكر عدد من الأسانيد التاريخية والمراسلات الرسمية الهامة · وتجدر الملاحظة بان هذا الكتاب لم يشر اليه سعيد نفيسى عندما تحدث عن مؤلفات خواندمير في مقدمة كتاب « دستور الوزراء » (١) ، كما أن جلال همائى عندما تحدث عن نفس المؤلفات في مقدمة الطبعة الحديثة من كتاب « حبيب السير » (٢) قد ذكر لفظى « نامهٔ نامى » مشيرا الى كتاب « حبيب السير » نفسه · وتوجد من هذا الكتاب نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس (٣) برقم ١٨٤٢ في قسم الكتب الفارسية ·

٧ ـ الجزء السابع من روضة الصفا (٤)

وهو الجزء السابع المكمل للأجزاء الستة من كتاب « روضة الصفا » الذى طبع في بمباى عام ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م · وهذا الجزء يشتمل على تاريخ السلطان حسين ميرزا بايقرا منذ ولادته وحتى وفاته ، وكذا يتضمن سيرة أعقابه حتى شهر

(١) دستور الوزراء/خواندمير ـ مقدمة سعيد نفيسى ص (هـ) طهران ·

(٢) حبيب السير/خواندمير ـ مقدمة جلال الدين همائى ص ٩ ، ٢٠ المجلد الأول طهران ·

(٣) Blochet E. : Catalogue des Manuscrits Persans de la Bibliothèque Nationale, Vol. 4, pp. 279-281, Paris, 1925.

(٤) حبيب السير/خواندمير مقدمة جلال الدين همائى ص ٣٤ المجلد الأول طهران ·

ذي القعدة عام ٩٢٩ هـ أي بعد احدى وعشرين سنة تقريبا من وفاة ميرخواند مؤلف روضة الصفا ــ الأجزاء الستة الأولى ــ وهذا الجزء منقول بتمامه كلمة كلمة من كتاب « حبيب السير » (١) لخواندمير دون ما زيادة أو نقصـــان اللهم باستثناء مقدمته القصيرة التي لا تتجاوز عشرين سطرا تقريبا والتي يبدو أن ميرخواند كان قد كتبها بنفسه •

والدليل القوى على أن ميرخواند لم يشتغل بالكتابة بعد الفصل السادس من كتابه روضة الصفا هو ما صرح به ميرخواند نفسه من أنه كان يعاني من آلام حادة في الكبد أثناء اشتغاله بتحرير الجزء السادس من روضة الصفا المتضمن الحديث عن السلطان شاهرخ الذي اعتلى العرش بعد وفاة والده تيمور گورکان في عام ٨٠٧ هـ ، وحتى وفاة السلطان أبي سعيد التيموري في عام ٨٧٣ هـ • وبعدها ازدادت آلام المرض على ميرخواند ولم يقو على تحرير صفحة واحدة (٢) • وكان ذلك في عام ٨٩٩ هـ أي ما بين ثلاث الى أربع سنوات قبل وفاة ميرخواند• كما يؤيد الرأى القائل بعدم اشـــتغال ميرخواند بالكتـــابة بعد هـــذا ، ما قاله أيضا أقرب المقربين اليه وهو خواندمير عند الحديث عن سيرته حيث يذكر بأن ميرخواند قد جنح في أواخر أيام حياته الى الاعتكاف والبعد عن الناس ، وقضى سنة كاملة خارج مدينة هراة في « گازرگاه » • وكرس معظم أوقاته للعبـــادة والاستغفار • ثم رجع في شهر رمضان عام ٩٠٢ هـ الى المدينة من كازرگاه بسبب ابتلائه بمرض سوء القنية ، ولازم فراش المرض بعدها الى أن توفى في الثامن من شهر ذي القعدة عام ٩٠٣ هـ (٣) •

ويتضح لنا مما سبق أن صاحب روضة الصفا لم يشتغل بالكتابة منذ انتهائه من كتابة الجزء الخامس والسادس عـــام ٨٩٩ هـ ، وقيامه فقط بكتابة مقدمة قصيرة ــ لا تتجاوز عشرين سطرا ــ للجزء السابع على أمل أن يتمه اذا أرادت مشيئة القدر ، لأنه قضى الفترة من بعد عام ٨٩٩ هـ وحتى وفاته في عام ٩٠٣ هـ في المرض والنقاهة والاعتكاف واعتزال الناس والعبادة والاستغفار • وهكذا أبت ارادة القادر أن يتم ميرخواند هذا الجزء • وهكذا يمكن القول بأن ميرخواند لم يسجل أية وقائع بعد عـــام ٨٧٣ هـ في كتابه « روضـــة الصفا » وما سجل فيه بعد ذلك يرجع الى خواندمير حقيقة وهو الجزء السابع كما سبق أن ذكرنا •

---

(١) المجلد الثالث/الجزء الثالث من ص ٢٣٩ الى ٣٢٠ من طبعة طهران ١٢٧١ هـ •

(٢) روضة الصفا/ميرخواند ــ خاتمة الجزء السادس ص ٤٠٨ بمباى •

(٣) (أ) حبيب السير/خواندمير ــ المجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٠٢ طهران •

(ب) روضة الصفا/ميرخواند ــ جـ٧ ص ١٢٤ بمباى •

٨ ـ حبيب السير فى أخبار أفراد البشر (١)

يذكر لنا خواندمير فى مقدمة هذا الكتاب (٢) أنه بدأ تأليفه بناء على طلب مخدومه الأمير غياث الدين محمد بن يوسف الحسينى الذى كان يتولى التدريس فى مدرسة من مدارس هراة وكان مقربا جدا من السلطان حسين ميرزا بايقرا وأعقابه ثم أصبح قاضيا لخراسان زمن الشاه اسماعيل الصفوى .

وكان غياث الدين هذا من سادات أهل البيت يتصل نسبه بحسين الأصغر ابن الامام زين العابدين على بن الحسين عليهم السلام ، وكان محبوبا جدا من أهل هراة . وما ان بدأ خواندمير فى كتابة الجزء الأول من هـذا الكتـاب تقريبا حتى قتل مخـدومه غيـاث الدين على يد الأمير خان حاكم خراسان من قبل الشـاه اسماعيل الصفوى فسادت الفتن والقلاقل مدينة هراة وخشى خواندمير ألا يستطيع اكماله . ولكن الشاه اسماعيل الصفوى الأول أرسل حاكما جديدا لخراسان أعاد اليها الأمن والطمأنينة هو « دورميش خان » الذى جعل « كريم الدين خواجه حبيب الله الساوجى » وزيرا له . وكان هذا الوزير معروفا بعلمه وأدبه وحبه للتاريخ وسائر العلوم .

والوزير حبيب الله هذا هو الذى شجع خواندمير على تكملة كتابه فاختار خواندمير تسمية كتابه ب « حبيب السير » تيمنا بالوزير حبيب الله الساوجى . وحبيب السير يعتبر أعظم مؤلفات خواندمير وأشهرها وأكثرها تفصيلا ، بدأ تأليفه فى أوائل عام ٩٢٧ هـ وانتهى منه فى عام ٩٣٠ هـ . ولكنه بعد ذلك أعاد فيه النظر مرة أخرى ، وأضاف اليه أمورا أخرى وانتشرت النسخة الثـانية . ولم يذكر خواندمير سوى العام الذى انتهى فيه من تأليف « حبيب السير » دون أن يحدد الشهر أو اليوم فيقول أنه انتهى منه فى عام ٩٣٠ هـ ، وجعل المادة التاريخية للانتهاء منه عبارة « آثار الملوك والأنبياء » أى عام ٩٣٠ هـ بطريقة حساب الجمل (٣) .

وهناك نقطة جديرة بالملاحظة وهى أن الأستاذ / سعيد نفيسى قد ذكر فى

---

(١) (أ) حبيب السير/خواندمير ـ المجلد الأول ، طبعة طهران ، والمجلدات الثلاثة طبعة بمباى .

(ب) دستور الوزراء/خواندمير ـ مقدمة سعيد نفيسى ـ طهران .

(جـ) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى ـ طهران .

(د) مجلة آداب القاهرة ـ المجلد السابع عام ١٩٤٤ م/دكتور ابراهيم الشـواربى .

(٢) حبيب السير/خواندمير ـ المجلد الأول/مقدمة خواندمير ص ٤ طهران .

(٣) لمعرفة طريقة حساب لجمل انظر كتاب « راحة الصدور وآية السرور » لمؤلفه الراوندى ترجمة الأساتذة الدكتور/ابراهيم الشواربى ، الدكتور/عبد النعيم حسنين ، الدكتور/فؤاد الصياد ص ٦٢٣ القاهرة .

مقدمة كتاب « دستور الوزراء » عند حديثه عن مؤلفات خواندمير كتابا باسم « آثار الملوك والأنبياء » ، يعتبره خلاصة لكتاب حبيب السير . ولكننى لم أستطع العثور على من يتفق فى هذا الرأى مع الأستاذ سعيد نفيسى ، كما لم أجد ذكرا لكتاب بهذا الاسم نسب الى خواندمير ، والمعتقد أن ذكر خواندمير لهذه العبارة كان فقط بقصد تسجيل تاريخ الانتهاء من تأليف « حبيب السير » (١) .

وكتاب « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » يشتمل على التاريخ العام للعالم منذ بداية الخلق وحتى عام ٩٣٠ هـ قبل وفاة الشاه اسماعيل الصفوى الأول بأشهر قليلة . وهذا الكتاب يقع فى ثلاثة مجلدات كل منها يشتمل على أربعة أجزاء بيانها كما يلى : —

المجلد الأول : مقدمة وأربعة أجزاء :

المقدمة : فى تاريخ الخليقة .

الجزء الأول : عن الأنبياء والرسل والحكماء .

الجزء الثانى : عن ملوك العجم والعرب الأقدمين .

الجزء الثالث : عن سيرة النبى عليه الصلاة والسلام وغزواته .

الجزء الرابع : عن تاريخ الخلفاء الراشدين .

المجلد الثانى : فى أربعة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ الأئمة الاثنى عشر .

الجزء الثانى : عن تاريخ بنى أمية .

الجزء الثالث : عن تاريخ بنى العباس .

الجزء الرابع : عن تاريخ الدول الفارسية المعاصرة للخلافة العباسية وتاريخ الاسماعيلية .

المجلد الثالث : فى أربعة أجزاء وخاتمة .

الجزء الأول : عن تاريخ المغول الايلخانية .

الجزء الثانى : عن تاريخ الدول المعاصرة لدولة المغول الايلخانية .

الجزء الثالث : عن تاريخ تيمور وأعقابه .

الجزء الرابع : عن تاريخ الشاه اسماعيل الصفوى الأول الى عام ٩٣٠هـ .

الخاتمة : فى ذكر بدائع الربع المسكون وغرائبه ووقائع العالم وعجائبه .

---

(١) حبيب السير/خواندمير — مقدمة جلال الدين همائى المجلد الأول ص ٢٠ طهران .

قيمة كتاب حبيب السير : ـ

تتضح أهمية كتاب « حبيب السير » وقيمته فى أمور عدة امتاز بها وتوفرت له منهـا وضـوح أسلوب الكتاب وخـلوه نسبيا من الحشو والزوائد التى كانت منتشرة فى عصره . كما أن خواندمير رغم أنه كان ينقل عن « روضة الصفا » فى مواقع كثيرة من كتابه « حبيب السـير » الا انه كان يفيض القول فيتحدث عن الدول الصغيرة التى أهملتها « روضة الصفا » . كذلك تتضح قيمة حبيب السير فيما كتبه خواندمير عن الأحداث المعاصرة له ، يقول الأستاذ سعيد نفيسى(١) :

« أين كتاب رابراى خواجه حبيب الله ساوجى وزير دورمش خان حاكم هرات نوشته وبهمين جهة آنرا حبيب السير ناميده است وكتابيست شامل تاريخ عمومى جهان از قد يمترين زمان تا آخر سلطنت شاه اسماعيل صفوى ومخصوصـا قسمتى كه در آن حوادث زمان خودرا دران نوشته كه عبارت از تاريخ سلطان حسين بايقرا وفرزندان او وشاه اسماعيل وبابر وشيبانى باشد در منتهاى اعتبار واز هر حيث بى مانندست ومخصوصا دقت بسيارداشته است كه هيچ جيزرانا سنجيده وبى سند ننويسند » .

وترجمتها : لقد ألف هذا الكتاب بناء على طلب خواجه حبيب الله الساوجى وزير دورميش خان حاكم هراة ، ولهذا السبب أسماه « حبيب السير » . والكتاب يشتمل على التاريخ العام للعالم منذ أقدم العصور وحتى نهاية حكم الشاه اسماعيل الصفوى ، والجزء الذى سجل فيه الأحداث المعاصرة له والمتضمنة تاريخ السلطان حسين بايقرا وأبنائه والشـــاه اسـماعيل وبابر والشيبانى هى فى غاية الأهمية ولا مثيل لها لأنها تميزت بالدقة البالغة لدرجة أنه لم يكن يورد شيئا غير مؤيد بدليل أو سند » . كما يقول الأستاذ جلال الدين همائى (٢) :

« صاحب حبيب السير تمام قصص وافسانه ها واساطير مربوط بدوره هاى قبل ازا اسلام را باهمه مطالب تاريخى دوره هاى بعـد از اسلام تا زمان خودش كه مقارن باعهد سلطنت سلطان حسين بايقرا وشاه اسماعيل أول صفوى است در اين كتاب درج كرده واز اين جهت خدمتى بسيار بزرك بتاريخ وادبيات ايران انجام داده است » .

وترجمتها : « لقد ضمن صاحب حبيب السير هذا الكتاب جميع القصص والخرافات والأساطير المتعلقة بفترات ما قبل الاسلام ، كما ضمنه جميع المطالب التأريخية المتعلقة بفترات ما بعد الاســـلام حتى زمانه ـ الموافق لزمن سلطنة السلطان حسين بايقرا والشاه اسماعيل الصفوى الأول ـ ويكون بهذا قد قدم خدمة جليلة جدا للتاريخ والأدب الايرانيين » .

---

(١) دستور الوزراء/خواندمير ـ مقدمة سعيد نفيسى ص (و) طهران .

(١) حبيب السـير/خواندمير ـ مقدمة جلال الدين همائى ـ المجلد الأول ص ٢٢ طهران .

كما يمتاز كتاب « حبيب السير » أيضا بميزة تميزه عن سائر كتب التاريخ السابقة عليه ، وهى تخصيص خواندمير فصلا فى آخر كل فترة من فترات التاريخ فى الكتاب شرح فيه أحوال مشاهير تلك الفترة من الوزراء وكبار رجال الدولة والسادات والنقباء والمشايخ والعلماء والفضلاء والشعراء ، وهذه الفصول من الفصــول الهامة جدا فى الكتاب • وقد سلك هــذا المسلك ــ الذى ابتدعه خواندمير ــ مؤلفو العصر الصــفوى الذين جاءوا بعــده ، واعتبروه قدوة لهم وخصوصا اسكندر بيك التركمانى فى كتابه « عالم آراى عباسى » الذى خصص فى آخر حديثه عن كل سلطان من سلاطين الدولة الصفوية فصلا تحدث فيه عن مشاهير المعاصرين لذلك السلطان من الفقهاء والشعراء وأصحاب الأقلام والفضلاء والوزراء والأعيان •

منهجــه :

لقد نهج خواندمير فى تأريخه لأحداث كتابه « حبيب السير » منهجا دوليا ولم ينهج طريقة السنين فى تسجيل الأخبار مثلما فعل الطبرى ، ومسكويه فى كتابه « تجارب الأمم » وابن الأثير فى كتابه الكامل وغيرهم •

ومن الواضح أن خواندمير قد سار على نهج رشيد الدين فضل الله (١) مؤرخ المغول وتأثر بكتابه « جامع التواريخ » ونقل عنه كثيرا • وكان يصرح بهذا فمثلا حينما تحدث عن أخلاق غازان خان واصلاحاته تحت عنوان « ذكر شمه از محاسن أوصاف ومحامد آثار غازانى وبيان قوانين بسنديده آن » ، مدح هذا العاهل ، وأثنى عليه ، وكشف عن نواحى العظمة فى شخصيته ، وذكر أنه لم يقصر فى تأسيس بناء الدولة وتمجيد مراسم العدل والاهتمام بشئون الرعية • وقد ساق خواندمير عشرين حكاية لخص فيها اصلاحات غازان لتكون شاهد صدق على اثبــات عظمة هــذا السلطان ، واعترف بأنه نقل هــذه الحكايات من كتاب « جامع التواريخ » •

وقد طبع كتاب « حبيب السير » لأول مرة (٢) عام ١٢٦٣ هـ فى بمباى طبعة حجرية ، كما طبع فى طهران بعدها بثمانى سنوات فى عام ١٢٧١ هـ طبعة حجرية أيضا ، ثم طبع الطبعة الأخيرة ونشر عام ١٣٧٣ هـ فى طهران عن طريق مكتبة الخيام ، وهى طبعة ممتازة تميزت عن سابقتيها بفهرس جامع لجميع محتويات الكتاب وقدم لها الأستاذ جلال الدين همائى ، وهى التى اعتمدت على المجلد الأول من طبعتها ــ ضمن ما تم الاعتماد عليه من الطبعات الأخرى ــ حيث أعارنى اياه أستاذى الفاضل الدكتور/فؤاد عبد المعطى الصياد •

---

(١) انظر كتاب « مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى » للأستاذ الدكتور/ فؤاد عبد المعطى الصياد ــ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٦٧ م •

(٢) كتاب « حبيب السير » خواندمير ــ مقدمة جلال همائى ــ المجلد الأول ص ٤١ طهران •

٩ ـ همايون نامه (١)

وهمايون نامه (٢) رأى كتاب همايون ــ ألفه خواندمير عن الملك نصير الدين محمد همايون الذى سبق أن تحدثنا عنه فى الفصل الأول وهو ابن الامبراطور ظهير الدين بابر ٠

والكتاب يتحدث عن القواعد والقوانين التى وضعها همايون حيث يسمون الكتاب أحيانا « قانون همايون » ، كما يتحدث الكتاب عن الآثار والمنشآت التى أقامها همـايون ويتضمن أيضـــا مدائح لهمـايون نقشت على تلك المنشـآت والعمـــائر ٠

ويبدو أن كتاب « همايون نامه » هو آخر مؤلفات خواندمير ، لأنه يصرح بنفسه فى مقدمة الكتاب أنه وضعه عندما كان همايون فى « كواليور » ٠ ومن الثابت أن همايون كان فى كواليور عام(٣) ٩٤١ هـ أى قبل وفاة خواندمير بعام واحد تقريبـــا ٠

ومما سبق يتضح لنا أن خواندمير كان كاتبا مكثرا قضى معظم سنى حياته فى التأليف رغم الأعباء التى كان يضطلع بها والآلام التى كان يعانيها بسبب تقلبات الأيام وعدم الاستقرار ٠ وقد تميز خواندمير ــ كما سبق أن ذكرنا ــ بأنه وضع جميع مؤلفاته باللغة الفارسية ، وقد لاقت كتبه رواجا كبيرا أثناء حياته كما لقى كتابه « حبيب السير » اهتماما بالغا وأصبح مدرسة سار عليها ، وأخذ عنها المؤلفون الذين جاءوا من بعده ، كما لقى كتابه دستور الوزراء اهتماما كبيرا أيضا وطبع ونشر وأخذ عنه كل من تحدث فى هذا المجال بعده أو صحح كتبا ــ كان قد تناول موضوعاتها ــ قبله ، وسوف نوضح ذلك بمشيئة الله فى الباب القـــادم ٠

---

(١) (أ) دستور الوزراء/خواندمير ــ مقدمة سعيد نفيسى ص (ز) طهران ٠
(ب) حبيب السـير/خواندمير ــ مقدمة جلال الدين همائى ــ المجلد الأول ص ٩ طهران ٠
(جـ) رجال كتاب حبيب السير/عبد الحسين نوائى ص (يح) طهران ٠
(د) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٩ ص ٢٦ القاهرة ٠
(هـ) كتاب اليوت جـ ٥ ص ١١٦ History of India

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب بالمتحف البريطانى ٠

(٣) فهرست ريو « Rieu » ــ المجلد الثالث ص ١٠٢٤ ٠

وعموما فان معظم مؤلفات خواندمير ما زالت فى حاجة الى مزيد من البحث والدراسة والاهتمام وخصوصا من العرب والايرانيين ليزيلوا الغموض عما اكتنف بعضها ، ولتقفنا على مزيد من الحقائق حول فترة من أزهر فترات التاريخ الاسلامى عامة والايرانى بصفة خاصة ـ أنجبت لنا الكثير من الأعلام ـ كان الواحد منهم مدرسة فى فنه ـ لا يزال العالم المتحضر يعتبرهم أئمة فى فنونهم مفسحا المجال ـ فى معاهده وجامعاته ـ لأفكارهم وانتاجهم •

والآن ننتقل الى الحديث عن كتاب دستور الوزراء الذى خصصناه بالدراسة، وقمنا بترجمته الى العربية ، فنفصل فيه القول ، وذلك فى الباب الثانى من هذا البحث •



الباب الثانى

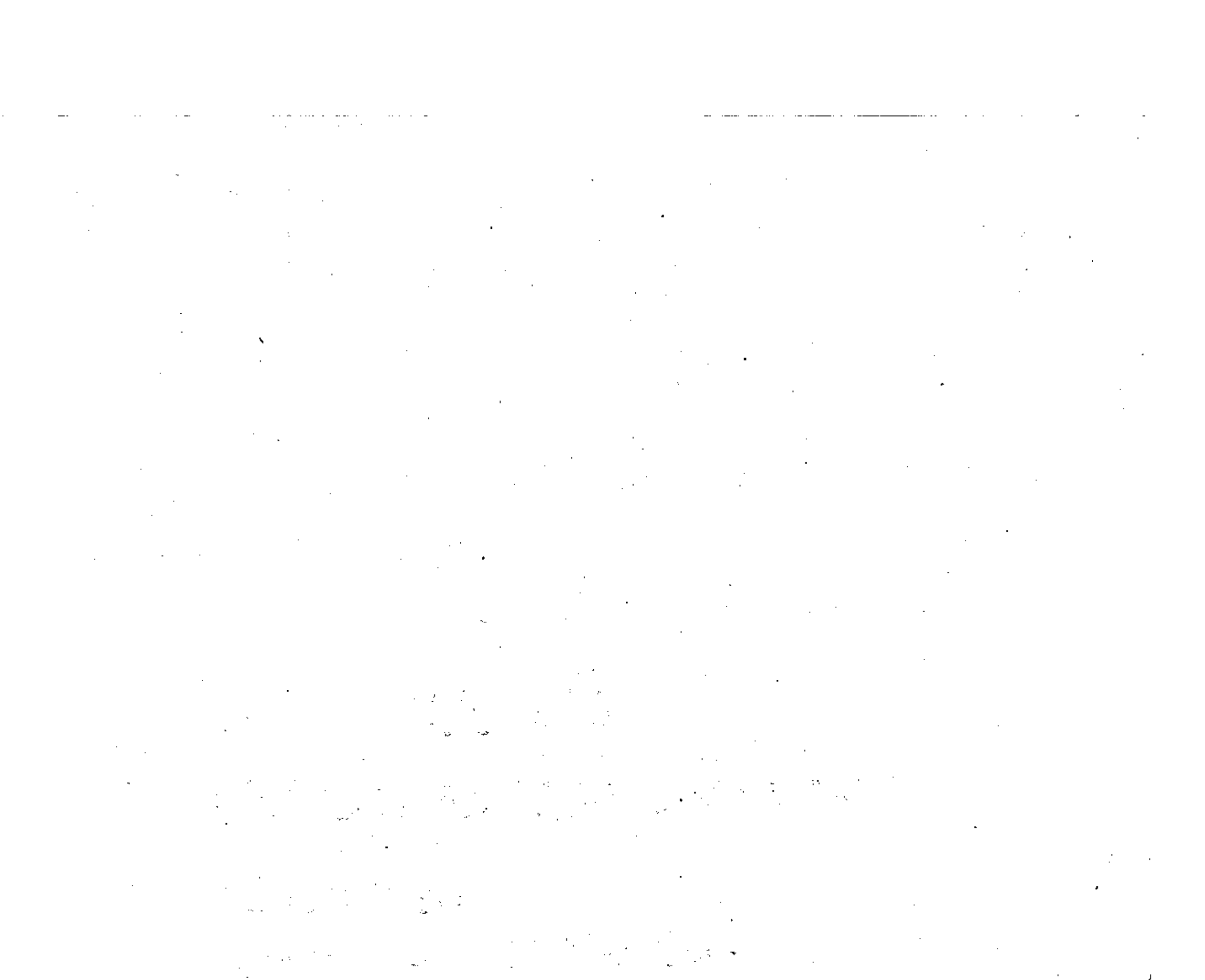
« خواندمير ودستور الوزراء ، دراسة مقارنة »

ويشمل ثلاثة فصول :

الأول : خواندمير ، المؤرخ فى دستور الوزراء .

الثانى : خواندمير ، رجل الأخلاق فى دستور الوزراء ..

الثالث : خواندمير ، مصادر كتابه وقيمته ، أسلوبه وخصائصه .



قبل أن نتناول هذا الباب بالشرح والتفصيل يجب علينا ونحن مقبلون على الحديث فيه عن الوزراء (١) وكتب الوزراء أن نورد ملخصا لتطور الوزارة منذ الاسلام وحتى عصر خواندمير :

تطور منصب الوزارة منذ الاسلام وحتى عصر خواندمير :

منصب الوزارة وانشاء الدواوين تقاليد ايرانية أصيلة أدخلها الساسانيون فى أنظمة حكمهم فساعد هذا المنصب الأكاسرة — قديما — على تنظيم عملية جمع الأموال وانفاقها ، يقول الجهشيارى :

« وكان لملوك فارس ديوانان أحدهما ديوان الخراج والآخر ديوان النفقات ،

---

(١) الوزير هو المتحدث للملك فى أمر مملكته • (صبح الأعشى جـ٥ ص ٤٤٨) ، واختلف فى اشتقاقه : فقيل : مشــتق من الوزر بفتح الواو والزاى ، وهو الملجأ ، ومنه قوله تعالى « كلا لا وزر » (سورة القيامة ، آية ١١) ، وسمى بذلك لأن الرعية يلجأون اليه فى حوائجهم • وقيل : مشتق من الأوزار وهى الأمتعة • ومنه قوله تعالى : « ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم » (سورة طه آية ٨٧) ، وسمى بذلك لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته • وقيل : مشتق من الوزر بكسر الواو واسكان الزاى وهو الثقل • ومنه قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها » (سورة محمد آية ٤) ، وسمى بذلك لأنه يتحمل أثقال الملك •

وروى الثعالبى حديثا هو : اذا أراد الله بعبد خيرا — أو قال : بالأمير خيرا — جعل له وزير صدق ان ، ان ذكر اعانة ، وان نسى ذكره • واذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسى لم يذكره ، وان ذكر له يعنــة •

وفى كتب اللغة : الوزير حبأ الملك — أى جليسه وخاصته — الذى يحمل ثقله عنه ويعينه برأيه — وفى التنزيل : « واجعل لى وزيرا من أهلى » (سورة طه ، آية ٢٩) •

« ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا » (سورة الفرقان ، آية ٣٥) •

فكان كل ما يرد فالى ديوان الخراج وكل ما ينفق ويخرج فى جيش أو غيره ففى ديوان النفقات » (١) ٠

وبعد الفتح الاسلامى لايران فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ دخلت أموال كثيرة الى خزانة المسلمين ، وأصبح من العسير تنظيم جمعها وانفاقها ، فوافق الخليفة عمر على انشاء الدواوين ٠ يقول الجهشيارى :

« وكان عمر أول من دون الدواوين من العرب فى الاسلام ، وكان السبب فى ذلك أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال فلقى عمر ، فقال له عمر : ماذا جئت به ؟ قال : خمسمائة ألف درهم ٠ فقال عمر : اتدرى ماتقول ؟ قال : نعم ، مائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ، ومائة ألف درهم ٠ فقال عمر :

أطيب هو ؟ قال : لا أدرى ٠ فصعد عمر المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ، قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلناه كيلا ، وان شئتم أن نعده عدا ؟ فقام اليه رجل (٢) فقال : يا أمير المؤمنين ، قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوانا لهم : قال : دونوا الدواوين (٣) » ٠

ولكنه رغم هذا لم يعرف ان الخلفاء الراشدين اتخذوا لهم وزراء ، بل اتخذوا كتابا ٠ ولم يصرح أحد من المؤرخين العرب بما يخالف ذلك ، وسار خواندمير على دربهم ، بل انه كان أكثر حذرا منهم فلم يذكر فى كتابه « دستور الوزراء » شيئا عن كتاب الخلفاء الراشدين وبدأ كتابه مباشرة بوزراء العصر الأموى ٠ الا أننا نرى صاحب كتاب « آثار الوزراء » (٤) يطلق على كتاب الخلفاء الراشدين لقب الوزراء ، فيقول فى بداية حديثه عن وزراء الاسلام بأن وزير أبى بكر الصديق كان عثمان بن عفان ، وعبد الله بن الأرقم كان وزير الخليفة عمر ابن الخطاب ، ومروان بن الحكم كان وزير الخليفة عثمان بن عفان ، وعبد الله أبى رافع كان وزير أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٠

والمعتقد أن هذه التسمية قد أطلقها المؤلف من عنده ، فالخلفاء الراشدون لم يكونوا فى أيامهم بحاجة الى وزراء خاصة وأنهم ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب ـ تأليف محمد بن عبدوس الجهشيارى ـ ص ٣ طبعة القاهرة عـام ٧٥٣١ هـ ـ ٣٨٩١ م ٠

(٢) يروى أن الرجل الذى قام الى عمر وأشـار عليه بنصيب الديوان هو ألوالبد هشـام ابن المغيرة وكان قد رأى ذلك عند ملوك الشام ٠ (شرح نهج البلاغة جـ ١٣ ص ١٢٠) ٠

(٣) كتاب الوزراء والكتاب/الجهشيارى ص ١٦ ، ١٧ القاهرة عام ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م ٠

(٤) كتاب « آثار الوزراء » ـ عقيلى ص ٢٢ طبع طهران عام ١٣٣٧ هـ ش ٠

جميعا من خير صحابة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ، وكانت دولتهم تسير على هديه . يقـول ابن الطقطقى فى كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » عنـد حديثه عن دولة الخلفاء الراشدين :

« واعلم أنهـا دولة لم تكن من طراز دولة الدنيا ، وهى بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . والحق فى هذا أن زيها قد كان زى الأنبياء وهديها هدى الأولياء وفتوحها فتوح الملوك الكبار » (١) .

ومما سبق نرى أن الخلفاء الراشدين ـ رضوان الله عليهم ـ لم يتخذوا وزراء بل اتخذوا كتابا . وقد سار بنو أمية على هديهم واكتفوا هم أيضا بكتاب ومستشـارين ، واستحدثوا فقط ديوان الخاتم فى عهـد الخليفة معاوية بن أبى سفيان ، يقول الجهشيارى :

« وكان معاوية أول من اتخذ ديوان الخاتم ، وكان سبب ذلك أنه كتب لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم الى زياد ـ وهو عامله على العراق ـ ففض عمرو الكتاب وجعلها مائتى ألف درهم . فلما رفع زياد حسابه قال معاوية : ما كتبت له الا بمائة ألف درهم ، وكتب الى زياد بذلك وأمره أن يأخذ المائة ألف منه ، فحبسه بها . فاتخذ معاوية ديوان الخاتم وقلده عبد الله بن محمد الحميرى وكان قاضيا » (٢) .

ولكن الوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها عند العرب بعد الاسلام الا فى العصر العباسى . يقول ابن الطقطقى :

« والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها الا فى دولة بنى العباس . فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحـد من الملوك أتباع وحاشية . فاذا حدث أمر استشار بذوى الحجا والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير . فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا » (٣) .

وكان أبو سلمة الخلال هو أول من أطلق عليه لقب وزير حيث وزر للخليفة أبى العباس السفاح ـ أول خليفة عباسى ـ وقد أطلق عليه أهل الكوفة عـام ١٣٢ هـ اسم « وزير آل محمد » (٤) .

---

(١) كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن الطقطقى ص ٦٦ ـ دار المعارف بمصر عام ١٩٢٣ م .

(٢) كتاب الوزراء والكتاب/الجهشيارى ص ٢٤ ، ٢٥ طبعة القاهرة عام ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م

(٣) كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن الطقطقى ص ١٣٥ ـ دار المعارف بمصر ١٩٢٣ م .

(٤) كتاب الوزراء والكتـاب/الجهشيارى ص ٣٣ طبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م .

ونظرا لأن الدولةالعباسية قد نشأت على أكتاف الفرس فاننا نرى الخلفاء العباسيين يسندون منصب الوزارة ــ فى أغلب الأحيان ــ الى عناصر فارسية من أسر عريقة • وقد تفنن هؤلاء الوزراء فى الارتفاع بمستوى الوزارة والعمل على بسط نفوذ الوزير واشتراكه فى تدبير جميع شئون الخلافة ، فنقلوا الرسوم الايرانية العريقة الى البلاط العباسى ، ووصل الأمر الى درجة أن أصبح الوزير هو المسئول الأول عن تدبير شئون الدولة بأكملها وانصرف معظم الخلفاء الى ملذاتهم وانغمسوا فى الشراب واقتناء الجوارى والغانيات وأصبحت مجالسهم أشبه بمجالس أكاسرة الفرس القدماء •

ومن الأسر التى كانت لها مكانة عالية فى البلاط العباسى أسرة البرامكة التى هى من أصل فارسى عريق ، وكلنا يعرف الشهرة التى نالوها والمكانة التى وصلوا اليها قبل نكبتهم ، وكذا أسرة بنى سهل التى وزرت على أنقاضهم •

يذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن(١) أن الدولة العباسية قامت بمساعدة الفرس ، وتقلد الوزارة فى العصر العباسى الأول وزراء أكثرهم من الأعاجم كالبرامكة وبنى سهل ، كما اشتهر فى العصر العباسى الثانى بنو الفرات وبنو وهب وبنو الجراح الذين اشتهر منهم على بن عيسى وزير المقتدر ، وعبد الرحمن ابن عيسى وزير الراضى •

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن (٢) أن حالة الوزارة ساءت فى عهد خلافة المقتدر ، واضطربت الأمور بسبب هذه السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة اثنى عشر وزيرا عزل بعضهم مرارا ، كأبى الحسن بن على بن الفرات وعلى بن عيسى • أضف الى ذلك اعتماده على وزراء ضعاف كأبى على بن محمد بن مقلة الذى عزله الراضى لوشاية أعدائه به وحبسه بعد أن قطعت يده اليمنى ، وكان يبكى على يده ويقول :

« قد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء ، وكتبت بها القرآن دفعتين ، تقطع كما تقطع أيدى اللصوص » (٣) •

وحينما زاد نفوذ العنصر الفارسى والتركى فى البلاط العباسى ، أصبح منصب الوزارة مهددا فى كل وقت وكثرت الرشاوى ، وكان كل من يجد فى نفسه القدرة على دفع مبلغ من المال لأهل القصر وغلمان الأتراك والقواد كان يصل الى مقعد الوزارة ، ولكنه اذا ظهر هناك من يدفع أكثر منه كان يقال ويجرد من

---

(١) فى كتابه ، « تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » ، الطبعة السابعة ص ٢٥٥ القاهرة سنة ١٩٦٥ م •

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ •

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ج ١ ــ ص ٣٣٨ •

ممتلكاته أيضا • ولذلك حفلت الدولة العباسية فى أواخر أيامها – بعدد كبير من الوزراء •

وهكذا فقد ساءت أحوال الوزارة تبعا لفساد حال الخلافة ، وقامت فى ايران دويلات مستقلة ، تولى حكمها ملوك وسلاطين ، أنشأوا فى بلاطهم الدواوين واتخذوا لانفسهم وزراء وطبعوا بلاطهم بالطابع الفارسى الاصيل ، نظرا لأن معظمهم كانوا من أصل فارسى • وقد شجع هؤلاء الحكام الوزراء وجعلوا بلاطهم محط الأنظار • وكلنا نعرف الوزراء :

أبا على البلعمى الذى ترجم تاريخ الطبرى فى عهد السامانيين ، وأحمد الاسفرايينى وأحمد بن حسن الميمندى فى عهد الغزنويين ، والكندرى ونظام الملك واولاده فى عهد السلاجقة ، وسعد الدين الأبهرى فى عهد الخوارزميين ، وغيرهم •

وبعد ذلك جاء المغول بغاراتهم على العالم الاسلامى وكانوا قوما بدوا بعيدين عن مراكز الحضارة والمدنية – فدانت لهم مناطق كبيرة من العالم ، امتدت من سواحل الصين حتى قلب روسيا وحدود مصر ، وكان لابد لهم أن يتدبروا فى كيفية ادارة دولتهم تلك المترامية الأطراف – وهم قوم تنقصهم الخبرة فى هذا المجال وليست لديهم معرفة سابقة بأمور الاستيفاء وشئون الحكم والقضاء – ولذلك فقد اعتمدوا على أهل البلاد المفتوحة وولوهم المناصب وتركوا لهم مهمة الادارة وجمع الأموال واختصوا هم بأمر الجند والقتال •

وكان معظم من تولوا الوزارة لسلاطين المغول من أصل ايرانى ، ففعلوا كذلك ما فعله أسلافهم أثناء الخلافة العباسية والدويلات المستقلة ، وطبعوا البلاط المغولى بالطابع الفارسى ، ونقلوا اليه رسوم الايرانيين وعاداتهم ونظمهم وتقاليدهم، وكان أول وزير لجنگيزخان هو الوزير محمود يلواج سفيره لدى خوارزمشاه • كما وزر للمغول أيضا عدد كبير من العلماء والعظماء الذين هم من أصل ايرانى، فكان لهم فضل كبير على دولتهم ، وباع طويل فى ادارة شئوتها ، ومن هؤلاء الوزير أحمد البناكتى والصاحب السعيد شمس الدين محمد الجوينى – الذى أطلق على نفسه لقب « صاحب الديوان » بدلا من لقب وزير • وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى عصر السلطان « بايدو » ٦٩٤ هـ حيث أبطل وزيره « جمال الدين الدستجردانى » هذا التقليد وأطلق على نفسه لقب « الوزير » (١) •

ومن الوزراء العظام الذين وزروا للمغول وكان لهم فضل كبير فى حسن ادارة دولتهم والتأريخ لهم وحفظ أعمالهم كان الوزير المؤرخ رشيد الدين فضل الله

---

(١) أنظر كتاب « مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى » تأليف الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد – ص ١١٨ ، ١١٩ – دار الكاتب العربى للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٧ م •

الطبيب حيث وضع موسوعة ضخمة فى التاريخ العام أرخت للمغول وللدول التى اتصلوا بها ، وقضى رشيد الدين أغلب أيام عمره فى بلاطهم ، ولكنهم للأسف لم ينل منهم ـ كعادتهم مع الكثيرين من العظماء ـ سوى الخسارة والالام ، حيث أزهقوا روحه الطاهرة نتيجة الدس وتأصل صفة الجحود والنكران • يقول الأستاذ الدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد فى هذا المجال :

« ولكن هذه الخدمات الجليلة كثيرا ما كانت تقابل بالنكران والجحود ولا يجزى صاحبها الا جزاء سنمار ، فعلى الرغم من المكانة المرموقة التى كان يتمتع بها الوزير فى أعين الناس ، كان فى الحقيقة فى موقف لا يحسد عليه ، كما كان مركزه محفوفا بالمخاطر يؤاخذ على أتفه الأسباب وتحسب عليه أقل الهفوات ، وترقبه أعين الجواسيس وتحاك ضده المؤامرات والدسائس وتوضع أمامه العراقيل » (١) •

وأما العصر التيمورى فاننا نلاحظ أنه تميز بكثرة عدد الوزراء واقبال السلاطين على اختيار وزرائهم من بين الأعيان والأثرياء ، كما كانوا يميلون الى عزل الوزراء وتنصيبهم بسرعة جدا كما يصرح بذلك خواندمير نفسه فى مستهل حديثه عن هؤلاء الوزراء حيث يقول :

« وعادت اين سلطانان جنان بودكه زود زود بنصب وعزل وزراء مى برداختند ، ومردم فرومايه را بتقلد اين منصب جليل المراتب سر افراز مى ساختند ، لاجرم جمعى كثير وجمعى غفير در ايام دولت ايشان وزير گشتند » (٢) •

وترجمتها : « وكان من عادة هؤلاء السلاطين أنهم كانوا يقومون بتعيين الوزراء وعزلهم بسرعة جدا ، كما كانوا يعينون الرجال الأثرياء فى هذا المنصب الجليل ، فلا شك أن وصل الى منصب الوزارة فى عهدهم عدد كبير جدا » •

ولكن نظرة السلاطين التيموريين قد تغيرت عن نظرة أسلافهم الايلخانيين تجاه الوزراء فلم تعد ظاهرة قتل الوزراء لأتفه الأسباب سائدة بينهم ، بل انهم كانوا يولون الوزراء ويعزلونهم اما بسبب عدم توفيقهم فى ادارة الأمور أو بسبب ظلمهم وجورهم على الرعية ، وقلما كانت تنتهى حياة الوزراء بالقتل • فاذا نظرنا الى ما آل اليه حال وزراء سلاطين التيموريين الذين تحدث عنهم خواندمير وعددهم سبعة وأربعين وزيرا ، نجد أن الذين انتهت حياتهم بالقتل كانوا خمسة وزراء منهم ، قتل معظمهم نتيجة للمكائد والدسائس التى كانت تدبر لهم •

وقد يرجع السبب فى ذلك الى أن التيموريين جاءوا الى الحكم وهم على دين

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ •

(١) كتاب « دستور الوزراء » ، خواندمير ـ ص ٣٤٠ طهران ١٣١٧ هش •

الاسلام حيث كان رأس أسرتهم تيمور گوركان مسلما شديد التعصب للاسلام سرعان ما اندمج مع الشعب الايرانى ، وأقدم على تعمير ما خربته الغارات باقامة الأسواق والمبانى •

كما يرجع السبب أيضا فى تغيير نظرة السلاطين التيموريين الى الوزراء اقبال السلاطين على تلقى العلوم المختلفة ورعاية الفنانين والعلماء ، فهذا شاهرخ يؤسس مجمعا فنيـا فى مدينة هراة يجمع فيه الفنانين من خطاطين ومصورين ومذهبين ومجلدين وغيرهم ويجعل من عصره عصر نهضة فنية شاملة فى ايران ، وهذا ألغ بيك ـ خليفة شاهرخ ـ لا يزال المرصد الذى بناه قائما فى سمرقند ، وهذا بايسنقر ـ أخى شاهرخ ـ قد أحرز شهرة خالدة فى فنون الخط والموسيقى والتصوير ، وهذا حسين ميرزا بايقرا الشاعر الأديب يرعى الآداب والفنـون ويجعل بلاطه موئلا للعلماء والفضلاء • فلا شك أن هذا المستوى الرفيع الذى وصل اليه سلاطين العصر التيمورى قد غير من نظرة هؤلاء السلاطين الى الوزراء ، وأصبحوا ينظرون اليهم نظرة تقدير واحترام ، مما جعل الوزراء يقبلون بنفس راضية على أعمالهم وينصرفون بقلوب مطمئنة الى تدبير شئون بلادهم ، فنعمت ايران فى عهدهم بالكثير من النعم والخيرات •

واذا كان قد لحق الأذى أحيانا ببعض الوزراء فى العصر التيمورى فانما يرجع ذلك اما الى خطأ جسيم ارتكبوه أو الى كيد الوزراء أنفسهم بعضهم لبعض •

وبعد هذا يمكن لنا أن نقول ان سلاطين العصر المغولى كانوا ـ غالبا السبب فيما نزل بوزرائهم من محن ، وما حل بهم من نكبات وأما فى العصر التيمورى فان الوزراء كانوا هم أنفسهم الذين يظلمون •

الفصـل الأول

خواندمير المؤرخ فى دستور الوزراء

تمهيـــد :

لقد ازدهر فن كتابة التاريخ دون سائر فنون الأدب الأخرى فى العصر التيمورى وأقبل الايرانيون على مزاولة هذا الفن والارتقاء به مثلما فعل أسلافهم فى العصر الايلخانى ·

فحينما اجتاح تيمورلنگ ولايات ايران المتفرقة وأسقط حكوماتها ، أغار جنوده على مدنها وقراها وأعملوا التخريب والدمار فى ما يصادفهم ، وكان لهذه الغارات أثر لا يقل عن أثر هجمات سلفيه چنگيزخان وهولاكوخان · ولذلك فقد أقبل الايرانيون على انقاذ ما يمكن انقاذه من تراثهم العريق الذى راح معظمه ضحية هذه الهجمات (١) ·

واذا نظرنا الى الحركة الأدبية فى هذا العصر فاننا نجدها قد تأثرت بحالة الاضطراب والعنف هـذه حيث وجـد الشعب الايرانى أن معظم آثاره العلمية والأدبية قد ضاعت أو أحرقت ، ولذلك فقد أقبل من كتب لهم البقـاء بعد هذه الغارات على تسجيل ما يحتفظون به فى ذاكرتهم أو تنظيم وترتيب ما نجا من الكتب أثناء هذه الغارات ·

وهكذا فاننا نرى أن فن التاريخ وكتابته قد ازدهر فى هذا العصر كما أن فنون المعمار والتذهيب والتصوير ـ التى عمل الأمراء التيموريين عـلى تشـجيع قيامها ـ قد ازدهرت هى أيضا فى هذا العصر وخصوصا بعد استقرار الأحوال وزوال شبح الغارات وخطر التخريب والدمار ، وظهر كثير من الأدباء والعلماء والفنانين الذين كان لهم أثر عظيم فى احياء التراث الاسلامى والحضارة الفارسية

(١) كتاب حبيب السير فى أخبار أفراد البشر/خواندمير ـ مقدمة جلال همائى ص ٢ طبعة طهران ·

الاسلامية ووضعوا الشعب الايرانى فى الصف الأول بين حضارات العالم فى ذلك العصر ، كما ظهر كتاب صنفوا موسوعات تاريخية ضخمة عوضت ما ضاع كما سجلت تاريخ وحضارة الشعب الايرانى العريق فى تلك الفترة ، وكان لهـؤلاء فضل كبير على الأدب الفارسى • يقول ملك الشعراء بهار :

« انحطـاط أدبى درين عصر دنبـاله كاروان تقهقر را رهـا نكرد ، تنها تاريخ وخط وفن مينيا تور سازى وتذهيب ومعمارى روبترقى داشت ، كتب تاريخ بزبان سـادة كه در أواخر قرن هفتم مقبـول افتاده بود بيروى شـد ، نويسند گان چون مولانا نظام الدين شامى ياشنب غازانى مؤلف « ظفر نامه » ومولانا نورالدين لطف الله ابن عبد الله الهروى مشهور بحافظ آبرو متوفى (٨٣٤) ، ومولانا شرف الدين على يزدى متوفى ٨٥٨ مؤلف «ظفر نامه تيمورى» ، وكمال الدين عبد الرزاق بن اسحاق سمرقندى متوفى ٨٨٧ مؤلف « مطلع السعدين » ، وميرخواند محمد مؤلف « روضة الصفا » متوفى ٩٠٣ ، وخواندمير مؤلف « حبيب السـير » دخترزاده ميرخواند متوفى ٩٤٢ و غيرهم در تاريخ نويسى خدمتهاى بسنديده باديبات فارسى بروز دادند » (١) •

وترجمتها : « لم يستطع الأدب فى هذا العصر التحرر من تبعيته لقافلة التقهقر والانحطاط اللهم الا فنون التاريخ والخط والمنمنمات والتذهيب والمعمار حيث أخذت سبيلها الى الرقى والتقدم ، واقتفى أثر الكتب التاريخية التى كانت قد ألفت بلغة سهلة فى أواخر القرن السابع ولقيت قبولا حسنا ، وقدم الكتاب ــ أمثال مولانا نظام(٢) الدين الشامى أو « الشامى الغازانى » مؤلف «ظفر نامه»،

(١) محمد تقى بهار ، سبك شناسى ، المجلد ٣ ، ص ١٨٥ •

(٢) المؤرخ نظام الدين الشامى هو أول مؤرخ سجل تاريخ السلطان تيمور گوركان ــ مؤسس الدولة التيمورية ــ باللغة الفارسية ، حيث كان الشامى معاصرا لذلك السلطان وسمى بالشامى ــ أو الشامى الغازانى ــ نسبة الى شام غازان والتى كانت تعرف أيضا باسم « شنب غازان » وهى البلدة التى دفن بها جثمان السلطان المغولى غازان خـان والتى تقع على بعد ميلين جنوب غربى مدينة تبريز ــ وليس نسبة الى بلاد الشام • ومن حسن حظ الشامى أنه كان أول من التقى بالأمير تيمور گوركان ــ من أهل بغداد ــ بعد استيلائه عليها عام ٧٩٥ هـ ــ ١٣٩٣ م وهناه على هذا الفتح والظفر ، فكان لموقفه هذا أثر طيب فى نفس ذلك السلطان الذى شمله بعـدها بعطفه ورعايته • وفى عام ٨٤٠ هـ ــ ١٤٠٩ م استدعاه السلطان تيمور وكلفه بتسجيل فتوحاته وانتصاراته ، ووضع بين يديه المستندات والأوراق الرسمية التى تساعده على اخراج هذا العمل الخطير بدقة وأمانة وأوصـاه بالبعد عن أسلوب الانشـاء والطنطنة ، والتزام جانب الدقة والبساطة ليسهل على الخاصـة والعامة قراءته والاطلاع عليه • وبالفعل أنجـز الشامى هذا العمل الكبير فى عام ٨٠٦ هـ ــ ١٤٠٤ م ، وأطلق عليه اسم « ظفر نامه » أى كتاب الظفر •

ويعتبر هذا العمل أول سجل لفتوحات تيمور وضع فى حياته باللغة الفارسية ، وفى عام ٨١٤ هـ وأثناء حكم السلطان شاهرخ ، وضع حافظ آبرو ذيلا لظفر نامه ــ بأمر ذلك السلطان ــ أوصله الى عام ٨٠٧ هـ ــ تاريخ وفاة تيمور ــ كما قلد الشامى مؤرخ آخر هو شرف الدين على اليزدى حيث وضع كتابا عن تاريخ تيمور أسماه أيضا « ظفر نامه » ، نقل معظمه من تاريخ الشامى ، كذلك أخذ عن الشامى المؤرخون الذين جاءوا بعد أمثال عبد الرازق السمرقندى =

ومولانا نور الدين لطف الله بن عبد الله الهروى المعروف بحافظ (١) آبرو المتوفى عام ٨٣٤ هـ ، ومولانا شرف الدين (٢) علي اليزدى المتوفى عام ٨٥٨ هـ مؤلف

وميرخواند وخواندمير ، وأصبح مؤلفه لا غنى عنه لكل من يريد معرفة تاريخ ايران السياسى والعسكرى فى تلك الفترة عامة ، وتاريخ تيمور گوركان مؤسس السلسلة التيمورية فيها خاصة .

(أنظر براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ٣ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٣٨٦ ـ ٣٩٠ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش) .

(١) المؤرخ حافظ أبرو هو شهاب الدين عبد الله بن لطف الله بن عبد الرشيد الخوافى الملقب بـ « حافظ آبرو » ، ولد فى مدينة خواف بمنطقة خراسان ، ونما ونشأ فى مدينة همدان ، ولا يعلم تاريخ ميلاده على وجه التحديد ، ويرجح أن تكون قد حدثت ولادته عام ٧٦٣ هـ .

صحب حافظ آبرو الأمير تيمور لنگ فى حروبه وغزواته وشاهد ما جرى من حوادث ، وبعد موت تيمور ، التحق بخدمة خليفته شاهرخ وعاش فى العاصمة هراة ، كما اتصل بحفيده بايسنقر ، وتوفى حافظ آبرو فى أواخر عام ٨٣٣ هـ .

وأهم مؤلفات حافظ آبرو عبارة عن موسوعة تاريخية سجل فيها تاريخ العالم ـ بأمر السلطان شاهرخ عام ٨٢٠ هـ ـ وذلك نقلا عن أهم الكتب التاريخية المعروفة فى ذلك الوقت وهى الترجمة الفارسية لكتاب تاريخ الطبرى التى قام بها البلعمى ، وكتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله ، وكتاب ظفر نامه لنظام الدين الشامى ، كما قام بعمل ذيل لكتاب رشيد الدين «جامع التواريخ» بدأه بذكر تاريخ أولجايتو أى من حيث انتهى رشيد الدين الى أن وصل به الى حوادث ٨٢٠ هـ . كذلك انتهى حافظ أبرو من تأليف كتاب « مجمع التواريخ » فى عام ٨٣٠ هـ ضمنه تاريخ العالم من بدء الخليقة حتى عام ٨٣٠ هـ فى أربعة مجلدات يطلق على كل مجلد اسم « ربع » . ومن مؤلفات حافظ أبرو أيضا كتاب « ذيل ظفر نامه » لنظام الدين الشامى ألفه عام ٨١٤ هـ تنفيذا لأمر شاهرخ ضمنه حوادث السنة الأخيرة من حياة تيمور وهى عام ٨٠٧ هـ ، وله أيضا كتاب فى الجغرافيا ألفه أيضا بناء على أمر شاهرخ وردت فيه اشارات تاريخية هامة عن منطقة خراسان .

وهكذا نرى أن حافظ آبرو كان غزير التأليف ، حفظ لنا الكثير مما كانت تحتويه الكتب التى فقدت منذ عهده وكتبه تعتبر مراجع من الدرجة الأولى .

(براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ ٣ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٦ ، الترجمة الفارسية طهران ١٣٢٧ هـ ش) .

د (الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، القاهرة ١٩٦٧ م) .

(٢) المؤرخ شرف الدين على اليزدى ، وكان من الشعراء والمؤرخين المعاصرين للسلطان شاهرخ التيمورى ، وقد برع فى صناعة الألغاز ، وكان يتخلص بـ «شرف» فى أشعاره . واليزدى كان يعمل بالتدريس فى يزد قبل التحاقه بخدمة السلاطين ، وكان يؤم مجلسه عدد غفير من الدارسين . وفى عام ٨٤٦هـ ـ ١٤٤٢م استدعاه من يزد ميرزا سلطان محمد ـ الذى كان وقتها حاكما على العراق ـ وقربه اليه وأحسن معاملته ، وجعله من مستشاريه وندمائه . وعندما رفع ذلك الأمير راية العصيان فى عام ٨٥٠ هـ ـ ١٤٤٦ م ضد جده السلطان شاهرخ ، وتقدم اليه الأخير على رأس جيش كبير وألحق به هزيمة منكرة ، وقضى على معظم مستشاريه وأعوانه ، =

« ظفر نامهء تيمورى » ، وكمـال الدين (١) عبد الرزاق بن اسـحق السمرقندى المتوفى عام ٨٨٧ هـ مؤلف « مطلع السعدين » ، وميرخواند محمد مؤلف « روضة الصفا » المتوفى عام ٩٠٣ هـ ، وخواندمير مؤلف « حبيب السير » وابن كريمة ميرخواند والمتوفى عام ٩٤٢ هـ وغيرهم ـ خدمات جليلة للأدب الفارسى من خلال الكتابة التاريخية » •

وقد ساعد فى رواج فن كتـابة التـاريخ وازدهاره ما عرف عن الأمراء التيموريين أيضا من حب للعلوم والفنون ، ورغبـة منهم فى تسجيل أعمـالهم وآثارهم • وقد ظهر من بين أمراء الدولة التيمورية العلماء والأدباء والخطاطون

= اتهم مولانا شرف الدين بتحريض ذلك الأمير ، وكاد يقضى عليه هو الآخر لولا أن ميرزا تشفع له لدى جده شاهرخ بحجة أن والده ألغ بك سوف يحتاج اليه فى اقامة مرصد سمرقند ، فعفا عنه شاهرخ وأرسله الى سمرقند ـ وبعد موت شاهرخ استأذن اليزدى ميرزا سلطان محمد ـ الذى ولى فترة حكم خراسان ـ وذهب الى يزد عام ٨٥٣ هـ ـ ١٤٤٩ م ، وأقام فى قرية تفت ، وظل بها الى أن توفى فيها عام ٨٥٨ هـ ـ ١٤٥٤ م ودفن بجوار المدرسة الشرفية التى التى كان قد أقامها قبل وفاته •

وترجع شهرة اليزدى الى مؤلفه التاريخى « ظفر نامه » الذى ألفه عام ٨٢٨ هـ ـ ١٤٢٤ م وتحدث فيه عن فتوحات تيمور وأبنائه ويذكر المستشرق براون أن هذا الكتاب هو نفس كتاب « ظفر نامه » الذى وضعه سلفه نظام الدين الشامى أو بعبارة أخرى هو تفصيل ما أوجزه الشامى من قبل •

وعلى أى حال فقد حظى كتاب اليزدى بما لم يحظ به كتاب الشامى من شهرة وانتشار •
(براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ٣ ص ٣٨٩ ـ ٣٩٣ طهران ١٣٢٧ هـ ش الترجمة الفارسية) •

(١) المؤرخ كمال الدين عبد الرزاق السـمر قندى : ولد فى مدينة هراة عام ٨١٦ هـ ـ ١٤١٣ م ، واشتهر بالسمرقندى نظرا لأن سمرقند كانت موطن والده مولانا جلال الدين اسحق الذى كان يعمل قاضيا عسكريا فى جيش السلطان شاهرخ وفى عام ٨٤١ هـ ـ ١٣٤٧ م وضع كمال الدين عبد الرزاق ـ بعد وفاة والده ـ رسالة فى الصرف والنحو ، وقدمها للسلطان شاهرخ ، فلقيت اعجاب ذلك السلطان وأصبح عبد الرزاق موضع عنايته ورعايته • وبعد أربع سنوات وفى عام ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١ م بعثه السلطان شاهرخ سفيرا له لدى بلاط السـلطان بيجانكار فى الهند ، وقضى هناك ثلاث سنوات وقد شرح السمرقندى بالتفصيل مارآه وشاهده خلال تلك الرحلة • وفى عام ٨٥٠ هـ ـ ١٤٤٦ م ـ بعثه شاهرخ مرة أخرى برسالة الى كيلان ولا شك أن السمرقندى قد استفاد فائدة محققة من هـذه الأسـفار ، ظهرت نتيجتها فى كتابه « مطلع السعدين » •

وفى عام ٨٥٠ هـ ـ ١٤٤٦ م توفى السلطان شاهرخ ، فالتحق السمرقندى بخدمة الأمراء التيموريين أمثال ميرزا عبد اللطيف وميرزا عبد الله وميرزا أبى القاسم بابر ، ثم انتهى أمره بالعمل فى خدمة السلطان أبى سعيد التيمورى • وبعد أن قضى السمرقندى فترة فى خدمة ذلك السـلطان ، ركن الى العزلة والانزواء وانقطع للعبادة والزهد فى هراة ، وكان ذلك عـام ٨٦٧ هـ ـ ١٤٦٣ م وظل السمرقندى على هذه الحال الى أن توفى عام ٨٨٧ هـ ـ ١٤٨٢ م فى هراة أيضا • ومن المعروف أن المؤرخ كمال الدين عبد الرزاق السمرقندى لم يضع سوى كتاب =

والرياضيون ، يقول نصر الله (١) الطرازى : « وقد ذكر لنا التاريخ أن تيمور لنك بعد ان اتخذ مدينه سمرقند عاصمه له استدعى الفنانين من شتى بلاد العالم للعمل على تجميلها بحيث انه جعل من عاصمته مركزا هاما للعلوم والفنون .. وهذا شاهرخ يؤسس مجمعا فنيا فى مدينة هراة يجمع فيه الخطاطين والمصورين والمذهبين والمجلدين ويعتنى بهم ويشجع اعمالهم الفنيه بحيث أنه يجعل من تلك المدينه مركزا هاما لنهضه ادبيه وفنيه خالدة ، وهذا بايسنقر الامير الشاعر الخطاط الماهر يجعل من مكتبته الخاصه خليه فنيه - يجمع فيها نخبه ممتازة من أساتذة فن الكتاب يصل عددهم الى اربعين فنانا ينسخون أمهات الكتب ويصورونها ... كما شهدت هراة فى عصر السلطان حسين بايقرا ووزيره الأديب عليشير نوائى نهضه ادبيه وفنيه تبشر بالكمال » . وهكذا نرى ان الكتابة التاريخيه وجدت رواجا كبيرا فى العصر التيمورى ، وتصدى لها كبار الكتاب ، ووضعوا فيها مؤلفات مازالت من امهات الكتب التى لا يستغنى عن دراستها والرجوع اليها والاستعانة بها كل من يتصدى لدراسة الادب الفارسى وفنونه ، وكان مما أنتجته هذه النهضة - التى وصلت غايتها فى عهد السلطان حسين بايقرا - كتاب « دستور الوزراء » الذى ألفه خواندمير وقدمه لذلك السلطان .

أهم الكتب التى تحدثت عن الوزراء قبل دستور الوزراء :

لقد كان من المعمول به بين مؤرخى الاسلام وضع كتب تتعلق مادتها بالحديث عن أحوال الوزراء منذ عهد الخلفاء الأول وحتى العصر الذين يعيشون فيه . وقد كان للغة العربية فضل السبق فى اقتناء هذا اللون من المؤلفات رغم أن فن التدوين فن ايرانى أصيل ومنصب الوزارة ايرانى يرجع الى عهد الساسانيين . ومن أهم الكتب التى طرقت هذا المجال قبل دستور الوزراء كتاب « الوزراء والكتاب » لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، وكتاب « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » لأبى الحسن الهلال بن المحسن بن ابراهيم الصابى الكاتب ، وكتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية » تأليف محمد بن على ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، وهذه الكتب مؤلفة باللغة العربية ، وقد نقل

= تاريخى واحد ، وهو كتابه المسمى « مطلع السعدين » ويشتمل على مجلدين ، أرخ فيهما لفترة امتدت من عام ٧٠٤ هـ - ١٣٠٤ م - عام ميلاد السلطان أبى سعيد بهادرخان المغولى - الى عام ٨٧٤ هـ - ١٤٦٩ م عام وفاة سميه السلطان أبى سعيد التيمورى . وترجع أهمية هذا الكتاب الى كون صاحبه قد عاصر معظم الأحداث التى ضمنها كتابه ، وصاغها بأسلوب نقدى ، فجاءت معبرة عن تلك الفترة الهامة من تاريخ ايران .

(براون ، التاريخ الأدبى لايران جـ٣ ص ٤٧٩ - ٤٨١ الترجمة الفارسية طهران . ١٣٢٧ هـ ش - ١٩٤٨ م) .

(١) فى كتابه « الفهرس الوصفى للمخطوطات الفارسية » - دار الكتب المصرية - القاهرة .

الكتاب الأخير منها الى اللغة الفارسية بعنوان « تجارب السلف در تواريخ خلفا ووزراى ايشان » نقله هندوشاه بن سنجر النخجوانى ٠

والكتابان الوحيدان اللذان ألفا باللغة الفارسية قبل دستور الوزراء هما كتاب « نسائم الأسحار ولطائف الأخبار » المجهول المؤلف والموضوع عام ٧٢٥ هـ ، وكتاب « آثار الوزراء » لسيف الدين حاجى بن نظام عقيلى ، وضعه صاحبه عام ٨٧٥ هـ – قبل بضع سنوات من « دستور الوزراء » – فى عصر السلطان حسين ميرزا بايقرا ، ولكن هذا الكتاب لم يطبع وينشر الا بعد نشر « دستور الوزراء » ، ولذلك فقد اعتمد مصححه على « دستور الوزراء » اعتمادا كبيرا ٠ هذا بخلاف الكتب العربية والفارسية التى أفردت فصولا أو صفحات فى طياتها عن أحوال بعض الوزراء – ضمن موادها الأخرى – مثل كتابى « تجارب الأمم » لمسكويه ، « وتاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جرير الطبرى بالعربية ، وكتابى « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله و « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » لمحمد عوفى بالفارسية ، وغيرها ٠

وفيما يلى بيان بأقسام أربعة من الكتب التى وضعت أصلا عن الوزراء قبل « دستور الوزراء » ، مع بيان قيمة كل منها ، ثلاثة منها باللغة العربية وهم « تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » للصابى ، و « الوزراء والكتاب » للجهشيارى ، و « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » لابن الطقطقى ، وكتاب باللغة الفارسية وهو « آثار الوزراء » لسيف الدين حاجى عقيلى ، وذلك حتى يمكن عمل مقارنة بينها وبين كتاب « دستور الوزراء » الذى سوف نعرضه بعد عرض هذه الكتب مباشرة ٠

(أ) كتاب الوزراء والكتاب :

وهذا الكتاب يعتبر أشهر مؤلف فى تاريخ الوزراء والكتاب الاسلاميين ، كما يعد من أقدم المصادر التاريخية فى هذا المجال ، تحدث فيه مؤلفه عن تاريخ كتابة الانشاء منذ تأسيس الدولة الاسلامية فى عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم ، كما تحدث فيه عن تاريخ الوزارة والوزراء فى الاسلام الى نهاية القرن الثالث الهجرى ٠ ومؤلف الكتاب هو أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى ، كان من أهل الكوفة ، ثم انتقل الى العراق وعاش فى عصر الخليفة المقتدر بالله العباسى ، وأصبح من كبار الموظفين فى الدولة العباسية ٠ وكان الجهشيارى معاصرا للامام محمد بن جرير الطبرى كما كان صديقا للوزير ابن مقلة ٠ وقد توفى الجهشيارى فى عام ٣٣١ هـ ٠

والجزء الذى بين أيدينا من كتاب « الوزراء والكتاب » والمنشور عام ١٣٥٧هـ – ١٩٣٨ م بالقاهرة يشتمل على الأقسام الآتية :

— مقدمة : فى أوائل الكتابة والكتاب وأيام ملوك الفرس ٠

— أسماء من ثبت على كتابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ٠

— أيام الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ حسب ترتيبهم التاريخى ٠

— أيام الدولة الأموية ابتداء بمعاوية بن أبى سفيان وانتهاء بمروان ابن محمد الجعدى ٠

— أيام الخلفاء العباسيين ووزرائهم ابتداء بأبى العباس السفاح وانتهاء بالخليفة المأمون ٠

ويتضح لنا أن الجهشيارى قد أرخ للوزارة منذ عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ٠ وربما كان يقصد الجهشيارى بكتاب الوحى أو الكتاب الآخرين فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ، أو كتاب الخلفاء الراشدين والأمويين انهم كانوا بمثابة وزراء ومعاونين ، ولكنه لم يصرح بذلك وأسماهم كتابا ، وكانت أول مرة يذكر فيها كلمة وزير فى صحيفة ٨٤ من الكتاب(١) اذ يقول :

(ولما هزم ابن هبيرة وقصد واسط ودخل حميد والحسن ابنا قحطبة الى الكوفة لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة أظهروا أبا سلمة وسلموا اليه الرياسة ، وسموه وزير آل محمد ، ودبر الأمور وأظهر الامامة الهاشمية ، ولم يسم الخليفة ، وكان أبو مسلم يكاتبه : « للأمير حفص ابن سليمان وزير آل محمد من عبد الرحمن بن مسلم أمير آل محمد ») ٠

وكتاب الوزراء والكتاب دقيق فى عباراته مختصر فى أخباره ، وترجع أهمية الكتاب الى المعلومات الوافية التى ذكرها عن تاريخ تدوين الدواوين ، وأخذ العرب بها عن الفرس فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، وادخال ديوان الخاتم فى عهد معاوية بن أبى سفيان ثم أخبار تطور الوزارة بدواوينها المختلفة فى العصر العباسى ٠ كما ترجع أهمية الكتاب أيضا الى كون مؤلفه قد عاش فى عصر من أزهى عصور الأدب العربى والثقافة الاسلامية ، فيكفى أن يكون هذا الكتاب من نتاج هذا العصر ، وعن القائمين بالأمر ومسيرى دفة الحكم وموجهى الشئون السياسية والثقافية فى ذلك العصر ، كتبه رجل كان بالقرب منهم ٠

وقد أخذ عن هذا الكتاب ياقوت الحموى فى كتابيه « معجم الأدباء » ، و « معجم البلدان » ، وابن خلكان فى « الوفيات » ، والتنوخى فى « الفرج بعد الشدة » ، وأبو الحسن عبد الملك بن محمد فى « روضة (٢) البلاغة » وغيرهم ٠

---

(١) الطبعة الأولى ـ مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ـ القاهرة ١٩٣٨ م ٠

(٢) « كتاب الوزراء والكتاب » الجهشيارى ـ المقدمة ص (ش) ٠

(ب) كتاب « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » :

وهذا الكتاب يعرف على سبيل الاختصار بكتاب الوزراء ، وضعه بالعربية هلال بن المحسن بن ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون بن حبون الصابىء الحراني ، وكنيته أبو الحسن ، وقد ولد عام ٣٥٩ هـ وتوفى عام ٤٤٨ هـ .

والصـابىء ينتمي الى أسرة نبغت في العلم والأدب ، والتاريخ ، والطب ، وكانت لها قدم راسخة عند الحكام . فكان والده أديبا وكان ابنه محمد صاحب مؤلفات عديدة ، وكان جده الأكبر ابراهيم بن زهرون طبيبا مشهورا ، كمـا كان والد جده طبيبا أيضا ، كذلك كان عم جد المؤلف ثابت بن ابراهيم بن زهرون من أشهر الاطباء ، وتروى عنه النوادر البارعة في فنه ، أما أخوال المؤلف فانهم ذرية ثابت بن قرة الصابىء الطبيب العالم الفيلسوف التى كان أغلبها أطبـاء ومؤلفين . وهاتان (١) الاسرتان كانتا متمسكتين بالديانة الصابئية ، والقصة التى رويت عن سبب اسلام هلال بن المحسن مؤلف كتاب الوزراء يفهم منها أن المحسن والده كان مؤمنا يكتم ايمانه . اذ يقال « أن هلالا رأى النبي — صلى الله عليه وسلم — في منامه يدعوه الى الاسلام ، فلما استيقظ قص قصته على أهله ، فوجموا الا أبوه المحسن فانه تبسم وقال : ارجع الى فراشك فالحديث يكون عند الصباح ، وتقدم والده الى الجماعة بكتمان ما جرى ، وقال : يابني هذا منام صحيح ، وبشرى محمودة ، الا أن اظهار هذا الأمر فجأة ، والانتقال من شريعة الى شريعة ، يحتاج الى مقدمة وأهبة ، ولكن اعتقد ما وصيت به ، فانني معتقد مثله وتصرف في دعائك وصلاتك على أحكامه » .

هذا وقد أسلم (٢) هلال بن المحسن بعد أن تجـاوز الأربعين من عمره . وكان أديبا فاضلا أخذ عن أبي على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي صاحب المؤلفات في علوم العربية المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، كما أخذ عن أبي الحسن على ابن عيسى الرماني المولود سنة ٢٩٦ هـ والذى كان من كبار النحويين ومتقنا للغة والفقه وغيرهما وتوفي سنة ٣٨٤ هـ . ومعنى هذا أن هلالا تلقى العلم على أشهر العلماء وهو صغير ، مما يدل على مكانة أهله وسمو مركزهم .

وللصابىء مؤلفات كثيرة في اللغـة والتاريخ والسياسـة أشهرها كتابه الوزراء أو أخبار الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء . والوزراء (٣) الذين ترجم لهم في هذا الكتاب وقص أخبارهم هم : ابن الفرات ، وأبو على الخاقاني ، وعلى بن عيسى . وأثناء حديثه عن هؤلاء يعرض أخبارا لوزراء آخرين تتصـل تلك الأخبار بالمترجم لهم .

---

(١) مقدمة كتاب الوزراء للصابىء ، ص (و) طبع القاهرة ١٩٥٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص (ز) .
(٣) المرجع السابق ، ص (ل) .

والمؤلف لا يسير في تأليف كتابه حسب التسلسل التاريخي ، بل يتناول الوزير الأول ثم وزاراته الى أن يستوفيها ، تاركا ما تخلل عزله ، ويأتي بعد ذلك بأخبار منثورة للوزير ، فيها طرائف ونوادر ثم يأتي بعد ذلك بالوزير التالي له ، ويستعرض وزاراته ان تكررت ثم يأتي بأخباره المنثورة وهكذا • وقد أراد هلال ان يكمل بكتابه ما انتهى اليه الجهشياري في مؤلفه الوزراء والكتاب الذي وقف فيه عند نهاية العباس بن الحسن في مطلع خلافة المقتدر ، وقد أرخ الصابىء للوزراء في الفترة من ٣٦٠ ــ ٤٦١ هـ •

وقد أتيحت للصابىء في تأليف كتابه أمور جعلته ثقة فيما يروى ، وأول(١) ذلك صفته الرسميه في الدولة التي أظفرته بالوثائق الرسمية ، والامر الثاني اطلاعه على تاريخ ثابت بن سنان خال جده ، وقد أرخ ثابت من أواخر القرن الثالث الهجري الى سنة ٣٦٠ هجرية ، وهي فترة عاصرها او لقي معاصريها • والامر الثالث ما رواه أو نقله عن القاضي التنوخي أبي علي المحسن مؤلف نشوار المحاضرة ، والفرج بعد الشدة ، والمستجاد من فعلات الاجواد ، والتنوخي ولد سنة ٣٢٧ هـ وتوفي سنة ٣٨٤ هـ والأخبار التي رواها شافه أغلب معاصريها • يضاف الى ذلك انه اطلع على كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري وكتاب الوزراء للصولي ، والجهشياري توفي سنة ٣٣١ هـ والصولي توفي سنة ٣٣٥ هـ • والى جانب هذا تلقى الصابىء عن طريق الرواية والسند أخبارا من أناس اتصلوا بالدواوين ، وخالطوا الحاكمين وكل هذا نجده واضحا في كتابه ، مما أكسبه ثقة بين المؤرخين ، وأعطاه ميزة جعلت عمله معبرا عن الحقيقة والواقع•

(جـ) كتاب « الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية » :

وقد سمي هذا الكتاب على سبيل الاختصار بـ « الفخري » ، وضعه بالعربية محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي عام ٧٠١ هـ بالموصل بالعراق ، وقد نقله الى الفارسية هندوشاه بن سنجر بن عبد الله النخجواني ••

وهذا الكتاب يعتبر من بين أشهر الكتب التي تحدثت عن الخلفاء والوزراء في العصر الاسلامي وحتى نهاية الخلافة العباسية • وقد ضمنه مؤلفه ــ بالاضافة الى حديثه الشامل عن أحوال الوزراء ــ معلومات وافية عن عهد الخلفاء الراشدين وحروبهم وفتوحاتهم ، وتدوين الدواوين وعن عهد بني أمية ، وكانت خطته هي التحدث عن الأمور السلطانية والسياسات الملكية وأوضح صفات الملك الفاضل المستحق للرياسة والحقوق الواجبة له على رعيته ، والواجبة لرعيته عليه ، وكذا أوضح المؤلف أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في الوزير • وبعد أن وضع دستور الخلفاء والوزراء في الفصل الأول انتقل في الفصل الثاني للحديث عن

---

(١) المرجع السابق ، ص (ض) •

الخلفاء والوزراء دولة دولة ، فبعد أن يتحدث عن خليفة من الخلفاء يبدأ الحديث عن كل وزير ولى الوزارة فى عهده وهكذا ••• وقد جاء الكتاب محققا للفائدة ولقى استجابه من العامة والخاصة يقول (١) مؤلفه :

« وهذا كتاب يحتاج اليه من يسوس الجمهور ويدبر الأمور ، وان أنصفه الناس أخذوا أولادهم بتحفظه وتدبر معانيه بعد أن يتدبروه هم ، فما الصغير بأحوج اليه من الكبير ولا الملك العام الطاعة بأحوج اليه من ملك مدينة ، ولا ذوو الملك بأحوج اليه من ذوى الأدب » •

والكتاب حسب تاريخ تأليفه يتضح أن مؤلفه قد عاصر الغزو المغولى على بغداد والقضاء على الخلافة العباسية ، وسمع الكثير ممن شهدوا مختلف جوانب هذا الغزو ، وهنا تكمن أهمية الكتاب فى تأريخه للفترة الأخيرة من عمر الدولة العباسية التى كانت قريبا منها • وعلى سبيل المثال نجده ينصف ابن العلقمى ـ آخر وزراء الدولة العباسية ـ ويزيل عنه الشبهات التى عرفناها من بعض الكتب التاريخية ـ التى من بينها كتابنا « دستور الوزراء » ، والتى ألصقت بابن العلقمى تهمة التواطؤ مع المغول عند قدومهم الى بغداد فيقول (٢) :

« حدثنى كمال الدين أحمد بن الضحاك وهو ابن أخت الوزير مؤيد الدين ابن العلقمى قال : لما نزل السلطان هولاكو على بغداد أرسل يطلب أن يخرج الوزير اليه • قال : فبعث الخليفة فطلب الوزير فحضر عنده وأنا معه • فقال له الخليفة : قد أنفذ السلطان يطلبك وينبغى أن تخرج اليه فخرج الوزير من ذلك وقال : يا مولانا اذا خرجت فمن يدبر البلد ومن يتولى المهام ، فقال له الخليفة : لابد من أن تخرج ، قال : فقال : السمع والطاعة ثم مضى الى داره وتهيأ للخروج ثم خرج » (٣) •

وكتاب الفخرى فى الآداب السلطانية يشتمل على مقدمة وفصلين :

المقــدمة : فى بيان أهمية العلم وضرورته ، وعرض منهجه وخطته فى تأليف الكتاب •

الفصل الأول : يتضمن الحديث عن الأمور السلطانية والسياسات الملكية وما يجب للحاكم على الرعية وما يجب عليه لهم ، وبيان صفات الوزير • وهذا الكلام مدعم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والحكايات المستظرفة والأشعار المستحسنة •

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية/ابن الطقطقى ـ ص ١٣ ـ دار المعارف بمصر ١٩٢٣ م •

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ •

(٣) فى دفاع صاحب الفخرى عن ابن العلقمى ، انظر كتاب المغول فى التاريخ طبع بيروت ـ تأليف الأستاذ الدكتور/فؤاد عبد المعطى الصياد •

الفصل الثاني : ويتضمن الحديث عن خلفاء ووزراء الدول التى كانت طاعتها عامة وهى دولة الخلفاء الراشدين – رضى الله عنهم – ثم الدولة التى تسلمت الملك منها وهى الدولة الاموية ثم الدولة العباسيه ثم الدول التى وقعت فى أثنـــاء الدول الكبار كدوله بنى بويه ودولة السلاجقة والفاطميين بمصر ٠

(د) كتاب « آثار الوزراء » :

والكتاب كما يبدو من عنوانه يتضمن الحديث عن تراجم الوزراء وبيـان أحوالهم وما جرى فى عصرهم ، وذلك اعتبارا من دولة الخلفاء الراشدين – رضى الله عنهم – وحتى وزراء تيمور گوركان وأعقابه حتى الوزير نظام الملك الخوافى وزير السلطان حسين ميرزا بايقرا ٠ وذلك بالاضافة الى ذكر وزراء بعض السـلاطين الأقدمين مثـل(١) : فيثاغورث الحـكيم وجاماسب وبقراط وسقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وبزرجمهر فى بداية الكتاب ٠

وقد وضع هـذا الكتاب بالفارسية سيف الدين حاجى بن نظـام العقيلى – والمسمى أيضا بالفضلى – عام ٨٧٥ هـ ، وقدمه للوزير نظام الملك الخوافى وزير السلطان حسين ميرزا بايقرا ٠ وهناك نقطة يلزم الاشارة اليها ، وهى ان البعض يذكر أن العقيلى قد نقل كتابه هذا كلمة كلمة من كتاب « نسائم الأسحار ولطائف الأخبار » المؤلف عام ٧٢٥ هـ بالفارسية والمجهول المؤلف كما ذكرنا ٠ ولكن ناشر كتاب « آثار الوزراء » ومصححه يقول « ان العقيلى اذا كان قد فعل هـذا لما وقع فى كثير من السقطات ، وخصوصا اذا عرف أن كتاب « نسائم الأسحار » قد كتب بأسلوب غاية فى الوضوح والجمال ٠ وأما المؤلف فانه يصرح بأنه استفاد فقط من كتاب نسائم الأسحار وجعله من بين مصادره التى اعتمد عليها فى تأليف كتابه ٠

وعموما فان العقيلى قد بذل مجهودا كبيرا فى جمع مادة كتابه وتحمل الكثير من المتاعب فى تنظيمها وتنسيقها وحفظ لنا بعض ما ضاع من آثار ٠ يقـول الأستاذ سعيد نفيسى : « كتاب آثار الوزراء از غنائمى است كه از مؤلفان قرن نهم هجرى بما رسيده است زيراكه در اين كتاب مطالب بسيار مهمى از اسنادى كه اصل آنها از ميان رفته باقى مانده است از آنجمله از كتاب « مقامات أبو نصر مشكان » كه أبو الفضل بيهقى مؤرخ معروف آنجه را از استاد خود أبو نصر

---

(١) الأول تلميذ لقمان الحكيم ووزير گشتاسب ، والثانى شقيق گشتاسب وتلميذ لقمان الحكيم أيضا ٠ والثـالث تلميذ فيثاغورث ووزير بهمن ، والرابع وزير هماى بنت بهمن ، والخامس تلميذ سقراط ووزير داراب ، والسادس تلميذ أفلاطون ووزير الاسـكندر الأكبر ، والسابع وزير كسرى أنوشيراون ٠

دربارة تاريخ غز نويان شنيده بوده نقل كرده است وجز دراين كتاب جيزى از آن باقى نمانده است ٠٠ (١) » ٠

وترجمتهـــا : « كتاب » آثار الوزراء من المغانم التى تركها لنا مؤلفو القرن التاســـع الهجرى لأن أمورا هامة بقيت فيه قد ضاع أصلها ، ومن بينها ما نقله المؤلف عن كتاب « مقامات أبى نصر بن مشكان » ، المتضمنة ما سمعه أبو الفضل البيهقى ـ المؤرخ المعروف ـ من أستاذه أبى نصر عن تاريخ الغزنويين ، والتى لم يبق منها شىء سوى ما جاء فى هذا الكتاب » ٠ وكتاب « آثار الوزراء » يشتمل على مقالتين :

المقالة الأولى : تتحدث عن أخبار الوزراء السابقين وتنقسم الى اثنى عشر بابا كما يلى :

الباب الأول : عن وزراء السلاطين الأقدمين ٠

الباب الثانى : عن وزراء الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ٠

الباب الثالث : عن وزراء بنى أمية ٠

الباب الرابع : عن وزراء خلفاء بنى العباس ٠

الباب الخامس : عن وزراء السامانيين ٠

الباب السادس : عن وزراء الغزنويين ٠

الباب السابع : عن وزراء البويهيين ــ المعروفين كذلك بالديالمة ٠

الباب الثامن : عن وزراء السلاجقة ٠

الباب التاسع : عن وزراء الخوارزميين ٠

الباب العاشر : عن وزراء الايلخانيين ٠

الباب الحادى عشر : عن وزراء آل مظفر وملوك الغور ٠

الباب الثانى عشر : عن وزراء تيمور گوركان وأعقابه ٠

المقالة الثانية : عن الوزير نظـــام الملك الخوافى ٠ وتنقســـم الى أربعـــة أبواب كما يلى :

الباب الأول : عن أخلاق الوزير وامتيازه على جميع وزراء العالم ٠

الباب الثانى : عن أحوال الوزير قبل توليه الوزارة ٠

---

(١) كتاب « آثار الوزراء » عقيلى ـ المقدمة ص (و) طهران ١٣٣٧ هـ ش ٠

الباب الثالث : عن أحوال الوزير أثناء توليه الوزارة ٠

الباب الرابع : عن رعاية سلطان الاسلام وعنايته بالوزير ٠

وقد طبع كتاب « آثار الوزراء » ونشر بمعرفة جامعة طهران بعد أن صححه وعلق عليه مير جلال الدين حسينى أرموى عام ١٣٣٧ هـ ش فى طهران ٠

ونظرا لأن « دستور الوزراء » كان قد طبع ونشر عام ١٣١٧ هـ ش ــ أى قبل آثار الوزراء بعشرين عاما ــ فقد اعتمد مصحح آثار الوزراء اعتمادا كبيرا على دستور الوزراء وأشاد به فى كثير من المواضع سوف نذكرها عند حديثنا عن قيمة كتاب دستور الوزراء ٠

دستور الوزراء :

وهو المؤلف الثالث من مؤلفات المؤرخ خواندمير ، وضعه لأول مرة فى عام ٩٠٦ هـ باسم الوزير كمال الدين محمود وزير السلطان حسين ميرزا بايقرا ، ثم أعاد النظر فيه بعد ذلك وأضاف اليه شرحا لأحوال اثنى عشر وزيرا من وزراء السلطان حسين بايقرا وأبنـــائه وأحداثا أخرى حتى سقوط الدولة التيمورية واستيلاء محمد خان الشيبانى على هراة ، وبذلك نشر النسخة الثانية عام ٩١٥هـ ــ وكان الشيبانى لا يزال فى هراة ــ ولكنه أبقى تصدير الكتاب كما هو باســم السلطان حسين بايقرا ووزيره المذكور ٠

والكتاب يعتبر سجلا موجزا لأحوال وزراء الخلفاء والسلاطين منــذ بداية الدولة الأموية حتى نهاية العصر التيمورى على يد الشيبانى ــ أى منذ عام ٤١ هـ الى عام ٩١٤ هـ تقريبا ٠ وفيما يلى بيان بالموضوعات التى اشتمل عليها دستور الوزراء حسب ترتيب ورودها بالكتاب :

ــ مقدمة : فى حمد الله والثناء عليه وبيان الحاجة الى الوزير مؤيدا قوله بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ــ وتقديم الكتاب وثبت بتاريخ تأليفه ٠

ــ مقال : عن أحوال آصف بن برخيا وزير سيدنا سليمان عليه الســلام وقصته مع بلقيس ملكة سبأ وحادثة عبادة الأصنام فى بيته وسرقة الخاتم منه ٠

ــ مقال : عن بزرجمهر الحكيم وزير كسرى أنوشيروان ، وبيــان قدرته على تفسير الأحلام ، وتعاليمه فى الملك والسياسة ٠

ــ حديث موجز عن وزراء بنى أمية مســبوقا بمقـــدمة عن عصر الخلفاء الراشدين وذكر لأسماء الخلفاء الأمويين ٠

ــ الحديث عن وزراء الخلفاء العباسيين ٠

ــ الحديث عن وزراء سلاطين السامانيين ٠

- الحديث عن وزراء سلاطين الديالمة ·
- مقال : عن أحوال الفيلسوف ابن سينا ومؤلفاته ·
- الحديث عن أحوال بعض وزراء الغزنويين ·
- الحديث عن وزراء سلاطين السلاجقة ·
- الحديث عن بعض وزراء الاسماعيلية وحكامهم ·
- الحديث عن وزراء سلاطين الخوارزميين ·
- الحديث عن وزراء سلاطين السلغريين ·
- الحديث عن الملك العظيم الأمير الشيخ أبى اسحق ووزرائه ·
- الحديث عن وزراء سلاطين المظفريين ·
- الحديث عن وزراء سلاطين الايلخانيين ·
- الحديث عن وزراء سلاطين التيموريين ·

خواندمير من ثنايا دستور الوزراء ،

بالمقارنة مع الكتب التى سبق أن عرفنا بها :

دستور الوزراء كما رأينا من محتوياته يعد موسوعة عن الوزراء فى العالم الاسلامى فى عصوره المختلفة سواء تحت ظل الخلفاء أو السلاطين · وقد جاء هذا الكتاب مفصلا جامعا بشكل لم نشهده فى الكتب السابقة عليه سواء المؤلفة منها بالعربية مثل كتاب الوزراء ، وكتاب « الوزراء والكتاب » ، وكتاب « الفخرى » ، أو بالفارسية كآثار الوزراء مثلا · يقول الأستاذ سعيد نفيسى :

« دستور الوزراء نسبة كتاب جامعى است از أحوال وزارى اسلام از آغاز خلافت تا زمان مؤلف يعنى تا انقراض تيموريان وجلوس صفويه كه در ضمن أحوال آصف بن برخيا وبزر جمهر رانيز از روى دا ستانها برآن افزوده است » (١) ·

وترجمتها : « وعموما فان كتاب دستور الوزراء كتاب جامع لأحوال وزراء الاسلام منذ بداية الخلافة الى عصر المؤلف — أى الى زوال الدولة التيمورية وتولى الدولة الصفوية الحكم — والذى أضيف عليه أيضا — من قبيل القصص — الحديث عن آصف بن برخيا وبزرجمهر الحكيم » ·

---

(١) كتاب « دستور الوزراء » خواندمير — مقدمة نفيسى ص (ح،خ) طهران ١٣١٧ هـ ش ·

ويتضح لنا من هذا أن خواندمير كان مؤرخا واسع الاطلاع ذا ثقافة واسعة، استطاع أن يستفيد بما حوته مكتبات الأمراء التيموريين ويستوعبها ولذلك فقد ألم بكل جزئية من جزئيات الموضوع الذى يتحدث عنه ·

واذا طالعنا كتابى خواندمير السابقين على « دستور الوزراء » وهما « مآثر الملوك » ، « خلاصة الاخبار » ، وضح لنا صدق ما نذهب اليه وهو سعة اطلاع خواندمير وحبه لفن التاريخ واقباله عليه عن رغبة وحب لا عن احتراف وارتزاق ، فقد جمع فى الكتاب الأول أقوال وآثار وحكم وامثال الملوك والعلماء والانبياء والخلفاء منذ آدم الى زمانه ، كما جمع فى « خلاصة الأخبار » اخبار العالم منذ بداية الخلق ··· وحتى عام ٨٧٥ هـ ، وختمه بوصف لمدينة هراة مع عرض شامل لأحوال مشاهير المعاصرين له ·

وهكذا نرى أن خواندمير قد أعد عدته ، وهيأ ذهنه وعمق ثقافته ، وجرب قلمه وفكره قبل أن يقدم على تأليف كتابه « دستور الوزراء » ، ولذلك فقد ظهرت موهبته واضحة جلية فى هذا الكتاب ، ووضحت قدرته وثقافته ، وتأكدت أستاذيته فى فن التاريخ ، وجاء كتابه نتاجا طيبا لأفكاره ، وتضمن ترجمة لأحوال أكبر عدد من الوزراء شهدناه فى كتاب واحد ، اذ بلغ الذين تحدث عنهم مايربو على أربعمائة وزير · وقد فاق حديث خواندمير عن وزراء سلاطين الدويلات المستقلة التي نشأت فى ايران ما جاء بكتابى « الوزراء والكتاب » للجهشيارى ، و « الفخرى فى الآداب السلطانية » لابن الطقطقى ·

كما يتضح لنا أن خواندمير كان أمينا فى نقله عن الآخرين فى كتابه « دستور الوزراء » ، فكان يصرح بنقله دائما اللهم فى الأخبار التى أجمع عليها المؤرخون ورغم ذلك فكان يقول أيضا فى بداية تسجيلها عبارات :

« أرباب أخبار آورده اند » ، « بروايت أكثر مؤرخان » ، « نزد فضلاى خرده شناس وعلماء فضيلت اقتباس بصحت بيوسته كه » ، « بعقيده بعض مؤرخان » ، « در بعضى از كتب معتبر بنظر اين ذره احقر در آمده كه » ، « نزد ناظمان جواهر أخبار بصحت بيوسته كه » ، « بثبوت بيوسته كه » ··· الخ » ·

وهكذا يتضح لنا من ثنايا دستور الوزراء أمانة خواندمير فى نقل الأخبار ، وهذه الصفة تعطى له ولكتابه ميزة جديرة بالاعجاب · ويتضح لنا أيضا نضوج خواندمير ووعيه وذكائه فى « دستور الوزراء » ، فنراه يفسح المجال فى الحديث عن الوزراء الذين كان لهم أثر كبير فى مجرى الأحداث فى مختلف الدول ، ويفرد لهم ولأعمالهم صفحات كثيرة فى كتابه حتى يعطى القارىء فكرة وافية عما يريد أن يعرفه عن أحوال هؤلاء الوزراء البارزين ، وذلك مثلما فعل عند حديثه عن الفيلسوف ابن سينا فقد تحدث عنه حديثا وافيا ربما كان من أمتع وأشمل ما كتب عن هذا الوزير الفيلسوف · ونراه أيضا يتحدث عن الوزير أبى سلمة

الخلال ، أول وزير لأول خليفة عباسى ، ويورد أخباره بصورة لم نجدها فى الكتب التى عرفنا بها • كذلك يورد بحثا مطولا عن البرامكه ودورهم فى الدوله العباسية مبينا أسباب نكبتهم وذلك بشكل مفصل ودقيق ، ويورد وجهات النظر المختلفة فى شأنهم • وهذا ما لم نجده أيضا بهذا الشكل فى الكتب المذكورة • كذلك تحدث خواندمير عن وزير السلاجقه الأكبر نظام الملك الطوسى ، وألم بكل ما أحاط بشخصية هذا الوزير • ونراه يفرد الحديث عن الوزير رشيد الدين فضل الله ، ويثنى عليه ويتعاطف معه ، ويلم بمختلف الأخبار التى عرفت عنه ، ويذكرها عند ترجمته له أو أثناء حديثه عن الوزراء الذين اشتركوا معه فى الوزارة ليكمل صورته فى ذهن القارىء • وهذا كله وغيره — فى ثنايا دستور الوزراء — ان دل على شىء فانما يدل على وعى خواندمير وذكائه وخبرته فى فن التاريخ واحساسه بالغث والثمين من الأخبار والأحداث •

كما يتضح لنا فى دستور الوزراء أدب خواندمير ورفعة أخلاقه ، وهذا ما ظهر منه فى بداية حديثه عن الوزراء فى كتابه حيث لم يطرق الحديث عن كتاب الخلفاء الراشدين الذين أطلق عليهم البعض وزراء مثل صاحب « آثار الوزراء » وجعلهم البعض كتابا مثل صاحبى « الوزراء والكتاب » ، « الفخرى فى الآداب السلطانية » • وقد علل خواندمير تركه الحديث عن هؤلاء مدركا أن مجال الحديث عنهم لا يكون فى مثل هذه الكتب حيث قال فى أدب واحترام :

« لا جرم إيراد أحوال آن طايفه درين أوزاق از رعايت حسين أدب دور نمود » (١) •

وترجمته : ولا شك أن ذكر أحوال تلك الطائفة — فى مثل هذا الكتاب لأمر بعيد عن مقتضى الأدب والاحترام » •

كما نجد خواندمير فى كتابه « دستور الوزراء » ، حسن العقيدة نقى السريرة محافظا على تعاليم دينه الاسلامى • مشجعا على التمسك بها ، مثنيا على من يرعاها ، ذاما لمن يهملها ويتهجم عليها ، وهذا يتضح وضوحا جليا أثناء حديثه عن الوزير سعد الدولة اليهودى — وزير أرغون خان — حيث نراه يحلل الشخصية اليهودية تحليلا دقيقا ويوضح الألاعيب والأساليب الماكرة التى يسلكونها فى البداية ، وذلك حينما عرض الطريقة التى بها أوصل اليهود العاملون ببلاط أرغون خان سعد الدولة الى منصب الوزارة والقيادة ، وبيان دور سعد الدولة وكيفية استيلائه على نفس أرغون بكثرة الأموال التى جمعها من الشعب ، حتى وصل به الأمر الى اقناع أرغون بابعاد المسلمين عن البلاط المغولى واستبدالهم باليهود • بل وصل الأمر الى اقناعه بتحويل الناس من عبادة الواحد القهار الى عبادة الأصنام ، وحتى يكتب سعد الدولة لخطته النجاح فقد بادر بقتل الكثيرين من الزعماء الدينيين الذين كان يخشاهم • وقد عبر خواندمير فى كتابه دستور

---

(١) دستور الوزراء/خواندمير — ص (١٩) طهران ١٣١٧ هـ ش •

الوزراء عن كل هذه الأمور تعبير المسلم الغيور على دينه ، المتمسك بعقيدته وذلك بأسلوب غاية فى البراعة ، مبينا النهاية الاليمة التى انتهى اليها السلطان ارغون خان ووزيره اليهودى سعد الدولة · وكأنما أراد ان يقول لكل من تسول له نفسه التفكير فى النيل من الاسلام والمسلمين ، ان هذه سوف تكون نهايتك سواء كنت سلطانا عام الطاعة مثل أرغون ، أو كنت وزيرا عام النفوذ مثل سعد الدولة ·

وكان خواندمير فاضلا محبا للحق ممجدا للعدل والانصاف منفرا من أعمال الجور والعسف ، وقد أظهر ذلك بوضوح خلال سرده لأخبار الوزراء الذين أرخ لهم فكان يعبر دائما - خلال عرضه للاخبار - عن الفضيلة وحبه لها والرذيلة وبغضه لها ، فنراه مثلا حينما تحدث عن الوزير مجد الدين محمد أعظم وزراء السلطان حسين بايقرا - بعد الأمير عليشير نوائى - يظهر نواحى النبوغ والعظمة فيه ، كما يظهر فى نفس الوقت صفات التكبر التى كانت فيه وظلمه لبعض الفضلاء الذين كانوا تحت رئاسته ، ومحاولاته القيام بالدس للأمير الفاضل نظام الدين عليشير نوائى ونكرانه لجميل ذلك الأمير عليه ، حيث كان السبب فى دخوله بلاط السلطان حسين بايقرا ووصوله الى المناصب الرفيعة · كما نجد أيضا عشق خواندمير للفضيلة ، عندما تحدث عن آخر وزير فى كتابه وهو درويش أحمد قابض ، فيظهر خواندمير مدى ظلم ذلك الوزير واعتسافه وكثرة مساوئه وأطماعه ومحاولته شغل منصب الوزارة لكل من الأمير مظفر حسين ميرزا والأمير بديع الزمان ميرزا فى وقت واحد ، وذلك بعد وفاة السلطان حسين ميرزا ، ولما لم يظفر بذلك ووزر لمظفر حسين ميرزا فقط ، أنزل الظلم بالرعايا والمحكومين الذين ضاقوا به وبظلمه ، فرفعوا أيديهم الى السماء داعين الله سبحانه أن يدفع عنهم شره ، فاستجاب لهم ربهم ، وقتله نديمه وهو يحتسى كئوس الخمر والشراب ·

وهكذا نرى أن شخصية خواندمير كانت واضحة جلية فى دستور الوزراء خلال حديثه - من أول الكتاب الى آخره - سواء عند حديثه من واقع الأخبار التى نقلها أو الأخبار التى سمعها ، أو تلك التى شاهدها بنفسه ، وعبر عنها جميعا تعبير الخبير المتخصص ، العالم المتبحر ، الواعى المفكر ، المتدبر المدقق ، المعتدل المحقق ، فكانت كتاباته كلها نابعة من حبه للتاريخ وأهميته ، وضرورة الالمام به وقراءته ، واحساسه بفائدته وأخذ العبرة منه خاصة أولئك الذين وضعت الأقدار مصائر الناس ومصالح الرعية فى أيديهم من الوزراء والخلفاء والسلاطين والحكام ·

خواندمير رجل الأخلاق فى دستور الوزراء

لقد ضمن خواندمير كتابه « دستور الوزراء » الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والحكم والأمثال المشهورة ، وذلك فى موضعها المناسب أثناء أو عقب سرد خبر يرى الاعتبار به وأخذ العظة منه ، كما ضمن كتابه ما يربو على ستمائة بيت من الشعر الفارسى ، بعضها من نظمه والبعض الآخر من نظم غيره من الشعراء البارزين والمتصوفة ، ربط ببعضها جانبا من أخباره ـ وهذه معظمها من نظمه ـ والبعض الآخر أورده على سبيل الحكمة والموعظة الحسنة ٠

وربما أحس خواندمير بأن ترديد هذا بين آونة وأخرى ـ عقب أو أثنـاء بعض الأحداث ـ لا يكفى ، فنراه قد خصص بعض السطور عقب كل حادثة تأخذه أو خبر يشعر بترسيخ مغزاه فى الأذهان ليقف خلالها مرشدا ناصحا نصح الحكيم المجرب ذى الأخلاق العالية ٠

وقد وزع خواندمير هذه الوقفات على ثلاثة عشر موضعا من كتابه فيما يلى بداية كل وقفة منها والصفحة التى ذكرت (١) بها ٠

١ ـ ص ٧٢ بعد عزل الخليفة المنتصر العبـاسى لوزيره أحمد بن الخصيب بسبب قيام الوزير بركل أحد الرعية بقدمه ووقوف النـاس على هذا الأمر لدرجة أن نظم أحـد الشـعراء هذين البيتين بالعربية بعد العلم بهذه الحادثة :

قل للخليفـة : يابن عم محمـد
أشـكل وزيرك انه ركال

قد نال من أعراضنا بلسـانه
ولرجله عنـد الصدور مجال

(١) انظر ترجمة العبارات المذكورة فى الصفحات المبينة بالترجمة الكاملة لدستور الوزراء فى نهاية هذا البحث ٠

وبعد سرد هذه الأخبار يقف خواندمير ناصحا بقوله :

« بس مناسب آنستكهصاحب ابن منصب صفت حلم ووقار شعار خود سازد .. » .

٢ - ص ٨٠ بعد أمر الخليفة بقطع يد الوزير ابن مقله لمكاتبته الأمراء دون علم من الخليفة ، يقول خواندمير :

« بس لايق بحال شاغل منصب وزارت ، بلكه ساير ملازمان دركاه سلطنت آنست كه بخلاين رضاى بادشاه با امراى اطراف ابواب مكاتبات مفتوح ندادند .... » .

٣ - ص ١٠٦ بعد خديعة الوزير ابن العلقمى للخليفة المستعصم والاستيلاء على بغداد وما جرى لابن العلقمى بعد هذه الحادثة من قبل الناس ، يقول خواندمير :

« بس سزاور روزكار ملازمان دركاه سلاطين كا مكار آنست كه جبلت خودرا از صفت مكر وحيلت باك كردانند ... » .

٤ - ص ١٠٩ عند تقصير الوزير أبى الفضل محمد وزير الأمير نوح بن نصر السامانى فى توفير طلبات الجند ومطالبتهم بقتله ، يقول خواندمير :

« بس لايق بحال متكفل منصب وزارت آنست كه بجزويات أموال ديوانى با أكابر امرا ومقربان حضرت سلطانى در طريق عناد ولجاج مسلوك ننمايد ... » .

٥ - ص ١٤٣ فى أدب التحدث عن الملوك والسلاطين - حتى فى وقت ضعفهم - نتيجة ما بدر من الوزير أبى على حسن المشهور ب « حسنك ميكال » - وزير السلطان محمد الغزنوى - عن السلطان مسعود الغزنوى يقول خواندمير :

« بس لايق بحال خدام باركاه سلطنت وملازمان دركاه خلافت آنست كه اعتماد بروفور جاه وجلال وكمال دولت واقبال بادشاه ننمايند .. » .

٦ - ص ١٨٢ عندما قتل السلطان بركيارق السلجوقى الوزير مؤيد الملك ابن نظام الملك نتيجة الغدر والتزوير . يقول خواندمير فى ذم هاتين الصفتين :

« بس مناسب آنست كه عاقل هوشمند وامن همت خودرا از لوث اين دو صفت ذميمه باك سازد ... » .

٧ ـ ص ١٨٧ عندما أساء الوزير ضياء الملك أحمد بن نظـام الملك ـ وزير السلطان محمد السلجوقي ـ معاملة أحد سادات أهل البيت. يقول خواندمير :

« بس واجب ولازم جنان مى نمايد كه أصحاب دولت واقبال نسبت باين طايفهٔ عالى مكان كه آية كريمة « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (١) » « در شان ايشان زير طريق اخلاص ومحبت سلوك فرمايند... » .

٨ ـ ص ٢٠٥ بعد قتـل السلطان طغرل بن محمـد بن ملكشاه السلجوقي الوزير أبا القاسم الدكزيني بسبب أفعاله الناتجة عن صفات الغرور والتجبر . يقول خواندمير :

« مرد خرد منـد آنست كه بسبب عروج بر معارج دولت اين جهانى وصعود برمصاعد عظمت سراى فانى بخار غرور وپندار بكاخ دماغ متصاعد نگرداند ... » .

٩ ـ ص ٢٠٩ بعـد قتل السلطان محمود السلجوقي الوزير شمس الدين إبن نظـام الملك لظلمه وتعسفه مع الأغنيـاء واستيلائه على أموالهم . يقول خواندمير :

« بس بر صـاحب اين منصب بنابر مصلحت دنيوى وأخروى واجب ولازم است كه از جادهٔ عـدل وانصاف مطلقا ميـل وانحراف ننمايد .. » .

١٠ ـ ص ٢٤٤ عند كفران الوزير ظهير الدين ابراهيم صواب بنعمة مخدومه الأميرمحمد مظفر السلغرى . يقول خواندمير :

« مرد عاقل كه بمقتضاى نص « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشـديد » عمل نموده ، بيوسته از وخامت عاقبت كفران نعمت نينديشد » .

١١ ـ ص ٢٥٢ عنـد قتل الشـاه شجاع المظفرى للوزير ركن الدين حسن بسبب تزويره وكيده رغم أنه ينتسب الى سادات أهل البيت. يقول خواندمير :

« سادات را باظلم وغدر وفسق جه كار ؟ .. »

---

(١) سورة الأحزاب ، آية (٣٣) .

١٢ ـ ص ٢٨٤ بعد قتل الوزير مجد الملك اليزدى بسبب كيده وظلمه وتزويره من أجل الانفراد بالسلطة • يقول خواندمير :

« مرد عاقل آنست كه بسبب ميل جاه وحشمت ونيل جند روزه كامرانى ودولت خود را در ورطه هلاكت نيندازد٠٠» •

١٣ ـ ص ٣٧١ بعد قتل السلطان أبى سعيد التيمورى الوزير معز الدين الشيرازى بسبب تحميله أهل هراة مبالغ كبيرة ، وأخذها لنفسه وخاصته يقول خواندمير :

« بس صاحب اين منصب لازم وواجبست كه بواسطهٔ نيل مزخرفات دنيوى كه مانند سايهٔ غمام بى ثبات ودوامست باشعال آتش ظلم وآثام قيام واقدام ننمايد ٠٠ » •

كما نلاحظ بالاضافة الى ما سبق ، أن خواندمير قد أورد أيضا فى نهاية كتابه دستور(١) الوزراء مجموعة من النصائح والتوجيهات الواجب مراعاتها من قبل الوزراء والمسئولين • أوضح فيها كيفية التعامل الحسن مع جميع فئات الشعب من حاكمين ومحكومين ، وبين بأسلوب غاية فى الابداع الفائدة التى سوف تترتب على هذا التعامل ، ويستهل هذه النصائح بقوله :

« دريغ از آدمى زاد كه بسبب نيل منصب واختيار وميل حكومت عالم بى اعتبار شخص عزيز را هدف تير ملامت مى سازد ، وبواسطهٔ ردائت خلق وشومى معاش خود را بد نام ومستهام كردانيده ، از اوج شرف واقبال در حضيض مذلت وادبار مى اندازد (٢) » •

وترجمتها : « ما أشقى الانسان الذى يجعل نفسه العزيزة هدفا للملامة حبا منه فى نيل المناصب ، ورغبة منه فى حكم الدنيا الفانية ، ويسىء الى نفسه ويستهين بها بسوء خلقه وشؤم حياته ، ويلقى بها من أوج الشرف والسعادة الى حضيض المذلة والهوان » • وبعد ذلك يقدم خواندمير الصورة المقابلة ، بعد أن هيأ النفوس لتقبلها فيقول :

« خوشا حال صاحب سعادتى كه هركز غبار جاه وحشمت بردا من همت ننشاند ، وآستين ملال برأسباب دولت واقبال سريع الانتقال افشاند برطبق كلمة كريمة «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» خودرا در مهالك ظلم وعدوان نيندازد ونفس نفيس را از طى مسالك جور وطغيان بقدر امكان دور سازد • ازمتاع جهان قليل الانتفاع بد انجه ناكزير مردم درويش وفقير ست قناعت

(١) دستور الوزراء/خواندمير ـ من ص ٤٥٦ الى ٤٦٥ ـ طهران ١٣١٧ هـ ش •
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ •

نماید وجهت استمتاع از كثرت أموال واجتماع أسباب جاه وجلال باقدام سعی واهتمام طریق ملازمت نبیماید » (١) .

وترجمتها : « وما أسعد ذلك الذى لا يغبر همته مطلقا بغبار الحب للعظمة والجاه ، الذى يلبس دولته وسلطانه الزائل ثوب العفة ، ولا يلقى بنفســه فى مهالك الظلم والعدوان متعظا بقوله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ، وان يبعد نفسه الغالية ـ قدر طاقته ـ عن المضى فى دروب الظلم والطغيان ، وأن يقنع من متاع الدنيا بالقليل من أموال الفقراء والمساكين ، وألا يسعى الى نيل المناصب الرفيعة بهدف الاستمتاع بكثرة الأموال ، والحصول على أسباب الجاه والسلطان » .

وبعد ذلك أخذ خواندمير ينصح الحكام الذين قدر لهم أن يصلوا الى مراكز المسئولية بهدف الخدمة العامة والتطوع لرعاية جميع فئات الشعب ، لا حبا فى الجاه والسلطان ، وعدد كل فئة من فئات الشعب وكيفية معاملتها من قبل الحكام فيقول مثلا :

« دهاقين ومزارعان را كه انتظام نظام عالم وسر انجام مهام بنى آدم بروفق احوال ايشان منوطست ورضاى جناب جلال الهى وارتضاى ساحت اقبال باد شاهى بفراغ بال ايشان مربوط در كنف مرحمت وجوار شفقت خويش مرفه دارد واز سحاب رأفت وغمام عاطفت رشحات عنايت وقطرات رعايت بر كشتز اميدشان بارد ، تامضمون در مكنون « احرموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » شامل حال أو آيد واز فروغ خواطر فارغ ايشان چهرهٔ بهبود در آئينه مقصودى روى نمايد (٢) » .

وترجمتها : « وعليه أن يغمر البسطاء والمزارعين برحمته وشفقته ، لأن مهمة انتظام الدنيا وانجاز شئون الخلائق منوطة بأحوالهم ، وأن رضاء الله سبحانه وتعالى ، ودوام مجد السلطنة مربوط براحة بالهم ، وعليه أن يمطر بستان آمالهم من سحائب رأفته ، وغمام عاطفته ، وقطرات عنايته ورعايته ، حتى يشمل حاله بمضمون الحديث الشريف « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » ، ويشاهد ـ بعد اراحة نفوسهم ، صورة التحسن واضحة فى مرآة آماله » .

وهكذا كان خواندمير ناصحا موجها ورجل أخلاق من الطراز الأول فى دستور الوزراء ، بالاضافة إلى كونه مؤرخا ناجحا .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

خواندمير ، مصادر كتابه وقيمته ، أسلوبه وخصائصه

أهم المصادر التى رجع اليها خواندمير :

لقد بذل خواندمير مجهودا كبيرا فى قراءة مصادره المكتوبة ، ونجح نجاحا كبيرا فى اختيار هذه المصادر ، فنجده قد اعتمد اعتمادا أساسيا على مصادر صرح هو نفسه بأخذه عنها فى مواضع كثيرة من كتابه دستور الوزراء ، نورد فيما يلى ذكرها حسب اشارة خواندمير اليها واعتماده عليها وهى :

١ ـ كتاب « جامع التواريخ » : (١)

وهو الموسوعة التاريخية التى وضعها الوزير المؤرخ رشيد الدين فضل الله ابن عماد الدولة أبى الخير بن موفق الدولة الهمدانى · كان جده موفق الدولة يعيش مع خواجه نصير الدين الطوسى فى قلاع الاسماعيلية بقهستان ، ثم التحق بخدمة هولاكو اثر استيلائه على تلك القلاع ·

ولد رشيد الدين فى همدان عام ٦٤٥ هـ ـ ١٢٤٧ م وأمضى هناك فترة شبابه فى تحصيل العلوم المختلفة وخاصة الطب ، واشتغل طبيبا فى بلاط آباقا خان (٦٦٣ ـ ٦٨٠ هـ) ، وصار يترقى شيئا فشيئا الى أن عين عام ٦٩٧هـ وزيرا فى عهد غازان خان (٦٩٤ ـ ٧٠٣ هـ) ، واستمر متقلدا هذا المنصب فى عهد السلطان أولجايتو وابنــه أبى سعيد (٧١٦ ـ ٧٣٦ هـ) · وفى أوائل عهــد أبى سعيد ، وقع رشيد الدين فريسة الدس والمؤامرات التى كان يحيكها له زميله فى الوزارة على شاه الكيلانى ، وانتهى الأمر بقتله فى عام ٧١٨ هـ ونهب ممتلكاته ، وتخريب محلة الربع الرشيدى التى كان قد بناها شرقى تبريز » ·

---

(١) براون ، التـــاريخ الأدبى لايران جـ٣ ص ٧٩ ـ ١٠٥ الترجمة الفارســـية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش ـ ١٩٤٨ م ، د/الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، القاهرة ١٩٦٧ م ص ٢٥٩ ·

كان رشيد الدين رجلا غزير الثقافة ، يعرف كثيرا من اللغات والثقافات العبرية والفارسية والعربية والصينية والتركية والمغولية ، فعندما تولى غازان عرش المغول ، لم يكتف بتقليده منصب الوزارة فحسب بل كلفه بعمل أدبي وتاريخي كبير ، هو تأليف كتاب جامع في تاريخ المغول . وقد وضع غازان خان تحت تصرف رشيد الدين خيرة المصادر وأندرها في الامبراطورية المغولية ، كذلك استفاد رشيد الدين من الروايات الشفوية التي كان يدور معظمها على لسان غازان خان نفسه وذلك بحكم منصبه كوزير لذلك السلطان . وهكذا تهيأت الظروف لرشيد الدين لأن يكتب كتابا مدعما بالوثائق في تاريخ المغول منذ أقدم الأزمنة حتى عصر التأليف .

وبعد أن قطع رشيد الدين شوطا بعيدا في مهمته هذه ، وأصبح على وشك الفراغ من هذا المشروع ، توفي فجأة السلطان غازان في شوال عام ٧٠٣ هـ ، وتولى أخوه أولجايتو عرش المغول ، وأبقى رشيد الدين في منصبه ، وكلفه بالاستمرار في انجاز كتابه ، والابقاء على اهدائه الى أخيه الراحل غازان خان اعترافا بجميل هذا الرجل الذي كان السبب في البدء في عمل هذا المؤلف . وكلفه أولجايتو بمهمة أخرى وهي عمل مجلد ثان يشتمل على تاريخ لجميع الشعوب التي اتصل بها المغول أثناء فتوحاتهم ، وعمل مجلد ثالث يشتمل على جغرافية العالم .

وقد استطاع رشيد الدين — بمساعدة العلماء الذين كانوا يقطنون تبريز والسلطانية — أن يفرغ من تأليف كتابه في عام ٧١٠ هـ وأطلق على جميع المجلدات اسم « جامع التواريخ » فكان هذا المؤلف أول تاريخ عالمي معروف بالمعنى الصحيح ، وأول مجموع منظم للتطور التاريخي لكل الأوطان التي تسكن قارتي آسيا وأوربا من المحيط الهادي الى المحيط الأطلسي ، أما المجلد الثالث في جغرافية العالم ، فانه غير موجود أصلا في نسخ كتاب جامع التواريخ ، ويبدو أن المؤلف لم يكتبه ، وأنه كان مجرد فكرة لم تخرج الى حيز التنفيذ ، أو أنه كتبه ولكنه فقد أثناء الاغارة على الربع الرشيدي عقب مقتل رشيد الدين .

وعلى هذا فكتاب جامع التواريخ يقع في مجلدين :

الأول — يشتمل على بابين :

الباب الأول : يحتوى على مقدمة وأربعة فصول في تاريخ القبائل التركية والمغولية وأصولها وأنسابها .

الباب الثاني : يحتوى على تاريخ جنكيز خان وأجداده وأحفاده الى أيام غازان خان .

الثـانى ــ ويشتمل على بابين :

الباب الأول : يحتوى على تاريخ أولجايتو ، وهو مفقود من جميع نسخ هذا الكتاب ٠

الباب الثانى : ويقع فى مقدمة وقسمين :

المقدمة : فى ذكر آدم ونوح وأبنائهما ٠

القسم الأول : فى ذكر ملوك الفرس القدماء وذلك من عصر كيومرث ــ أول ملوك الفرس الاسطوريين ــ حتى آخر عصر يزدكرد الثـالث آخر ملوك الفرس الساسانيين ٠

القسم الثانى : وينقسم الى ثلاثة أقسام :

الأول : فى ذكر تاريخ النبى وتاريخ الخلفــاء حتى آخــر عصر المستعصم ٠

الثانى : فى ذكر الدويلات الفارسية التى نشأت فى ايران على اثر ضعف الخلافة العباسية ٠

الثالث : فى ذكر الدول الأخرى مثل تاريخ جد الأتراك وقبائل الخطا والصين وبنى اسرائيل ٠

قيمة كتاب جامع التواريخ وتأثر خواندمير به :

١ ــ اتخذ كتاب جامع التواريخ شكل موسوعة تاريخية مفصلة لم يؤلف شخص قط مثلهــا لا فى آسيا ولا فى أوربا فى العصور الوسطى ، فكان بهذا أحسن وأكمل كتب التاريخ العام فى الأدب الفارسى ، وفتح لمن جاءوا بعده الطريق لعمل موسوعات تاريخية بحيث أصبح العصر المغولى يصح أن يطلق عليه عصر الموسوعات ٠

٢ ــ التزم رشيد الدين فى عمله هذه الموسوعة الحياد النزيه وعدم التعصب، فلم يتملق سلاطين المغول وأبدى رأيه فيهم صراحة فى الوقت المناسب ، كما أنه أرخ للقبائل غير الاسلامية بمنتهى الدقة والموضوعية ، ولم يجعله عمله مع المغول أو اسلامه يحيد عن جادة الصواب والتأليف العلمى ٠

٣ ــ استفاد رشيد الدين كثيرا بالوثائق والسجلات التى كانت موجودة فى دواوين المغول ، واستخدم تلك الوثائق ، وهذا لم يتوفر لغيره مثلما توفر له٠ فكان عمله بذلك عملا تاريخيا دقيقا ، أكسبه ثقة الجميع فلم يترددوا فى الأخذ عنه والاستفادة منه والاشادة به ، كما ضمنه معلومات جغرافية هامة عن مناطق

كثيرة كانت مجهولة لدينا ، وصفها رشيد الدين وصفا مفصلا دقيقا ، كذلك وصف رشيد الدين عادات المغول وتقاليدهم بشكل مفصل لم نشهده عند غيره ·

٤ ـ وتبدو أهمية كتاب جامع التواريخ على وجه الخصوص فى الأحداث التى كان يعاصرها رشيد الدين ، فقد عاصر دولة المغول فى أوج مجدها وشاهد تحطيم قلاع الاسماعيلية ، وحصار بغداد وما دار فيها من مذابح رهيبة على يد هولاكو خان ، والتحق بخدمة أعظم سلاطين الايلخانيين ، غازان خان وأولجايتو وأبى سعيد · فاذا جاء هـذا المؤرخ وأرخ لهذه الفترة المعـاصرة له بمحاسنها ومساوئها فانما يؤرخ الأحداث التى كان يعاصرها ·

ولم تقتصر قيمة جامع التواريخ على الناحية التاريخية والجغرافية فحسب بل أصبح له قيمة فنية كبيرة ، فازدهار فن التصوير فى العصر المغولى يرجع الى حد كبير الى هذا المؤرخ ، بل ان أكبر صور المدرسة المغولية توجد فى كتاب جامع التواريخ ، كما أن رشيد الدين لم يكن مؤرخا فحسب بل كان كذلك عالما أديبا له مؤلفات عديدة فى الطب والاحياء والاقتصاد الزراعى والعلم والأدب ، وقد وضح ذلك فى كتبه مما يدل على عظمة هذا الرجل ·

وهكذا نرى أن خواندمير كان موفقا غاية التوفيق فى وضع كتاب جامع التواريخ على رأس قائمة المصادر التى أخذ عنها واستفاد منها ، وكان يصرح بذلك كثيرا ويردد عبارات « بروايت صاحب(١) جامع التواريخ ··· در جامع التواريخ (٢) مسطور ست ··· در جامع التواريخ (٣) مذكورست ، صاحب جامع (٤) التواريخ كويد ··· » وغيرها من العبارات ·

٢ ـ كتاب « روضة الصفا » :

وصاحبها هو المؤرخ الكبير ميرخواند (٨٣٨ ـ ٩٠٣ هـ) ـ جد خواندمير لأمه ـ الذى عرفنا به وبكتابه فى الفصل الثانى والفصل الثالث من الباب الأول·

٣ ـ كتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » :

ومؤلف هذا الكتاب هو المؤرخ محمد عوفى صاحب كتاب «لباب الألباب» ، ومن كتاب القرن السابع الهجرى المشهورين · وهو يصرح فى القسم الأول من كتابه « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » أنه عرف باســم « العوفى » نسبة الى عبد الرحمن بن عوف أحد صحابة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه كان من سلالته ·

---

(١) دستور الوزراء/خواندمير ص ٣٧ طهران ١٣١٧ هـ ش ·
(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨ ·
(٣) المرجع السابق ، ص ١٣٧
(٤) المرجع السابق ، ص ١٨٣

وقد أمضى (١) العوفى معظم طفولته في خراسان وما وراء النهر وخاصة في مدينة بخارى ، ثم رحل عن هذه المدينة الى الهند فالتحق بخـدمه السلطان « ناصر الدين قباجه » واهدى الى وزيره « عين الملك حسـين الأشعرى » معجمه الذى صنفه عن شعراء الفرس باسم « لباب الألباب » فلما فقد هذا السلطان ملكه وحياته في سنة ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٨ م انتقل العوفى الى خدمة السلطان الذى قهر مخدومه « شمس الدين ايلتتمش » وأهـدى اليه كتاب « جوامع الحكايات ولوامع الروايات » •

وكتاب « جوامع الحكايات » كتاب تاريخى يشتمل على ٢١١٣ حكاية من القصص التاريخية ، استقاها مؤلفه من المصادر الموثوق بها وعددها ثلاثة (٢) وتسعون مصـدرا تقريبا • وتبـدو أهمية هذا الكتاب اذا عرفنا أن معظم هذه المصادر التى أخذ عنها العوفى قد ضاع وبعضها لم نعرفه الا من خلال كتابات العوفى نفسه • وكتاب (٣) جوامع الحكايات مقسم الى أربعة أقسام ، كل قسم منها يشتمل على خمسة وعشرين بابا ، وكل باب منها يشتمل على مجموعة من الحكايات تصور موضوعه وتفسره ، وأسلوب الكتاب بسيط وسهل ويختلف تماما عن أسلوب « لباب الألباب » • وقد استفاد خواندمير كما استفاد غيره كثيرا من كتاب جوامع الحكايات ، ونقل عنه الكثير من الأخبـار المتعلقة بأحوال وزراء الدولة الأموية والدولة العباسية فى كتابه « دستور الوزراء » ، يذكر مصحح كتاب جوامع الحكايات هذه الحقيقة ـ حول من تأثروا بجوامع الحكايات ـ فيقول :

« در آثار نوهٔ ميرخواند يعنى خواندمير هم تأثير مستقيم جوامع مشهود است ، در مآثر الملوك وخلاصـة الاخبار اندك مشابهتى ودر دستور الوزراء (٩١٤ هـ) حد أقل بيست نقل قول از جوامع الحكايات ديده مى شود » (٤) •

وترجمتها : « •• ويظهر تأثير جوامع الحكايات الواضح من آثار حفيـد ميرخواند أى خواندمير ، وهذا التأثير يبدو قليلا الى حد ما فى كتابى « مآثر الملوك » ، « خلاصة الأخبار » ، أما فى كتاب « دستور الوزراء » ـ المؤلف عـام ٩١٤ هـ ـ فيلاحظ أنه صرح بنقله عن جـوامع الحكايات فيما لا يقـل عن عشرين مرة » وخواندمير يذكر صراحة أنه نقل عن جوامع الحكايات ، ويردد ذلك بعبارات مختلفة فى كثير من أجزاء كتابه دستور الوزراء ، ويلاحظ أنه يذكر هذا

---

(١) براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ٢ ص ٦٠٦ ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م •

(٢) أنظر جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، تصحيح كريمى ، ص ٤٤ من المقدمة • طهران

(٣) لمعرفة مزيد من التفصيلات عن هذا الكتاب أنظر منتخبات من جوامع الحكايات ، تحقيق ملك الشعراء بهار ، جوامع الحكايات ، الجزء الأول ، تحقيق د/معين •

(٤) انظر ، جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، تصحيح كريمى ، ص ٧٦ من المقدمة ، طهران •

الكتاب باســـم « جامع الحكايات » فيقول مثـــلا : « يقول صاحب (١) جامع الحكايات ... » ، « ودر جامع (٢) الحكايات مذكورست .. » ، « برروايت صاحب جامع (٣) الحكايات .. » ، « باعتقاد صاحب (٤) جامع الحكايات .. » وغيرها من العبـــارات .

٤ ـ « تاريخ گزيده » :

ومؤلف هذا الكتاب هو المؤرخ حمد(٥) الله المستوفى القزوينى . كان من الشعراء والكتاب المجيدين فى اللغه الفارسية ، يتصل نســبه ببحر بن يزيد الرياحى ، فهو اذن من أصل عربى ، ولكن أسرته استوطنت مدينـــة قزوين مدة كبيرة ، وارتبطت بايران ارتباطا قويا . وكان جده الأكبر « أمين الدين نصر » مستوفيا على العراق ، وكان أخوه زين الدين محمد من عمال الوزير رشيد الدين فضل الله ، ورشيد الدين هو الذى اختار حمد الله ليكون مستوفيا على قزوين وزنجان وأبهر وطارمين .

كان حمد الله يميل فى شبابه الى الاطلاع على الكتب التاريخية ومجالســة العلماء والفضلاء ، وكان معظم هــؤلاء العلماء يحضرون مجلس رشيد الدين ، فاستفاد منهم حمد الله استفادة كبيرة .. وبعد مقتل رشيد الدين التحق القزوينى بخدمة ابنه غياث الدين ، اعترافا منه بفضل أسرة رشيد الدين عليه ، وبعد مقتل غياث الدين محمد لا نكاد نعرف شيئا عن حياة حمد الله سوى أنه توفى عـام ٧٥٠ هـ .

وكتاب « تاريخ گزيده » ألفه القزوينى عام ٧٣٠ هـ ـ ١٣٣٠ م فى التاريخ العام اذ يضم جميع ما عرف عن ايران منذ عهد آدم حتى عام تأليفه ، وأطلق عليه القزوينى اسم « تاريخ گزيده » أى التاريخ المنتخب ، وأهداه الى غياث‌الدين محمد بن رشيد الدين وزير السلطان أبى سعيد بهادر خان . والكتاب ينقســم الى مقدمة وستة أبواب وخاتمة :

المقـــدمة : فى خلق الكائنـــات .

الباب الأول : ويتكون من مقالتين يتحدث فيهما عن الأنبياء والحكماء والرسل .

---

(١) دستور الوزراء/خواندمير ، ص ٢١ ، طهران ١٣١٧ هـ ش .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٧ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٨ .
(٥) براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ٣ ص ١٠٦ ـ ١٢٠ الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ش ـ ١٩٤٨ م .

الباب الثانى : فى ذكر ملوك الفرس الذين عاشوا قبل الاسلام ويقع فى أربعة فصول .

الباب الثالث : ويشتمل على مقدمة وستة فصول فى ذكر النبى وخلفائه وأولاده وأحفاده وصحابته والتابعين ، ثم ذكر خلفاء بنى العباس حتى سقوط الخلافة عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م .

الباب الرابع : فى ذكر الملوك الذين حكموا ايران بعد الاسلام . وقد خصص المؤلف الفصل الثانى عشر للحديث عن المغول فى ايران ، ويعقب هذا الفصل فصل اضافى فى تاريخ أسرة المظفريين - حكام شيراز - ليس (١) من تأليف المؤلف وانما ألحقه أحد النساخ بكتاب « تاريخ كزيده » .

الباب الخامس : ويشمل ستة فصول فى ذكر الأئمة والقراء والمشايخ وعلماء الدين والشعراء .

الباب السادس : ويشمل سبعة فصول فى ذكر مدينة قزوين موطن المؤلف ومكان تربيته وتنشئته .

الخاتمة : فى ذكر شجرة الأنساب لطوائف الأنبياء والأولياء والأئمة والملوك والوزراء وغيرهم ، وقد سار فيها على النهج الذى اتبعه رشيد الدين فضل الله صاحب « جامع التواريخ » ، ولكن هذه الشجرة محذوفة ، ولم يعثر عليها فى أى نص من نصوص الكتاب .

ولقد استطاع القزوينى بمهارة تدعو الى الاعجاب أن يورد تاريخه حسب ذلك التقسيم الواسع ، فجاء واضح المطالب ، وافيا بالغرض ، بعيدا عن التطويل الممل ، كما أن هذا الكتاب يتضمن ذكرا لمطالب كثيرة لا تجدها فى مصادر أخرى ، خصوصا تلك المتعلقة بالفترة التاريخية التى كان يعاصرها المؤلف .

ولقد استفاد خواندمير فائدة محققة باطلاعه على كتاب تاريخ گزيده ، ونقله عنه فى بعض المواضع من دستور الوزراء ، مصرحا بذلك بقوله :

« در تاريخ (٢) گزيده مسطور ست كه » ... پوشيده نماند كه (٣) صاحب تاريخ كزيده .. » ، وغيرها .

---

(١) براون ، التاريخ الأدبى لايران جـ٣ ص ١١٤ حاشية رقم (١) الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـ ص - ١٩٤٨ م .

(٢) دستور الوزراء/خواندمير ، ص ١١٤ طهران ١٣١٧ هـ ش .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

٥ ـ كتاب « جهانكشاى » :

ومؤلف هذا الكتاب هو المؤرخ عطا ملك الجوينى بن بهاء الدين محمد ، ولد عام ٦٢٣ هـ • والتحق بخدمة المغـول منـذ الصغر • وأصبح الجوينى من عمال الديوان فى عهد الأمير أرغون حاكم ايران من قبل المغول ، وذلك قبل مجىء المغول الى ايران • ولقد احتل عطا ملك منزلة كبيرة عند أرغون ، لدرجة أنه كان يصحبه فى أسفاره العديدة الى « قراقورم » ، وخلال تلك الأسفار العـديدة ، استطاع عطا ملك أن يجمع المادة اللازمة لتأليف كتابه ، حيث تمكن من الوقوف على أحوال المغول ونشأتهم ومعرفة قبائلهم • واستمر عطا ملك يعمل فى خدمة الأمير أرغون حتى عام ٦٥١ هـ ، ثم التحق بخدمة هولاكو خان عندما قدم بحملته الى ايران فى تلك السنة ، واحتل عطا ملك منزلة كبيرة عند هولاكو خان ورافقه فى حروبه ضد الاسماعيلية ، والجوينى هو الذى كتب شروط التسليم التى أملاها هولاكو خان عندما انتصر عليهم • وكلفه هولاكو خان بالاطلاع على مكتبة الاسماعيلية فى قلعة الموت ، فكان من بين ما عثر عليه فى هذه المكتبة كتاب « سر گذشت سيدنا » ، وهذا الكتاب عن تاريخ الحسن بن الصباح مؤسس هذه الجماعة ، وخلفائه من بعده ، واستفاد الجوينى من هذا الكتاب فى التاريخ لهذه الجماعة ، وأورد ملخصا له ضمنه الجزء الثالث من كتابه « تاريخ جهانگشا » .

واستمر الجوينى حاكما على العراق فى عهد آباقاخان بعد وفاة هولاكوخان، واستمر يعيش معززا مكرما ، ولكن فى أواخر عهد آباقا خان ، دبر له رجـل يدعى « مجد الملك اليزدى » مؤامرة حيث اتهمه هو وأخاه الوزير شمس الدين محمـد الجوينى بأنهمـا على اتفـاق مع حاكم مصر الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ) وأنهما ينويان تسليم العراق له ، فقبض عليهما آباقا خان وعاقبهما ، وكان ذلك ايذانا بأفول نجم هذه الأسرة التى كانت فى دولة المغول مثل أسرة البرامكة فى الدولة العباسية •

وبعـد وفاة آباقا خان ، خلفه أخوه « أحمد تكودار » الذى كان أول من أسلم من المغول ، فأعيد عطا ملك وأخوه شمس الدين الى منصبيهما ، وأمر ذلك السلطان بقتل منافسهما مجد الملك اليزدى عام ٦٨١ هـ ـ ١٢٨٣ م ولكن عطا ملك لم يعش طويلا وتوفى هو الآخر فى نفس العام •

وكتاب « جهانگشاى » كتاب جامع لتاريخ المغول ، وضعه الجوينى عـام ٦٥٨ هـ ، ولكنه وقف بأحداثه عند عام ٦٥٥ هـ ـ ١٢٥٧ م • وقسم المؤلف كتابه الى ثلاثة أقسام (١) :

---

(١) براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ٣ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ، الترجمة الفارسية ، طهران ، ١٣٢٧ هـ ش •

القسم الأول : فى تاريخ ظهور جنگيز خان وأسلافه وأخلافه حتى عصر جغتاى ٠

القسم الثانى : فى تاريخ سلاطين الخوارزميين والقراخطائيين وحكام المغول فى ايران ٠

القسم الثالث : فى تاريخ منگرقا آن ، وتفصيل حملة هولاكو على ايران ، وشرح تاريخ الاسماعيلية حتى سقوط دولتهم ، وهذا القسم مقتبس من كتاب « سر گذشت سيدنا » الذى عثر عليه الجوينى فى مكتبة الاسماعيلية فى الموت ، ويعقب هذا القسم رسالة صغيرة تشتمل على حوادث فتح بغداد ، تنسب الى خواجه نصير الدين الطوسى ، وفى الغالب أن هذه الرسالة قد ألحقت بآخر نسخ هذا الكتاب ٠ وكتاب تاريخ جهانگشاى يشتمل على معلومات نفيسة ، صرف المؤلف فى تحصيلها أغلب أيام حياته والتزم جانب الحياد والدقة فى أخباره ، ولم ينهج سبيل الملق والمداهنة رغم خدمته فى بلاط المغول ، وقال رأيه صراحة فيهم ووصف مآسيهم ، وما جنوه على الحضارة الاسلامية وصفا رائعا مجردا من كل غرض أو هوى ٠ وميزة أخرى للجوينى انفرد بها بين المؤرخين وهى أنه كان يعيش فى عصر لا تزال فيه الامبراطورية المغولية وحدة متماسكة ، فذكر ما استطاع ذكره عن تاريخ أجزاء تلك الامبراطورية ، وسار فى كتابه على نحو ما سار ابن خلدون من تقصى الحقائق ، وعرض المسائل الفلسفية ، وبيان الأصول الاجتماعية الصحيحة فى الكشف عن العلل الحقيقية لهزيمة دولة الخوارزميين ، وانقراض مدنية الايرانيين على يد التتار ، ومقابلة ذلك ببيان الأسباب الحقيقية لتقدم جنكيز خان ونجاحه فى تحقيق أهدافه (١) ٠

وقد تأثر كثير من المؤرخين الذين جاءوا بعد الجوينى بكتابه هذا ومنهم المؤرخ الكبير رشيد الدين فضل الله وميرخواند وخواندمير وغيرهم ، ولابد أن يكون خواندمير قد نقل الكثير من تاريخ الجوينى أحيانا بطريق غير مباشر ممانقله صاحب جامع التواريخ من جهانگشاى ــ كعادة الكثير من المؤرخين ــ وأحيانا أخرى بطريق مباشر عن أصل جهانگشاى نفسه ٠ والدليل على ذلك اعجاب خواندمير بعلاء الدين عطا ملك والاشادة به وبكتابه فى دستور الوزراء اذ يقول أثناء ترجمته لأحوال شقيقه شمس الدين محمد الجوينى :

« وبرادر عالى گهر خواجه شمس الدين محمد صاحب علاء الدين عطا ملك كه در علم ودانش خلاصهٔ كارخانهٔ آفرينش بود وتاريخ جهانگشاى از مؤلفات أوست بحكم آبا قاخان در خطه بغداد رايت حكومت برافراخت وآن بلده راكه بعد ازن قتل مستعصم جنان خراب وويران شده بود كه قلم دوزبان بهيچ وجه

(١) د/الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، ص ٢٢٧ القاهرة ١٩٦٧ م ٠

از كيفيت آن تعبير نميتواند نمود بآندك زمانى معمور وآبادان ساخت (۱) »

وترجمتها : وقد تولى علاء الدين عطا ملك ــ شقيق الوزير شمس الدين محمد والذى كان فريد عصره فى العلم والمعرفة ، ومن مؤلفاته كتاب « تاريخ جهانشگاى » ــ الحكم فى ولاية بغداد بأمر السلطان آباقا خان ، وقد عمر تلك البلدة فى فترة وجيزة من الزمن ، وكانت قد خربت بعد قتل الخليفة المستعصم ، لدرجة يصعب على القلم ــ ذى اللسانين ــ التعبير عنها •

٦ ــ كتاب « روضة أولى الألباب فى تواريخ الأكابر (۲) والأنساب » :

وهو الكتاب المشهور بين المؤرخين باسم « تاريخ البناكتى » ، ومؤلفه هو أبو سليمان فخر الدين على بن أبى الفضل داود بن محمد البناكتى ، كان شاعرا ممتازا ومؤرخا كبيرا فى بلاط المغول الايلخانيين ، وكان مقربا اليهم وخاصة الى غازان خان الذى لقبه بملك الشعراء عام ۷۰۱ هـ ــ ۱۳۰۱ م • والبناكتى ــ نسبة الى « بناكت » احدى مدن ما وراء النهر ــ قد سار على نهج رشيد الدين فضل الله فى تأليفه كتابه هذا ، وخاصة عند تأريخه للطوائف غير الاسلامية حيث أفرد لها أكثر من نصف كتابه •

عاش البناكتى حتى عام ۷۳۵هـ ــ ۱۳۳٤ م ، وألف كتابه فى عام ۷۱۷هـ ــ ۱۳۱۷ م فى عهد السلطان أبى سعيد بهادر خان ، ويشتمل على تسعة أقسام على النحو التالى :

القسم الأول : الأنبياء والرسل •

القسم الثانى : ملوك الفرس القدماء •

القسم الثالث : تاريخ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ والخلفاء الراشدين •

القسم الرابع : الدول الفارسية المعاصرة للخلافة العباسية •

القسم الخامس : اليهــود •

القسم السادس : المسيحيون والفرنج •

القسم السابع : الهنــود •

القسم الثامن : الصــين •

القسم التاسع : المغــول •

---

(۱) دستور الوزراء/خواندمير ، ص ۲٦۹ طهران ۱۳۱۷ هـ ش •

(۲) براون ، التاريخ الأدبى الايران ، جـ۳ ص ۱۲۲ ــ ۱۲۵ ، الترجمة الفارسية ، طهران ۱۳۲۷ هـ ــ ۱۹٤۸ م ، د/الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، ص۳۱۰ القاهرة ۱۹٦۷ م •

وينظر الى البناكتي على أنه تابع ومقلد لرشيد الدين فضل الله ، وقد نقل عنه الكثير من أخبار الطوائف غير الاسلامية ، ولكنه زاد عليها وأضاف اليها معلومات دقيقة ومفصلة ، كان يسمعها مشافهة من سفراء هذه الأمم بحكم كونه شاعرا في بلاط المغول ، وكانت تتاح له الفرص للاختلاط بالأجانب الوافدين على البلاط المغولى من أماكن بعيدة ، وعلى هذا جاءت بكتابه اشارات عن أخبار تاريخية جرت في مناطق نائية عن البلاد الاسلامية كالبرتغال وبولندا وبوهيميا وانجلترا واسكتلندا وايرلندا وقطالونيا وفرنسا وبلاد (١) الروم .

وقد استفاد خواندمير كثيرا من تاريخ البناكتي ، ونقل عنه في كتابه دستور الوزراء وصرح بذلك أحيانا بقوله :

« صاحب بناكتى‌يد گر كه (٢) ... » .

٧ ـ كتاب « تاريخ وصاف » (٣) :

والاسم الحقيقى لهذا الكتاب هو « تجزية الأمصار وتزجية الأعصار » . ومؤلف هذا الكتاب هو شرف الدين عبد الله بن فضل الله الشيرازى الشاعر الكاتب الملقب بـ « وصاف الحضرة » . ولد في شيراز عام ٦٦٣ هـ ـ ١٢٦٥ م ، واشتغل بتحصيل العلم والأدب ، وتعمق في دراسة اللغة العربية وآدابها ، والتحق بخدمة الديوان في شيراز وشيئا فشيئا أصبح الوصاف من خواص صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى نائب الأمير « طغاجار » في فارس . وأما والد المؤلف « عز الدين فضل الله » ، فقد توفى عام ٦٩٨ هـ ـ ١٢٩٩ م أثناء القحط الذى أصاب اقليم فارس . وكان الوصاف وقتها يشتغل محصلا للأموال ، ثم اتصل بالوزير رشيد الدين وتوطدت بينهما روابط الصداقة .

بدأ الوصاف تأليف كتابه عام ٦٩٩ هـ ـ ١٣٠٠ م ، وعرض القسم الأول منه على السلطان غازان عام ٧٠٢ هـ ـ ١٣٠٣ م ، وعرض القسم الآخر منه على السلطان أولجايتو عام ٧١٢ هـ ـ ١٣١٢ م في مدينة السلطانية . ورشيد الدين فضل الله هو الذى قدم الوصاف ، وقدم كتابه الى الايلخانيين المذكورين ، وقد حظى الوصاف لديهما بالقبول ، وأصبح موضع عطفهما ورعايتهما ويبلغ مجموع القسمين المذكورين أربعة أجزاء ، وأما الجزء الخامس والأخير من تاريخ الوصاف فقد كتبه المؤلف مؤخرا حيث يستمر في التحدث فيه عن أسرة هولاكو حتى عام ٧٢٨ هـ ـ ١٣٢٧ م .

---

(١) براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ ٣ ص ١٢٤ ، الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٣٧ هـ ش ـ ١٩٤٨ م .

(٢) دستور الوزراء/خواندمير ، ص ٧١ طهران ١٣١٧ هـ ش .

(٣) براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ٣ ص ٧٧ ـ ٧٨ طهران ١٣٢٧ هـ ش ـ ١٩٤٨ م د/الصياد ، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ القاهرة ١٩٦٧ م .

وكتاب الوصاف عبارة عن ذيل لتاريخ جهانگشاى للجوينى ، كما يشتمل على تاريخ الملوك وأمراء الأطراف من سنة ٦٥٦ هـ حتى سنة ٧٢٨ هـ (١٢٥٨ ـ ١٣٢٨ م) ، أى الى أواسط حكم السلطان أبى سعيد بهادر خان الايلخانى · وهذا الكتاب يعتبر من أهم المصادر فى تاريخ المغول فى ايران ، خصوصا فى الفترة ما بين فتح بغداد وأواسط عهد السلطان أبى سعيد ، فهو بهذا يكمل السلسلة التى بدأها عطا ملك الجوينى فى كتابه « تاريخ جهانگشاى » · وتزداد أهميـة هذا الكتاب اذا عرفنا أنه يتحدث عن فترة تبلغ سبعين عاما من حكم المغول فى ايران ، بقلم أحـد المعاصرين لهذا العهـد ، بقلم واحـد من الموظفين فى دولة المغول ·

كمـا يمتاز كتاب الوصاف فى كون صاحبه التزم جانب الحيـاد والدقة والواقعية فى ايراد أخبـاره وتسجيل أحـداثه ، ورغم قيامه بالخدمة فى بلاط المغول ، فانه لم يتملقهم ولم يمدحهم بما ليس فيهم · بل نراه ينقدهم نقدا لاذعا ويرى فيهم قوما طغاة سفاكين للدماء ، داعيـا الله أن يخلص الأمة الاسلامية من شرورهم · وقد ظهر هذا الشعور بوضوح حينما أخذ الوصاف يشرح أحوال ملوك مصر من الأيوبيين والمماليك ، ويصف الحروب التى اشتبكوا فيها مع المغول ، تلك الحروب التى أسفرت عن نصر ساحق للمماليك واندحار تام للمغول (١) ·

ولكنه رغم تلك الميزات فقد أفرط الوصاف فى الصـنعة ، واشتط فى التكلف ، وحشد كتابه بالكثير من أبيات الشعر وآيات القرآن الكريم واقتباسات من عبارات البلغاء والفصحاء ، مما أصاب كتابه بالغموض وصعوبة الفهم · يقال انه حينما مثل مؤلف هذا الكتاب بين يدى السلطان أولجايتو ، وقرأ عليه بضع صفحات من كتابه بصوت مرتفع ، عجز السلطان عن فهم (٢) معانيها ·

ورغم هذا فقد حقق هذا الكتاب شهرة كبيرة ، ونال اعجاب وتقدير أهل العلم والأدب ونقل عنه الكثيرون من المؤرخين ، ومن بينهم المؤرخ خواندمير في كتابه دسـتور الوزراء ، وكان يصرح بذلك أحيانا فى ثنـايا هـذا الكتاب · يقول مثلا :

« وباعتبار صاحب تاريخ وصاف در عرض جهار روز ··· » ·

وتلك المصادر التى عرفنا بها ، والتى اعتمد مؤرخنا عليها أساسا ، تعتبر من أمهات الكتب فى التاريخ والأدب التى لا جدال حول الاقرار بدقتها وصدق روايتها ، سواء فى عصر مؤلفيها أو فى عصر خواندمير أو فى عصرنا نحن الآن ·

---

(١) انظر تاريخ الوصاف ، ص ٨٥ ـ ٩٠ بمباى ١٢٦٩ هـ ـ ١٨٥٣ م ·

(٢) براون ، التاريخ الأدبى لايران جـ٣ ص٧٨ ، الترجمة الفارسية ، طهران ١٣٢٧ هـش

وقد رجع خواندمير كذلك الى مصادر أخرى كثيرة ، ولكنه لم يذكرها كثيرا رغم أهميتها ، من بينها كتاب « الفرج بعد الشدة » للتنوخي (ت ٣٨٤ هـ) الذى ترجمه الى الفارسية عام ٦٢٠هـ المؤرخ محمد عوفى صاحب «لباب الألباب»، وكتاب «نفثة المصدور فى صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور» لأنو شيروان ابن خالد ، وكتاب «تاريخ الطبرى» لمحمد بن جرير الطبرى ، وكتاب «سياستنا مه» لنظام الملك ، وكذا مؤلفات الامام الغزالى والفيلسوف ابن سينا وغيرهم ٠

وهكذا يتضح لنا مدى توفيق خواندمير فى اختيار مصادره ، حيث كانت من أهم المصادر وأوثقها رواية ٠ هـذا بالاضافه الى الاخبـــار التى سمعها من المعاصرين له ، أو التى شاهدها ولمسها بنفســـه ، والتى تتركز فى الفترة التى عاصرها والتى جاءت كتاباته عنها أفضل وأدق ما جاء بكتابه نظرا لعدم وجودها فى مصادر أخرى ٠

قيمة دستور الوزراء :

من أجل بيان قيمة دستور الوزراء سوف نستقى استنتاجاتنا من ثنايا الكتاب نفسه ومن خلال الكتب التى وضعت خصيصا عن الوزراء ، وتيسر الاطلاع عليها ، وكذا بالاستعانة بأقوال المتخصصين حول دستور الوزراء ٠

وقيمة دستور الوزراء تبدو فى أمور عديدة أهمها :

١ ــ يعتبر دستور الوزراء أول موسوعة تاريخية خصصها مؤرخ اسلامى لترجمة أحوال الوزراء بعد الاسلام وحتى نهاية العصر التيمورى ــ ظهرت فى ايران ــ باللغة الفارسية ٠ اذ أنها جاءت شاملة لأحوال أكبر عدد من الوزراء عرفناه فى كتاب واحد ــ حسب ما وصل اليه علمى ــ وفاقت بذلك كتاب « آثار الوزراء » للعقيلى الذى وضع قبله (١) والذى يقال ان مؤلفه نقله كله (٢) كلمة عن كتاب « نسائم الأسحار ولطائف الأخبار » المجهول المؤلف ٠ هذا اذا طرحنا جانبا الأخبار المتفرقة عن الوزراء فى الموسوعات التاريخية الكبيرة ، وغيرها من الكتب التى ظهرت قبل دستور الوزراء ٠

٢ ــ لم يستخدم مؤلف دستور الوزراء طريقة التطويل وايراد الحكايات المنقولة المملة ــ كما فعل مؤلف آثار الوزراء وغيره ــ ولكنه كان يقرأ مصادره جيدا ويقارن بينها ويستخلص منها ما اتفق عليه معظم المؤرخين ، ثم يورده فى عرض جامع مانع فى كتابه فكان يردد كثـيرا قوله : « نزد ناظمان جواهر أخبـــار بصحت بيوسته كه » ، « القصه باتفاق مورخان سخندان » ، وبحسب اتفاق هم در آن اوقات ٠٠ » وما شابهها من عبارات ٠

---

(١) ولكن لم يقدر لكتاب « آثار الوزراء » النشر الا بعد نشر « دستور الوزراء » بعشرين سنة أى نشر فى عام ١٣٣٧ هـ ش بايران ٠

(٢) كتاب « آثار الوزراء » عقيلى ــ مقدمة المصحح ص (ب) طهران ١٣٣٧ هـ ش ٠

وبهذه الطريقة قدم خواندمير خدمة جليلة لقارئه بأن وفر عليه جهد قراءة كل هذه الأخبار ــ الغث منها والثمين ــ ووضع خلاصتها امامه وافيه شافيه •

٣ ــ رغم طريقة العرض السابقة التى انتهجها خواندمير الا انه كمؤرخ واع ــ توفرت له كل المقومات التى يجب ان تتــوفر فيمن يتصــدى للكتابة التاريخية ــ لم يفته الحديث بتوسع عن الشخصيات الكبيرة التى كان لها دخل كبير فى تسيير دفة الأمور فى عصرها ، فنراه يفيض الحديث ــ مثلا ــ عن أسرة البرامكه وعلو شأنها وأسباب نكبتها ، وعن أسرة بنى سهل التى خلفتهــا فى العصر العباسى ، وكذا يفيض الحديث عن الوزير نظام الملك واعقابه فى العصر السلجوقى ، وعن أسرة الجوينيين وعن الوزير رشيد الدين فضل الله وابنه الوزير غياث الدين فى العصر المغولى ، وعن الوزير مجد الدين محمد وقوام الدين نظــام الملك الخوافى فى العصر التيمورى • كما ضمن خواندمير كتابه هــذا حديثا مستفيضــا عن الفيلسوف الحــكيم الوزير ابن سينا ــ باعتبار انه كان قد تولى الوزارة فترة من الوقت ــ تحدث فيه عن جوانب شخصية ابن سينا المختلفة ومواهبه المتعددة ، ومكانته فى عصره ومؤلفاته • وكانت هذه الأحاديث المستفيضة من أفضل ما كتب عن هؤلاء بل ان بعضها لم نشهده الا فى دستور الوزراء مثل ما كتب عن الوزير قوام الدين نظام الملك (١) الخوافى ، وتلك ميزة عظيمه انفرد بها دستور الوزراء •

٤ ــ من ميزات دستور الوزراء أيضا أنه حفظ لنا أسماء بعض الكتب التى اطلع عليها مؤلفــه واستفاد منها فى عصره ولكنها لم تصل الى أيدينا ولولاه لما عرفت ، يقول الاستاذ سعيد نفيسى :

« وجون باره اى ازين كتابها كه نام مى برد يعنى جامع التاريخ جلالى وجامع الحكايات والتواريخ جــلالى وملك نامه بدست نيست آكرهم باشــد معروف نيست از ين حيث نيز اين كتاب فوايدى وارد (٢) •

وترجمتها : « ولما كانت بعض الكتب التى ذكر أسماءها أى كتاب « جامع التاريخ جلالى » ، وكتاب « جامع الحكايات والتواريخ جلالى » وكتاب « ملك نامه » ليست بين أيدينا ــ واذا كانت موجودة فانها غير معروفة ــ ولهذا السبب تكمن فائدة هذا الكتاب أيضا » •

٥ ــ لقد تتلمذ خواندمير على يد جده لأمه المؤرخ الكبير ميرخواند وبلغ خبر نبوغه مسامع الأمير عليشير نوائى فقدمه اليه ووضع مكتبته الخاصة بين يديه • فانكب خواندمير على قراءة ما بها من كتب السابقين واللاحقين واستوعبها وأخرج

---

(١) وهو من وزراء السلطان حسين بايقرا ، وترجمة أحوال وزراء ذلك الســلطان فى دستور الوزراء لا مثيل لها عند الآخرين •

(٢) كتاب « دستور الوزراء » خواندمير ــ مقدمة سعيد نفيسى ص (خ) •

مؤلفه « خلاصة الأخبار » الذى لقى اعجاب الأمير وتقـديره · فاذا كان الأمير عليشير ــ المشهود بفضله وعلمه ــ قد أعجب بكفاءة خواندمير وقدرته على تأليف ذلك الكتاب ، فكيف يكون تقديرنا نحن لخواندمير على تأليف « دستور الوزراء » الذى وضعه بعد تأليف ذلك الكتاب ؟

لا شك أن خواندمير قد استفاد كثيرا من قراءاته بمكتبة الأمير عليشير وبما كانت تحويه من كتب نادرة ووثائق ، كما اكتسب خبرة كبيرة بالتأليف بعد أن طرق هذا الباب مرتين قبل اقدامه على تأليف دستور الوزراء · ومن هنا جاء الكتاب نتاج ثقافة واسعة وخبرة كافية ·

٦ ــ لقد استقى خواندمير معلوماته ــ عن وزراء العصر التيمورى ــ من أفواه الأفاضل والعلماء والأصدقاء المقربين ، كما استقاها من مشاهداته الشخصية ومعارفه المكتسبة خلال عمله فى بلاط الأمراء والسلاطين التيموريين · ونلاحظ أنه لم يستعن مطلقا بأى مصـــدر مكتوب منـــذ أن بدأ الحديث عن وزراء العصر التيمورى اللهم الا مرة واحدة استعان بروضة (١) الصفا عند حديثه عن الوزير غياث الدين اندخودى · فنراه يردد ــ خلال حديثه عنهم ــ مثل هذه العبارات :

« بيان اين سخن آنست كه » ، « زبان بآداى اين سخنان بكشاد كه » ، « وفى الواقع » ، « از عزيزى صادق القول استماع افتاده كه » ، « جنان استماع افتاده كه » ، « جنان استماع افتاد والعهدة على الراوى كه » ، « راقم اين كلمات دلپذير از لفظ كوهر بار آن أمير (٢) صافى ضمير جنين استماع نموده كه » وهـكذا ·

وبعد أن عرفنا أن خواندمير قد استقى أخباره عن وزراء العصر التيمورى من أفواه الأصدقاء من الفضلاء والعظماء أمثال الأمير العظيم على شيرنوائى · وبعد أن عرفنا أنه عاصر فترة سلطنة السلطان حسين ميرزا بايقرا وأعقابه حتى انتهاء الدولة التيمورية فى ايران ، يمكن لنا القول بأن أفضل وأدق ما سجله لنا خواندمير فى كتابه « دستور الوزراء » كان الجزء الخاص بوزراء العصر التيمورى عامة وبوزراء عصر السلطان حسين ميرزا وأعقابه خاصة ، والذى لم يسبق تسجيل معظمه قبل دستور الوزراء ، وهذه ميزة كبرى لدستور الوزراء · يقول الأستاذ سعيد نفيسى :

« مهم ترين جنبهٔ اين كتـــاب اينست كه دربارهٔ وزراى عصر خود يعنى وزراى تيموريان ومخصـوصا وزراى سلطان حسـين مطالب تازه ودقيق كه در كتابهاى ديكر نيست بسيار فراوان (٣) است » ·

---

(١) دستور الوزراء/خواندمير ــ ص ٣٥٧ ·

(٢) يقصد الأمير نظام الدين عليشير نوائى ·

(٣) كتاب « دستور الوزراء » ــ خواندمير ــ مقدمة سعيد نفيسى ص (خ) ·

وترجمتها : « وأهم جوانب هذا الكتاب المعلومات الكثيرة ـ الجديدة والدقيقة ـ عن وزراء عصره ـ أي وزراء الدولة التيمورية ـ وخاصة وزراء السلطان حسين والتى لا توجد فى الكتب الأخرى » .

٧ ـ نظرا للثقة الكاملة فى كتاب « دستور الوزراء » والاعجاب بفكرته ومضمونه . فقد حظى بمكانة فائقة بين جمهور الفضلاء سواء فى عصر المؤلف أو بعد عصره ، ففى عصر المؤلف لم يكتف المؤلفون بالاستفادة من الكتاب بل وضعوا كتبا كذلك تحمل نفس الاسم ،وفيما يلى أسماء هذه الكتب ـ حسب ما وصل اليه علمى ـ وأسماء أصحابها وتواريخ تأليفها (١) :

١ ـ **دستور الوزراء** : وضعه بالفارسية شيخ عالم وقدمه لابراهيم باشا فى العشرين من شهر شعبان عام ٩٤٠ هـ ، وهذا الكتاب يشتمل على أربعة أبواب .

٢ ـ **دستور الوزراء** : وضعه بالتركية علاء بن محيى الدين الشيرازى ، وقدمه لمصطفى باشا وزير السلطان سليم الثانى فى عام ٩٦٦ هـ .

٣ ـ **دستور الوزراء** : وضعه بالفارسية سلطان حسين واعظ استرابادى فى عهد السلطان عباس الصفوى الثانى تقريبا ، ويرجح أن يكون هذا الكتاب قد وضعه صاحبه ما بين سنوات ١٠٥٥ ـ ١٠٦٤ هـ .

ولكن لم يتيسر لى الاطلاع الا على الكتاب الأخير من هذه الكتب الثلاثة ، وهذا الكتاب صححه وحققه السيد/اسماعيل واعظ جوادى ، وتم نشره فى ايران عام ١٣٤٥ هـ ش ، والكتاب غير مقسم الى أبواب وفصول ولكنه يشتمل على :

مقدمة المصحح ثم مقدمة المؤلف ، والأخيرة فى مدح السلطان ، وبيان مدى الحاجة الى الوزير . ثم يبدأ نص الكتاب بعد ذلك ابتداء من الصحيفة رقم ٢٢ حتى الصحيفة رقم ٦٤ من الكتاب . ويشمل هذا النص بعض الحكايات واللطائف التى تدور أحداثها بين بعض الخلفاء وأئمة الشيعة ، وبين بعض الوزراء موضحا المؤلف أخلاق السلاطين والوزراء . وقد أشار مصحح هذا الكتاب ، وأرجع بعض أخباره الى دستور الوزراء/خواندمير ، بل نقل عنه بعض الأخبار وتكررت تلك الاشارات ـ على اختلاف أنواعها ـ ثلاثا وعشرين مرة رغم صغر حجم الكتاب . وهنا تتضح أهمية كتاب خواندمير خاصة اذا عرفنا أن نفس المصحح قد اعتمد على كتاب « تكار ستان » ـ الكتاب الذى يلى دستور الوزراء/خواندمير من هذه الناحية ـ أربع مرات فقط .

ونضرب مثلا على تأثر مؤلف « دستور الوزراء/استرابادى » بكتاب

---

(١) انظر ، كتاب دستور الوزراء ـ استرابادى ، طهران ١٣٤٥ هـ ش ، ص ٧ ـ ٩ .

«دستور الوزراء/خواندمير» ، وهو نص تعليق مصحح الكتاب (١) الأول حيث يقول : « اين قسمت خلاصه اى است از تفصيلى كه خواندمير در ص ٢٨٤ تا ص ٢٩٥ دستور الوزراء آورده است كيفيت توطنه عليه خواجه شمس الدين وشهادتش را در آن صفحات آورده است ، واصل منبع روايت نيز جامع التواريخ خواجه رشيد الدين فضل الله است كه در سنه ٧٠٤ تأليف شده است » .

وترجمتها : « وهذا الجزء عبارة عن خلاصة التفصيل الذى أورده خواندمير فى كتابه « دستور الوزراء » من ص ٢٨٤ الى ٢٩٥ عن كيفية التآمر ضد الوزير شمس الدين (٢) واستشهاده ومنبع الرواية الأصلى هو كتاب « جامع التواريخ » لخواجه رشيد الدين فضل الله الذى ألفه عام ٧٠٤ هـ .

ورغم أن كتاب آثار الوزراء ، تأليف سيف الدين حاجى بن نظام عقيلى سابق فى التأليف على كتاب دستور الوزراء ، الا أن الكتاب الأخير ، كان أقيم وأفضل وأكثر احاطة وتفصيلا فيما يتعلق بسير الوزراء ، وسرد أحوالهم ، والكشف عن الدور الذى لعبوه فى تسيير دفة الامور فى عهدهم . يقول الأستاذ سعيد نفيسى (٣) :

« درميان مورخان اسلامى همواره نوشتن كتابهائى كه منحصرا در أحوال وزيران باشد از آغاز تمدن اسلام معمول بوده است وباره اى از انها اينك در ميـان هست ومعروفست از آن جمله است كتاب الوزراء والكتاب تأليف أبو عبد الله محمد بن عبدوس جهشيارى وكتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء تأليف أبو الحسن هلال بن محسن بن ابراهيم صابىء كاتب وكتاب منية الفضلاء فى تواريخ الخلفـاء والوزراء معروف بالفخرى تأليف محمـد بن على بن طباطبا معروف بابن الطقطقى كه آز ـ هندوشاه بن سنجر بن عبد الله صاحبى كيرانى نخجوانى بنام تجارب السلف ، با اضافاتى بفارسى درسال ٦٢٤ ترجمه كرده است وكتاب آثار الوزراء بفارسى تأليف سيف الدين حاجى بن نظام عقيلى كه آنرا بنام قوام الدين نظام الملك خوافى وزير سلطان حسين بايقرا كه أحوال او درهمين كتاب آمده است جند سالى بيش از دستور الوزراء تأليف كرده است. از ين كتابهاى جند بجز آثار الوزراى عقيلى همه جاب شده ومعروفست وجاى آن داشت كه بيش از دستور الوزراء آنرا جاب كنم وبخوانند كان بدهم ولى جون اين كتاب جامع تر وكامل تر از آن بود باهمه فوايدى كه آثار الوزراى عقيلى دارد واز حيث اعتبار ودقت برين كتاب برترى دارد اين كتابرا مقدم شمردم زيرا كه بس از آن تأليف شده واحوال وزراى دكرراهم كه بس از تأليف آثار

(١) دستور الوزراء/استرابادى ص ٤٥ حاشية رقم (١) .

(٢) المقصود صاحب الديوان شمس الدين محمد الجوينى .

(٣) دستور الوزراءا ، خواندمير ، ص (ح) من المقدمة بقلم سعيد نفيسى طهران ١٣١٧ هـ ش

الوزراء بوده اند دارد . ناچار اين كتاب را مقدم شمردم واميدوارم درهمين نزد يكبى ها اثار الوزراء رانيز كه دا راى مطالب تازه مهم است بدست خوانند كان بسبارم » .

وترجمتها : « كان من المعمول به دائما بين المؤرخين المسلمين ، منذ بداية التمدن الاسلامي ، قيامهم بوضع كتب تنحصر مادتها في الحديث عن أحوال الوزراء ، بعضها يوجد بين أيدينا ومعروف لنا . ومن تلك الكتب كتاب « الوزراء والكتاب » ، تأليف أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ، وكتاب « تحفة الامراء في تاريخ الوزراء » تأليف أبي الحسن هلال بن محسن بن ابراهيم الصابيء الكاتب ، وكتاب «منية الفضلاء في تواريخ الخلفاء والوزراء» ، المعروف بالفخرى ، تأليف محمد بن على بن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقي ، والذى نقله من العربية الى الفارسية عام ٦٢٤ هـ هندوشاه بن سنجر بن عبد الله صاحبى كيرانى النخجوانى ، مع بعض الاضافات وذلك تحت عنوان « تجارب السلف » ، وكتاب « آثار الوزراء » باللغة الفارسية ، تأليف سيف الدين حاجى بن نظام العقيلى ، وضعه قبل بضعة سنوات من دستور الوزراء باسم قوام الدين نظام الملك الخوافى ، وزير السلطان حسين بايقرا ، والذى وردت أخباره في نفس الكتاب .

وقد طبعت كل هذه الكتب ماعدا كتاب « آثار الوزراء » للعقيلى ، وانتشرت تلك الكتب واحتلت مكانها بين الدارسين وذلك قبل أن أطبع دستور الوزراء وأقدامه للقراء . ولكنه نظرا لآن هذا الكتاب اشمل منه واكمل فقد قدمت طبعه — رغم ما لكتاب آثار الوزراء عقيلى من فوائد كثيرة وما يمتاز به على هذا الكتاب من حيث الأهمية والدقة — وذلك لأن دستور الوزراء تم تأليفه بعد ذلك الكتاب ويتضمن شرحا لأحوال الوزراء الآخرين الذين جاءوا بعد تأليف آثار الوزراء . وهكذا فقد قدمت طبع هذا الكتاب مضطرا ، وآمل فى المستقبل القريب أن أضع أيضا كتاب آثار الوزراء — الذى يضم أمورا جديدة وهامة — بين أيدى القراء » .

ويشاء القدر ألا يستطيع الأستاذ سعيد نفيسى نشر كتاب « آثار الوزراء » وانما يقوم بنشره وتصحيحه محقق آخر هو الأستاذ مير جلال الدين حسينى ارموى محدث ، وذلك فى طهران عام ١٣٣٧ هـ ش .

ونظرا لضعف التأليف في بعض موضوعات هذا الكتاب ، واضطراب الروايات فيها واقتضابها وغموضها ، لم يجد مصحح الكتاب مفرا من الرجوع الى كتاب دستور الوزراء ليجد فيه ضالته المنشودة . وكان واحدا من بين أهم الكتب التى اعتمد عليهما فى تصحيح روايات كتاب « آثار الوزراء » ، وتوضيح ما غمض منها ..

وقد نبه المصحح الى هذه الحقائق وصرح بذلك أكثر من عشر مرات فى حواشي الكتاب ، ومن هنا تتضح أهمية دستور الوزراء خصوصا اذا عرفنا رأى

ذلك المصحح في « آثار الوزراء » ومؤلفه اذ يقول معلقا على بعض الملاحظات :

« از ملاحظهٔ اين مورد وموارد بسيار ديكر از اين قبيل كه نگارلد بانها مطلع شده است معلوم ميشود كه مؤلف جند ان بضاعتي ند اشته ودقت وامانتي شايسته در تأليف اين كتاب ، ونقل وتلخيص مطالب ديكران بكار نبرده (١) است » ..

وترجمتها : « هذا الموقف ومواقف كثيرة أخرى من هذا القيام — كان قد وقف عليها المصحح — يتضح بأن المؤلف لم تكن ثقافته واسعة ، كما أنه لم يتوخ الامانة الواجبة فى تأليف هـذا الكتاب أو نقل اخبـار الآخـرين وتلخيصها » .

ونختار المثالين التاليين لتوضيح أهميةدستور الوزراء عند مصحح «آثار الوزراء » حيث يقول :

(أ) جون ترجمهٔ اين وزير در نسخهٔ اين كتاببسيار مشوش ومغلوط است. .
از دستور الوزراء (ص ٣٤٥ — ٣٥٢) در اينجا يعنى در ذيل صفحه درج ميكنيم (تاحدى ملخصا) وهى :

وترجمتها : « حيث ان ترجمة هذا الوزير (٢) جاءت مضطربة وخاطئة — الى حد كبير — فى هذا الكتاب ، فاننا نذكر ترجمته هنا — أى فى أسفل الصفحة — نقلا عن دستور الوزراء (ص ٣٤٥ — ٣٥٢) وذلك بشيء من الايجاز وهى :

(ب) « با آنكه ترجمهٔ اين شخص در آثار الوزراء بطور مبسوط ذكر شـده
است ... ليكن در دستور الوزراء ترجمهٔ او بطور مبسوط مذكور ، ومطالب بسيار سود مندى را نيز مشتمل است از آغاز ترقى او تازمان قتلش ، هر كه طالب باشد رجوع كند بصفحة ٤١٨ — ٤٣٢ » (٣) .

وترجمتها : « مع أن ترجمة هذا الشخص (٤) قد جاءت بشكل مفصل فى « آثار الوزراء » ... الا أن ترجمته وردت مفصلة فى دستور الوزراء ، واشتملت أيضـا على جوانب مفيدة جـدا عنه منذ بداية ارتقـائه وحتى مقتله ، ومن يرد الاستزادة عليه أن يرجع الى الصفحات من ٤١٨ حتى ٤٣٢ » .

كانت هذه بعض الجوانب التي وضحت من خلالها قيمة كتاب « دستور الوزراء » ، وذلك بخلاف الكتب الكثيرة والأبحاث التى أخذت عنه أو صححت

---

(١) كتاب آثار الوزراء — عقيلى ، حاشية ، ص ١٩٤ — طهران ١٣٣٧ هـ ش .
(٢) يقصد ترجمة أحوال الوزير سيد فخر الدين محمد .
(٣) كتاب « آثار الوزراء »/عقيلى — ص ٣٦١ حاشـية رقم (١) طهران ١٣٣٧ هـ ش .
(٤) يقصد ترجمة أحوال الوزير قوام الدين نظام الملك الخوافى الذى قدم « آثار الوزراء » باسمه .

منه ، ويكفى هذا الكتاب فخرا أن مؤلفه هو مؤلف الموسوعة التاريخية المعروفة « حبيب السير فى أخبار البشر » ·

أسلوب خواندمير فى دستور الوزراء :

استخدم خواندمير فى كتابه هذا أسلوبا وسطا ، لا يرقى الى مستوى النثر الفنى الذى كتب به الجوينى ورشيد الدين فضل الله — من قبل — ولا يهبط الى مستوى النثر الركيك الذى كتب به الكثير من معاصريه من كتاب القرنين التاسع والعاشر الهجريين · ولقد تميز (١) النثر الفارسى خلال هذين القرنين وما بعدهما بالاغراق فى المحسنات البديعية من سجع وجناس وخلافه ، وخرج كثير من الكتاب عن الاهتمام بالمعنى الى الاهتمام باللفظ والتأنق فيه ، فجاءت كتاباتهم معقدة تحتاج الى وقت طويل لفهم مضمونها ، كما كثرت المترادفات واستعمال التشبيهات والاستعارات والأمثال السائرة والآيات القرآنية والاشعار الفارسية والعربية داخل الكتابة النثرية ، وتسبب ذلك فى غلبة الكلمات والعبارات العربية على الكلمات الفارسية ·

كما تميز النثر فى العصر التيمورى بالاطناب والتشبيب الذى لم يكن له وجود فى العصر المغولى ، يقول ملك الشعراء بهار :

« نويسند كان اين دوره كاه در مقدمات كتب وخطب وفواتح فصول تشبيب هائى سبك قديم مينويسند كه از حيث سجع قدرى شباهت قديم دارد ولى از حيث جزالت وانسجام وساير استاديها در مرتبةً دون قرار (٢) دارد » ·

وترجمتها : « كان كتاب هذا العصر يوردون — أحيانا فى بداية الكتب وأحيانا أخرى فى بداية الفصول — أساليب التشبيب القديمة ، والتى تشبه الى حد كبير الأسلوب القديم من ناحية السجع ولكنها كانت دونه من ناحية الانسجام والجمال » ·

وبالنظر الى أسلوب خواندمير فى دستور الوزراء فاننا نجده قد اتخذ لنفسه أسلوبا وسطا فهو لم يغرق كتاباته فى المحسنات اللفظية وغيرها ، كما أنه لم يستعمل الأسلوب السلس الخالى من المحسنات والمترادفات وغيرها · وقد استعمل خواندمير فى بداية كتابه طريقة التشبيب القديمة ، فبعد أن حمد الله وتحدث عن قدرته فى الصفحة الأولى ، ومدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصلى عليه فى الصفحة الثانية ، وأوضح أهمية الوزير والحاجة اليه — بالنسبة للأنبياء والسلاطين — فى الصفحتين الثالثة والرابعة ، ذكر خواندمير اسم

---

(١) كتاب « حبيب السير » — خواندمير — مقدمة جلال همائى ص ٣٨ طهران ·

(٢) كتاب « سبك شناسى » — تأليف محمد تقى بهار — المجلد الثالث ص ٢٠٨ طهران ·

السلطان فى الصفحة الخامسة ومدحه وذكر اسم الوزير فى الصفحة السادسة وأشاد به ، وأما اسمه فقد ذكره فى الصفحة السابعة ٠

ولكن نرى أن هـذه كانت عادة منتشرة شائعة فى عصر خواندمير لم يكن ليستطيع أن يخرج عليها ما دامت سارية ٠ ولكننا يمكن لنا أن نقول بأنه قد ارتقى بأسلوب عصره فى معظم أجـزاء كتابه واقترب به من أسـلوب العصر السـابق ، وكان حينما يستعمل المحسـنات اللفظية أو الأفعـال الوصفية ، يستعملها فى مهارة وابداع وليس فى تكلف واصطناع فيقول مثلا عند حديثه عن واقعة مقتل درويش أحمد قابض :

« ودر زى حجه سنه اثنى عشر وتسعمائة در شبى كه آن بداختر درخانه امير يوسف على كوكلتاش كه از قبل مظفر حسين ميرزا حاكم هراة بود ، بشرب خمر اقدام من نمود ، ميان او وبرادر مشار اليه ترخانى بيك مباحثه واقع شدو آن جوانمرد حسام خون آشام از نيام انتقام بيرون كشيده ، بيك ضربت روح خبيث اورا بصدر جهنم رسانيد ، وعالمى را از شرارت نفس شومش رهانيد ٠ صباح روز ديكر كه اين خبر بهجت اثر مشهور كشت عقد فرح وانبساط اهالى شهر هراة از اوج سموات در كذشت وهردو كس كه بيك ديكرمى رسيدند مانند أيام عيد مراسم تهنيت ومباركباد بجاى من آوردند وهر جماعت كه يك جا مى نشستند از ظلم وبيداد آن بد نهاد ياد نموده ، هزار لعنت بروح بليد او مى كردند » (١) ٠

وقد استعمل هذا الأسلوب الوسط ــ غير خواندمير ــ أمثاله من كبار الكتاب مثـل عبد الرزاق بن اسحق نور الدين عبد الرحمن الجامى وكاشفى وحافظ آبرو وميرخواند الذين تأثروا بأسلوب رشيد الدين فضل الله الذى سبق له التأثر بأسلوب عطا ملك (٢) الجوينى ٠ وقد استعمل خواندمير أيضـا فى أسلوبه بعض الكلمات المغولية والتركية مثل كلمات « سيور غاميشى » بمعنى الدلال أو الملاطفة ، « سيورغال » بمعنى أملاك السلطان ، « طوى » بمعنى حفل، « نويان » بمعنى « أمير » « قوريلتاى » بمعنى مجمع كبير وغيرها من الكلمات المغولية ٠ ومن الكلمات التركية استعمل مثلا كلمات :

« آق » بمعنى اللون الأبيض ، « ايلاق أو ييلاق » بمعنى مصـيف ، « باريشميشى » بمعنى الصلح والاتفـاق ، « قوشون » بمعنى فرقة من الجيش وغيرها ٠

وعموما فان أسلوب خواندمير جاء أفضل بكثير من الأسلوب الشائع فى

---

(١) أنظر ترجمة « دســتور الوزراء » خواندمير فى القسم الثانى ص ٤٥٦ (من الكتاب الأصلى) ٠

(٢) أنظر سبك شناسى/بهار ــ المجلد الثالث ص ١٩٩ طهران ٠

عصره كما جاء مقبولا محببا مفهوما لمن يقرءونه جيدا الآن ، وظل خواندمير يمسك ـ في كتابه ـ بزمام خبره وموضوعه كل الوقت حتى أخرجه في النهاية في صورة تفيض بالحيوية والتدفق دون ما خلل أو ملل .

خصائص خواندمير من دستور الوزراء :

تتضح خصائص خواندمير ـ من خلال كتابه دستور الوزراء ـ في أمور عدة ـ ميزته كمؤرخ عظيم ـ أهمها أربعة أمور هي :

١ ـ حسن اختياره لمصادره :

فكما ذكرنا استطاع خواندمير أن ينتقى أفضل المصادر وأدقها ، ويتحدث عن كل فترة من واقع أمهات مصادرها ، فمثلا جعل الأساس فى حديثه عن العصرين الأموى والعباسى كتاب « جامع الحكايات ولوامع الروايات » لعوفى و « الفرج بعد الشدة » للتنوخى ، وعن العصر السلجوقى مؤلفات الوزير نظام الملك وكتاب « نفثة المصدور » لأنو شيروان خالد ، وعن العصر المغولى كتاب « جامع التواريخ » لرشيد الدين فضل الله وكتاب « تاريخ كزيده » لحمد الله المستوفى القزوينى و « تاريخ وصاف » لوصاف الحضرة ، وعن العصر التيمورى أقوال الفضلاء والمبرزين وكذا مشاهداته وتجاربه الشخصية .

وبذلك سلك خواندمير الأسلوب العلمى الصحيح فى تأليف كتابه دستور الوزراء باستخدامه كل أدوات المؤرخ الناجح .

٢ ـ تلخيصه الخبر :

سلك خواندمير مسلكا مميزا عن كثير من مؤرخى الفرس الاسلاميين ، وهو قيامه بالاطلاع على مصادره واستيعابها ، ونقله الخلاصة التى اجتمع عليها غالبية بالاطلاع على مصادره واستيعابها ، ونقله الخلاصة التى اجتمع عليها غالبية المؤرخين المؤرخين حول الموضوع الذى يتناوله ، وذلك دون ما خلل بالمعنى أو نقص فى المطالب الأساسية فجاء كتابه موسوعة مختصرة جامعة .

٣ ـ نقده لرجاله ووضوح شخصيته :

لم يورد خواندمير الأخبار ويسجلها ويتركها على علاتها ، بل كانت شخصيته واضحة بارزة طول الوقت ، عبر عنها بشكل غير مباشر أحيانا ، وأحيانا أخرى كان يورد رأيه صراحة وبشجاعة ، وذلك كلما يقتضى الموقف وحينما يسمح المجال . فنراه مثلا بعد أن عدد أسباب نكبة البرامكة قد أورد قولا لأحد الكتاب ان دل على شيء فانما يدل على طغيان البرامكة واسرافهم . يقول خواندمير :

« از غرايب وقايع كه مورخان در مصنفات خويش آورده اند اينست كه شخصى از نويسند كان كويد كه : دفتر اخراجات هرون الرشيد روزى بنظر من رسيد ، در ورقى نوشته ديدم كه : در فلان روز بفرمان خليفه برسبيل انعام

جندين زر وسيم كسوت وفرش وعطر جندين تسليم أبو الفضل جعفر بن يحيى ادام الله كرامته كرده شد وجون أنهارا برهم كرفتم سى هزار هزار درم بود ، ودرورقى ديكر مشاهده نمودم كه بهاى نفت وبورياكه جعفر بن يحيى را بآن سوختند جهار در ونيم دانك نوشته بود فاعتبروا (١) يا أولى الابصار » •

وترجمتها : « ومن أغرب الوقائع التى أوردها المؤرخون فى مؤلفاتهم ماذكر على لسان أحد الكتاب والذى يقول : لقد وقع نظرى ذات يوم على سجل مصروفات هرون الرشيد فرأيت مكتوبا فى احدى الصفحات أنه صرف فى اليوم الفلانى ـ بأمر الخليفة ـ الكثير من الذهب والفضة والكساء والفرش والعطور ـ على سبيل الانعام ـ الى أبى الفضل جعفر بن يحيى ـ أدام الله كرامته ـ وبعد أن جمعتها وجدتها ثلاثين ألف ألف درهم ، كما شاهدت صفحة أخرى مكتوب فيها أن ثمن الغاز والوقود الذى أحرقوا به جثة جعفر بن يحيى كانت قيمته أربعة دراهم ونصف ، فاعتبروا يا أولى الألباب » •

وهذا يوضح لنا أن خواندمير لم يتردد فى ابداء رأيه فى البرامكة وأعلن رأيه صراحة وبشجاعة فى أشهر أسرة ـ من بنى جنسه ـ تولى أفرادها الوزارة فى الدولة العباسية ، ولو لم يدهش خواندمير من شدة اسراف البرامكة وتجاوزهم الحدود ، لما أورد هذا القول على هذا النمط •

٤ ـ حيدته وتجرده من التعصب :

ان خواندمير يظهر حيادا دقيقا ، يكشف عن تجرده من التعصب وبعده عن النظرة الضيقة ، وعلى الرغم من أنه يدين بمذهب التشيع ، نراه عندما كان يترجم للوزير مؤيد الدين بن العلقمى ـ الذى يدين بنفس المذهب ـ ويورد الاتهام الذى وجه اليه من أنه خان المستعصم ، وناصر عليه المغول ، راح يعلق فى صراحة تامة على الموقف المخزى الذى وقفه هذا الوزير فيقول :

« بس سزاو ار روزكار ملازمان دركاه سلاطين كا مكار آنست كه جبلت خودرا از صفت مكر وحيلت باك كرد انند وازسمت كفران نعمت اجتناب نموده، از غدر وخيانت احتراز واجب ولازم دانند ، تادر دنيا معاتب ودر عقبى معاقب نكردند « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد » بيت :

هر آن شركه آيد ز نوع بشر　　زكفران نعمت نباشد بتر
بكفر ان نعمت دليرى مكن　　كه بينى مضرت ز جرخ كهن (٢)

وترجمتها : « وبعد •• فيلزم على كل من يعملون فى بلاط الحكام ، أن يطهروا أنفسهم من صفات المكر والخديعة ، ويبتعدوا بها عن سمات نكران الجميل•

---

(١) كتاب « دستور الوزراء »/خواندمير ـ ص ٥٣ ، ٥٤ •

(٢) دستور الوزراء/خواندمير ص ١٠٦ طهران ١٣١٧ هـ ش •

كما يجب عليهم أن يعلموا أن الاحتراز من ارتكاب أعمال الغـدر والخيانة لأمر واجب ، وذلك حتى لا يعاتبوا فى الدنيا ولا يعاقبوا فى الآخرة ، مهتدين بقوله تعالى : « لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد (١) » ٠

(بيتان فارسيان ، ترجمتهما) :

ـ كل شر يصدر من البشر

، لا يكون أسوأ من الكفر بالنعمة

ـ فلا تقدم على الكفر بالنعمة

، لأنك ترى هكذا ـ من الزمن مضاره

كما نلاحظ أن خواندمير قد أورد ترجمة وافية لأحوال معاصريه من وزراء السلطان حسين بايقرا وأوضح ما لهم وما عليهم ، مثنيا على مخدوميه السلطان حسين بايقرا والسلطان بديع الزمان ميرزا والأمير عليشير نوائى فى ثنايا هذه الترجمات ، وذلك أثناء فترة من أقسى فترات حياته ـ أثناء علو واقتدار محمد خان الشيبانى عدو مخدوميه هؤلاء ـ مبقيا على المقدمة التى كان قد وضعها لكتابه فى النسخة الأولى باسم السلطان حسين بايقرا ووزيره كمال الدنيا والدين خواجه محمود فى النسخة الثانية التى أخرجها (٢) عام ٩١٥ هـ ٠

وهذه السمات التى تحدثنا عنها تبدو واضحة جلية فى مواضع كثيرة من « دستور الوزراء » يدركها كل مدقق ومحقق ، وقد أوردنا فقط بما ذكرناه حولها أن نضرب أمثلة يمكن القياس عليها ٠

والآن ننتقل الى القسم الثانى من البحث وهو ترجمة كتاب دستور الوزراء والتعليق عليه ٠

---

(١) سورة ابراهيم ، آية رقم ٧ ٠

(٢) كتاب « دستور الوزراء »/خواندمير ـ ص ٥ ، ٦ طهران ١٣١٧ هـ ش ٠ ب

القسم الثاني

« ترجمة كتاب دستور الوزراء والتعليق عليه »

ويضم :

أولا ـ ترجمة مقدمة مصحح الكتاب وناشره الأستاذ/ سعيد نفيسي

ثانيا ـ ترجمة مقدمة صاحب الكتاب المؤرخ خواندمير

ثالثا ـ ترجمة كاملة للكتاب

مقدمة

بقلم : سعيد نفيسى

يعتبر غياث الدين بن همام الدين المعروف والملقب (خواندامير) بتأليفه كتاب «حبيب السير» واحداً من أشهر كتاب الفرس فى القرن العاشر الهجرى لأن هذا الكتاب ربما يكون أوفى كتاب ألف للآن فى تاريخ إيران حتى بداية الدولة الصفوية .

ورغم أن هذا الرجل كان من كتاب عصره المشهورين ، وعاش فترة طويلة فى بلاط ملوك زمانه ، ونال عندهم مكانة عالية إلا أننا لانكاد نجد فى كتبنا ما يلزم ويكفى عن أحواله ولهذا سوف نتحدث عنه بإيجاز .

خواجه غياث الدين المعروف والملقب بخواندامير (أوخوندمير أوخواندمير أو خوندامير) هو ابن خواجه همام الدين بن خواجه جلال الدين بن خواجه برهان الدين محمد الشيرازى «ومن ناحية والدته فهو حفيد مير خواند محمد بن أمير برهان الدين خاوندشاه بن شاه كمال الدين محمود البلخى مؤلف «روضة الصفا» المشهور (توفى عن ٦٦ سنة فى الثانى من ذى القعدة سنة ٩٠٣ ﻫ) الذى كان من سادات ماوراء النهر المعروفين ومن كبار عائلات بخارى التى يتصل نسبها بزيد بن على بن الحسين «وكان خاله نظام الدين سلطان أحمد الصدر أيضاً من رجالات القرن التاسع البارزين» واشتغل والد خوندمير خواجة همام الدين بضع سنوات وزيراً للسلطان محمود ملك سمرقند وعم ظهير الدين بابر» .

وكان خوندمير يعيش مثل جده لأمه فى مدينة هراة . ويقال إنه ولد فى هراة

أيضاً حوالى سنة ٨٨٠ هـ ، كما أنه أمضى الجزء الأكبر من حياته فى هراة ويقال إنه التحق فى شبابه ببلاط السلطان حسين بايقرا الملقب بأبى الغازى والملك المشهور راعى العلوم فى العائلة التيمورية . وقد ربطته علاقته وثيقة بالسلطان حسين ، وبالأمير نظام الدين عليشير الأمير المعظم وراعى الفنون فى بلاطه ، وبالأمراء التيموريين وخصوصاً ببديع الزمان ميرزا الابن الأكبر لأبى الغازى السلطان حسين .

وبعد فترة اختص خوندمير بخدمة بديع الزمان ميرزا . ولذلك لم يكن موجوداً فى البلاط أثناء وفاة السلطان حسين ميرزا فى شهر ذى الحجة عام ٩١١ هـ ، بل كان فى ركاب بديع الزمان ميرزا .

وفى ربيع عام ٩١٢ هـ عندما كان محمد خان الشيبانى يتقدم فى ماوراء النهر ، أخذ بديع الزمان ميرزا وأخوه مظفر حسين ميرزا — اللذان كانا شريكين فى الملك — يدبران الأمر ليدخلا فى حرب مع الشيبانى ، وأمر خوندمير بأن يتوجه إلى قندهار يطلب من شاه بك أرغون — حاكم قندهار — النهوض لمساعدتهما . فأخذ خوندمير طريقه ، ووصل إلى هراة ، لكنه لم يستطع الوصول إلى قندهار لموت جوجاك بيجوم ابنة بديع الزمان ميرزا وتقدم محمد خان الشيبانى . كما أوفداه مرة أخرى رسولا لهما إلى خسروشاه فى كندز ، ولكنه لم يأت بشىء مرة أخرى . وفى النهاية قررا محاربة الشيبانى والتقيا معه فى معركة محدودة فى « مَرَل » ، وهرب فيها الأمراء التيموريون ، وقتل ذو النون أرغون أحد رجال البلاط التيمورى . وفى شوال سنة ٩١٢ هـ توجه الشيبانى صوب هراة . فبعث أهالى هراة خواندمير وابن أخيه عثمان — الذى كان يعمل محتسباً لمدينة هراة — إلى معسكر الشيبانى لبحث شروط التسليم ، فتوجه ابن أخيه عثمان ، والتقى — رغم الإغارة عليه فى الطريق — بالشيبانى . وقد بقى خواندمير فى هراة بعد سقوطها وأوضح فى كتابه « حبيب السير » خيبة أمله هو وزملاؤه بسبب انتصار الأزبك .

وحينما قتل الشاه إسماعيل الصفوى الشيبانى فى عام ٩١٦ هـ ، وانتزع منه هراة ، كان خواندمير لايزال فى تلك المدينة — ولكنه فى عام ٩٢٠ هـ كان يعيش معتكفاً فى قرية پشت فى غرجستان مشغولا بالتأليف « ثم التحق بعد ذلك بخدمة

محمد زمان الابن الأكبر لمخدومه السابق وقضى فترة فى بلاطه ببلخ .وحينما فكر محمد زمان فى أن يتوجه إلى قندهار ، استأذن منه خواندمير وعاد إلى قرية پشت» ويبدو أنه بعد ذلك عاد مرة أخرى إلى هراة لأنه فى أوراط شهر شوال سنة ٩٣٣هـ كان موجوداً فى هراة ، ومنها اتجه إلى قندهار ولكنه لم يمكث كثيراً بقندهار ، وسافر إلى الهند فى ١٠ جمادى الآخرة سنة ٩٣٤ هـ «وفى يوم السبت الرابع من المحرم سنة ٩٣٥ هـ انضم خواندمير إلى بلاط بابر فى مدينة (أكره) . وفى عام ٩٣٥ هـ نفسه توجه بصحبة بابر إلى البنغال وسواحل نهر الكنج .

وبعد موت بابر سنة ٩٣٧ هـ التحق خواندمير ببلاط ابنه همايون . وفى ذلك الوقت ألف كتاباً عن هذا الملك بعنوان « قانون همايون أوهمايون نامة » والمعروف أن وفاة خواندمير حدثت عام ٩٤١ هـ أثناء حرب همايون فى كجرات ولكن « مؤلف تاريخ فرشته » يذكر أنه توفى عقب العودة من هذه الحرب بسبب الإسهال .

وكان خواندمير موجوداً فى عام ٩٤٢ هـ أيضاً لأنه فى هذا العام توفى شهاب الدين معمائى الشاعر المشهور بصنع الألغاز فى ذلك العصر ، والذى ذكر خواندمير المادة التاريخية لوفاته . . ولابد أن يكون خواندمير قد توفى فى أواخر عام ٩٤٢ هـ . وهكذا نرى المؤلف نفسه قد أورد دليلا صادقاً على رحيله فى عام ٩٤٢ هـ وأوصى بدفنه فى دلهى بناء على وصيته كان قد أوصى بها بجوار مزار نظام الدين أوليا والأمير خسرو الدهلوى وكان وقتها يبلغ من العمر حوالى اثنين وستين عاماً .

بلغ خواندمير مكانة عالية خلال وجوده فى بلاط بابر بالهند كما يروى بابر نفسه فى كتابه المعروف باسم « واقعات بابرى » فيقول :

« فى الثامن من شهر ربيع الأول سنة ٩٣٥ هـ أقيم حفل ملكى فى حديقة غناء حضرها رسل البلاد وأمراء الأقطار من بينهم خواندمير المؤرخ ومؤلف كتاب حبيب السير ومولانا شهاب الدين معمائى وميرزا إبراهيم القانونى الذين جاءوا من هراة ، ولم نجد شبيها ولا نظيراً لأحدهم فى فنه . وفى ذلك اليوم بلغوا الذورة ، ونالوا الحظوة وصاروا من المقربين » .

مؤلفات خواندمير

يمتاز خواندمير بين مؤرخى إيران بأنه كتب أكثر من الجميع باللغة الفارسية : وبحسب ما وصل إليه علمى ، له بين أيدنيا ستة كتب باللغة الفارسية نوضحها فيما يلى حسب ترتيب تأليفها :

١ — خلاصة الأخبار فى أحوال الأخيار :

وهذا الكتاب عبارة عن موجز لتاريخ مناطق العالم ، وهى نفس المناطق التى ألف عنها بعد ذلك حبيب السير .. وقد بدأ تأليفه له عام ٩٠٤ ﻫ بإسم الأمير عليشير نوائى وفرغ منه فى عام ٩٠٥ ﻫ وكان أول مؤلفاته على ما يبدو .

٢ — دستور الوزراء :

وهو الكتاب الحالى الذى يشتمل على أحوال وزراء الإسلام حتى زمان المؤلف .

وقد ختمه أول مرة فى عام ٩٠٦ ﻫ ، وأعاد النظر فيه مرة أخرى بعد عام ٩١٤ ﻫ ، وأضاف إليه معلومات أخرى جدت حتى ذلك الوقت ، ونشر النسخة الثانية .

٣ — مآثر الملوك :

وهو كتاب فى أقوال الملوك وأئمة الدين والحكماء . كتبه باسم الأمير على شير نوائى . ومن هنا يتعين أن يكون قد تم تأليفه قبل عام ٩٠٦ ﻫ .

٤ — حبيب السير فى أخبار أفراد البشر :

وهذا الكتاب أشهر مؤلفات خواندمير ، وأكثرها تفصيلا . بدأ تأليفه فى عام ٩٢٧ ﻫ ، وفرغ منه فى عام ٩٣٠ ﻫ . ولكنه فى أثناء إقامته بالهند ، أعاد فيه النظر مرة ثانية ، وأضاف إليه أموراً أخرى ونشر النسخة الثانية « وألف خواندمير هذا الكتاب لخواجة حبيب الله الساوجى وزير درومش خان حاكم هراة ، ولهذا السبب أسماه حبيب السير . والكتاب يشتمل على التاريخ العام للعالم منذ أقدم العصور حتى نهاية حكم الشاه إسماعيل الصفوى وخصوصاً الجزء الذى كتب فيه الأحداث المعاصرة له وهى عبارة عن تاريخ السلطان حسين بايقرا وأبنائه والشاه إسماعيل وبابر

والشيبانى . وأخبار تلك الأحداث فى غاية الأهمية ولا مثيل لها ، لأنها تميزت بالدقة البالغة لدرجة أنه لم يكن يورد شيئاً غير مؤيد بدليل أوسند .

٥ — آثار الملوك والأنبياء [1] :

ويبدو أن هذا الكتاب هو خلاصة كتاب حبيب السير نفسه ، وضعه خواندمير فى عام ٩٣١ ه بعد إتمام حبيب السير .

٦ — قانون همايون أو كتاب همايون :

وهذا الكتاب ألفه خواندمير فى مناقب الملك همايون الذى سبق ذكره من قبل . « ويبدو أن هذا الكتاب هو آخر ما ألفه فقد كتبه بعد عام ٩٣٧ ه .

ومن هذا يتضح أن خواندمير كان كاتبا مكثراً حيث شغل بالتأليف من عام ٩٠٤ ه حتى عام ٩٣٧ ه أى خلال مدة لاتقل عن ثلاث وثلاثين سنة .

وكان خواندمير أيضاً ينظم الشعر الفارسى . وقد بلغ فى هذا الفن حد المتمكن .

وكان يورد أشعاره أحياناً فى مؤلفاته بمناسبة الموضوع الذى يتحدث عنه .

الأمير محمد بن خواند مير :

كان لخواندمير ابن يدعى الأمير محمود ، يبدو أنه رجع من الهند إلى إيران بعد وفاة والده ، أو لعله لم يذهب مع والده إلى الهند .. وعلى أية حال فإنه كان يعيش فى إيران .. وليس لدينا معلومات عن أحواله سوى أنه ألف كتاباً عن تاريخ الشاه إسماعيل طهماسب بدأ تأليفه فى عام ٩٥٠ ه باسم محمد خان شرف الدين أغلى تكلو أحد أمراء البلاط الصفوى وانتهى منه عام ٩٥٧ ه « ومن هذا الدليل يتضح أنه ظل على قيد الحياة خمسة عشر عاماً بعد وفاة والده » .

---

(١) انظر الفصل الثالث من الباب الأول فى البحث ، تحت عنوان « حبيب السير فى أخبار أفراد البشر » .

الكتاب الحالى

الكتاب الحالى أى دستور الوزراء كما أشير إليه من قبل هو من حيث الترتيب التاريخى المؤلف الثانى لخواندمير والذى ألفه فى البداية عام ٩٠٦ ه فى هراة أثناء حياة الأمير على شرنوائى راعى العلم المعروف فى بلاط أبى الغازى السلطان حسين، المتوفى عام ٩٠٦ ه . . وقد ذكر فيه أحوال وزراء الإسلام حتى ذلك الوقت ثم أعاد النظر فيه مرة أخرى بعد زوال سلطنة أبى الغازى السلطان حسين بايقرا وأولاده ، وتسلط محمد خان الشيبانى على هراة وخراسان ، وأضاف إليه معلومات أخرى وأحداثا بعد عام ٩٠٦ ه ونشر النسخة أو الرواية الثانية . ولهذا السبب توجد تحت أيدينا نسختان من هذا الكتاب « النسخة الأولى المؤلفة عام ٩٠٦ه ، والنسخة الثانية التى أضافت إليه شرحا لأحوال اثنى عشر وزيرا آخرين » وفى ثلاثة مواضع منها أوردت ذكرا لمحمد خان الشيبانى مقرونا بالألقاب « إمام الزمان وخليفة الرحمن أبى الفتح » وآخر تاريخ ورد فيها (ص ٤٥٣ من النص الحالى) هو عام ٩١٤ ه « ومنه يتضح أنه تم وضع النسخة الثانية تلك بعد عام ٩١٤ ه ، وقد فرغ منها قبل عام ٩١٦ ه التى قتل فيها الشيبانى » ولكن لم تعبس يد بباقى أجزاء الكتاب « والروايتان تتفقان سويا قبل ذلك فى جميع المواضع » وكتبت الرواية الأولى باسم كمال الدين خواجة محمود وزير السلطان حسين بايقرا ، وظل اسمه كذلك فى الرواية الثانية موجودا كما هو .

لقد كان المعمول به دائما بين مؤرخى الإسلام وضع كتب تنحصر مادتها فى الحديث عن أحوال الوزراء منذ بداية الحضارة الإسلامية ، يوجد بعض منها بين

أيدينا ومعروف لنا مثل كتاب الوزراء تأليف أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري ، وكتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء تأليف أبي الحسن هلال ابن محسن بن إبراهيم الصابي الكاتب ، وكتاب منية الفضلاء في تواريخ الخلفاء والوزراء المعروف بالفخري ، تأليف محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطِّقْطَقِي ، والذي ترجمه إلى الفارسية هندوشاه بن سنجر بن عبد الله صاحبي كيراني النخجواني بعد أن أضاف عليه عام ٦٢٤ هـ بعنوان (تجارب السلف) « وكتاب آثار الوزراء باللغة الفارسية تأليف سيف الدين حاجي بن نظام عقيلي ، والذي ألفه قبل بضع سنوات من دستور الوزراء باسم قوام الدين نظام الملك الخوافي وزير السلطان حسين بايقرا الذي وردت أخباره في هذا الكتاب » .

وطبعت كل هذه الكتب وهي معروفة ماعدا آثار[1] الوزراء للعقيلي وكان الواجب أن أطبعه قبل دستور الوزراء وأقدمه للقراء ، لكنه لما كان هذا الكتاب أشمل منه وأكمل ، برغم الفوائد التي يضمها كتاب آثار الوزراء للعقيلي الذي يفضل هذا الكتاب من حيث المكانة والدقة — فقد فضلت تقديم طبع هذا الكتاب لأنه أُلِّف بعد ذلك الكتاب ويضم أحوال الوزراء الآخرين الذين جاءوا بعد تأليف آثار الوزراء .. ومن ثم رأيت لزاما على أن أقدم هذا الكتاب وآمل في القريب العاجل أن أضع كتاب آثار الوزراء — الذي يحوي أمور جد ة وهامة — بين أيدي القراء أيضا .

وعموما فإن كتاب دستور الوزراء كتاب جامع لأحوال وزراء الإسلام منذ بداية الخلافة الى عصر المؤلف أي إلى زوال الدولة التيمورية وتولى الدولة الصفوية الحكم ، وقد أضيف إليها ضمنا أحوال آصف بن بركيا وبزرجمهر نقلا عن القصص والأساطير .

والأجزاء الأولى من الكتاب تتحدث عن أحوال الوزراء السابقين أي الذين كانوا قبل العصر التيموري — وهي ليست دقيقة ومعتبرة إلى حدما باستثناء ماورد ضمنها من شرح مفصل ودقيق لأحوال ابن سينا ونظام الملك وصاحب الديوان الجويني ورشيد الدين فضل الله . ولكنه رغم هذا فقد تحمل خواندمير كثيراً من

---

(١) ثم نشره في طهران عام ١٣٣٧ هـ . ش عن طريق جامعة طهران .

المتاعب فى تأليف ذلك الكتاب وقد رجع — كما يذكر هو نفسه — إلى عديد من الكتب مثل تاريخ فخر بناكتى وتاريخ كزيده وتاريخ وصاف وجامع التاريخ وجامع التواريخ جلالى وجامع التواريخ رشيدى (ولا يعرف ما إذا كانت كل هذه الأسماء لكتاب واحد أم أسماء لعدة كتب مختلفة ، والمعروف بينها كتاب جامع التواريخ رشيدى تأليف رشيد الدين فضل الله) وجامع الحكايات (والمقصود به جوامع الحكايات ولوامع الروايات لمحمد عوفى) وجامع الحكايات والتواريخ جلالى (الذى يبدو أنه نفس الكتاب جامع التواريخ جلالى السابق الذكر) ، وروضة الصفا والفرج بعد الشدة وملك نامة ووصايا نظام الملك . « وقد حققها وتتبعها بقدر مااستطاع » ولما كانت بعض هذه الكتب التى ذكرت أسماؤها أى كتاب جامع التاريخ جلالى وجامع الحكايات والتواريخ جلالى ، وملك نامه ليس بين أيدينا ، وإن كانت موجودة فهى ليست معروفة ، ومن هنا فلهذا الكتاب أيضا فوائد .

وأهم جوانب هذا الكتاب أن به معلومات كثيرة ، جديدة ودقيقة ، عن وزراء عصره أى وزراء الدولة التيمورية ، وخاصة وزراء السلطان حسين مما ليس فى الكتب الأخرى .

وفى الوقت الذى كنت فيه مشغولا بطبع هذا الكتاب فإن أمورا أخرى وضحت من أجل إصلاح نص الكتاب أو الإضافة إليه — كنت أجدها بكثرة فى الكتب الأخرى التى كنت أرجع إليها أو كانت تحيها ذاكرتى — وحيث إنها كانت أحيانا تزيد عن صفحات ، كنت لا أكتبها فى أسفل الصفحة نفسها ، وفضلت أن أتركها لأجمع عليها الحواشى والتعليقات فى نهاية الكتاب . ولكنه حينما انتهى الكتاب وجدت أنها سوف تكون بضعة أمثال نص الكتاب ، ولذلك اضطررت إلى تركها .

وهذا الموضوع أصلا أى أحوال وزراء الإسلام وخصوصا إيران مفصل جدا ودقيق ، وجدير أن يهتم بها من جديد شخص صاحب دقة كاملة ، عارف بقواعد فن التأريخ ، قادر على تحقيق الأمور الهامة ، لايقنع بواحد من هذه الكتب الحالية مطلقا . ولهذا السبب فإنى أنشر هذا الكتاب كما هو دون أن أدخل عليه إصلاحات أو إضافات .

وربما يأتى يوم أستطيع فيه أن أنظم المذكرات التى كنت قد جمعتها أثناء طبع هذا الكتاب ، وأضع منها كتابا كاملا عن تاريخ وزراء إيران فى العصر الإسلامى »

وباختصار هذا الكتاب دليل موجز للذين يريدون إلقاء نظرة إجمالية على أحوال وزراء الإسلام « ونظرا لأن الجزء الخاص فيه بوزراء الدولة التيمورية كتب كتابة طيبة . ويفى بالحاجة من جميع الجوانب فسوف يكون كسبا إلى حد ما .

أما النسخ التى كانت أساس هذه الطبعة فهى عبارة عن نسختين خطيتين :

النسخة الأولى خاصة بصديقى العزيز العالم السيد / عباس إقبال والتى أرمز إليها فى النص الحالى بحرف (ق) وهى ليست مؤرخة ، ولكن يتضح من شكل الخط والورق أنها كتبت فى وقت لايقل عن القرن الحادى عشر »

والنسخة الخطية الثانية خاصة بصديقى العظيم ، ناشر العلم السيد /سيد عبد الرحيم خلخالى والمؤرخة فى شهر رمضان عام ١٠١٠هـ وأرمز إليها بحرف (خ) فى النص الحالى « وإنى لأقدم الشكر الجزيل لهذين الرجلين الكريمين لأنهما سمحا لى ووجههما باش سعيد ، ويداهما كريمة سخية بأن أستفيد بنسختيهما حتى تعم فائدتهما وتصبح فى متناول يد القراء ، ولهذا أقدم على طبع هذا الكتاب .

ونسخة السيد/إقبال من نسخ الرواية الأولى ، وقد استخدمتها واعتمدت عليها وحدها فى البداية حتى صفحة ١٠٤ من الطبعة الحالية . ولكن عندما صادفت بعض أخطائها فى هذا الجزء ، استعرت نسخة السيد/خلخالى ، وبعد ذلك اعتمدت على كلتا النسختين . وحيثما أجد نصا سليما وصحيحا فى إحدى النسختين كنت أجعله أساس الموضوع وأشير فى الحواشى إلى اختلاف النسخة الثانية . ونظرا لأننى اعتبرت فى البداية نسخة السيد / إقبال الأساس ، فإن كل اختلاف فى النسخة لم يسبب تغييراً فى المعنى ولا يؤدى إلى خلل فى التعبير ، ولهذا اعتبرت الضبط أفضل فى نسخة الأستاذ إقبال « ولقد كان الكاتب الذى كتب نسخة إقبال أكثر دقة وأصوب كتابة . ولكن مجهولا وقعت يده على هذه النسخة ، فانتزع بعض أوراقها من أماكن عديدة فيها ، لست أدرى لماذا ؟ ونبهت إلى ذلك فى الحواشى .

وأما نسخة السيد خلخالى فهى من نسخ الرواية الثانية والتى رتبها خواندمير بنفسه بعد عام ٩١٤ هـ حتى عام ٩١٦ هـ ولهذا السبب فإن الإضافات التى أضفتها فى

موضعها كانت عن نسخة السيد إقبال « وحيث إنها كانت قد خطت بخطوط عديدة ومختلفة ، كما أن الكتاب الذين كتبوها كانوا أقل دقة ، فإننا إذا وضعنا كلا من هاتين النسختين فى الميزان رجحت كفة نسخة السيد إقبال »

وإنى لآسف لأننى لم أعط الحواشى والتعليقات الاهتمام الكافى فى بداية عملى، وكان فى خاطرى وقتها أن أعد ملحقا لإكمال الكتاب ، وقد أهملت مطالب هامة وكثيرة أسفل الصفحات ، ولم أحاول تصحيح الأخطاء التى كانت بالنص اللهم إلا الأخطاء الكبيرة فى ضبط الأسماء ، والتى صححتها من كتاب الفخرى أو من ذاكرتى . ولهذا السبب فإن هذا الكتاب كما هو فى كنف ورعاية أهل هذا الفن ، وقد فكرت فى البداية وتمنيت من كل قلبى ألا يقع فى أيدى القراء ، وآمل أن يقبلوا عذرى مضطرين عن هذه الهفوات ، ولا يعزوها إلى التسرع والبخل والغفلة ، لأنه رغم الحمق الذى تولده الخصال والطباع فى كل إنسان فإنه كان من الممكن إنجاز أفضل من هذا دون ترك لهذه الهفوات »

طهران — تيرماه ١٣١٧ هـ ش سعيد نفيسى

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر :

(بيتان ، ترجمتهما) — يامن اسمك مقدمة لأسرار الوجود

— وبوجودك كان خلق العالمين الدنيا والآخرة

— جعلت حكمتك الشاملة برأى للوزراء

— التوفيق والسداد لأعمال السلاطين والأمراء

يامن حمده والثناء عليه تزين مقدمات صحائف الشهرة ، وأبواب كل شئ يكتب له النصرة ، لأن أوراق الليالى والأيام ، وسجلات الشهور والأعوام ملأى بنعمه ومكارمه . فنعمه العظيمة الوافرة ، ومكارمه الحسنة الواسعة التى ذكرها سبحانه — فى باب أرزاق الكائنات فى كتابه المجيد — بقوله « نحن قسمنا بينهم[1] » محروسة ومصونة من العجز والنقصان .

شعر : (رباعى ، ترجمته)

— ياصاحب الجود والكرم الموفور

— غمرت — بعطاياك — الأيام والشهور

— ونعمك موفورة للخلائق

— لا يشوبها قصور إلى يوم النشور

(١) سورة الزخرف ، آية « ٣٢ » . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقى . مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٣٦٤ هـ .

ويامن يقدر « يوم يقوم الحساب[1] » أن يحاسب الجن والإنس — على أعمالهم خيرها وشرها — فى لمح البصر دون مساعدة الوزراء والكتاب « ويمنح ألوان المكارم للمهتدين على ما قدموه من حسنات ، ويمحو بشفاعة صاحب الرسالة — عن العاملين ما اقترفوه من سيئات .

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

— يامن منة إحسانك تعم إلى الجميع

— ويامن فضلك أساس إحسان الجميع

— ويامن بأمرك يكون اللطف النبوى

— شفيعا لجميع العصاة يوم الحساب

[٢] ويا من اسمك عنوان المؤلفات ، وخاتمك مطبوع على أطيب المصنفات « والسلام والتحية على رسولك الكريم الذى نشر — حينما أمرته بحمل الرسالة — دليل دينك من قولك « إن الدين عند الله الإسلام »[2] ، كما نشر تعاليمك الرفيعة التى أنزلتها بقولك « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه »[3] إلى الجهات الست والأقاليم السبعة ، وحتى أمر نبوته عزته وزينته بقولك « لولاك » وبتوقيعك « وما أرسلناك » فنشر رايتك ، ونقلها إلى أركان الدنيا الأربعة حسب قولك فى آيتك الكريمة . « آدم ومن دونه تحت لوائى يوم القيامة » .

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

— لقد اختص سيد بنى هاشم دون الجميع بالمقام المحمود يوم الحشر .

— ، وسيستظل بظله يوم القيامة آدم ونوح وداود .

فتعاليم دينه المستمدة من نور قلبه وضميره ، أضاءت مصباح الشريعة السمحاء

---

(١) سورة إبراهيم ، آية « ٤١ » المرجع السابق وذكرت الآية فى النص الفارسى كما يلى : « يوم يقوم الحساب » .

(٢) سورة آل عمران ، آية « ١٩ » .

(٣) سورة آل عمران ، آية « ٨٥ » .

التى بدل بها ظلام الضلالة « من يضلل الله فلاهادى له[1] » نور الهداية ، « من يهدالله فهو المهتد[2] » « وشيد بيمن طالعه السعيد بنيان الدين المبين » وأقام بمآثره أساس الأمة المتين « وبذلك محا أحكام الأمم وجعلها فى عالم النسيان » مؤيدا بقوله تعالى : « ليظهره على [3] الدين كله »

شعر : (رباعى ، ترجمته)

— يامن تراب بابك قبلة ملوك الزمان
— ويامن دينك أفضل الأديان
— لقد محوت بصبح وجهك ليل الضلالة
— وأضأت بنور قلبك نهار الهداية

اللهم صل على سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وأصحابه مصابيح الدجى.. صلاة لاتنقضى بمرور الأيام ولاتنقطع بكرور الشهور والأعوام..وسلم تسليما كثيراً كثيراً »

[٣] أما بعد . . فإنه لا يخفى ، على أصحاب الجاه والسلطان أهل الرأى والعرفان ، على أصحاب الدولة النابهين أن النظام لن يستتب فى تشييد قواعد الخلافة « وتوفير الراحة للرعية .. وإرساء قوائم الحكم والفتوحات بدون وزير مخلص ذى رأى صائب كما يقول خير الكلام « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه »[4] . . ، كما أن الأمور لن تستقر لتوفير الإنصاف ورعاية الرعية وتسيير دفة الحكم وبسط العدالة دون الاستعانة بمشير صائب الرأى حسن التدبير « ولن تستطيع الجيوش الغفيرة لأى سلطان العمل بدون الاستفادة برأى الوزراء العظام . . ولن تحقق الأسلحة الفتاكة لأى عظيم الانتصار بدون معاونة المخلصين من أصحاب الأقلام .

شعر : (بيت ، ترجمته)

— إن أعمال الملوك تكتمل برأى الوزراء ذوى الضمير المستنير .

---

(١) سورة الأعراف ، آية « ١٨٦ » .
(٢) سورة الأعراف ، آية « ١٨٧ » .
(٣) سورة الفتح ، آية « ٢٨ » .
(٤) حديث شريف ، ونصه كاملا فى نهج الفصاحة ، ص : ٠ط .

بل إن بعض الأنبياء العظام والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام طلبوا من الله سبحانه وتعالى المنزه عن الشريك – معاونين ووزراء « كما طلبوا أناساً يعاونونهم فى توضيح أمور النبوة وتطبيق تعاليم الرسالة » فيقول سبحانه على لسان سيدنا موسى « واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى[1] » .

شعر عربى : بيت :

وإصابة الخلفاء فيما حاولوا مقرونة بكفاية الوزراء

[٤] وخلاصة القول : إن الوزير الناجح هو الذى يتحلى بالفهم والفراسة . . والمشير الصائب هو الذى يسلك طريق العقل والكياسة . ولو عمل بمقتضى الآية الكريمة « وشاورهم فى الأمر[2] » فسوف يفتح أمامه الملك السعيد أبواب خزانة الأسرار . . ويلتمس من رأيه الصائب أسباب بلوغ الآمال . . وبذلك تكتسب كل ذرة فى أساس بنيان الدين والدولة صفة الثبات والدوام . . وتأخذ أركان الملك والملة صفة الرسوخ والاستحكام .

شعر : (بيت ، ترجمته)

– تخلد دولة الملك – ، بفكر وزير موئل للفطنة

وبناء على هذا فإن السلاطين الفاتحين والملوك المظفرين دائما ما يسندون منصب الوزراة لوزراء ذوى رأى سديد . . ويضعون فى قبضتهم الحكيمة مهمة البت فى جميع الموضوعات . . ويزيدون فى تكريمهم يوما بعد يوم ورفع منزلتهم . وذلك مثلما نراه فى هذه الأيام المباركة من حضرة الملك عالى المقام . . وسلطان السلاطين . . الباسط سيطرته على جميع الممالك والآفاق . . الجالس على عرش الخلافة بالإرث والاستحقاق . . حامى حمى المسلمين . . معمر الدنيا . . ظل الله تعالى فى الأرض . . القائم بإقامة السنة والفرض . . قارئ القرآن بقراءة السبعة . . قالع أصول الظلم والبدعة . . واقف على أسرار التنزيل بتاويح الرأى الثاقب . . مظهر أنوار التأويل بتوضيح الفكر الصائب . . المؤيد من السماء بالدولة القاهرة . . المظفر على الأعداء بالعزة الزاهرة . . مشيد قواعد العدلة والنصفة . . ممهد مراسم المرحمة والرأفة . .

---

(١) سورة طه ، آية « ٢٩ » .

(٢) سورة آل عمران ، آية « ١٥٩ » .

[٥] شعر : قطعة : (ثلاثة أبيات ، ترجمتها)

- هو ذلك الذى بلغ قدره – من حيث الرفعة – أوج السماء السابعة
- وذلك الذى سما جاهه فى الرقى – فوق هام الفرقدين
- هو من تقبل الشمس تراب أقدامه فى الصباح
- بالرغم من أن عرش الفلك الرابع هو عرشه
- وهو الذى أعتاب بلاطه قبلة منشودة دوما لزوار كعبة الدين المأمولة .

المستنصر من النصير المستعان .. الممثل فى الأرض أمر الله « إن الله يأمر بالعدل والإحسان[1] » .. معز السلطنة والخلافة « أبو الفتح السلطان حسين بهادرخان » لازالت رايات أولياء دولته رافعة منصورة .. وأعلام أعداء مملكته خافضة مكسوره وقد وضع أمر تدبير مهام مملكته .. وعظائم أعمال خلافته فى يد أمينة .. وقبضة خبيرة .. لأن ترتيب مصالح الدولة والأمة .. وتنفيذ أمور الشعب جيشا ورعية ، لاتستقيم بدون الاستعانة بمن يرسى دعائم العدالة .. ولن يسهل حل مشكلات الدنيا والدين ، دون الاستعانة بتدبير صاحب ضمير حى ورأى أمين ..

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

- لقد أوكل إلى رأيك السديد
- تدبير شئون الدنيا وتنفيذ شئون الملك
- وقد جرى حكم الخالق بهذه القاعدة :
- أن يكون استقرار الملك نتيجة قلمك النشيط الذى لايستقر

وما هو إلا الوزير الفاضل العادل مرجع الأكابر والأفاضل .. مظهر عجائب التدبير فى أمور الوزارة ناظم قوانين السلطنة والإمارة .. دستور الخافقين .. ملك وزراء المشرقين ،

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

- وهو دنيا المعرفة سحاب السخاء : منجم الكرم

(١) سورة النحل ، آية « ٩٠ » .

— وهو سماء الحشمة ، وبحر الفضل ، وجبل الوقار
— ووزير المشرق والمغرب من برأيه المستنير
— يقوى ويعلى شأن الملك والدين

[٦] الفائز على كل المطلوب والمقصود كمال الملة والدنيا والدين خواجه محمود أعلى الله تعالى لواء جلاله ، وصان عن عين الكمال أيام كماله ،

شعر : (أربعة أبيات ، ترجمتها)

— كمال الدين والدنيا بحر الأفضال
— ذاك الذى يجد لديه التكريم كل فاضل عالم
— تجسم الغبار الكثيف المثار بحافر جواده
— فوجدت نتيجة له الكرة الأرضية
— ولما أفضت رياح الصبا للدنيا بسر خلقه
— فاحت من التراب الأغبر رائحة العنبر
— وعندما تقف الشمس الساطعة على رأيه
— تهرب خجلا متوارية كوزة مسرعة

وبلا تكلف يفضى إلى شائبة .. أو صلف يؤدى إلى غائلة .. فقد بلغ هذا الوزير ذو التدبير الصائب والضمير الطاهر — مرتبة الامتياز فى عمله بفضل بصيرته النافذة.. وسريرته الصافية .. وفطنته البالغة .. وعدالته الشائعة على جميع رجال الدولة وأعيان السلطنة .. ونالت شخصيته الكاملة جميع الصفات الحميدة .. والأعمال الحميدة لاتباعه السنن الفاضلة واجتنابه للشيم الدانية . ولقد عم لطفه الوفير أصحاب الجاه والجلال ، واخضرت من نسائم خلقه الكريم أغصان الأمل عند أهل العلم والكمال .

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

— لو أن نسيم خلقك العليل يمر ناحية البستان
— لحادت جميع الأشجار بروحها بدلا من ثمارها
— ولو يتنسم الفلك نسمة من أريج خلقك
— لأصبح بطيب العطر كطبلة العطار

وبإنعامه الشامل وجد لديه أفاضل القوم ــ الذين كانوا فى فاقة من العيش بسبب القحط ذلك العام ــ الرفاهية والهناء ، ومن عطاياه الوافرة وإحسانه عاش الأشراف ــ الذين أخنى عليهم [٧] الدهر ــ فى رغد من العيش والصفاء ، والميزات التى كان أهل الفضل والفضيلة لايتوقعونها فى هذه الأوقات قد تحققت لهم بيمن عنايته ، والدهر الخائن ــ الذى كان دائم الإيذاء للفضلاء والجفاء للعلماء ــ طوى بحسن رعايته ، ولو لم تظل سحاب مرحمته بظلها أهل خرسان الآن لأحرقت شمس الأحداث أمثالنا نحن الضعفاء ، ولو لم تشرق شمس عاطفته فى هذه الأيام على دنيا العدالة والإحسان لفقدت نعمة الحياة ــ من حيارى الوادى ــ فى غياهب الظلم والعدوان :

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

ــ يامن يستظل الخلق بظل إقبالك

ــ ويجد أهل الفضل الأمن والاستقرار بأفضالك

ــ فلتكن أوقاتك فى الدنيا كلها هانئة سعيدة

ــ ما دام الناس ينعمون بعدلك

ولا جرم فى أن جماهير فضلاء القول ومشاهير المتكلمين ــ الذين اتسع نطاق فضيلتهم ــ يقومون بمهام الدعاء بالرفعة والتوفيق له فى هذا المركز ــ دائرة الجاه والجلال ــ ويجعلون بوسائلهم المناسبة مآثره ظاهرة للعيان ، وبذلك تتحقق لهم مطالبهم ــ ولما كان محرر هذه الكلمات الطيبة وهو العبد الفقير والمخلوق الحقير غياث الدين بن همام الدين الملقب بخواندمير قد شاهد وفود مكارم أخلاق هذا الوزير الجدير بها وفقا لماتم تدوينه وسعد بتقبيل أنامله الفياضة ، وأمن فى صحبته محنة الأيام فقد رغب فى أن ينال بهديته هذه عين الرضا . . ويعرض عليه بضاعته القليلة وينال عنها النصيب الوافر من كيل إحسان جلالة عزيز مصر ــ وبعد تأمل وتدبر هدانى تفكيرى إلى القيام بتحرير هذه الأوراق التى تشمل على ذكر بعض سير ومآثر الوزراء ذوى الفطنة اللامعة والمهابة الظاهرة .

[٨] ونظرا لأن أحوال بعض أفراد هذه الطبقة ذات المكانة الرفيعة ــ ممن قد تولوا الوزراء للسلاطين ذوى الأمر المطاع قبل بعثة خاتم النبيين عليه صلاة الملك المنان ــ

لم استفد منها من كتب التاريخ ، لذلك فإن قلمى الأسود لم يتناول أخبارهم وأحوالهم . وقام — بقصد التيمن والتبرك — يبدأ هذا الكتاب بذكر آصف [1] بن برخيا وبزرجمهر [2] الحكيم . ومن غرائب الصدف أنه فى الوقت الذى بدأ فيه قلمى البليغ فى كتابة هذه الأجزاء اهتدى عقلى إلى تسميته « دستور الوزراء [3] » نظرا للسبب الذى لايخفى على أهل الخبرة ، وحينما انتهى بتوفيق الله سبحانه تأليف دستور الوزراء انصرف فكرى للبحث عن لفظ يرمز لتاريخ العام الذى أتممته فيه .. وفجأة وبإلهام ملهم الغيب .. وبتلقين ملقن لاريب .. شع هذا المعنى من ضميرى الكسير .. وهو أن أجعل الاسم الشهير لهذه الرسالة العزيزة يشير إلى تاريخ إتمامها ..

شعر : (بيتان ، ترجمتها)

— هذا الكتاب الذى اشتهر باسمك

— حسن السمعة فى عالم السحر

— ولقد سأل سائل عن تاريخ إتمامه

— فقلت له احسب حروف عنوانه

وإنى لأرجو برجاء الواثق .. ووثوق الصادق .. أن تلقى هذه الكمات المتفرقة قبولا حسناً لدى هذا الوزير العادل .. صاحب الطبع النقاد .. والذهن الوقاد ، كما أرجو أن لايسعى حضار مجلسه العالى فى البحث عن عيوب فيها ، وأن يقابلوا الأخطاء الموجودة فى هذه الأجزاء بالكرم ، ويعملوا على إصلاحها بالهوامش .. اللهم احفظنى من شر كل لجوج وحسود بحق ناصب لواء الحمد ، وصاحب المقام المحمود ..

---

(١) اسم وزير سيدنا سليمان

(٢) اسم وزير كسرى أنوشيروان .

(٣) دستور الوزراء بحساب الجمل تساوى ٩١٥ وهو العام الذى فرغ فيه من تأليف الكتاب . لمعرفة حساب الجمل انظر ٦٢٣ من الترجمة العربية لكتاب « راحة الصدور وآية السرور » للراوندى . نقله إلى العربية كل من : د . إبراهيم الشواربى د . عبد النعيم حسنين ، د . فؤاد الصياد . (دار العلم — القاهرة — ١٩٦٠)

[٩] ذكر بعض من مناقب ومفاخر آصف بن برخيا

ويذكر أئمة المؤرخين الذين سجلوا أخبار الأنبياء العظام .. ورواة آثار المصطفين الكبار — فى مؤلفاتهم — أنه حينما أخذ عرش الرسالة ومسند الخلافة تمام زينته وجماله بوجود الملك سليمان — على نبينا وعليه السلام — قلد آصف بن برخيا منصب الوزارة .. ووضع فى قبضته تدبير أمور الملك والأمة .. وامتاز آصف دون سائر علماء بنى إسرائيل وأخيارهم بالإنصاف والفطنة .. والتبحر فى العلوم الربانية والتخلق بالأخلاق الرحمانية .. وكلما كان يجلس الملك سليمان — عليه التحية والرضوان — فى ديوان الخلافة كان آصف يأخذ مكانه بالقرب من عرش الخلافة على مقعد قدسى مشغولا بإنجاز مهام الرعية — وقد ذكر أصحاب الأخبار أن الحق سبحانه علم آصف الاسم الأعظم .. فكلما كان آصف ينادى مجيب الدعوات سبحانه بذلك الاسم فإنه يستجاب لدعائه كما توضح ذلك الآية الكريمة « قال الذى عنده علم من الكتاب[1] » .. والآيات التى تقع فى قصة سليمان وبلقيس تتضمن هذا المعنى ومؤداها أنه حينما توجهت بلقيس لمقابلة سيدنا سليمان عليه السلام تركت عرشها — المصنوع من الذهب الأحمر والمرصع بالياقوت والجوهر — فى منزل محكم، غلقت أبوابه ثم سلكت طريقها . ولما صارت على بعد فرسخ واحد من معسكر الملك سليمان — وكان سيدنا سليمان قد اعتلى عرش الخلافة منذ الصباح فى انتظار وصول [١٠] ملكة سبأ — خاطب طوائف الإنس والجن قائلا : من منكم يستطيع أن يأتينى بعرش بلقيس قبل وصولها؟ « قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من

(١) سورة النمل ، آية « ٤٠ » .

مقامك(1) » ونظرا لأن سليمان عليه السلام كان يجلس منذ شروق الشمس وحتى غروبها فى مقر الخلافة لذلك قال لهم : أريد إحضاره بأسرع من هذا ؟ فقال آصف : أنا آتيك بعرش بلقيس قبل أن تغمض عينيك وتفتحهما ! وعندئذ نادى آصف الحق سبحانه باسمه الأعظم والتمس منه حضور عرش بلقيس فاستجاب الله لدعائه .. وفى غمضة عين وصل ذلك العرش من مقره باليمن إلى مجلس سيدنا سليمان عليه السلام ..

ولاجرم فى أن سليمان لسان الوحى والبيان قد قدم الشكر والحمد للمهيمن المنان وبفضل هذه الواقعة ارتفعت مكانة آصف لدى الملك سليمان « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (2) » من الدعوات المستجابة الأخرى لآصف أنه — لحكمة أرادها الله سبحانه — ولد لسيدنا سليمان ابن له عين واحدة وأذن واحدة ويد واحدة وقدم واحدة .. ولهذا السبب سيطر الحزن العميق على سيد نا سليمان عليه السلام .. وفى إحدى خلواته التى لم يحضرها سوى أم الابن وآصف بن برخيا صرح سليمان بما يختلج فى نفسه إزاء هذا الموضوع فقال آصف : تعالوا ليبوح كل منا بشئ فى نفسه لايعرفه سوى عالم السر والخفيات ونسأل لهذا الطفل الشفاء .. ولربما يستجيب القادر لمثل ملتمسنا هذا ؟ وقبل الجميع هذا الاقتراح .. وبدأ سليمان عليه السلام ينادى ربه قائلا : إلهى .. إنك تعلم أننى [11] بالرغم من توفر هذا القدر من العظمة والمهابة الذى وهبتنى إياه فإنه يأتينى شخصان : يأتى أحدهما ومعه تفاحة يقدمها إلى كهدية .. والآخر خاو اليدين . وقد تعودت أن أجعل صاحب التفاحة محط عنايتى وحبى .. إلهى .. إن كنت صادقا فى هذا القول فلاتردنى فى طلبى الشفاء لابنى ؟ !وبعد ما ذكر سليمان هذا القول أنعم الواهب على الابن بعين وأذن أخريين .. ثم قال آصف : إلهى إنك تعلم أننى طلبت من سليمان عدة مرات أن يعفينى من أعمال الوزارة ولم يكن قلبى يوافق قولى فى هذا الطلب .. فإن كان هذا القول صادقا فاشمل هذا الطفل بعين رحمتك؟ ! وعلى أثر هذا الدعاء منّ البارى سبحانه على هذا الابن بيد أخرى .

ثم توجهت أم الطفل ناحية القبلة بالدعاء قائلة : ياإلهى .. إنك تعلم أنه بالرغم

---

(1) سورة النمل ، آية « 39 »

(2) سورة المائدة ، آية « 54 » .

مما هو موجود بحضرة سليمان .. وبكل هذه المهابة والعظمة لزوجي :. فإنني كلما أرى شخصا أكثر شبابا منه أتمنى أن يكون ذلك الشخص زوجا لي .. فإن يصدق قولي هذا فاجعل الشفاء الكامل من نصيب ولدي ! .وبعد إعلان هذه الأسرار وهب الله سبحانه قدما أخرى لذلك الابن .. وجعله صحيح الأعضاء :

ولما أصبح الابن سليم الأعضاء استولت المحبة المفرطة له على قلب سليمان :: وفكر في أن يعهد بتربيته وكفالته إلى شخص عالم — وحسب رواية بعض المؤرخين فإنه جاء إلى سليمان جمع من الجن التمسوا منه القيام بمهمة الحفاظ على هذا المولود فقبل الالتماس .. وهذا الوضع لم ترض عنه العناية الإلهية . فلا جرم أن قبض ملك الموت — بإذن الحي الذي لا يموت — روح ذلك الفتى .. وألقى بجسده فوق العرش [١٢] السليماني .. وفي ذلك قوله تعالى : « وألقينا على كرسيه جسداً[١] » وهو جسد ولده الميت ! .

شعر : (بيت ، ترجمته)

— سبحان الخالق الذي طالما أعجزت

— صفاته المتصفة بالكبرياء عقول الأنبياء

ومما نقل عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن المقصود بالجسد الذي ذكرته آية الجن ، أنه حكم جالساً فوق العرش السليماني لمدة أربعين يوماً .. وكان سبب تلك الحادثة أنه حينما انتصر سليمان عليه السلام على صيدون — وكان ملكا على إحدى الجزر — الذي اعتاد عبادة الأصنام ، تزوج سليمان ابنته التي كانت ذات جمال فائق وحسن لائق .. وأصبحت البنت غير قادرة على فراق والدها فطلبت - بإيعاز من الشيطان — من عمال الديوان أن ينحتوا صنما من الحجر يشبه صيدون .. وبناء على ذلك كانت تعبد هذا الصنم قبل أن تسعد بصحبة سليمان :. ووضعت ذلك الصنم في منزلها وانشغلت هي وجواريها بعبادته .. ولما أمضت أربعين يوماً على هذا الحال وذاع نبأ عبادة تلك المرأة ذلك الصنم بين الناس ، عرض جماعة من المقربين الصادقين كيفية وقوع هذه الحادثة على حضرة الوزير آصف .. وأبدوا قلقهم إزاء ذلك الموضوع فأمرهم آصف قائلا : الزموا الهدوء وسوف أتولى نقل

(١) سورة « ص » ، آية « ٣٤ » .

هذا الكلام بأبلغ صورة إلى سليمان ! . وعلى الفور توجه إلى صاحب الأعتاب السماوية وعرض عليه قوله : إن ضعف الشيخوخة قد أثر على جسمى .. والتمس منك السماح لى بشرح مناقب الأنبياء ومفاخرهم عليهم التحية ولهم الغفران وذلك فى مجمع يحضره الخاصة والعامة من الناس ليكون ذلك سببا فى تقوية عقيدة العباد قبل أن تنقضى أيام حياتى ! وقبل سليمان عليه السلام هذا الالتماس وأصدر تعلماته على الفور بجمع طوائف الإنس [١٣] والجان .. وفى هذا المجمع أبدى آصف بن برخيا ضروب الفصاحة .. وعدد شرف وفضيلة كل نبى من الأنبياء .. ولما جاء دور الحديث عن سليمان عليه السلام ، قصر الحديث على فضائله وكمالاته على فترة شبابه ، فثقل هذا الحديث على سليمان .. ولما تفرق الجمع استفسر عن سبب ذلك من آصف قائلا له : ما السبب الذى جعلك تتحدث عن خصائصى فى الفترة السابقة ولم تتحدث عما حبانى الخالق الودود بعد وفاة داود ؟ فرد عليه آصف بقوله : إننى لا أستطيع أن أتحدث بمدح وثناء من تعبد الأصنام فى بيته أربعين يوماً ! ! فقال له سليمان : فى بيتى أنا ! ! قال آصف : نعم ، وقص عليه ماحدث . ومما لاشك فيه أن سليمان ذهب إلى منزله وحطم الصنم وعاقب عباد الأصنام . . واشتغل بعدها بالضراعة والاستغفار وهو جالس فوق التراب الخشن — وحينما كان يتوجه لقضاء حاجته كان يترك خاتمه لدى جرادة — وكانت إحدى جوارى الحرم — وفى هذا الحين وبتقدير من رب العالمين ظهر لجرادة واحد من الجان فى هيئة سليمان عليه السلام ، ويدعى المارد صخر .. وأخذ منها الخاتم واعتلى العرش السليمانى .. وبناء على ذلك طاوعته طوائف الإنس والجان . ولما أتم سليمان عليه السلام تجديد وضوئه طلب الخاتم من جرادة ، فقالت له : لقد سلمته لصاحبه . . من تكون أنت ؟ .. أنى لاأعرفك ! .. وكان معنى صدور هذا الكلام من جرادة أن تغييرا طفيفاً قد حدث فى هيئة سليمان عليه السلام . والخلاصة — بعد القيل والقال — أن حقيقة ذلك الوضع ظهرت على سيدنا سليمان عليه السلام .. وسيطر الملل على خاطره النورانى ، وتوقف عن البحث [١٤] عن الخاتم وانتقل إلى مكان آخر . وحسب الرواية التى راجت فى ذلك العصر أنه فى الوقت الذى كان فيه الجنى صخرة بد اختار العرش السليمانى مقاماً له انضم سيدنا سليمان — مضطراً — إلى جماعة من الصيادين كانوا يعملون بصيد السمك على شاطئ البحر إلى أن أعاد إليه المهيمن المنان الخاتم مرة أخرى .. وكانت الطريقة التى عاد بواسطتها الخاتم

هكذا : كان الجنى صخر – فى الفترة التى تولى خلالها الحكم – يتكلف الاختلاط بأبناء آدم ويختلط فى أكثر الأحيان بأبناء جنسه .. وكانت تصدر الأحكام عنه بخلاف قوانين الشرع والعقل ، لذلك أبدى الناس سوء الظن بمثل هذه التصرفات المشينة .. وعرضوا على آصف صورة من سوء ظنهم به ، فقال آصف يبدو أن ذلك الشخص ليس بسليمان .. ولكى يثبت صدق هذا القول بعث شخصاً الذى زوجات وسرارى الحضرة النبوية حتى يسألهن عن حواله .. فقلن له : لاعلم لنا منذ مدة بأخبار سليمان . فأوقف آصف علماء بنى إسرائيل على هذا الأمر وقال لهم : إنه لشيطان خبيث ذلك الذى حل محل سليمان .. وعندئذ توجه إلى مجلس المارد صخر .. وأخذ يرتل آيات من التوراة .. فلم يحتمل ذلك الملعون طاقة الاستماع الكلام المهيمن الجبار وهرب من فوق كرسى العرش ونزع الخاتم من يده وألقى به فى البحر .. وبأمر إلهى ابتلعت الخاتم سمكة وقعت فى شباك الصيادين الذين كان سليمان يعاونهم .. فسلمت تلك الطائفة السمكة المذكورة إلى سيدنا سليمان كأجر له .. ولاجرم أن عاد الخاتم مرة أخرى إلى يد سليمان .. وفى تلك الساعة تزاحمت على عتبات الخلافة [١٥] طوائف المخلوقات . ولم يعرف عن آصف أكثر مما تم تحريره .. كذلك لم يعرف عنه أى شئ فى كتب التاريخ .. وبناء على ذلك فقد اكتفى كاتب هذه الكلمات المتفرقة بهذا القدر .. وأطلق عنان جواده الأصيل ووجه قلمه صوبا آخر ..

بزرجمهر الحكيم :

كان بزرجمهر – حسب مارواه أكثر المؤرخين – أعلم حكماء عصره .. وكان يتولى الوزارة الملك العادل أنوشروان . . وعن طريقة وصول ذلك الحكيم للعمل مع كسرى كتبت طائفة من رواة الأخبار مايلى :

حدث أن رأى أنوشروان(١) ذات ليلة فى منامه أن شجرة نبتت بالقرب من سرير عرشه .. وكانت تلك الشجرة غاية فى الجمال .. وكان هو يحمل فى يده

(١) حكم كسرى وبرز جمهر الحكاية رقم ٤٣٩ ص ٣١٩ ، الحكاية رقم ٥٠٢ ص ٣٦٧ فى كتاب جوامع الحكايات لمحمد عوفى – طبعة طهران عام ١٣٣٥هـ . ش باهتمام محمد رمضانى .

كأس الشراب وقبل أن يتناوله ظهر له خنزير التهم الشراب .: فحزن أنوشروان لوقوع هذه الحادثة لأنه رأى الخنزير يجالس على عرشه وانتزع كأسه والتهم شرابه .:
ولما استيقظ أنوشروان تملكته الأحزان .. وأمر بإحضار المفسرين وسألهم عن تفسير حلمه بعد أن قص عليهم الحادثة المذكورة .. فعجزت تلك الجماعة عن تفسير ذلك الحلم ، ولم يخالف الصواب تفسيراتهم .. فازداد شغف كسرى بمعرفة تفسير حلمه .. فأمر جماعة من قادة دولته لينتشروا فى جميع الأقطار ليبحثوا عن شخص يميط [١٦] اللثام عن حقيقة هذا الأمر الهام .. وكان من بين تلك الجماعة شخص يدعى « آزاد سرو » بلغ مرو ودخل مدرسة ، وسأل معلمها بقوله : هل لديك دراية بعلم التفسير؟ فأجابه المعلم بقوله : إننى لم أحظ بتعلم هذا الفن حتى الآن .. وهنا قال بزرجمهر — أحد تلاميذ ذلك المعلم وكان متصفا بحدة الذهن وصفاء الطبع — لآزاد سرو : اقصص الحادثة فلربما يمكننى تفسيرها ؟ فصاح الأستاذ فيه بقوله : الزم الهدوء ؟ ولكن « آزاد سرو » قضى على ظنون المعلم وقص عليه حلم كسرى :
فقال بزرجمهر : مصرع : « لن أفسر هذه الحادثة إلا أمام الملك! » فاستحسن آزاد سرو قول الطفل وأعطاه تكاليف السفر ، وذهبا سويا إلى سراى الملك .. وبعد وصولهما عرض « آزاد سرو » على أنو شيروان مسألة إحضاره بزرجمهر .. فأخذه كسرى واختلى به فى مكان خاص وطلب منه تفسير الحلم ، فقال له بزرجمهر شارحا إنه يوجد بقصر حريم الملك غلام أحب إحدى بنات القصر .. وإذا أحب الملك كشف حقيقة هذا الأمر ، فإنه يصدر أمره بمرور الجوارى واحدة واحدة أمامه .. فأمر كسرى على الفور وجاءت الجوارى ومررن من أمامه واحدة واحدة. ولكنه نظرا لارتداء الغلام مثل أرديتهن لم تظهر الحقيقة ، وثار أنوشيروان فقال بزرجمهر : لكى يتسنى اكتشاف ذلك التدبير لابد أن تصبح الجوارى عاريات !
وعلى الفور صدر أمر [١٧] ملكى بالتنفيذ على هذا النهج .
(بيتان ، ترجمتها)

— ظهر بينهن غلام قامته
— كشجرة السرو ووجهه كوجه الملوك
— يرتجف جسمه كشجرة الصفصاف
— وقد تبدد أمله فى روحه الغالية

وبعد إتمام التفتيش اتضح أن ذلك الغلام نظرا لأنه كان متعلقا بابنة حاكم چاچ منذ صغره فقد اصطحبها معه من منزل والدها وظل مختفياً فى قصر الحريم الملكى . والخلاصة أن كسرى عاقب البنت والغلام على ذلك ، وجعل بزرجمهر من بين خاصته ، وأخذ نجم ذلك الحكيم العظيم يرتفع يوما بعد يوم إلى أن وصل إلى منصب الوزارة الرفيع .. وأقوال بزرجمهر الحكيمة كثيرة وكلماته الفصيحة لاتحصى .. ولكنه خوفا من الإكثار فى هذا المجال فسوف نقتصر على ذكر اثنتى عشرة حكمة كان قد قالها فى مجلس أنوشروان أمام أكابر ذلك الزمان :

روى أن كسرى عقد ذات يوم مجلسا عظيما دعا إليه حكماء البلاد وعظمائها لحضوره وأمرهم بأن يقوم كل واحد — على قدر علمه — بإلقاء عدة كلمات تتضمن صالح الملك والرعية .. فتحدث حضار المجلس فى هذا الغرض ولما جاء الدور على بزرجمهر عرض كلامه قائلا : سوف أوفى بطلب الملك من خلال اثنتى عشرة حكمة !

فسأله أنو شروان : ما هى تلك الكلمات ؟ قال الحكيم :

١ — التعفف عن الشهوة والغضب وهوى النفس .

٢ — الصدق فى الحديث والوفاء بالمواعيد والعهود والمواثيق :

٣ — التشاور مع العلماء فى سوانح الأمور والمهمات .

٤ — [١٨] إكرام العلماء والأشراف والأمراء والكتاب على قدر مناصبهم ودرجاتهم :

٥ — الاهتمام بالقضاء وبحث أحوال العمال ومجازاة المحسنين والمسيئين على إحسانهم وإساءتهم .

٦ — بحث حالة المسجونين كل فترة فيترك المذنب ويعفى عمن يستحق الإعفاء .

٧ — الاهتمام بالطرق وتفقد الأسواق والأسعار وتجارة التجار .

٨ — حسن تأديب الرعايا على ارتكاب الجرائم وإقامة الحدود مع البرايا بسبب ارتكابهم المآثم .

٩ – إعداد السلاح وجمع أدوات الحرب ..

١٠ – إكرام الأبناء والأهل والأقارب .

١١ – إرسال الجواسيس والمسئولين حتى ينقلوا الأخبار الخاصة بالدولة في كل مكان .

١٢ – تفقد الوزراء والندماء والخدم .

فأمر أنوشيروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب وقال :

هذا كلام فيه جوامع أنواع السياسات الملوكية ..

ولم يتضح مآل حال بزرجمهر فلاجرم أن القلم لم يشمل ذلك بالتحرير .

الوزراء فى العصر الأموى

مقدمة :

إنه لايخفى على مصرّفى جواهر الكلم أن الوضوح والبرهان سوف يكونان معيار الأخبار الحديثة والقديمة عندهم ، فإنه طبقا الحديث حضرة خير البرية حيث قال عليه السلام والتحية « الخلافة بعدى ثلاثون سنة » كان زمام الأمر والنهى وحمل قلادة الدين المبين والتكفل بأمر الشريعة المتين — بعد وفاة حضرة سيد الكائنات وسند المكونات عليه أفضل الصلاة وأكمل التحيات — فى قبضة الخلفاء الراشدين رضوان [١٩] الله عليهم أجمعين .. وكانوا لايطلقون — فى تلك الأيام المباركة — لقب الوزارة على نوابهم وكتابهم عليهم التحية ولهم الغفران .. ومما لاشك فيه أن ذكر أحوال تلك الطائفة ضمن هذه الصفحات إنما هو أمر بعيد عن مقتضى الذوق والأدب .. وحينما انتهت الفترة المذكورة بناء على مضمون الحديث السابق — على قائله أشرف الصلوات وألطف التحيات — طوى القضاء والقدر بساط الخلافة .. ثم تولى حكام بنى أمية أمر أمة خير البرية ، وامتد حكم هذه الطائفة واحدا وتسعين عاماً .. ازدهرت أضواء الخلافة أيام أربعة عشر شخصا منهم نوردهم كما يلى :

١ — معاوية بن أبى سفيان(١) .

٢ — يزيد بن معاوية (١).

---

(١) وردت عبارة « عليه اللعنة » فى النص الأصلى بعد أسماء معاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بن معاوية ومعاوية بن يزيد ، ومروان بن الحكم ، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد بن مروان . ويقال إن الناسخ هو الذى أضافها من عنده .

٣ — معاوية بن يزيد . (١)

٤ — مروان بن الحكم(١) .

٥ — عبد الملك بن مروان .

٦ — وليد بن عبد الملك .

٧ — سليمان بن عبد الملك .

٨ — عمر بن عبد العزيز بن مروان .

٩ — يزيد بن عبد الملك .

١٠ — هشام بن عبد الملك .

١١ — وليد بن يزيد بن عبد الملك .

١٢ — [ص ٢٠] يزيد بن وليد بن عبد الملك(١) .

١٣ — إبراهيم بن يزيد بن عبد الملك .

١٤ — مروان بن محمد بن مروان (١)

ونظرا لأن كيفية أحوال وزرائهم وما آل إليه حالهم لم تتضح من كتب التاريخ فإننا سوف نكتفي بمجرد ذكر أسماء تلك الجماعة :

الوزير سرجون بن منصور الروبى :

تقلد سرجون الوزارة أيام حكم معاوية بن أبي سفيان ويزيد بن معاوية .

الوزير صفين الأحول :

وكان يتولى أمر الوزارة أيام خلافة مروان .

الوزير حفص بن ذؤيب :

كان يتولى أمر الوزارة أيام استيلاء عبد الملك بن مروان على الحكم .

الوزير قعقاع بن الجليل :

وكان وزير الوليد بن عبد الملك .

---

(١) انظر هامش الصفحة السابقة .

الوزير الليث بن أبى رقية

وكان يتولى تدبير شئون الوزارة فى عهد سليمان بن عبد الملك .

الوزير سليمان بن نعيم :

وكان وزيراً لعبد العزيز بن مروان .

[٢١] **الوزير أسامة بن زيد :**

عمل بالوزارة ليزيد بن عبد الملك .

الوزير العالم

وكان يتولى الوزارة أيام هشام بن عبد الملك . . وهو حسب رواية أكثر المؤرخين كان غلاما لسعيد بن عبد الملك .

الوزير سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عبد الملك :

وكان يعمل بالوزارة أيام حكم الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

الوزير سليمان بن سعيد :

أسند إليه منصب الوزارة فى أيام خلافة يزيد بن وليد بن عبد الملك .

الوزير أبو جعدة (١) :

وكان وزيراً لمروان الحمار حسب رواية صاحب جوامع الحكايات ، وبعد زوال دولة المروانيين كان يلازم أبا العباس السفاح ، وروى أن أبا جعدة ذكر فى يوم من الأيام كلاما طيبا عن أمير المؤمنين مروان فى مجلس أبى العباس ، وأغضب هذا الكلام الحاضرين من العباسيين فعزموا على قتل أبى جعدة ، وتحدثوا عن شقاوته أمام الخليفة ولكن السفاح لم يصغ بعين الرضا لكلامهم وقال لهم : إن هذا الكلام يدل على وفائه الكامل ورعايته لحق مخدومه ، وحينئذ أعلى من مكانة أبى جعدة وعامله بالعناية واللطف حتى آخر أيام حياته .

(بيت فارسى ، ترجمته

— كن وفيا مع ولى نعمتك

— ، لأنك إذا وفيت علت مكانتك

---

(١) جوامع الحكايات لعوفى — الحكاية رقم ٢١٦ باب ١٤ ص ١٨٧ .

[٢٢] الوزير عبد الحميد الكاتب

كان يتولى أيضا الوزارة فى عصر مروان الحمار ، وكان يتصف بالعلم والفضيلة ويشتهر بصواب الرأى والتدبير ، وجاء فى جوامع الحكايات أنه حينما أخذ نجم دولة بنى العباس فى الارتفاع قال مروان لعبد الحميد : عليك بالتوجه إلى العباسيين بحجة أننا ظلمناك وتخالطهم وتقف على أحوالهم وتعرف ما يجول بخاطرهم حتى أستطيع — عن طريق العلم واليقين — معرفة أسرارهم وأعمل على ردع المعارضين ! فرد عليه عبد الحميد بقوله : إن القيام بهذه الأعمال لايكون لأمثالى لأننى حينما أقوم بملازمة العباسيين ويصبح لى نصيب من نعمهم الوفيرة وإحسانهم فلن أستطيع خيانتهم .. وإذا قدر لى القيام بهذا العمل الشنيع فإنك لن تعتمد على بعد ذلك .

(بيت فارسى ، ترجمته)

— كل من ذكر بين يديك عيوب شخص آخر وعدّدها

— فسوف يذكر عيوبك لدى آخر يقينا

وبعد سماع مروان لمثل هذا الكلام تغاضى عن تنفيذ تلك المؤامرة .. ولما سقطت خلافة مروان أسر عبد الحميد فى عهد أبى جعفر المنصور بعد أن اختفى فترة فى بعض القلاع .

ونقل أنه حينما أحضروا الوزير عبد الحميد أمام أبى جعفر قال : ياأمير المؤمنين !! تغاضى عن سفك دمى لأن أمثالى من الكتاب فى الدنيا قليل ! فرد عليه أبو جعفر قائلا : حقاً إنك كنت تعمل على [٢٣] هزيمتنا برسائلك الكاذبة ، وكنت تحاول إغلاق الأبواب السهلة أمامنا بتدبيرك !! ولكنه نظرا لأن أركان دولتنا كانت بفضل الله قد استحكمت فإن المروانيين لم يجنوا سوى الخسران من حسن رأيك وتدبيرك !

(بيت فارسى ، ترجمته)

— إذا شاء تقدير الله خيرا

— فلن يستطيع تدبير البشر حجبه

« العبد يدبر والله يقدر » .. وبعد هذه المناقشة حملوا عبد الحميد إلى مكان تنفيذ لإعدام وأعدموه بسيف بتار .

(بيتان فارسيان ، ترجمتها)

— قانون الفلك الدائر هكذا

— يغسل وجهه كل مساء بدماء الناس

— فلا ترج لديه الوفاء والمجاملة

— لأنه خلق والجفاء حرفته ، وحدة الطبع خلقه وشيمته

ولايخفى أن القعقاع بن عيسى والجراح بن عبد الملك بن عبد الله وبكير بن السماخ اللخمى قد عدهم صاحب جوامع التواريخ جلالى ضمن وزراء بنى أمية ولكنه لم يوضح مع من من حكام بنى أمية كانوا يعملون ، « والعلم عند الله تعالى ».

الحديث عن بعض أحوال وزراء الدولة العباسية

إنه لصحيح لدى الفضلاء العارفين والعلماء المبرزين أن ٣٧ شخصا من الأبناء الأمجاد لابن عم خير الناس عبد الله بن العباس رضى الله عنهما جلسوا على عرش الخلافة ، وظلت الخلافة فى تلك الأسرة الكريمة مدة ٥٢٣ عاماً وبعض العام.. وهاهى أسماؤهم نوردها كما يلى :

١ — أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس .

٢ - أبو جعفر المنصور الدوانيقى شقيق أبى العباس السفاح .

٣ — [ص٢٤] محمد بن جعفر المنصور الملقب بالمهدى .

٤ — الهادى موسى بن محمد المهدى .

٥ — هارون الرشيد بن محمد المهدى .

٦ — الأمين محمد بن هارون الرشيد .

٧ — المأمون عبد الله بن هارون الرشيد .

٨ — المعتصم بالله أبو إسحق محمد بن هارون الرشيد .

٩ — الواثق بالله أبو جعفر هرون بن محمد المعتصم .

١٠ — المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن محمد المعتصم .

١١ — المستنصر بالله أبو جعفر محمد بن جعفر المتوكل .

١٢ — المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد المعتصم .

١٣ ـ المعتز بالله أبو عبد الله الزبير بن المتوكل .
١٤ ـ المهتدى بالله أبو إسحق محمد بن الواثق .
١٥ ـ المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل .
١٦ ـ المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق بن المتوكل .
١٧ ـ المكتفى بالله أبو محمد على بن المعتضد .
١٨ ـ المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد .
١٩ ـ القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد .
٢٠ ـ الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر .
٢١ ـ المتقى لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر .
٢٢ ـ المستكفى بالله أبو القاسم بن عبد الله بن المكتفى .
٢٣ ـ المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر .
٢٤ ـ الطايع لله أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله .
٢٥ ـ القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحق بن المقتدر .
٢٦ ـ القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله .
٢٧ ـ المقتدى بالله أبو القاسم عبد الله .
٢٨ ـ المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدى .
٢٩ ـ المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر .
٣٠ ـ الراشد بالله أبو جعفر منصور بن المسترشد .
٣١ ـ المتقى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر .
٣٢ ـ المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المتقى لأمر الله .
٣٣ ـ [٢٥] المستضىء بنور الله أبو محمد حسن بن المستنجد .
٣٤ ـ الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء .
٣٥ ـ الظاهر بأمر الله أبو النصر محمد بن الناصر .

٣٦ — المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر .

٣٧ — المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر .

وفيما يلي ما أمكنني الحصول عليه من أخبار وزراء هذه الطائفة :

الوزير أبو سلمة بن سليمان الخلال

وكان يسمى حفصا عند بعض المؤرخين ، وسماه البعض الآخر جعفرا ، وكان أبو سلمة — بإجماع علماء الأخبار — من بين أكابر عصره ، وكان يكن في قلبه دائما المحبة لأهل بيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم . وعندما عين أبو مسلم المروزى بعض أمراء خراسان لإخضاع ممالك العراق كتب رسالة إلى أبي سلمة لقبه فيها بوزير آل محمد .. ولما أخضع الأمراء العراقيين ووصلوا الكوفة التقى حسن بن قحطبة — وكانت له إمارة جيش أبي مسلم — بأبي سلمة وأعطاه رسالة أبي مسلم ، فجمع أبو سلمة أكابر الكوفة وأشرافها في المسجد الجامع وقرأ تلك الرسالة على الناس ، وبعث بالعمال إلى جميع مناطق الولايات وزاول إدارة شئون الوزارة . وفي هذه الأثناء وصل أبو العباس السفاح وشقيقه أبو جعفر المنصور — وكانا يعيشان حتى ذلك الوقت مختفيين خوفا من بطش المروانيين — إلى الكوفة ، فأخفاهما أبو سلمة في مكان ما ولم يخبر [٢٦] أمراء خراسان بوصولهما لأنه كان يريد أن يعين أحد أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة ، وبناء على هذا كتب ثلاث رسائل يلتمس فيها قبول الخلافة وبعث بها إلى ثلاثة من أهل البيت ، أولهم جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن أمير المؤمنين الحسين عليهم جميعا السلام ، والثاني عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام ، والثالث عمر بن زين العابدين . ولكن أيا من هؤلاء الثلاثة العظام لم يقبل رجاء أبي سلمة بأن الإمام جعفر الصادق لم يقرأ رسالته وأحرقها ، ومن الغرائب أنه قبل عودة رسول أبي سلمة وقف أمراء خراسان على منزل العباسيين وأخرجوهما من معزلهما وأجلسوا أبا العباس السفاح على عرش الخلافة ، ولما تولى أبو العباس شئون المسلمين — ونظرا لميل أبو سلمة الخلال الى أولاد علي عليه السلام وبسبب المعوقات التي كان قد أوجدها عند أخذ البيعة له — عزم على قتله . ولكنه لا يستطيع تنفيذ ذلك العمل دون التشاور مع أبي مسلم .. فلا جرم أن أرسل أخاه أبا جعفر

المنصور إلى خراسان بحجة الحصول على موافقة أبي مسلم على وزير آل محمد ، فلما اقترب أبو جعفر من مرو أعد أبو مسلم مراسم استقباله ، وقضى أبو جعفر بضعة أيام هنا وأبلغ أبا مسلم فى أحد خلواته معه بحقيقة الأمر فأجاب أبو مسلم قائلا : أنا وأبو سلمة كلانا من أولاد أمير المؤمنين ، ولو نتعدى حدودنا ، لوجب علينا القتل . وعاد أبو جعفر موفقا من خراسان ، ولما أبلغ الكوفة كان أبو سلمة قد انتقل إلى رحمة الله ، ويقول البعض بأن السفاح كان قد قتله قبل وصول [٢٧] أبي جعفر . « والعلم عند الله الغفور الودود » .

الوزير أبو الجهم بن عطية :

تولى منصب الوزارة بأمر السفاح بعد مقتل أبي سلمة .. ولم يتضح شىء عن أحواله أكثر من هذا .

الوزير حميد بن قحطبة :

كان منتظما فى سلك وزراء السفاح حسب رواية صاحب جوامع الحكايات .

الوزير المورياني :

عمل بالوزارة فترة أثناء خلافة أبي جعفر المنصور الدوانيقى ، وكان يسلك خلال توليه الوزارة مسلك الظلم والعدوان مع الرعايا ، وجاء فى جوامع الحكايات (١) أن أبا جعفر كان له ابن أعرج اسمه صالح ، وكان أبو جعفر يناديه بالمسكين ، وذات يوم قال الخليفة : إن صالحا المسكين ضعيف جداً وعاجز ويجب الإنعام عليه بعدة مزارع حتى يشغل نفسه بعد وفاتى بعائدها ، ولما مر عام على هذا الكلام أحضر المورياني مبلغ ٢٥٠ ألف درهم ووضعها أمام الخليفة أبي جعفر وقال : سبق أن أمر أمير المؤمنين بضرورة تخصيص عدة مزارع للمسكين ، وخصصت بدورى المزارع المطلوبة له ، وهذه الدراهم من عائد تلك المزارع فسر المنصور وأثنى على المورياني . وقال له : اشتر أيضا بهذا المبلغ عددا من المزارع لصالح ؟ وحمل المورياني هذا المبلغ وأخذ يبيع فى مزارع المسلمين بثمن بخس

---

(١) انظر جوامع الحكايات « عوفى » ، باب ١٤ حكاية ١ . ٢ ص ١٧٦ .

ومشقة كبيرة ، [٢٨] ويكتب العقود باسم صالح ، وكان بعض الملاك يعطونه مبالغ كبيرة ليتجاوز عن بيع أملاكهم .

ولما بلغت أخبار هذه التصرفات إلى خالد البرمكى الذى كان على عداء معه أفضى ببعضها ضمن مقالات بعث بها إلى الخليفة ، فحققها أبو جعفر واتضح له صدق ما قاله خالد ، فلاجرم أن عزل الموريانى وعاقبه . ومن ثم فإنه يجدر بالوزراء ذوى الخصال الحميدة أن لا يغرسوا أشجار الظلم والضلال فى قلوب الرعايا مكسورى الجناح إرضاء للملوك والخلفاء وعملا على زيادة أموالهم الوفيرة ، بل يجعلوا برعايتهم روضة أمل المحكومين يانعة ومخضرة بفيض من عدلهم وإحسانهم حتى يبقى ربيع مجدهم مصونا فى الدنيا من قسوة الخريف الزائل وتكون دوحة آمالهم ثمرة السعادة الدائمة لهم فى الآخرة .

(رباعى ، ترجمته)

— قلة الأذى للناس —وأنت فى قمة المجد أفضل

— ومعاملتهم بالعدل والإحسان أفضل

— وحيث تعلم أنك تحصد كل ما زرعت

— ففعل الطيب فى الدنيا أفضل

الوزير أبو الفضل الربيع بن يونس بن محمد :

كان محمد جد أبى الفضل من موالى امير المؤمنين عليه السلام وذلك مايقول به صاحب جوامع الحكايات ، [٢٩] وتولى أبو الفضل الوزارة فى عصر أبى جعفر المنصور بعد عزل الموريانى ، فنشر العدل والإنصاف ، فلا شك أن ظل مدة طويلة متربعا على عرش الوزارة .

(مصراع ، ترجمته) :

« بالعدل تعلو الدولة ؟

الوزير أبو أيوب :

وكان أيضا وزيرا لأبى جعفر المنصور ه

الوزير خالد بن سلطان :

وكان يتولى الوزارة كذلك فى عصر أبى جعفر .

الوزير يعقوب بن داود بن طهمان :

لفت نظرى أنا هذه الذرة الحقيرة فى بعض الكتب الهامة أن داود كان من بين كتاب نصر بن سيار ، وبناء عليه كان يسلك طريق المحبة والإخلاص بالنسبة ليحيى بن زيد العلوى بل بالنسبة لأكثر سادات أهل البيت . ولما استشهد الإمام يحيى رضى الله عنه على يد أتباع نصر بن سيار وخرج أبو مسلم وطالب بمعاقبة قتلة ذلك الإمام توجه داود للعمل مع صاحب الدولة ولكنه لم يجد ترحيبا كبيرا منه ، وبعد أن توفى توجه أبناؤه — وكان أرشدهم يسمى يعقوبا — للعمل مع أولاد أمير المؤمنين الحسن — سلام الله عليه ، وفى الوقت الذى خرج فيه إبراهيم بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن — عليه السلام على أبى جعفر الدوانيقى كان يعقوب فى خدمته ، وبعد أن استشهد إبراهيم أسر يعقوب على يد أبى جعفر المنصور وسجن ،ولما اعتلى المهدى بن [٣٠] منصور عرش الخلافة أخرجه من السجن ، وجعله من بين خاصته ، ونظرا لأن يعقوب كان رجلا منادما ، حلو الحديث، أصبح خلال فترة قصيرة رئيسا للديوان ، وصار محسودا ومغبوطا به من أمثاله وأقرانه ، وفى تلك الأثناء ركله حصان فكسر ساقه وظل محروما بضعة أيام من لقاء الخليفة ، فلاعجب أن تحيّن الحساد الفرصة وغيروا نفس الخليفة عليه .

ويحكى على بن يعقوب فيقول ، قال والدى : حينما تحسنت قدمى نسبيا بعث المهدى شخصا فى طلبى ، فجررت قدمى وتوجهت للقائه ، ولما دخلت مجلس الخليفة شاهدت مجلساً فى غاية من العظمة ورأيت جارية فاتنة ساحرة تجلس بالقرب من المهدى ، وأخذ الخليفة يلاطفنى وقال لى : يايعقوب ماحال هذا المجلس فى نظرك ؟ قلت : أطال الله عمر أمير المؤمنين بالايوجد فى الدنيا جميعها مثل هذا المجلس فى جماله ! فقال لى المهدى : إنى أهديتك هذا المجلس بالفرش والأوانى والجارية ، فأخذت فى الدعاء مرة أخرى للخليفة ، ثم قال لى المهدى : لى عندك حاجة ؟ فنهضت وقلت لحضرته : أى قيمة لى بحيث يخاطبنى أمير المؤمنين بهذه العبارة ، فأى حكم يصدره إنما هو فضل على وإرضاء ، فقال لى المهدى : بالله

عليك ستفعل ماأقوله ؟ فقلت : حقاً ، قال : ضع يدك فوق رأسي وأقسم ؟ فنفذت الأمر [٣١] وحينئذ أنعم على بمائة ألف درهم وقال : أريد منك أن تقوم بقتل فلان العلوى وتريحنى منه ! ! وأخذت الجارية والأثاث وانصرفت ثم طلبت العلوى فوجدته رجلا عاقلا متزناً فى الحديث ، وخلال حواره معى قال لى : يايعقوب أيليق بك أن تطالب يوم القيامة بدم ابن بنت رسول الله ؟ فقلت له : لا والله ولكن قل لى ماالعمل ؟ قال : اتركنى أخرج فى منتصف الليل إلى مكان ما وأنجو من القتل ، وأبرم معى عهداً وميثاقاً بألا أبيح فى أى وقت للمهدى بما حدث ، وعندئذ أذنت للعلوى ورفيقيه بالانصراف ، وعلمت تلك الجارية بحقيقة ماحدث وأرسلت سراً إلى المهدى شخصا أطلعه على ماجرى ؛ فكلف المهدى فى تلك الليلة جماعة قبضت على العلوى ورفيقيه وأخذتهم إلى دار الخلافة . ويواصل يعقوب حديثه فيقول : ولما ذهبت فى اليوم التالى لملاقاة المهدى سألنى بقوله : ماذا فعلت مع العلوى ؟ فأجبته بقولى : أرحت أمير المؤمنين منه . قال : كلام رجل ! قلت : نعم . قال : بالله هذا ماحدث ؟ قلت : نعم . قال : ضع يدك على رأسى وأقسم ، ففعلت ما أمرنى به . وبعدها صاح المهدى قائلا : أيها الغلام ، أحضر الرجال الذين وضعتهم فى هذا المنزل . ففتح الغلام المنزل وجاء بالعلوى ورفيقيه إلى المجلس ، فغرقت أنا فى بحر من الخجل ، وسقطت على الأرض . وبعد ذلك أمر المهدى بإيداعى السجن فألقوا بى فى بئر ضيقة مظلمة ، وقضيت مدة كبيرة فى هذا المكان الموحش فضعف بصرى وأصبح شعرى طويلا خشنا كشعر الحيوانات . وفى النهاية أخرجنى أحد الأشخاص وقادنى [٣٢] إلى مكان ما ، وقال لى : ألق السلام على أمير المؤمنين ؟ ولما ألقيت عليه السلام ، قال لى : على من من أمراء المسلمين ألقيت السلام ؟ قلت : على المهدى. قال : لقد رحمه الله ! قلت : على الهادى. قال : لقد توفى هو أيضاً . قلت على هرون الرشيد . قال : نعم ، اطلب الآن ماتريد ؟ قلت : أريد أن أعيش فى مكة ؟ قال : لك هذا المطلب وماذا تريد غيرها ؟ قلت : لقد انتهى أمرى ولا يليق بى أن أطلب شيئا آخر ، وعندها أرسلونى إلى الحرم المكى .. ويقال إن المدة التى قضاها يعقوب فى السجن كانت ستة عشر عاماً .. وبعد أن وصل مكة بفترة قصيرة انتقل إلى جوار ربه .

الوزير ابو خالد الأحول :

كان يتولى الوزارة فى عهد الخليفة المهدى فترة من الوقت على حسب مايرويه صاحب جوامع الحكات .. وكان يهتم كثيراً بإحياء مراسم الجود والإحسان .

الوزير معاوية بن عبد الله الأشعرى :

وكان أيضاً من وزراء المهدى .

الوزير عمرو بن تبع :

تولى الخلافة فى عهد موسى الهادى .

الوزير ابراهيم بن ذكوان الحرفى :

جاء مايلى فى جوامع الحكايات: ورد فى كتاب الفرج بعد الشدة أن إبراهيم كان فى بداية أمره [٣٣] الكاتب الخاص للخليفة المهدى ، ولما بعث المهدى ابنه موسى الهادى لتولى حكم ولاية جرجان عين إبراهيم بن ذكوان لمرافقته ، وحظى إبراهيم عند موسى — دون سائر أركان الولاية — بمزيد من التقرب والتفضيل . وأسند إليه إنجاز كثير من الأمور الهامة ، ونظراً لأن موسى الهادى كان ماجنا إلى حد كبير فإنه كان يقدم على ارتكاب أفعال مكروهة وتصرفات مشبوهة ، ووصلت حقيقة تلك الأمور المنكرة بانتظام إلى الخليفة المهدى فتصور أن ارتكاب تلك الأمور بسبب نيابة إبراهيم لابنه .. فلا عجب أن أرسل رسولا لاستدعائه ، ولكن الهادى منع إبراهيم من الذهاب للخليفة وبعث إليه برسالة اعتذار واهية ، فتسبب هذا التصرف فى ازدياد غضب المهدى وكتب رسالة للهادى يقول له فيها مامضمونه : إذا لم ترسل إبراهيم بن ذكوان إلى عرش الخلافة فسوف أعزلك من حكم الولاية ؟ ولما وصلت تلك الرسالة إلى موسى بعث إبراهيم مضطراً بصحبة جماعة من رجاله إلى بغداد وقال لهم : قيدوه حينما تصلون إلى أول منزل قبل دار السلام ؟

(بيتان ، ترجمتها)

— دلّلته حيث لم يكن هناك خير عليه

— فلما رأى الضر أسلمه

— فلتعلم أن وقت الشدة

— ينفض عنك الجميع

والخلاصة أن تلك الجماعة بعد أن طوت المنازل والمراحل قامت بتسليم إبراهيم للمهدى الذى عاتبه ، ثم أمر بقتله بعد أن عدد جرائمه وآثامه . ومما نقل عن إبراهيم أنه قال : حينما وصلت إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام التمست من المنفذين قائلا لهم : أعطونى الأمان قليلا حتى أتوضأ وأصلى ركعتين لله ، [٣٤] فقبلت تلك الجماعة ملتمسى ، وتوجهت إلى رب العرش العظيم بالضراعة له والتماس المساعدة منه .. وقبل أن أنتهى من صلاتى علا الصياح والنواح من دار الخلافة . . وسأل الناس عن السبب فعرفوا أنه حدث فى تلك اللحظة أن قدم للخليفة المهدى طعام مسموم ، تناول الخليفة بعضا منه ، فبدت عليه فى الحال أعراض السم القاتل .. وخلاصة القول إنه بعد هذه الواقعة أفرج المنفذون للإعدام عن إبراهيم بن ذكوان ، وأرسلوا بسرعة فى طلب الهادى ، وجاء الهادى بسرعة البرق من استرباد إلى دار السلام بغداد ، واعتلى عرش الخلافة وقلد إبراهيم منصب الوزارة ، ونجا إبراهيم بعناية الله الرحمن الرحيم من تلك الكارثة .. وظل يدير شئون الوزارة بحرية واستقلال خلال خلافة الهادى كما كان دائم الشكر لخالق الموت والحياة موفيا بالنذور والصدقات ، « والحمد لله والمنة لله الملك المعبود وهو الرحيم الغفور الودود .

الحديث عن بعض أحوال البرامكة

يجرى صيت فضل البرامكة وسخاؤهم على ألسنة مختلف الطوائف البشرية وأفواههم إلى درجة لاتحتاج إلى الشرح والتوضيح ، وإحسان تلك الفئة السامية وعطاؤها معروف ومشهور فى جميع أنحاء العالم إلى درجة يستغنى فيها عن أصحاب اللسانين من أجل تحريرها وإثباتها .

(مصرع ، ترجمته)

— « أى حاجة للقمر الساطع من الليلة الصافية » .

فلا جرم أن نكتفى بالحديث عن جانب من جوانب أحوالهم :

[٣٥] أورد الثقاة من الرواة أن نسب جعفر — والد خالد والملقب ببرملك — كان يمتد إلى ملوك الفرس وكان جعفر مجوسيا فى بداية حياته يقوم بعبادة النار فى معبد « نوبهار » ببلخ .. وفجأة وبالعناية الإلهية أضاءت شعلة الإيمان مصباح قلبه حسب قوله تعالى « ومن يهد الله فما له من مضل »(١) ، وهكذا تحلى بحلية الإيمان وتزين بزينة الإسلام وانتقل بأسرته وأمواله ومتاعه إلى دمشق التى كانت وقتها عاصمة خلفاء الدولة الأموية . ويذكر صاحب جامع الحكايات والتواريخ جلالى فى كتابه أن مجىء جعفر إلى دمشق حدث فى عصر عبد الملك بن مروان ، ويذكر آخرون أنه جاء إلى عاصمة الخلافة بالشام أيام سليمان بن عبد الملك ، وحيث إن الرواية الثانية أقرب إلى الصحة فى نظرى فقد اعتمدت على صاحبها ، فيقول : حينما دخل جعفر

---

(١) سورة الزمر ، آية « ٣٧ » .

مجلس سليمان بن عبد الملك تغير لون سليمان وأمر رجاله بإخراجه من المجلس ، فتعجب جلساؤه مما حدث ، واستفسر أحدهم من سليمان عن سبب ذلك ! فقال له : هذا الرجل يحمل معه سما ! ! قال : وكيف عرفت هذا ؟ قال سليمان : مثبت على ذراعي لؤلؤتين تتحركان تلقائيا كلما دخل عندى أحد يحمل سما ! ! فدهش الحاضرون لقوله وبعثوا شخصا إلى جعفر يستدعيه ، وسألوه عن حقيقة ذلك ! ! فأجابهم بقوله : نعم يوجد قدر من السم تحت فص الخاتم الذى بيدى ! فقالوا له : لأى سبب تحمله معك ؟ قال أمتصه « برمكم »[1] عند الشدة ! ! وبناء على ذلك لقب جعفر بالبرمكى.

[٣٦] والخلاصة أنه بعد هذه المحاورة أجلس سليمان بن عبد الملك جعفر البرمكى فى مجلسه وأظهر اللؤلؤتين حتى يجربها الحاضرون ويشاهدونها ، ووقتها سأل سليمان البرمكى قائلاله : هل سبق لك أن أطلعت على مثل هذا الأمر من قبل ؟ فأجاب البرمكى : لا . ولكنى كنت قد شاهدت أمراً فى غاية من الغرابة فى مجلس ملك « نخشب » ، مؤداه أن ملك نخشب كان يجلس ذات يوم على شاطئ النهر المجاور لقصره وفى يده قطعة ياقوت ثمينة ، وفجأة سقطت تلك الجوهرة النفيسة فى النهر ، فتأسف الحاضرون فقال لهم السلطان : لاتحزنوا ! وأمر خازنه بإحضار صندوق معين ! ونفذ الخازن الأمر ، ففتح السلطان الصندوق وأخرج منه سمكة ألقى بها فى النهر ، وفى الحال خرجت السمكة من النهر والياقوتة فى فمها ! فتعجب سليمان من سماع هذا الكلام ، وبعث برسالة إلى ملك نخشب طالبا منه تلك السمكة ، وبعد فترة عاد الرسول وقدم تلك السمكة والطبل الخاص بها إلى سليمان ، واختبر سليمان السمكة على الفور فاتضح له صدق قول البرمكى .. وأثناء ذلك قرع أحد الأشخاص الطبل فخرج منه ريح جعل الحاضرين يضحكون فقال البرمكى : هذه أصوات طبول الأمعاء !

---

(١) « برمكم » فعل فارسى فى صيغة المضارع الالتزامى للمتكلم ، من المصدر الفارسى « برمكيدن » بمعنى يمص أو يرضع .

وقد أطلق اللقب على خالد مستخدما من ذلك الفعل الفارسى ، واشتهرت الأسرة جميعها بهذا اللقب وسموا « البرامكة » — المرجع السابق .

وعموما فإن البرمكى وأبناءه العظام كانوا يعيشون معززين مكرمين أثناء خلافة الأمويين ، ولما سقطت دولتهم مصداقا لقوله تعالى « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » (١) وخلفهم العباسيون ، كانوا ينظرون هم أيضا الى البرامكة بعين الشفقة والاحترام .

[٣٧] **الوزير خالد البرمكى(٢) :**

كان خالد البرمكى وزيراً لأبى العباس السفاح بحسب ما ذكره صاحب جامع التواريخ .. وظل فترة يقوم بتدبير شئون الرعية .. كما كان أحد نواب بلاط الخلافة فى عهد أبى جعفر المنصور وكان أبو جعفر يستعين برأيه فى تدبير الصعب من أمور الرعية .

الوزير يحيى بن خالد :

عين يحيى أتابكاً لهارون الرشيد فى عهد المهدى بن منصور ، وكان هرون يستشيره فى الصعب من أموره ، ولايتردد عن الأخذ برأيه الصائب ، ومن المشهور عن المهدى بن المنصور أنه لما تمكن من عرش الخلافة قرر أن يخلفه ابنه الأكبر موسى الهادى على أن يتولى الخلافة هارون الرشيد بعد وفاة الهادى ، وبناء على ذلك أصبح الهادى خليفة بعد وفاة المهدى ، ولكنه أراد خلع هرون الرشيد من ولاية العهد ويجعل ابنه جعفرا وليا للعهد ، وبعث برسول الى هارون أخبره بماينتويه ، فتشاور هارون مع يحيى بن خالد فى هذا الموضوع ، فقال له يحيى : حذار أن توافق على هذا الأمر .. لاتحرم نفسك من نعمة الخلافة .. ولما بلغ خبر هذه المشورة إلى مسامع الهادى قام بحبس يحيى . ويروى محمد بن يحيى على لسان والده أنه قال :

«حينما كنت مسجونا بعثت بعريضة الى الهادى أقول له فيها : أرجو أن ألتقى بك على انفراد لأنى لدى نصيحة [٣٨] لك . فطلبنى الهادى وسألنى : ماهذه النصيحة ؟ فأجبته بقولى : ياأمير المؤمنين ، لوتحدث تلك الفاجعة — التى أدعو الله أن لا تراها عينى فى هذه الأيام فهل يطيع جعفر الناس بمختلف طبقاتهم وهو لم يصل بعد حد البلوغ ؟ فقال لى : إننى متردد فى هذا الأمر ! فقلت له : وإذا قدر وحدث هذا

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٢٦ » .

(٢) انظر جوامع الحكايات «عوفى» باب ١٤ حكاية ١٩٤ ص١٧١ — طبع طهران ، ١٣٣٠هـ .ش.

فربما يتطلع بعض كبراء بنى هاشم أمثال فلان و فلان إلى منصب الخلافة ، ويخرج الأمر من يد أولاد المهدى .. فرفع الهادى رأسه وهو غارق فى التفكير ، فتجرأت أنا مرة ثانية وقلت له : ياأمير المؤمنين ، إنه لمن الخير أن لاتقدم الآن على خلع الرشيد ، وأتعهد لك أنه حينما يرشد جعفر سوف آتى بهارون حتى يبايعه ، فاستحسن الهادى هذا القول وأذن لى بالعودة » .

والخلاصة أنه بعد أن مضى موسى الهادى فى الخلافة عاماوشهرين توفى فى عيسى آباد فى عام مائة وسبعين من الهجرة ، وفى نفس الليلة التى حدثت فيها وفاته ، تولى هارون منصب الخلافة الرفيع بمساعدة يحيى بن خالد ، وفى اليوم التالى صلى هارون على أخيه ودفنه ، ثم جاء إلى بغداد من عيسى آباد وسلم إلى يحيى خاتمه وأسند اليه إدارة شئون الوزارة ، فرفع يحيى أعلام العدل والإنصاف وفتح أبواب الإحسان والإنعام على جميع طوائف بنى الإنسان .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد عمرت الدنيا بعدله وإنصافه

— وسعدت قلوب الناس بلطفه وإحسان

وقد جاء فى جامع الحكايات أنه أثناء خلافة هارون الرشيد حدث أن دب خلاف بين يحيى بن خالد البرمكى وبين [٣٩] عبد الله بن مالك الخزاعى ، وعلم الخليفة حقيقة ذلك الخلاف ، فمهما حاول البرامكة القضاء على عبد الله لم يفلحوا .. وفى النهاية ولاه هرون الرشيد حاكماً على ولاية أرمينية ،

(بيت ، ترجمته)

— حينما يكون اللطف الإلهى عونا وسندا

— لن يصيبك أذى قط من تدبير الآخرين

وحينما تولى عبد الله الحكم فى أرمينية حدث أن تصرف أحد العمال — بسبب البطالة وعدم التفات يحيى إليه — بمنتهى الذكاء ، فكتب رسالة مزورة على لسان يحيى تتضمن التوصية عليه وتوجه بها إلى أرمينية ، وقدمها إلى عبد الله ، فلما قرأها عبد الله ظن أنه كتبها زوراً بخط يحيى بقصد المنفعة ، فلاجرم أن قال لحامل الرسالة : المنافع لاتتحقق أبداً بالغش والتزوير ، والأمورلا تنتظم مطلقا بالكذب أو التضليل ! !

(بيتان ، ترجمتها)

— أنى يفيد الحديث الكاذب ! ؟؟

— وما مقدار الضياء لشعلة القشة ! ؟

— فعندما يصنع الزجاجي زجاجة ويعطيها اللون الأحمر

— فإن طبعه السليم لايعطيها اسم الأقحوان

فأجاب ذلك الرجل برباطة جأش مطمئنا الى كرم يحيي بقوله : أيها الأمير ؟؟ تلفيق الكذب على الأموات [٤٠] ممكن ، أما يحيي فهو مازال بحمد الله بين الأحياء .. ولو توجه أحد إلى دار الخلافة ، فاكتب له صورة الواقعة ، فإن صدق يحيي قائلا إن هذه التوصية صادرة مني فهو المطلوب ، وإلا فأحلوا في مايراه رأيكم العالي ! فوافق عبد الله على هذا القول وبعث برسالة إلى يحيي للوقوف على تلك القضية ، ولما قرأ يحيي تلك الرسالة ، عرف على أي نحو تسير الأمور ، وكتب على الفور الرد عليها كما يلي :

طالما أننا بالتأكيد قد محونا من خاطرنا بهذا شقاق جنابكم ، واستبدلنا الكدر والشقاق بالصفاء والوفاق ، وفتحنا باب التراسل بيننا ، فقد كتبنا لذلك الشخص توصية ، وسوف تستوجب منتنا كل مكرمة تبذلونها له .

وحينئذ نظر يحيي إلى الحاضرين وقال لهم : لو أن شخصا يكتب رسالة مزورة موجهة من ديوان أمير المؤمنين إلى أحد الأمراء فماذا يكون جزاؤه ؟ فقالوا : قطع يده والقضاء عليه..! فقال لهم يحيي : هذا ليس من شيمة أهل اللطف والكرم ، فالفقير الذي يذهب إلى أرمينية من بغداد أملا في الكسب معتمدا على كثرة إحساننا وكرمنا ، ويعد رسالتنا أنها سوف تكون السبب في وصوله إلى مقصده ، كيف لنا أن نحرمه ونخيب أمله ؟؟

(بيتان ، ترجمتها)

— مهما يرتكب من آثام

— فإنه يلجأ إلينا ويحتمي بنا

— وحرمان كل عاص

— كفر لدى أهل الإحسان

فقالت تلك الجماعة : هكذا جبلت أنت على هذه الصفات الحميدة ، والناس جميعا بعيدون كثيرا عن مثل [٤١] هذه الصفحات .

والخلاصة أنه حينما وصلت تلك الرسالة إلى عبد الله صدق ذلك الرجل وأنعم عليه بمائتى ألف درهم ولباس فاخر وعشرة رءوس من الجياد وخمسة من الإبل وخمسة من الغلمان .

ومن الثابت أنه كان ليحيى أربعة أبناء يصدق عليهم مضمون هذا المصراع : « كلهم يحيى رسوم الفضل والجود » .

الوزير الفضل بن يحيى :

اشتهر الفضل بن يحيى بصفات الجود والسخاء وإحياء مراسم العدالة ، كما عرف عن جعفر — بالإضافة إلى الأوصاف السابقة — تمكنه فى فن الكتابة والفصاحة إلى درجة أن رفع فى هذا الفن راية « أنا ولاغير » ، وكذلك كان محمد بن يحيى معروفا بعلو الهمة ، وموسى بن يحيى فاق أمثاله وأقرانه فى الشجاعة فى الحديث .. وظلت إدارة شئون الخلافة بأطرافها المترامية فى معظم أنحاء العالم معقودة على الرأى الصائب ليحيى وأولاده الأمجاد منذ بداية خلافة الرشيد وحتى عام ١٨٥ هـ الوقت الذى تغير فيه هرون على البرامكة . وقد اختص الفضل وجعفر دون سائر إخوتهما بمزيد من السلطة والجاه فكانت لهما أياد بيضاء فى البذل والعطاء .

(بيت ، ترجمته)

— كان نموذجاً فى اللطف والكرم
— وكان فرداً فى البذل والعطاء

[٤٢] ونقل صاحب جامع الحكايات عن إسحق الموصلى أنه قال : توجهت ذات يوم إلى بلاط هارون الرشيد(١) حتى أسعد بلقائه ، ولما علمت أن الخليفة فى فترة الاستراحة ، هممت بالعودة دون شك ، وأثناء ذلك طلبنى جعفر بن يحيى وقال لى : ماذا يحدث لو توافقنى اليوم ونجلس سويا نتجاذب أطراف الحديث منفردين ونتبادل اللعب وتناول الشراب؟ فقبلت هذا العرض ، وأخذنى جعفر إلى منزل منعزل وأعد مجلساً فى غاية من الحسن والجمال .

---

(١) أضيفت إليه عبارة « عليه اللعنة » فى الأصل .

(بيت ، ترجمته)

— مجلس مزدان كجنة الخلد

— طبيعة ترابه كرائحة العنبر

ثم ارتدى جعفر ثيابا من الحرير كما ألبسنى مثله ، وأمر الجوارى بإحضار المغنية وقال لحاجبه : لاتأذن لأحد بالدخول علينا سوى عبد الملك ، واختص عبد الملك هذا وقتها بمزيد من التقرب دون سائر ندمائه الخصوصيين . والخلاصة أنه بعد أن دارت علينا عدة كئوس وترنحت رأسانا من أثر الشراب النقى ،

(بيتان ، ترجمتها)

— لقد حمى عزف الصنج والناى من جهة

— وعلت أصوات الشراب من جهة أخرى

— مجلس كالجنة سقاته من الحور

— لم ينقصه أى شىء من الأشياء

دخل وقتها من باب ذلك المنزل فجأة عبدالملك بن صالح الهاشمى — وكان من بين أقارب هرون [٤٣] الرشيد ، ولم يكن مطلقا — لعظمته — يقدم على المنادمة أو المصاحبة فى مجلس الخليفة ، لأن الحاجب كان قد أخطأ بين عبد الملك هذا وعبد الملك ذلك نديم جعفر ، ولما وقعت عينا جعفر على عبد الملك بن صالح تغير كثيرا ، فلما شاهد عبد الملك آثار التغير بادية على وجه جعفر بدأ على الفور فى المباسطة وطلب الطعام ، وبعد أن تناول قدحا منه تناول قدحا من الشراب — رغم أنه لم يكن يتناول الشراب مطلقا فى مجلس الخليفة — والتهمه . ولا شك أن اطمأنت نفس جعفر وانقشع عن وجهه التغير ، وقبل يد عبد الملك وقال له : قل لى ماذا يضايقك حتى أهب فى مثل تلك الحالة؟ :

(بيت ، ترجمته)

— وأحزم روحى فى خدمتك

— بل اتخذ حزاماً لنفسى فى طاعتك

فأجابه عبد الملك بقوله : ليس من المناسب أن أذكر بغيتى فى هذا المجلس . .

(بيت ، ترجمته)

— لا تسمع قصتنا لأنها أس الأحزان

— وظلم أن تعرض على هذا الخاطر السعيد

وكرر جعفر سؤاله مرة أخرى فقال له عبد الملك : يبدو أن الخليفة قد تغير على !! يلزم أن يتبدل الجفاء بالصفاء ، فقال جعفر : إن هذا الأمر ميسور ! اطلب خدمة أخرى ؟ قال : إننى أقترض أربعة آلاف درهم وآمل سدادها بفضل كرم الخليفة ؟ فقال جعفر : هذا المبلغ جاهز ، ولكن ليس من ساطتى أن آتى بهذه الأموال على الفور وأنعم بها عليك . وأما غداً فسوف أحصل بمشيئة الله تعالى على موافقة أمير المؤمنين [٤٤] على سداد تلك القروض . ويمكنك الآن أن تطلب خدمة أخرى؟فقال له عبد الملك : إنه لا يخفى عليك أن ولدى لجدير بالرعاية ، فلو تتوسط له لدى الخليفة ليشمله بعنايته ويسند إليه عملا مناسبا ؟ قال جعفر : سوف أعمل على أن يشمل أمير المؤمنين ابنك بعين عنايته ويسند إليه حكم ولاية مصر ويزوجه ابنته عالية !! ويواصل إسحق روايته قائلا : فظننت بينى وبين نفسى أن جعفرا كان يهذى من أثر السكر . . فكيف له أن يحقق تلك المطالب ؟ ! ولكنه فى اليوم التالى وحينما أضاء الكونَ نورُ الخالق أسرعت إلى بلاط الخليفة فوجدت مجلس الخليفة هرون مكتظا بالعلماء والأئمة ، وعندئذ حضر عبد الملك إلى ذلك المجلس ،

(مصرع ترجمته)

« فلما وقعت عين الخليفة عليه »

بدأ يلاطفه وقال له : لقد بدلت جفائى لك بصفائى وأمرت أن تسدد قروضك من بيت المال ! عندئذ قال الخليفة أمام عبد الملك والأئمة : لقد زوجت ابنتى عالية لابن عبد الملك وعينته حاكما على ولاية مصر فتعجبت أنا من حدوث هذا ، وبعد أن انفض المجلس توجهت إلى جعفر بن يحى وسألته عن كيفية إنجازه تلك الأمور !! فقال لى : حينما ذهبت فى الصباح إلى مجلس أمير المؤمنين عرضت عليه بالتفصيل ماحدث فى لقاء الأمس والموافقات التى كنت قد أعطيتها فقال لى الخليفة : إننى موافق على جميع الملتمسات هذه . وعندئذ — وبناء على موافقة الخليفة — أرسلت شخصا لاستدعاء الأكابر [٤٥] والأشراف ونظمت

هذا المجلس . . وأنجزت هذه الأمور كما رأيت ! وفتح الله عز وجل — بسببي — أبواب لطف أمير المؤمنين ورحمته على عبد الملك .

(شعر فارسى ، ترجمته)

— حينما يحظى وزير سعيد عاقل
— بمكانة عالية لدى الملك
— يجعل للناس من الإحسان نصيبا
— ويحقق للفضلاء آمالهم
— ويكون اهتمامه كثيرا لا ينقطع
— بتعظيم أهل العلم والكمال
— ويرعى جميع الفضلاء ، ويرشد
— الملوك إلى هذا الطريق
— وبسعيه تتحقق لكبار العظماء
— آمالهم من الألطاف الملكية

ومن الثابت عند كبار المؤرخين أنه فى عام ١٨٨ هـ — كعادة الأيام وطبيعة الفلك الغدار بل بناء على قضاء الخالق وتقدير المنتقم الجبار — تغيرت نفس هارون الرشيد (١) على البرامكة وابتلى كل منهم بنوع من البلاء فصار مآلهم إلى العدم والفناء .

(بيتان ، ترجمتهما)

— هذه هى عادة الدنيا
— تقترن عطاياها بآلامها
— وعزها لايدوم بلا تبديل
— وأحوالها سريعة التغيير

والأسباب التى غيرت نفس الخليفة على البرامكة كثيرة ، ومن الواجب ذكر بعض هذه الأسباب [٤٦] ضمن هذه الصفحات : فمن بينها قصة يحيى بن عبدالله

(١) أضيفت عبارة « عليه اللعنة » فى الأصل .

بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وتتلخص في أن ذلك السيد ثار بين الديالمة في ١٧٦ ﻫ والتف حوله خلق كثير .. ولما علم الرشيد بهذا النبأ كلف الفضل ابن يحيي بالتصدي ليحيي ، وبناء عليه توجه الفضل على رأس خمسين ألف فارس للقائه ، وبعث إلى يحيي برسائل تتضمن تحذيره من العصيان وتشجيعه على الصلح ؛ فجنح يحيي إلى الصلح والصفاء ورد عليه برسالة يقول فيها : لو أنك تبعث إلى برسالة أمان من هرون تتضمن الموافقة على شروط الصلح ، يمكنني التوجه معك إلى بغداد ؟ فأبلغ الفضل ملتمس يحيي إلى الرشيد ، فسر هرون الرشيد وابتهج وأرسل بوثيقة كتبها تتضمن الموافقة على طلبات يحيي ، ولما وصلت تلك الوثيقة إلى يحيي صحب الفضل إلى بغداد ، وبذلك ارتفعت مكانة الفضل بسبب هذه الخدمة الجليلة ، ولكن من الموثوق بصحته أن هارون الرشيد شمل يحيي بن عبد الله برعايته — بمقتضى الوثيقة المذكورة — لفترة من الوقت ، ولكنه في النهاية قبض على هذا السيد وسلمه جعفر بن يحيي واشترط على جعفر التحفظ البالغ عليه . وفي تلك الأثناء دخل جعفر ذات يوم على يحيي ونظرا لأنه كان يفهم أن هارون ينوي القضاء عليه قال ذلك السيد لجعفر : خف الله — سبحانه وتعالى — ولا تضع نفسك بين الأشخاص الذين يخاصمهم سيدنا محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم القيامة ؟ [٤٧] لأنني ما ارتكبت ذنبا استحق عليه القتل . . وقد أثر هذا القول في جعفر فأمر جماعة من رجالة نقلوا يحيي إلى مكان آمن ، ونقلت صورة تلك الواقعة إلى هارون الرشيد الذي قال ذات يوم لجعفر : ما حال يحيي بن عبد الله ؟ فقال : مقيد في مكان ضيق مظلم فاستطرد الرشيد قائلا : بحياتي هذا هو ما حدث ؟ ففهم جعفر بذكائه الخارق أن كيفية تلك الواقعة اتضحت للخليفة فلا عجب أن قال : بحياتك ما حدث له ، ولكنني حينما تيقنت أن يحيي أصبح شيخا كبيرا ضعيفا ولن يحدث منه ما يشغل بال أمير المؤمنين أخرجته من السجن ! فثقل هذا الرد على نفس الرشيد وقال متظاهرا : حسناً فعلت ! ولكنه قال هامساً أثناء خروج جعفر من المجلس : يقتلني الله لو لم أقتلك ! !

ومن هذه الأسباب أيضا أنهم جاءوا ذات مرة بجارية إلى هارون الرشيد كانت تتصف بالجمال العذري والوجه الصبوح وبالأنوثة الفاتنة والصوت الحسن . .

(بيتان ، ترجمتها)

— حسناء وردية الوجه دقيقة الخصر ، هيفاء القوام

— طيبة الرائحة ، مثيرة الفتنة والفوضى فى العالم

— لطيفة الطبع تتهادى فى رشاقة ودلال

— حسناء كالصنم ممشوقة القوام ، مشرقة الجبين كالقمر

فأعجب الرشيد بجمالها وكمالها وأمر باستدعاء وليها ، فلما حضر ذلك الشخص وسأله عن ثمن تلك الفاتنة قال : لقد أقسمت ألا أبيع هذه الجارية بأقل من مائة ألف دينار . فأمر الرشيد بأن يعطوه [٤٨] المبلغ المذكور بغير نقصان ، وتباطأ جعفر فى أداء ذلك المبلغ وقال لوالده ولشقيقه : لو ينفق الخليفة أموال بيت المال بهذا الشكل فلن يبقى — بعد فترة قليلة — فلس واحد من الدراهم والدنانير بالخزانة العامرة . وأرى أنه من الأنسب أن تنثر الآن المائة ألف دينار هذه فى طريق الخليفة حتى يعلم كم من الذهب ثمن هذه الجارية ! ! فربما يستكثر ذلك المبلغ فى نظره ويتغاضى عن شراء تلك الجارية . فاستحسن يحيى والفضل هذا الرأى ، وأمر جعفر الخازن بالتنفيذ على هذا الأساس .. ولما خرج الرشيد من غرفته ووصل إلى تلك النقود سأل الخازن : من أين جاءوا بهذه الخزانة ؟ فقال الخازن : هذا ثمن تلك الجارية التى صدر الأمر بشرائها ! فأمر الرشيد بأن يأخذ ذلك المال ويضعوه فى خزائن مستقلة تسمى ببيت مال العروس . ومنذ تلك الحادثة تقريبا أمر بالتفتيش على الخزائن وجردها ، فاتضح له أن البرامكة أنفقوا كثيرا من أموال الديوان بحق وبغير حق ، ومن هنا وجد التغير مكاناً له فى نفسه .

ونقل عن إبراهيم بن المهدى بن منصور أنه قال : ذات يوم ذهبت — نظرا لصداقتى القوية بجعفر بن يحيى — لتقديم مراسم التهنئة له بالقصر الذى كان قد أقامه حديثا ، وأثناء الحديث معه قال لى : هل سمعت يا إبراهيم قول منصور بن زياد الذى قاله عن هذا القصر ؟ فقلت له : لا اشرح لى ماذا قال ؟ قال : لقد سألته ، هل ترى فى هذا القصر عيبا قط ؟ فأجابنى بقوله : نعم ، هذا القصر لا توجد به شجرة بلح ! ! ويقول إبراهيم إننى قلت له : عيب قصرك أنك أنفقت فى بنائه ألف ألف درهم وأخشى أن [٤٩] لا يعجب هذا التصرف أمير المؤمنين ويقول

لك إن هذه أموالى الخاصة أنفقتها فى غير موضعها . فقال جعفر : لقد أنعم أمير المؤمنين على بأكثر هذه الأموال وتوفر لى الكثير منها خلال خدمته ، فقلت له إن الأعداء والحساد ينقلون هذه الصورة بوجه آخر ويقولون : إن الشخص الذى ينفق مائتى تومان فى بناء واحد كم تبلغ باقى مصروفاته !! ومثل هذه الأقاويل تؤثر فى الحكام ، فقال جعفر : لو سألنى أمير المؤمنين عن السبب فى بناء هذا القصر ويقول لى مثل هذا الكلام فسوف أقول له : إن لأمير المؤمنين أموالا وهبات كثيرة أنعم بها على الكثيرين من رجال دولته وأعيان بلاطه ورغم ذلك فهم ينكرون نعمه ويخفونها ! وكنت أنا الرجل الذى جعل نعم خليفة العصر وإحسانه ظاهرة واضحة وناديت الناس جميعا قائلا لهم : هيا أقدموا وشاهدوا مقدار فضل أمير المؤمنين وحقه على ويقول إبراهيم : إننى قلت له : يمكنك قول كل ذلك فى حالة ما إذا كان أمير المؤمنين فى موضع المناظرة معك وإلا فسوف تبدو لك متاعب كثيرة .

ومن الأسباب الأخرى لتغير هارون الرشيد على البرامكة كانت قصة العباسة ، ومؤداها أن الرشيد كان يهوى كثيرا مجالس الأنس والطرب ، ولم يكن يحتمل الاختلاط بجعفر البرمكى ومجالسة شقيقته العباسة فى آن واحد — وكان كلا منهما وحيد عصره فى الظرف وحسن الحديث — وبناء على ذلك فكر فى الجمع بين هذين النديمين الظريفين فى مجلس واحد معه على ألا يكون هناك تعارض فى ذلك من الناحية الشرعية الشريفة ، وبعد أن فكر قال لجعفر :

[٥٠] إننى شغوف جداً بمجالستك وآنس كذلك بوجود العباسة وأرغب أن أجمعكما معى أحيانا فى مجلس واحد حتى أنعم بالجلوس معكما مجتمعين فى مجلس الأنس والطرب ، وسوف أعقد عليك الآن عقد الزواج بالعباسة شريطة أن لا تتحدثا سويا فى الخفاء فقط بل شريطة أن لا تجتمعا مطلقا فى غير مجلسى . ووافق جعفر على هذا الرأى ، فعقد الرشيد له على العباسة ، وبعدها كان جعفر والعباسة يحضران مجلس هارون الرشيد دون مبالاة ويتبادلان الحديث سويا ، ونظرا لأن جعفر كان شابا جميلا فقد أحبته العباسة وطلبت منه الوصال ، ولم يحتمل جعفر أيضا البعد عن تلك العروس الفاتنة ، وضرب بوصية الرشيد عرض الحائط ، وتحين الفرصة وأخذها بين أحضانه ، وبعد فترة قصيرة حملت العباسة وأنجبت منه ابناً ، وخوفا من هارون

الرشيد أودعت العباسة ابنها لدى مربية حملته إلى مكة المكرمة ، وبعد فترة من الوقت غضبت إحدى الجوارى من العباسة فأبلغت الرشيد بكيفية ماحدث بالتفصيل. وجاء فى روضة الصفا أنه فى تلك الأيام التى وقف فيها هارون على حقيقة هذه الحادثة عزم على السفر إلى الحرم الشريف ، وبعثت العباسة برسول إلى مكة لينقل ابنها من هناك إلى اليمن ، ولما وصل الرشيد إلى مكة — وبعد بحث وتفتيش دقيق — تأكد من صحة الحادثة المذكورة ، ووقتها صمم على استئصال البرامكة ، فبعد فراغه من أداء مناسك الحج عاد إلى بغداد ومنها إلى الأنبار ومن الأنبار بعث بسندى بن شاهك — الذى كان يعتمد عليه اعتمادا كبيرا — إلى بغداد ، وقال له : عليك أن تقوم فى اليوم الفلانى بالقبض على البرامكة[٥١] وأقاربهم ، وتقوم بجرد ممتلكاتهم ! ! وبقى هارون فى الأنبار ، وعقد بها مجالس الطرب والشراب ، وكان جعفر وقتها يرافقه .

وقد ذكر أنه فى الأيام التى تغير فيها هارون الرشيد على جعفر بن يحيى ، حدث أن فهم جعفر بعضا من هذا التغير ، وذات يوم أفضى به إلى إبراهيم بن المهدى ورجاه أن يصحبه إلى مجلس هرون ويلاحظ بنفسه مدى صحة ظنه من عدمه ! وبالفعل ذهب إبراهيم إلى مجلس الخليفة وجلس فترة ثم خرج من دار الخلافة قبل جعفر وذهب إلى خميلة من الأشجار كانت على رأس الطريق واختبأ بينها ، ولما انفض المجلس سار جعفر أيضاً فى طريقه ، فلما بلغ تلك الأشجار نادى إبراهيم ، واقترب منه إبراهيم فقال له جعفر : قل لى كيف وجدت شعور الخليفة نحوى ؟ فقال إبراهيم : قل لى أولا كيف عرفت أننى توقفت بين هذه الأشجار ؟ فأجابه قائلا : نظرا لأننى أحسست باهتمامك البالغ بأمورى فقد عرفت بخبرتى أنك لن تعود إلى بيتك مالم تخبرنى عما لاحظته ، ولا يوجد مكان فى هذا الطريق يمكن الاختباء فيه سوى هذه الأشجار ! ! فقال إبراهيم : حقا ماقلته هو ماحدث . وأما ما لاحظته أنا فهو أن الخليفة يبدى عدم اهتمامه بك كلية ، وربما يقبض عليك قريبا بسبب غضبه لأن كل كلام جاد كنت تقوله اليوم كان الرشيد يجيب عليه على سبيل المزاح ، وماكنت تقوله على سبيل المزاح كان يأخذه مأخذ الجد ، وهذا المسلك دليل قوى على عدم رضائه عنك . .

[٥٢] والخلاصة أنه حينما تعددت أسباب نكبة البرامكة طلب الرشيد خادمه ياسر في غرة صفر عام ١٨٧ هـ وقال له : إنني أكلفك بمهمة عليك بتنفيذها في الحال وإلا فسوف يلحقك غضبي ؟ فقال ياسر : ياأمير المؤمنين .

مصرع :

« واجب على أن أفعل ماتريد »

قال الرشيد : اذهب وائتني برأس جعفر البرمكي ؟ فارتعدت ، فرائص ياسر بسماع هذا الكلام ودهش ، فشدد هارون القول مرة أخرى وقال : إذا لم تنفذ ذلك فسوف يحل عليك قهري وسخطي . . وعند ذلك توجه ياسر إلى منزل جعفر ودخل مجلسه دون استئذان ، فدب الخوف في نفس جعفر وسأله عن سبب مجيئه فأبلغه ياسر أمر الخليفة ، فقال له جعفر : كثيرا ماترد بعض الأقوال على لسان الخليفة من أثر السكر والآن عد وقل له : لقد قتلت جعفرا ، وإن وجدته في الصباح نادما فهو المطلوب ، وإلا عليك تنفيذ ماأمرت به ، فرفض ياسر قبول هذا الالتماس ! وذهب معه جعفر قريبا من مجلس الرشيد وقال لياسر : اذهب مرة أخرى لدى أمير المؤمنين فربما يندم على هذا الحكم فدخل ياسر المجلس فسأله الرشيد قائلا : ماذا فعلت ؟ قال : لقد أحضرت رأس جعفر ، وهي الآن بالخارج ، فقال له هارون أرني إياها بسرعة وإلا أمرت بفصل رأسك . وعند ذلك عاد ياسر وفصل رأس إمام أهل الفضل والكرم عن جسده وحملها إلى الرشيد وألقى بها تحت أقدامه .

[٥٣] (ثلاثة أبيات ، ترجمتها)

— أين ذاك القلم الذي كان ينثر الدر في كفه

— وأين ذاك الحديث الذي كان من أنفاسه تميمة للروح

— أين ذاك الشخص الذي كان الفلك الكهل

— في مديحه لسانا مستقيما كشعاع الشمس

— كاد الخلق يوم وفاته أن يحترقوا حزنا عليه

— فكانت زوارق النار تسبح فوق بحار الدمع

وقد ذكر بعض المؤرخين أن هارون قال لياسر بعد مقتل جعفر : ائتني بفلان

وفلان . ولما وصل هؤلاء الناس إلى الرشيد قال لهم : اقطعوا رقبة ياسر لأنى لا أحتمل رؤية قاتل جعفر . فنفذوا أوامره .

وكان عمر جعفر سبعة وثلاثين عاما وكانت فترة عظمته ونيابته سبعة عشر عاما وبعض العام .

والخلاصة أنه حينما قتل جعفر تم أسر يحي والفضل بل تم أسر جميع البرامكة وتم حبسهم ، وفى رواية أخرى قد تم قتلهم أيضا ، ويقال إنهم حملوا جثة جعفر — بأمر الرشيد — من الأنبار إلى بغداد ، وعلقوها على رأس جسر ثم أحرقوها بعد بضعة أيام . ومن أغرب الوقائع التى أوردها المؤرخون فى مؤلفاتهم ماذكر على لسان أحد الكتاب الذى يقول : لقد وقع نظرى ذات يوم على دفتر مصروفات هارون الرشيد فرأيت فى إحدى الصفحات أنه صرف فى اليوم الفلانى — بأمر الخليفة — إلى أبى الفضل جعفر بن يحي — أدام الله كرامته — الكثير من الذهب والفضة والكساء والفراش والعطور على سبيل الإنعام ، وبعد أن جمعت ثمنها وجدته ثلاثين ألف ألف درهم ، كما شاهدت فى صفحة أخرى [٥٤] أن ثمن الغاز والوقود الذى أحرقوا به جثة جعفر بن يحي قيمته أربعة دراهم ونصف لاغير . « فاعتبروا ياأولى الأبصار »[1] .

(رباعى ، ترجمته)

— أيها الغر : لو قدر لك أن ترضع يوما من ثدى الحرص والطمع ..

— لبن الجاه والإقبال

— فلا تغتر بكمال مجدك فى فراش العمر

— وتذكر عهد عظماء البرامكة !

وذكر فى جامع الحكايات أن هرون الرشيد بعد قضائه على البرامكة أمر أن لايتحدث أحد من الناس بمدحهم وأن لايسجل إنسان مآثرهم وعطاياهم ، وبعد فترة جاء شخص يقول للخليفة إن هناك شيخا يأتى كل ليلة ويجلس على مقعد أمام منازل البرامكة ويتحدث بأفضالهم على مسمع من الناس ، فغضب هارون وأمر

(١) سورة الحشر ، آية «٢» .

بإحضار هذا الشيخ فأتى رجاله فى الحال بالشيخ وقدموه له فأصدر الأمر بقتله ، فقال الشيخ الفقير للخليفة : أيها الخليفة إنى آمل أن تعطينى فرصة أعرض عليك فيها بعضا من أحوالى وعندئذ تحكم بما يقتضيه رأيك الصائب ، فقال له الخليفة : قل ، قال الشيخ : أنا المنذر بن المغيرة الدمشقى ، وكان آبائى وأجدادى من عظماء الشام ، ثم تبدلت عظمتى ومكانتى بالشام بسبب أحداث الزمن وتقلبات الأيام ، واضطررت للرحيل عن وطنى مع أسرتى وأولادى وجئت إلى بغداد بعد احتمالى شتى المحن والآلام ، وتركت أسرتى وأطفالى فى أحد المساجد وخرجت على أمل أن أجد شخصا يؤوينى إلى جواره ، فلما بلغت وسط السوق رأيت [٥٥] جمعا من الكبراء يمرون كل بصحبة آخر ، فقلت لنفسى لابد أنهم متوجهون لحضور حفل ما ، ونظرا لأننى كنت قد وصلت إلى درجة من الجوع ما وجدتنى قادر على احتمالها سرت خلف ذلك الجمع ، وفجأة وصلت إلى قصر عال ، وسمح لى الحارس بالدخول خلف هؤلاء الناس ، وبعد أن دخلت هذا القصر جلست فى ركن من أركانه ، ثم سألت من كان بجانبى قائلا له : من صاحب هذا المنزل ؟ وما سبب هذا الاجتماع ؟ فأجابنى بقوله : هذا منزل الفضل البرمكى ، وسبب الاجتماع حضور عقد قران ، وبعد أن عقد العقد جاء الخدم بأطباق الذهب ووضعوا أمام كل شخص طبقا وأعطونى أيضا طبقا ، وبعدها نثروا عقود الضياع والعقارات بحيث أن كل من يقع فى يده عقدا ، تكون له المزرعة أو العقار المكتوب فيه ، فوقع فى يدى عقدان ثم انفض المجلس ، ولما هممت بالخروج من ذلك القصر أمسك غلام بيدى وأعادنى ، ففكرت بينى وبين نفسى أنه يريد أن يأخذ الذهب والعقود منى ولكنه أخذنى على عكس ماتوقعت إلى الفضل فاستقبلنى الفضل استقبالا حسناً وقال لى : لقد رأيتك غريبا بين هؤلاء الناس فأردت أن أعرف بعضا عن أحوالك ، فقل لى من أين أتيت ، وكيف دخلت هذا المجلس ؟ فقصصت عليه قصتى الأليمة من أولها إلى آخرها فقال الفضل : وأين يقيم أهلك الآن ؟ قلت له فى المسجد الفلانى ، فقال : لاتحزن فسوف أهيئ لك مايريح نفسك ! ! وبعد ذلك نادى غلاماً وهمس له ببضع كلمات فى أذنه ثم ألبسنى لباساً فاخراً وشملنى فى ذلك اليوم ببالغ عنايته ، وفى المساء رفضت كل [٥٦] محاولة لإبقائى . وقلت له : إن أطفالى عراة جياع فى المسجد ، فلم يسمح لى بالرحيل ثم أذن لى بالرحيل فى اليوم التالى ، وكلف خادما بمرافقتى ، ولما طلبت

أن أذهب إلى ذلك المسجد منعنى ثم أخذنى إلى قصر عظيم حيث وجدت أسرتى هناك فسألتهم : من أتى بكم إلى هنا ؟ فأجابونى قائلين : حدث أمس وعند صلاة الفجر أن جاءت جماعة إلى المسجد وأخذونا إلى هذا القصر وقدموا لنا مختلف الأصناف من المأكل والملبس ، فحمدت الله وشكرته ، وبعد ذلك كنت ألازم البرامكة وأشيد بكثرة إنعامهم وإحسانهم ، والآن أيها الخليفة لو لم أتناول هذه الجماعة بالمدح والثناء لكنت من الكافرين بالنعمة وحق على الخذلان فى الدنيا والآخرة . فلما سمع هارون الرشيد هذه القصة سالت من عينيه الدموع وأنعم بألف دينار من الذهب على الشيخ ثم أفرج عنه ، وعند ذلك قبل الشيخ الأرض قائلا : هذا أيضا يا مولاى من بركات البرامكة .

ومن مضمون هذه القصة يتضح لأهل الخبرة والدراية أن كل عظيم — عندما تقبل الدنيا عليه بخيراتها — تجعل من الكرم والإحسان شعارا له ، ويعمل بقدر ما يستطيع على مساعدة الفقراء والمساكين لن يمحى اسمه أبدا من سجلات الوجود مهما انقضت الشهور والأعوام ولن تزول ذكراه الطيبة فى الدنيا بمرور الليالى والأيام.

(رباعى ، ترجمته)

— يامن أصبحت فى مصاف النجوم برأيك الصائب
— ويامن انتقلت شهرتك بجودك بين الناس كالرياح
— لن يغيب اسمك من سجلات الوجود
— مهما حدث من تقلبات الأيام والدهور

[٥٧] الوزير الفضل بن الربيع :

بعد غروب شمس دولة البرامكة بلغ كوكب الفضل بن الربيع الآفاق وعينه الرشيد فى منصب الوزارة ، ولما جاء هارون مرض الموت فى ولاية طوس ، وعجز وزيرها عن تدبير الموقف الطارئ استدعى هارون الفضل ، وقال له : كل ما يخصنى من مال ومتاع وسلطان يئول كله للمأمون ، وعليك أن تعمل على تسليمه له دون نقصان ، ولكنه حينما توفى الرشيد جلس محمد الأمين على عرش الخلافة فى بغداد ، وبعث إلى الفضل بن الربيع برسول يقول له : اجمع كل متعلقات الرشيد وتوجه بسرعة إلى بغداد . فنفذ الفضل هذا الأمر وأخذ طريقه إلى بغداد ، وبلغ المأمون

هذا الخبر فى مرو فأرسل على وجه السرعة برسول إلى الفضل يقول له : لماذا تتصرف على خلاف وصية الرشيد وتأخذ حقوقى معك ؟ ولحق الرسول بالفضل فى نيسابور ولكنه عاد بلا فائدة .. ولما دخل الفضل دار السلام بغداد لقى الحظوة من الخليفة حيث وضع محمد الأمين زمام أمور الملك والمال فى يديه الخبيرتين وتفرغ هو لمجالس النساء وركوب الخيل ولعب الصولجان ولم يهتم اطلاقاً بإدارة الحكم وكسب ثقة الجيش والرعية ، فلاشك أن جال بخاطر الفضل بن الربيع أنه ، لو يظل الأمر على هذا الحال فإن المأمون سوف يتمكن من الحصول على الخلافة فى أقرب وقت وينتقم منى ، ولذلك أخذ يفكر ويدبر ثم انفرد بالأمين [٥٨] وقال له : إن مصلحتك هى فى أن تستدعى المأمون والمؤتمن لديك وتخلعهما من ولاية العرش وتجعل ابنك موسى وليا للعهد ! ! فوضع محمد الأمين هذا الأمر موضع اهتمامه وعزم على تنفيذه ، ففى عام ١٩٤ هـ بعث رجاله فى طلب الآخوين فأطاع المؤتمن — وكان واليا على ولاية الجزيرة — أخاه الأكبر وذهب إلى بغداد ، ولكن المأمون رفض التوجه إلى بغداد ، ولهذا السبب بدأت الخلافات بين الأخوين وانتهى الأمر بمقتل محمد الأمين على يد طاهر ذى اليمينين الذى كان قد توجه إلى بغداد على رأس جيش بأمر المأمون ، وبهذا استقرت الخلافة للمأمون ، فكلف شاهك — وكان من عظماء دولته — بالبحث عن الفضل ، وكان الفضل بن الربيع يختفى منذ مدة طويلة فى أحد المخابىء لدرجة أن (شاهك) لم يوفق فى الوصول إليه مع كثرة البحث عنه ، وفى تلك الأثناء حمل الفضل ذات يوم جوالا على ظهره وخرج — على هيئة الحمالين — من مخبئه حتى ينتقل إلى مخبأ آخر ، وفى إحدى حوارى بغداد تصادف أن التقى به اثنان من الفرسان أحدهما مترجلا والآخر راكباً ، فعرفه المترجل وأخبر الراكب ، فطمع الفارس فى القبض على الفضل فتعقبه بفرسه ، ولما اقترب منه حرك الفضل الجوال فجفل الفرس من تلك الحركة وسقط الفارس على الأرض .

(بيت ، ترجمته)

— إذا لم تشملك عناية الله

—، فلن تستطيع أن تحقق الآمال ! !

وجملة القول أن الفضل أسرع كالبرق والريح وأخذ يجرى فى الحوارى حتى

رأى عجوزاً كانت واقفة أمام باب منزلها فقال لها متوسلا : أماه ، هل يمكنك أن تخفيني يومين أو ثلاثة بمنزلك ؟ فقالت له العجوز : بكل سرور . وأدخلته منزلها وأجلسته فى أعلى المنزل ، وبعد لحظة جاء نفس الفارس الذى كان يريد القبض على الفضل إلى ذلك المنزل وقال للعجوز : لقد قابلنى اليوم الفضل بن الربيع ولما هممت بالقبض عليه — لسوء حظى — جفل حصانى واتخذ هو طريقه هرباً ، ولو أمكننى الإمساك به فسوف يكافئنى الخليفة بالأموال الكثيرة وحينما سمع الفضل هذه القصة كادت روحه أن تفارق جسده وعطس فسأل الفارس العجوز : من يوجد فى أعلى المنزل ؟ فأجابته : إنه ابن أخى جاء من سفر استغرق بضع سنوات ونظراً لأن قطاع الطرق هاجموه فى أحد المناطق وسرقوا ملابسه فإنه يجلس عارياً فى المنزل ويخجل أن يلقاك عاريا ، فقال لها الفارس : ألبسيه جلبابى هذا وقولى له : يأتى للقائى ، فقالت العجوز : شكرا لك .. وأرجوك أن تأخذ خاتمى وترهنه بالسوق وتأتى له ببعض الطعام حتى تنطفئ نيران جوعه لأنه لم يذق الطعام منذ بضعة أيام ، وبعد ذلك يمكنه أن يأتى للقائك ، فقال الفارس : لا مانع وأخذ الخاتم وخرج ، وعند ذلك توجهت العجوز للفضل وقالت له : أيها الشيخ هل أنت الرجل الهارب ؟ قال : نعم. قالت اذن فانهض [٦٠] وغط رأسك واهرب. فخرج الفضل من عندها مضطربا وأخذ يسير بلاهدف ويتجول فى محلات بغداد فوصل فجأة إلى أبواب قصر عال ، ووقف هناك فترة ليستريح ، وكان ذلك القصر قصر شاهك الذى وصل فى تلك اللحظة إلى هناك فرأى صيده المطلوب أسيرا فى مصيدته فقال له : يافضل كيف جئت إلى هنا ؟ فأجابه الفضل : لقد أخذنى القضاء والقدر وأتى بى إلى هنا دون ما اختيار منى .

(بيت ترجمته)

— لو يستطيع المرء الهرب من العدالة

، — فإن يد القضاء والقدر تلحق به أينما ذهب

فأشفق شاهك على حاله وحدثه ببشاشة وأدخله منزله وقدم له الطعام فقال له الفضل : بأى أمل أتناول هذا الطعام ؟ قال له شاهك : بأمل الفضل والرحمة ! ! وهنا تناول الفضل الطعام ، وبعد أن قضى ثلاثة أيام فى ضيافة شاهك أذن له بالانصراف

فقصد تاجراً كان قد أنعم عليه الفضل بالكثير من المنافع عندما كان وزيرا ، وبعد وصوله أدخله التاجر منزله ووضعه فى مكان مناسب، وأسرع على الفور إلى دار الخلافة وأبلغ المأمون بما حدث ، وعلى ذلك توجه شاهك إلى منزل التاجر ممتطيا جواده وقبض على الفضل وقدمه للخليفة . ويقولون إنه حينما رأى المأمون الفضل ابن الربيع قام وصلى ركعتين لله ثم قال للفضل : يافضل ، لقد أديت هذه الصلاة شكرا لله لأنه- سبحانه وتعالى- جاء بك إلى وهدانى حتى عفوت عنك وتجاوزت عن جريمتك .

[٦١] (بيتان ، ترجمتها)

— لن أستل سيف الظلم من غمده
— ولن أنتقم أبداً من أى مذنب
— فالانتقام ليس من طبيعتى ، أما
— العفو عن المذنبين فهو شعارى

ثم قال : يا فضل اقصص على بعضاً من غرائب ما صادفت أثناء اختفائك ؟ فقص له الفضل قصته المذكورة بالتفصيل ، فأعجب المأمون بمروءة العجوز وبعث إليها بمبلغ من الذهب ، وشكر شاهك وأثنى عليه ، وضرب مثلا بالتاجر حيث طرده .

(بيتان ترجمتها)

— اسعد يامن صنعت اللطف والطيبة
— ويامن يشمل سلطانك الرفيع والوضيع
— وتجاوز دائما بمروءتك عن ذنوب المذنبين
— فليس هناك أفضل من العفو والمروءة

وبعد أن تم العفو عن الفضل أخذ يمضى أيامه كسائر العباد فى دار السلام بغداد حتى وافاه أجله الموعود . « ذلك فضل الله يؤتيه [١] من يشاء » .

(١) سورة الحديد ، آية « ٢١ » .

الوزير الفضل بن سهل :

نقل بعض رواة الأخبار بأن الفضل كان فى بداية حياته يقوم بعبادة النار إلى أن أضاء الله سريرته فجأة ، ونقله من بادية الظلمة والضلال إلى طريق النور والهداية وجعله يلازم أحد كبراء القوم الذى جعله ينطق – بفضل الله – بكلمة التوحيد الطاهرة . ونقل أيضا أنه فى الوقت الذى تقلد فيه الفضل قلادة الإسلام كان لسانه لا يزال [٦٢] يردد بعض حركات المجوس ، فسأل أحد الحاضرين قائلا له : لماذا تردد هذه الحركات ؟ فأجابه قائلا : لا أحب أن تنقضى طرفة عين من حياتى ولا أكون فيه ملتزما بدين .

وقصة الفضل كما يرويها المؤرخون العظام أنه كان يتصف بالفضل والحكمة ويعرف بالعقل والفطنة ، ويشتهر بمعرفته علم دقائق النجوم بجانب الوقوف على حقيقة سائر العلوم . وعمل بخدمة المأمون فى مرو ، واختار طريق ملازمته ، وبعد فترة قصيرة عينه المأمون وزيرا له ، وأخذ يعلى من مكانته يوما بعد يوم بفضل رأيه السديد وتدبيره الصائب ، فعلا جاهه وسلطانه ساعة بعد أخرى حتى تولى أيضا منصب الإدارة واستقل بإدارة الملك والمال ، ولذلك لقبوه بصاحب الرياستين .

ومن المقطوع بصحته حينما حمل الفضل بن ربيع جميع متعلقات هارون الرشيد إلى بغداد والتى كان يجب أن يسلمها للمأمون بناء على وصية الرشيد، ولم يعبأ برسل المأمون أو رسالته . قال الفضل بن سهل للمأمون : إنه لا يمكن لك الاعتماد بعد ذلك على عهود ومواثيق أهل بغداد لأنهم فى البداية تنكروا لوصية الرشيد ، وتصرفوا فى حقوقك ! ومن الجدير بك الآن أن تشمل أهل العالم جميعا بعدلك ، ومن أجل حبهم تبذل ما فى وسعك ، وتجلس كل يوم فى ديوان المظالم بنفسك ! تأخذ للمظلوم حقه من الظالم حتى ترسخ محبتك فى قلب الصغير والكبير والغنى والفقير إن شاء الله .

[٦٣] (بيت ، ترجمته)

– بهذه الطريقة يكون عدل الحكام وجودهم

– وترى بسببها كل عظيم فى طاعة وولاء لهم

---

(١) نشر الدكتور أكرم بهرامى بحثا قيما عن أسرة سهل ودورها فى العصر العباسى بمجلة « وحيد العدد رقم ١١١ ، ١١٢ لسنة ١٩٧٢ م .

وطبقا لهذا تصرف المأمون ، وجعل جميع الخلائق يبتهجون بنعمه وإحسانه ، وعمل من أجل نشر العدل والإنصاف ، وخصص جزءا من الخراج للإنعام به على المستحقين من الرعايا .

(بيتان ، ترجمتها)

— لقد نعمت الدنيا بعدله وإحسانه

— ، ووقف بنفسه على أمور رعيته

— وجعل الفقير غنيا بجوده وعطائه

— ، وطرد الكراهية من القلوب بعدله وإنصافه

وحينما صمم محمد الأمين على خلع المأمون — بغواية الفضل بن الربيع — وبعث بالرسل والرسائل المتعاقبة إلى مرو لطلب المأمون ، وكان المأمون يتردد بين البقاء والذهاب ، منعه الفضل بن سهل من التوجه الى بغداد وقال له : يبدو من تحركات الكواكب أنك سوف تنتصر على الأمين، وتصبح جميع ممالك العالم تحت حكمك ! !

(بيت ، ترجمته)

— انى أراك من طالعك ،

— ، متقلدا عرش الخلافة

فاحذر أن تترك زمام الاختيار من بين يديك ، وابق فى هذه الولاية ولا تفكر فى الذهاب إلى بغداد ! وبناء على نصيحة الفضل تصرف المأمون فكلما ألح الأمين فى طلبه لم يستجب له ، ولهذا السبب اشتد الخلاف والنزاع بين الجانبين وعلت أصوات السيوف وفى النهاية قتل الأمين على يد طاهر ذى اليمينين الذى كان قد تحرك بأمر المأمون على رأس جيش إلى بغداد لمقاتلة الأمين . وبعد أن علم المأمون بمقتل الأمين عين الحسن بن سهل شقيق صاحب الرياستين أميرا على العراقين وفارس واليمن والحجاز ، وفى عام ١٩٧ هـ وصل الحسن بن سهل إلى بغداد ، وبعث بعماله إلى الولايات ، انتشر فى العراق خبر أن ذا الرياستين استولى على قلب المأمون وتركه فى مكان منعزل ولا يسمح لأحد من الأمراء بلقائه ، ويفصل هو فى أمور الملك والمال دون استشارة المأمون ، وبناء على هذا استنفر عظماء بنى هاشم وأعيان

العراق والحجاز من خلافة المأمون ، وظهرت الفتن فى كل مكان ، وثار محمد ابن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الذى يسمونه طباطبا وآخرون من السادات فى ولايات العراق والحجاز ، ووجدت الفوضى طريقها فى البلاد وبين العباد ، ونظرا لأن مختلف فئات الشعب كانوا يأنفون من الولاء للحسن بن سهل فقد أخذت عوامل الفتنة والفساد فى الازدياد يوما بعد يوم ، وبسبب ذلك توجه هرثمة بن أعين — وكان من الأمراء العظام — إلى خراسان دون مشورة الحسن حتى يبلغ المأمون بأن أهل العراق — بسبب كراهيتهم للحسن — لا يقبلون إمارته ، ولذلك فهم يثيرون الفتن فى كل لحظة . وخشى الحسن من هذا الأمر فبعث إلى أخيه بخطاب يتضمن رأيه ، فتصرف الفضل بخبث عند المأمون وقال له : إن هرثمة اشترك مع بعض قادة العراق فى العصيان ، فتغيرت نفس المأمون على هرثمة وسجنه فى نفس اليوم الذى وصل فيه إلى مرو ثم قتل بعد ذلك بإيعاز من الفضل فى نفس السجن .

[٦٥] وقد نقل أنه فى عام ٢٠٠ هـ حينما قدم هرثمة بن أعين من العراق الى خراسان كانت الأحوال فى ممالك العرب قد ساءت أكثر من ذى قبل ، ورفع إبراهيم ابن موسى الكاظم عليه السلام راية العصيان وثار على نظام الحكم فى اليمن ، كما استولى حسين بن حسن الأفطس العلوى على مكة وأجلس محمد بن جعفر الصادق حاكما لها ، وقد ضاق الحسن بن سهل بهذه الأحداث فانتقل من بغداد الى المدائن . ولما انتقل خبر ماجرى لهرثمة إلى بغداد ثار الجنود والأمراء وأخرجوا عمال الحسن من المدينة ، ونصبوا المنصور بن المهدى أميرا عليهم فى عام ٢٠١ هـ ، وخرجوا عن طاعة الحسن ، ولم يعطوه الفرصة للبقاء فى المدائن فغادرها مسرعا إلى واسط ، وهذه الأخبار وصلت على التوالى إلى مرو ولكن الفضل بن سهل لم يبلغ ما حدث لأخيه الى المأمون وكان يقول له : لقد تمرد العلويون فى كل بلد من بلاد العرب مطالبين بالخلافة ، ولو لم يتم التصرف فى هذا الأمر الخطير فإن الزمام سوف يفلت من يديك ، فتصرف المأمون بمقتضى الآية الكريمة « وشاورهم فى الأمر [1] » فى معالجة هذه الأحداث ، واستقر الأمر — حسب مارآه صاحب الرياستين — بأن

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٥٩ » .

بجعل أحد كبراء أهل فاطمة وليا على العهد حتى يرضى جميع السادات ولا يعملوا بعد ذلك على إشعال جذوة الخلاف . وبعد دراسة الأمر وقعت القرعة على الإمام العظيم على بن [٦٦] موسى الرضا عليهما السلام لتولى هذا المنصب ، فأرسل المأمون خاله رجاء بن أبى الضحاك إلى المدينة أو بغداد – وكانت موطنا للإمام الثامن – حتى يأتى بحضرته معززاً مكرماً إلى مرو .. وأخذ البيعة لذلك الإمام رفيع المقام فى العام المذكور من معظم أكابر القوم وأسافلهم ، وقد سعد جميع ساكنى المعمورة واغتبطوا لسماع هذا الخبر باستثناء جماعة من بنى العباس وأتباعهم كانوا يسيطرون على بغداد ، فحينما علمت تلك الجماعة بهذه البيعة أنكروها على المأمون وقالوا له : إنه ليس ابن الرشيد ، وقد حرمت أولادك بهذا التصرف من نعمة الخلافة ! وعندئذ نصبوا إبراهيم بن المهدى خليفة وعقدوا البيعة له ، فدارت حروب كثيرة بين إبراهيم والحسن بن سهل انتصر إبراهيم فيها جميعا ، ولما بلغ المأمون خبر البيعة لإبراهيم سأل ذا الرياستين قائلا له : كيف تمت البيعة لإبراهيم ؟ فأجابه الفضل بقوله : إن الناس نصبوا إبراهيم للولاية وليس للخلافة .

ومن الثابت انه لما استقر الأمر لإبراهيم فى بغداد ، وحاول الفضل بن سهل كتمان ذلك الأمر اختلى الإمام الثامن عليه الصلاة والسلام فى عام ٢٠٢ هـ بالمأمون وقص عليه أحداث العراق والحجاز بالتفصيل من بداية إمارة الحسن بن سهل حتى ذلك الوقت ، وأطلعه على حقيقة الخلافة وعصيان إبراهيم ثم قال له : إن الفضل يخفى عنك هذه الأمور لمصلحة أخيه . فلاشك أن توجه المأمون إلى بغداد ، فلما بلغ [٦٧] سرخس حدث أن دخل صاحب الرياستين ذات يوم الحمام وقصد نفسه لأنه كان قد عرف من حركة النجوم أن دمه سوف يسفك فى ذلك اليوم ظاناً منه بأن التدبير الإنسانى يمكن أن يدفع التدبير الإلهى ولكنه حدث ساعتها أن استل غالب بن الأسود السعودى وقسطنطين الرومى وفرخ الديلمى وموفق الصقلبى سيوفهم وهووا بها على رأس الفضل وقتلوه وهربوا ، وتظاهر المأمون بالحزن وأمر بالقبض على القتلة فقبض عليهم أبو العباس الدينورى وسلمهم للمأمون فسألهم المأمون : لماذا أقدمتم على ارتكاب هذا العمل ؟ فأجابوه بقولهم : خف الله أيها الخليفة .. إنك أنت الذى أمرتنا بهذا ! ولكن المأمون لم يعبأ بكلامهم ، وأمر بقتلهم ، وبعث برءوس

الأربعة إلى الحسن بن سهل ، وسأل والدته ـ وكانت عجوزا ضعيفة ـ التحلى بالصبر ، ونظرا لأن تلك العجوز كانت دائمة الحزن والبكاء والنواح فقد نصحها بقوله : لقد نال الفضل رحمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فتوقفى عن الجزع والبكاء فأنا ابنك عوضا عنه ، وسوف أؤدى لك حقوق البنوة بدلا منه طيلة العمر ، فأجابته العجوز بقولها : كيف لا أفزع ياخليفة على وفاة إنسان يكون لى بفقده ابن مثلك ؟ ! وفارقت الحياة بعد أن سمع المأمون قولها :

[٦٨] الوزير الحسن بن سهل :

بعد مقتل الفضل ووصول المأمون إلى بغداد تولى الحسن الوزارة وحل محل أخيه الفضل ، وذلك بناء على ما رواه صاحب جامع الحكايات وجامع التاريخ ، وفى عام ٢٠٩ هـ تزوج المأمون ببوران ابنة الحسن ، وأقام الحسن لذلك حفلا فى غاية من الروعة والجمال ، أغدق فيه النعم والعطايا الوفيرة على العامة والخاصة بصورة لايتصور مثلها الخيال .. ثم توفى الحسن فى عام ٢٦٣ هـ فى عصر الخليفة المتوكل :

الوزير أحمد بن أبى خالد :

أحمد بن يوسف ، أبو عباد ثابت بن يحيى للرازى ، أبوعبد الله محمد(١)

بناء على أصح الروايات فإن المأمون فوض إلى أحمد بن أبى خالد إدارة شئون الوزارة بعد مقتل ذى الرياستين . وقد بلغ أحمد مكانة عالية خلال فترة وجيزة حيث اشترك أيضا فى شئون إدارة شئون الملك ، ولكن لم يتضح عن أحواله أكثر من هذا . وجاء أيضا فى جامع التواريخ أن أحمد بن يوسف وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازى وأبا عبد الله محمد كانوا من بين وزراء المأمون (٢) ، والله أعلم بالصواب :

الوزير الفضل بن مروان :

وصل الفضل بن مروان ـ حسب رواية بعض المؤرخين ـ إلى منصب الوزارة فى عهد المعتصم ، وقضى فترة من [٦٩] الزمن مضطلعا بإدارة ذلك المنصب الخطير :. وجاء فى جامع الحكايات أن الفضل بن مروان أثناء توليه الوزارة . أراد أن يستضيف

---

(١) أصل النص بن يوسف بن أبى عياد وثابت بن يحيى الرازى ، وأبى عبد الله ابن محمد .

(٢) أضيفت عبارة « عليه اللعنة » فى الأصل .

الخليفة لحضور وثاقه حتى تزداد بهذا منزلته وترتفع مكانته ، وعن طريق بعض المقربين من النواب أبلغ هذه الرغبة إلى الخليفة ، فقبل المعتصم ذلك الالتماس ، فأعد الفضل حفلا رائعاً بمنزله زوده بكل ما أمكنه من ألوان الجمال مثل المفروشات المطرزة بالذهب والأوانى الذهبية والفضية المرصعة بالدرر واللآلى الثمينة .

(بيت ، ترجمته)

— وضع أمام المعتصم فى ذلك الحفل

— ، كل ما كان معروفا من ألوان الجمال ؟

ولما وقعت عين الخليفة على تلك الأشياء النفيسة ظن — بينه وبين نفسه — أن الفضل قد أنفق من أمواله على ذلك الحفل الكبير ، واشتعلت نيران الغضب داخله فتعلل بسبب من الأسباب وركب على الفور وغادر الحفل ، وانتوى فى نفسه القبض على الوزير ، وعندما رأى الفضل ماجرى غرق فى بحار الحيرة ، وأفضى بصورة ماحدث إلى إبراهيم الموصلى — وكان أمام عصره فى الفراسة والكياسة — فقال له إبراهيم : مصلحتك هى فى أن تتوجه الآن وعلى الفور للقاء الخليفة ، وأقوم أنا بكتابة ورقة أبعث بها إليك فى مجلسه ، وعندما يسألك الخليفة قائلا لك : ماهذه الورقة ؟ قل له : إن هذه الورقة كتبها خزنة بلاط الخلافة من أجل طلب مستلزمات الحفل والتى كنت قد أخذتها اليوم على سبيل القرض . وبالفعل تصرف الفضل [٧٠] على هذا الأساس ، ولماسمع المعتصم تلك القصة صدقها ، وصفت نفسه بفضل هذا التدبير الصائب ، وسارع الفضل بن مروان إلى منزله آمنا .

(بيتان ، ترجمتها)

— لا غنى للوزارة عن المعرفة والحنكة

— ، فسعادة الحظ تتحقق بفضل تدبير الشيوخ

— وكل أمر يبدو عويصا

— ، يحل بسهولة بحسن التدبير

الوزير محمد بن عبد الملك الزيات :

وكان من مشاهير الوزراء العظام ، وزاول هذا العمل العظيم أيام خلافة المعتصم بالله ، ولما توفى وتولى الخلافة ابنه الواثق أسند أيضا منصب الوزارة إلى محمد ، ولما

توفى الواثق أراد محمد بن عبد الملك بالاتفاق مع أحمد بن أبى داود أن يجلسا محمد ابن الواثق على عرش الخلافة فقال لهما وصيفه التركى : ألا تشعران بالخجل بمحاولتكما تنصيب خليفة لا تصح حتى الآن الصلاة وراءه ؟ ولقى هذا القول قبولا لدى الناس فعقد أكابر القوم البيعة لجعفر بن المعتصم ولقبوه بالمتوكل على الله ، وفى عام ٢٣٥ هـ قتل المتوكل محمد بن عبد الملك وأسند منصب الوزارة إلى الفتح بن خاقان .

الوزير الفتح بن خاقان :

فى عام ٢٣٦ هـ لقى الفتح حظوة عظيمة لدى المتوكل وصار صاحب الأمر والنهى فى شئون الملك والحال ، [٧١] وأصبحت أعتابه قبلة للكبار والصغار ، ولما مضى أحد عشر عاماً تقريبا فى الرفعة والسلطان حدث مساء الأربعاء الموافق الرابع من شهر شوال عام ٢٤٧ هـ وفى مكان كان يجلس فيه مع الخليفة يحتسى كئوس الشراب أن دخل المجلس فجأة وقاء الصغير وموسى بن وقاء الكبير وباغر وبلغور ، حاملين سيوفا ماضية وتوجهوا بها ناحية الخليفة ، فنهض الفتح وألقى بنفسه فوق الخليفة ، فقامت الجماعة المذكورة بالقضاء عليهما .. ويذكر صاحب تاريخ بناكتى بأن المتوكل كان له وزير آخر يدعى أباالوزير ، كما جاء أيضا فى جامع الحكايات أن موسى ابن عبد الملك كان من بين وزراء المتوكل .

الوزير أحمد بن الخصيب القاسمى :

حينما تولى المنتصر الخلافة أسند منصب الوزارة لأحمد بن الخصيب الذى كان من كبراء عصره ، وتولى أحمد هذا المنصب لمدة من الزمن فى حرية واستقلال ، وجاء فى جامع التواريخ أن أحمد بن الخصيب — الذى كان من كبراء عصره وكان يتصف بالفضل والجود والسخاء والشجاعة — كانت تسيطر عليه صفات الصرامة والتسرع والغضب ، وذات يوم كان يسير فى أحد الأماكن الضيقة قابله سائل سأله حاجة وألح عليه فى طلبها فغضب أحمد ، ولشدة انفعاله أخرج قدمه من الركاب وركل بها السائل الفقير على صدره ، وذاعت هذه الواقعة بين الناس ، فنظم أحد الشعراء بهذه المناسبة القطعة التالية :

[٧٢] قل للخليفة : يا بن عم محمد　　أشكل وزيرك إنه ركّال
قد نال من أعراضنا بلسانه　　ولرجله عند الصدور مجال

ولهذا السبب تم عزل أحمد من منصب الوزارة .

فمن اللائق أن يجعل صاحب هذا المنصب شعاره الحلم والوقار ، ويتخلى عن صفات الخفة والصرامة وسرعة الغضب ، وألا يتجاوز — فى أى حال من الأحوال — معنى الحديث « العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمن » ، وأن يجعل دائما نصب عينيه فحوى الآية الكريمة « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس (١) » .

(بيتان ، ترجمتها)

— لاتكن حاداً صارماً مع السائلين
— لأن هذا المسلك غير محمود لدى الأخيار
— ولا يليق أن يصدر عن المسئولين
— سوى حسن الخلق ومداراة الناس

الوزيران أحمد بن صالح بن شيرزاد وجعفر بن محمد :

وكانا من وزراء الخليفة المستعين بالله .

الوزيران أحمد بن اسرائيل ، ومحمد بن أبى الشوارب البغدادى :

وكانا من وزراء الخليفة المعتز بالله .

الوزراء عبد الله بن يحيى بن خاقان ، وحسن بن مخلد ، وسليمان بن وهب ، وصاعد بن مخلد :

وكانوا من وزراء الخليفة المعتمد على الله .

[٧٣] الوزير عبيد الله بن سليمان :

وكان يتولى الوزارة للمعتضد بالله ، وكان يعرف بالتعقل والكياسة ويتصف بالفهم والفراسة ، وذكر أنه فى عام ٢٨٤ هـ أراد المعتضد أن يأمر الخطباء بلعن معاوية بن أبى سفيان (٢) فأثناه عبيد الله عن تنفيذ هذا العمل ، وأقنع الخليفة بأدلة موضوعية أن تنفيذ هذا العمل سيتسبب فى اختلال أحوال الخلافة ، وبناء على ذلك صرف المعتضد نظره عن تنفيذ تلك الفكرة .

---

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٣٤ » .

(٢) أضيفت عبارة « عليه اللعنة » فى الأصل .

ومن أطراف الحكايات الحكاية التي نقلها صاحب جامع الحكايات (1) عن عبد الله بن يحيي الكاتب ، ومؤداها : أنه في الفترة التي كان عبيد الله بن سليمان ابن وهب يدير خلالها شئون الوزارة دخل الديوان — ذات يوم — فتى تبدو على وجهه علامات الاضطراب وسلم عبيد الله شكوى ، فنظر عبيد الله في تلك الشكوى وقال لأحد خدمه اعتن بهذا الشخص حتى أقضي حاجته في الوقت المناسب، ولما انفض المجلس ، ولم يبق مع الوزير سوى خاصته وندمائه ، سألهم قائلا : هل تعرفون ذلك الشاب ؟ قالوا : لا . فقال لهم : إنه عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات ، وقد سجن محمد بن عبد الملك — عندما كان يتولى الوزارة — والدي ، وكان يرغمه على دفع أموال كبيرة لاطاقة [٧٤] له بها ، وذات يوم جاءوا بالسجين ليمثل أمامه في الديوان ، وأخذ يقسو عليه في طلب الأموال ويتهدده بالقوة ، وعندئذ خرج أحد الخدم من قصر حريم الوزير وهمس للوزير في أذنه ، فنهض محمد على الفور وأسرع إلى قصر الحريم ، وفي غيبة الوزير قال الحسن بن وهب لوالدي : لقد من الله — سبحانه وتعالى — عليك بولد ، فاستبشر والدي واسماني عبيد الله ، وعاد الوزير في نفس الساعة وقال للحاضرين : هل عرفتم لأي سبب طلبوني؟ قال الحاضرون : قل لنا من فضلك فقال : لقد وهبني الحق — جل وعلا — ابناً وأسميته عمر ! وعند ذلك خاطب والدي بقوله : إنني لأرى علامات الفرح بادية على وجهك ، فماذا حدث؟ فرد عليه عمي قائلا : لقد أخبروه في هذه اللحظة أنه قد رزق بابن أيضا ، ثم قال والدي بعد ذلك في تضرع وخشية : اتعشم — بمناسبة قدوم نجل مخدومي — أن تغفر لي جريمتي ، وتخصص مولودي لخدمة قرة عينك ليصحبه إلى الكتاب فتحقق السعادة لولدي في صحبته . فقال محمد : ياسليمان .. إنك تقول هذه الكلمات من أجل الخلاص من الحبس في الظاهر ، ولكن مايدور بداخلك هو القول « إن ابني سوف يصل بسرعة إلى منصب الوزارة الرفيع ، وسوف يحتاج إليه ابنك ! ! وقد تفاءل والدي بهذا الكلام ، ورد على الوزير وقتها بما يرضيه .

والهدف من ذكر هذه الرواية لكم هو أن نتيجة ذلك التفاؤل قد وضحت الآن وأوصلني الحق — سبحانه وتعالى — إلى هذه المكانة وجعل عمر بن محمد يحتاج إلي .

---

(1) جامع الحكايات « عوفي » باب ١١ ، حكاية ٣٢ ، ص ٢٣ .
طبع طهران ١٣٣٥هـ . ش .

[٧٥] (بيت ، ترجمته)

- كل تفاؤل يأتى عن غير قصد

- ، ويمر مر النجوم يمكن له أن يتحقق

وعندئذ طلب عبيد الله عمر بن محمد واتخذ اللازم نحوه وأسبغ عليه الكثير من نعمه وعطاياه .

الوزير قاسم بن عبيد الله :

وكان يشغل منصب الوزارة فى عهد المكتفى بالله ، وتذكر رواية أخرى انه اشتغل أيضا بالوزارة للمعتضد بالله .

الوزير عباس بن حسن :

وكان ذا شكيمة قوية وهيبة بالغة ، ومكانة تميزه على سائر الوزراء العظام ، وبعد وفاة المكتفى - بإيعاز من عباس - عقد عظماء الدولة وأعيانها البيعة لجعفر ابن أحمد المعتضد ولقبوه بالمقتدر بالله ، ولما كان المقتدر فى الثالثة عشرة من عمره فى ذلك الوقت فقد أطلق العامة والخاصة ألسنتهم بالقيل والقال ، وندم عباس هو الآخر على فعلته ، وأراد أن يجلس أبا عبد الله محمد بن المعتمد على عرش الخلافة ، ولكن الإرادة الإلهية لما كانت قد تعلقت بخلافة المقتدر فقد توفى محمد فى ذلك الوقت ، وعندئذ عزم عباس على أن يجعل أحد أبناء المتوكل -وكان يسمى أبا الحسن- خليفة ، ولكنه لحق هو الآخر- بقدرة من الله - سبحانه وتعالى - بمحمد . وفى عام ٢٩٦ ه قتل حسين بن حمدان - وكان من [٧٦] عظماء دولة العباسيين - عباس بن حسن دون سبب واضح ، وتقرر - بمساعدة بعض الأمراء - إسناد الخلافة إلى عبد الله بن المعتز ولقب بالمرتضى بالله ، فبذل جهده من أجل التصدى للمقتدر إلى أن تحارب مؤنس الخادم هو وجماعة أخرى من العظماء مع حسين وانتصروا عليه وقتلوه هو ورجال المرتضى بالله والله أعلم .

الوزير أبو الحسن على بن محمد الفرات :

وكان من كبار الوزراء العرب ، كما كان جامعا لأنواع الفضل والأدب ، وأسند المقتدر إليه الوزارة بعد مقتل عباس ، ثم عزله فى عام ٢٩٩ ه وعين مكانه أبو على محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزيرا له .

الوزير أبو على بن عبيد الله :

لم يستطع أبوعلى القيام بأعباء هذا المنصب الخطير لسوء تدبيره وعدم وقوفه على دقائق الأمور ، فلاغرابة أن تم عزله بعد فترة قصيرة .

الوزير على بن عيسى الجراح :

وقد تولى الوزارة بعد عزل أبى على محمد بن عبيد الله ، وكان يعتبر من أفاضل العلماء وأكابر أهل الجود والسخاء ، فكان يحصل كل عام — من ريع أملاكه الخاصة — مايقرب من ثمانين ألف دينار من الذهب كان ينفق نصفها على أهل العلم والفتوى والباقى ينفقه على أسرته وأولاده ، وكان على بن عيسى — خلال توليه الوزارة [٧٧] يتعامل مع كافة الرعايا وعامة البرايا على أحسن وجه ، ولكنه كان يفكر كثيرا قبل البت فى بعض الجزئيات من الأمور ولا يفصل فى بعض المسائل بسرعة ، ولذلك أعفاه المقتدر من منصب الوزارة فى عام ٣٠٥هـ ، وعين مكانه ابن الفرات مرة أخرى ولكنه عزل ابن الفرات كذلك فى عام ٣٠٦ هـ .

الوزير حامد بن عباس :

وقد تولى الوزارة فى نفس العام الذى عزل فيه ابن الفرات ، وفى عام ٣٠٩ هـ — بإيعاز من الوزير حامد — استشهد الحسين بن منصور الحلاج الذى يعتبره معظم العلماء من كبار الأولياء . وفى ٣١١ هـ وبخ حامد وعوقب وتولى ابن الفرات منصب الوزارة مرة أخرى ، وفى عام ٣١٢ هـ سجن ابن الفرات وسلم المقتدر الوزارة لأبى القاسم عبيد الله بن محمد الخاقانى ، والله أعلم .

الوزير أبو القاسم الخاقانى :

بعد أن قضى أبو القاسم مايقرب من عام فى الوزارة عزله الخليفة المقتدر .

الوزير أبو العباس احمد بن عبيد الله الخصيبى :

وتولى الوزارة بعد عزل الخاقانى . وكان يتصف بالهمة العالية والأخلاق السامية ، وبعد أن أمضى [٧٨] ما يقرب من عامين فى الوزارة تغيرت والدة المقتدر عليه فعزله الخليفة إرضاء لوالدته .

الوزير أبو على بن مقلة :

وكان من بين أكابر الوزراء العظام ، كما كان من الفضلاء الجديرين بالاحترام ،

وأثناء توليه الوزارة رفع راية الجود والسخاء ، وكان يسعد كثيرا كل من يشاهد خطه من أهل البصيرة ، حيث كان من مخترعى الخطوط ، وقد نسخ بقامه الذهبي الخلاق أعمال كبار الخطاطين فى جميع أنحاء العالم والكتاب العظام .

(بيت ، ترجمته)

— يامن تمتاز بحسن خطك على الجميع

— ولا يوجد شبيه لخطك بين المخطوطات

وجملة القول أنه حينما أعفى أحمد بن عبيد الله الخصيبي من منصب الوزارة قلد المقتدر — مرة أخرى — على بن عيسى ذلك المنصب الرفيع .. وفى عام ٣١٦ ﻫ أعفى منها أيضا لضحالة تفكيره ، وأسند الخليفة الوزارة إلى أبي على بن مقلة الذى ظل يدير ذلك المنصب الخطير لمدة عامين ثم عزل فى عام ٣١٨ﻫ ، وبعد أن قتل المقتدر وخلفه [٧٩] القاهر بالله تولى ابن مقلة الوزارة مرة أخرى . وأخذ القاهر أثناء خلافته يقوم بأعمال الظلم والاعتداء فعزم مؤنس الخادم وابن مقله ويلبق وآخرون من رجال الدولة على خلعه ، وانكشف هذا الأمر للقاهر فأصدر أمره بقتل تلك الجماعة ، فتم قتل مؤنس ويلبق ولكن ابن مقلة تمكن من الهرب وأخذ يختلط فى بعض الأحيان بالأمراء ويشجعهم على خلع القاهر إلى أن انتهى الأمر بقيام الأتراك بالقبض على القاهر وسملوا عينيه ونصبوا الراضى بالله خليفة ، فجعل الخليفة الراضى جميع الناس ترضى عنه بفضل عدله وإحسانه وأسند منصب الوزارة إلى ابن مقله ولكنه عزله فى عام ٣٢٤ﻫ بإيعاز من ابن رائق الذى كانت له اليد الطولى فى إدارة أمور الدولة وفى عام ٣٢٦ﻫ رضى الخليفة عن ابن مقلة مرة أخرى وولاه الوزارة ، وبدأ الصراع بين ابن مقلة وبين ابن رائق وبلغ ذروته بالواقعة التالية :

كان بحكم الماكانى غلاما لمرداويج بن زياد ، واستولى على بعض بلاد العرب بعد قتل سيده فبعث إليه الوزير برسالة يطلب منه فيها القدوم إلى بغداد ويبشره بمنصب أمير الأمراء وعلم ابن رائق بهذا الخبر ونقله إلى الخليفة ، ونظرا لأن الخليفة لم يكن يوافق على مجىء « بجكم[1] » فقد استدعى إليه ابن مقلة وأبدى له اعتراضه

---

(١) فى الأصل بحكم ، وبجكم ، أو بجكم بكسر الأول وسكون الثانى وفتح الثالث وسكون الرابع لفظ فارسى بمعنى ذئب وكان يطلق على أسماء الأشخاص قديما .

فأنكر ابن مقله ماحدث وأظهر له الخليفة الرسالة المذكورة وأصدر الأمر بقطع يده ، وكان الوزير يستغيث بقوله: لماذا تأمرون بقطع يدى وهى [٨٠] التى ابتكرت أجمل الخطوط ونسخت العديد من المصاحف؟ فإنه لم يجد جدوى من صياحه :

وبعد :. فإنه لايليق بشاغل منصب الوزارة بل لايليق بسائر رجال البلاط أن يراسلوا أمراء الأقاليم على غير رغبة من الحاكم وعليهم أن لا يهملوا مصلحة الدولة بسبب مصالحهم الشخصية :

(بيتان ، ترجمتها)

- من يتصرف بما يخالف رأى الحاكم

- ، يكون عقابه القتل

- فلو يقول لك عن هذا النهر : إنه ليل ،

- ، وجب عليك القول : وفيه القمر والنجوم !

ومن أغرب المصادفات أن ابن مقله وزر لثلاثة من الخلفاء ، ونسخ ثلاثة من المصاحف ، وسافر ثلاث رحلات ، ودفن بعد ثلاث مرات :

الوزير سليمان بن حسن المخلد :

أصبح وزيرا للمقتدر بالله فى عام ٣١٨ هـ ونظرا لأنه لم يكن مؤهلا كثيرا لمثل هذا المنصب قد تم عزله بسرعة ، ولكنه وصل إلى منصب الوزارة أيضا أيام خلافة الراضى بالله ثم عزل ، ولما تولى المتقى لله الخلافة جعل سليمان وزيرا له مرة أخرى .

الوزير أبو القاسم عبيد الله الكلموذانى :

وقد تولى منصب الوزارة أثناء خلافة المقتدر بعد عزل سليمان بن حسن ، ثم عزل بعد بضعة أيام :

[٨١] **الوزير حسين بن قاسم :**

وكان من أحفاد سليمان بن وهب وتولى الوزارة سبعة أشهر للمقتدر بعد عزل أبى القاسم :

الوزير أبو الفتح فضل بن جعفر بن محمد بن الفرات :

وتولى الوزارة بعد عزل حسين بن قاسم ، وظل يشغل هذا المنصب حتى آخر أيام الخليفة المقتدر .

الوزير محمد بن القاسم وأحمد بن أحمد بن عبد الله :

وتوليا الوزارة مرة واحدة أيام القاهر بالله بعد عزل ابن مقلة .

الوزير عبد الله بن عيسى الجراح :

وتولى الوزارة للخليفة الراضى بالله فى عام ٣٢٤ ﻫ لبضعة أيام ثم عزل .

الوزير ابو جعفر محمد بن قاسم الكرخى :

تولى الوزارة بعد عزل عبد الرحمن ، وكان قصير القامة ، فحينما كان يمثل أمام الخليفة الراضى ، يعرض عليه الموضوعات تكون رأسه فى مستوى ركبة الخليفة ، ونظرا لذلك فقد قصروا قاعدة عرش الخلافة شبراً ، فتشاءم الناس من هذا التصرف . وجاء فى جامع التواريخ أن أبا جعفر الكرخى حينما وجد – بعد فترة من توليه الوزارة – أن الأمور تسير على غير هواه دخل منزله ذات يوم ، وجلس فى وعاء الماء ، وحمله واحد من خدمه على ظهره وخرج به من المنزل ، ولم يعلم أحد إلى أين ذهب .

[٨٢] **الوزراء أحمد بن ميمون (١) ومحمد بن أحمد الطراريطى (٢) وأحمد ابن عبيد الله الأصفهانى :**

وتولوا الوزارة أيام خلافة المتقى لله .

الوزيران ابو الفرج محمد بن على ، وأحمد بن فصل بن عبد الرحمن السامرى

وقد شغلا منصب الوزارة مرة أيام خلافة المستكفى ، كما تولى أحمد بن فضل الوزارة بضعة أيام فى خلافة المطيع لله .

الوزير ابو الفضل الحاجب بن النعمان :

وتولى الوزارة أيام خلافة القادر بالله .

---

(١) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى هو « أبو الخير أحمد بن محمد بن ميمون » .

(٢) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى هو « أبو إسحق محمد بن إبراهيم الإسكافى القراريطى .

الوزير ابو طلحة محمد بن أيوب :

وكان أول شخص تولى الوزارة فى خلافة القائم بأمر الله .

الوزير عميد الدولة ابو طالب محمد بن (١) مسلمة :

وتولى منصب الوزارة الرفيع بعد عزل أبو طلحة ، ولقب برئيس الرؤساء ، وقد شب الخلاف بينه وبين البساسيرى — أحد أمراء الديالمة — وخرج البساسيرى مع أتباعه من بغداد ورفع راية الحرب والانفصال ، [٨٣] وطلب المدد من المستنصر العلوى حاكم مصرفوافق المستنصر على طلبهوحدث اضطراب عام بين أهل بغداد ودارت الحرب بين الجانبين ، فاستشهد رئيس الرؤساء وانهزم جيش الخليفة واستولى البساسيرى على بغداد ، ولما علم بهذه الأخبار طغرل بيك السلجوقى — وكان يسيطر فى ذلك الوقت على بلاد خراسان والعراق العجمى — توجه إلى دار السلام ، وقضى ذلك الملك المهيب بسيفه الفتاك على فتنة البساسيرى وفساده ، وأعاد الهدوء إلى بغداد .

الوزير ابو الفتح منصور بن داراسب الشيرازى :

وكان يمتاز ويتفوق على سائر كبراء فارس وعظماء شيراز بفضله الزائد وكماله البالغ ، كما كانت ميزته تتضح فى فصاحته وبلاغته وجمال خطه ولطافة عبارته ، وفى ريعان شبابه — التى هى أفضل أيام العمر — عمل فى خدمة الملك أبو كاليجار مرزبان بن سلطان الدولة بن عضد الدولة ، ولسبب من الأسباب غادر وطنه وتوجه إلى دار السلام ، ولما بلغ هذه المدينة العظيمة ، ووقف القائم بأمر الله على مدى فضله وكماله ولاه منصب الوزارة ولقبه بأمين الدولة مجد الوزراء ، وقد بلغ تقرب مجد الوزراء من الخليفة إلى درجة جعلت عميد الملك الكندرى وزير السلطان طغرل بك السلجواقى يحقد عليه ، فدس له عند السلطان ، [٨٤] فتأثر السلطان بكلام عميد الملك ، وبعث برسالة إلى بغداد يلتمس فيها عزل الوزير ، ونظرا لأن الخليفة لم تكن لديه القدرة على رفض طلب السلطان فقد قام بعزل ذلك الوزير الصائب التدبير .

---

(١) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى على بن حسين بن أحمد بن محمد بن عمر بن مسلمة .

الوزير أبو نصر محمد بن جهير الموصلي (١) :

وكان مشهوراً بالفصاحة والبلاغة والمهارة فى فن الاستيفاء والسياق ، وكان كريما سخيا على أهل العلم والفضيلة ، وفى بداية أيامه كان يتولى الوزارة لملك الملوك نصر الدولة أبو نصر بن مروان الذى كان حاكما لديار بكر ، وقد حصل فى تلك الدولة على أموال لا نهاية لها وعلى أملاك لاحدود لها ، وبلغ صيت كفاءته الآفاق ، ولما توفى ملك الملوك بعث القائم بأمر الله نقيب النقباء أبى الفوارس بن محمد الزينبى إلى ديار بكر ليقنع أبا نصر بقبوله الوزارة لدار الخلافة ، ويحثه على التوجه إلى بغداد ، ولما وصل نقيب النقباء إلى ديار بكر توجه على الفور للقاء أبى نصر وأخذ يحدثه بكلمات كلها شوق ومحبة عن الوزارة عند خليفة الأنام والتوجه إلى دار السلام ، فتقبل أبو النصر هذا الكلام قبولا حسنا ، وتوجه إلى دار الخلافة ، واغتنم القائم بأمر الله مقدمه الشريف ووضع بين يديه الماهرتين أمر الاستقلال [٨٥] بمهام الوزارة ولقبه بفخر الدولة و أشرف الوزراء ، وحينما وصل طغرل بك السلجوقى مشارف بغداد للقضاء على فتنة البساسيرى أسرع فخر الدولة لاستقبال الموكب السلطانى ، وصار بهذا محل رعاية طغرل الذى خصه بمكافأة عظيمة .
وأثناء حكم السلطان ألب أرسلان غضب خواجه نظام الملك الطوسى على فخر الدولة — بسبب دسائس المفسدين — وحرض السلطان حتى يبعث برسالة إلى دار الخلافة يطلب فيها عزله ، وقبل أن ينتشر هذا الخبر نقل البعض حقيقة الأمر إلى الخليفة فأرسل القائم بأمر الله الوزير بعيدا إلى الحلة وأسند الوزارة إلى على بن الحسين الذى انتقل إلى جوار ربه فى أوائل أيام توليه الوزارة ، وعندئذ طيب الخليفة والوزير خاطر نظام الملك وجاء فخر الدولة من الحلة إلى بغداد وتولى الوزارة مرة أخرى ، وقد نظم ابن الفضل البغدادى عدة أبيات مدح فيها فخر الدولة يستهلها بهذا البيت :

(بيت عربى)

الحمد لله على فضله قد رجع الحق إلى أهله

وفى ذلك الوقت بعث فخر الدولة ابنه الأكبر عميد الدولة برسالة من دار الخلافة إلى السلطان ألب أرسلان كما بعث بهدايا وتحف كثيرة للخواجة نظام الملك تعبيرا

---

(١) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى « أبو نصر محمد بن محمد بن جهير

عن الإخلاص والوفاء له طالبا خطبة ابنة نظام الملك ، فلقيت ملتمسات فخر الدولة قبولا حسنا لدى نظام الملك .

[٨٦] (بيت ، ترجمته)

— حبذا عقد ينظم عقد الملك

— ، حبذا سوار يزدان به العالم ويتألق

وفى عام ٤٦٥ هـ حينما انتقل السلطان ألب أرسلان إلى جوار ربه وازدان عرش السلطنة بالسلطان ملكشاه أسرع عميد الدولة إلى دار السلطنة مرة أخرى بأمر الخليفة وقدم السلطان هدايا الخليفة فلقى اهتماماً كبيرا ، وفى عام ٤٦٧ هـ توفى القائم بأمر الله فبايع فخر الدولة وعميد الدولة المقتدى بالله فى نفس الليلة التى حدثت فيها الوفاة ، وتوجه عميد الدولة فى اليوم التالى إلى أصفهان حتى يأتى بالبيعة للمقتدى من السلطان ووافق على خلافة المقتدى بالله ، وعاد عميد الدولة بعد أن أدى مهمته بنجاح إلى دار السلام ، واسند المقتدى بالله منصب الوزارة أيضا إلى فخر الدولة ذى الرأى السديد ، وفى تلك الأثناء ذهب مؤيد الملك بن نظام الملك من قبل السلطان ملكشاه إلى دار السلام ليتولى أعمال الديوان ، فرأى مؤيد الملك فخر الدولة فى غاية من الرفعة والاستقلال فاشتعلت نيران الحسد فى داخله وصرف كل همته للعمل على إبعاد ذلك الوزير الماهر والقبض عليه ، وفهم فخر الدولة هذا الهدف ، وبناء على ذلك وحفاظا على نفسه طلب إعفائه من منصب الوزارة ، [٨٧] فقبل الخليفة ملتمسه وعين عميد الدولة مكان والده ورغم ذلك لم يترك مؤيد الملك الوالد والولد :

(بيت عربى) :

كل العداوة قد يرجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وبعث نظام الملك بعض حجاب السلطان من أصفهان إلى بغداد للقبض على فخر الدولة تطييبا لخاطر مؤيد الملك وتسليمه لدار السلطنة ، فلما علم فخر الدولة بهذا الخبر آثر الهرب على البقاء ، وفجأة وصل فخر الدولة إلى أصفهان وعرض على السلطان — بواسطة أحد النواب — قوله : إننى لدى معلومات كافية عن أوضاع ديار بكر وفى استطاعتى أن أدخل تلك المملكة فى حوزة السلطان ، فلقى هذا الاقتراح قبولا لدى السلطان مكلشاه واختص فخر الدولة بالنعم والعطايا وأرسله إلى هذه المنطقة مصحوبا بالطبول والأعلام والخيول والرجال ، وبذل فخر الدولة

جهوداً مشكورة من أجل فتح ديار بكر ، وسخر تلك الولاية خلال فترة قصيرة من الزمن واستولى على خزائن ملوك بنى مروان وحملها إلى السلطان ، وبعد أن مضى مدة ٨٥ عاماً فى الجاه والعظمة ودع الدنيا الفانية وانتقل إلى دنيا الخلود ، كما يقولون :

(بيت ، ترجمته)

ـــ سواء عشت مائة عام أو أقل

ـــ سوف ترحل يوما عن هذه الدنيا الخادعة

الوزير مظفر بن رئيس الرؤساء :

[٨٨] تقلد منصب الوزارة بعد فرار فخر الدولة من بغداد ، ولسبب من الأسباب عزله المقتدى بالله بعد توليه ذلك المنصب لفترة قصيرة

الوزير ظهير الدين أبو شجاع محمد بن أبى الحسن (١) :

تقلد الوزارة فى رجب عام ٤٧٥ هـ بأمر المقتدى بالله ولقب بمؤيد الدولة صفى أمير المؤمنين ، ومضى عدة سنوات فى غاية السعادة والإقبال ، وفى النهاية ثار خلاف بين مؤيد الدولة وتاج الملك أبى الغنائم الذى كان من المقربين للسلطان ملكشاه ، فدس تاج الملك لمؤيد الدولة عند السلطان ، وطلب السلطان من الخليفة عزل مؤيد الدولة ، وانزوى الوزير فى ركن الأحزان ، ولكن الخليفة منح الوزير المعزول عدة مزارع مكافأة له .

وجاء فى جامع التواريخ أنه بالرغم من تحسن أحوال الوزير أبى شجاع بتوفر أسباب الوزارة له حيث كانت تزدان بفضله وكفاءته وفهمه وفراسته وسموه وفرط شهامته ، فقد تغلب البخل والإمساك على طبيعته بحيث أصبح كصائم الدهر يتناول فطوره فى المساء فى مكان ضيق ومظلم ، ومما نقل أيضا أن الوزير أبا شجاع ذهب إلى مدينة طيبة فى آخر أيام حياته ليقضى بها أوقاته فى الطاعة والعبادة إلى أن وافاه أجله الموعود فى جمادى الآخرة عام ٤٨٨ هـ ودفن فى مشهد إبراهيم بن النبى ـــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

---

(١) اسم ونسب هذا الوزير فى الكتب الأخرى « أبو شجاع ظهير الدين محمد بن حسين الهمدانى » .

[٨٩] **الوزير أشرف الدين عميد الدولة محمد بن فخر الدولة**

فى الوقت الذى توجه فيه فخر الدولة بأمر السلطان ملكشاه إلى ديار بكر ، بقى عميد الدولة ملازما لدار السلطنة ، وكان موضع الرعاية السلطانية لفرط ذكائه وقوة فراسته وأدائه للأعمال المحمودة واجتنابه الأفعال المذمومة ، وقد فاق والده بتوفر عناصر الجاه والشهرة فيه ، واستكمال أسباب الجلال والتوفيق له ، وفى العام المذكور أرسل المقتدى بالله كمال الدين الخادم وأبا محمد رزق الله التيمى المنشى وأبا نصر الموصلى يحملون رسالة السلطان مكلشاه طالبا فيها إرسال عميد الدولة ، فوافق السلطان على مطلب الخليفة ، وعاد عميد الدولة معززاً مكرما إلى دار السلام بغداد ، فتشرف مرة ثانية بتقلد منصب الوزارة ، وفى شوال عام ٤٨٥ هـ جاء السلطان ملكشاه إلى بغداد ، وتوفى تلك الأيام ، ثم لحق به الخليفة المقتدى فى شهر المحرم من نفس العام ، وجلس ابنه المستظهر بالله على عرش الخلافة فأبقى منصب الوزارة كما كان أيام والده فى يد عميد الدولة ، وفى أواخر صفر عام ٤٨٨ هـ توجس عميد الدولة خيفة من الخليفة ولجأ إلى سيف الدين صدقه صاحب الحلة ، وأخذ المستظهر بالله يبعث بالرسل والرسائل الكثيرة إلى الحلة لاستمالته ، وكان من بينها رسالة أرسلها بخط يده ، فاطمأن عميد الدولة برسالة الخليفة ، وسعدت بغداد مرة [٩٠] أخرى بيمن مقدمه الشريف ، وتولى منصب الوزارة ، وفى النهاية قبض الخليفة على ذلك الوزير الماهر بسبب دسائس عبد الجليل الدهستانى وحبسه فى دار الخلافة ، وبعد أن ظل سجينا لمدة شهر ، أخرجوه ميتا من السجن ، وكانت مدة اشتغاله بالوزارة — من البداية حتى النهاية — ثلاثة عشر عاماً .

الوزير أبو المعالى النحاس الاصفهانى

وكان يتصف بشتى ألوان الفضل والأدب ، كما كان يعرف بالمهارة الفائقة فى فن الكتابة والاستيفاء ، وكان أبو المعالى فى بداية حياته نائبا لمحمد بن غيلان عارض ديوان السلطان ملكشاه ، ولما أفل نجم محمد بن غيلان آل منصبه إلى أبى المعالى ، وظل عارضا خلال الفترة الأخيرة من حكم السلطان ملكشاه وجانبا من فترة حكم السلطان بركيارق والسلطان محمد ، وقد استطاع خلال هذه المدة أن يجمع أموالا كثيرة .

وفى تلك الفترة التى حمى فيها الخلاف والنزاع بين الأخوين آثر أبو المعالى

الفرار على البقاء ولجأ إلى صاحب الحلة سيف الدين صدقه وبذل صدقه فى رعايته جهوداً مشكورة ، واستطاع أن يحصل له على منصب الوزارة للمستظهر بالله ، فغادر أبو المعالى الحلة إلى بغداد واشتغل بتدبير شئون الوزارة للخليفة ، ولكنه بعد مضى شهر واحد من تقلده الوزارة اتخذ رجال الدولة وأعيان الأمة موقف العداوة والخصام منه وذلك بسبب خسته البالغة ، وإمساكه الشديد ، فعوقب أبو المعالى وسجن بأمر الخليفة ، ولكنه هرب من السجن ولجأ إلى معسكر السلطان بركيارق وظل يعيش حزينا مغموما فى همدان إلى أن فارق الحياة فى عام ٥٠٧ هـ والله اعلم.

[٩١] **الوزير مجير الدولة أبو القاسم على بن فخر الدولة**

بعد حادثة شقيقه عميد الدولة ظل يعيش فى السجن لفترة طويلة عانى فيها أشكالا من المحن والشقاء ، وفى عام ٤٩٩ هـ انتقل طالع أبو القاسم من حضيض الوبال إلى أوج الشرف والإقبال ، وجعله المستظهر بالله موضع رعايته وعنايته وخلع عليه منصب الوزارة ، فأبلى مجير الدولة بلاء حسناً فى إنجاز شئون الخليفة ، وبعد أن أمضى حوالى تسع سنوات مضطلعا بهذا الأمر الخطير رحل فى شهر صفر عام ٥٠٨ هـ عن عالم الفناء إلى عالم البقاء.

الوزير هبة الله بن محمد بن على المعروف بابن المطلب :

تولى الوزارة بأمر المستظهر بالله بعد وفاة مجير الدولة ولقبه الخليفة بلقب ولى الدولة . وجاء فى جامع التواريخ أن ولى الدولة اتهم بمذهب التشيع والرافضة ، وبناء على ذلك لم يوافق السلطان محمد ملكشاه على وزارته ، وأرسل إلى دار الخلافة بالرسل والرسائل يقول فيها : كيف يكون وزير خليفة الزمان رافضياً ؟ لاشك أن عزله المستظهر ، فتوجه الوزير إلى بلاط السلطان واسترضاه بواسطة سعد الملك الأوجى الذى [٩٢] كان وزيرا للسلطان ، وأسند إليه السلطان محمد مرة أخرى منصب الوزارة للخليفة مشترطاً عليه عدم العدول مطلقا عن مذهب أهل السنة والجماعة متجنبا ارتكاب الظلم والاعتداء ، وإلا يترك أهل الذمة من اليهود والنصارى فى أعمال الديوان ، فتوجه هبة الله من أصفهان إلى بغداد مراعيا الالتزام بالشروط المذكورة ، وتولى الوزارة لفترة من الزمن ، وفى النهاية تغير عليه الخليفة ، ففهم هبة الله هذا الإحساس وهرب من بغداد إلى اصفهان وظل يمضى بقية أيامه فى ديوان السلطان محمد بن ملكشاه .

الوزير جلال الدين أبو على صدقه :

وكان يتصف بالفضائل ، وكان يحقق قصب السبق فى فن الإنشاء والاستيفاء على أقرانه وأمثاله ، وتولى الوزارة بأمر المسترشد عام ٥١٣ هـ . واشتغل فترة بهذا الأمر الخطير فى حرية واستقلال ، ولم تتضح نهايته .

الوزير أبو القاسم على بن طراد الزينبى :

وتولى هو أيضا الوزارة أثناء خلافة المسترشد ، وفى عام ٥٢٩ هـ حينما وقعت الحرب بين الخليفة والسلطان مسعود السلجوقى ووقعت الهزيمة بجيش بغداد بقى أبو القاسم ملازماً ، ثم اسر ، والله اعلم .

الوزير شهاب الدين الاسفراييني :

وكان يتولى الوزارة للراشد بالله .

الوزير عون الدين بن هبيرة (١) :

كان أفضل الوزراء العظام ، وأكمل أصحاب الاحترام ، وكانت له اياد بيضاء فى توضيح أحكام الدين المبين وتعاليم شريعة سيد المرسلين – صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، وقد اكتملت له صفات الورع والتقوى والزهد والعفة ، واثبت هو مدلول عبارة « انا ولاغير » فى تدبير وتسيير امور المملكة ، وتقلد منصب الوزارة اثناء خلافة المقتضى بأمر الله ، وبفضل رأيه الصائب استقرت أوضاع جميع ولايات خلافة بغداد إلى درجة لم يبق مجال لتدخل سلاطين السلاجقة فى شئون دار السلام ، ولما توفى المقتضى وانتقلت الخلافة للمستنجد بالله ظل يعمل بسنة والده ، فأبقى منصب الوزارة لعون الدين صاحب الرأى السديد ، وظل عون الدين – مستهديا ببصيرته الطاهرة – يدير ذلك العمل الخطير إلى ان رحل عن عالم الفناء .

الوزير شرف الدين أبو جعفر بن أحمد (١) :

تولى الوزارة المستنجد بعد وفاة عون الدين ، ولما أشرف على هذا المنصب عدة أيام انزوى فى ركن العزلة والنسيان – كسائر أبناء جنسه .

---

(١) . . . . . . انزوى

(٢) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى « شرف الدين أبو جعفر محمد بن أبي الفتح البلدى » .

الوزير عضد الدين بن رئيس الوزراء :

[٩٤] وتولى منصب الوزارة فى أوائل أيام خلافة المستضىء بنور الله ، وبعد فترة من الوقت حكم عليه كما حكم على الوزراء السابقين وترك هذا العمل الخطير برغبة منه أو رغما عنه .

الوزير ظهير الدين أبو بكر العطار (١) :

حينما حرم منصب وزارة المستضىء من كفاءة عضد الدين تكفل ظهير الدين العطار بذلك الأمر ، وبلغ صيت عدالته جميع سكان البلاد والديار ، وفى تلك الأيام التى بدأ العطار يصرف فيها شئون مختلف فئات الشعب تولى قطب الدين قيماز (٢) منصب أمير الأمراء ، وأصبح صاحب التصرف فى أمور الملك والمال ، فبدا الخلاف والنزاع بين قطب الدين وظهير الدين ، وفى عام ٥٧٠ هـ أراد قيماز — دون استشارة الخليفة — القبض على العطار وإيداعه السجن ، ولما بلغ هذا الخبر العطار لجأ إلى دار الخلافة فقام قطب الدين بعد أن نهب وخرب منزله — بالتوجه هو وبعض الأمراء وحشد كبير من الناس إلى قصر الخلافة للقبض على ظهير الدين ، وحينما سمع المستضىء أصوات المتجمهرين ، وعرف المتسبب فى هذه الفتنة وكيفية علاجها ، صعد سطح قصره وتوجه ناحية الناس ورفع صوته قائلا لهم : أيها الناس : لقد تجاوز قيماز الحدود فأمواله الآن أصبحت حلالا وأصبح سفك دمه حلالا علينا ! فتوجه جميع من سمعوا هذا الكلام فرحين إلى قصر قطب الدين ودخل قيماز منزله بصعوبة شديدة ، وحاول الإغارة عليه ولكنه لم [٩٥] يفلح ، بل انه لم يستطع الخروج من منزله بسبب الازدحام ، وأخيرا قام بثقب الحائط ، وخرج منه ، متوجها إلى الموصل ، فتوفى فى الطريق ، وسلم ظهير الدين من شروره وأخذ عضى أيامه مطمئنا فى زمن المستضىء ، كما تولى الوزارة أيضا أيام خلافة الناصر لدين الله . وبعد وفاته تولى كل من جلال الدين أبو المظفر ، وجلال الدين على ابن هبة الله البخارى ، وابن أبى الحديد الوزارة مرة للناصر لدين الله ، ولم يعرف أكثر من هذا عن أخبارهم مما تجدر الاشارة إليه فى هذا الكتاب .

---

(١) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى « ظهير الدين أبو بكر منصور بن أبى القاسم نصر بن العطار

(٢) وضبط فى الكتب الأخرى باسم « قايماز » .

الوزير مؤيد الدين أبو عبد الله بن محمد بن على المعروف بالقصاب : (١)

كان يتصف بالتهور والتكبر وقلة العقل وسوء التدبير ، وقد أسند إليه الناصر لدين الله فى عام ٥٩٠ هـ منصب الوزارة وأرسله على رأس فوج من جيش بغداد إلى خوزستان فأعاد تلك الولاية إلى حوزة الخليفة ،

ومن الثابت أنه حينما أخرج تكش خان بلاد العراق من حوزة السلاجقة وأخضعها ، طمع الناصر لدين الله فى أن يقوم خوارزمشاه بتسليم جزء من دولته لديوان الخلافة ، ومن أجل هذا الهدف بعث رسلا ورسائل [٩٦] إلى تكش خان ، ووافق تكش على مطالب الخليفة فأرسل الخليفة مؤيد الدين محملا بالخلع والهدايا الثمينة إلى العراق العجمى لتقديم العظمى الاعتذار لتكش ، ولما وصل الوزير قليل التدبير إلى أسد أباد طلب من أكراد العراق وجنود العرب — الذين بلغوا العشرة آلاف رجل تقريبا — أن ينضموا إليه ، وزاد الغرور فى رأسه وبعث إلى تكش خان يخبره أنه جاء من دار الخلافة ومعه أوامر الحكومة ، ونظرا لقدوم المسئول عن مصالح البلاد ومنظم الجيوش والرعية — أى خباب الوزير — حاملا البشرى فيجب على خوارزمشاه أن يحضر طائعاً صاغراً لاستقباله وتقديم الشكر له ، مصحوبا بعدد قليل من رجاله ، سيراً على الأقدام ، ولما علم تكش خان بما عليه ابن القصاب من قلة عقل وبلاهة كلف جماعة ممتازة من جنوده لتأديبه ، فتوجهت تلك الجماعة إلى أسد أباد ولكن ابن القصاب لم ينتظر الاشتباك مع جنود الخوارزميين وآثر الهرب كما يهرب الثعلب خوفاً من الأسد .

(بيت ، ترجمته)

— وانهار ذو الوجه الأصفر أمام فتك السيوف

— كما تنهار أوراق الأشجار أمام رياح الخريف

والخلاصة أنه بعد أن فرغ تكش خان من فتح ولايات العراق وآذربيجان عين يونس خان وهو أحد أولاده [٩٧] حاكما على تلك البلاد ثم عاد، وقد استمر يونس خان فترة فى الحكم ثم قرر العودة إلى خوارزم بسبب ضعف إبصاره وعين مياجق نائبا عنه ، وعاد هو . وأثناء غياب يونس خان انتهز مؤيد الدين بن القصاب

---

(١) اسم هذا الوزير فى الكتب الأخرى « مؤيد الدين أبو المظفر محمد بن أحمد بن القصاب » .

الفرصة وتوجه من دار السلام بغداد على رأس جيش كبير بأمر الناصر لدين الله قاصداً العراق العجمي ، ولم يتوقف في أي مكان إلى أن وصل همدان ، ولما بلغ هذا الخبر تكش خان تحرك من خوارزم لمحاربته ، وسار نحو همدان ، وبعد أن طوى مسافات طويلة حط رحاله في « مزدقان » ، وشاءت إرادة الله أن يتوفى ابن القصاب في هذا الوقت ، وأخفى أهل بغداد خبر وفاة الوزير واشتبكوا في الحرب مع تكش خان ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم ، وبعد أن حقق تكش الفتح والنصر أمر بأن يخرجوا ابن القصاب من قبره ويفصلوا رأسه عن جسده ، ويحملوها إلى خوارزم . وهذه الفعلة لا تليق برجل ، ولا تتناسب مع مكانة سلطان ويوضح صاحب جامع الحكايات في سياق الكلام أن الوزير الذى كان على خلاف مع ملك خوارزم أيام الناصر لدين الله هو أبو الفضل على بن أحمد الملقب بابن البيضائى ، ولكن الرواية الأولى أقرب إلى الصحة ، والله أعلم .

الوزير مؤيد الدين محمد القمي :

تقلد الوزارة بعد موت مؤيد الدين بن القصاب ، ولما توفى الخليفة الناصر واعتلى ابنه الظاهر بالله عرش [٩٨] الخلافة أسند ذلك المنصب إلى مؤيد الدين كما كان في عهد والده ، كما شغل مؤيد الدين الوزارة لبضعة أيام أيضا أيام خلافة المستنصر بالله .

الوزير نصير الدين محمد بن الناقد (١) :

أصبح وزيرا أيام المستنصر بالله بعد عزل مؤيد الدين محمد القمي ، وقد ادى مهام ذلك المنصب على أحسن وجه ، ولما توفى المستنصر أبقى المستعصم بالله زمام أمور الملك والمال في يديه الخبيرتين كما هى ، وفى عام ٦٤٢ ﻫ توفى نصير الدين محمد — وقد ذكر اسمه في بعض الكتب باسم شمس الدين أحمد — وأصبح ذلك المنصب من نصيب أبى طالب مؤيد الدين محمد بن أحمد بن على بن محمد العلقمي .

الوزير أبو طالب مؤيد الدين محمد بن العلقمي :

اجتمعت في ابن العلقمي جميع أنواع الفضائل والكمالات والكرم ، وكان عليما بالفلسفة والمنطق وبفنون الشعر والنثر ، وكان الخليفة يشركه دائما معه في وقت

(١) اسم هذا الوزير في الكتب الأخرى « نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن محمد بن الناقد » .

جده ولهوه سواء بالليل أو النهار ، ورغم أنه كان خليفة حقا وكان إماماً مطلقاً إلا أنه لم يقدم على ارتكاب أية ضلالة أو بدعة فى وقت من الأوقات ، ورغم أنهم كانوا يعتبرون ابن العلقمى صاحب التصرف فى أمور الملك والمال فى بغداد إلا أن الخاصة والمقربين لدار الخلافة لم يكونوا يكنون له أى احترام ، ولا يتحدثون معه بما يليق بمركزه وكان هو يتألم كثيرا لهذا السبب ، وفى النهاية [٩٩] أفلت الزمام من يده فتخلى عن ولائه لدار الخلافة مرة واحدة ، وكان السبب القوى الذى أدى إلى ذلك هو أنه قد حدثت فتنة فى بغداد عام ٦٥٠ هـ بين أتباع المذهب السنى والمذهب الشيعى واستعلت بينها نيران الخلاف ، وأغار الأمير أبو بكر بن المستعصم(١) على رأس جيش على كرخ بغداد الذى كان سكانه من أهل الشيعة وذلك لحماية أهل السنة والجماعة ، وأسر فى هذه الغارة الكثير من سادات الشيعة ، ووبخ كل مغال منهم ، ولما كان الوزير قمى الأصل وكان يغالى فى التعصب للمذهب الشيعى ، فقد لوى عنان إرادته عن سلوك طريق الطاعة للخليفة مستعملا أساليب المكر والخداع وبعث برسالة مطعمة بهذا المعنى للسيد تاج الدين بن نصر الله الحسينى — وكان من أكابر سادات عالم الشيعة — أفرغ فيها ماكينة ضميره مستعملا أسلوب المكر والتدوير الذى كان قد عزم عليه ، وفى تلك الأيام كان الحكيم نصير الدين الطوسى يعمل فى مجلس ناصر الدين محتشم وإلى قهستان ، وعلى حسب مقتضيات العصر بعث بقصيدة من قصائده يمدح فيها الخليفة المستعصم إلى دار الخلافة ، فأخذ ابن العلقمى القصيدة وأرسلها إلى ناصر الدين محتشم بعد أن كتب على ظهرها مايلى :

« لقد اعتاد مولانا نصير الدين أن يرسل إلى أمير المؤمنين رسائل ومنظومات ، ويلزم معرفة العواقب التى ستترتب على هذه التصرفات ، وملاحظة فوائد هذه المسألة ومضارها بها ! . وبهذه الحيلة تغير ناصر الدين على علامة العصر وسجنه بعد أن كان من أقرب المقربين لديه »

[١٠٠] وحدث أن توجه هولاكو خان فى عام ٦٥١ هـ من الولايات الشرقية قاصداً فتح الولايات الغربية ، ففرغ من أمر الملاحدة فى سنة ٦٥٤ هـ ، ورفع راية النصر متوجها لفتح دار السلام بغداد وكان نصير الدين قد نجا فى تلك الظروف من حبس

---

(١) أضيفت عبارة « عليه اللعنة » فى الأصل .

ناصر الدين والتحق بخدمة هولاكوخان ، وصار من المقربين إليه خلال فترة قصيرة وشمله هولاكو بعنايته ، وكان ابن العلقمى قد أخبر هولاكو بأمر الداعية نصر الدين وطلب منه المجيء أولا للقضاء على العباسيين ، وبعث بالرسل إلى هولاكو معبراً له عن كراهيته للخليفة وبطانته ، موضحا له ظلمهم للناس ، وبأن عروس البلاد بغداد سوف يكتمل لها رونقها بمقدم الخان ، ولكن هولاكوخان لم يعتمد على هذا الكلام المهلهل ولم يعره اهتماما لأن حصانة بغداد واستحكاماتها معروفة ومشهورة فى جميع أنحاء أقاليم العالم السبع ، واستمر ابن العلقمى يسير الرسل إلى هولاكو بتعجيل مجيئه كما ذكر ضمن بعض الرسائل قوله لهولاكو : « سوف أقطع بعد وصولك عن جنود بغداد رواتبهم ، وأنهى خدمة الحذر فى البلاد وفاء لك وعهداً .. » وفى النهاية توجه هولاكوخان إلى بغداد عن طريق صحراء همدان الجميلة وأخذ يطوى المسافة على رأس جيش كبير ذى هيبة وروعة لاحد لها ، وحينما تأكد ابن العلقمى من أن سهام غدره قد أصابت أهدافها فكر فى خدعة جديدة حيث عرض على الخليفة وهو منفرد به قوله :

[١٠١] « إن جميع ملوك العالم الآن فى طاعة تامة للخليفة كما أن أوامره ينفذها رجال حضرته بكل حب وإخلاص ، وأبواب الخزائن مفتوحة يصرف رواتبهم وهباتهم ، وهذا أمر بعيد عن التدبير والتفكير البعيد والرأى السديد ، فلو أن جناب الخليفة أمعن النظر فى هذا الاقتراح ، لكانت نتيجة تنفيذه أفضل ، وهذا الاقتراح هو أن يأذن الخليفة لوزيره بأن يعين قادة الجيش والمحاربين الشجعان كل فى طرف من أطراف الخلافة ويشغل كلا منهم فى عمل ، ويصرف لهم بعض الأموال بحيث يعيدون إلى بيت المال ماقد يزيد على معيشتهم » . ، ولما كانت إرادة الله قد شاءت بأن يرحل الخليفة ويهجر الدنيا فقد وافق على تنفيذ ذلك العمل الخطر الذى دبره الوزير زوراً وبهتاناً .

(مصرع فارسى ، ترجمته)

— « واحسرتاه على الشخص الذى يجلب الهموم لنفسه »

وحينئذ تصرف ابن العلقمى على مبدأ « أحببت فالزم ، ووجدت فاغنم » ، وبدأ يعمل على تفريق جموع الجند ، وفى أقصر وقت وزع ابن العلقمى جنود بغداد

فى أطراف البلاد والولايات وأبعدهم عن عاصمة الخلافة ، وعلم هولاكوخان حدث إجمالا وتفصيلا ، فتوجه إلى دار السلام بغداد على رأس جيش جرار كجيش بهرام الفتاك ، ولما وصل خبر قدوم ذلك الجيش الفتاك إلى بغداد وسمع الأمراء والمقربون للخليفة ، بل سمع سائر الرعايا [١٠٢] بتفاصيل هجوم هؤلاء الجنود الذين لاحصر لهم » طالب المخلصون لدار الخلافة والمقربون من حضرة الإمامة الخليفة — الذى كان غارقا فى غفلته — باليقظة ، ولكنهم مهما حاولوا إيقاظه من سكرته فإنهم لم يصلوا إلى نتيجة طيبة ، وكثيرا ماكانوا يعرضون على المستعصم قولهم :

« إن جنود التتار معروفون جيدا فى جميع بلاد العالم ولدى جميع السلاطين ، ففى كل ولاية ينزلون فيها يخلفون وراءهم التراب والدمار ، وهاهم عقدوا العزم ، واستعدوا للحرب ، وتوجهوا لفتح هذه البلاد ، والاستيلاء عليها ، فلو تحقق هذا الكلام وأصبح حقيقة فلن يمكننا مقاومتهم بدون جيش منظم واستعداد تام للقائهم ، فيجب علينا البدء فى ترتيب عناصر الانتصار والظفر قبل وصول الجند وحلول الشرور والمحن ، كما أنه لا يجب الاعتماد فى هذا على الوزير صاحب المكر والخديعة أولا يجب الاعتماد عليه إطلاقا ، ولكن الخليفة استسلم لأحلام الغفلة والغرور ، وآثر الاستراحة والركون لمجالس الطرب والسرور ، ولم يلق بالا لنصائح أبنائه وأقاربه ، ونصائح المصلحين ، وفضل التشاور والتدبير فى أمر هذا الخطب الكبير مع الوزير الخائن ، وأطلعه على نصائح خاصته وأقربائه ، وأقوال أهل الرأى والمصلحين — الذين كانوا يقولونها فقط من أجل الصدق والحقيقة — فهون ابن العلقمى من نتيجة تلك الأقوال وأنسى الخليفة ما حدث بأمور السحر والشعوذة وقال له :

« أى قهر وغلبة لجند المغول أن يضربوا بها جيش بغداد » :

[١٠٣] (بيت ، ترجمته)

— أنى لفريسة تملك قوة

— تقف بها أمام الأسد وتقاومه .

وفجأة — أثناء هذه الظروف — جاء الخبر من البادية بأن مقدمة جيش هولاكو خان توجهت من الناحية الغربية إلى بغداد بقيادة سوغونجاق وباجو باسليغ فبعث

الخليفة بفتح الدين ومجاهد الدين ومجموعة أخرى من المحاربين ومعهم عشرة آلاف فارس لمحاربة الخارجين القادمين إلى بغداد ، ودارت بين الجانبين معركة فى نواحى دجيل قتل فيها فتح الدين وحلت الهزيمة بجند بغداد ، ووصل جيش هولاكوخان الباسل عن طريق « يعقوبا » فى شهر ذى الحجة عام ٦٥٤ ﻫ بقصد انزال العقوبة بالمنهزمين واصطفوا كجبل من الفولاذ حول بغداد مستهدفين أعمال الظلم والجور والعناد ، ولقد نفد الصبر وضاعت السكينة من قلب خليفة الاسلام وقلوب العامة والخاصة من الناس ، وضاع النوم من العيون ، واختفى الرأى السديد بسبب الاضطراب والتهديد ، ونظرا لأنه لم يعد بالصحراء رجل يقاتل جيش التتار أمر المستعصم بإحكام الحصار حول القلعة وفوقها وقد امتد الحصار خمسين يوماً ، وصار أناس كثيرون من الداخل والخارج صيداً ثمينا لسيوف التتار الفتاكة ، وقد حاولوا جميعا الخلاص بأرواحهم فى المعارك الحربية ، ولكنهم تركوا متاعهم الوحيد وهو أرواحهم ، وفى النهاية بدت آثار العجز واليأس على وجوه أهل بغداد فطلب الخليفة من ابن العلقمى — عدوه الخفى وصديقه الظاهرى — إبداء الرأى السديد ، [١٠٤] لايجاد مخرج لهذه الواقعة العويصة، ودليل الخلاص من هذه الطامة الكبرى ، فعرض عليه الوزير تحليلا جذابا للموقف قائلا : « إن جند المغول الذين لا حصرلهم لا يستطاع التهوين من شأنهم ، ولم يبق بالمدينة جند كثير يمكنهم صد هجوم التتار المنتصرين ، كما أنه لا يوجد أيضا لدى الأهالى ذلك القدر من الجرأة والمثابرة الذى يجعلهم يتوجهون لميدان المعركة بعد ذلك ، وحرصا على المصلحة العامة وضمانا لسلامة العواقب على الخليفة أن يأمر بتنفيذ ذلك الرأى ، وهو أن يترك خليفة الإسلام بوابات دار السلام مفتوحة ، وينحى النزاع جانبا ، ويعرض عليه قبول الصلح والاتفاق ، ويقدم بأسرع ما يمكن على الصلح مع هولاكو دون ماتردد أو تأخر محملا بالهدايا النفيسة والأموال الكثيرة ، وسوف يسعد هولاكو بلقائه ، وبعد تقوية أواصر الصداقة وكثرة الاختلاط والمجالسة — بفضل هذا التدبير — يمكن عقد مصاهرة قوية بينهما ، ويتم زواج خلف صدق الخليفة (ولى عهده) بإحدى بنات البيت الخانى ، وبذلك يمكن الافتخار والمباهاة ، ومما لاشك فيه أنه لهذا السبب سوف تأخذ جميع الولايات زينتها مشاركة منها فى هذه الأفراح وتلتئم وتتجدد عظمة السلطنة وهيبة الخلافة تيمنا بهذه المصاهرة . »

وهكذا قضى على طوفان الخوف والرعب الذى كان قد استولى على الخليفة ، بحيث أصبح لايمكنه التمييز مطلقا بين الحق والباطل ومعرفة الفرق بين الصدق والكذب ، ولما كان ظاهر هذه الكلمات يدل على أن الموافقة عليها ستكون بداية الخير والصلاح فقدترك المستعصم سبيل المنازعة وأسلم زمام الآمال لمقتضيات الظروف والأحوال ، وتوجه لمقابلة هولاكو خان فى يوم الأحد الموافق الرابع من صفر عام ٦٥٦ هـ بصحبة ابنيه أبى بكر [١٠٥] وعبد الرحمن وكثير من العلويين والعلماء ، وخرجوا من بوابة دار السلام قاصدين قصر هولاكو خان .

مصرع عربى : « آه من عزمة بغير إياب » .

ولما وصلوا سمح للخليفة وولديه ونفر من الخدم بالدخول ، وأوقفوا الباقين ، وتدفق جند هولاكو بحماسة كالبحر الهائج رافعين أصوات الظفر كالرعد الهادر إلى بغداد للإغارة على هذه البلدة الجميلة ، ونهب ما فيها وتخريبها ، فاعملوا القتل فيمن يعترضهم والتخريب فى الديار والقصور التى تقابلهم ، إلى أن سووا دار السلام بالأرض كلية ، ثم تشاور هولاكو خان مع رجاله حول موضوع إبقاء خليفة العصر أو القضاء عليه ، فاتفقوا جميعا على قتل الخليفة ، فلفوا المستعصم فى قطعة من القماش ، وألقوا بجسمه الرقيق على الأرض ، وفصلوا بقسوة الارتطام أجزاء جسمه عن بعضها .

(بيت ، ترجمته)

— لم يلحق الظلم به وحده

— ، بل شمل بنفس الطريقة الكثيرين

والخلاصة أنه حينما هب نسيم انتصارات هولاكو خان ، وعلا صوته وانتشر

وانتشر سلطانه فى البلاد ، وانطفأت شموع دولة العباسيين . وطلب ابن العلمقى (١) من هولاكو خان أن يوليه حاكما على بغداد وعربستان مقابل جهوده فى الخديعة والمكر والتزوير الذى أدى إلى سقوط دولة ولى نعمته ، فقال له هولاكو خان : إن كل من يسعى من أجل زوال دولة ولى نعمته ويضلله ، فمثله لاينفع قوات السلطان ، ولا يليق أن يلتحق بخدمتنا ، ويصدق عليه قول القائل :

---

(١) مناقشة موضوع خيانة ابن العلمقى من عدمه انظر

ترجمة المرحوم الأستاذ الدكتور — إبراهيم أمين الشوارفى ص ٥٨٧ .

(بيت ، ترجمته)

— الصاحب الذى يتنكر لسيده

— تكون نهايته بمثل مافعل

[١٠٦] وحينئذ أسند هولاكوخان منصب الوزارة إلى على بهادر الذى كان أول من دخل دار السلام،وأنعم بمنصب الحاكم على ابن عمران الذى لم يفقد طوال عمره الأمل فى تحقيق تلك الأمنية ، وأمر ابن العلقمى بالخدمة تحت إمرة ابن عمران مبطلا وطاوياً كل ما كان قدمه له من حب وتضحية . وقد تحدث المغول الأقوياء وأهالى دار السلام جميعهم بذم وتقبيح ابن العلقمى ، وكان الجميع من العامة والخاصة يسبونه علنا حينما كان يسير — خجولا مضطربا — فى الحوارى والأسواق .

(بيت ترجمته) :

— حينما تفعل سيئة لا تنتظر حسنة

— لأن الورود تخلف الورود وتخلف الأشواك الأشواك

وظلت العبارة التالية مكتوبة على الأبنية ، وقد كتبها المتتبعون لتصرفات ابن العلقمى والمنتقمون منه وهى « لعن الله من لا يلعن ابن العلقمى » ، وقد حذف أحد أصدقائه حرف « لا » من تلك العبارة ، فقبض عليه الناس وضربوه سبعين عصاً أدبا له لارتكابه تلك الفعلة السيئة وهكذا أخذ يمضى ابن العلقمى بقية حياته — والتى كان يفضل الموت عليها — إلى أن توفى . وبعد . . فيلزم على من يعملون فى بلاط الحكام أن يطهروا أنفسهم من صفات المكر والخديعة ، متجنبين نكران الجميل ، محترسين من الانسياق وراء أمور الغدر والخيانة حتى لا يعاقبوا فى الدنيا ولاتعاقبوا فى الآخرة مهتدين بقوله — تعالى — : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد(١) »

بيتان وترجمتها

— كل شر يصدر من البشر

— لا يكون أسوأ من الكفر بالنعمة

— فلا تغتر ولا تجاهر بالكفر بالنعمة

— لأنك ترى مضاره هكذا من الزمن

(١) سورة إبراهيم ، آية (٧) .

[١٠٧] الحديث عن وزراء السلاطين

لقد حان الوقت الآن لنبدأ الحديث عن بعض أحوال وزراء السلاطين ، ونظرا لأن ملوك الدولة الطاهرية كانوا يتبعون دار الخلافة ولم يستقلوا بالحكم ، ونظرا لأن مدة حكم الدولة الصفارية — التي حققت استقلالا نسبيا — لم تتجاوز الثلاثين عاما ، ونظرا لأن أخبار وزراء هاتين الدولتين لم تتضح في كتب المتقدمين ، فسوف نبدأ بالحديث عن أحوال وزراء الدولة السامانية ، ونطلب من الله الإعانة والتوفيق .

وزراء سلاطين الدولة السامانية

يمتد نسب ملوك السامانيين – الذين تولوا الحكم فى ما وراء النهر وخراسان – إلى بهرام جوبين ، وبلغ تسعة منهم مرتبة السلطنة الرفيعة ، وامتد حكم تلك الطائفة ١٠٢ عاما وبضعة أشهر وأسماؤهم كما يلى :

١ – إسماعيل بن أحمد السامانى

٢ – أحمد بن إسماعيل

٣ – نصر بن أحمد

٤ – نوح بن نصر

٥ – عبد الملك بن نوح

٦ – منصور بن نوح بن نصر

٧ – نوح بن منصوربن نوح

٨ – منصور بن نوح بن منصور

٩ – عبد الملك بن نوح بن منصور

وفيما يلى ما اتضح من أخبار وزرائهم :

[١٠٨] الوزير أبو الفضل البلعمى

وتولى الوزارة أيام الملك العظيم الأمير إسماعيل ، وقام بإدارة هذا العمل الكبير كما يجب وينبغى ، ثم انتقل إلى العالم الآخر – بسبب سعاية خمارتگين – فى عصر الأمير نوح .

الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد :

وكان يقوم بتنظيم أمور الدولة أيام سلطنة الأمير أحمد بن إسماعيل ، ولما توفى الأمير أحمد قام أهالى بخارى بتنصيب ولده الأمير نصر — وكان حديث السن — على عرش السلطنة ، ولكن سكان ما وراء النهر جميعهم رغبوا فى تنصيب عم والده اسحق السامانى — وكان يتولى حكم سمرقند — ولم يعبثوا بالأمير نصر . أما أبو عبد الله فقد تكفل بإدارة مهام الحكم ، وبذل جهدا كبيرا فى تنظيم الدولة واستمالة الجيش والسهر على راحة الرعية إلىأن هزم الأمير اسحق—بقدرةالله سبحانه وتعالى — وأدخل جميع المخالفين للأمير نصر فى طاعته ، وفاقت منزلته منزلةآبائه وأجداده .

الوزير أبو الفضل محمد بن أحمد الحاكم :

حينما اعتلى الأمير نوح بن نصر السامانى عرش السلطنة أسند منصب الوزارة إلى أبى الفضل ، وبذل أبو الفضل جهدا كبيرا فى جمع أموال السلطنة ، ولكنه أغلق أبواب المنفعة أمام الأمراء والجنود ، [١٠٩] فحقدت تلك الجماعة عليه ، ولما تمرد أبو على بن محمد بن محتاج — حاكم خراسان — على الأمير نوح ، وتوجه الأمير نوح بجيش ما وراء النهر وعبر نهر آمو لمحاربته ، قال له قادة الجيش :

« لقد رأس أبو على عصابة العصاة بسبب تصرفات الوزير الخاطئة ، كما أن الوزير أنقص قدراً كبيرا من مئونتنا ، فلو يسلمه السلطان لنا فإننا سوف نستمر فى خدمته ، وإلا فسوف ننضم إلى أبى على » ، فسلم الأمير نوح أبا الفضل — مضطرا — إلى الأمراء ، فقاموا بقتله فى جمادى الأولى عام ٣٣٥ هـ . وبعد . فيجب على شاغل منصب الوزارة أن يخصص جزءا من أموال الديوان للمسئولين الكبار ، وأن لا يسلك سبيل العناد مع المربين للسلطان ، ويفتح أمامهم أبواب المنافع والفوائد ، ويبذل ما فى وسعه من أجل ارضائهم . ومن الأقوال الحكيمة للنبى إدريس — عليه السلام — قوله : « لا تغتر بحب السلطان حينما يكون المقربون منه أعداءك » .

(رباعی ، ترجمته)

— يامن سكنت بيت الوزارة

— ازرع فيه محبة السلطان لك

— ولا تغتر بحب السلطان

— حينما يكون المقربون منه أعداءك

الوزير أبو جعفر العتبى :

وكان يعرف بكثرة الفضل والأدب ويتصف بعلو الأصل والنسب ، كما كان ذا خبرة فى إدارة الوزارة ، ومعرفة أسرار الدولة ، وتولى الوزارة أيام حكم عبد الملك بن نوح بن نصر الساماني ، فعمر خزانة السلطان [١١٠] بحسن كفاءته ، وفى النهاية استشهد بسبب دسائس الأمير مظفر بن محتاج .

الوزير أبو الحسين العتبى :

وكان وزيرا عظيما ذا رأى سديد ، وكانت له أياد بيضاء فى تسيير أمور السلطنة وتدبير شئون الدين والدولة ، ولما اعتلى الأمير نوح بن منصور السامانى عرش السلطنة قلد ذلك الحكيم منصب الوزارة الجليل ، وقد أشم أبو الحسين رائحة الخلاف من أبى الحسن محمد بن إبراهيم بن سيمجور — وكان حاكما على ولاية خراسان — وأبلغ هذا الأمر إلى الأمير نوح ، فقام الأمير نوح بعزل أبى الحسن ، وقلد حسام الدولة أبو العباس تاش ذلك المنصب ، وأثناء حكم حسام الدولة هرب فخر الدولة الديلمى وقابوس بن وشمكير وجاءوا إلى خراسان — عن طريق العراق وجرجان — خوفا من بطش مؤيد الدولة ، فقام حسام الدولة بأمر من الأمير نوح بجمع جيش واصطحبهم فى عام ٣٧١هـ إلى استر أباد لمقاتلة مؤيد الدولة ، ولكنه رجع مهزوما من تلك الحملة إلى نيشابور ، وبعث برسول إلى بخارى أخبر الأمير نوح بوقوع هذه الحادثة الكبرى ، فأمر الأمير نوح أبا الحسين العتبى بجمع الجنود والتوجه لنصرة حسام الدولة ، وخلع على ذلك الوزير الخلع الفاخرة ، فتكللت حملة الوزير بالنجاح وعاد بكثير من الغنائم ، وبذلك أصبح أبو الحسين [١١١] صاحب فضيلة وسيف وقلم ، ولكن حينما بلغت مكانة الوزير — بما تحقق له من نجاح

وانتصار — حد الكمال ، أخذت فى التراجع بمقتضى الحكمة القائلة « إذا تم أمر دنا نقصه » فكان حصوله على تلك الخلع والغنائم قرينا لزواله ونهاية حياته ، وتوضيح هذا الكلام هو أن أبا الحسن سيمجور — الذى كان قد عزل من حكم خراسان — قام بالاتصال بفائق — أحد الأمراء العظام — وأخذ يروى له فصولا كثيرة كلها إساءة وتقبيح للوزير ، وأثر ذلك الكلام فى فائق ، فحرض بعض الغلمان على قتل الوزير ، واتفقوا على تنفيذ هذه المهمة ، وأخذوا يتحينون الفرصة للتنفيذ ، وقد علم أبو الحسين بهذا الأمر فخشى على نفسه ، وعرض هذا الأمر على الأمير نوح ، فكلف الأمير نوح طائفة من خدمه الخصوصيين بحراسة الوزير ، ولكنه نظرا لأن القدرة الإلهية لايردها تدبير البشر ، فقد حدث حينما كان الوزير خارجاً من منزله متجها إلى قصر الإمارة أن وجد الأعداء فرصتهم ، وضربوا ذلك العظيم عدة ضربات أجهزت عليه ، وكان حسام الدولة وفخر الدولة وقابوس ابن وشمكير فى ذلك الوقت ينتظرون مقدم الوزير فى نيشابور ، وفجأة بلغهم هذا النبأ الأليم ، فتفرق جمعهم واستولى الحزن والأسى عليهم ، فتوجه حسام الدولة إلى بخارى حتى يقف على حقيقة تلك الحادثة ، وبعد وصوله أرشد عن بعض قتلة أبى الحسين فأعدموا ، وتفرق الباقون فى البلاد والأقطار .

الوزير أبو الحسين المزنى :

[١١٢] كان فى بداية حياته يعمل مستوفيا لديوان الأمير نوح الساماني ، ثم تكفل بمنصب الوزارة بعد استشهاد أبى الحسين العتبى ، ولما علم أبو الحسن سيمجور بهزيمة أبى العباس تاش ، ومقتل أبى الحسين العتبى ، تحرك إلى خراسان قادما من ولاية سيستان — التى كان يعيش فيها بعد عزله من حكم خراسان — دون الحصول على إذن بذلك من السلطان ، وحينما علم أبو الحسين المزنى بهذه الحركة أرسل رسولا إلى ابن سيمجور حاملا إليه رسالة يقول له فيها :

« من الواجب عليك أن لاتتعرض لولاية خراسان ، وعليك بالتوجه إلى ولاية قهستان ، حيث إقطاعاتك ؟ » . ووافق أبو الحسن على ملتمس الوزير ، فأضاف الوزير مقاطعتى بادغيش وكنج رستاق إلى إقطاعاته ! ولكن هذا التصرف لم يعجب

حسام الدولة ، فلا غرابة أن قام — عندما توجه من بخارى إلى خراسان — بعزله أبي الحسين المزنى من ذلك المنصب .

الوزير عبد الرحمن الفارسي :

وكان من رجال حسام الدولة ، وأسند إليه حسام الدولة الوزارة بعد عزل المزنى ، ولكنه حينما وصل أبو العباس إلى خراسان، قام الأمير نوح بعزل الفارسى وقلد عبد الله عزير ذلك المنصب .

الوزير عبد الله عزيز :

[١١٣] كان من مشاهير وزراء الفرس ، كما كان مرجعا وملاذا لأصحاب السيف والقلم ، وحينما تقلد الوزارة أوعز إلى الأمير نوح الذى عزل حسام الدولة من حكومة خراسان ، وأسند ذلك المنصب مرة أخرى إلى أبي الحسن سيجمور ، ولما يئس حسام الدولة من الأمير ، لجأ إلى فخر الدولة الديلمى ، فقام فخر الدولة بعمل اللازم نحو تاش ، وأمده بالرجال والعتاد ، ولكن شيئا لم يتحقق له بهذا ، ولم يستطع حسام الدولة الظفر بحكم خراسان مرة أخرى . وفى عام ٣٧٧ ه عزل عبد الله عزير من الوزارة وذهب إلى خوارزم ، ولكن الأمير نوح طلبه بعد فترة وقلده الوزارة مرة أخرى ، وحينما استولى الأمير ناصر الدين سبكتكين على الدولة السامانية ، ولسبب من الأسباب أمر سبكتكين بسجن عبد الله عزير ، وظل يعيش فى ذلك السجن حتى توفى .

الوزير ابو على الدامغانى :

وقد تقلد الوزارة حينما أبعد عنها عبد الله عزير وذهب إلى خوارزم ، وعندما وجدت الاضطرابات طريقها فى أنحاء دولة الأمير نوح ، واستولى بغراخان ومجموعة أخرى من المعارضين على أملاك السامانيين ، عجز عن تدبير الأمير فعزل عن ذلك المنصب بسرعة .

الوزير أبو على البلعمى :

تولى الوزارة لبضعة أيام بعد عزل الدامغانى ، ونظرا لأن درجة الاختلال والاضطراب فى تلك الدولة كانت قد وصلت إلى درجة لا يمكنه مواجهتها فقد استدعى الأمير نوح عبد الله عزير من خوارزم، وكلفه [114] مرة أخرى بتولى ذلك المنصب . وقد جاء فى تاريخ گزيده أن أبا على محمد بن محمد البلعمى كان وزيرا لمنصور بن عبد الملك بن نوح ، وقام بترجمة تاريخ محمد بن جرير الطبرى .

الوزير أبو نصر أبو زيد :

كان صاحب ديوان الرسائل والإنشاء لمدة طويلة أيام الدولة السامانية ، ولما سجن الأمير ناصر الدين سبكتكين عبد الله عزير أسند وزارة الأمير نوح إلى أبى نصر ، وكان يتصف بالصفات الحميدة والطباع الحسنة ، وقد بذر — أيام توليه الوزارة — بذور الجود والسخاء والبذل والعطاء فى قلوب الفضلاء والأحياء وسعى بكل جهده فى تدبير مصالح الدولة وارضاء الجيش والرعية ، وفى أخريات أيامه استشهد بطعنة خنجر على يد بعض غلمان الدولة السامانية .

الوزير أبو المظفر محمد بن ابراهيم :

وكان معروفا ومتصفا بصفاء الطبع ، ونقاء الذهن ، وتولى الوزارة — بناء على تعليمات الأمير ناصر الدين سبكتكين — بعد استشهاد أبى نصر ، ولما توفى الأمير نوح السامانى واعتلى الأمير أبو الحارث منصور بن نوح عرش السلطة استقال محمد بن ابراهيم من منصب الوزارة ، وذهب إلى جوزجانان (1) ، وأقام هناك فترة ثم توجه إلى نيشابور واستقر بها حتى نهاية عمره ، وقضى بها ثلاثين عاما فى القراءة والإطلاع وتأليف الرسائل .

---

(1) جوزجانان أو جوزجان اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهى بين مروالروذ وبلخ، ويقال لقصبها اليهودية ، ومن مدائنها الأنبار وفارياب وكلار ، وبها قتل يحيى بن زيد بن على ابن الحسين بن أبى طالب (رضى الله عنه) فتحها الأحنف بن قيس عام ٣٣هـ .

(انظر معجم البلدان — ياقوت الحموى ، المجلد الثانى ج ٦ ص ١٨٢ ، بيروت ط ١٣٧ هـ — ١٩٥٦م ج .

الوزير أبو الحسن الحموئى :

وكان فى بداية أمره أحد المقربين من السلطان محمود الغزنوى ، فلما اعتلى أبو الحارث منصور بن نوح السامانى عرش السلطنة ، أرسل السلطان محمود أبا الحسن إلى بخارى محملا بالتحف والهدايا الكثيرة لطلب الموافقة على ولايته على خراسان مؤكداً الالتزام بالعقد والميثاق ، وقد وصل الحموئى إلى بخارى بعد طيه المنازل والديار ، فبشره بكتوزون وفائق – اللذان كانا على عداء وخلاف مع السلطان – بالوزارة ، وقد سر أبو الحسن واغتر بتولى ذلك المنصب ، ومكث ناسيا ما كلفه السلطان به ، وبعد ذلك وبعد أن مر عام ونصف على هذا الوضع ، قام بكتوزون وفائق بالقبض على الأمير أبى الحارث وسملا عينيه ، وعزلا الحموئى من منصب الوزارة .

الحديث عن وزراء الديالمة

يعتقد بعض المؤرخين بأن نسب أبي شجاع بن بويه — والد سلطان الديالمة — يمتد إلى بهرام كور ، والبعض الآخر يعتقد بأن بويه من نسل ديلم بن ضبه ، ولكن الأمر الذى يتفق عليه المؤرخون هو أن سبعة عشر شخصا من آل بويه بلغوا مرتبة الاستقلال بالسلطنة ، وامتدت فترة حكمهم فى العراقين وفارس إلى ١٢٧ عاماً ، وأسماؤهم كما يلى :

١ — [١١٦] عماد الدولة على بن بويه

٢ — ركن الدولة حسن بن بويه

٣ — معز الدولة أحمد بن بويه

٤ — عضد الدولة بن ركن الدولة

٥ — مؤيد الدولة بن ركن الدولة .

٦ — فخر الدولة بن ركن الدولة

٧ — شرف الدولة أبو الفوارس شيرذيل بن عضد الدولة

٨ — صمصام الدولة بن عضد الدولة

٩ — بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة

١٠— مجد الدولة بن فخر الدولة

١١— سلطان الدولة بن بهاء الدولة

١٢— شرف الدولة بن بهاء الدولة

١٣ — أبو كاليجار بن سلطان الدولة

١٤ — جلال الدولة بن بهاء الدولة

١٥ — قوام الدولة أبو الفوارس بن بهاء الدولة

١٦ — خسرو فيروز بن أبي كااليجار

١٧ — أبو منصور فولاد ستون بن أبي كاليجار

[١١٧] وفيما يلي ما اتضح لى من أخبار وزرائهم :

الوزير أبو الفتح بن عميد :

بلغ مرتبة الوزارة فى عهد السلطان ركن الدولة ، وقد علا شأنه كثيراً ، وأصبح مرموقا إلى حد كبير لدرجة أنه فى تلك الأيام التى كان قد تغير فيها ركن الدولة — وكان يلزم فراش المرض — على ولده الأكبر عضد الدولة ، وظن عضد الدولة أن والده ربما يتوفى وهو غير راض عنه ولا يتمكن من الحصول منه على الوصية بخلافته ، قام عضد الدولة — بعد تأمل وتفكير — بإرسال رسول إلى أبي الفتح يحمل له رسالة يقول فيها : « أرجو أن تطيب خاطر ركن الدولة من ناحيتى حتى يستدعينى ويرضى عنى ! » ، فوافق أبو الفتح وبذل جهدا مشكورا فى هذا الغرض ، وأرسل يستدعى عضد الدولة على وجه السرعة من شيراز ، وحينما وصل عضد الدولة عند والده العظيم فى اصفهان — وكان ركن الدولة قد أحضر بقية أولاده أيضا — رتب أبو الفتح احتفالا كبيرا لهم ، واجتمع ركن الدولة وأبناؤه الأمجاد فى منزل الوزير ، وقسم ركن الدولة فى ذلك الاجتماع الولايات التابعة له بين أبنائه ، وأمر فخر الدولة ومؤيد الدولة بإطاعة وتنفيذ أوامر عضد الدولة .

الوزير محمد بن حسن المهلبى :

وكان يتولى الوزارة لمعز الدولة ، وقد حظى بمكانة عالية ، وكان سخيا ، ذا همة عالية ، وتوفى عام ٣٥٢ هـ .

الوزير أبو جعفر محمد صيمرى :

وتولى الوزارة أيضا أيام معز الدولة ، واشتهر بالتعقل وحسن التدبير .

الوزير نصر بن هارون النصرانى

تولى الوزارة أيام عضد الدولة ، وبذل جهوداً كبيرة فى تعمير كنائس النصارى ومعابد الرهبان ، ولما توفى عضد الدولة ، وجلس ابنه أبو الفوارس على عرش السلطنة ، بادر بقتل نصر بن هارون ، فالحكم والبقاء لله .

الوزير الصاحب الكافى اسماعيل بن عباد :

كان وحيد عصره وزمانه فى العلم والفضيلة ، والفهم والفطانة ، كما كان إمام الوزراء العظماء فى صواب الرأى والتدبير ، وفى نورانية الخاطر وصفاء الضمير .

(بيتان ، ترجمتهما)

— لقد سد برأيه السديد طريق الفتن فى الدولة

— وكانت طلعته البهية فاتحة نصر على الرعية

— وفتح أبواب السعادة حيثما توجه

— وأمر الزمن بأن يطيع أوامره .

وقد تولى الوزارة لمؤيد الدولة الذى كان حاكما على بعض ولايات العراق ، فلما توفى مؤيد الدولة أخذ [١١٩] أركان الدولة وأعيانها يتشاورون حول أى من أولاد آل بويه يولونه مكانه ، فقال لهم الصاحب الكافى :

« ليس هناك من يتساوى من ملوك الديالمة — ممن يستحقون السلطنة — مع فخر الدولة ، لذلك يلزم استدعاوه من خراسان ليقوم بتنظيم أمور الدولة » ، فأجمعت آراء الأمراء على هذا الاختيار ، وبعثوا رسولا بسرعة إلى نيشابور ، وبشروا فخر الدولة — الذى كان يعيش فى كنف حسام الدولة أبى العباس تاش — بالسلطنة ، فتوجه فخر الدولة بسرعة البرق والرياح إلى العراق ، وفى شهر رمضان عام ٣٧٣ هـ وصل إلى ولاية الرى وتمكن من الجلوس على عرش السلطنة ، وفوض الوزارة للصاحب بن عباد . وقد وصل الصاحب إلى مكانة عالية لدى السلطان خلال فترة قصيرة جدا بفضل خصاله الحميدة ، وأفعاله المجيدة ، وخبرته الوفيرة ، وكفاءته الكبيرة ، وصار صاحب الأمر والنهى فى إدارة شئون الملك والمال . وفى سنة ٣٧٧ هـ توجه الصاحب بن عباد إلى طبرستان بأمر فخر الدولة ، وبذل جهدا

كبيرا فى جمع وتنظيم أموال تلك الولاية ، وهزم وأدب الجماعات المتمردة ، كما قام بفتح عدة قلاع هامة ، ثم عاد فى نفس العام ، وفى عام ٣٧٨ هـ أمر ذلك الوزير الهمام بأن يضربوا عدة عملات فى جرجان ، كل قطعة تزن ألف مثقال من الذهب ، نقشوا على أحد جانبي كل قطعة سبعة أبيات من الشعر أحدها البيت التالى :
شعر عربى :

واحمر يحكى الشمس شكلا وصورة فأوصافه مشتقة من صفاتها

[١٢٠] كما نقش على الجانب الآخر للقطع سورة الإخلاص ولقب فخر الدولة ولفظ جرجان ، وفى عام ٣٨٥ هـ حل مرض الموت على الصاحب ، وفى تلك الأثناء زاره فخر الدولة فحدثه الصاحب قائلا له :

« لقد سعيت خلال عملى بالوزارة فى رواج دولتكم بكل جهدى ، وجعلت اسم السلطان يقترن — فى العالم — بالطيبة والعدل والإحسان ، والآن لدى التماس أرجو قبوله وهو أن يستمر السلطان على هذا المنوال حتى تؤتى جهودى أكلها فى أيامه المباركة ، فأنا لاأميل إلى الشهرة ، وراض تماماً بأن يشتهر السلطان بالسمعة الطيبة دون أن يذكر اسمى ، وإذا جاء أحد رجال السلطنة بأمر على خلاف ماقلته ، وأعلن على الناس بأن هذا من صنعى — ويكون هذا الأمر فيه ضرر بالدولة سببا فى اختلالها — فإنى أرجو أن لا يأخذ السلطان بقول المغرضين وأهل الفتنة ، ولا ينحرف عن جادة الصواب »

فقبل فخر الدولة هذه النصائح من الناحية الظاهرية ، ولكنه بعد وفاة الصاحب تصرف فخر الدولة فى ممتلكاته وحرم أبناءه منها ، كما صادر ممتلكات المقربين والمتصلين به واستولى على أموالهم . وجاء فى روضة الصفا أنه حينما حملوا نعش الصاحب بن عباد إلى المسجد للصلاة عليه كان أعيان الديالمة يقبلون الأرض أمام نعشه بسبب الهيبة والجلال التى كان عليها ، وقد علقوا تابوته فى سقف المنزل ، وبعد فترة حملوه إلى إصفهان حيث دفنوه ، وقد استمر الصاحب فى الوزارة مدة ثمانية عشر عاما ، وذلك العدد الهائل من الكتب النفيسة التى جمعها ، لم يتيسر جمعها لوزير قط ، بل لم يتيسر [١٢١] لصاحب عرش وسلطان ، فحينما كان مسافرا فى إحدى السفريات كان أربعمائة جمل يحملون كتبه ، والعهدة على الراوى .

الوزيران أبو العباس الضبى ، وأبو على بن الحموى الأصفهانى :

بعد وفاة الصاحب بن عباد ، دفعا مبلغ عشرة آلاف دينار ، وأصبحا وزيرى فخر الدولة ، وقد قاما بمصادرة أموال الأغنياء ، وانزال المظالم بالأبرياء طوال حياة فخر الدولة ، ولم تتضح نهايتهما .

الوزير « خطير ابو على » :

وكان وزيرا لمجد الدولة بن فخر الدولة ، وبعد أن تولى هذا الأمر الخطير فترة حدث أن اختلفت « سيدة » والدة مجد الدولة مع ابنها ، ودارت الحرب بين الأم والابن كتب فيها النصر للأم ، وأسر مجد الدولة مع خطير أبى على وانفردت « سيدة » بالحكم ، ولكنها بعد فترة صفت لابنها وأما الوزير فلم يتحدث عنه أحد بعد ذلك .

الوزير ابن سهلان :

كان من بين وزراء سلاطين الديالمة ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة من فنون والتزوير إلا واستعملها ، وقد قامت منازعات وحروب كثيرة بسببه بين سلطان الدولة بن بهاء الدولة وأخيه مشرف الدولة ، وفى النهاية تصالح الأخوان واتفقا سويا بألا يعين أى منهما ابن سهلان وزيرا له ، وتولى مشرف الدولة إمارة العراق العربى نائبا لأخيه ، واختصت ولاية فارس والأهواز بسلطان الدولة ، وعلى هذا الأساس توجه سلطان الدولة من العراق العربى إلى الأهواز [١٢٢] ، فلما وصل إلى « تستر (١) » عين ابن سهلان وزيرا — مخالفا بذلك ماتم الاتفاق عيه — وجهز له جيش وأرسله لمحاربة مشرف الدولة ، واشتبك مشرف الدولة فى الحرب مع

---

(١) تستر : بالضم ثم بالسكون ، وفتح التاء ، وراء ، أعظم مدينة بخوز ستان اليوم ، وهى تعريب شوشتر ، قال حمزة الأصفهانى : « الشوشتر مدينة بخوز ستان تعريب شوشر باعجام والطيب واللطيف ، فبأى الأسماء وسمتها من هذه جاز » . قال : وشوشتر معناه معنى أفعها ، فكأنه قال : أنزه وأطيب وأحسن ... وبخوز ستان أنها كثيرة ، وأعظمها نهر تستر وهو الذى بنى عليه سابور الملك ، شاذ روان بباب تستر حتى ارتفع ماؤه إلى المدينة لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض . وهذا الشاذ روان من عجائب الأبنية ... وقيل إنه ليس فى الدينا بناء أحكم منه . وقال ابن المقفع : أول سور وضع فى الأرض بعد الطوفان سور السوس وسور تستر .

(انظر ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المجلد الثانى جـ ٥ ص ٩ ، ٣١ . بيروت ١٣٧٥هـ-١٩٥٦) .

الوزير ، وبعد انتهاء الحرب هزم بن سهلان ، وتوجه إلى واسط فحاصره مشرف الدولة ، وواجه ابن سهلان مجاعة شديدة خلال الحصار ، لدرجة أنه لم يبق هناك أثر لكلب أو قط ، وبناء على ذلك خرج ابن سهلان من القلعة مستسلماً لمشرف الدولة ، وفى عام ٤١١ هـ انضم إلى مشرف الدولة أخوه الآخر جلال الدولة — الذى كان حاكما على البصرة وعلى خلاف مع سلطان الدولة أيضا — وقبض الأخوان على ابن سهلان وسملا عينيه .

الوزير فخر الملك :

كان يشغل منصب الوزارة فترة من الوقت لبهاء الدولة وسلطان الدولة ، وكان من أجلة وزراء آل بويه ، كما كان معروفا بالفضل وعلو الهمة ، وقد نشر العدل ورعى الرعية أثناء توليه الوزارة ، ووضع ابن الحاسب كتابه « المخزن فى الجبر والمقابلة » باسمه ، وحسب رواية اليافعى فإن ذلك الوزير العظيم توفى عام ٤٠٧ هـ . وجاء فى بعض الكتب الأخرى بأن أبا غالب فى أواخر[1] .. ..

الوزير أبو غالب بن محمد بن على :

كان وزيرا لمشرف الدولة ، ولما أمر مشرف الدولة بأن يذكر اسمه فى الخطبة ، طلب جماعة من [١٢٣] الديالمة — كانوا يميلون إلى سلطان الدولة — من مشرف الدولة الإذن لهم بالتوجه إلى الأهواز ، حاملين معهم متعلقاتهم فى بغداد ، فأذن لهم مشرف الدولة ، وأمر بأن يرافقهم أبو غالب حتى لا ينقضوا عهدهم ، ولما وصل الديالمة إلى الأهواز أظهروا معارضتهم لمشرف الدولة ، وبادروا بقتل أبى غالب .

الوزير أبو على بن ماكولا :

عمل بالوزارة لجلال الدولة بن بهاء الدولة ، وفى عام ٤١٩ هـ بدأ بعض الأتراك وجنود بغداد — الذين كان أبو على قد أهمل وصول مرتباتهم إليهم عن اضطرار أو عمد — بحملة من الفوضى والتخريب ، وأغاروا على منزل أبى على وخربوه ، كما حبسوا جلال الدولة أيضا فى قصره حتى يبيع ممتلكاته ، فرضخ أمام تلك الجماعة ، وفى عام ٤٢٢ هـ تمرد أيضا بعض الأخساء من الأتراك وأغاروا مرة أخرى على

---

(١) الجملة ناقصة هكذا فى النص الأصل .

قصر ذلك الوزير المسكين ، وفى ٤٢٥ هـ توفى جلال الدولة ، فاستراح بذلك أبو على من غارات الأتراك .

الوزير الصاحب العادل :

كان وزيرا لأبى كاليجار مرزبان سلطان الدولة ، وبعد وفاة أبى كاليجار قتل ابنه أبو منصور فولادستون الصاحب بتحريض من والدته ، والعظمة والبقاء لله الملك المعبود .

مقال عن أحوال الشيخ أبو على بن سينا :

لما كان — أعلم علماء المتقدمين ، وأستاذ حكماء المتأخرين — الشيخ أبو على ابن سينا قد تولى منصب الوزارة أكثر من مرة ، فإنه من اللائق أن نورد بعضا من أخبار ذلك الشيخ العظيم ضمن هذا الكتاب والإعانة من الله الودود .

كان والد الشيخ أبى على عبد الله بن سينا من عمال وكفاة بلخ ، وبتقدير من الله —سبحانه وتعالى— رحل إلى بخارى فى عهد الأمير نوح بن منصور السامانى ، وأرسله وزراء بخارى للعمل بقرية « أفشنة (١) » ، فتزوج عبد الله بامرأة من تلك القرية اسمها « ستاره » وأنجب منها فى شهر صفر عام ٣٦٣ هـ الشيخ أبا على ، ولما بلغ الخامسة من عمره عاد والده إلى بخارى من أفشنة ، وبعث بأبى على إلى معلم ، وخلال خمس سنوات تعلم الشيخ قواعد اللغة العربية وآدابها كما ينبغى ، وذلك بفضل نضوجه المبكر ، وشدة إقباله على تلقى الدروس .

(بيتان ، ترجمتهما)

— الغصن الذى يقدر له الارتفاع

— ينمو دائما فى البداية ويزدهر

— ويصبح برعمة يمكن وصفها بقولك

— هذه وردة متفتحة سوف تثمر كثيرا !

---

(١) أفشنة : بفتح الهمزة ، وسكون الفاء ، والشين معجمة مفتوحة ، ونون ، وهاء : من قرى بخارى .

(انظر ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المجلد الأول ، جـ ٢ ص ٢٣١ ، بيروت ١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م .)

وبعد ذلك تعلم الحساب على يد محمود المساح الذى كان بقالاوماهراً فى علم الحساب ، ثم حمله والده إلى منزل الشيخ أبى عبد الله الناتلى الذى كان من كبار حكماء عصره ، فاستقبله الشيخ استقبالا طيبا ، وفتح أبواب الخير أمامه ، وقد نقل عنه أبوعلى علم المنطق والفلسفة والرياضة ، ثم درس الفقه على يد إسماعيل الزاهد .

[١٢٥] وبعدذلك انشغل الشيخ بقراءة العلوم الطبيعيةوالإلهية ، وحقق مسائل وغاريات تلك العلوم ، ثم تولدت لديه الرغبة فى دراسة علم الطب فوصل — خلال فترة قصيرة من الزمن — إلى مرتبة عالية فى هذا الفن لايتصور أن يكون هناك أعلى منها ، وخلال فترة تحصيل الشيخ أبى على لم ينم الليل كله مطلقا ، وبالنهار لايقوم بأى عمل سوى القراءة أيضا ، وكان يجلس بين الأوراق والكتب ويكتب المقدمات القياسية لكل مسألة مع مراعاة شروط قواعد المنطق حتى يتبين له مدى صحة تلك المقدمات أو العكس ، وحينما كان يشك فى إحدى المسائل كان يتوضأ ويذهب إلى المسجد ويصلى لله ركعتين سائلا منه المعونة والتوفيق حتى تظهر حقيقة تلك المسألة ،

والخلاصة أن الشيخ أبا على بن سينا قد نال مهارة فائقة فى جميع الفنون والعلوم وهو لم يزل بعد فى الثامنة عشرة من عمره .

وقد جاء فى الوقت الذى كان الشيخ مشغولا فيه بالدرس والتحصيل فى بخارى ، حدث أن ألم بالأمير نوح مرض عضال ، وعجز جميع أطباء بخارى عن معالجته ، فلما أشرف الشيخ على علاجه شفى الأمير نوح خلال فترة قصيرة ، ولازمه بعد ذلك أبو على ، وحينما كان الشيخ يلازمه طلب من الأمير أن يأذن له بالذهاب إلى مكتبة بخارى والتى كانت تضم بين جوانبها كتب الأولين والآخرين حتى ذلك الوقت ، فاطلع على جميع تلك الكتب النفيسة والغريبة ، وحفظ كل مافيها من حقائق ودقائق ، وتصادف فى ذلك الوقت أن اشتعلت النيران فى تلك المكتبة ، فقالت جماعة من أعداء أبى على إن الشيخ قد أشعل النار عمدا فى المكتبة حتى يمكنه أن ينسب ما بها من علوم إلى نفسه .

وبعد ذلك اشتغل الشيخ أبو على بالتأليف ، ولما بلغ الشيخ الثانية والعشرين توفى والده ، واضطربت [٢٦] أحوال الدولة السامانية ، فذهب أبوعلى إلى خوارزم عند على بن مأمون بن محمد الذى كان يسمي بخوارزمشاه ، فخصص له عملا ،

وكان يوجد فى خوارزم فى ذلك الوقت أبوسهل المسيحى وأبو الريحان البيرونى وأبو نصر العراف وأبو الخير الخمار وكان خوارزمشاه يرعاكم جميعا رعاية تامة ، ومن الأقوال الثابتة أنه حينما بلغت دولة السلطان محمود الغزنوى مكانة عالية قال له جماعة من الأشرار والمفسدين إن الشيخ أبو على يعشق مذهبا فاسدا — وكان السلطان محمود فى منتهى التعصب — فأرسل أبا الفضل حسين بن ميكال إلى خوارزمشاه حيث سلمه رسالة من السلطان يقول فيها «لقد نما إلى علمى أن جماعة من الأفاضل الذين لامثيل لهم يقيمون فى خوارزم ، فيلزم أن تبعث بهم إلى دار السلطنة حتى يتشرفوا بحضور مجلس السلطان »، ولما علم خوارزمشاه بحقيقة نوايا مجلس السلطان استدعى الجماعة المذكورة — قبل أن يستقبل حسين بن ميكال — ووضع حقيقة الأمر أمامهم ، وقال لهم إننى لا أريد أن أبعث بكم إلى السلطان رغما عنكم ، فإذا كنتم لاتريدون الذهاب إليه ، فعليكم أن تدبروا أمركم ، وتتصرفوا قبل أن يراكم مبعوثه فى خوارزم ، فاختار أبو ريحان وأبو الخير وأبو النصر الذهاب إلى السلطان محمود ، وغادر أبو على وأبو سهل خوارزم على وجه السرعة ، وهربا ، وتحملا كثيرا من المشاق أثناء سيرهما فى الصحراء التى بين خوارزم وأبيورد ، وبعد تعب شديد وإجهاد توفى أبوسهل فى تلك الصحراء ووصل أبو على مريضا منهكا إلى أبيورد ، وانتقل من هناك إلى استو ومن [١٢٧] أستو إلى جرجان حيث نزل منزل استراحة قوافل السفر وأخذ يعمل بالتطبيب ، وحينما نجحت جميع وصفاته العلاجية نال شهرة فائقة ، وفى تلك الأثناء مرض ابن أخت قابوس بن وشمكير — وكان حاكما على جرجان — مرضا شديدا ، عجز الأطباء عن معرفة حقيقة مرض ذلك الشاب ، وكان صيت أبى على فى ذلك الفن قد بلغ مسامع قابوس ، فأمر أن يأتوا به لرؤية المريض وألقى عليه نظرة دقيقة فاحصة قال : « هذا الشاب ليس عنده مرض سوى العشق » ، ولكن الشاب المريض أنكر هذا الكلام ، فطلب أبو على من أهله قائلا لهم « آتونى بالشخص الذى يعرف أسماء جميع مناطق استرباد » فأحضر خدم بلاط السلطنة شخصا يدعى « عسس » كان معروفا بهذه الصفات ، فوضع الشيخ اصبعه على نبض المريض وقال لعسس : « اذكر أسماء مناطق المدينة » ففعل عسس ما أمره به ، وحينما ورد على لسان عسس اسم المنطقة التى بها مطلب المريض ، اختلف

نبضه ، وحينئذ قال الشيخ لعسس : « أذكر أسماء حوارى هذه المنطقة » وبنفس الطريقة جاء ذكر اسم حارة معينة اختلف نبضه أيضا ، وبعد ذلك طلب منه ذكر أسماء أصحاب منازل تلك الحارة ، ومرة أخرى اختلف نبضه حينما جاء ذكر صاحب منزل معين ، وعند ذلك قال الشيخ : آتونى بالشخص الذى يعرف جميع سكان هذا المنزل . ولما نفذوا ماطلبه ، بدأ يعدد ذلك الشخص — بناء على طلب أبي على — أسماء ساكنى ذلك المنزل ، وعندما ذكر اسم مايريده المريض تغيرت حالة المريض تغيرا واضحا للدرجة لم يجد معها مجالا للإنكار .

[١٢٨] (بيت ، ترجمته)

— بلاء عشق العاشقين له صفة عجيبة

— فكلما حاولت إخفاءه أكثر يصبح أكثر وضوحا

وعندئذ قال الشيخ للسلطان : « لقد أحب ابن أختك فلانة ، وعلاجه ينحصر فى وصل معشوقته » ، فدهش قابوس من مهارة أبى على الفائقة ، واهتم اهتماما زائدا برعايته .

ومما يذكر أنهم قالوا : لما رجع أبو الفضل حسين بن ميكال من خوارزم — وكان قد ذهب إليها لطلب الشيخ والأربعة العظام الآخرين الذين ذكرت أسماؤهم من قبل — ومثل أمام السلطان محمود وشرح له كيفية عدم تمكنه من لقاء الشيخ أمر السلطان محمود بأن ينقشوا صورة أبى على على لوحات وأوراق كثيرة ، ويبعثوا بها إلى جميع الولايات ، ويبلغوا تلك الولايات أمر السلطان بأنهم حينما يجدون فى أى مكان شخصا بهذا الشكل عليهم أن يرسلوه إلى دار السلطنة ، وكانوا قد أرسلوا صورة أيضا لقابوس ، وبناء على ذلك فحينما أمعن قابوس النظر فى وجه الشيخ ، عرفه ، ونهض واقفا احتراما وتعظيما له ، وأجلس الشيخ فى صدر مجلسه ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة فى سبيل رعايته والمحافظة عليه إلا وفرها ، وبعد مرور فترة من الزمن توجه أبو على صوب بغداد بسبب الكساد الذى حل بولاية استراباد ، فلما بلغ مدينة الرى التى كان حاكمها وابنه مجد الدولة قد سمعا بمكانة أبى على الرفيعة ، فقد بذل مجهودا كبيرا من أجل استرضائه والعمل على إبقائه ، وفى تلك الأيام ظهر مرض الماليخوليا على مجد الدولة وبذل الشيخ جهدا طيبا فى معالجته فشفى مجد الدولة ،

ابن كاكويه عن همدان وأخذا الشيخ معهما من القلعة إلى همدان . وأنزلا أبا على فى قصر عظيم ، فألف فى ذلك القصر كتابه عن الأدوية القلبية ، وفى ذلك الوقت توجه بمصاحبة شقيقه محمود والفقيه أبى عبد الله وغلامين ، متخفين فى لباس الصوفية إلى إصفهان ، فلما وصلوا إلى طبرستان استقبلهم رجال علاء الدولة مرتبين لهم جميع مراسم الاستقبال من جياد مطهمة وملابس نفيسة كملابس الأمراء ، وأنزلوا الشيخ فى منزل يليق بمكانته ، وكان الشيخ يحضر مجلس علاء الدولة فى ليالى الجمعة ، وكان مجلسه هذا مليئا بالعلماء من كل مكان للاستفادة من حديث الشيخ . و قد أكمل كتابه الشفاء فى تلك الولاية .

[١٣١] وفى عام ٤٢٠ هـ حينما قدم السلطان محمود الغزنوى وابنه السلطان مسعود بلاد العراق كان الشيخ أبو على يشغل منصب الوزارة لعلاء الدولة ، وقد خشى الملك والوزير بطش السلطان فتوجها مسرعين إلى نيشابور ، ولما رجع السلطان محمود ترك التصرف فى يد السلطان مسعود ، فبعث علاء الدولة ابنه محملا بالتحف والهدايا إلى السلطان مسعود ، فرضى السلطان مسعود ومنحه حكومة أصفهان وبعد فترة من تولى علاء الدولة حكم أصفهان نائباً عن السلطان مسعود استقلاله بالحكم ناقضاً عهده مع السلطان ، ولما علم السلطان مسعود بهذا الموضوع ، توجه بسرعة إلى أصفهان على رأس جيش كبير ، فهرب علاء الدولة ووقع ابنه فى يد السلطان مسعود ، وقد كتب الشيخ أبو على إلى السلطان مسعود من أجل المحافظة على شرف وكرامة علاء الدولة قائلاله : « إن شقيقة علاء الدولة تليق بك ، فلو تعقد عليها زوجالك تصير لك الولاية على أصفهان» . فسر السلطان مسعود من كلام الشيخ وتزوج تلك المرأة ، وبعد ذلك علم مسعود بأن علاء الدولة يعد العدة لقتاله ، فتضايق كثيراً وغضب لسماع هذا الخبر ، فبعث برسالة إلى علاء الدولة يقول له فيها : « سوف أضع أختك بين أيد المعربدين والأوباش من الجند» . فطلب علاء الدولة من الشيخ الرد على هذه الرسالة ، فكتب الشيخ للسلطان مسعود يقول : [١٣٢] « إذا كانت هذه المرأة هى أخت علاء الدولة ، فإنها الآن زوجتك وفى عصمتك ، وحتى لو تطلقها فإنها تصبح مطلقتك ، وتنتظر عدتك ، والغيرة واجبة على الأزواج لا على الأخوة » . فوقع هذا الرد موقع التأثير ، وأرسل السلطان مسعود أخت علاء معززة مصونة إلى أخيها ، وقد عاد السلطان

وفى الوقت الذى وصل فيه حكم السلطان محمود الغزنوى إلى العراق ، انتقل الشيخ من الرى إلى قزوين ومن قزوين إلى همدان ، وفى تلك الأثناء مرض شمس الدولة بن فخر الدولة — وكان [١٢٩] حاكما على همدان — بمرض الالتهاب الكبدى فشفى من ذلك المرض بفضل أبى على ، وأسند شمس الدولة منصب الوزارة للشيخ ، وبعد أن تولى الشيخ الوزارة بعدة أيام قامت اضطرابات فى همدان ، وأغار بعض الجنود على منزل أبى على ، وحاولوا قتله ، ولكن الشيخ هرب منهم ، واختفى أربعين يوما فى منزل أبى سعيد نامى ، وفى تلك الأيام عاود المرض شمس الدولة ، فبحث عن أبى على ووجده بعد مجهود كبير ، واعتذر له عما حدث ، وبالغ فى تكريم أبى على وإجلاله ، وولاه الوزارة مرة ثانية ، وطلب الفقيه أبو عبيد فى ذلك الوقت من أبى على أن يشرح له كتب أرسطو ، فأجابه الشيخ قائلا : ليس عندى مجال لذلك العمل ، ولكن لو تقبل فانه يمكننى تأليف كتاب من معلوماتى فى علوم المناظرة والمجادلة ، فقبل أبوعبيد الفقيه هذا العمل ، فبدأ الشيخ بتأليف كتاب الشفاء وكذا تأليف المجلد الأول من القانون ، ومنذ أن اشتغل أبو على بإدارة شئون الوزارة فى همدان فإنه كان يجتمع فى منزله كل مساء جمع غفير وكان يقوم الشيخ فى أول الليل بالتدريس ، ثم يأتى بعد ذلك بالمغنين والموسيقيين ، ويجلس لتناول الشراب [١٣٠] وفى تلك الأثناء توجه شمس الدولة لمحاربة بهاء الدولة فعاوده المرض بسبب عدم محافظته وسوء تدبيره ، فأعاده جنوده إلى همدان ، وأثناء العودة توفى فى الطريق ، فعين الجنود ابنه حاكما مكانه ، وبعثوا بشخص لطلب الشيخ ليتولى الوزارة لذلك الابن ، فرفض أبو على قبول ذلك المنصب ، واختفى فى منزل أبى على بن العطار ، وخلال فترة اختفائه كتب موضوعات الطبيعيات والإلهيات فى كتابه الشفاء ، دون الاعتماد على أى كتب لآخرين ، كما وضع بداية كتابه منطق الشفاء ، وفى هذه الأثناء قبض تاج الملك — وكان من بين كبراء دولة ابن شمس الدولة — على الشيخ ، واتهمه بالاتصال بأبى جعفر علاء الدولة بن كاكويه — وكان حاكما على أصفهان — وسجنه فى إحدى القلاع ، فأكمل الشيخ كتابة منطق الشفاء فى ذلك السجن ، وخلال تلك الظروف توجه علاء الدولة من اصفهان على رأس جيش قاصدا همدان ، ولما لم يقو ابن شمس الدولة وتاج الملك على المقاومة ، لجأ الاثنان إلى القلعة المذكورة ، وبعد أن رحل

مسعود إلى خراسان بعد وفاة السلطان محمود ، وعين أبا سهل الحمدونى نائبا عنه فى العراق ، ودارت حرب بين علاء الدولة وأبى سهل ، هزم فيها علاء الدولة ودخل أبوسهل اصفهان ، وضاعت أمتعة الشيخ وكتبه أثناء هذه الحرب ، ولكن علاء الدولة عاد مرة أخرى إلى أصفهان وأدخل تلك الولاية فى حوزته .

ومما نقل أن شره المجامعة قد سيطر على مزاج الشيخ ، فكان يزاول ذلك الأمر كثيراً ، فلا شك أن ضعفت قوته وساءت صحته فى العام الذى تحارب فيه علاء الدولة مع تاش ، حلت بأبى على آلام مرض القولنج ، فكان يحقن سبع مرات فى اليوم الواحد ، واضطر للرحيل فى تلك الأيام ، وأصيب الشيخ بمرض الصرع بسبب آلام القولنج ، فأشار على خدمه بأن يعدوا له حقنة ويضعوا بها مثقالين من بذر الكرفس ، فضم الشخص الذى قام بتركيب الحقنة - إماسهوا منه أوعمداً - خمسة دراهم من الكرفس مع باقى المواد الداخلة فى تركيب الحقنة ، ولهذا [١٣٣] السبب ألم به مرض السحج أيضاً ، كما خانه آخر من خدمه ممن كانوا يشرفون على علاجه - بأن خلط مادة الأفيون على معجون « مرديطوس[1] » الذى كان يتعطاه لمنع الصرع ، فاشتد عليه المرض بسبب ذلك ، ودخل الشيخ - بعد تلك الرحلة - إلى أصفهان فوق محفة لأنه لم يكن يقوى على الوقوف ، ورغم هذا المرض الشديد فقد بذل الشيخ جهداً كبيراً فى المداومة على العلاج ، وفى النهاية تم له الشفاء ، وانضم لمجلس علاء الدولة مرة أخرى ، وتوجه علاء الدولة بعد ذلك إلى همدان وأخذ معه الشيخ ، فعاودته آلام القولنج فى الطريق ، فلما وصلا همدان وتأكد أبو على من أنه لا يمكن وقف ذلك المرض ، نفض يديه من العلاج ، واغتسل وطلب التوبة عن جميع المحرمات ، وتصدق بكل ما كان معه على الفقراء ، وأعتق غلمانه ، وانهمك فى قراءة القرآن ، وبعد أن أتم قراءته بثلاثة أيام توفى يوم جمعة من جمعات شهر رمضان عام ٤٢٨ هـ ، وقال بعض المؤرخين إن وفاته حدثت عام ٤٢٧ هـ وكان عمره ثلاثة وستين عاما شمسياً وسبعة أشهر .

---

(١) مرديطوس أو مثرو ديطوس تعريب لكلمة ميتريدانس Mithridates بحسب الضبط اليونانى واللاتينى . و كلمة «ميتريدات» كلمة فارسية قديمة سميت بالفارسية الحديثة «مهرداد» بمعنى واهب الحب وقد سمى عدد من الملوك الاشكانيين بهذا الاسم . وهذا المعجون سمى بهذا الاسم نسبة إلى ميتريدات السابع المعروف بميتريدات الكبير ملك إقليم Pont المشهور - الذى وضعه على سواحل البحر الاسود - وكان مشهورا بمعرفة أنواع الاعشاب والسموم فى الأزمنة القديمة ، وظل يحكم من عام ١٢٣ حتى عام ٦٣ قبل الميلاد .

ونقل الكثير من غرائب حالات الشيخ ، وعجائب أموره ، ومن ضمنها مايلى :

حينما وصل كتاب الشيخ « المنطق » إلى شيراز ، اشتغل أئمة فارس بقراءته وتمحيصه فاستخرج أحدهم [٢٣٤] — وكان أعلم القوم — عدة شبهات فى الكتاب وكتبها فى جزء وبعث بها إلى الشيخ مع أبى القاسم القرمانى ، فوصل أبو القاسم عند غروب الشمس إلى الشيخ فى بلدة أصفهان ، وعرض عليه ذلك الجزء ، فتحدث الشيخ مع أبى القاسم إلى أن حان وقت صلاة العشاء ، ثم أخذ بعد ذلك فى قراءة ذلك الجزء ، وبدأ كتابة الرد على الشبهات ، وفى تلك الليلة — وكانت فى أوائل ليالى الصيف كتب الشيخ خمسة أجزاء كل منها عشر ورقات فى ذلك الباب ، وبعدها توجه إلى فراش النوم ، وحينما أدى صلاة الفجر ليلتها سلم تلك الأجزاء إلى أبى القاسم وكانت تشتمل على حل مشكلات أهل شيراز والرد على الشبهات ، وقال له : « استعجلت فى الجواب حتى لا يمكث القاصد » فدهش أكابر شيراز حينما سمعوا هذه الحادثة الغريبة .

كما ذكروا أنه ذات يوم ، وفى مجلس علاء الدولة أثيرت مسألة فى علم الألفاظ ، وتحدث الشيخ فيها على قدر ما عنده ، فرد عليه أبو منصور — وكان أحد كبار العلماء فى أصفهان ومن بين الحاضرين فى المجلس — وخاطبه قائلا : « لا يستطيع أحد أن يتحدث فى حكمتك وفطانتك ، ولكن علم الألفاظ يرتبط بالسماع وحضرتكم لم تزاولوا هذا الأمر » فتأثر الشيخ أبو على من هذا القول ، وبدأ على الفور فى دراسة كتب الألفاظ ، والاطلاع على أفضل النسخ التى كانت قد كتبت فى ذلك الفن ، حتى وصل علمه فى فن الألفاظ إلى درجة لا يعلى عليها ، [١٣٥] ثم نظم ثلاث قصائد تضم فى ثناياها الألفاظ الغريبة ، وأمر بنسخ تلك القصائد وتجليدها ، وقام هو بعمل بعض التصرفات فيها حتى تبدو وكأنها قديمة ، وحملها إلى علاء الدولة وهو منفرد به وقال له : « حينما يأتى أبو منصور لمجلسكم أطلعه على هذه القصائد ، وقل له إننا وجدنا هذه الرسالة يوم الصيد بالصحراء ، ونريد أن نعرف معنى أبياتها » . ونفذ علاء الدولة ما تم الاتفاق عليه ، ولكن أبا منصور مهما حاول قراءة تلك الأشعار فإنه لم يفهم فيها شيئاً ، وبعد ذلك حضر الشيخ إلى المجلس وقام بشرح معنى كل لفظ يصعب فهمه على أبى منصور ،

موضحاً الكتاب الذى ورد به هذا اللفظ ، وفى أى فصل من فصول هذا الكتاب فعرف أبو منصور ، ــ بذكائه وفراسته ــ أن هذه القصائد من نظم أبى على ، وقام واعتذر له فى الحال ، وألف الشيخ فى تلك الأيام «كتاب العرب» وفيما يلى بيان مفصل ببعض مؤلفات الشيخ :

١ ــ المختصر الأوسط فى المنطق . ٢ ــ من المبدأ إلى المعاد .
٣ ــ كليات القانون(فى أربع مجلات) ٤ ــ مختصر مجسطى .
٥ ــ الحاصل والمحصول (فى ٢٠جزءاً) ٦ ــ الانصاف (فى ٢٠ جزءاً) .
٧ ــ كتاب النجاة (سبعة أجزاء) . ٨ ــ الهداية .
٩ ــ الإشارات . ١٠ــ الغفران (جزآن) .
١١ــ الشفاء (١٨ جزءاً) . ١٢ــ علائى .
١٣ــ الفواتح . ١٤ــ الأدوية القلبية .
١٥ــ الموجز فى حكمة أهل المشرق . ١٦ــ الحكمة العرشية .
١٧ــ اثنان وجواب . ١٨ــ المعطيات .
١٩ــ رسالة فى القضاء والقدر . ٢٠ــ رسالة فى الأجرام العلوية .
٢١ــ رسالة فى آلات الرصد . ٢٢ــ رسالة فى الشعر .
٢٣ــ مختصر إقليدس . ٢٤ــ رسالة فى النبض .
[١٣٦] ٢٥ــ رسالة فى حدود أقسام الحكمة . ٢٧ــ رسالة حى بن يقظان .
٢٦ــ فى النهاية واللانهاية . ٢٨ــ رسالة فى الأبعاد والأجرام.

اللهم اغفر له ولجميع المؤمنين ، وصل على الأنبياء والمرسلين إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيراً كثيراً .

الحديث عن جانب من أخبار بعض وزراء سلاطين الدولة الغزنية

كان الأمير ناصر الدين سبكتكين أول شخص من الغزنيين تولى أمر السلطنة وكان سبكتكين غلاماً تركي الأصل ، ومملوكاً لألبتكين ، وألبتلكين اشتغل فترة بحكومة خراسان زمن السامانيين ثم اختلف معهم بسبب من الأسباب ، فاتجه إلى غزنين ، وسخر تلك الولاية و تولى حكمها ، وبعد أن توفى هو وابنه آلت حكومة تلك المنطقة إلى ناصر الدين سبكتكين ، وقد امتد حكم الدولة الغزنية ١٧٨ عاما ، وكان عدد حكامها أربعة عشر شخصاً فيما يلى ذكرهم على التوالى :

١ — الأمير ناصر الدين سبكتكين .
٢ — الأمير إسماعيل بن الأمير ناصر الدين سبكتكين .
٣ — السلطان محمود بن الأمير ناصر الدين .
٤ — السلطان مسعود بن السلطان محمود .
٥ — السلطان محمد بن السلطان محمود .
٦ — السلطان مودود بن السلطان مسعود .
٧ — [١٣٧] السلطان على بن مسعود .
٨ — عبد الرشيد بن مسعود .
٩ — فرخزاد بن مسعود
١٠ — أبو الظفر إبراهيم بن مسعود .
١١ — السلطان مسعود بن إبراهيم .
١٢ — السلطان أرسلانشاه بن مسعود بن إبراهيم .
١٣ — السلطان بهرامشاه بن مسعود بن إبراهيم .
١٤ — السلطان خسروشاه بن بهرامشاه .

وفيما يلى نورد أخبار اثنى عشر من الوزراء البارزين لهؤلاء السلاطين :

الوزير أبو العباس الفضل أحمد الاسفراييني :

وكان يعمل فى بداية حياته نائبا وكاتبا لفائق الذى كان بين كبار دولة سلاطين السامانيين ، ولما أفل نجم فائق ، تصرف أبو العباس حسب مضمون بيت الشعر التالى :

بيت ، ترجمته :

ــ إذا سقطت الدولة أسرع هارباً كالسهم

ــ واتخذ لك موطناً عند صاحب دولة آخر

والتحق بخدمة الأمير ناصر الدين سبكتكين ، وبعد أن توفى الأمير ناصر الدين سبككتين ، وجلس ابنه السلطان محمود على عرش السلطنة ، شمل أبا العباس بعنايته ، وأسند إليه منصب الوزارة .

[١٣٨] وجاء فى كتاب جامع التواريخ أنه برغم أن الفضل بن أحمد كان عديم الفضل والأدب ، خالياً من التبحر فى لغة العرب ، إلا أنه كان ماهراً ، فى ضبط أمور السلطنة ، وإنجاز مهام الجيش والشعب ، وقد منحه الله ــ سبحانه وتعالى ــ ابنا اسمه الحجاج ، اجتمعت فى هذا الابن جميع الفضائل الشخصية ، وأصبح من فضلاء عصره ونظم أشعارا عربية فى غاية من الفصاحة والبلاغة ، كما أبدت أيضاً ابنة الفضل بن أحمد ــ حسب مارواه بعض المحدثين ــ مهارة فائقة فى علم الحديث . وبعد أن انقضت عشر سنوات على وزارة أبى العباس ، تغير طالعه ، وتبدلت أحواله ، وانتقلت من أوج الشرف إلى حضيض الوبال ، وذكر بعض المؤرخين السبب فى عزله بقوله : «كان السلطان محمود شغوفاً جداً بشراء الغلمان لخدمته وكان الفضل بن أحمد أيضاً يسير على هذا المنوال عملا بالقول القائل « الناس على دين ملوكهم » وعلم الفضل ذات مرة بوجود أحد الغلمان ــ وكان غاية فى الجمال ــ فى إحدى الولايات التركية ، فبعث بأحد رجاله إلى تلك الولاية لشراء ذلك الغلام الجميل ، وجاء به رسول إلى غزنين عن طريق الحريم ، وعلم السلطان بهذه الحادثة ، وبعث بغلام يطلب ذلك الفتى الجميل من الوزير ، ولكن الوزير أنكر بشدة ما حدث ، فنهض يمين الدولة السلطان محمود

وبكل ماله من هيبة واحترام — وذهب إلى منزل الوزير فاستقبله الوزير استقبالا رائعاً ، وأدى له جميع مراسم الضيافة ، وفى تلك الأثناء دخل على السلطان غلام [١٣٩] حورى الطلعة ، وبدأ فى الغناء والطرب ، فأمر السلطان بالقبض على الوزير وسلب ونهب منزله ، وخلال هذه الظروف توجه السلطان إلى الهند ، فقام بعض الأمراء الأشرار بتعذيب أبى العباس إلى أن فارق الحياة .

(بيت ، ترجمته)

— لا يمكن لأحد أن ينجو من غدر الدهر

—، ولا يمكن لأحد أن يعتبر الدهر وفياً

الوزير أحمد بن حسن الميمندى :

وكان أخا للسلطان محمود فى الرضاعة ، كما كان شريكه فى المكتب أيضاً ، ووالده حسن الميمندى كان يعمل فى منطقة بست(1) فى تنظيم تحصيل أموال الديوان وذلك أثناء حياة الأمير ناصر الدين سبكتكين ، وقد ظن فيه الأمير ناصر الدين — بسبب رسائل المفسدين — ظناً سيئاً ، فقضى عليه ، وهناك بعض الناس اعتبروا حسن الميمندى أحد وزراء السلطان محمود وهذا خطأ كبير ، فهذا الخبر ليس له أى أساس لدى علماء التاريخ .

والخلاصة أنه حينما أصبح أحمد بن حسن إماماً لفضلاء عصره ومحبوبا لدى العظماء — بفضل جمال خطه ووفور فضله وكمال فصاحته وكثرة كياسته — شمله السلطان محمود بعين عنايته ، وعينه رئيسا لديوان الرسائل والإنشاء ، وأخذت العناية والرعاية السلطانية — شيئاً فشيئاً — ترفع مكانة ذلك السيد الفاضل درجة تلو درجة إلى أن أسند إليه منصب مستوفى الولايات وشئون الجند بالإضافة إلى أعماله السابقة

---

(1) بست : بالضم مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، وأظنها من أعمال كابل ، فان قياس مانجده من أخبارها فى الاخبار والفتوح كذا يقتضى ، وهى من البلاد الحارة المزاج ، وهى كبيرة . ويقال لناحيتها اليوم كرم سير ، ومعناه النواحى الحارة المزاج وهى كثيرة الأزهار والبساتين . . . وقد خرج منها جماعة من أعيان الفضلاء ، منهم أبو الفتح على بن محمد ويقال ابن أحمد بن الحسين بن محمد بن عبد العزيز البستى الشاعر الكاتب صاحب التجنيس .

(انظر ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المجلد الثانى ، ج ٤ ص ٤١٤ ، ٤١٥ ، بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م) .

الذكر ، وبعد ذلك [١٤٠] بفترة أضيف إليه أيضاً مهمة تنظيم جميع أموال بلاد خراسان وقد أبدى الميمندى مهارة فائقة فى إدارة وإنجاز جمع هذه المهام بطريقة لا يمكن تصور أفضل منها ، ولما تغيرت معاملة السلطان الحسنة لأبى العباس الاسفرايينى قرر وضع منصب الوزارة وإدارة جميع شئون السلطنة فى يد أحمد بن حسن الجديرة وقبضته الخبيرة ، وظل ذلك الوزير يقوم بتدبير أمور الملك والمال مدة ثمانية عشر عاماً ، وبعدها قام جماعة من الأمراء العظام مثل التونتاش الحاجب والأمير على خويشاوند بالدس لذلك الوزير الماهر فتقولوا عليه زورا وبهتانا فى مجلس السلطان وحسب قول القائل « من يسمع يُخل » وجد هذا الكلام المهاهل مكاناً فى قلب السلطان فأصدر أمره بعزل الوزير الكفء ، وسجنه فى إحدى قلاع الهند ، ولما توفى السلطان محمود بن سبكتكين ، وتمكن ابنه السلطان مسعود من اعتلاء عرش السلطنة فى غزنين ، أخرج أحمد بن حسن من تلك القلعة وأسند إليه مرة ثانية منصب الوزارة ، وظل يديرها فترة بعد ذلك ثم توفى فى عام ٤٢٤ هـ

« بيت » ترجمته » :

— هذا هو مصير الجميع

— ، ولن تدوم لأحد

[١٤١] الوزير أبو على حسن بن محمد :

كان أبو على مشهوراً ومعروفاً باسم « حسنك ميكال » ، وكان يلازم السلطان محمود منذ بداية نشأته وأوائل صباه ، وقد وصف بحلاوة الحديث ، وحسن التصريف ، كما يتصف بحد الطبع ، وثراء الذهن ولكنه لم يكن صاحب مهارة فى فن الكتابة والإنشاء أو فى علم السياق والإستيفاء .

وجاء فى كتاب روضة الصفا أنه أثناء توجه السلطان محمود بطلب من نوح ابن منصور السامانى — إلى خراسان لقتال أبى على مسيمجور قال له رجاله عند وصولهم إلى منطقة من المناطق التى يمرون عليها : « يوجد بالقرب من هنا درويش يتصف بالزهد والتعبد ، وبإظهار الكرامات والخوارق ، وهو زاهد يتخذ لباسه من جلد الغزال » ونظراً لأن السلطان كان لديه اعتقاد قوى فى الصوفية والدراويش فقد أبدى رغبته فى لقاء هذا الزاهد وقال لحسنك ميكال — الذى لم

يكن يعتقد كثيراً فى هذه الطائفة ؟ — « رغم أنى أعلم أنك لاتألف اللقاء بالصوفية وأهل الطريق ، فإننى أريد أن توافق على مرافقتى لزيارة الزاهد ! ! » فوافق حسنك وسار فى صحبة السلطان ، وبكل خشوع واحترام التقى السلطان بالزاهد ، وأخذ الزاهد مبيناً أسرار المعرفة فازداد اعتقاد السلطان بالصوفية بسماع ذلك الكلام ، وقال للزاهد : « لقد أمرت الخزنة أن يعطوك كل ماتريده من النقود والمتاع ! » فرفع الزاهد يديه فى الهواء وملأ قبضتيه بالذهب المسكوك ووضعه فى يد السلطان وقال له : « كل من يستطيع الحصول على مثل هذه الأموال من خزانة [١٤٢] الغيب ، أى حاجة له بمال المخلوق ؟ ! » فسلم السلطان تلك النقود الذهبية إلى حسنك ، ولما نظر فيها حسنك وجدها جميعا من النقود المسكوكة باسم على سيمجور ، وفى الطريق قال السلطان لحسنك : « لا يمكن إنكار مثل هذه الكرامات » ، فرد عليه حسنك قائلا له ، : « حقا فكل ماجرى على لسان الزاهد هو عين الصدق والصواب ، ولا يليق بك أن تتوجه لحرب شخص يضربون النقود باسمه فى عالم الغيب » ، فاستفسر منه السلطان عن حقيقة هذا الكلام ، فأطلعه حسنك على تلك النقود المسكوكة ، فتحير السلطان وتأثر .

والخلاصة أن الأمير حسنك ميكال كان يلازم السلطان دائما ولم يغتبه لحظة فى سفره أو حضره ، وفى الفترة التى عزل فيها أحمد بن حسن من منصب الوزارة ، أشار السلطان بأن يقوم الوزراء العظام بتعيين أحد أكابر الأمة فى ذلك المنصب ، فكتب أمراء الدولة أسماء أبى قاسم العارض ، وأبى الحسين العقيلى ، وأحمد ابن عبد الصمد ، وحسنك ميكال وبعثوا بها إلى السلطان ليعين من يختاره عظمته وزيرا ، فقال السلطان : « لو أسند منصب الوزارة إلى أبى القاسم لأهمل عمل العرض ، وأبو الحسين العقيلى قروى ولا يناسبه منصب الوزارة ، وأحمد بن عبد الصمد يستطيع القيام بهذا العمل ولكن شئون خوارزم فى عهدته ، وأما حسنك فهو يتفوق عليهم جميعا بعلو النسب وكمال الحسب والوقوف على دقائق الأمور ، ولكن حداثة سنه وعنفوان شبابه يمنعانه من تولى منصب الوزارة ، » فلما [١٤٣] سمع الأمراء أقوال السلطان عرفوا أن السلطان يميل إلى تنصيب حسنك ، وعلى الفور اتفقوا وعرضوا عليه قولهم : « ليس هناك أنسب من الأمير حسنك لتولى منصب الوزارة » ، فلقى هذا القول قبولا حسنا فى نفس السلطان ، وقلد حسنك ذلك

المنصب الرفيع ، وظل الأمير حسنك يقوم بأعمال ذلك المنصب وحتى آخر أيام حياة السلطان ، ولما توفى السلطان ، اعتلى عرش السلطنة ابنه الأصغر السلطان محمد ، وأبقى منصب الوزارة فى يد حسنك استمرارا لأمر والده السابق ، وفى تلك الأوقات تعود حسنك ارضاء للسلطان محمد — أن يتقول بأقوال غير مهذبة على السلطان مسعود الذى كان بالعراق وقتها — مثلما قال ذات يوم أمام موظفى الديوان :

« حينما يصبح مسعود سلطانا ، عليه أن يتخذ حسنك شقيقا له » ، وحينما جاء السلطان مسعود إلى خراسان ، وانتزع الملك من السلطان محمد ، طلب حسنك وقال له :

(بيت ، ترجمته) :

— يجب أن لا يتشاءم أحد فى العشق

— ولو يتشاءم فعليه ألا يتشاءم على نفسه !

فيجب على خدم دار السلطنة والعاملين ببلاط الخلافة ألاّ يعتمدوا على جاه السلطان وجلاله وعظمته ، وألاّ يغتابوا ويطعنوا ويلعنوا الإخوة وأقاربهم سرّاً أو علانية — مهما يختلفوا — لأنه ربما ينتقل عرش السلطنة [١٤٤] والملك إلى ذلك الشخص الذى اغتيب عملا بفحوى الآية الكريمة « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء »(١) ، ويسمع ذلك الطعن واللعن والغيبة ، وينقلب مزاجه ، ولا يتحكم فى غضبه ، ويقع منه أمر مثل ذلك الذى صدر عن السلطان مسعود بالنسبة لحسنك ميكال .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا يحسن بمثل العارفين التجرؤ على ذم العظماء

— فامسك شفتيك عن طعن أصحاب الدولة

— لأن ذلك يجلب لك الضرر

الوزير أبو نصر أحمد بن عبد الصمد الشيرازى :

كان فى بداية حياته رئيسا لديوان التونتاش الحاجب وابنه هارون فى مملكة

---

(١) سورة آل عمران ، آية « ٢٦ » .

خوارزم ، ولما توفى أحمد بن حسن الميمندى ، استدعى السلطان مسعود أبا نصر أحمد من خوارزم وأسند إليه منصب الوزارة ، فأدار أبو نصر أحمد مهام السلطنة ودبر أمور الجيش والرعية بأسلوب أصبح — بواسطته — دستوراً لوزراء العالم وقانونا لمدبرى أمور الدنيا ، وقد شغل ذلك المنصب عشرين عاماً فى عهد السلطان مسعود ، وعامين أثناء حكم ابنه مودود ، ثم دخل السجن بتدبير من الأمراء ووضع له أعداؤه السم فى الشراب ، فتسبب ذلك فى وفاة الوزير الماهر .

الوزير طاهر المستوفى :

تولى فترة منصب مستوفى ديوان السلطان محمود ، وأسند إليه السلطان مودود منصب الوزارة بعد سجن أحمد بن عبد الصمد ، ثم أقيل طاهر بعد توليه ذلك المنصب بمدة شهرين بسبب ضعف رأيه وسوء تدبيره ، وقضى بقية حياته فى زاوية العزلة والفراغ .]

[١٤٥] الوزير عبد الرازق بن أحمد بن حسن الميمندى :

حينما ترك طاهر المستوفى أمور الديوان ، تولى عبد الرازق بن أحمد — بأمر السلطان مودود — منصب الوزارة ، وقد ازدان جمال حاله بالعقل والتدبير ، وحسن قدره بالوجاهة والجود والسخاء ، ولما أكمل سبع سنوات فى إدارة منصب الوزارة حدث أن توجه السلطان مودود فى منتصف رجب عام ٤٤١ هـ لمحاربة السلاجقة ولكنه عند أول منزل ابتلى بمرض القولنج فعاد إلى غزنين ، وأمر عبد الرازق — على رأس جماعة من الجيش — بالتقدم صوب سيستان التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة السلاجقة ، وقد توفى السلطان مودود أثناء غياب الوزير ، فأجلس أمراء الدولة على بن مسعود على عرش السلطنة ، وبلغ هذا الخبر مسامع الوزير — وكان بالقرب من قلعة بين بست وغزنين — فألغى سفره إلى سيتان ، وأخرج عبد الرشيد بن مسعود من الحبس — وكان قد حبس أثناء تلك الحملة بأمر السلطان مودود — ودعا الجنود إلى طاعته ، فوافقوا على ذلك ، وعاد الوزير مع عبد الرشيد إلى غزنين ، فهرب على بن مسعود ، واعتلى عبد الرشيد عرش السلطنة ، وأبقى منصب الوزارة فى يد عبد الرازق حتى آخر حياته .

الوزير حسن بن مهران :

وكان يتولى الوزارة والإنابة للسلطان محمد — فى حياة السلطان محمود — ولما توفى السلطان توجه حسن — بخبرته لمساعدة [١٤٦] السلطان مسعود ، واعتذر عن الاستمرار فى إدارة الوزارة ، وترتب على ذلك أنه حينما وصل السلطان مسعود إلى غزنين ، أسند إليه أمر الإشراف على أمور الخزانة ، وبعد أن قتل عبد الرشيد بن مسعود ، وتولى فرخزاد السلطنة ، أسند منصب الوزارة إلى حسن ، واستمر حسن فى إدارة مهام هذا المنصب لمدة عامين ، ثم عزل وسجن وظل سجينا إلى أن توفى فى سجنه :

الوزير أبو بكر صالح :

تولى الوزارة لفرخزاد بعد عزل حسن بن مهران ، وكان قبل ملازمة فرخزاد — حسب ما رواه صاحب جامع التواريخ — حاكما فى بلاد الهند لمدة ثلاثين عاماً . وقد اكتشف فى تلك البلاد آثارا عظيمة ، كما كان يتقن جيدا قواعد الفروسية والرماية ، وكان مقداما فى المبارزة وألعاب القوى . والخلاصة أنه حينما وصل من بلاد الهند إلى غزنين تولى منصب الوزارة لفرخزاد ، وظل يعمل بتدبير ذلك الأمر حتى آخر أيام حياة ذلك الأمير ذى الأصل العريق ، ثم استشهد بضربات سيوف بعض الغلمان الأشرار ، وذلك فى أوائل عهد السلطان إبراهيم .

(بيت ، ترجمته) :

— هكذا قانون الفلك الدائر

« — سمه دائما قرينا لشهده

الوزير أبو سهل الخجندى :

اشتغل فترة كاتبا لبلاط السلطان محمود والسلطان مسعود ، ولما تولى السلطان ابراهيم بن مسعود [١٤٧]عرش السلطنة ، فوضه أمر الوزارة ، وبعد فترة تغير السلطان ابراهيم على ذلك الوزير الفاضل ،

مصراع :

وشمل عينه البصيرين » .

الوزير عبد الحميد بن أحمد بن عبد الصمد :

ظل يشغل منصب الوزارة لمدة طويلة أيام السلطان ابراهيم بن مسعود وأخيه السلطان أرسلا نشاه .وقد فاق والده العظيم فى نشر العدل والإنصاف والقضاء على الظلم والطغيان . ويقول الأستاذ أبو الفرج الرونى فى مدح ذلك الوزير العظيم :

(بيت ، ترجمته) :

ــ لقد أرسى عبد الحميد أحمد بن عبد الصمد

ــ ، أسس الفضل وقواعد الجود ورسوم العدل

وزراء السلاجقة

ذكر ناظم كتاب « ملك نامه » أن والد سلجوق ـ المسمى بالدقاق والملقب بـ « تمر باليغ » ـ كان من بين أركان دولة يبغو حاكم التراكمة فى صحراء الخزر ، ولما توفى الدقاق رحل ابنه سلجوق مع قومه وعشيرته ـ بسبب دسائس أعدائه ـ من صحراء الخزر إلى تركستان .

وقد بلغت ثلاث طبقات من أبناء سلجوق إلى مرتبة رفيعة فى الحكم ، الطبقة الأولى : وحكمت فى [١٤٨] جميع أنحاء خراسان وأكثر ممالك العراق ، الطبقة الثانية : وحكمت فى بلدة كرمان ، الطبقة الثالثة : وحكمت فى بلاد الروم .

وكان سلاطين الطبقة الأولى أربعة عشر شخصا ، دامت سيطرتهم واستمر نفوذهم مدة ١٦١ عاما ، وأسماء هؤلاء السلاطين المشهورين هو كما يلى :

١ ـ طغرل بيك محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق

٢ ـ ألب أرسلان بن جغر بيك داود بن ميكائيل بن سلجوق

٣ ـ السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان

٤ ـ السلطان بركيارق بن ملكشاه

٥ ـ السلطان محمد بن السلطان ملكشاه

٦ ـ السلطان سنجر بن ملكشاه

٧ ـ السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه

٨ ـ السلطان طغرل بن السلطان محمد

٩ ـــ السلطان مسعود بن السلطان محمد
١٠ ـــ السلطان ملكشاه بن محمود بن السلطان محمد
١١ ـــ السلطان محمد بن محمود بن السلطان محمد
١٢ ـــ السلطان سليمانشاه بن السلطان محمد
١٣ ـــ السلطان أرسلان بن طغرل بن السلطان محمد
١٤ ـــ السلطان طغرل بن أرسلان .

وفيما يلى بيان لأحوال وزرائهم :

الوزير عميد الملك أبو نصر الكندرى :

[١٤٩] وكان معروفا بالذكاء والفراسة ومشهورا بالفضل والكياسة، وكانت له أياد بيضاء فى الكتابة والفصاحة ، وفى فن الاستيفاء والسياق ،وكان دائما يبذل جهدا فائقا وسعيا مشكورا من أجل إحياء مراسم الجود والسخاء ، ونشر خلال فترة وزارته العدل والإنصاف ، وقد استقل الكندرى بإدارة شئون الوزارة لمدة عشرين عاما أثناء فترة حكم السلطان طغرل بيك ، ولما انتقلت السلطنة إلى السلطان ألب أرسلان ، عاقب ذلك الوزير الماهر وسجنه ، وخشى الوزير نظام الملك الطوسى من مهارة عميد الملك وذكائه ، فاتفق هو وجماعة من الأمراء على العمل على قتله ، فدسوا له عند السلطان ، وحصلوا منه على الإذن بقتله ، وذكر أنه فى الوقت الذى استسلم فيه الكندرى لتلقى مشيئة الله ، خاطب السياف قائلا له : « عندما تفرغ من تنفيذ هذه المهمة ، أبلغ ألب أرسلان على لسانى مايلى : إننى بفضل رعاية عمك طغرل بيك وصلت إلى مرتبة عالية فى هذه الدنيا ، وحكمت العالم الفانى ، كما وصلت بسبب عدم رحمتك إلى مرتبة الاستشهاد والفوز بجنة الخلود ، لذلك فقد تحقق لى ـــ بواسطتكم ـــ السعادتين ، السعادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، ونلت آمالى المادية والمعنوية ، ثم قل للوزير صاحب التدبير الصائب مايلى : لقد سننت فى أسرة السلاجقة سنة قبيحة ، وبدعة مرذولة ، وسوف يقع لأعقابك وأسلافك ـــ بسرعة ـــ كل مادبرته لى » .

وفى النهاية وقع بالفعل ـــ بالنسبة لأولاد وأحفاد الوزير نظام الملك ـــ ماقاله عميد الملك .

(بيت فارسى ، ترجمته) ،

— حينما تسير ياعزيزى فى جنازة عدوك

— لا تفرح ! لأن ماأصابه سوف يصيبك يوما ما !

[١٥٠] الوزير نظام الملك أبو على حسن الطوسى :

كان والد نظام الملك يسمى على بن اسحق الطوسى[1] — عند أغلب المؤرخين — ولكن صاحب جامع التواريخ يقول : إن والد الوزير نظام الملك كان يسمى محمداً ، وقد تتبع كاتب هذه الكلمات وقارن ماذكره كبار المؤرخين ، فيقول : كان على بن اسحق الطوسى أحد عمال ديوان سلجوق ، وقد اشتهر كثيرا بالجود والسخاء والكرم والمروءة ، وحينما رزقه الله بهذا المولود السعيد ، قصر كل جهده على الاهتمام بتربيته ، ففرغ ذلك الابن الذكى من حفظ القرآن المجيد وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وبعدها صرف كل أوقاته السعيدة فى ملازمة العلماء ، وأهل الدرس والفتوى ، وفى تحصيل العلوم ، وكسب الفضائل إلى أن أصبح بعد فترة قصيرة إماما لفضلاء عصره ، وأبدى مهارة فائقة فى فقه الإمام الشافعى . وبعد ذلك عزم على الترحال ، واختلط بأهل السياق وأصحاب الأقلام ، فبرز أيضا فى ذلك العلم ، ثم عمل بعد ذلك فترة فى خدمة ابن شادان عميد بلخ ، وكان العميد كلما شعر بأن نظام الملك جمع شيئا من متاع الدنيا ، كان يقول له : « لقد صرت غنيا ياحسن ! ! » ويأخذ منه كل ماجمعه ، ولما حدثت هذه الفعلة المذمومة — التى هى من طبيعة اللئام — من ابن شادان مرات عديدة ، [١٥١] كره نظام الملك العمل فى خدمته ، وهرب إلى مرو ، واتصل بجغربيك السلجوقى ، وقص عليه بعضا من أخباره ، فلقى حديثه الطيب قبولا حسنا فى نفس جغر بيك ، واشتم فيه علامات الرفعة والإقبال ، فأرسله للعمل مع ألب أرسلان ، مصحوبا برسالة منه يقول فيها لألب أرسلان : « عليك أن تعين هذا الشخص كاتباً ومستشاراً لك ، ومسئولا عن تدبير أمورك ! » وفى تلك الأثناء وصلت إلى مرو شكوى من ابن شادان يقول فيها « لقد هرب كاتب بلخ ، وعمل فى خدمتك ، وترك أعمال

---

(١) كتبت هذه العبارة التالية فى حاشية النص الأصلى « حدثت ولادة الوزير فى عام ٤٠٩ هـ على حد قول صاحب مجمل فصيحى .

هذه الولاية مهملة ومعطلة، والمرجو أن يأمره السلطان بالعودة »، فضرب جغر بيك بيده على صدر رسول العميد وقال له : « إن نظام الملك يعمل مع ألب أرسلان، ولا يجب أن يتحدث معه ابن شاذان » . فعاد رسول العميد دون أن يحقق مطلبه . وقد روى أنوشيروان خالد في كتاب « نفثة المصدور » قائلا :

لقد سمعت عن لسان الوزير نظام الملك قوله : « فى بداية حياتى – ولسبب من الأسباب لا مجال للحديث عنه بالتفصيل – أخذ المسئولون ينقلوننى من مكان إلى مكان ، وكنت أركب جوادا نحيفا متعبا ، ومن شدة الاضطراب وعدم توفر وسائل السفر المريحة ، صار النهار الساطع فى عينى كالليل الحالك السواد ، فكنت أقطع المسافة فى غاية من الحزن والملل ، إلى أن اعترضنى فى تلك الصحراء شخص يمتطى جوادا قويا سريعا – ولم أكن قد رأيت ذلك الشخص من قبل كما أن المسئولين لم يكونوا يعرفونه أيضا – ولما اقترب منى ذلك الفارس ، قال لى : « ياحسن ، هل توافق على أن استبدل حصانى بحصانك ؟ » فقلت له : « أيها الشاب ، لم السخرية والاستهزاء ؟ ، قال : « والله أنى لا أهزل » ، ونزل على الفور ، [١٥٢] وبدل سرجى الجوادين وأركبنى على جواده ، وركب هو على جوادى ، ثم غاب عن أعين الجميع ، فتعجبت أنا والمسئولون من ذلك الموقف ، وظلت عيناى تشتاقان لرؤية ذلك الشخص – خلال فترة حآمى – لكى أتمكن من تقديم شكرى له ، ولكن عينى لم تره أبداً .

(بيتان فارسيان ، ترجمتها) ،

– الشخص الذى يكون مرشده العمل السليم
– فإن المدد يأتيه من عالم الغيب
– وحينما يكون التأييد الإلهى حليفه
– فإنه ييسر له جميع أموره ويحفظ له مكانته

وقد روى أنه قبل أن يتولى الوزير نظام الملك أعمال الوزارة ، تصادف أن واجه السلطان ألب أرسلان سفرا مفاجئاً فقرر أن يصحبه نظام الملك فى ذلك السفر ولكن نظام الملك فى ذلك الوقت لم تكن لديه المقدرة المادية لتحمل تكاليف ذلك السفر ، فأخذ يفكر من أين يأتى بتكاليف السفر ، وأثناء هذا التفكير توضأ

وذهب إلى مسجد مجاور له ، وأخذ في الدعاء ، وفجأة دخل المسجد ضرير وقال : من بالمسجد ؟ فلم يرد نظام الملك . . ! فتنقل الضرير — على سبيل الاحتياط — مستعيناً بعصاته داخل المسجد ، ولما لم يسمع صوتاً لأحد ، توجه ناحية المحراب وحفر الأرض وأخرج كوزاً مليئاً بالذهب المسكوك ، ونثر الذهب وأخذ يداعبه لبضع لحظات ثم أضاف إليه بضعة دراهم ، ثم وضع الكل مرة ثانية بالكوز ودفنه في نفس المكان . . وحينما خرج الضرير من المسجد ، اطمأن نظام الملك ، وحمل ذلك الذهب ، وتهيأت له أسباب السفر ، وتوجه مسرعاً لموافقة السلطان .

(بيتان فارسيان ، وترجمتها)

— الشخص السعيد الحظ

— ، لا تتعقد مطلقاً أموره

— فلو صادفته آلاف العقد

— فإن خالقه يحلها له بسهوله

[١٥٣] وبعد أن وصل الوزير نظام الملك إلى منصب الوزارة الرفيع — وحينما كان يتجول في السوق بصحبة موكب مهيب — وقع نظره فجأة على ذلك الضرير فعرفه وقال لأحد مرافقيه : « أوصل هذا الضرير إلى منزلى وتحفظ عليه ! ! » . ولما رجع نظام الملك إلى منزله ، قدموا إليه الضرير ، فهمس في أذنه قائلا : « هل وجدت الكوز الملىء بالذهب والذى كنت تخفيه في المسجد وفقد منك » ؟ فمد الضرير يديه الطويلتين وأمسك بأطراف ثوب نظام الملك وقال « نعم وجدته » . فرد نظام الملك عليه قائلا « ما هذا الكلام ؟ » قال الضرير : إننى لم أسأل أحدا قط منذ أن فقد الذهب ، والآن عرفت — بعد أن سمعت كلام جنابكم — كيفية ماحدث ! ! فاستغرق نظام الملك في الضحك وأمر رجاله بأن يعطوا الضرير ضعف ذلك الذهب ، كما أهداه كذلك قرية عامرة من ممتلكاته ،

(مصراع وفارسى ، ترجمته) :

وهكذا يعمل العظماء ما ينبغى أن يعمل

والخلاصة أنه حينما قتل السلطان ألب أرسلان الوزير عميد الملك الكندرى ، فوض نظام الملك الاستقلال بمنصب الوزارة والحقيقة أن أمور الملك والأمة

استقامت بفضل رزانة ذلك الرجل العظيم ، ومتانة تفكيره ، فقد أنجز أمور الدين والدولة كما يجب ، وعم عدله وإنصافه الجميع فى كل مكان ، واخضر غصن آمال أهل الفضل والكمال وأثمر بفضل نسيم لطفه وإحسانه ، كما كان يطمئن بنفسه على أطوال الرعايا والضعفاء والعجزة من الأمة فى كل مدينة وولاية ، وكان يجالس الزهاد وأهل العلم والفتوى ، كذلك كان يقضى الساعات الطوال وأوقاته السعيدة مستغرقاً [١٥٤] بين رجال الصوفية والعباد ، وأقام الكثير من مؤسسات البر والخير فى بغداد واصفهان ،وسائر أقطار وأطراف البلاد ، وأوقف على هذه المؤسسات الخيرية مزارع وضياعاً عامرة وأسواقا ومستلزمات نافعة ، ولا شك أنه أصبح كما تقول الآية الكريمة : « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض[1] » ، موئلا لأمانى الناس وآمالهم مدة ثلاثين عاماً خلال سلطنة السلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه ، وتفوق على جميع العظماء والفضلاء وأهل الدولة والسلطان بجمعه لأسباب المكنة والحشمة ، وأدوات القوة والأبهة ،

(بيت فارسى ، ترجمته) :

— لقد أصبح اسمه الجليل مقرونا بالعدل على كل لسان

— وتجاوز كرمه وإحسانه قدر النجوم والأفلاك

فأوامره وأقواله فى جميع الأقطار والأمصار — مطاعة كأحكام القضاء والقدر ، وأحكامه وتوجيهاته منفذة فى جميع الأطراف والآفاق

(بيت فارسى ترجمته) :

— يصبح كل عرش بوجوده عرشاً جديراً بالسلطنة

— ويصبح كل عقد يشهده تاجاً يليق بالملوك

ولقد ورد فى بعض الكتب القيمة التى اطلعت عليها أنه أثناء حكم السلطان ألب أرسلان ، توجه ملك الروم على رأس جيش كبير لإخضاع ممالك إيران ، فبادر السلطان لملاقاته على رأس جيش مدرب قوى ، والتقى الجمعان فى ملازجرد ، ودارت محادثات الصلح بينهما ، وفى تلك الظروف ذهب السلطان

---

(١) سورة الرعد ، آية « ١٧ » .

ألب أرسلان يوماً بصحبة نفر من رجاله للصيد، وفجأة وصل فوج من الروم إلى مكانهم ، والتفوا حولهم وقبضوا عليهم — ماعدا شخصا واحداً — وأخذوهم [١٥٥] إلى معسكر القيصر ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شخصية تلك الجماعة ، أما الشخص الذى كان قد هرب من مكان الصيد فقد سلم نفسه للوزير نظام الملك ، وقص حقيقة ما جرى ، فتحفظ على الفور الوزير المحنك على ذلك الشخص وأمر جماعة من رجاله المخلصين — بعد صلاة المغرب — بأن يدخلوا المعسكر بسرعة من ناحية ميدان الصيد ، ونزلوا فى الخيمة السلطانية ، وعندئذ رفع نظام الملك صوته قائلا : « لقد رجع السلطان من رحلة الصيد » . وفى صباح اليوم التالى أسرع الوزير السعيد بصحبة جماعة من الأمراء إلى القيصر وأنهوا موضوع الصلح ، وعند ذلك خاطب القيصر الوزير بقوله : « لقد أسرنا بالأمس مجموعة من رجالكم » فرد عليه الوزير بقوله : « لابد أنهم من المجهولين من رجالنا ، لأن هذا الخبر لم ينتشر فى معسكرنا ! ! » فأمر القيصر بإحضار الأسرة إلى مجلسه ليتسلمهم الوزير ، فوبخهم الوزير أمام القيصر ، ووجه إليهم كلاماً قاسياً ثم استأذن بعد أن أنهى مهمته ، وتوجهوا جميعاً صوب معسكر السلطان ، فلما قطعوا جزءا من المسافة ، نزل الوزير من على ظهر جواده وقبل السلطان وقدم له مراسم الاعتذار عن الكلام الذى كان قد قاله — لمقتضيات المصلحة — فى مجلس القيصر . ويقال بأن حربا نشبت بعد هذه الواقعة بين السلطان وقيصر الروم ، انتصر فيها السلطان وأسر القيصر فعامله السلطان معاملة طيبة وعفا عنه وفوضه مرة أخرى حكم مملكة الروم .

ولا يخفى أن صاحب كتاب « تاريخ گزيده » قد نسب هذه الحكايات إلى السلطان ملكشاه ، ولكنه لما كان كبار الرواة [١٥٦] والمؤرخين قد سجلوا فى مؤلفاتهم الرواية الأولى ، فقد قمت أنا أيضاً باتباعهم والاعتماد عليهم والعلم عند الله — سبحانه وتعالى :

وجاء فى روضة الصفا أنه بعد النصر المذكور فإن السلطان ألب أرسلان قد رفع من مكانة ذلك الوزير المخلص أكثر من ذى قبل ، وأوكل إليه منصب المربى للسلطان ملكشاه ، كما قرر أن يسموا الوزير بالمربى والرسول ، وكانت له ألقاب كثيرة قبل ذلك :

ومن الثابت أنه في عام ٤٦٥ ﻫ توفي السلطان ألب أرسلان ، واعتلى السلطان ملكشاه العرش بمعاونة ذلك الوزير الماهر ، فبذل جهداً من أجل إرساء قواعد العدل والإنصاف . وفي عام ٤٨١ﻫ عزم السلطان ملكشاه على إخضاع دار الملك سمرقند ، وحاصر سليمان خان الذى كان حاكماً على تلك البلدة العظيمة ، وفتحها خلال بضعة أيام ، وبعث بسليمان خان مقيداً إلى اصفهان . وأثناء العودة من بلاد ما وراء النهر ، كتب الوزير نظام الملك بأن يؤخذ أجر ملاحي نهر جيحون من أموال أنطاكية بالشام ، فشكا الملاحون فسأل السلطان الوزير المخلص قائلا له : ما هي الحكمة في هذا الإجراء ؟ فأجابه الوزير بقوله : « لقد اتخذت هذا الإجراء حتى يتحدث الجميع على مر السنين عن اتساع الممالك التي يحكمها السلطان » فأعجب السلطان جداً من هذا التصرف ، وأمر الوزير بأن يجعل الصيارفة يدفعون أجور الملاحين بالنقد الذهبي .

[١٥٧] وفي عام ٤٧٩ ﻫ ذهب السلطان ملكشاه إلى دار السلام بغداد ، وتشرف بلقاء الخليفة المقتدى بالله ، وحاول أن يقبل يد الخليفة ولكن الخليفة لم يوافق ، وعند ذلك تناول السلطان خاتم الخليفة وقبله ، فأهداه الخليفة للسلطان ، وغادر السلطان دار الخلافة سعيداً مسروراً ، أما الوزير نظام الملك فقد بقي هناك حتى يدخل الأمراء واحدا واحداً ليتشرفوا بلقاء الخليفة ، وقد قدم الوزير كل واحد منهم للخليفة فكان يقول : فلان هذا يشغل درجة كذا ! ! وذاك مرتبته كذا ، موضحا للخليفة عدد فرسان كل منهم ومصروفاته . وبعد ذلك خلع الخليفة على الوزير خلعة فاخرة ثم غادر الوزير مجلس الخليفة .

وقد ذكر الوزير نظام الملك في وصاياه قائلا : « في تلك الأوقات التي كان فيها السلطان ملكشاه في بغداد ، أراد أن يخطب لنفسه إحدى فتيات دار الخلافة وكانت جميلة تقية — ولما تمت له الموافقة على المصاهرة ، وتوطدت العلاقة بينه وبين الخليفة ، أمر السلطان بأن يحضر العقد جميع الأكابر والأشراف من شتى بلاد العرب والعجم ، فبعث برسله على وجه السرعة إلى جميع الممالك في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبلاد الشام والروم وفارس والعراق وخراسان وما وراء النهر وغيرها ، أحضروا حكام تلك الولايات إلى بغداد ، وعقد في تلك المدينة اجتماع قلما حدث

مثله فى العهود الماضية ، وكانت مخيمات السلطان فى الجانب الغربى من المدينة وكانت دار الخلافة فى الجانب الشرقى ، ولما كانت تقاليد التركمان تحتم بأن يتوجه أهل العريس – عند العقد – بتقديم مراسم الخضوع والخشوع لوالد العروس فإنه حدث يوم العقد أن طلب السلطان من جميع الأكابر والأعيان – الذين كانوا قد حضروا من جميع أنحاء البلاد –[١٥٨] أن يتوجهوا إلى دار الخلافة للحصول على رضاء الخليفة وموافقته ، وعلم الخليفة بهذا الموضوع ، فبعث برسول من عنده إلى المكان الذى تجمع فيه الأشراف والعظماء ، وقال : « تعليمات الخليفة هى أن يأتى الأشراف والعظماء إلى دار الخلافة مترجلين يتقدمهم الوزير الملك راكباً » ، وحينئذ ركبت جواداً أصيلا ، وسارت خلفى جميع أعيان الدنيا مترجلين ،ولما وصلت إلى دار الخلافة ، أجلسونى على معقد فى غاية العظمة ، ثم جلس سائر الناس عن يمين وعن شمال ، وتم إهداء كل واحد من العلماء والعظماءخلعة من دار وكانت خلعتى مطرزة بعبارة : « باسم الوزير العادل الكامل نظام الملك رضى الخليفة » ، ولم يحظ أحد بمثل ما حظيت به من الخليفة وذلك منذ بداية ظهور الإسلام حتى الآن » والهدف من شرح تلك الحالات أنه حينما تحرك شيطان ذلك الزمان فى نفسى ، وأخذ تنى العظمة والكبرياء ، بدأت أتأمل غدر الدنيا ومتاعها القليل . وأرى عجزى وضعفى بالرغم من كل ما توفر لى . وتأكدت جيداً من أن تلك المكانة ، ومئات الآلاف مثلها ، لايستطيع الصمود أمام نازلة أوكارثة بسيطة ، وكنت أقول لاحول ولاقوة الا بالله . ولما عدت من دار الخلافة وجاء الليل ، رأيت فى المنام نفس المقعد – الذى جلست عليه عند الخليفة – موضوعاً فى مكان أكثر رفعة وأنا جالس عليه متقلداً نفس الخلعة ، ولكنى شعرت وقتها بخوف ووحشة كاملة من العزلة والوحدة ، وفجأة ظهرلى شخص قبيح كريه الرائحة ، وجلس بالقرب منى[١٥٩] لدرجة أننى خشيت هلاكى من رائحته الكريهة ، ثم ظهر آخر أكثر منه كراهة وقبحاً مئات المرات وجلس على نفس المقعد ، وظل يظهر لى أمثالهما الواحد بعد الآخر ، وكل منهم أقبح من سابقه ويجلسون إلى أن ضاق على المكان إلى درجة انقلبت فيها من على مقعدى ،وأوشكت روحى أن تفارق جسدى من شدة رائحتهم الكريهة ، وبعدها استيقظت من شدة الانزعاج فحمدت الله وأخرجت الصدقات عند الفجر ، ولم أقص ما حدث لى على

أحد ، وقد شاهدت نفس الواقعة فى الليلة التالية ، واضطربت أيضاً لدرجة تملكتنى فيها الرعشة بحيث أننى لو لم استيقظ لأدى بى الانزعاج إلى نوم أبدى ، والحقيقة أننى فى الليلة الثالثة لم أتوجه إلى فراش النوم من شدة الخوف ، ولكن النوم غالبنى فى آخر الليل ، فرأيت أيضا نفس الجماعة القبيحة ، جاءوا وجلسوا واقتربوا منى لدرجة أوشك نفسى فيها على الانقطاع ، ولكن ظهرت لى فجأة جماعة حسنة الطلعة ، طيبة الرائحة ، جميعهم كالملائكة ، كلما يأتى واحد منهم ويلقى السلام على ويجلس كان يختفى واحـــد من الجماعة القبيحة إلى أن اختفت الجماعة كلها وقد شعرت براحة تامة بوجود الجماعة الثانية يعجز لسانى عن وصفها ، وفى تلك الأثناء خاطبت أحدهم قائلا له : « من أنتم ؟ ومن هم أفراد تلك الجماعة السابقة » ؟ فأجابنى قائلا : « نحن نمثل الجانب الطيب من صفاتك ، وهم يمثلون الجانب السيء وكلانا على استعداد لملازمتك إلى مالانهاية ، وستكون ملازمتهم لك مؤبدة ، أما ملازمتنا لك فستكون مخلدة ، فإذا كانت لديك القدرة على مجالسة تلك الجماعة اتركنا ! وإذا كانت لديك الرغبة فى مجالستنا اتركهم ! » والحقيقة أنى وجدت البهجة والسعادة التامة بمجالسة ومصاحبة الجماعة الثانية ، ولم أر بعد ذلك رؤى سيئة أبداً لأنهم أيقظونى » .

[١٦٠] وقد كتب نظام الملك فى أسفل هذه الحكاية ما يلى : « وهكذا يجدر بمن يتولى هذا المنصب — أى منصب الوزارة — أن يعرف جيداً أن التخلق بالأخلاق الحميدة أمر ضرورى له ، كما أن اجتنابه للسيئات واجب حتمى عليه .

(بيتان فارسيان ، وترجمتهما) :

— أخلاقك الطيبة هى ربيعك وبستانك فاجعله رقيقا باسما
— والقناعة والرضا هما عينك ومصباحك فتمسك بهما وحافظ عليهما
— وإذا كانت هذه الصفات والعياذ بالله ليست فيك
— فلاتحرم نفسك من هذه الصفات واستيقظ وتنبه !

وقد أورد سديد الدين البخارى فى مؤلفاته أن نظام الملك أرسى منشآت للخير والبر فى هراة وبغداد والبصرة وأصفهان وفى بلاد العرب وبلاد الروم ، وأتمها وأعدها للعمل ، ومن بينها مدرسة أقامها فى بغداد يسمونها المدرسة النظامية ،

وكانت المدرسة الشريفة مفيدة ونافعة جداً لأن أحداً قط من طلبة تلك المدرسة لم يكن يسمح له بالانتظام بها مالم يكن له نصيب وافر من مختلف العلوم والفنون وقد سكن فى تلك المدرسة الكثير من كبار العلماء ، وقاموا بالتدريس بها والتعليم، أمثال حجة الإسلام الإمام الغزالى والإمام أبواسحق الشيرازى -رحمهما الله . وقد ذكر أنه حينما فرغ نظام الملك من بناء المدرسة النظامية أسند وظيفة أمين المكتبة إلى الشيخ أبى زكريا الخطيب التبريزى ، فكان الشيخ يقوم كل ليلة بتناول الخمر ومجالسة الشباب الماجن ، وقد نقل بواب المدرسة ذات مرة بعضاً مما حدث إلى نظام الملك ، فرد عليه نظام الملك بقوله : « إننى أثق ثقة كاملة فى الشيخ أبى زكريا ولاأصدق هذا الكلام مطلقاً » ولكن الوزير فكر بينه وبين نفسه وذهب وحده ذات ليلة إلى المدرسة ، وارتقى سقف المكتبة وأخذ يراقب الشيخ أبا زكريا من خلال فتحة احتياطية [١٦١] بالسقف ، فشاهد صدق ما كان قد سمعه ، ثم عاد إلى منزله العامر وفى اليوم التالى طلب إدارة الوقف وأمر بمضاعفة مرتب الشيخ أبى زكريا . ،وتم صرفه ثم سلمه لأحد نوابه وقال له : سلم هذه الأموال للشيخ ، وأبلغه سلامى ، وقل له إن نظام الملك يقول : « إننى لم أكن أعرف والله أون الشيخ يتحمل كل هذه المصروفات الضرورية ، والا ما رضيت فى الوقت الذى كنت أخصص فيه مصروفات الوظائف - أن أخصص هذا الأجر الضئيل باسم الشيخ فى إدارة الأوقاف » وحينما التقى مبعوث نظام الملك بالشيخ زكريا وسلمه الرسالة فهم الشيخ أن نظام الملك قد وقف على ما خفى من أسراره ، وكان هذا التصرف - من جانب نظام الملك - سبباً فى خجل الشيخ وتأثره ، فرفع يديه بالتوبة والاستغفار ، ولم يجر وراء هذه المعاصى والملهيات طوال حياته بعد ذلك . كما روى أن نظام الملك كلف أحد رجاله وكان يسمى أبا سعيد أحمد بن محمد الصوفى النيشابورى بالإشراف على بناء نظامية بغداد ، فلما انتهى بناء المدرسة أبلغ المسئولون نظام الملك أن أبا سعيد ارتكب أعمالا تتسم بالخيانة وتصرف فى كثير من مواد البناء ، ولما علم أبوسعيد بما حدث هرب إلى البصرة ، ثم شعر بعد فترة من هروبه بالندم ، فعاد إلى بغداد ، وتوجه إلى نظام الملك وقال له فى تضرع وابتهال : « ياسيدى ؟. لقد أمرت ببناء هذه المدرسة لوجه الله تعالى ، فاترك محاسبة كل من ارتكب أعمال خيانة فيها للحق - سبحانه وتعالى - حتى

تنال الثواب ، ويعاقب الخائن يوم القيامة على ما فعل » ، فرد عليه نظام الملك قائلا له : « ياأحمد ليس المهم عندى المال الذى تصرفت فيه ، ولكن مايؤلمنى هو أننى كنت أحب أن يكون مبنى هذه المدرسة فى منتهى القوة والمتانة ، حتى لا تتفكك قواعدها [١٦٢] وتهدم وتتخرب على مر الشهور والأعوام ! أما الآن فقد ضاعت الفرصة وليس فى الإمكان تدارك ما كان » ولم يقل نظام الملك للملك الخائن أكثر من هذا .

كما ذكر فى بعض كتب التاريخ المشهورة أنه أثناء خلافة الناصر لدين الله قام بعض الناس بإبلاغ الخليفة قولا بلا استحياء ، وهو أن طلبة المدرسة النظامية يقومون دائما بارتكاب أعمال غير مشروعة حيث يقضون أوقاتهم فى مصاحبة الصبيان الأبرياء ! فأعرض الخليفة عن الرد على هذا القول وعزم بينه وبين نفسه على أن يقوم بالتأكد بنفسه من هذا الموضوع ، ولما كان الخلفاء فى ذلك الوقت لا يظهرون بين الناس — خوفا من خناجر فدائيي الملاحدة — ولم يكن يعرفهم أحد ، فقد ذهب الخليفة ذات يوم وحده إلى المدرسة متخفيا فى ثياب أهل الموصل البيضاء ، — وكان الناصر فى غاية من الجمال — وأخذ يتجول فى فناء المدرسة ، فأثر الخليفة — بجمال وجهه واعتدال قامته — فى أحد طلبة العلم حيث خرج هذا الطالب على الفور من فصله ، وأخذ يعاكس الخليفة الناصر ويدعوه لمرافقته ، وبعد أن شاهد الخليفة هذه الأحوال عاد إلى دار الخلافة ، وأمر فى اليوم التالى بطرد طلبة المدرسة النظامية على أن يحل محلهم اسطبل للعربجية ، وهكذا جعلوا تلك المدرسة الشريفة اسطبلا ، وبعد ذلك بفترة قليلة شاهد الناصر فى المنام الرسول — صلى الله عليه وسلم — فى تلك المدرسة مع نظام الملك ، فاقترب الخليفة فى أدب جم من سيد الأنام — عليه الصلاة [١٦٣] والسلام — وألقى عليه التحية والسلام ، فأعرض حضرة النبى عن الرد عليه ، وأدار وجهه المبارك إلى ناحية أخرى ، وسارع الناصر مرة أخرى أمام خير البرية لتحيته ، فحدث من حضرته نفس ما حدث ، وفى المرة الثالثة قال الخليفة الناصر فى عجز واستكانة للرسول : يارسول الله . . أى عمل صدر منى لا يرضاه رسول الله ؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم — : مادمت لاترضى نظام الملك عنك ، فلن أرد سلامك ، ولن أتحدث معك ! ! وحينئذ توجه الناصر إلى نظام الملك وطلب منه إبداء رأيه فى الجريمة التى ارتكبها ، فأجابه نظام الملك بقوله : « لقد شيدت

مدرسة لطلبة العلم حتى يتعلموا فيها العلوم الدينية وأصول العقيدة ، وأصبح ثوابها فى الآخرة السبب فى علو مكانتى ، وأنت بسبب خطيئة ارتكبها أحد المقيمين هناك ، قمت بالقضاء على التعليم والتعلم فى ذلك المكان الشريف ، وجعلته اسطبلا ! » فقال الناصر بخشوع : « أقسم لك بأنى سأعيد لتلك المدرسة رواجها السابق ورونقها ، وأزيد فى وقت الدراسة بها ، وأقيم مكتبة بجوارها ، وأخصص لتلك المدرسة المباركة الكتب النفيسة » ، وهنا رضى نظام الملك عليه فضم الرسول عليه الصلاة والسلام الخليفة الناصر بين أحضانه ، وأظهر له عنايته به والإشفاق عليه ، ولما استيقظ الناصر من ذلك الحلم ، أصدر أمره بخروج العربجية من تلك المدرسة وقام الفراشون بتنظيف تلك البقعة الطاهرة ، وتنفيذا للعهد الذى كان قد أخذه على نفسه فى الحلم ، فقد قام فى اليوم التالى بوضع أساس المكتبة وخصص لها الكتب النفيسة :

(مصراع فارسى) :

« ما أطيب الأحلام التى تكون أفضل من الصحو » :

وروى أيضا أحد فضلاء عصر السلطان ملكشاه أنه فى الوقت الذى كان فيه السلطان فى بغداد ، خطر على [١٦٤] بال نظام الملك خاطر الحج والطواف بالروضة المقدسة لخير الأنام – عليه الصلاة والسلام – وطلب الإذن من السلطان ، فأذن له ، وحمل خدم نظام الملك أحماله وأثقاله إلى الجانب الغربى من دار السلام ، وقد ظل المكان لبضعة أيام منزلا لخيام الوزير المهيب ، وذات مرة توجهت للقاء نظام الملك ، فلما اقتربت من قصر صاحب الوزارة ، رأيت شخصا تبدو عليه إمارات الصالحين والأولياء ، فأعطانى ورقة وقال لى : « هذه أمانة للوزير . . أرجو أن توصلها إليه » ، فأخذت تلك الورقة ولم أقرأها ، وذهبت إلى خيمة الوزير وسلمتها له ، وعرضت عليه ماحدث ، فاستغرق نظام الملك فى البكاء بعد قراءة الورقة ، واستولى عليه البكاء لدرجة أننى ندمت على مافعلت ، ولما هدأ قال لى : « أرجو أن تحضر إلى صاحب هذه الورقة » ، فخرجت على الفور من خيمته لاحضار صاحب الورقة ، ولكنى لم أجد ذلك الدرويش برغم كثرة بحثى عنه ، وعدت مضطرا وأخبرت نظام الملك بعدم وجود الدرويش ، وحينئذ وضع الوزير الورقة أمامى ، فشاهدت ما كتب بها وكان : « رأيت أمس الرسول – صلى الله عليه وسلم

فى المنام وقال لى : اذهب إلى حسن وقل له : حجك هنا فلن تذهب إلى مكة ! أليس أنا الذى قلت لك : كن ملازما لهذا التركى ، وحقق بسرعة مطالب أصحاب الحاجات ، وقف على صراخ المعوزين وآلامهم » ويقول [١٦٥] الراوى : فألغى نظام الملك سفره إلى الحجاز ، وقال لى : « حيثما تجد صاحب الرؤيا الصالحة عليك أن تأتى به إلى ! » وبعد فترة رأيت ذلك الشخص ، فقلت له : الوزير فى شوق للقياك ، وإن تكن لك حاجة فإنه يحققها لك ! ! فأجابنى بقوله : « كان عندى أمانة للوزير ، أوصلتها إليه ، وبعدها ليست لى به وليس له بى حاجة قط ! ! »

(بيتان ، ترجمتها) :

— ما أسعد ذلك الذى يحرر نفسه من قيد الوجود

— ويتخذ من زاوية الفناء مأوى له

— ولا يتخذ له طريقا عند أهل الجاه

— ولا يبحث عن مأوى له بجوار إنسان

ومن الثابت أن السلطان ملكشاه فى أواخر أيامه قد تغير على الوزير ذى المنزلة الرفيعة ، وكان السبب فى هذا أن تركان خاتون زوجة السلطان كانت ترغب فى أن يكون ابنها محمود وليا للعهد ، وكان نظام الملك يرغب فى أن يعين السلطان بركيارق — الذى كان أكبر أبناء السلطان ملكشاه — وليا على العهد ، وبناء على هذا ثار خلاف بين نظام الملك وتركان خاتون ، فكانت تركان تقوم بتقبيح وذم أفعال وتصرفات نظام الملك صاحب الخصال الحميدة وذلك فى خلوتها مع السلطان ، وتعدد له الزلات والعثرات ، الصادق فيها والكاذب ، وكانت تقول له : « إن لنظام الملك اثنى عشر ابنا فهم بمثابة الأئمة الاثنى عشر ، وهذا جعله محبوبا فى نظر الناس ، وقد قسم حكومة الولايات على تلك الجماعة .. وأغلق أبواب المنفعة أمام باقى الخواص والمقربين » .

وحسب الحكمة القائلة « من يسمع يخل » ، أثرت هذه الكلمات فى السلطان ، فأرسل رسالة إلى نظام الملك يقول له فيها : « إذا كان لديك مايثبت اشتراكك

معى فى الملك فأظهره[1] ؟! وإلا فلماذا توزع على أولادك حكم [١٦٦] الولايات دون إذن منى ، وتستقل بالتصرف فى أمور السلطنة؟ فلو تقلع عن هذا المسلك فهو المطلوب ، وإلا فإنى آمر برفع الدواة من أمامك ، والعمامة من فوق رأسك[2] ! »
فأجابه الوزير قائلا له : « لقد منحنى الله الدواة والعمامة واختص السلطان بالتاج ، وقد استحكمت العلاقة بين هذه الأجناس الأربعة المختلفة لأن دوام ذلك منوط بسلامة هذا ، وقوة هذا مرتبطة بتدبير ذلك! » وقد أضاف الناقلون كلمات قبيحة — نسبوها إليه — عن تركان على هذه الأقوال وأوصلوها للسلطان فغضب السلطان من رد الوزير الجاف ، وأصدر أمره إلى تاج الملك القمى — وكان رئيسا لديوان تركان خاتون وعلى عداء مع نظام الملك — بالقيام بعمل ذلك الوزير البارع ، وعقب ذلك مباشرة توجه السلطان من اصفهان إلى بغداد ، فتوجه نظام الملك وراءه كذلك ، ولما وصل إلى أحد مزارع القصب ، اعترضه أبو طاهر الأوابى ، وكان من بين فدائيى حسن الصباح — الذى أشار عليه بذلك بتحريض من تاج الملك أبى الغنائم — وذلك فى زى المتصوفة عندما كان يسير من عاصمة السلطنة إلى الحرم الشريف ، وقدم له ورقة ، انشغل نظام الملك بقراءتها ، وطعن أبو طاهر اللعين نظام الملك طعنة قاتلة بخنجر ، وقد توفى نظام الملك فى اليوم التالى متأثرا بجراحه ، ويقول الحكيم الأنورى[3] فى رثاء ذلك الوزير العظيم :

---

(١) راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية للراوندى ، ص ٢٠٨ من الترجمة العربية وهو كتاب مؤلف بالفارسية نقله إلى العربية عام ١٩٦٠م :

الأستاذ الدكتور — إبراهيم أمين الشواربى .

الأستاذ الدكتور — عبد النعيم حسنين .

الأستاذ الدكتور — فؤاد عبد المعطى الصياد .

(٢) كناية عن عزله من منصبه .

(٣) وهو الأنورى الخاروانى شاعر السلطان سنجر السلجوقى ، ولد فى قرية « مهنة » من قرى (أبيورد) فى صحراء « خاوران » ، ولذلك فقد تخلص فى البداية بكلمة) « الخاورى » ، ثم غيرها فيما بعد إلى « الأنورى » وتاريخ ميلاد الأنورى غير معروف حتى الآن بالتحديد كذلك تاريخ وفاته غير معروف بشكل قاطع ، والأرجح أن وفاته قد حدثت فى عام ٥٨١ هـ ، أو بين سنتى ٥٨٥ ، ٥٨٧هـ (١١٨٩ — ١١٩١ م) كما أشار بذلك المستشرقان « زوكوفسكى » ، « إتيه » .

=

(بيتان ، ترجمتهما)

— لقد رحل حامى العالم من ظلم الأفلاك

— ورحل وحيد عصره وفريد زمانه

— ورحل منظم ومدبر العالم

— ورحل برحيله السرور والصفاء عن العالم

[١٦٧] وقد ذكر أنه بعد طعن نظام الملك ، أنشأ نظام الملك هذه القطعة الشعرية وأرسلها إلى السلطان :

(قطعة فارسية ، ترجمتها) :

— لقد اشتغلت فترة طويلة معك أيها السلطان

— فمحوت الظلم من على ظهر الأرض

— وحملت توقيعاتك المباركة وأوامرك السعيدة

— إلى جميع الملوك وأصحاب العروش

— ولقد بلغت الثالثة والتسعين من عمرى

— ثم مت بضربة خنجر أثناء سفرى

— وتركت ذلك العمل الأخير لولدى

— معتمدا على الله وعليك فى رعايته

وقد حمل جثمانه الطاهر إلى أصفهان ودفن فى مكان يليق به ،

= والأخبار المتصلة بحياة الأنورى مختصرة جدا ، فتذكر أنه حصل علومه فى المدرسة المنصورية بمدينة « طوس » وأنه كان طالبا جادا ، فى معرفة علوم النجوم والهندسة والمنطق والموسيقى والإلهيات والأحكام ، بل إنه برز فى كل علم نظرى أو عملى يعرفه واحد من معاصريه .

التحق الأنورى ببلاط السلطان سنجر السلجوقى ، وأصبح من كبار شعرائه ويعتبر الإيرانيون الانورى واحدا من ثلاثة شعراء أكبر ، يعتبرون أكبر من أعجبتهم إيران على الإطلاق ، وهم : الفردوسى ، والأنورى ، والسعدى .

(انظر ، براون ، التاريخ الأدبى لإيران ، جـ ٢ ، ص ٤٦٢ — ٤٩٤ ، الترجمة العربية ، ١٣٧٣هـ — ١٩٥٤م القاهرة) .

(بيتان ، ترجمتهما) :

ـــ كل حفنة تراب تحت قدم جاهل

ـــ ربما كانت ذؤابة فاتنة أو وجه حبيب

ـــ وكل لبنة فى شرفة إيوان

ـــ ، ربما كانت إصبع وزير أو رأس سلطان

وجاء فى كتاب « روضة الصفا » أن نظام الملك كان رقيق القلب ، حسن العقيدة ، فكان خوفه من الآخرة ــ أثناء عظمته وعلو مكانته ــ أكثر من آلام الدنيا وأحزانها ، وبناء على هذا الشعور خطر بفكره مرة أخرى أن يكتب سجلا بماقدمه فى الحياة للرعايا والعاملين تحت إمرته ، ويزينه ويحليه بتوقيعات الصالحين والعلماء من الأمة ، والأعيان والاشراف فى الدولة ، على أن يوضع ذلك السجل معه فى قبره بعد وفاته ، ورغم أن هذه الصورة كانت غير مألوفة فإن أئمة الدين ، سالكى طريق اليقين ، وضعوا توقيعاتهم على ذلك السجل بناء على رجاء [١٦٨] نظام الملك ولما حملوا ذلك السجل إلى الشيخ أبى أسحق المدرس بالمدرسة النظامية ببغداد ــ وكتب عليه : « خير الظلمة حسن ، كتبه أبو إسحق » ولما رأى نظام الملك ما كتبه الشيخ بكى كثيرا وقال : « لم يكتب أحد قط من الأكابر بصدق مثلما فعل الإمام أبو إسحق » ، ورأى أحد الفضلاء نظام الملك فى المنام بعد وفاته فسأله عن أحواله » فأجابه نظام الملك بقوله : « لقد شملنى الحق ــ سبحانه وتعالى ــ برحمته بسبب كلمة الحق التى كان قد كتبها الإمام أبو اسحق » .

ومن المعروف أن السلطان ملكشاه وصل الى بغداد فى الرابع والعشرين من شهر رمضان عام ٤٨٥ هـ ، ولما علم بوفاة نظام الملك ، أسند منصب الوزارة إلى تاج الملك ، وذهب هو للصيد ، وفى الثالث عن شهر شوال من نفس العام مرض السلطان فى ميدان الصيد ، وعاد إلى بغداد ، فتوفى فى منتصف الشهر نفسه ــ أى

بعد استشهاد نظام الملك بثمانية عشر يوما — ويقول الشاعر معزى (١) فى هذا الغرض :

(بيتان ، ترجمتها)

لقد رحل إلى الفردوس الأعلى — هذا الشهر — الوزير المسن

— ، ولحق به السلطان الشاب فى الشهر التالى

— ، وفى الحال اتضح عجز السلطان أمام قهر الخالق وعظمته

— ، فتمعن فى قدرة الخالق ، واعتبر بعجز السلطان

الحديث عن حسن بن الصباح :

[١٦٩] كان الحسن بن الصباح - على حد قول بعض أئمة المؤرخين - من أبناء محمد بن الصباح الحميرى ، ولكن نظام الملك — رحمه الله — ذم فى نسبه كما يتضح من مضمون كلامه الذى ذكره فى وصاياه ، وفيما يلى ماروواه نظام الملك عن الحسن ابن الصباح : « كان الإمام موفق النيشابورى - روح الله روحه — من كبار علماء خراسان ، وكان معززا جدا ومباركاً ، وقد تجاوز عمره الشريف خمسة وثمانين عاماً ، وحظى بشهرة فائقة لدرجة أن كل صبى كان يقرأ القرآن والحديث على يديه ، لا بد له أن يبلغ مكانة عالية ، وبناء على ذلك بعثنى والدى مع الفقيه عبد الصمد من طوس إلى نيشابور ، حتى أحظى بالاستفادة والتعلم فى مجلس ذلك العظيم وكان يشملنى بعطفه وعنايته ، وأبديت أنا إخلاصا تاما فى خدمته والاستفادة

---

(١) الأمير معزى هو شاعر السلطان سنجر السلجوقى ، ولكنه استطاع قبل ذلك — فى أيام السلطان ملكشاه — أن يفوز بشهرة واسعة فى نظم الشعر ، وقد استمد تخلصه الشعرى من أحد ألقاب السلطان وهو « معزالدين » كما ذكر الشاعر نفسه .

يذكر عوفى فى كتابه « لباب الألباب » أن ثلاثة من الشعراء استطاعوا فى ثلاث دول متوالية أن يبلغوا مراتب العز والإقبال بحيث لم يتيسر ذلك لغيرهم ، فأما الأول فهو الشاعر « رودكى » فى عهد السامانيين ، والثانى « عنصرى » فى عهد الغزنويين ، والثالث « المعزى : » فى عهد السلاجقة ، ونهاية المعزى كانت حزينة ، إذ قتله سهم انفلت خطأ من قوس « سنجر » عندما كان يقوم بالرماية ، وذلك فى عام ٥٤٢ هـ — ١١٤٧ م .

انظر براون ، التاريخ الأدبى لايران ، جـ٢ ، ص ٣٨٥ ، ٤١٣ — ٤١٧ ، الترجمة العربية ١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م)

منه ، وقد أمضيت على هذه الحال أربع سنوات فى صحبته ، وكان معى الشابان ، الحكيم الخيام ، والمخذول ابن الصباح ، وكانا فى مثل سنى ، كما كانا يتصفان بحسن الطبع ، وسرعة الفهم ، وكانا يحضران مجلسه ويتنافسان معى ، وحينما أهم بالخروج كانا يخرجان أيضا ، ثم نجلس فى ركن من الأركان ونراجع الدرس السابق ، وكان الحكيم الخيام نيشابورى الأصل ، وكان والد حسن بن الصباح اسمه علياً ، وكان شخصا زاهدا فاسد المذهب ، خبيث العقيدة ، وقد عاش فى ولاية الرى ، وكان أبو مسلم الرازى حاكم تلك الولاية يعرف بصفاء السيرة وحسن العقيدة ، ولهذا السبب كان دائم العداء لذلك المفسد ، الذى كان يذهب كثيرا إلى أبى مسلم محاولا تبرئة نفسه من سيء الأقوال والأفعال بالأيمان الكاذبة والأقوال الملفقة ، ولما كان الإمام موفق النيشابورى يذهب مذهب أهل السنة والجماعة فقد قام ذلك المخادع بمحاولة إبعاد تهمة الرفض على نفسه بأن أحضر ابنه من نيشابور لتلقى العلم والمعرفة فى [١٧٠] مجلس الإمام ، وأما هو فقد اختار لنفسه زاوية الزهد والاعتكاف ، وكانوا يروون عنه أحياناً أقوالا عن الاعتزال والإلحاد وأحيانا أخرى كانوا ينسبون إليه الكفر والزندقة ، وكان يشير هو إلى انتمائه للعرب بقوله « إنا من آل الصباح الحميرى ، وجاء والدى من اليمن إلى الكوفة ، ومن الكوفة إلى قم ، ومن قم إلى الرى » ، ولكن أهالى خراسان وخصوصا أهل طوس أنكروا عليه هذا النسب ، وكانوا يقولون : « كان آباؤه من مزارعى هذه الولاية » .

وخلاصة القول إن ذلك المخذول قال ذات يوم لى وللخيام : إنه لمن المشهور جداً أن تلاميذ الإمام موفق يبلغون مرتبة عالية ، ومما لا شك فيه الآن أنه إذا لم نصل جميعا إلى تلك المرتبة ، فإن واحدا منا سوف يصل ، فكيف يكون عهدنا وميثاقنا ؟ فقلنا له : نقسم على أى اقتراح تقترحه ؟ فقال نقسم على أنه إذا تيسرت لأحدنا مرتبة الحكم والجاه نشترك معه فيها بالتساوى ! ولا يميز صاحب تلك المرتبة نفسه بميزة علينا ! ، فقلنا : موافقون على هذا ، وتم التعاهد على هذا الأساس ، إلى أن انقضت فترة على هذا الاتفاق ، وتنقلت أنا من خراسان إلى ماوراء النهر وغزنين وكابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة فى عهد السلطان ألب أرسلان ، وجاءنى الحكيم الخيام فعرضت عليه مايقتضيه حسن العهد والوفاء به ، واستقبلته بكل تكرم وإعزاز ، وبعد ذلك قلت له : « إنك والحمد لله تتحلى بحلية الفضل

رالكمال ، ويجب أن تلازم السلطان ، ونقتسم منصب الوزارة بناء على العهد الذى بيننا ، ويمكنني وصف فضيلتك ودرايتك للسلطان بحيث أوضح له ضرورة اعتمادى عليك » ، فقال لى الحكيم : « إن نسبك الشريف [١٧١] ونفسك الكريمة تتوقان دائما لإظهار المكارم ، وتصل إلى حد أن ضعيفا مثلى يصفه وزير المشرق والمغرب بكل هذه الصفات ، وليس هناك أى شك عندى فى أنك صادق غير متكلف فى صدقك ، وهذا يرجع إلى علو همتك ، وطهارة منبتك ، وأما ما أتمناه الآن ، هو أن أكون دائما مطيعا لك ، وعند حسن ظنك ، والعمل الذى تريد إشراكى فيه معك ليس هناك داع له لأن طمعى فيه — فى ظنى — يعتبر كفرا بالنعمة ، وأعوذ بالله من هذه الصفة ، وأرى أن تكلفنى بعمل مناسب فى دولتك ، اعتكف فيه وقت الفراغ ، وأشتغل بالبحث العلمى » ، ولما عرفت أنه يقول ما فى نفسه دون تكلف خصصت له مائة مثقال وألفاً من الذهب من عائد أملاك نيشابور ، ينفق منها كل عام على معيشته ، وأذنت له بالرجوع إلى وقتما شاء ، وقد أتم الحكيم عمر بعد ذلك معرفته بالفنون المختلفة ، وبلغ شأوا عاليا فى علم الهيئة ، وأما ابن الصباح فكان مجهولا أيام حكم السلطان ألب أرسلان ، وظهر فى نيشابور أيام السلطان ملكشاه فى العام الذى فرغ فيه السلطان من أمر قاورد بن جغربيك وجاءنى ، فقدمت له من الإعزاز والإكرام كل مافى وسع المحافظين على العهد والوفاء ، والمتوخين الصدق والصفاء ، واستمر على هذه الحال بضعة أيام ، وفى يوم من الأيام — فى ذلك الوقت — قال لى : « يانظام الملك . . إنك رجل حكيم ، وتعرف قول الحق — سبحانه — وتعالى فى كتابه « قل متاع الدنيا قليل [١] » ، فهل يليق بك أن تنقض العهد والميثاق بسبب حب الدنيا ومتاعها ، وتصبح من زمرة « الذين ينقضون عهد الله [٢] » . !

[١٧٢] (بيت ، ترجمته)

— كن وفيا بعهدك .
— . وحاول ألا تصبح ناقضا للعهد !

---

(١) سورة النساء ، آية «٧٧»
(٢) سورة البقرة ، آية «٢٧»

فقلت له : حاشا لله ! قال : إنك حقا تقدم لى مكارم لا نهاية لها ، وألطافاً لا حدود لها ، ولكنك تعلم جيدا أن المعاهدة التى كانت بيننا لم تكن كذلك ! فقلت له : سمعاً وطاعة ، فلنقسم الجاه والمنصب بل كل ماهو موروث ومكتسب! وبعد ذلك أخذته إلى مجلس السلطان وعرفته عليه فى الوقت المناسب ، وعرضت عليه الأمور السابقة التى كنا قد اتفقنا عليها ، وقصصت للسلطان كثيرا عن علمه الوفير ، وسيره الحميد ، وخلقه الكريم، إلى أن حاز مرتبة القبول والثقة ، ولكنه مصداقا للحكمة القائلة « الولد سر أبيه » كان هو أيضا كوالده ، إنسانا مشعوذا ومزورا ومحتالاومدبرا ، يلبس نفسه لباس الأمانة والصيانة ، لدرجة أنه أحدث تغييرا كبيرا فى نفس السلطان خلال فترة قليلة ، ووصل إلى تلك المرتبة التى أصبح فيها ضالعا فى كثير من الأمور والأعمال التى تتعلق بالعقيدة والدين ، واعتمد السلطان على آرائه وأقواله ، وصير الأمور بمقتضاها .

والهدف من سردى كل هذه المقدمات هو أنى أوصلته إلى هذه المرتبات ، وكانت النتيجة أنه ارتكب كثيراً من المفاسد ، بسبب قبح سريرته ، وبلغ به الأمر أن أضاع بسرعة قواعد وأسساً استغرق تنظيمها عدة سنوات وجعلها هباءً منثورا وبعبارة أوضح فإنه بدأ يستعمل أسلوب النفاق معى ، وأخذ يستعمل شتى ألوان المكر والخداع حتى تحصل بعض الهنات والهفوات التى كانت تحدث فى الديوان إلى السلطان ، فتثيره وتجعله يستفسر منه عن صحتها ، فيثبت فسادها للسلطان بلسان الموجه ، وتقرير العاقل المفكر . »

[١٧٣] وبعد أن كتب نظام الملك — رحمه الله — هذه المقدمات ، كتب من بين ماكتب من قصص الحسن بن الصباح هذه القصة : « كان يوجد فى حلب نوع من الرخام يصنعون منه الأوعية والأوانى ، وحدث ذات مرة أن جاء على لسان السلطان فى تلك البلدة قوله : « إنه يلزم نقل مقدارمنه إلى أصفهان » وكان واحد من أهالى سوق العسكر قد سمع هذا الكلام ، فقام بعد عودة السلطان باختيار اثنين من الأجراء العرب وقال لهما : « لو توصلا خمسمائة من هذا الحجر الرخامى إلى أصفهان ، فسوف أضاعف لكما أجركما المعتاد » ، وكان لأحد الأجيرين ستة جمال وللآخر أربعة جمال ، وكان مع كل منهم أيضاً خمسمائة مَنّ خاصة به وقد أضافا الخمسمائة

من هذه على أحمالهم الخاصة، وقسماها على الجمال المذكورة بالتساوى ، وأوصلا أحجار الرخام إلى أصفهان، وحينما عرض السوقى هذا الخبر ، ابتهج السلطان ومنح السوقى خلعة وأنعم على الأجيرين بألف دينار، فقال لى الأجيران : نرجوك أن تقسم بيننا هذا المبلغ ، فأعطيت لصاحب الجمال الستة ستمائة دينار ، وأعطيت لصاحب الأربعة أربعمائة دينار، وبلغ خبر هذه القسمة إلى ذلك المخذول، فقال: لقد وقع فى التقسيم خطأ ، وأنفق مال السلطان فى غير موضعه ، وظل حق المستحق باقياً فى ذمة السلطان ، فكان يجب إعطاء صاحب الجمال الستة ثمانمائة دينار ، ومائتى دينار لصاحب الجمال الأربعة ، وفى نفس اليوم عرض هذا الكلام على السلطان ، فطلبنى السلطان وذهبت إليه فوجدت ذلك المخذول واقفاً، ولما رآنى السلطان ضحك وسأل عن القصة فامتعض ذلك المخذول وتغير لونه وقال هذا القول: لقد أنفقوا أموال السلطان فى غير موضعها وبقى حق المستحق لم يأخذه !

[١٧٤] فقال له ندماء المجلس وحضاره: أوضح ! فقال : إن جميع أحمال هذه الجمال العشرة تنقسم إلى ثلاث حصص ، كل حصة خمسمائة منٍّ ، وعدد الجمال عشرة فتكون جملة الأنصبة ثلاث حصص تضرب فى عشرة جمال، ويكون الناتج ثلاثين نصيباً ، وأربعة جمال فى ثلاث حصص تساوى اثنى عشر نصيباً ، وستة جمال فى ثلاث حصص تساوى ثمانية عشر نصيباً ، ونظرا لأن كل حصة يخصها عشرة أنصبة ، فإنه يتبقى الآن لصاحب الثمانية عشر نصيباً — وهو مالك الجمال الستة — ثمانية أنصبة ، ويتبقى لصاحب الأثنى عشر نصيباً — مالك الجمال الأربعة — نصيبان ، والمتبقى هذا هو ما يخص حصة نقل رخام السلطان ، وحيث ان الألف دينار تنقسم على هذه الحصة فقط فتئول بذلك ثمانمائة دينار إلى الأنصبة الثمانية ، وتكون المئتا دينار للنصيبين » .

والخلاصة أنه شرح هذه المعميات والألغاز بهدف إغاظتى وإعجاز الآخرين فقال له السلطان: وضح بطريقة أفهمها ! فقال: « المسألة أنه يوجد عشرة جمال وألف وخمسمائة منٍّ ، فتكون حمولة كل جمل مائة وخمسين منٍّ ، وعلى هذا فصاحب الجمال الأربعة — يحمل ستمائة منٍّ ،منها خمسمائة منٍّ من الرخام ملكاً خاصاً له، ومائة منٍّ الرخام للسلطان ، والآخر صاحب الجمال الستة يحمل تسعمائة منٍّ ، يمتلك

منها أيضاً خمسمائة من ، ويمتلك السلطان أربعمائة من رخام ، وكل مائة من يخصها مئتا دينار من الألف دينار ، يأخذ هذا ثمانمائة دينار ويأخذ ذاك مائتى دينار ، فإذا تم هذا من الناحية الحسابية فليس هناك قانون غير هذا ، والا لما لزم الأشراف على العطايا وتقسم مناصفة » .

ولما فعل ذلك المخذول هذا الفصل ، تظاهر السلطان بالتلطف من ناحيتى ، ولكننى عرفت أنه تأثر تأثراً كبيراً فى داخله ، وكان هذامن أمثلة الخيانات الكثيرة التى كانت تصدر عن ابن الصباح .

وكان المفسد الكبير هذا يتولى تنظيم عملية تحصيل أموال الولايات وأوجه إنفاقها ، وقد تعهد ذلك المفسد الكبير بعمل سجل ينظم عملية تحصيل أموال الولايات وأوجه الإنفاق ، وذلك فى خلال فترة تساوى عشر مدة [١٧٥] المهلة التى طلبتها لأقوم أنا بهذا العمل ، وفى الحقيقة كانت له أياد بيضاء فى ذلك العمل ، وأنجز مثل ذلك العمل الخطير فى فترة قصيرة ، ولكنه لما كانت أحواله وأعماله دائماً تقوم على أساس الحقد والحسد ، ونقض الميثاق ، فإنه لم يؤيد بالعناية الإلهية ، وبنصر من الله — سبحانه وتعالى — ، وقد شعر بالخجل الشديد أثناء تقديم ذلك السجل ، لدرجة أنه لم يجد الفرصة بعد ذلك للبقاء فى البلاط السلطانى ، ولو أن ذلك المخذول — والعياذ بالله — وجد تشققاً وتفككاً فى ذلك المجلس ، فإنه لم يكن ليجد أمامه طريقا آخر غير الذى سلكه فى النهاية .

ويقول كاتب هذه السطور إن الكلام الذى كان قد ذكره نظام الملك عن حسن بن الصباح فى كتابه الوصايا قدتم . وأما ما قاله بعض المؤرخين فهو مايلى :

فى الوقت الذى كان حسن بن الصباح فيه ملازماً السلطان ملكشاه ، استطاع أن يحدث تغيراً بسيطاً فى نفس السلطان من ناحية نظام الملك ، فقد حدث ذات يوم أن سأله السلطان مستفسراً بقوله : كم من الوقت تحتاج لعمل سجل يشتمل على تنظيم جمع وإنفاق أموال جميع الولايات ؟ فأجابه نظام الملك بقوله : عامين فقال السلطان ؛ : كثيراً فتعهد حسن بن الصباح أمام السلطان بإنجاز ذلك العمل خلال أربعين يوماً شريطة أن يلازمه جميع الكتاب فى المدة المذكورة ، فوافق السلطان على هذا التعهد ، ووفى حسن بوعده ، وانتهى فى أربعين يوماً من عمل سجل

منظم يشتمل على عملية جمع وإنفاق أموال الولايات ، فانزعج نظام الملك بسماع الخبر وقال لأحد غلمانه — حسب رواية الغلام نفسه الذى [١٧٦] كان صديقاً لخادم حسن — قال : « لو تفكر فى حيلة تمزق بها سجل حسن وتجعله أبتر ، فسوف أعتقك وأعطيك ألف دينار !! فانفرد غلام نظام الملك بخادم حسن وغافله ومزق السجل ، وقالت جماعة من المؤرخين ما يلى :

فى صباح اليوم الذى أحضر فيه حسن بن الصباح السجل إلى الديوان لعرضه ، كان نظام الملك موجوداً داخل ديوان السلطان ملكشاه ، وقال لخادم حسن — الذى كان يحمل السجل المذكور فى يده — أرنى هذا السجل لأتبين كيف رتب هذا السجل؟ ومنع الخادم حياؤه من رفض هذا الطلب ، فسلم السجل لنظام الملك ، فنظر نظام الملك فى السجل ووقف على طريقة تنظيمه وترتيبه ثم ألقى به على الأرض ، فتفرقت أوراقه وقال : أكثر ما كتب فى هذا السجل ناقص ومهمل وجمع تلك الأوراق دون مراعاة لترتيبها ، ولم يفض بهذا الكلام لحسن خوفاً منه ، وعند العرض وجد حسن السجل ممزقاً ، وأوراقه متفرقة ، وبدأ السلطان يسأله عن أموال محاصيل الولايات ، فكان حسن يرد بردود بطيئة من (عندياته) ، ولما لم يجد السلطان الجواب مطابقاً للسؤال ، تضايق وانتهز نظام الملك الفرصة وقال : « العمل الذى يلتمس فيه العارفون مدة عامين لإتمامه ، ويدعى الجهلة إنجاز ذلك العمل العظيم خلال أربعين يوماً لابد أن تكون إجابة كاتبه بطيئة غير دقيقة » :

ويذكر بعض آخر من المؤرخين ما يلى :

[١٧٧] « لما وجد حسن السجل ممزقاً أمام السلطان ، شغل نفسه بتنظيمه واستعجل السلطان وسأله عدة أسئلة ولم يستطع حسن الإجابة عليها مضطراً ، إلى أن مل السلطان طول انتظاره فى الرد وقال : ما سبب كل هذا التأخير فى الإجابة ؟ فقال حسن : لقد تمزق السجل » ، وحينئذ قال نظام الملك : « لقد سبق لى أن قلت إنه أهوج ولايجب الاعتماد على كلامه » ، ولاشك فى أن السلطان تضايق وأراد تأديب حسن ومعاقبته ولكنه نظراً لأن نظام الملك كان هو المربى لدولته ، عمل تأخير التنفيذ .

والخلاصة أن حسن بن الصباح لما لم يستطع أن يحقق فى بلاط السلطان ملكشاه ،

آثر الهرب على البقاء ، وأخذ ينتقل فى البلاد ، وحينما كان يبحث عنه رجال الملك مصرع :

«كان هو يطوى المنازل والبلاد ليل ونهار »

إلى أن وصل إلى مصر ، ووجد الحظوة لدى الخليفة المستنصر بالله العلوى ، ولقيت أقواله وأفعاله قبولا حسنا لدى المستنصر ، فكان يزيد فى إجلاله وإكباره يوماً بعد يوم ، إلى أن وصل إلى مرتبة حسده عليها أمراء الخليفة وحاشيته ، وفى النهاية حدث خلاف بين حسن وأمير الجيوش، ولم يجد حسن فى تلك الولاية مجالا لإقامته ، ففر عن طريق البحر ، وظل مدة طويلة ينتقل متخفياً من مدينة إلى مدينة ، ومن ولاية إلى ولاية ، داعياً الناس لأتباع مذهب الإسماعيلية ، إلى أن تمكن من الاستيلاء على قلعة الموت فى [١٧٨] عام ٤٨٣ هـ ، وبذل كل جهده من أجل قتل نظام الملك — رحمه الله ، فكلف فدائياً بهذه المهمة ، وكما هو مذكور تمكن ذلك الفدائى من قتل نظام الملك فى عام ٤٨٥هـ ، وفى عام ٤٨٨ هـ توفى حسن — بتقدير الحى الذى لايموت — فى قلعة الموت — المكان الذى اختاره لنفسه فى تلك الدنيا — فالبقاء والدوام لله وحده سبحانه وتعالى .

الوزير عز الملك بن نظام الملك :

تولى منصب الوزارة عدة أيام فى أوائل عهد السلطان بركيارق ، ولكنه نظرا لأنه كان يقضى أكثر أوقاته فى شرب الخمر ، ومجالسة الفتيان الوجهاء ، ولم يستطع أن يخلص نفسه من قيود ذلك الأمر الخطير ، فقد عزله السلطان وعين أخاه مؤيد الملك مكانه .

الوزير مؤيد الملك بن نظام الملك :

كان معروفاً بعلو الهمة ومشهوراً بالكرم والسخاء ولما تولى الوزارة عدة أيام للسلطان بركيارق ، أخذ أخوه فخر الملك يتطلع للعمل فى بلاط السلطان ، وبواسطة تقديمه مختلف ألوان الهدايا والتحف التى لاتعد ولاتحصى — أصبح مقبولا ومقرباً من السلطان، واعترافا من السلطان بهذه الخدمات الجليلة ، فقد قام بعزل مؤيد الملك وعين فخر الملك وزيراً ، وفى تلك الأثناء دارت حرب بين

بركيارق وعمه تتش ، قتل فيها تتش [١٧٩] وتقدم بركيارق إلى خراسان للقضاء على عمه الآخر أرسلان ، وفى أثناء طريقه علم بخبر انتقال أرسلان إلى العالم الآخر :

(مصراع ، وترجمته) :

« أصاب السيف رأس الحربة وانتصر دون عراك »

وبذلك خضعت تلك الولاية لسلطانه .

وأما مؤيد الملك المعزول فقد اتصل بـ « أنر » –وكان أحد الخدم الخصوصين للسلطان ملكشاه – وقال له :

« أنت الغلام المحبب للسلطان ، والمقرب منه ، وهيبتك فى نفوس الكبار والصغار أقوى من مهابة أبنائه الذين هم من صلبه ، ومصلحتك هى أنه بمجرد اعتلائك عرش السلطنة أن تعمل على التفاف الجيش حولك ، وكسب حب الرعية بواسطة جودك وكرمك ، وتنظم أمور العراق وفارس وكرمان » .

(بيتان ترجمتهما) :

– اليوم هذه فرصتك لحكم العالم

– ، فضع قدمك فى الميدان بغزم صادق

– لأن الجيش قد التف حولك

– ، كما تلتف الفراشة حول الشمعة

فاغتر (أنر) بهذا الهراء والدجل ، ووضع يده على خزائن السلطان ، وأعد جيشاً جراراً ، توجه به إلى الرى ، وعندما وصل إلى ساوه ، قتل بخنجر أحد فدائيى قلعة الموت ، ولما لم يقدر النجاح بلتدبير مؤيد الملك ، فقد سارع بالتوجه خائباً خاسراً إلى گنجه ، وكانت مقراً لإقامة محمد بن ملكشاه ، وحرضه هو أيضاً على رفع راية العصيان لأخيه ، والمطالبة بملك والده ، وقد لقى هذا القول قبولا فى نفس محمد الذى أمر [١٨٠] بإعداد الجيش ، ونادى بمحاربة بركيارق ؛ وشرح ماسبق هو أن أبا الفضل مجد الملك القمى كان يتولى رئاسة ديوان الاستيفاء للسلطان بركيارق ، وكان يتحكم فى جميع أمور الولايات ، وأغلق أبواب المنفعة أمام الأمراء وكبار رجال الدولة ، وفى الوقت الذى وصل فيه خبر تمرد السلطان محمد وتوجه

السلطان بركيارق صوب العراق لمحاربته ، بعث الأمراء برسالة إلى السلطان بعد وصوله إلى قهستان بالعراق يقولون فيها : « عليك أن تسلمنا أبا الفضل لنقتله ، وإلا فإننا سوف ننضم للسلطان محمد »

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لاترفض الآن طلباتنا

—، وإلا فسوف نبتعد ونلوى العنان

— ونلجأ إلى مكان آخر

—، ونتبع بدلا منك طريق الغلمان

وضرب السلطان بملتمس الأمراء عرض الحائط ، ولما كانت تلك الجماعة قد ضاقت بتسلط مجد الملك ، فقد علت وارتفعت راية عصيانهم فى الميدان ، وتوجهوا دفعة واحدة إلى خيمته ، وعلم مجد الملك بنيتهم وهرب إلى خيمة السلطان ، وتعقبه الأمراء واصطفوا حول خيمة السلطان ، وبعثوا برسول إلى السلطان لطلب مجد الملك ولما وجد مجد الملك أن تصرفات الأمراء تجاوزت الحد قال للسلطان : لو تسمح لى بأن أقابل الأمراء حتى لاتزداد الفتنة » وقبل أن يرد السلطان عليه كانت نيران غضب الأمراء — من أولاد بركيارق وأتباعه — قد زادت تأججاً ، فقد هتكوا حرمة خيمة السلطان واندفعوا مسرعين داخلها وقطعوا [١٨١] مجد الملك إربا إرباً أمام السلطان ، وقد ترك السلطان الخيمة من شدة هذه الواقعة وخرج قاصداً منزل « أخربيبك » — أحد أعيان الدولة — وطلب منه التوجه لمقابلة الأمراء المتمردين ، والعمل على إخماد الفتنة . فتظاهر أخربيبك بالموافقة على هذا التصرف وذهب مسرعاً إلى الأمراء ، وحيث انه كان متفقا معهم ، فقد عاد بسرعة وعرض على بركيارق قوله : « إننى مهما نصحت العصاة بالإقلاع عن عصيانهم فإنهم لم يستجيبوا ، ومصلحة السلطان الآن هى فى أن يخرج من بين هذه الطبقة ومعه غلمانه »

وبالفعل توجه السلطان بركيارق إلى الرى بصحبة عدد من الغلمان كان قد اشتراهم بالذهب ، واعتلى السلطان محمد عرش السلطنة دون عناء ، وتولى مؤيد الملك الوزارة بلا منافس ، واشتغل بتدبير شئون الدولة ، وبعد أن وصل بركيارق إلى الرى ، جهز جيشا وتوجه لملاقاة أخيه ودارت معركة بين الجانبين فى عام

٤٩٣ هـ ، هزم فيها بركيارق ، ولكن نيران الحرب اشتعلت مرة أخرى بين الأخوين فى جمادى الثانية عام ٤٩٤ هـ ، وكان الانتصار والظفر هذه المرة من نصيب بركيارق ، وفر السلطان محمد ، وأسر الوزير مؤيد الملك الذى كان قد استمال الأمراء ولفت نظرهم إليه وعطفهم عليه أثناء وجوده بالسجن ، وعن طريقهم عرض على السلطان قوله : « لو أن السلطان يعفو عنى ، ويتجاوز عن جرائمى ، ويسند إلى منصب الوزارة الرفيع مرة أخرى ، فإننى أهديه مائة ألف دينار » . ونظرا لطبيعة بركيارق الكريمة فقد وافق على التماس مؤيد[١٨٢]الملك وقرر أن يتولى الوزارة بعد أن يسلم المبلغ المذكور ، ولكنه خلال الفترة التى كان مؤيد الملك يجهز فيها الأموال ، حدث ذات يوم من الأيام أن اشتدت حرارة الجو لدرجة كبيرة ، وظن مؤيد الملك أن السلطان مستغرق فى النوم ، فأخذ يتحدث مع شخص آخر خارج خيمة السلطان قائلا له : «إن السلاجقة قوم لاتوجد بينهم صلة رحم ، وليست عندهم حمية مطلقاً ولا غيرة ، فمثلا شخص صدرت عنه كل تلك الأعمال الدالة على الكفر بالنعمة ، وحير السلطان مدة وارتبك بسبب عصيانه ، يجعلونه بعد ذلك وزيرا طمعا منهم فى الأموال ، ويقبلون إعادته » فلم يحتمل السلطان هذا الكلام وعلا غضبه ، وخرج من الخيمة يحمل سيفاً مسلولا ، وأمر بإحضار مؤيد الملك ، وأودى بحياته بضربة واحدة .

ويتضح جليا من مضمون هذه الحكاية « كالشمس فى وسط السماء » ، بأن الغدر والتزوير عاقبته وخيمة جدا ، وأمور الغش والخداع من أجل الجاه والمنصب أمور مذمومة ، ويجدر بالإنسان العاقل المفكر أن يطهر نفسه من التلوث بهاتين الصفتين القبيحتين ، ويترك الأمور الدنيوية فى القبضة القوية لحاكم القضاء والقدر عملا بالآية الكريمة [١] « وأفوض أمرى إلى الله » ، ولا يقحم نفسه فى مشكلات لافائدة من ورائها :

(بيتان ، ترجمتها) :

— حظك ليس يبذل القليل أو الكثير

— لأن مصيرك الذى ستبلغه مقدر منذ البداية

(١) سورة غافر ، آية «٤٤»

— فأرح نفسك لأن ما كتبه لك القدر

—، لن يبتعد عنك لا بالسحر ولا بالأموال

الوزير سعد الملك الأوجى

قبل أن يصل السلطان محمد إلى مرتبة السلطنة ، كان سعد الملك نائبه وكاتبه ومدبرشئونه، ولما اعتلى السلطان[١٨٣]عرش السلطنة،أسند منصب الوزارة لسعد الملك ، وكان متواضعا وعلى خلق كريم،وبدأ يدبر أمور الوزارة بقدرة وكفاية . ويقول صاحب جامع التواريخ « حينما أوشكت شمس دولة سعد الملك على الغروب، خالفه صدر الدين الخجندى قاضى اصفهان، وأبو سعيد هندو وشمس الدين عثمان ابن نظام الملك ، وعرضوا على السلطان قولهم « لقد وافق الوزير على دعوة الملاحدة واتفق معهم على العمل ضد جناب السلطان » ، فأثر هذا الكلام فى السلطان وقتل سعد الملك :

ومحرر هذه الكلمات يقول : الرواية الصحيحة فى هذا الموضوع هى كما يلى : فى الوقت الذى وقع فيه خلاف وجدال بين السلطان بركيارق والسلطان محمد ، قام أحمدبن عبد الملك بن عطاش — وكان من الملاحدة — بدعوة الناس فى إصفهان سراً إلى اعتناق ذلك المذهب الباطل، فخدع الكثيرين من أهالى إصفهان وبحجة أنه معلم للأطفال ، ألقى بنفسه فى القلعة التى كان السلطان محمد قد أقامها فى نواحى اصفهان والمسماة « دزكوه » ، وتبعه أغلب سكان القلعة ، وقد علا أمر أحمد فى الوقت الذى كان قد ذهب السلطان محمد إلى دار السلام بغداد ، وبادر بإعلان تمرده على السلطان ، وتحصن فى هذه القلعة نفسها ، ولما عاد السلطان من بغداد ، أمر بتشديد الحصار على القلعة ، وتضييق الخناق على الملاحدة ، واستمرت فترة الحصار عدة سنوات حتى قاربت مؤن القلعة على النفاد ، وأصبح موقف أحمد ابن عطاش بلاشك[١٨٤]فى غاية الحرج،فبعث برسول إلى سعد الملك الأوجى،التقى به خفية ، وسلمه رسالة تقول كلماتها: « لم يبق أثر لعتاد الجنود فى القلعة ، ولابد من تسليمى القلعة خلال يومين أو ثلاثة » ، فرد سعد الملك بقوله « تحمل أسبوعاً واحداً حتى أقضى على هذا الكلب » ، وكان يقصد بالكلب السلطان . وحيث إن السلطان كان فى غاية الغيظ والانفعال ، فإنه كان يطلب فصده مرة كل شهر.

وبناء على ذلك ، فإنه حينما قرب موعد الفصد ، قام سعد الملك الأوجى بإعطاء الفصاد مبلغ ثلاثة آلاف دينار من الذهب الأحمر ولباس فاخر ليقوم الفصاد بحقن السلطان بسم قاتل . وقد علم أحد الحجاب برسالة أحمد بن عطاش وتدبير الوزير السيئ ، وأخبر زوجته بهذا السر ، فقصت تلك الزوجة هذه الحكاية لعشيقها فى إحدى ليالى الوصال . وبناء على الحكمة القائلة « كل سر جاوز الاثنين شاع » ، بلغ هذا الخبر إلى السلطان ، فتظاهر بالمرض فى اليوم التالى وبعث فى طلب الفصاد ، وحينما أمسك الفصاد بذراع السلطان ليحقنه ، نظر إليه السلطان بحدة ، فارتعدت جميع أوصال الفصاد هيبة من السلطان ، وأفضى إليه بالسر ، وحينئذ أمر السلطان بأن يحقنوا الفصاد بنفس الحقنة ، فمات الفصاد على الفور ، وأهلكوا سعد الملك مع أتباعه وملازميه فى سوق اصفهان بأمر من السلطان ، وسلموا امرأة الحاجب — التى كانت السبب فى إفشاء هذا السر — إلى عشيقها ، ولما علم أحمد بن عطاش بهذه الأخبار ترك القلعة وهرب .

[١٨٥] الوزير ضياء الملك أحمد بن نظام الملك :

تولى الوزارة فى عهد السلطان محمد ، واستقل بتدبير أمورها عدة سنوات ، وحينما قاربت شمس دولته على الغروب ، وقعت—لسبب من الأسباب—عداوة بينه وبين سيد أبى هاشم الهمدانى ، الذى كان فى الثراء قارون الثانى ، وكان الوزير يتحدث دائما مغتابا هذا الرجل الشريف أمام السلطان ، معدداً عيوبه ومساويه ، الصادق منها والكاذب ، ولما تغير السلطان على سيد أبى هاشم الهمدانى ، أبدى الوزير موافقته على أنه إذا سلمه سيد مبلغ خمسمائة ألف دينار ليودعها خزانة الدولة فإن السلطان لهذا السبب سوف يرضى عنه ، ويجعله ملازما له ، وعلم أبو هاشم بتفاصيل هذه الواقعة وسافر من همدان إلى إصفهان مدة أسبوع ، وذلك عن طريق فرعى وغير مشهور ، والتقى فى نفس ليلة وصوله بأحد خاصة السلطان واسمه « قراتكين » وأهداه مبلغ عشرة آلاف دينار وقال له : رجائى هو أن تهيىء لى مقابلة السلطان الليلة ، لأعرض عليه أمرا لن يستغرق عرضه كثيرا . ونظرا لأن قراتكين كان من أقرب المقربين لدى السلطان ، وله جرأة خاصة عليه ، فقد جعل سيد يقابل السلطان على الفور ، وأخذ سيد فى الدعاء بالخير للسلطان ، وقدم للسلطان

جواهر ثمينة لاتقدر بثمن ، قال له فى غاية من الخشوع والاحترام : « إن الوزير ضياء الملك منذ مدة وهو يفكر فى القضاء على ، والاستيلاء على أموالى ، ولقد سمعت فى هذه الأيام أنه قد اشترانى بخمسمائة ألف دينار ، وليس من المناسب أن يشترى السلطان — حامى الدين — ابن أولاد رسول الله ، [١٨١] وينتج عن ذلك أن تلحق به السمعة السيئة إلى الأبد ، والآن مصروفات الجيش ضئيلة وعلى أن أودع مبلغ ثمانمائةألف دينار بالخزانة العامرة شريطة أن يسلمنى السلطان الوزير ! » . فتغلب على السلطان حب المال وآثره على الاحتفاظ بالوزير واستجاب لطلب سيد ، وخرج سيد من مجلس سلطان الاسلام مسرورا بتحقيق مطلبه ، وتوجه إلى همدان ، ثم توجه فى إثره غلام من خزنة السلطان ليتسلم ذلك المبلغ ، ولما وصل الغلام إلى همدان ، طلب أن ينزل بقصر سيد ويقضى يوما فى ضيافته ، فبعث إليه سيد برسالة يقول له فيها : « منزلك فى بيت الغرباء أو فى الصحراء ، ومقامك فى همدان لفترة حتى يتم إحصاء المبلغ وتسليمه لك ! » ، فغضب الغلام بسماع هذا الخبر ، وتوجه إلى منزل سيد وأراد أن يتطاول عليه ! فرد عليه أبو هاشم بقوله : « إياك وقلة الأدب ، وإلا آمر بأن يعلقوك على باب القصر ، وأودع مائة ألف أخرى بخزانة العبيد ليشتروا بها ألف غلام أجمل منك وأفضل ! » ، فسكت الغلام ، وخلال أسبوع — ودون أن يقترض أو يضطر لبيع أى شئ من متاعه — سلم سيد المبلغ للغلام ولم ينعم عليه بفلس واحد ، وعاد الغلام على وجه السرعة وسلم السلطان الأموال ، وسلموا ضياء الملك لرجال أبى هاشم حسب الاتفاق . وذكر بعض المؤرخين : « لقد تصرف سيد مع الوزير بمقتضى مايعنيه بيت الشعر التالى :

(بيت ، ترجمته) :

— من السهل معاملة المسئ بمثل مافعل

— ولكن إذا كنت كريما فأحسن إلى من أساء إليك !

وذكر بعض آخر أنه عامله بمقتضى الحكمة القائلة « جزاء سيئة بمثلها » .

[١٨٧] ويتضح جليا من مضمون هذا الكلام — لدى العقلاء — بأن معاداة السادات العظام ، والمنتمين لآل سيد الأنام — عليه الصلاة والسلام — تلحق المصائب بصاحبها فى الدنيا ، وتجلب له العقاب فى الآخرة . ، لذلك يجب على

أصحاب الدولة والسلطان ،أن يسلكوا إزاء هذه الطائفة الرفيعة المرتبة والمكانة ، طريق المحبة والإخلاص، لأن الآية الكريمة « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً(١) »، قد نزلت من أجلهم ، كما يجب عليهم ألا يدنسوا قلوبهم ببغضهم وعداوتهم ، طلباً فى عرض الدنيا ومتاعها الزائل، وأن يعملوا دائما ليس على تنفيذ مطالب هذه الجماعة الطاهرة فحسب ، بل على تنفيذ مطالب أمة خير البرية كلها ، ويسعوا لتوفير الراحة والاطمئنان لأهل العلم والكمال ، وينشروا روح المحبة والمودة بين الجميع .

(بيتان ، ترجمتها) :

— حينما تجد تراباً تجد الجميع أصدقاء لك

— لأن الحجر الصلد لا يصادق أحدا

— والعمل الصالح ينبغي أن يكون جزاؤه الجنة

— وما أسعد من يغرس بذور الطيبة والمحبة

الوزير مجير الملك :

لم يكن لمجير الملك شبيه ولا مثيل فى تدبير أمور **الوزارة** ، ومعرفة أبواب الكفاية ، وقد بلغ مرتبة عالية فى اكتساب المعارف ، وتحصيل أسباب الجاه والعظمة ، وتولى الوزارة فترة للسلطان معز الدين سنجر ابن ملكشاه ،أدار خلالها شئون الوزارة على خير وجه ، فنال سمعة طيبة،وفى النهاية [١٨٨] طمع فخر الملك ابن نظام الملك فى ذلك المنصب ، واستطاع بمختلف الأنواع من الخدمات والأعمال كسب حب أم السلطان والأمير « أرغوش » ، فاتهم مجير الملك بكثرة المساوى الصادق منها والكاذب ، وأمر السلطان بقيده وحبسه . وبعد ذلك تم الاستيلاء على كل ما يملكه مجير الملك ثم بعثوا به إلى السلطان بهرامشاه الغزنوى ، وظل مجير الملك يعيش فى بلاط بهرامشاه إلى أن وافاه الأجل الموعود ، « إنا لله وإنا إليه راجعون(٢) » .

---

(١) سورة الأحزاب ، آية «٣٣ »

(٢) سورة البقرة ، آية «١٥٦ »

الوزير فخر الملك مظفر بن نظام الملك :

كان فخر الملك ثمرة شجرة الجلالة ، وزينة برج الوزارة ، وقام — بعد عزل مجير الملك — بتدبير مهام الملك والمال والرعية ، وبذل سعيا مشكورا من أجل نشر ألوية العدل و الإنصاف ، ورفع آثار الظلم والطغيان ، كما أبدى جهودا طيبة لتسهيل أمور أصحاب العلم والتقوى ، وتقوية أحكام الشريعة الغراء ، وتنفيذاً لمضمون الآية الكريمة « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون[1] » ، فقد حل موعد رحيل فخر الملك إلى دنيا الخلود ، واستشهد بضربة خنجر أحد فدائيي الملاحدة .

(بيتان ، ترجمتها) :

— الوجه الذى يتأذى من ملامسة الورود — لرقته —
— والجسم الذى يضيق بحمل شعره — لضعفه —
— قتل بغتة بسيف الظلم
— وغرق فى دمائه والحكم لله

الوزير صدر الدين محمد بن فخر الملك .

رعاية لحقوق فخر الملك واعترافا بفضله ، فقد عين السلطان سنجر ابنه صدر الدين محمد فى منصب الوزارة مكان والده ، وكان صدر الدين يتصف بصفة الكبرياء والنخوة ، كما كان جريئا جدا فى الاستيلاء على الأموال السلطانية ، ففى الوقت الذى [١٨٩] فتح فيه السلطان دار الملك ودخلها ، وأخذ رجال السلطان يعملون بجرد وحصر خزائن آل سبكتكين ، اختص صدر الدين نفسه بالكثير من الجواهر واللآلئ ، وعلم بعض أعدائه بما حدث ونقلوا بعضا منه إلى السلطان ، فاشتعلت نيران غضب السلطان ، وأصدر حكمه بالقضاء على الوزير ، فأهلكته جماعة من رجال البلاط بعدة ضربات بالقضبان الحديدية والآلات الحادة .

(بيتان ، ترجمتها)

— لا تتخلى عن صفة الأمانة
— ولا تخون السلطان فى أمواله

---

(١) سورة الأعراف ، آية «٣٤» ، سورة النحل ، آية «٦١» .

— لأن أمانتك تسعدك

— وخيانتك تودى بك

الوزير شهاب الدين عبد الرازق الطوسى :

وهو من أقارب نظام الملك ، وكان فى بداية حياته يشتغل بدراسة العلوم الشرعية ، وصرف أكثر أيام شبابه فى تحقيق مسائل وأحكام دين المصطفى – عليه الصلاة والسلام – وحفظ الكثير من أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتعمق فى معانيها ، وأخرجه السلطان سنجر من المدرسة ، ووضع زمام الوزارة فى قبضته الحكيمة ، كما ترك فى يده الطاهرة مفاتيح مصالح الدولة ، ورغم أن شهاب الاسلام كان من بين العلماء البارزين ، إلا أنه حينما تقلد منصب الوزارة ، تملكه الغرور ، واستن [١٩٠] قواعد وتصرفات مذمومة ، وأقدم على تناول الشراب فى مجلس السلطان ، ورحل شهاب الاسلام سيئ السمعة مكروها إلى العالم الآخر فى نفس العام الذى توجه فيه السلطان سنجر على رأس جيش إلى العراق للقضاء على ابن أخيه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد عاش فترة ورحل وأصبح لا شئ

— ثم ضحكت النساء وقلن : إلى أين ذهب !

الوزير شرف الدين أبو طاهر بن سعد الدين بن على القمى :

لقد فضل شرف الدين السفر فى أوائل حياته من مسقط رأسه قم واتجه إلى بغداد ، وعمل مع عارض السلطان ملكشاه ، وفى عام ٤٨١ هـ تظلم أهالى مرو من حاكمهم لدى السلطان فأسند الوزير نظام الملك ذلك العمل إلى شرف الدين ، وأصدر أمر تعيينه حاكما ولقبه بـ « وجيه الملك » ، وظل يشغل ذلك المركز فى بلدة مرو لمدة أربعين عاماً تقريبا ، وبعد ذلك عمل رئيسا لديوان والدة السلطان سنجر ، وعندما توفى شهاب الاسلام ، انتقل كوكب إقبال شرف الدين إلى أوج الشرف والعظمة وتولى منصب الوزارة للسلطان ، وكان فى غاية التدين ، شديد الالتزام بأصول الشريعة ، وأخذ يصرف شئون الوزارة بكل حلم ووقار ، ولكنه لبى

نداء ربه بعد ثلاثة أشهر من توليه ذلك المنصب ، « يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية[1] » ، واتخذ له مكانا فى الجنة عند رب العالمين .

(بيتان ، ترجمتها) :

— هذه هى طبيعة الفلك الغادر

— لا يسقى أحدا شرابا بغير سم

— فهو يسقى أحيانا العطشى شرابا حلواً

— ولكنه عندما يسقيهم بهم فى التراب

[١٩١] ويذكر صاحب « جامع التواريخ » ما يلى : « يوجد قبر شرف بجوار الروضة الطيبة للإمام الثامن على بن موسى الرضا — عليه الصلاة والسلام — كما توجد قرية فى نواحى مشهد المقدسة موقوفة على مزار ذلك الوزير العظيم ، والله سبحانه تعالى — أعلم .

الوزير تغاربيك محمد بن سليمان الكاشغرى :

كان تغاربيك معروفا بعدم الفضل ، والحمق وسوء الخلق ، ومشهورا بشدة البخل والإمساك ، وظل يشتغل فى بداية حياته بالتجارة لعدة سنوات فى ديار تركستان ، وبعد ذلك وصل إلى منصب الوزارة لأحد حكام تلك الولاية ، وبعد أن تكفل بهذا الأمر بفترة قصيرة ، تمت معاقبته ومحاسبته وتم الاستيلاء على أمواله وأمتعته ، وعندئذ ذهب من تركستان إلى مرو وعمل مع السلطان سنجر ، وقد شمله السلطان بعنايته واهتمامه بسبب معرفته للغة التركية ، وتقديمه الهدايا على سبيل الرشوة ، وبعد ذلك مكث فترة فى مرو ثم توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وبعد أداء الفريضة عاد ، وأسند إليه أمر ضبط أموال بلخ من قبل ديوان السلطان سنجر ، فأسرع محمد بن سليمان إلى تلك الولاية ، وقدم خدمات جليلة إلى الأمير قماج — الذى كان حاكما على تلك الولاية ، كما كان أيضا من أقارب المقربين من الأمراء للسلطان — ولما توفى شرف الدين أبو طاهر ، اشترى الأمير قماج منصب وزارة السلطان بألف ألف دينار نيسابورى ، وذلك من أجل

---

(١) سورة الفجر ، آية « ٢٧ » .

محمد بن سليمان ، وفى شهر المحرم عام ٥١٦ هـ ، تقلد محمد بن سليمان [١٩٢] قلادة الوزارة وأمر بأن يقرعوا الطبول أمام منزله ، وقد نظم الأمير معزى هذه القطعة الشعرية مهنئا إياه بالوزارة :

(قطعة ، ترجمتها) :

— ذلك الوزير السعيد الطالع محمد بن سليمان
— المتعبد كمحمد والمتدين كسليمان
— انتظمت شئون الدنيا بحسن إدارته
— ونسقت أحوالها وأصبحت لوحة جميلة بفضل قلمه وحكمته
— وبفضل ما استنه من رسوم أثمر بستان الأمة
— وجعل الدولة فى ربيع دائم بعدله وإنصافه

وقد استمرت وزارته أكثر من عامين ، ولكن بسبب سوء خلقه ، وشدة طمعه ، ، وقبح منظره ، ونقض عهوده ، وعدم فضيلته ، عقد الخاصة والعامة العزم على معاداته . وجاء فى جامع التواريخ مايلى: — « لقدجعل محمدبن سليمان هذهالعبارة « الحمد لله على نعمه » ،توقيعاً له مقلدا بذلك الوزير نظام الملك ، وذات يومقال على مشهد من الحاضرين فى الديوان « إن اسم محمد وأحمد فى اللغة العربية لا يعنيان معنى واحداً ، ورغمذلك يجوزأن يطلق الاسمان على الرسول — صلى الله عليه وسلم ! » فرد الحاضرون عليه : أجل ، فقال : إذن أغير توقيعى وأجعله « محمد الله على نعمه » ، فأبدى حضار المجلس استحسانهم لكلامه — وذلك على سبيل الاستهزاء به — وضحك معين الدين الأصم — الذى كان من كبار الفضلاء كما كان كاتب ديوان السلطان — وتفوه بكلمات ممزوجة بالهزل والمزاح ، فوجه محمد بن سليمان كلاما قبيحاً إلى معين الدين وشتمه بقوله : « إنه ابن فاجرة » ، فغضب[١٩٣] معين الدين وذهب إلىمنزله واعتكف به عدة أيام،ولما بلغ هذا الخبر السلطان سنجر ، استدعى الوزير وقال له : اعتذر لمعين الدين الكاتب ! وبناء على أمر السلطان اعتذر محمد بن سليمان لمعين الدين . كما ذكر أيضا فى كتاب جامع التواريخ : « ذات يوم أخذوا كشوف المرتبات إلى محمد بن سليمان ليعتمدها ،

فغضب وقال : سبق أن قلت مرات كثيرة عليكم أن تكتبوا مرتب « الضائع » على ظهر الكشف ، فلماذا لا تعملوا بما أمرت به ؟ وأظرف من هذا كله أن محمد ابن سليمان الكماشغرى — رغم كل هذه العيوب والمساوى — كان يعيش خلال فترة توليه الوزارة فى غاية من المهابة والاحترام ، وذلك بسبب حسن طالعه وضخامة ثروته ، ولم تصب سهام الأمراء وأركان الدولة — التى وجهوها إليه — الهدف المنشود .

(بيت ، ترجمته)

— لو أن السماء تمطر سهاماً وخناجر

— فلن توتى مفعولها مالم يكن قضاء وتقديرا

ولكنه حينما قدر لشمس دولته الغروب ، جاء الأمير فخر الدين « طغان بيك » ، يحمل رسالة من السلطان محمود إلى بلاط السلطان سنجر ، وعرض عليه فى خلوة حقيقة محمد بن سليمان ، ولقى كلام طغان بيك قبولا لدى السلطان ، فقبض على تغاربيك وعنفه ، ثم أفرج عنه بعد الاستيلاء على جميع ممتلكاته ، وفوضه مهمة ضبط وتنظيم أموال بعض بلاد تركستان التى كانت قد ضمت حديثاً لديوان السلطان ، ونظرا لأن محمدا كان ضعيفاً جداً ، فقد [١٩٤] ركب على ظهر جمل ، وتوجه إلى مقر عمله ، ولكن الجمل سقط من مكان مرتفع فى الطريق ، فتسبب ذلك فى وفاة محمد بن سليمان .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— دائماً ما يكون شراب هذه الدنيا سما

—، فما يبدو لك بلسما شافياً هو فى الحقيقة لدغة مميتة

— فلا تأمن جانب الدنيا المتقلبة

—، لأن أولها وآخرها لاشىء قط !

الوزير معين الدين أبو نصر بن أحمد الكاشى :

كان معين الدين يتحلى بجميع أنواع الفضائل والكمالات الإنسانية ، وكان يتجنب الأفعال الردئية والأوصاف الدنيئة ، كالعجب والنخوة والكبرياء والخسة ،

وكان خاله ناصح الملوك عزيز الحضرة أبو طاهر إسماعيل من بين كبار مشاهير كاشان وقد زرع المحبة له فى قلوب الدولة والسلطان ، وذلك بسبب جوده الوفير وسخائه ، وبكثرة عطاياه ومروءته ، وفوضه الوزير نظام الملك — فى عصر السلطان ملكشاه — النيابة للأمير قماج الذى كان من بين أعيان الدولة ، وأخذت مرتبة عزيز الحضرة تزداد يوم بعد يوم، وترتفع من درجة إلى درجة إلى أن عم إنعامه الوافر جميع ولايات كاشان ومنح خراج أربع سنوات للرعية ، كما أنعم على أصحاب البيوتات القديمة بالأشياء الثمينة ، والمعاملة الكريمة وسدد ديون المدينين ، وأقام الكثير من المستشفيات والمدارس فى كاشان وأبهر وزنجان وكنجه ولما توفى السلطان ملكشاه ، واعتلى السلطان بركيارق عرش السلطنة ، طمع [١٩٥] الأمير اياز فى أموال كاشان — وكان يمتاز على جميع أركان الدولة بمزيد من التقرب — فأودى بعزيز الحضرة وألحقه إلى جوار ربه ، ورغم أن والد معين الدين أبى نصر كان يقضى أغلب أوقاته فى أداء جميع أنواع الطاعات والعبادات لربه ، كما كان يمنع أولاده دائماً من الاشتغال فى الديوان وملازمة البلاط السلطانى ، إلا أن معين الدين اشتغل بملازمة السلاطين عملا بالحكمة « الولد الخلال يشبه بالخال » فكان كاتبا ومستوفى الولايات فى عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، وازداد تقربه وارتفعت مكانته يوما بعد يوم، وفى الوقت الذى عاد فيه السلطان سنجر من ولاية العراق إلى خراسان ، أسند حكم بلدة الرى إلى معين الدين ونظرا لأن معين الدين كان صاحب خبرة فائقة وأسلوب سليم فى تحصيل الأموال من الرعية فقد أرسل أموالا لا حصر لها وأمتعة عديدة إلى خزانة السلطان كما كان يجذب إليه الخواتين والأمراء بإرسال التحف والهدايا . ولما عزل السلطان الوزير محمد بن سليمان . كلف فخر الدين طغان بيك بإحضار معين الدين ، وذهب فخر الدين لحكم ولاية أخرى ، وجعلت عناية السلطان ورعايته وحبه معين الدين قوياً ومرقوقا وتوجه معين الدين إلى خراسان تنفيذا لأمر السلطان ، وكلما يمر على ولاية من الولايات ، كان [١٩٦] أهلها يغمرونه بالحب والإحسان وبعد وصوله إلى مرو اختلى به السلطان واستشاره فى بعض أمور ومصالح الدولة فأجاب معين الدين — بمهارته الفائقة — عليها جميعاً إجابة صائبة ، وقد قوى هذا الموقف إيمان السلطان بصلاحيته ،

(بيت ، وترجمته) :

ــ حينما ضحكت ياعزيزى وافتر ثغرك

ــ فإنك قد أضفت إلى الصداقة مزيدا من الكرم والحب

وصدر فى اليوم الثالث أمر السلطان بتولى معين الدين منصب الوزارة ، فاعتذر معين الدين عن القيام بذلك المنصب الخطير ، وبعث إليه السلطان بنظام الدين محمود برانقوش ، ومقرب الدين جوهر الخادم ، يحملان إليه رسالة منه يقول فيها : « يبدو أنك تعتذر عن تولى منصب الوزارة بسبب ما حدث من غضبى على بعض الأمراء والوزراء السابقين ، وتوضيحاً لهذا ، إننى فى بداية تقلدى عرش السلطنة ، قد أسندت هذا المنصب إلى فخر الملك بن نظام الملك ، ووضعت زمام أمور الملك والمال فى قبضته الماهرة ، ولكن فخر الملك ــ بتقدير من الله ــ سبحانه وتعالى ــ استشهد على يد فدائيى الإسماعيلية الذين لا إيمان لهم ، ورحل إلى دنيا الخلود ، وقد حزنت جداً لوفاته ــ وبعد ذلك عينت ابنه صدر الدين محمد مكانه ، وتركت ذلك المنصب له مستقلا ، بادارته لمدة اثنى عشر عاماً ، ولما ظهرت خيانته وخصوصاً فى خزائن آل سبكتكين ، وضعت الأقدار نهايته ، وحينئذ عهدت بهذا الأمر إلى شهاب الإسلام عبد الرزاق الطوسى [١٩٧] أحد أقارب الوزير نظام الملك وقد أقدم ــ برغم ما كان عليه من فضيلة وعلم ــ على اقتراف أخطاء كثيرة خلال توليه الوزارة لايقترف مثلها أى شخص قط من الأجلاف والعوام ، ومع ذلك فقد عفوت عن عبد الرزاق ، وأغمضت عينى عما اقترفه إلى أن توفى ، وبعد ذلك أسندت هذا العمل إلى شرف الدين أبى طاهر الذى كان مشهوراً بالأمانة والتدين ، وقد توفى هو أيضاً ووزارته فى عنفوان مجدها ثم عينت تغاربيك محمد بن سليمان وزيراً ، وحيث إنه وضح جلياً عدم تقبل الناس له فقد وجب على عزله ، والآن بحمد الله ــ سبحانه وتعالى ــ فإن أهليتك لتولى هذا المنصب كافية جداً ، ولدى ثقة لاحد لها فى أمانتك وتدينك ، وكفاءتك ودرايتك وعليك أن تكون متعاملا ومؤملا بعنايتنا بك وتقديرنا لك ، ولا تدع للتردد والتشاؤم مجالا فى نفسك ! ! »

(بيت ، ترجمته) :

— السعيد الطالع الذى يقبل هذه الأعتاب

— سوف يرفعه الفلك سريعاً إلى أعلى المراتب

وبعد أن سمع معين الدين كلمات السلطان الصادقة ، قبل هذا المنصب ،وفى اليوم التالى تقلد منصب الوزارة ، وجعله السلطان يزهو ويفتخر بالإنعام عليه بدواة ذهبية وطبل وعلم ، وبدأ معين الدين يستقل بتنظيم أمور الملك والمال ، وقام بإعلاء أعلام العدل والإنصاف ، وخفض رايات الظلم والاعتساف بكل ما أوتى من قوة ، وأمر ببناء المدارس الخوانق والأربطة والمؤسسات الخيرية فى جميع البلاد والأقطار، وأوقف عليها القرى [١٩٨] العامرة والمزارع الوافرة التى اشتراها من ماله الخاص ، وفى أواخر أيام حياته ، أمرهم أن ينادوا فى جميع الولايات والأمصار بهذا القول : كل من أعطى معين الدين الوزير أموالا نقدية أو أمتعة عينية على سبيل الرشوة أو لأى سبب آخر ، عليه الرجوع إلى وكلائه ليأخذ عوضاً عنها » ثم طلب قضاة الولايات وكبراءها ورجاهم أن يبذلوا مساعيهم المشكورة حول هذا الموضوع ، ولما كان ذلك الوزير السديد الرأى شديد التمسك بمذهب أهل السنة والجماعة ، فإنه كان دائماً يحث السلطان ويحرضه على قمع المعارضين والقضاء عليهم ، وخشى الإسماعيلية من بطش السلطان ، وتدبير الوزير ، فبعثوا باثنين من الفدائيين إلى اسطبل معين الدين للقيام بخدمة وتربية حيوانات الوزير لقتله حينما تحين الفرصة ، واستمر هذان الملعونان يعملان فترة فى اسطبل الوزير إلى أن اطمأن إليهما ، وفى يوم عيد النيروز الذى تعود الوزير أن يجهز فيه التحف والهدايا لتقديمها للسلطان ، أمر الكلافين بأن يعرضا عليه الجياد الخاصة ليختار الأفضل منها ويرسلها إلى اسطبل السلطان ، فأحضر هذان الملعونان حصانين أمامه من النوع الشرس الجامح ، فاشتبك هذان الحصانان مع بعضهما فى معركة ، ولما انشغل خدم الوزير بتفريق الحصانين انهال الفدائيان على ذلك الوزير العادل طعناً بالخناجر فقتلاه .

(أربع أبيات ، وترجمتها) :

— ذلك الذى طالما أحبه الفلك

- ها هى نهايته داخل قصره
- [١٩٩] فكل من اعتمد عليه
- وتخلى عنه وأصابه بسهامه
- كما أنه جرح الآلاف ولم يعالجهم
- بل لم يحزن أبداً على ضحاياه
- ولم يترك أحد يحيا لحظة بلا آلام
- يحس من خلالها بالسعادة والانسجام

الوزير نصير الدين المظفر الخوارزمى :

كان نصير الدين متبحراً جداً فى العلوم العقلية والنقلية ، وخصوصاً فى فقه الإمام الشافعى ، وكان يفتخر ويتباهى بمعرفة سائر أقسام الفضيلة وفن الاستيفاء والسياق ، كما كان يرعى دائماً أهل الفضل والكمال ، وقد ألف القاضى عمر بن سهلان الساوجى كتابه « بصائر نصيرى » فى المنطق والحكمة باسمه . وذكر فى جامع التواريخ أن نصير الدين محمود كان يعمل فى بداية أمره بمهمة الإشراف على مطبخ واسطبل السلطان سنجر ، وحيث أنه أدار هذا العمل على الوجه الأمثل فقد جعله السلطان مشرفاً على جمع وإخراج أموال الولايات ، وبعد ذلك تولى منصب الوزارة الرفيع ولكنه نظراً لما كان فى طبيعته من جبن وخوف ، فإنه لم يستطع إدارة مهام الوزارة كما ينبغى ، فأعفاه السلطان من القيام بذلك الأمر ، وأسند إليه مرة أخرى مهمة الإشراف على جمع وإخراج أموال الولايات ، فترك نصير الدين إدارة ذلك العمل لابنه شمس الدين على ، وفى تلك الأثناء حرضه بعض أمراء الدولة وأعيانها على مهاجمة مقرب الدين جوهر الخادم الذى كان من بين كبار الأعيان فى بلاط سنجر ، فاغتر بتحريض الأمراء ، وبدأ التفكير والتدبير ، وأبلغ السلطان على يد بعض [٢٠٠] النواب — قوله : « لقد تصرف جوهر فى الكثير من الأموال السلطانية ، ومخصصات الديوان دون وجه حق ، وأقدم على كثير من أعمال الخيانة خلال فترة عمله » ، فأمر السلطان بأن يعقد الأمراء العظام وجميع أعيان الدولة مجلساً يناقشون فيه ذلك الأمر الخطير ، فلما انعقد ذلك المجلس عدد بعض تصرفات جوهر الخادم ، ورد عليه ثقة الدين أبو جعفر — وكان وزيراً

لجوهر ونائباً له — وأخذ يتحدث قائلا : « إن ألفى غلام يعيشون فى كنف مخدومى ، وكان عليه أن يأخذ مضطراً من أى باب يتيسر له منه شيئاً لتوفير ما تحتاجه تلك الجماعة ، لأن التأخير والإهمال فى عمل اللازم للغلمان يؤدى إلى اختلال أحوال السلطنة ، وأنت الذى كنت قد وضعت الدواة الذهبية المرصعة من الأمام ومن الخلف فى مقعد الوزارة الجليل ، كان يجب عليك العمل على ضبط أموال الولايات بحيث لا يتبقى فيها شخص مقصر لا يحسن التصرف فقال نصير الدين : « إن حكمى لم يكن نافذاً عند قيامى بأعمال الوزارة ، ولم يكن لتوقيعى تأثير يذكر » ، فرد عليه ثقة الدين بقوله : « التقصير الذى فعلته عند توليتك الوزارة لا يمكن تلافيه وقت إشرافك ! » .

والخلاصة أنه حدثت مجادلة شديدة بين الجانبين فى ذلك اليوم ، ولما بلغت الأسئلة التى دارت فى المجلس والرد عليها إلى السلطان ، ووصلته صورة الطريقة التى تم بها الحوار ، بعث برسول يستكشف ذلك الوضع وقال له : أبلغ المتنازعين بأن يجعلا المناظرة أمامى ، ليتضح لى مدى صدق أى منهما ، ويصدر بذلك حكم السلطان مقروناً بالعدل ! » فغرق جوهر الخادم بسماع هذا الكلام — فى بحر من الاضطراب ، ولجأ إلى الأمير على خيرى — وكان يتولى منصب الحجابة وقد [٢٠١] صار جريئاً جداً بسبب ظرفه ومنادمته للسلطان — وطلب منه المشورة لإصلاح ذلك الأمر ، فقال له على خيرى :

« مصلحتك هى فى قيامك بتنظيم حفل ملكى حتى أحضر أنا السلطان بلطائف الحيل إلى منزلك ، وعندئذ سوف يكون موقف الأعداء منك ضعيفاً ، ويأتون عندك ومعهم الهدايا والأموال ، وبذلك يمكنك إعداد هدية قيمة للسلطان ، وأغلب ظنى أنه بهذا الحفل سوف تقصر ألسنة الأعداء ، وتظل مكانتك وشهرتك قوية ثابتة » ، فسمع جوهر هذا الكلام وعمل به ، ونظم حفلا كبيراً ،

(بيت ، ترجمته) :

لقد أعد حفلا رائعاً

يطول الكلام فى وصفه

وفى اليوم المتفق عليه سارع على خيرى لمقابلة السلطان ، وأخذ يرد له كلمات

مازحة ، وعبارات مفرحة ، فجعل السلطان مبتهجاً ومسروراً ، وعندئذ قال للسلطان : لقد اشتريت للسلطان غلامين فاتنين هدية يخجلان الجميع بجمال وجهيهما وحلاوة حديثهما « ولدان مخلدون[1] » ، ينطبق عليهما قول الشاعر :

(ثلاث أبيات ، ترجمتها) :

— كان يفضل قداهما شجرة الرمان اعتدالا —

— وتفضل وجناتهما الورد القانى الإحمرار —

— وآذانها مصنوعة من الدر والياقوت —

— ومثلها صنع أيضا فما هما وشفاههما —

— ويبهجان بنظرة واحدة مئات المدن —

— ويجعلان الدنيا كلها تهتز بغمزة واحدة »

فلو يتعطف على السلطان ويشرفنى بمنزلى ، فسوف ألقى بنفسى وما أملك تحت قدميه :

(مصراع ، ترجمته) :

— «حيث إنى عبدك فمنزلى هو أصلا منزلك ! »

ووافق السلطان على طلب على خيرى ، وركب للوفاء [٢٠٢] بالوعد وكان منزل جوهر الخادم يقع فى مكان على نفس الطريق — فلما اقترب السلطان من ذلك المكان ، حدثه على خيرى بأسلوب المزاح مرة أخرى قائلا : « لقد صدق رجال السلطان أنى اشتريت غلامين فاتنين هدية لكم ، وأنا الذى لا يوجد معى فلس واحد ! ولا يخرج دخان من مطبخى سوى دخان أنفاس الخدم الجياع ! كيف لى بإقامة حفل لسلطان العالم العامر ! فأما المال الكثير والغلمان الفاتنون ، والجوارى الحسان ، وكل نفيس فوق سطح الأرض ، كله يوجد بمنزل جوهر الخادم ، ولو يستنير منزله المظلم بعظمة السلطان ، فسوف يتيسر وقتها وجود جميع أسباب العيش والطرب ، والمال والمتاع الذى لا نهاية له !! » وعدد على خيرى الكثير من من هذه الأنواع ، فتوجه السلطان إلى منزل جوهر ، وقدم جوهر للسلطان كل

---

(١) سورة الإنسان ، الآية « ١٩ » ، سورة الواقعة ، الآية « ١٧ »

ما أمكنه الحصول عليه ، وأهداه كل ما عرف أنه يليق بعظمته ، وكان من بين تلك الهدايا ثمانون جارية ومغنية ذوات قوام معتدل ، وصوت جميل لامثيل له ..

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كن فتيات ربين على العجب والدلال

— نصفهن أقمار وكلهن شموس

— يحدثن فتنة أقوى من سفك الدماء فى صحوهن

— ويبدين شباباً أقوى من الظالم فى نومهن

وقد ارتاح السلطان لجوهر الخادم ، وأمر بعض النواب بأن ينقلوا إلى نصير الدين قوله : « لقد تأكد لى أن كل ما كنت تقوله عن جوهر كان صحيحاً ، ولكن طبيعة السلاطين تمنعهم من معاتبة ومحاسبة خدمهم القدامى لأتفة الأسباب ، ويجب عليك الآن أن تصفو وتتصالح مع جوهر ! ولا تثير بعد ذلك معه غبار [٢٠٣] النزاع والخصام ! » وعلى ذلك تصالح نصير الدين وجوهر مع بعضهما صلحاً على خداع ومكر ، وبعد انقضاء فترة قصيرة ، تهم جوهر شمس الدين على ابن نصير الدين بالاتصال ببعض سيدات الأمراء ، ولهذا السبب تم القبض على الوالد والابن وأدخلا السجن ، ونظم شمس الدين على هذا الرباعى وهو فى السجن :

(رباعى ، ترجمته) :

— كان والدى أمس الوزير الأول للسلطان

— واليوم أنا ووالدى أسيران ذليلان

— ولأنى شاب ، والشباب قادر على التحمل

— اشمل ياإلهى هذا الشيخ العاجز برحمتك

ولقد انتهت حياة الأب والابن فى ذلك السجن .

وهكذا فيجدر بصاحب هذا المنصب أن يبعد عن ذهنه عوامل النزاع والخصومة إزاء المقربين لدار السلطنة ، وأن يسعى قدر ما يستطيع لاسترضائهم

وألا يستعمل أسلوب الدس لهم ، لأنه حسب تجارب الأمم ، وأخبار العالم الصادقة والثابتة ، فقد اتضح وتأكد أن مهام اللماز والغماز لاتتحقق كلية وكما ينبغي لها ، فلو أن السلطان يستمع يوماً بعين الرضا لبعض أقواله من أجل مصلحته وقتها ، فإنه بعدتحقق مقصده يتغير عليه ، ومن الروايات الثابتة أن أحد خلفاء الدولة العباسية كان قد قبض على رجل غماز وسجنه ، وبعد فترة تحين أحد أصدقاء ذلك الغماز الفرصة ، وعرض على الخليفة قوله : يمكنني وضع مبلغ مائة ألف دينار بخزانة الخليفةالعامرة ، لو أن الخليفة [٢٠٤] يأمر بإطلاق سراح صديقي ! » فقال له الخليفة : إذا اتضح أنك مثل ذلك الشرير فسوف أسجنك وأنعم عليك بمبلغ المائة ألف دينار !

(رباعي ، ترجمته)

- يامن أصبحت وزيراً للملوك والسلاطين
- اعقد لسانك عن اللمز والغمز
- لأن نتيجة هذا العمل تعود
- بقدرة الله إلى فاعلها في النهاية !

الوزير قوام الدين أبو القاسم بن حسن الدركزيني :

كان أبو القاسم معروفاً بعلو الهمة والكرم كما كان مشهوراً بالظلم والتهور ، وكان على علم تام ببعض فنون الفضائل مثل الشعر والإنشاء ، وكان أبو القاسم في بداية أمره يعمل نائباً لأحد حجاب السلطان محمد بن ملكشاه ، وتولى وزارة ولاية العراق في عهد السلطان محمود بن محمد ، وارتفعت مكانته على الوزراء السابقين لجوده وسخائه الوفير ، وبذله وعطائه الكثير ، وبعد عزل نصير الدين ، استدعى السلطان سنجر أبا القاسم من العراق وأسند إليه منصب الوزارة ، وكانت أوامر قوام الدين نافذة في شرق العالم وغربه كأحكام القضاء والقدر ، ونظم الفضلاء والشعراء أشعاراً غراء في مدحه ، فشمل تلك الطائفة بعنايته وإحسانه .

وقد جاء في جامع التواريخ أن قوام الدين كان جريئاً جداً في الإقدام على قتل الأكابر والعظماء ، فكان يقدم على قتلهم لأقل خطأ يحدث منهم كما حدث ذات يوم في مجلسه في الديوان بينه وبين عز الدين الأصفهاني ، وكان يعمل مستوفياً

على ولايات السلطنة – إذ قال شيئاً على الهامش سمعه قوام الدين ، فأمر على الفور بالقبض على عز الدين وسجنه ، دخل المسكين السجن ونظم هذا [٢٠٥] الرباعى وأرسله للوزير على سبيل الاعتذار :

(رباعى ، ترجمته) :

– إذا كنت قد علمت بذنبى

– فإنك تصورت أن ماحدث هو ماحدث من ذئب عزيز مصر !

– وأنا ذئب عزيز مصر فاعقد

– أيها الوزير صلحاً شكلياً مع ذئب عزيز مصر !

فرد عليه قوام الدين بهذا الرباعى :

(رباعى ، ترجمته) :

– حيث إنك ملأت نفسك حقداً علىّ

– وأغفلت البحث عن الصلح أثناء المعركة

– فإننى أرى الآن الزمان يذكرنى دائماً

– أن عدم الصلح أفضل من الصلح الخادع معك !

وظل عز الدين الأصفهانى فى السجن إلى أن توفى .

وهناك حكاية أخرى كهذه وهى أن الوزير قوام الدين أمر بأن يعلق عين القضاة الهمدانى – وكان أعلم علماء عصره – من حلقة على باب المدرسة التى كان يقوم بالتدريس بها ، وذلك لسبب تافه – حول فساد المذهب – كان قد نسبه إليه جماعة من حساده . وفى النهاية فإن شؤم الدماء التى سفكها الوزير قوام الدين بغير حق قد حلت عليه ، وعزله السلطان سنجر ، ثم قتله طغرل بن محمد بن ملكشاه بعد ذلك .

والرجل العاقل هو الذى لايجعل الظن والغرور يسيطران عليه حينما يتولى أمراً هاماً فى هذه الدنيا ، أو حينما يرتقى مرتبة عالية فى هذا العالم ، فعليه أن يفكر فى عذاب يوم الحساب وعقاب الآخرة ،ولا يقدم على إراقة دماء الخلق دون سبب شرعى .

[٢٠٦] (بيت ، ترجمته) :

ـ لاتلوث يديك بدم الخلائق

ـ لأنه توجد يد أقوى من يديك

الوزير ناصر الدين طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك :

كان من كبار رجال الوزارة ، وبعد عزل الوزير قوام الدين الدركزيني تولى الوزارة السلطان سنجر ، وقد وقع السلطان أسيراً في يد قبائل الغز ، ورحل ناصر الدين عن الدنيا الفانية قبل أن يتمتع بذلك المنصب .

(بيت ، ترجمته) :

ـ لقد ابتلى سلطان الدنيا

ـ فحلت البلية بالوزير كذلك

الوزير كمال الدين على السميرمي :

كان كمال الدين يتصف بالعقل والكياسة ، وبالفهم والفراسة ، وكان يتولى الوزارة في عهد السلطان محمد بن ملكشاه ، ولما توفى السلطان محمد ، وخلفه ابنه السلطان محمود ، أسند منصب الوزارة إلى كمال الدين ، وقد بذل كل جهده في إدارة ذلك المنصب ، وفي تلك الأثناء نشب خلاف حاد بين السلطان سنجر والسلطان محمود ، وتوجه السلطان سنجر على رأس جيش كبير صوب العراق ، وفي نواحي بلدة ساوة تحارب السلطان محمود مع عمه الأكبر ، فهزم وهرب إلى أصفهان ، ومن هناك أرسل وزيره كمال الدين إلى السلطان سنجر لتقديم الاعتذار [٢٠٧] له ، فلما دخل كمال الدين مجلس السلطان سنجر ، سأله السلطان بقوله : « أين ولدى محمود ؟ » فأجابه قائلا : « أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ! » وسأله مرة أخرى بقوله : أين على بار قائد جيشه ؟ » قال : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ! » فاستحسن السلطان أقوال الوزير اللطيفة ، وتغاضى عن جريمة السلطان ، ورجع الوزير محققاً بغيته ، وأتى بالسلطان محمود وعلى بار إلى السلطان سنجر ، فلقى السلطان سنجر ابن أخيه بدلال السلاطين ، وزوجه ابنته خاتون وولاه على العراق كما كان ، وكان ما حدث سبباً في علو مكانة الوزير ، ولكنه حدث في هذه الظروف أن قتله أحد فدائيي الملاحدة .

(ثلاثة أبيات ترجمتها) :

— هذه هى طبيعة الفلك
— تارة يسر وتارة يضر
— ويلقى بهذا فى بئر دون ماذنب جناه
— ويرفع مكانة ذاك دون ما توقع أو انتظار
— وفى النهاية يستقر الطرفان فى التراب
— وتجمعهما ظلمة القبور

الوزير خطير الملك ابو منصور اليزدى :

كان خطير الملك خالياً من الفضائل والكمالات، كما كان غافلا تماماً عن تدبير وترتيب أمور الملك والدولة ، [٢٠٨] ولكنه كان حسن الحظ حيث استمر يعمل خمساً وأربعين عاماً فى دواوين السلاطين ، متنقلا بين رئاسة ديوان الرسائل وديوان الأشراف وديوان الاستيفاء ، إلى أن تولى منصب الوزارة الرفيع فى عهد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ،

(مصراع ، ترجمته)

— قدر قليل من الحظ أفضل من أكوام من العلم والفضل

وقد جاء فى جامع التواريخ أن خطير الملك أثناء توليه منصب الوزارة توجه ذات يوم إلى دار السلام بغداد بأمر من السلطان ، وأخذ يتحدث فى الطريق مع جمع من فضلاء العصر والمشاهير ، وفى ذلك الوقت سأل خواجه أبي العلاء — وكان واحداً من صناديد العالم وفضلائهم — يقول له : هل اللواط عادة قديمة أو حديثة ؟ فأجابه أبو العلاء قائلا : هى عادة قديمة وكان قوم النبى لوط يرتكبون هذه الفعلة ، ثم سأل الوزير سؤالا غريباً بقوله : وهل كان الأسبق نبينا أم النبى لوط ؟ فقال أبو العلاء : لك الله أيها الوزير نبينا هو خاتم النبيين ثم قال خطير : وماذا قال الحق — سبحانه وتعالى — عن قوم لوط ؟ فقرأ أبو العلاء هذه الآية « إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون[1] » ، أى أنكم لقوم

(١) سورة الأعراف ، الآية «٨١»

[كانت الآية مكتوبة بالنص الأصلى «أتأتون الرجال شهوة ... إلخ» صححتها من المعجم]

جهلة لأنكم ترتكبون أعمال اللواط. فقال خطير : هذا تهديد ووعيد بسيط ! والخلاصة أن هذه المحاورة قد ذاعت بين أهل الفضل والكمال ، وكانت السبب فى عزل خطير الملك ، وقد توفى ذلك الوزير الجاهل حزناً على منصب الوزارة ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

الوزير شمس الدين بن نظام الملك :

وصل شمس الدين فى عهد السلطان محمود بن محمد ملكشاه إلى منصب الوزارة ، ونظراً لأنه كان يحرص [٢٠٩] كثيرا على جمع المال ، ويعمل على مصادرة أموال الأغنياء والتجار، ولم يقلع عن هذه الطريقة المذمومة المتصفة بالظلم والاعتساف ، واستمر يخرب فى البلاد ، ويعذب فى العباد وقام أعيان العراق بإرسال شكاوى عديدة ضده إلى السلطان سنجر، وبعث السلطان سنجر شكاوى أهل العراق مؤيدا قولهم إلى ابن أخيه ، فقام السلطان محمود بقتل شمس الدين عثمان ، وبعث برأسه إلى خراسان .

لذلك فيجب على صاحب هذا المنصب – من أجل صالح الدنيا والآخرة – ألا ينحرف أبدا عن جادة العدل والإنصاف ، ولا يلوى العنان عن إشاعة اللطف والرحمة إلى طريق الجور والاعتساف ، وأن يجعل دائماً نصب عينيه مضمون الآية الكريمة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان(١) » ولا يؤذى خلق الله بالطلبات المجحفة بهم ، ولا يستولى بغير حق على أموالهم .

(بيت ، ترجمته) :

– لاتؤذ الناس بالظلم والاستبداد ! ! – ، بل اجعلهم ينعمون بالعدل والإنصاف !

الوزير شرف الدين على بن رجاء :

وصل شرف الدين إلى منصب الوزارة فى عهد السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه ، وقد كانت بضاعته وخبرته قليلة غير كافية فى هذا المجال ، ولكن قبل أن يعزله السلطان طغرل ، كانت سلطنة الأخير قد بلغت نهايتها ، فتوجه شرف

---

(١) سورة النحل ، الآية «٩٠» .

الدين إلى أذربيجان، وانضم إلى رجال السلطان داود بن محمود ، وحينما توجه خوارزمشاه على رأس جيش إلى العراق ، قام بقتل شرف الدين .

(مصراع ، ترجمته)

— « لايدوم فى دنيا الفناء أحد »

[٣١٠] **الوزير شرف الدين أنو شيراون بن خالد الكاشي :**

كان شرف الدين أنوشيروان وحيد عصره فى معرفة فنون الفضل والأدب ، والتبحر فى لغات العرب ، وقضى أغلب أوقاته فى قراءة العلوم المنقولة والمعقولة ، وظلت قدمه ثابتة طوال حياته على طريق الشرع والأمانة والتقوى ، ولم يقرب حدود العجب والنخوه مطلقاً رغم علو شأنه ، واشتغل فترة من الوقت وزيراً للسلطان محمود بن ملكشاه ، ورفع علم الوزارة سبع سنوات ، ولكنه نظراً لبخله وحسده ، وكثرة تواضعه وبساطته ، فإن عظمة منصبه لم تكتمل لها أبدا القوة والهيبة والأبهة والرونق،وبلغت خفته ، وعدم هيبته إلى درجة أنه كان لا يتحاشى القيام لأى شخص وهو جالس على مقعد الوزارة فى صدر الديوان ، وقد أنشأ أحد فضلاء عصره هذين البيتين حول ذلك المعنى :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد رزئنا برئيس عنيد لا يخجل

— ولايعرف العدو من الصديق

— وينهض واقفاً لكل شخص

— فكأنه أنوشيروان خالد

وذات يوم استهزأت به جماعة ، ولكنه نظراً لتواضعه الجم وسلامة نفسه ، لم يرد عليهم بما يستحقونه ، فقال له نواب ديوان الوزارة : أليست لنا الحمية والغيرة الكافية فأجابهم بقوله : لقد عشت هكذا طوال أربعين عاماً فى ظل عدم الحمية وعدم الغيرة هذه

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كن صبوراً مثل الأرض فى جميع الحالات

— حتى تتغلب على ما يواجهك كما يتغلب ظلك على ما يعترضك

— [٢١١] واجعل فوائدك تعم الجميع
— حتى يمتد نفوذك وتعلو كلمتك

والخلاصة أن أنوشيراون ظل يعيش فارغ البال حتى آخر أيام حياته إلى أن انتقل إلى العالم الآخر بنفس راضـية مطمئنة ، وكان من بين مؤلفاته « نفثة المصدور » ، كما ألف الإمام أبو القاسم الحريرى كتابه « رسالة فى المقامات » باسمه .

الوزير عماد الدين ابو البركات :

يمتد نسب عماد الدين من ناحيةوالده إلى بنى سلمة الذين اشتهرت آثارهم فى العراقين وأمه كانت ابنة أخت قوام الدين أبي القاسم الدركزينى ،ولما دخل جنون حب الوزارة فى رأس عماد الدين ، توجه من العراق إلى خراسان ، وقدم خدمات جليلة إلى للسلطان سنجر وإلى أمراء دولته وأعيانها ، وباح لهم بما يعتمل فى نفسه ، فأصدر السلطان أمره بأن يكون وزير السلطان مسعود — وكان فى ذلك الوقت حاكماً على العراق — فعاد عماد الدين محققا حاجته وهو فى منتهى الغرور إلى بلاط السلطان مسعود ، واشتغل بإدارة شئون الوزارة ، ولكن نجمه لم يتألق لسبب عدائه مع كمال الدين ثابت بن محمد القمى ومؤيد الدين مرزبان الكاتب — وكانا من قدامى العاملين مع السلطان — بل إن السلطان مسعود عزله بعد فترة قصيرة من الزمن وعين كمال الدين محمد الخازن وزيراً له .

[٢١٢] الوزير كمال الدين محمد :

كان كمال الدين فى بداية أمره خازناً للسلطان سنجر ، وأخذ السلطان يهتم بتربيته ورعايته يوماً بعد يوم إلى أن أسند إليه حكم ولاية الرى ، ولما توفى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ، واعتلى أخوه السلطان مسعود عرش السلطنة ، عقد العزم على استرجاع الرى ، وتوجه بجيش قوى إلى تلك المنطقة واستقبل كمال الدين محمد السلطان بنفس غير راضية ، ودخل السلطان الرى فاتحاً منتصراً ، ووقع كمال الدين محمد أسيراً فى قبضته ، فسجنه فى قلعة «سرجاهان» ، ونظراً لأن السلطان مسعود كان يعتقد اعتقاداً راسخاً بذكاء وقوة فهم كمال الدين محمد وفراسته فقد أخرجه من القلعة بعد عزل عماد الدين ، وأسند إليه منصب الوزارة ، وقام كمال الدين

بتنظيم شئون الدولة وإرضاء الجيش ، وإنجاز مصالح الشعب كما يجب ، وأدار أمور السلطنة بطريقة لم تتوفر لأى وزير بعد الوزير نظام الملك – رحمه الله ، وعمل أكثر مما ينبغى فى ضبط وتنظيم صرف أموال الديوان ، وقضى على منافع أمراء الدولة وكبار رجالها .فلا عجب أن أسر الجميع فيما بينهم على اتخاذ موقف العداء من ذلك الوزير البارع ، وأخذوا يترقبون الفرصة للإيقاع به ، وأثناء تلك الظروف نما إلى علم السلطان أن والى فارس قد ركبه الغرور ، ورفع [٢١٣] راية التمرد والعصيان ، فأمر السلطان بأن يتوجه الأتابك قراسنقر بمصاحبة أخيه سلجوقشاه إلى شيراز ، ويطهر تلك الولاية من قلاقل واضطرابات المتمردين ، فتوجه اتابك قراسنقر ومعه سلجوقشاه إلى شيراز ، وأقام معسكره فى أحد المناطق وبعث للسلطان بهذه الرسالة : إذا لم يبعث إلى السلطان برأس وذراع محمد الخازن ، فمن المحال أن أتقدم خطوة واحدة ، وأخشى أن أصير من المتمردين لو لم يتحقق مطلبى ؟ ، وبلغ إلحاح قراسنقر من أجل تحقيق هذا المطلب درجة أحرج فيها السلطان مسعود ، وأقدم على قتل ذلك الوزير الكفء .

(بيت ، ترجمته)

– لو لم يكن القضاء والقدر هو مغير أحوال الخلق

– فلم تسير الأمور على غير هواهم !

الوزير عز الملك بن مجد الدين اليزدجردى :

نظراً لشدة حرص عز الملك ، قبل تولى منصب الوزارة وهو فى سن السبعين ، وكان يتصف بسوء الخلق وكثرة الطمع ، والحديث السخيف والمعيب ، ولما تولى هذا المنصب نشر الظلم والاعتساف ، وقد أسر كمال الدين ثابت القمى – وكان ذا مكانة عالية فى بلاط السلطان مسعود – العداء لعز الملك ، وعمل على إسقاطه ، وكان يتصدى لجوره وظلمه للناس ويقلل منهما ، وبناء على ذلك قدم عريضة للسلطان سنجر يقول فيها : « غالباً ما يكون تعيين الوزراء مفوضاً إلى رأى العلماء من نواب البلاط السلطانى ،وأما الآن فالأتابكة هم الذين ينصبون الوزراء ، وهذا لايقبله العاملون بذلك [٢١٤] البلاط » . وبلغ خبر هذه العريضة الأتابك آقسنقر فقام بقتل كمال الدين ثابت فى قلعة همدان ، وقوت هذه الحادثة من مكانة عز الملك ،

فأقدم بعد ذلك — حسبما ذكره الكثيرون —على التمادى فى أعمال الظلم والطغيان ، ولما توفى الأتابك آقسنقر ، أمر السلطان بالقبض على عز الملك وسجنه ، وبعد ذلك قتل عز الملك فى السجن بعد مصادرة كل ما حصل عليه خلال فترة توليه الوزارة ،

(مصراع ، ترجمته)

— « لا يمكن لأحد النجاة من سيف الأجل »

الوزير مؤيد الدين مرزبان :

عمل مؤيد الدين فترة كبيرة كاتبا للسلطان مسعود ، ثم أسند إليه الوزارة بعد عزل عز الملك ، وكان مؤيد الدين معروفاً بالنسب الطيب ، ومشهوراً بالفضل والأدب الزائد ، ولكن الأتابك « بوزابه » عزله بعد شغله لمنصب الوزارة مدة عامين ، وأسند ذلك المنصب إلى نائبه تاج الدين أبى طالب الشيرازى .

الوزير تاج الدين أبو طالب الشيرازى :

كان الشيرازى من أكابر الوزراء من أبناء منطقة فارس ، ولكنه لم يكن لديه القدر الكافى من العقل والكياسة ، وطريقة إدارة مهام الوزارة ، فلاغرابة أن أعفى من ذلك المنصب بعد قتل الأتابك بوزابه ، وعاد إلى شيراز .

الوزير شمس الدين أبو النجيب الدركزينى :

كان شمس الدين ابن شقيقة أبى القاسم الدركزينى ، وهذه هى الميزة الوحيدة التى كانت له ، حيث كان [٢١٥] خالياً من صفات الكمال الشخصى . وكان شمس الدين يعمل فى بداية أمره نائباً للأمير « أياز » الذى كان يحظى بمزيد من التقرب لدى السلطان دون سائر أركان الدولة . وقد بلغ شمس الدين مكانة عالية فى الوزارة بفضل الأمير المذكور ، ونظراً لأنه كان مشهوراً بالجود والكرم والمروءة ، فقد ظل يشغل منصب الوزارة مدة طويلة فى عهد السلطان مسعود رغم عدم توفر الفضائل له ، وعدم قابلية الناس إليه وبعد وفاة السلطان مسعود أسند أيضاً ابن أخيه السلطان محمد بن محمود ذلك المنصب إلى شمس الدين . وجاء فى جامع التواريخ أن شمس الدين أبا النجيب كان خالياً من الفضائل الشخصية لدرجة أنه ذات مرة قال لكمال الدين أبى شجاع الزنجانى —الذى كان قد جاء من بغداد إلى العراق العجمى— قوله : « يبدو أنك جئت عن طريق جعده ! » فقال له كمال الدين : « جُدّه ياسيدى

وليس جعده !» فقال شمس الدين ثانية مؤكداً جهله : « فعلا كما تقول أنت ولقد أخطأت فجعده هي التي يضعون فيها القوس» فرد عليه كمال الدين قائلا : « تلك هي الجعبة ويضعون فيها السيف ! » وحينئذ سكت شمس الدين عن الكلام وهو في غاية من الغضب .

وقد تصادف أن حدثت وفاة السلطان محمد بن محمود والوزير شمس الدين أبي النجيب في أسبوع واحد في همدان .

(بيت ، ترجمته) :

— عندما تأتي الوفاة سيمر الجميع

— تباعاً من هذا الطريق ملوكاً كانوا أم فقراء

الوزير جلال الدين بن قوام الدين أبو القاسم الدركزيني :

كان جلال الدين معروفاً بعلو الهمة والفصاحة ولطف الحديث ، ومتصفاً بحسن التصرف وجمال الصورة وطيب الخلق ، [٢١٦] وكان يغدق على الناس جميعاً البذل والعطاء وخاصة العلماء والفضلاء ، فلا غرابة أن كثر الإقراض خلال وزارة ذلك الوزير الكريم ، فكان طالبو القروض يتجمعون دائماً في الديوان ، ويشغلون جانبا كبيراً من وقته الثمين .

والخلاصة أن جلال الدين تولى الوزارة في أوائل حكم السلطان محمد بن محمود ، وبعد أن ظل فترة يدير شئون الدولة ، حدث أن استمال شمس الدين أبو النجيب –بخدماته الكثيرة– أمراء الدولة وأركانها فعزلوا جلال الدين، وعينوه في ذلك المنصب الرفيع مرة أخرى . وقد نقلوا أنه في تلك الأيام التي استطاع فيها شمس الدين أبو النجيب – عن طريق الرشوة – أن يستميل إلى جانبه الأكابر والأصاغر ، قام جلال الدين بنظم هذه القطعة وأرسلها إلى السلطان :

(بيتان ، ترجمتهما)

— لقد خدع خصمي الناس بالكثير من

— الذهب والفضة من أجل عزلي وتعيينه مكاني

— فإذا كان خصمى واثقاً فى الذهب والفضة

— فأنا واثق فى سيدى وفى الله — سبحانه وتعالى

ولكنه لم يحقق فائدة بذلك وتم عزله ، كما نظم هذه القطعة أيضاً :

[٢١٧] (بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد أطعمتنى ثم بعتنى ، فلا غرابة

— أننى كمن يمسك بالهواء فى يده

— وأغلقت أمامى قلبك وبابك وأصبحت

— لا أعرف هل يلزم على أيضاً أن أقطع أملى فى الله ! !

وقد نظم قاضى شروان هذه الأبيات بعد عزل جلال الدين يواسيه فيها ويمدحه :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— قال لى أمس فى المنام مقعد وزير

— العالم ألا يتذكرنى جلال الدين !

— فقلت له : أسعد لأنك سوف تقترن

— به غداً ، ويفرح قلبك

والخلاصة أن جلال الدين فضل العزلة والاعتكاف إلى أن رحل إلى العالم الآخر .

(بيت ، ترجمته) :

— لا يعرف الفلك دائماً غير هذا الأسلوب

— منح الأحزان وأخذ الأرواح

الوزير شهاب الدين ثقة الحامدى :

كان شهاب الدين وزيرا كامل النسب ، وافر الحسب ، وصاحب ثروة وكان كريماً كما كان معاصروه جميعا يعترفون بتقدمه عليهم ، وقد استشهد على يد جماعة من الأمراء بعد أن قضى أربع سنوات وزيراً للسلطان سليما نشاه ، واختار مسكنه جنات عدن .

(مصراع ، ترجمته) :

– « كيف يمكن لأحد الخلاص من الأجل الموعود ! »

الوزير فخر الدين بن الوزير معين الدين الكاشي :

تولى فخر الدين الوزارة فى عهد السلطان أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ، وقد أنجز مصالح الناس ، وجعل أمور الدولة تستقيم وتنتظم ، واهتم بإرساء قواعد العدل والإنصاف .. وفى تلك الأيام جاء الأمير أمير بن على بار حاكم ولاية الرى ومعين الدين الساوجى المستوفى بحجة مقابلة السلطان ، وأخذا يدسان ويكيدان للأتابك شمس الدين ايلدكز – الذى كان والده السبب فى تولى السلطان عرش السلطنة – فعلم الوزير فخر الدين طاهر بحقيقة نواياهما وعرض على السلطان وهو منفرد به كيفية تدبير المعاندين وحقيقة حسدهما وما يضمرانه من شر ، فأصغى السلطان بعين الرضا إلى كلام الوزير الماهر وأمر بأن يقيدوا الأمير فى قلعة نخجوان ، كما عنف معين الدين الساوجى وعاقبه وصادر جميع ممتلكاته ، ولهذا السبب ارتفعت مكانة الوزير ، وأمضى فترة طويلة مستقلا تماماً بتدبير شئون الوزارة ، ولكن عين الكمال أصابته وهو فى ريعان شبابه وفى أوج مجده ، فودع الحياة الدنيا ورحل إلى الحياة الأخرى .

[٢١٩] (بيت ، ترجمته) :

– فى هذا البستان الذى لا يوجد به مكان خال من الحزن

– فيه تبقى الحشائش وتدوم أكثر من الإنسان

الوزير قوام الدين بن الوزير قوام الدين أبو القاسم :

تولى قوام الدين الوزارة بعد وفاة فخر الدين ، وكان على علاقة طيبة ، بأهل العلم والفضلاء ورجال الجيش ، لأنه كان معروفاً ومتصفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ، وكانت تبدو عليه علامات العظمة وسمات الرياسة والرفعة واضحة جلية ، ولكن السلطان عزله فى النهاية لعدم إرضاء الأتابك محمد بن ايلدكز عنه ، فاعتكف قوام الدين بعيداً ، ولم يفكر بعد ذلك فى الوصول إلى ذلك المنصب .

الوزير كمال الدين أبو شجاع الزنجانى :

كان كمال الدين من كبار الكتاب والعارفين والكرماء ، وقد تولى الوزارة بعد عزل قوام الدين ، وبعد أن قضى عامين فى هذا المنصب — نشر خلالهما العدل والإنصاف — رحل مشكوراً محمودا عن هذه الدنيا الفانية إلى جنة رضوان .

الوزير كمال الدين أبو عمر الأبهرى :

كان أبو عمر معروفاً بالأصل الطيب ، والأدب والفضل الزائد ، ومشهورا بحسن النية وصدق العقيدة والزهد والتعبد ،وقد تولى أبوعمر — لعدة سنوات — الإشراف على أعمال عظيمة فى دواوين السلاطين الأقوياء ، ولما توفى [٢٢٠] كمال الدين أبوشجاع ، أسند إليه السلطان أرسلان الوزارة ، وبعد وفاة السلطان أرسلان ، أسند إليه أيضاً ابنه السلطان طغرل ذلك المنصب ، ولما شاعت الاضطرابات والقلاقل فى دولة السلطان طغرل ، خاف أبوعمر من أعدائه ، فحلق شاربه وتوجه إلى بلاد العرب متخفياً فى لباس الصوفية ، وقد نظم هذا الرباعى وهوفى صحراء الحجاز وأرسله إلى أبهر :

(رباعى ، ترجمته) :

— لم يجد قلبي المسكين من يحفظ له سره .

— ولم يجد كذلك معيناً له فى هذه الدنيا

— وقد سحرته ذؤابة حسناء ولكنه

— فى ليلة ظلماء لم يجد رفيقته

الوزير عز الدين الكاشانى :

كان يتصف عز الدين بالمروءة وعلو الهمة ، وشيد خلال أيام حياته بقاعا للخير وأبواباً للبر ، وعرف بالسمعة الطيبة ، كما كان على قدر كبير من المهارة فى علم السياق والاستيفاء ، وقد شغل عز الدين الوزارة فى عهد السلطان طغرل ، ونظراً لأن السلطان كان يكره الأتابكة ، ونظراً لما كان بين عز الدين وهذه الجماعة من حب وإخلاص ، فقد تغير السلطان على الوزير وقتله هو وابنه فى قلعة همدان .

(مصرع ، ترجمته) :

« لتسعد روحهما فى جنة الخلود »

الوزير أبو منصور المورياني :

كان أبو منصور –حسب رواية صاحب جامع الحكايات – من وزراء السلطان طغرل، وكان يؤدى دائماً مراسم [٢٢١] الطاعة والعبادة لله – سبحانه وتعالى – ويجلس كل صباح بعد أداء صلاة الفجر على سجادة الصلاة يقرأ أوراد الصلاة حتى شروق الشمس ، وبعد ذلك يركب لمقابلة السلطان . وذات يوم واجه السلطان أمراً هاماً فبعث شخصاً وقت السحر يطلب الوزير ، فوجد أبامنصور مشغولا بقراءة الأوراد ولم يعط الرسول جوابات شافياً ، ولما طال الانتظار لأبي منصور أكثر من اللازم بدأت جماعة من الغمازين والدساسين يغتابون الوزير وقالوا للسلطان : « نظراً لغرور أبي منصور وعدم اكتراثه ، فإنه لايهتم كثيراً بأوامر السلطان ، ويؤخر البت فى الموضوعات الموكلة إليه ، ويحضر متأخرا إلى الديوان ! » فغضب السلطان بسماع هذا الكلام ، وعندما وصل الوزير إلى دار السلطنة قال له السلطان بصوت مرتفع : لم لم تأت إلينا فى الميعاد المطلوب ؟ » فرد عليه أبومنصور بقوله : « إننى عبد رب العالمين ، وخادم سلطان الدنيا ، وقد عاهدت نفسى أن لا أشغلها بعمل سوى التضرع لله والتوجه إليه بالدعاء وذلك حتى شروق الشمس ! ولم أجعل نفسى من بين تنابلة السلطان ! » ، فهدأت ثائرة غضب السلطان بسماعه هذا الكلام الصريح وزاد فى الاهتمام والعناية بأبى منصور .

قطعة (بيتان ، ترجمتهما) :

– ما أسعد ذلك العالم الذى يصحو قبل السلطان

– ويحدثه عن موضوع طيب وهو فى سورة غضبه

– فيهدئه بكلام لطيف لطف الماء

– ويصب ماءه على غضب السلطان

[٢٢٢] **الوزير معين بن الوزير فخر الدين :**

كان معين الدين معروفاً بالمهارة، ومتصفاً بحسن الإدارة وإنجاز شئون الوزارة وقد بلغت دولة السلاجقة فى نهايتها أوائل توليه الوزارة حيث استولى السلطان تكش خوارزمشاه على العراق ، واستشهد السلطان طغرل فى معركة القتال ، « وتلك الأيام نداولها بين الناس[1] » .

وأنه لا يخفى على العارفين وأهل الفضيلة أن أحوال بل أسماء وزراء تلك الطبقتين الأخريين من السلاجقة اللتين حكمتا فى ولايتى كرمان والروم ، لم تذكرها كتب التاريخ ، وذلك بسبب عدم استقلالهما ، فلا عجب أن بدأ قلمى فى تحرير بعض أحوال وزراء السلاطين الآخرين ، ونرجو من الله الإعانة والتوفيق :

---

(١) سورة آل عمران ، آية « ١٤٠ »

وزراء وخلفاء وحكام طائفة الاسماعيلية

إنه لايخفى على أهل الفضل والمحققين أن الإسماعيلية كانوا طبقتين ، طبقة منهما حكمت فى ولايات المغرب ، والأخرى حكمت فى بلاد رودبار ، وقهستان ، والطبقة الأولى والتى يرجع نسبها–حسب ما أورده أكثر المؤرخين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق كان عدد خلفائها وحكامها أربعة عشر شخصا ترتيب أسمائهم كما يلى :

١ – أبو القاسم محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى

٢ – القائم بأمر الله بن المهدى

[٢٢٣] ٣ – المنصور بالله بن القائم بأمر الله

٤ – المعز لدين الله بن القائم بأمر الله

٥ – العزيز بالله بن المعز لدين الله

٦ – الحاكم بأمر الله أبو على منصور بن العزيز بالله

٧ – الظاهر لدين الله بن الحاكم

٨ – المستنصر بالله بن الظاهر

٩ – المستعلى بالله بن المستنصر

١٠ – الآمر بأحكام الله بن المستعلى

١١ – الحافظ لدين الله أبو ميمون عبد الحميد بن المستنصر بالله

١٢ – الظافر بالله بن الحافظ

١٣ – الفايز بنصر الله بن الظافر بالله

١٤ – العاضد لدين الله بن الفايز بنصر الله

وقد امتد حكم هذه الطائفة ٢٦٠ عاماً ، ولم تتضح — عند المؤرخين — أسماء وأحوال وزراء أكثر خلفاء الإسماعيلية ، وأما ما عرف فهو كما يلى :

الوزير أبو على أحمد بن الأفضل :

كان الأفضل أميراً للجيوش أيام خلافة المستعلى بالله بن المستنصر بالله ، وكان مستقلا بتدبير أمور الملك والمال ، [٢٢٤] وفى عهد الآمر بأحكام الله قتل أمير الجيوش على يدى فدائيي النزارية حيث توفى متأثراً بإصابته من تلك الجماعة . ولما تولى الحافظ لدين الله عرش الخلافة جعل أبا على أحمد موضع اهتمامه ورعايته ، وأسند إليه منصب الوزارة ، فأدار أبو على ذلك المنصب بكفاءة عالية ، لكن الفدائيين ألحقوه بوالده بعد فترة قصيرة ، وعين شخص آخر مكانه ، فقتل أيضاً ذلك المسكين بعد بضعة أيام بضربة خنجر من الفدائيين الأشرار ، وحينئذ أسند الحافظ لدين الله منصب الوزارة إلى ابنه حسن ، ونظراً لأن حسن كان سفاكاً وجريئاً ، كما كانت تتوفر فيه الكثير من علامات الجنون ، فقد قام فى ليلة واحدة بقتل أربعين شخصاً من أمراء والده ، وخشى الحافظ من أعز أبنائه ، فسلط سراً جماعة لقتله ، وقد وقف الحسن على هذا التدبير ، فقتل أيضاً تلك الجماعة ، وبعد ذلك توجه بقية الأمراء والعسكر إلى الحافظ وقالوا له : إن تسلمنا الحسن فهو المطلوب ، والا فسوف نقتلك ؟ فهدأ الحافظ تلك الجماعة وأمر طبيباً بدس السم للحسن وأنهى حياته .

(مصراع ، ترجمته) :

— يلحق الشر بالشرير كذلك

الوزير عباس :

كان عباس يتولى تدبير شئون الوزارة أيام الظافر بالله ، وكان موفقاً جداً فى إدارة ذلك العمل .

وجاء فى روضة الصفا أن عباسا كان له ولد فى غاية من الحسن والجمال يسمى نصراً ، وقد توله الخليفة الظافر بحب ذلك الشاب ، ولم يكن يرضى بالبعد عنه لحظة واحدة ، وذاع هذا الكلام [٢٢٥] بين الناس ، وفى ذلك الوقت أهدى

الظافر إلى نصر قلعة عامرة ، وكان بعض الظرفاء يرددون قولهم بأن حب نصر أكثر من هذا ! ! وحرك هذا الكلام عرق الحمية فى عباس ، فوجه الدعوة للظافر مع بعض خاصته لاستضافتهم بمنزله ، وعندئذ خرجت جماعة من خدم عباس من كمين ، وقتلوا الخليفة ومن معه من خاصته ، ودفن عباس القتلى فى منزله ، وجمع أموالا ورحل من مصر حتى ينجو بنفسه من الهلاك ، وفى الطريق اعترضه جماعة من الفرنج سلبوه ما معه وتركوه مقيداً فى الصحراء .

الوزير ملك صالح :

حينما فارق الخليفة الظافر الحياة فى منزل عباس ، جلس ابنه الفايز بنصر الله على عرش الخلافة ، ووضع زمام أمور الوزارة فى قبضة ملك صالح الماهرة ، وظل ملك صالح صاحب التصرف فى أمور الملك والمال حتى آخر أيام حياة الفايز ، ولما توفى الفايز فى عام ٥٥٥ هـ ، خلفه العاضد لدين الله الذى قام بعزل ملك صالح .

الوزير شابور (١) :

كان شابور وزيراً للعاضد لدين الله آخر خلفاء الإسماعيلية ، وخلال توليه الوزارة ، تواجه جيش جرار من الفرنج إلى مصر للإغارة عليها ، ولما اقتربوا من تلك المملكة ، استولى الخوف والرعب على نفوس المسئولين فيها ، فطلبوا الصلح ، وبعد الاتصالات وقع السفراء قرار الصلح على أساس دفع مبلغ ألف ألف [٢٢٦] دينار ، وجاء محصلو الفرنج إلى مصر لاستلام ذلك المبلغ ، وكان لهذا الأمر وقع أليم فى نفوس المسلمين ، فعزموا على اللجوء إلى والى الشام نور الدين محمود ليخلصهم من عار النصارى ، فسلم شابور لمحصلى الفرنج مبلغ مائة ألف دينار وأخر دفع باقى المبلغ ، وبعث بكتاب إلى نور الدين محمود — بموافقة العاضد — مستنجداً به فى صدر خطر استيلاء الفرنج ، ولما وقف والى الشام على حقيقة الأمر ، كلف أسد الدين شيركوه بقيادة جيش جرار مكون من ثمانين ألف رجل لصد المعتدين ، وعند اقتراب شيركوه من مصر ، خاف الفرنج من قتاله وهربوا مثل الثعلب وعادوا إلى بلادهم ، ووصل أسد الدين القاهرة فى شهر ربيع الآخر عام ٥٦٤ هـ ، فبعث

(١) يكتب « شاور » فى المصادر العربية » .

إليه العاضد بخلعة ووثيقة الموافقة بدخول القاهرة ، كما بشره بتولى منصب الوزارة له ، وفى تلك الأثناء توجه شابور ذات يوم إلى مقر أسد الدين شيركوه للتشاور معه فى بعض المسائل ، ولحق بشابور فى الطريق صلاح الدين يوسف — ابن شقيق شيركوه — هو وجماعة من أمراء الشام وقبضوا عليه ، وعلم العاضد بهذا الخبر ، فبعث — نظراً لأنه كان يكن فى نفسه من الآلام من شابور — برسول إلى الشوام طالب منهم رأس الوزير ، فقام صلاح الدين فى الحال بقتله .

(مصراع ، ترجمته) :

— « لم يسلم هو كذلك من فتك السيوف

الوزير أسد الدين شيركوه :

تولى شيركوه الوزارة بعد قتل شابور ، ولكنه توفى بعد أن قضى ستين يوماً فى إدارة ذلك المنصب .

(مصراع ، ترجمته)

— سواء أقضى سنة أو ستين أوستمائة فماله إلى زوال ! »

[٢٢٧] **الوزير صلاح الدين يوسف :**

تولى صلاح الدين الوزارة للعاضد بعد وفاة أسد الدين ، وقد تمت له السيطرة التامة على ولاية مصر لمساعدة بهاء الدين قراقوش ونحى أركان دولة العاضد جانباً ، ولما بلغ هذا الخبر نور الدين محمود ، بعث برسالة إلى صلاح الدين يوسف يقول له فيها : « إنه لمن المناسب أن تكون الخطبة على المنابر وسك العملة فى تلك الولاية باسم ولقب الخليفة العباسى المستضىء بنور الله ، وذلك كما هو متبع فى بلاد الشام ، ولم يجد صلاح الدين — لمصلحته الشخصية — فائدة من الامتثال لذلك الأمر ، فبعث يرد عليه بقوله : « لقد انقضت فترة طويلة والمصريون يسلكون طريق الطاعة والولاء للعلويين ، وإن يعلموا بمثل هذ الأمر ، فربما نواجه بفتنة لايمكن تداركها بسهولة ! » فلما وصل رد صلاح الدين إلى نور الدين محمود ، تضايق وغضب وأرسل إليه مرة أخرى قائلا له : « لابد أن يعمل صلاح الدين على ألا تقرأ الخطبة بعد ذلك باسم العاضد ! » ونظراً لأن صلاح الدين لم تكن لديه

القدرة على مخالفة نور الدين فقد تشاور مع خاصته ورجاله فى هذا الموضوع، فحذرته جماعة منهم من خطر جماهير المصريين، ودفعته جماعة أخرى إلى إطاعة نور الدين محمود وتنفيذ تعليماته ، وفى تلك الأثناء ابتلى العاضد بمرض خطير ، وفى الجمعة الثانية من شهر محرم عام ٥٥٧ ﻫ ، رفع شخص من الشوام صوته بالدعاء للمستضىء بنور الله العباسى . قبل أن يعتلى الخطيب المنبر ، فلم يعارضه أحد من الحاضرين ، وفى الجمعة التالية قرأ جميع خطباء مساجد مصر — حسب تعليمات صلاح الدين — الخطبة باسم الخليفة المستضىء بنور الله ، وكان العاضد[٢٢٨] قد توفى فى العاشر من نفس الشهر وقبل أن يسمع بهذا الخبر الأليم .

ولا يوجد شىء من أخبار تلك الطائفة غير ماذكرناه سوى الخرافات ، ولما بلغ خبر الدعاء للمستضىء بالله — على منابر مصر إلى دار السلام بغداد ، قام الخليفة بإرسال الهدايا القيمة والأموال الوفيرة إلى نور الدين محمود وصلاح الدين يوسف ، وقد ظل صلاح الدين يوسف يعيش فى مصر حتى آخر يوم فى حياته معززاً مكرما ذا شأن كبير .

الطبقة الثانية من الاسماعيلية :

وكانت عبارة عن الحسن بن الصباح وأتباعه ، وقد حكم هؤلاء فى منطقة رودبار وقهستان ، وهم ثمانية أسماؤهم كالتالى :

١ — الحسن بن الصباح
٢ — كيابزرگ أميد
٣ — محمد بن كيابزرگ أميد
٤ — حسن بن محمد المشهور بين الناس بلقب « على ذكره السلام »
٥ — محمد بن على ذكره السلام
٦ — جلال الدين حسن بن محمد
٧ — علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن
٨ — ركن الدين خورشاه بن علاء الدين محمد

[٢٢٩] واستمر حكم هذه الطائفة مدة ١٧٢ عاماً ، نتحدث فيما يلى عن اثنين من وزرائهم :

الوزير دهدار أبو على :

كان أبو على من بين خاصة الحسن بن الصباح ، وحينما كان الحسن بين سكرات الموت وأوصى كيابزرگ أميد بأن يسند إلى أبى على منصب الوزارة : ولما تولى كيا الحكم عمل بوصية الحسن ، ووضع زمام أمور الديوان فى قبضة دهدار أبى على الكفء ، وتولى دهدار ذلك المنصب طوال حياته :

الوزير شمس الدين كيلك :

كان شمس الدين وزيراً لركن الدين خور شاه آخر حكام الإسماعيلية ، وحينما عبر هولاكان نهر جيحون ، بعث رسولا من عنده لطلب ركن الدين ، وحيث إن انتصارات هولاكو كانت قد وصلت إلى نواحى دماوند ، أسرع شمس الدين بالتوجه — تنفيذا لأوامر ركن الدين — إلى قلعة «گردكوه» حتى يوصله قائد تلك القلعة إلى هولاكو ولما كانت ولاية رودبارد قد أصبحت مضرباً لخيام جند التتار ، أوصل قائد قلعة «گردكوه» شمس الدين هولاكوخان ، فرحب به الخان وشمله بعنايته ، وفى تلك الظروف أسرع أيضاً ركن الدين خورشاه لمقابلة هولاكو خان وبهذا طوت الأقدار بساط حكم الملاحدة ودخلت جميع ولايات إيران فى حوزة هولاكوخان «تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء[1]» .

---

(١) سورة آل عمران ، آية «٢٦» .

وزراء الدولة الخوارزمية

يقولون إن جد الخوارزميين هو نوشتگين غرجه غلام بلكاتگين — الذى [٢٣٠] كان من مماليك السلطان ملكشاه — وكان نوشتگين يعمل بوظيفة الطشتداريه ، وبعد وفاة بلكاتگين ، وتولى مناصب رفيعة وذلك بفضل تعقله وكفاءته وخبرته ، فنظرا لأن مهمة ديوان خوارزم كانت فى ذلك الوقت تتعلق بالطشت خانه ، أسند إليه السلطان ملكشاه مهمة شحنة خوارزم ، وبعد وفاة نوشتگين ، أصبح ابنه الأكبر قطب الدين محمد حاكماً لتلك الولاية ، وأطلقوا عليه لقب خوارزمشاه ، وكان الخوارزميون تسعة أشخاص :

١ — قطب الدين محمد بن نوشكتيگين

٢ — أتسز بن قطب الدين محمد

٣ — أيل أرسلان بن أتسز

٤ — السلطان جهانشاه بن أيل أرسلان

٥ — تكش خان بن أيل أرسلان

٦ — قطب الدين محمد بن تكش خان

٧ — السلطان جلال الدين مينكبرتى بن قطب الدين محمد

٨ — السلطان غياث الدين بيرامشاه بن قطب الدين محمد

٩ — السلطان ركن الدين غور سانجى بن قطب الدين محمد

[٢٣١] وقد استمر حكم هؤلاء الملوك الأقوياء مدة ١٣٨ عاماً، أمكن لى معرفة أحوال خمسة وزراء من وزرائهم أتحدث عنهم كما يلى :

الوزير نظام الملك سعد الدين مسعود بن على الأبهرى :

كان نظام الملك إماماً لمشاهير الوزراء العظام ، وذلك بفضل إصابة رأيه ، وعلمه وانشراح صدره وصفاء ضميره ، قد أسند إليه تكش خان إدارة منصب الوزارة الرفيع بإعزاز تام وإكرام عام ، والحقيقة أنه بفضل تدبير سعد الدين مسعود السليم ، ونظره الثاقب ، حل العمار والتآلف محل الخراب والاضطراب — الذى كان قدا ستشرى فى جميع الولايات بسبب الأحداث السابقة — ووفر العدل والإنصاف للصغار والكبار فى جميع البلاد والديار ، وبذل جهوداً مشكورة لتقوية أحكام الشريعة النبوية ، وكان يحرض تكش خان دائماً ويشجعه على قلع وقمع الملاحدة الذين لادين لهم ، وترتيباً على ذلك بذل تكش خان كل همه فى إعداد جيش كبير لاستئصال تلك الجماعة ، ورفع راية الفتح للاستيلاء على قلعتهم القوية الموجودة بالقرب من قزوين ، وبعد وصوله استمر حصاره لها مدة أربعة أشهر ، وفى النهاية استقر الرأى على إجراء الصلح ، وخرج الملاحدة وأتباعهم من تلك القلعة وتوجهوا إلى قلعة الموت :

ولما علم هؤلاء الملاعين بأن المتسبب فى عداء السلطان لهم هو الوزير سعد الدين مسعود ، أرسلوا [٢٣٢] جماعة من الفدائيين لقتله ، فتحينت تلك الجماعة الفرصة وعند خروج نظام الملك من قصره طعنوه بالخناجر وقتلوه . وقد جاء فى كتاب روضة الصفا ما يلى :

« من غرائب الصدف أن سعد الدين مسعود نظراً للعداوة التى كانت بينه وبين الحاجب الكبير شهاب الدين مسعود الخوارزمى وحميد الدين العارض ، فقد نسب إليهما أموراً غير لائقة فى مجلس تكش خان ، وحصل على الإذن بقتلهما ، فأمر رجاله بقتل حميد الدين على باب قصره ، وكان يريد الوزير أن يلحقوا الحاجب به إلا أنهم فجأة بحسب تصرفات الزمن الغادر بل بناء على مشيئة المنتقم الجبار — سفكوا دماء الوزير ونجا الحاجب من تلك الحادثة .

(بيت وترجمته)

ـ مهما تحركت سيوف العالم من أماكنها

ـ فلن تستطيع أن تقطع عرقا واحداً مالم يرد الله ذلك

« إن الله يفعل مايشاء »(١)

الوزير نظام الملك صدر الدين على بن سعد الدين مسعود :

تولى على بن سعد ـ بأمر السلطان تكش خان ـ تدبير أمور السلطنة وإدارة شئون الديوان وذلك بعد استشهاد والده العظيم ،وقد اقتدى بصفات والده الحميدة، واهتم بتوفير العدالة . وتحسين أحوال الرعية ، ولم يقصر مطلقاً فى رعاية أهل العلم والفضيلة ، ولما توفى تكش خان واعتلى ابنه الأكبر قطب الدين محمد عرش السلطنة ، أبقى[٢٣٣] منصب الوزارة فى يد صدر الدين على ، وهكذا تكفل ذلك الوزير الحكيم بالاستمرار فى إدارة ذلك العمل الخطير ،وفى النهاية وحسب إدارة الخالق آلت الوزارة إلى محمد بن صالح .

الوزير نظام الملك محمد بن صالح

كان محمد بن صالح ـ حسب رواية صاحب جامع التواريخ ـ من أبناء غلام تركان خاتون ـ والدة السلطان محمد خوارزمشاه ـ ولم يكن له مثيل فى ذلك الوقت فى حسن خطه وفرط جوده وكرمه ، ولكنه لم يكن له حظ ولانصيب من الفضائل الشخصية والكمالات الإنسانية ، ولما أمضى محمد بن صالح مدة سبع سنوات مستقلا بإدارة الوزارة ، اتهم بالتصرف فى أموال الديوان وعزل ، فتوجه إلى خوارزم وترك العمل مع السلطان ، فجعلته تركان خاتون محل عنايتها ورعايتها ـ كسابق عهدها به ـ وأسندت إليه منصب الوزارة ، وصارت أوامر محمد بن صالح نافذة مرة أخرى فى خوارزم ، فتضايق السلطان من هذا التصرف ، وتغير وغضب ، ولم يشرف أحداً بهذا المنصب رغم وجود العديد من العظماء من أصحاب القلم ، وكبار أهل الفضل والكرم فى بلاطه ـ أمثال تاج الدين كريم الشرق النيشابورى وضياء الدين السمنانى والشريف محمد النسوى ونجم الدين كيلابادى ومجير

(١) سورة الحج ،آية «١٨»

الدين المنشى - فغرق الناس فى بحر الحيرة لأنهم لم يجدوا من يرجعون إليه فى تدبير شئون الديوان ، وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى نهاية حكم السلطان محمد ، وفى الوقت الذى كان أمراء جنگيزخان يحاصرون فيه[٢٣٤] قلعة أيلال ، كان محمد بن صالح موجودا داخل هذه القلعة بصحبة والدة السلطان . وبعد أن تم إخضاع القلعة حمله الأمراء إلى الخان وقالوا له : « ان هذا الوزير كان مطروداً ومغضوباً عليه من قبل السلطان محمد ! » وألحوا عليه أن يجعله من بين رجال الخان ، وبناء على ذلك اعتمد جنگيزخان محمد بن صالح كواحد من رجاله وكان يكلفه أحياناً بتنظيم حسابات بعض الولايات ، وخلال تلك الظروف حدثت علاقة بين محمد بن صالح وبين ابنه « زنيگيجة جنگى » التى اشتهرت بحسن الصوت وجمال الصورة ، وعلم بهذه العلاقة زين الدين الكحال - وكانت تلك المطربة حسب تعليمات الخان تحت رعايته فأخبر الخان ببعض جوانب تلك العلاقة ، واشتعلت نيران غضب الخان بسماع ذلك الكلام فقضى على محمد بن صالح .

وجاء فى كتاب روضة الصفا ما يلى : « أن الوزير الذى أسره أمراء جنگيزخان من قلعة إيلال كان يسمى ناصر الدين ، ولما مثل ناصر الدين أمام الخان قتله على الفور »

الوزير شرف الملك فخر الدين على الجندى :

تولى فخر الدين رئاسة ديوان ولاية جنبد(١) أيام حكم السلطان محمد خوارزمشاه ولم يترك شاردة ولا واردة من أعمال الظلم الا وارتكبها ، وبناء على ذلك توجهت جماعة من أهالى تلك الولاية إلى السلطان يستصرخونه بالله أن يخلصهم من ظلمه ، واشتعلت نيران غضب السلطان لشدة[٢٣٥] تظلم المظلومين المطالبين بالعدل ، فأمر رجاله بأن يسحبوه كما يسحب الطائر على السيخ ويلقوه فى النار ، وبلغ هذا الخبر الأليم فخر الدين فهرب كما يهرب الخفاش من ضوء الشمس واختفى ، وفى الوقت الذى هزم فيه السلطان جلال الدين مينكبرتى من جيش جنكيزخان ، وعبر نهر

(١) جنبد أوجنبذ ، بضم أوله وتسكين ثانيه ، وضم ثالثه ، من قرى نيسابور بمنطقة خراسان - وتقع الآن فى أفغانستان - والعجم تقول كنبد بالكاف ومعناه عندهم الأزج المدور كالقبة ونحوها.

[انظر ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، المجلد الثانى ، جـ٥ ص ١٦٨ ، بيروت ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م

سيحون ، قدم فخر الدين نفسه لذلك الملك العظيم وأبدى له رغبته فى العمل معه بإخلاص فقبله ، وحينما عاد السلطان من ولاية هندوستان أدخل فى حوزته ولايات العراق وأذربيجان وأسند منصب الوزارة إلى فخر الدين وبالرغم من أن فخر الدين كان خالياً من زينة الفضائل واستقامة المزاج الا أنه كانت له أياد بيضاء فى الحل والعقد ، والرتق والفتق ، والفتح والغلق فى شئون الديوان ، كما يتحدث التركية بطلاقة ، وكان ماهراً جداً فى قيادة الجيوش ، وقد أنفق فخر الدين الكثير من الأموال خلال فترة مجده وارتفاع مكانته ، وكان متصفاً برقة القلب وصفاء العقيدة لدرجة أنه حينما كان يقرأ القرآن كانت الدموع تنهمر على خديه .

والخلاصة أنه بعد بلغ استقلال فخر الدين بإدارة الوزارة مرتبة الكمال ، تسرب الغرور إلى رأسه حسب مضمون الآية الكريمة «كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى[1]» ، وقام بمصادرة ممتلكات أكثر أركان الدولة وأغنيائها ، ولهذا السبب تغير عليه السلطان ، وأحس الوزير بذلك التغير فأعلن العصيان ، وتحصن فى إحدى القلاع ، وقبض عليه السلطان جلال الدين بخدعة وسجنه ثم قتله بعد ذلك بثلاثة أيام أو [٢٣٦] أربعة تقريباً .

---

(١) وردت بالأصل «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» سورة العلق ، آية «٦» .

وزراء سلاطين السلغر

كان سلغر من الأمراء التراكمة ، وبسبب تقلبات الأيام رحل عن وطنه الأصلى مصطحباً معه خيله وحشمه ، وكان دائماً ما يغير على أطراف ولايات خراسان ، ولما أدخل السلاجقة ولايات إيران فى حوزتهم ، انضم إليهم وتولى منصب الحجابة لهم ، وكان من أولاده سنقر بن مودود السلغرى الذى خرج على ملكشاه ابن محمد بن محمود بن مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه السلجوقى ، واستولى على ولاية فارس ، وقد تولى حكم تلك الولاية أحد عشر شخصاً من السلغريين ترتيب أسمائهم كما يلى :

١ ـ الأتابك مظفر الدين سنقر بن مودود

٢ ـ الأتابك مظفر الدين زنگى بن مودود

٣ ـ الأتابك مظفر الدين تكله بن زنگى

٤ ـ الأتابك مظفر الدين طغرل بن سنقر

٥ ـ الأتابك مظفر الدين أبو شجاع سعد بن زنگى

٦ ـ الأتابك مظفر الدين أبو بكر بن سعد

٩ ـ الأتابك محمد شاه بن سلغر شاه بن الأتابك سعد بن زنگى

١٠ ـ الأتابك سلجوقشاه بن سلغرشاه

١١ ـ الأتابك آبش خاتون بنت سعد بن أبى بكر

[٢٣٧] وفيما يلى ذكر ماأمكن معرفته من أحوال وزراء الأتابكة :

الوزير تاج الدين الشيرازى :

كان تاج الدين وزيراً لمظفر الدين سنقر مودود ، كما كان يقوم بأعمال الوزارة أيضاً أثناء حكم السلطان مسعود السلجوقى .

الوزير أمين الدين الكازرونى :

تولى أمين منصب الوزارة أثناء حكم الأتابك مظفر الدين تكله بن زنگى ، وكان يفوق حاتم الطائى فى كثرة جوده وسخائه ، ووفرة بذله وعطائه ، وكان هناك اعتقاد بين أهالى شيراز بولاية الوزير أمين الدين ، فكانوا يتحدثون عن كراماته وخوارق العادات التى صدرت عن حضرته ، وقد أقام الوزير أمين الدين أثناء توليه الوزارة مدرسة وخانقاه للصوفية بالقرب من مسجد شيراز العتيق ، واهتم اهتماماً كبيراً برعاية العلماء وأهل التقوى والصلاح ، رحمه الله رحمة واسعة .

الوزير ركن الدين صلاح القرمانى :

تولى ركن الدين منصب الوزارة فى أوائل حكم مظفر الدين أبو شجاع سعد بن زنگى ، ثم عزل بعد فترة من توليته ذلك المنصب ، وعين مكانه عميد الدين أبو نصر أسعد .

الوزير عماد الدين أبو نصر أسعد :

كان عميد الدين معروفاً بالعلم والفضيلة ومتصفاً بالجود والسخاء وصفاء الذهن والطبع ، وكان يقوم [٢٣٨] أحياناً بنظم الأشعار القوية واللطيفة ، وجاء فى روضة الصفا ما يلى :

بعث الأتابك سعد ذات مرة برسالة إلى السلطان محمد خوارزمشاه — كان قد كتبها أسعد — عرف بواسطتها السلطان مقدار لطافة ذلك الوزير الفاضل ، فقربه منه وجعله موضع عطفه وعنايته ، وطلب حضور أسعد — مرات كثيرة — مجالس طربه ، وفى تلك الأثناء ألقى السلطان ذات يوم وهو فى مجلس الشراب هذا البيت[١] على وزن الرباعى :

---

(١) البيت بالفارسية :

دررزم جو آهنيم ودربزم جوموم   بردوست مباركيم وبردشمن شوم

بقية الرباعى :

اذ حضرت ما برند انصاف بشام   وزهيبث ما برند زنار بروم

(بيت ، ترجمته) :

ــ نكون فى الحرب كالحديد ونكون فى السلم كالشموع

ــ فنكون بركة على أصدقائنا وشؤماً على أعدائنا

وقال لأسعد : أكمل الرباعى ؟ فقال أسعد على البديهة :

(بيت، ترجمته) :

ــ ونقلوا عنا العدل والإنصاف إلى بلاد الشام

ــ وهرب عبدة النار خوفاً منا إلى بلاد الروم

فأبدى السلطان محمد إعجابه به وسقاه فى ذلك اليوم ــ لنظمه هذا البيت ــ شراباً صافياً ، وأسند إليه منصب الوزارة ، ولكن أسعد تردد بين الرفض والقبول ، وفى النهاية قرر العودة إلى شيراز ، ولما كان الأتابك سعد قد توفى وتولى ابنه الأتابك أبو بكر الحكم وبدأ ينظم شئون الرعية ، اتهم عميد الدين أسعد باجراء مفاوضات واتصالات مع رجال خوارزمشاه ، فأمر الأتابك أبو بكر بسجنه هو وابنه تاج الدين محمد فى قلعة « أسكيوان » . وقد نظم عميد الدين هذا الرباعى فى سجنه وبعث به إلى الأتابك :

[٢٣٩] (رباعى ، ترجمته)

ــ ياوارث تاج الملك ، وإكليل سعد

ــ اعف عنى بحق روح ورأس سعد

ــ لأننى منذ وجدت وحتى الآن ،

ــ قد وقفت (حبا وإخلاصا) مثل « الألف » أمام رأس سعد(١)

ولكنه لم يجد فائدة من هذه الشفاعة ، وظل الأتابك يحبس ذلك الوزير العظيم ــ كما يحبس الطائر فى القفص ــ إلى أن صعدت روح ذلك الطائر إلى السماء .

---

(١) نورد الرباعى بالفارسية حتى يتضح مغزاه :

أى وارث تاج ملكت وافر سعد ‏ ‏ بخشاى خداى راى بجان وسر سعد

برمن كه جونام خويشتن تاهستم ‏ ‏ همجو الف ايستاده ام بر سر سعد

(بيت ، ترجمته) :

— كان هناك طائر يغرد فى قفصه ويقول باننا حينما

— نرحل ، ستكون أيامنا القليلة فى الدنيا السبب فى سعادتنا أو شقائنا

الوزير نظام الدين أبو بكر :

تولى أبو بكر الوزارة أثناء حكم الأتابك محمد بن سعد ، وقد توجه إلى معسكر هولاكوخان حاملا الرسائل والتحف والهدايا الثمينة ، وجاء للأتابك محمد بمرسوم تفويضه حاكماً على ولاية فارس ، ولم يرد فى كتب التاريخ أى شىء عن أحوال ذلك الوزير أوعن أحوال سائر وزراء أتابكة فارس أكثر مما ذكرته ؛ وأرجو قراء هذه الأخبار المتفرقة ألا يرجعوا إلى العبد الفقير هذا النقص أو التقصير .

الحديث عن الملك العظيم الأمير الشيخ أبو اسحق

كان الأمير الشيخ أبو اسحق ــ بكثرة فضله وعلمه ــ خلاصة سلاطين الدنيا ، وكان من الأبناء العظام [٢٤٠] للأمير شاه محمود أنجو ، وكان يتولى الأمير محمود شاه حكم ولاية شيراز فى عصر السلطان أبى سعيد بن خدابنده ، وبعد وفاة الأمير محمود شاه ، تولى ابنه الأكبر الأمير مسعود شاه الحكم فى تلك الولاية ، ولما توفى السلطان أبو سعيد ، عم الهرج والمرج ، جميع الولايات فاستولى الأمير الشيخ أبو إسحق على ولاية شيراز ، وأمر بقراءة الخطبة وسك العملة باسمه ، واستمر حكمه ما يقرب من الستة عشر عاماً .

(بيت ، وترجمته)

ــ حقيقة أن خاتم نصر أبى أسحق

ــ قد تلألأ ساطعاً ولكن دولته زالت بسرعة (١)

وقد أمكننى الحصول على أخبار ثلاثة أشخاص من وزراء الأمير الشيخ أبى اسحق سأتحدث عنهم كما يلى :

الوزير مولانا شمس الدين صاين القاضى :

كان شمس الدين فى بداية أمره أحد أعيان دولة الأمير بير حسين جوبانى الذى كان حاكماً على شيراز لبضعة أيام ، وحينما توجه الملك بصحبة الأمير الشيخ أبى إسحق لتسخير شيراز ، رافق مولانا شمس الدين الأمير جلال الدين ــ طبيب الملك ــ

---

(١) هذا البيت من نظم الشيرازى .

وتخلى عن ملازمة الأمير بير حسين وانضم للملك أشرف والأمير الشيخ أبي إسحق ، ولما لم يقو الأمير بير حسين على صد ذلك الجيش آثر الهرب وغادر شيراز ، وحينئذ قال الأمير الشيخ أبو إسحق للملك أشرف : « حيث إن والدى العظيم ، وأخى الشهير كانا يحكمان [٢٤١] شيراز مؤخراً ، فاني أرجو أن تأذن لى بالتوجه قبلكم إلى تلك الولاية لأعد احتفالا ملكياً لحضرتكم » فأذن له الملك أشرف ، ولما وصل [الأمير الشيخ إلى شيراز ، جمع حوله أهالى تلك البلاد ، ودق طبول التمرد على الملك أشرف ولم يسمح لأحد من رجاله بدخول تلك الولاية .

ولم ير الملك أشرف فائدة فى محاصرة تلك المدينة ورجع يائساً ، وبعث برسول فى ذلك الوقت إلى الأمير مبارز الدين محمد مظفر — الذى كان حاكماً لولاية يزد — يطلب مقابلته ، فأجابه الأمير محمد بقوله :

« لو أن جنابه لديه الرغبة فى أن يكون اللقاء معه على أساس من الصدق والصفاء ، فعليه أن يبعث إلى بمولانا شمس الدين صاين القاضى كان يغتابنا دائماً فى مجلس الملك أشرف » ، فقام الملك أشرف — إرضاء للأمير محمد مظفر — بالقبض على مولانا وأرسله إلى يزد مقيداً ، فلما وصل إلى تلك الولاية طلب الشفاعة والعفو من الأمير ، فغفر له وصار موضع عطفه وإحسانه ، وعندئذ توجه الأمير محمد مظفر من يزد إلى كرمان ، واستحكمت العهود والمواثيق بين الأمير ومولانا شمس الدين واتفق على أن يسلم مولانا قلعة سيرجان — التى كانت تحت سيطرة ابنه — إلى رجال الأمير محمد ، على أن يتولى مولانا تدبير الأمور فى الولاية ، ويأخذ كل عام مبلغ مائة ألف دينار ،

وبعد ذلك بذل مولانا جهداً عظيما ، وتفانيا فى خدمة الأمير مبارز ونظراً لأن هذا الوضع لا يسر خواجة [٢٤٢] تاج الدين العراقى وبعض أعيان ولاية كرمان ، لذلك فقد أغووا مولانا شمس الدين بأن يطلب من الأمير مبارز الدين أن يبعثه برسالة يمحو الخلاف بين الأمير مبارز الدين والشيخ أبى إسحق ، ويذيب الثلوج المتجمدة فى مملكة فارس ويدخلها ضمن ولايات الأمير محمد مظفر ، ويحكم أسس المودة بالاتصال ، وعرض مولانا هذا الاقتراح على مبارز الدين فوافق عليه ، ورتب ووفر أسباب السفر لمولانا ، وتوجه مولانا معززاً مكرماً إلى شيراز ، ولما وصل ،

قبل تولى وزارة الأمير الشيخ أبي إسحق بالاشتراك مع سيد غياث الدين على اليزدى ونسى أفضال الأمير مبارز الدين محمد عليه :

(مصراع ، ترجمته)

– « يا من تركت أملى وعهدك تذروهما الرياح جميعاً ! »

وبعد أن زاول هذان الوزيران العظيمان إدارة شئون ولاية فارس بضعة أيام...

والله أعلم .

الوزير الأمير ظهير الدين ابراهيم صواب :

كان الأمير فى بداية أمره يلازم الأمير بير حسين جوبانى وفى الفترة التى كان يعمل فيها فى خدمة مبارز الدين ، استأذن منه وتوجه إلى شيراز ، فعزل الأمير الشيخ مولانا شمس الدين صاين وسيد غياث[٢٤٣] الدين على ، وعين مكانهما الأمير إبراهيم مستقلا بإدارة شئون الوزارة ، وقام الأمير إبراهيم بسبب كفاءته الزائدة – بل بسبب جهالته – بغلق الفوائد والمنافع أمام أركان الدولة ، فلا عجب أن أغوت تلك الجماعة أحد الأشقياء ، فتحين الفرصة وقتل الأمير إبراهيم بضربة سهم ، ومرة أخرى تولى مولانا شمس الدين صاين وسيد غياث الدين منصب الوزارة ، ونظراً لكثرة المنازعات التى كانت تقع دائماً بين الوزيرين ، وضيق الشيخ بذلك ، بعث بمولانا شمس الدين إلى ولاية هرمز بحجة جمع أموال تلك الولاية ، ولكنه بعد أن أشعل نيران الظلم والاستبداد فى جميع أطراف تلك الديار ، توجه إلى منطقة كرمان الهادئة مصطحبا معه الآلاف من الرجال الأفغانيين والجرمان ، وكان كلما طلب حاجة من الأمير مبارز الدين محمد ، يحققها له مادامت من أجل صالح ولايته ، وخلال تلك الأوقات أرسل حميد الملك – ابن مولانا شمس الدين صاين – رسائل إلى والده يقول فيها إن سيد غياث الدين فى غاية من الرفعة والسعادة والانفراد بالإدارة ، وليس فى مصلحته عودتك إلى شيراز وعليك أن تعمل من أجل تسخير كرمان ، وبهذه الوسيلة تتفوق على عدوك ! » .

فاغتر مولانا شمس الدين بهذه الأقوال ، وقاد ألف فارس من الخدم الخصوصيين للأمير الشيخ أبي إسحق وألفين من المغول والأفغان والجرمان وعدداً كبيراً من

الأوباش الموجودين فى كل مكان ، وتوجه بهم إلى كرمان ، ولم يطق الأمير محمد مظفر سماع هذا الخبر ، ونهض للقاء العدو رغم الآلام التى كان يعانى منها فى قدمه — [٢٤٤] على رأس ألف وخمسمائة من الرجال المجهزين للقتال ، فلما التقى الجمعان ، فر مولانا شمس الدين فى بداية المعركة يجر أذيال الهزيمة ، وتم أسر عدد كبير من قادة جيشه ، وبعث الأمير محمد مظفر بجماعة تعقبت مولانا شمس الدين ، وقد حلت بمولانا لعنة الكفر بالنعمة حيث أمسكت به تلك الجماعة وقدمته للأمير محمد مظفر فأمر بقتله على الفور .

(بيت ، ترجمته) :

— من عنده الشجاعة على الكفر بالنعمة

— هو من لم يكب جواده بعد

والإنسان العاقل هو الذى يعمل بمقتضى نص الآية الكريمة « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد(١) » ، ويفكر دائماً فى نتيجة الكفر بالنعمة ، ويكون مخلصاً وشاكراً باستمرار لأصحاب الفضل عليه ، وألا يبدل الإخلاص بالعصيان من أجل تحقيق منفعة فى الدنيا حتى لا يلام ، ويعاتب فى الدنيا ، ويعذب ويعاقب فى الآخرة .

(بيت ، ترجمته) :

— لو تتمرد على ولى نعمتك

— فسوف تسقط حتى لو كنت سماء !

الوزير سيد غياث الدين على اليزدى :

وقد استقل بتدبير شئون الوزارة بعد قتل مولانا شمس الدين صاين ، ولكنه فى ذلك الوقت كانت [٢٤٥] دولة الشيخ أبى إسحق قد قاربت حد الزوال ، وتم أسر غياث الدين على يد الأمير محمد مظفر ، ثم استشهد بعد ذلك فى يوم الأربعاء الأخير من جمادى الأولى عام ٧٥٨ هـ

(١) سورة إبراهيم ، آية « ٧ »

وزراء آل مظفر

كان أول شخص حظي من آل المظفر بالانتصار والإقبال وتولى عرش السلطنة هو الأمير مبارز الدين محمد ، وكانوا يسمون جده الأكبر — وكان من ولاية خواف — غياث الدين حاجي الخراساني ، وقد توجه غياث الدين حاجي مع أبنائه الثلاثة أبي بكر ومحمد ومنصور أثناء هجوم جيش جنگيزخان — من خراسان إلى يزد ، وظل يعيش في تلك الولاية إلى أن توفي ، ولم يبق أحد من نسل أبي بكر ومحمد ، ولكن منصورا له ثلاثة أبناء هم الأمير محمد والأمير علي والأمير مظفر ، ورغم أن الأمير مظفر كان أصغرهم سناً ، إلا أنه بفضل كياسته وشجاعته ، حاز قصب السبق على أمثاله وأقرانه ، وأصبح في أواخر عام ٩٦٤ ﻫ موضع اهتمام ملك الإسلام السلطان محمود غازان ، ورفعه إلى درجة الإمارة وأنعم عليه بطبل وعلم فاخرين ، ولما توفي الأمير غازان خان اهتم السلطان محمد خوابنده — أكثر من أخيه — برعاية الأمير مظفر ، وعندما توفي الأمير مظفر ، صار ابنه الأكبر محمد موضع عناية ورعاية السلطان أبي سعيد بهادرخان ، وبعد موت السلطان العظيم ، تمكن الأمير محمد من تسخير ولايتي فارس والعراق واستقل بحكمهما ، وقد وصل إلى مرتبة السلطنة سبعة أشخاص من أسرة الأمير مظفر :

[٢٤٦] ١ — الأمير مبارز الدين محمد بن الأمير مظفر

٢ — شاه شجاع بن الأمير محمد

٣ — شاه محمود بن الأمير محمد

٤ — شاه يحيى بن شاه مظفر بن الأمير محمد

٥ — السلطان عماد الدين أحمد بن الأمير محمد

٦ — السلطان زين العابدين بن شاه شجاع

٧ — شاه منصور بن شاه مظفر بن الأمير محمد

ولكن دولتهم لم تدم أكثر من خمسة وأربعين عاماً ، وفيما يلي ماتيسر لى جمعه عن أحوال وزراء آل مظفر :

الوزير تاج الدين العراقى :

كان تاج الدين من أعيان ولاية كرمان ، وكان من الذين لايستغنى عنهم — لصواب رأيه وحسن تدبيره — الصغير ولا الكبير ، وفى الوقت الذى تمرد فيه الملك قطب الدين على الأمير مبارز الدين محمد مظفر ، وتحصن فى بلدة كرمان ، وتوجه الأمير مبارز إلى تلك المدينة وحاصرها ، تمكن تاج الدين من تخليص نفسه من الحصار ، وتوجه إلى الأمير محمد ، مقدماً له فروض الطاعة والولاء فاهتم به الأمير محمد وقربه إليه وأسند إليه منصب الوزارة ، وفى الوقت الذى استقل فيه مولانا شمس الدين صاين القاضى بالتصرف فى دولة الأمير محمد ، ضعفت مكانة الوزير تاج الدين ، وكما ذكرنا من قبل قام تاج الدين بإغواء مولانا شمس الدين [٢٤٧] حيث توجه برسالة إلى شيراز ، ولما نقض مولانا العهد ، وانشغل بوزارة الشيخ أبى إسحق ، وثبت للأمير محمد مظفر بأن ذهابه كان باغواء من الوزير تاج الدين ، أمر الأمير بإعدام تاج الدين فارتجل تاج الدين هذا البيت :

(بيت، ترجمته)

— بحلمك ولطفك اصفح عن تاج العراق

— حتى يسموك الملك الواهب للتاج !!

فصفح الأمير مبارز الدين محمد عن الوزير تاج وتولى تاج الدين الوزارة مرة أخرى لفترة من الوقت ، ولكنه استشهد فى النهاية بأمر الأمير محمد

الوزير برهان الدين :

كان برهان الدين وزيراً صائب التدبير صافى الضمير ، وكان يتولى شئون الوزارة أثناء حكم الأمير محمد مظفر ، وفى الوقت الذى هزم فيه الأمير مبارز الدين من

الأفغان والجرمان وعاد إلى كرمان ، وقام برهان الدين بتجهيز الكثير من الجمال والبغال والأوانى والذهب والفضة — من مملكاته الخاصة — وأهداها إلى الأمير مبارز الدين ، فوقع هذا التصرف موقعاً حسناً فى نفس الأمير ، وأعلى من مكانة برهان الدين وقرر أن تظل الوزارة له مدى الحياة .

الوزير قوام الدين محمد صاحب عياد :

لما تولى ملك العالم المطاع جلال الدين شاه شجاع السلطنة ، أسند منصب الوزارة إلى قوام الدين ، وخلال فترة [٢٤٨] قصيرة علا شأن قوام فى إدارة الوزارة إلى درجة أنه لم يعد هناك لأى واحد قط من أمراء الدولة وأركانها تدخل فى أمور السلطنة ، بل إن الوزير نفذ بعض الأمور على غير رغبة من الشاه شجاع أيضاً . وعندئذ انتهزت جماعة من أعدائه الفرصة وقالوا للشاه شجاع : « إن الوزير يزور بعض الأمور ، وينتوى نية الغدر » ، وبعد الفحص والتدقيق اتضح للسلطان صدق تلك الجماعة فى قولها ، فعنف الوزير وسجنه فى ذى القعدة عام ٧٦٤ هـ ثم مزقه رجاله قطعا قطعاً بعد ضربه وتعذيبه ، وبعثوا بكل قطعة من جسده إلى ولاية من الولايات .

(قطعة ، ترجمتها)

— كل من يريد أن يقف فى وجه السلاطين

— فإنه لن يستطيع — كالشمعة — الثبات أمامهم

— ومن الأدب إذا ما وضعوا السلطة فى يديه

— ألا يفكر قط فى خيانتهم

— وقل له — حينما تعلو مكانته عندهم — لا تغتر

— فلربما يسحبونها منه فى لحظة

الوزير الأمير كمال الدين حسين الرشيدى :

تولى كمال الدين الوزارة بعد مقتل الوزير قوام الدين ، ثم عزل بعد فترة قصيرة من مباشرته ذلك العمل ، وهرب من شيراز إلى أصفهان والتحق بخدمة الشاه محمود ، ثم التحق مرة أخرى بخدمة الشاه شجاع بعد وفاة الشاه محمود .

[٢٤٩] الوزير جلال الدين تورانشاه :

كان تورانشاه في بداية أمره يتولى حكم ولاية « أبرقوه » بناء على أوامر الشاه شجاع ، وفي الوقت الذي ذهب فيه ذلك السلطان من شيراز إلى أبرقوه — بسبب استيلاء الشاه محمود على شيراز — قام تورانشاه بخدمته كأحسن ما تكون الخدمة ، وأرسى القواعد المتينة للدولة ، وأدار الأمور في الولاية إدارة حكيمة ، ولذلك عمل الشاه على إعلاء منزلة توارنشاه وأنعم عليه بمنصب الوزارة ، وقد ظل الوزير توارنشاه : واحداً من الوزراء العظام طوال حياة ذلك الملك العظيم ، كما تولى الوزارة لبضعة أيام أيضاً في عصر السلطان زين العابدين :

الوزير قطب الدين سليمانشاه بن خواجه محمود كمال :

في الوقت الذي انتزع فيه الشاه شجاع شيراز — عاصمة ملكه — من أخيه الشاه محمود ، وتمكن من اعتلاء عرش السلطنة مرة أخرى ، وأنعم بمنصب الوزارة على قطب الدين سليمانشاه ، وبعد أن مرت بضعة أشهر على هذا الحال — بسبب جريمة ارتكبها ابنه غياث الدين محمود — سمل الشاه شجاع عيني غياث الدين محمود وسجن والده ، ولكن الوزير قطب الدين سليمانشاه هرب من سجنه وتوجه إلى أصفهان ، فأسند إليه الشاه محمود منصب الوزارة له رغماً عن أخيه .

[٢٥٠] الوزير شاه ركن الدين حسن بن معين الدين اشرف :

لقد جمع الوزير ركن الدين بين شرف النسب وكمال الحسب ، ولكن صفات الغرور والتكبر والظلم والتجبر كانت متأصلة في نفسه ، فلم يكن يبدى أى احترام لأى واحد من الأشراف والأعيان ، بل لأى من سلاطين العالم ، وقد احتضن الشاه شجاع شاه ركن الدين حسن — بعد حبس الوزير قطب الدين سليمانشاه — شمله بفضله وإحسانه ، وجعله وزيراً له ، وبعد أن بدأ ذلك الوزير في إدارة مهام هذا المنصب لبضعة أيام ، وبسبب خوف استشعره من الوزير جلال الدين تورانشاه وخواجه همام الدين محمود ، كتب رسالة وقدمها للشاه شجاع على أن المشار إليهما كانا قد كتباها للشاه محمود ، ومضمون هذه الرسالة هو : « حينما تصل أعلام الملك المنتصرة إلى شيراز ، فسوف نفتح نحن عبيدك أبوابها أمامكم ، ونجمع الأنصار لاستقبالكم » وكانا قد التمسا منه أن يكتب على ظهر هذه الرسالة ، فكتب الشاه

محمود على ظهرها ما يلى : « سوف يصل موكب الملك إلى شيراز فى اليوم الفلانى وعسى أن يسعد أهل شيراز بمجيئنا، ويوفوا بالعهد الذى كانوا قدقطعوه لنا ويتخذوا اللازم نحونا» : وعلى الفوراستدعى الشاه شجاع الوزير تورانشاه وخواجه همام الدين وسألهما عن حقيقة الرسالة، فأحنى الاثنان البريئان أمامه رأسيهما وأقسما له قائلين : والله لاعلم لنا بهذه الرسالة فسألهما الشاه شجاع بقوله : هل هذه الرسالة كتبت بخطكما ؟ فأجاباه : كتبت بخط يشبه خطنا إلى حد كبير لدرجة أننا لانستطيع الانكار ولكننا لانعلم شيئاً عن هذه الواقعة » ، فتملك السلطان الغضب وقال لهما إنكما تقران بأن هذا هو [٢٥١] خطكما فكيف لاتعرفان الحقيقة؟فقالا له : إننا رضينا بالقتل ولكننا نأمل أن يتحقق السلطان كما يجب من حقيقة هذا الأمر ، وكان الوزير شاه حسن فى ذلك اليوم مريضاً فى بيته بسبب آلام قدمه ، فبعث الشاه شجاع إليه بشخص سأله قائلا : من أين جاءتك هذه الرسالة ؟ فرد عليه الشاه حسن بقوله : لقد أعطيت مبلغ ألفى دينار إلى كاتب الوزير تورانشاه ، وأخذت منه هذه الرسالة، فجاءوا إليه على الفور بالكاتب وعذبوه ، ولكنهم مهما بالغوا فى تعذيبه، فإنه لم يعترف لهم بشىء، وأرسل الشاه شجاع مرة أخرى إلى الشاه حسن يقول له : « لقد عذب الكاتب بكل ألوان التعذيب التى يمكن تصورها ولكنه لم يعترف فأجابه الشاه حسن قائلا : ما ذنب الغلام ! يجب تعذيب السيدين حتى يعترفا بجريمتهما ؟ فقال الشاه شجاع : لابد أن هناك خدعة فى هذ الموضوع فلا يعقل أن يعطى شخصاً رسالة كهذه لغلام يضعها فى مكتبه ، وعندئذ أمر بأن يتوجه الأمير اختيار الدين حسن قورجى إلى منزل الوزير شاه ركن الدين حسن ويعرف منه بأسلوب الضغط والتعنيف حقيقة الأمر ، وأخذ الأمير حسن يتشدد مع الوزير شاه حسن ، ولما ضغط الأمير على الوزير اعترف قائلا : « لقد أغويت الكاتب حاجى عمر فكتب هذه الرسالة مقلداً خطهما لأننى كنت دائماً أشك فى هذين الشخصين ، وكنت أتمنى أن يقضى عليهما ليهدأ بالى، والأمر مفوض للسلطان ! » [٢٥٢] ولما بلغت حقيقة مكر الوزير وتزويره السلطان ، اشتعلت نيران غضبه وأمر بقتله ومصادرة ممتلكاته :

وجاء فى كتاب روضة الصفا أنه حينما سمع سيد معين الدين أشرف والد الشاه

حسن بهذا الخبر ، فإنه لم يحضر الصلاة على جثمان ابنه وقال : « كل شخص لا يسمع كلام والده ، ولا يسلك سلوك جده الأكبر ، فلابد أن يبتلى بمثل هذه البلايا ، وأى صلة لأهل البيت بالظلم والغدر والفسق لقد بعث جدنا رحمة للعالمين ، والابن الذى يكون سببا فى إيذاء الناس ، لابد أن يكون مصيره العقاب فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة كما يقول الشاعر :

(بيت ، ترجمته) :

ــ الابن الذى لا يسمع نصيحة والده

ــ سمه غريباً ولا تسمه ابناً

الوزير صدر الدين محمد أنارى :

وكان وزيراً للشاه محمود ، ولكنه نظراً لما كان يكنه من حب أكثر للشاه شجاع ، فقد قلل مؤن جيش الشاه محمود عندما توجه الشاه شجاع للاستيلاء على إصفهان وبلغ هذا الخبر الشاه محمود ، فأثرت تلك الخيانة فى نفسه وقام بعزل صدر الدين .

الوزير تاج الدين مشيرى :

[٢٥٣] كان مشيرى ماكراً كثير التزوير ، وقد ظل يعمل فترة طويلة وزيراً ونائباً للشاه محمود ، ومن الثابت أنه فى عام ٧٧٠ هـ فكر الشاه شجاع فى مصاهرة السلطان أويس — وكان حاكماً على آذربايجان وبغداد — وأوكل تنفيذ ذلك الأمر للأمير اختيار الدين حسن قورجى وكان يمتاز على جميع أفراد الدولة باللياقة وحسن التصرف ، وبناء على هذا توجه الأمير إلى تبريز ، ولما بلغ هذا الخبر الشاه محمود فكر هو أيضاً فى مصاهرة السلطان أويس ، وقرر أن يتولى تنفيذ هذا الأمر وزيره تاج الدين ، فقال له تاج الدين :

« لو أن الملك يتواضع فى مخاطبته أيضاً للسلطان أويس ويبتعد عن أسلوب التكبر والعظمة ، فإننى أتعهد بألا أترك للأمير اختيار الدين حسن الفرصة للحصول على العروس المطلوبة ، وآتى أنا بابنة السلطان أويس من آذربايجان إلى أصفهان عروساً للملك !؟ » فأكد الشاه محمد بأنه سوف يوقع على أية رسالة يكتبها الوزير

تاج الدين ، ولن يعدل مطلقاً فيما سوف يكتبه حول ذلك الموضوع ، وحينئذ كتب الوزير رسالة على لسان الملك مصدرة بهذه العبارة « العبد فما فى يده كان لمولاه »

وما نحن فيه من خيرك ، وكل ما نملكه ملكك ، وهكذا فى كل موضع من رسالة الشاه محمود تعبيراً ينم عن الطاعة والولاء والتواضع وضمنها عبارات مناسبة ، كما حمله معه ألوان التحف والهدايا ، واتخذ سبيله لأداء هذه المهمة وبعد وصوله إلى بلاط السلطان أويس ، قدم الرسالة بعبارات لائقة ، وبطريقة مهذبة ، وأثر فى [٢٥٤] أمراء الدولة وأعيانها بقوله : « إن هدف الشاه شجاع من هذه الزيجة هو التدخل فى شئون ولاية أذربايجان والسيطرة عليها بأسرع ما يمكن وأما هدف الشاه محمود فهو أن يظل طيلة عمره محتفظا بولائه وإخلاصه للسلطان ، ويعمل بمساعدته على السيطرة على ولاية فارس وإدخالها فى حوزة الديوان الأعلى » وظل تاج الدين يلازم الأمراء دائماً والمقربين ويمنيهم بوعود جذابة ، ولكن الأمير اختيار الدين حسن — لأصالة منبته ، واعتداده بنفسه — لم يكن يختلط بالأمراء إلا قليلا كما كان الشاه شجاع قد بدأ رسالته أيضاً التى كتبها للسلطان أويس بقوله : « منى إلى أخى ... » وقد حال الجميع فى بلاط السلطان أويس إلى كلام الوزير تاج الدين والرغبة فى مصاهرة الشاه محمود ، فحينما تشاور السلطان أويس مع الأمراء والأعيان فى هذا الموضوع قالوا له مجمعين : « رغم أن الشاه شجاع يتفوق على الشاه محمود فى القوة والهيبة واتساع الدولة ، إلا أن الشاه محمود — لتواضعه وولائه ولمجاورة ولايته لآذربايجان — يكون الارتباط معه أفضل ! » وحازت هذه الكلمات القبول فى نفس السلطان ، ورحب بالوزير تاج الدين وأحسن استقباله ورعايته ، وعاتب السلطان أويس الأمير اختيار الدين حسن وقال له : لقد استهل الشاه شجاع رسالته بقوله « منى إلى أخى » ، فلو أنه تواضع فى رسالته لما نقص شئ من سلطنته ، وأنا الآن لن أزوج ابنتى لأخى ، وسأزوجها لغلامى وتابعى » فلا عجب أن عاد الأمير اختيار الدين بعد ذلك يائسا ، وتمكن الوزير تاج الدين بحسن تدبيره — من [٢٥٥] العقد على ابنة السلطان أويس زوجاً للشاه محمود ، وعاد إلى إصفهان مقضى المرام ، وقد نظم الشاعر سلمان الساوجى هذه الأشعار فى تلك المناسبة :

(سبعة أبيات ، ترجمتها) :

— لقد أقامت السماء عرسا في الآفاق

— وأى عرس هذا الذى سعدت به أطراف الممالك

— حبذا العرس والسرور الذى لو لظرته

— وجدت هالة كوكب الزهرة برجاً من ذلك العرس العالى

— وهكذا شاء القدر أن يلتقى القمر بالشمس

— ويتصل الملاك بالحور

— فكأنما أعاد الزمن نفسه ونقل عرش بلقيس

— إلى قصر الملك !

— قطب الدين شاه محمود الرفيع المكانة كالملك

— الذى هو حصيلة السيرة المحمودة والمحامد المذكورة

— ولقد بذل الوزير تاج الحق والدين محمد

— مساعى كثيرة فى هذا الموضوع يحمد عليها

— حيث أتى إليك بجوهرة من بحر العظمة

— لا يمكن العثور على مثلها على مر الدهور والأيام ؟

والخلاصة أن الشاه محمود قد جعل الوزير تاج الدين موضع عنايته واهتمامه أكثر من ذى قبل السبب هذه [٥٢٦] الخدمة الجليلة وأعلى مكانته إلى عنان السماء وفى عام ٧٧٦ ﻫ توفى الشاه محمود ، وبوفاته انتهت وزارة تاج الدين ... وحقاً فلابد لكل بداية من نهاية ، ولكل عرس من مأتم ؟

وزراء سلاطين المغول

أنه لمن الثابت عند كبار المؤرخين أن نسب السلطان الفاتح جنگيزخان يتصل بيافث - أكبر أبناء سيدنا نوح عليه السلام - ومنذ وفاة يافث إلى يومنا هذا وحكم ديار المشرق وتركستان يرتبط بتلك الأسرة العظيمة، وفي عصر منكوقا آن بن تولى خان بن جنكيزخان عبر هولاكو نهر جيحون في شهر ذي الحجة عام ٦٥٢ هـ ، وسيطر في أقصر وقت على ولايات خراسان وسيستان ومازندران وشروان وأران وفارس وأذربيجان والعراق العربي والعجمي وبلاد الروم، وقد تولى الحكم في تلك الدولة ستة عشر شخصاً من أسرة تولى خان أسماؤهم كما يلي :

١ - هولاكوخان بن تولى خان

٢ - أباقا خان بن هولاكوخان

٣ - السلطان أحمد بن هولاكوخان

٤ - أرغون خان بن آباقا خان

٥ - كيخاتوخان بن آباقا خان

٦ - بايدوخان بن طرغاي بن هولاكوخان

٧ - السلطان محمود غازان بن أرغون خان

٨ - الجايتو سلطان بن أرغون خان

٩ - [٢٥٧] السلطان أبو سعيد بن بهادرخان بن الجايتو سلطان

١٠ — أريا خاف الذى كان من نسل أريق بوكا بن تولى خان

١١ — موسى خان بن على بن بايدوخان

١٢ — محمد خان بن يولقتلق بن التيمور بن أنبارجى بن منكوتيمور ابن هولاكوخان

١٣ — طغا تيمور خان

١٤ — ساتى بيك بنت السلطان محمد خدابنده ؛

١٥ — سليمان خان الذى كان من أولاد يشمت بن هولاكو خان

١٦ — أنوشيروان خان

وفيما يلى ما تيسر للعبد الفقير — كاتب هذه السطور — الإلمام به من أخبار وزراء السلطان جنگيزخان فاتح العالم وخلفائه الأمجاد .

الوزير الصاحب محمود بلواج :

كان الصاحب خوارزمى الأصل ، ثم رحل عن وطنه الأصلى فى عصر السلطان محمد خوارزمشاه والتحق بخدمة جنگيزخان ، وبعد فترة من الوقت توجه بناء على أوامر جنگيزخان — بصحبة جماعة من رجال البلاط حاملا رسالة إلى السلطان محمد لتمهيد طريق الصلح معه ، فقدم الرسالة للسلطان بأطيب الكلمات ، وخص السلطان الرسل بترحيب بالغ ثم طلب الصاحب محمود واختلى به وقال له : إنك رجل مسلم ويلزم أن تجيبنى بصدق وإخلاص عما سوف أسألك عنه ولا تخف منه شيئاً ؟ [٢٥٨] وحينئذ أخرج من الخزانة جوهرة ثمينة وقدمها لمحمود ثم سأله قائلا : هل استولى سلطانكم على بلاد الخطا أم لا؟ فأجابه محمود بقوله : بعزة الله — سبحانه وتعالى — استولى جنگيزخان على بلاد الخطا ! وسوف يظهر قريباً جداً لجلالتكم صدق حديثى « كالبدر فى الدجى والشمس فى الضحى » فقال له السلطان : يا محمود « إنك تعلم إلى أى مدى وصلت حدود دولتى ، وإلى أى درجة بلغت قوتى وسطوتى ، فمن يكون سلطانك هذا الذى يكتب إلى بقوله « يابنىّ » ويتحدث إلى من مركز الأقوى ! وضح لى مقدار جيشه وعتاده ؟ فخاف محمود بلواج بسماع هذا الكلام ، ورد على السلطان ببعض الكلمات الملفقة الكاذبة حيث قال له : إن

جنود جنكيزخان بالنسبة لجنود سلطان العالم – التي لا حصر لها – مثل ضوء الشمعة أمام ضوء الشمس التي تنير العالم ، ومثل ظلام الليل أمام نور النهار .

(أربعة أبيات ، ترجمتها) :

– إنك مثل الشمس ، حينما تبزغ
– تختفي النجوم خلف الحجاب
– ومثل الأسد ، حينما يهم للصيد
– يقتنص فريسته أينما كانت
– وهو مثل العصفورة ، يتقاتل مع
– الصقر فيجلب على نفسه الهلاك
– ومثل الحمامة ، تحاول التصدى
– للعقاب الكاسر فيلتهمها بسرعة

فهدأ غضب السلطان بقوله هذه الكلمات ، وبذلك أمن محمود يلواج بطشه وغضبه ، وتم إبرام [٢٥٩] عقود الصلح والاتفاق بين الجانبين ، وعاد محمود يلواج محققاً هدفه هو وباقى الرسل ، فجعل جنكيزخان محموداً موضع عنايته واهتمامه ، وأسند إليه منصب الوزارة . وبعد وفاة جنكيزخان أسند أوكتاى قاآن أيضاً ذلك المنصب للصاحب . وجاء فى روضة الصفا ما يأتى : حينما تيسر لأوكتاى قاآن فتح ولاية خطا ، أسند إلى الصاحب محمود حكم تلك الولاية ، وبعد وفاة قاآن ، بادر كيوك خان بالتصديق على أمر والده العظيم ، كما كلف أيضاً منكوقاآن – حسب الأوامر السابقة – الصاحب بحكم تلك المدينة ، وظل الصاحب يدير دفة الحكم فى تلك الولاية إلى أن رحل إلى العالم الآخر .

الوزير مسعود بيك بن محمود يلواج :

كان مسعود بيك يتولى الحكم فى ولايتى ما وراء النهر وتركستان ، ولما استولى ألغو – حفيد جغتاى خان – على هاتين الولايتين ، أسند منصب الوزارة إلى مسعود بيك ، فنشر مسعود بيك العدل والطمأنينة ، وبذل جهداً كبيراً من أجل راحة الرعية وإقامة المبانى وزيادة الرقعة الزراعية .

بيت ، (وترجمته) :

— لقد كافح كثيرا فى سبيل العدل والإحسان

— ولم يشك منه أحد فى البلاد

وفى عام ٦٦٠ ه أوفد براق خان الأمير مسعود بيك رسولا إلى أباقاخان حتى يؤكد له إخلاصه واتحاده معه [٢٦٠] فى الظاهر ولكن الهدف الحقيقى من إرساله هو جنوده والاطلاع على مسالك تلك الولايات .

وقد عبر مسعود بيك نهر آمو بعزم قاطع ، وقلب جرئ قوى ، وطوى المنازل والديار بأسرع ما يمكن ، وترك فى كل منزل من المنازل — من قبيل الحزم والاحتياط — حارساً وجوادين سريعين ، ولما اقترب من الوصول إلى المكان المقصود سارع الوزير شمس الدين محمد — رئيس ديوان آباقاخان — بصحبة الأمراء والنواب لاستقباله، وعند ملاقاته هبط الوزير من على ظهر جواده — برغم تكبره — وقدم له واجبات التحية والاحترام، أما مسعود فقد ظل راكباً كما هو وتجاهل تحية رئيس الديوان وقال له على سبيل الاستهزاء : هل أنت رئيس الديوان ؟ فتألم الوزير شمس الدين كثيراً من هذا المسلك لأنه كان يظنه أنه سيكون واحداً من رجاله الأكفاء ، ولكنه نظراً لأن المجال لا يسمح بالأخذ والرد ، فقد آثر السكوت. وعندما دخل مسعود بيك مجلس السلطان آباقاخان ، نظر إليه السلطان بعين الاهتمام ، وأجلسه فى مكان مقدم على جميع الأمراء ، وقدم مسعود الرسالة للسلطان بعبارات طيبة وبطريقة محببة ، فحظى بمزيد من العناية السلطانية، ونظراً لأن مهمته كانت قائمة على المكر والخديعة ، فإنه لاحظ بعد مرور بضعة أيام أثر مكره السيء ، فسارع بطلب الإذن له بالعودة ، فأذن له آباقا خان ، وامتطى مسعود بيك على الفور ظهر جواده الذى هو كالبرق فى سرعته ، ولم يتوقف — كفلك الأفلاك عن المسير [٢٦١] لحظة واحدة، وفى اليوم التالى جاء خبر من خراسان يفيد بأن براقا يجهز نفسه للحرب والقتال ، وكانت مهمة مسعود بيك بقصد التجسس ، فلاجرم أن أرسل آباقا خان — على وجه السرعة رسولا للحاق به وإحضاره ، وهيهات أن يجده أحد : فكان مسعود بيك قد ركب الجياد المجهزة الواقعة فى كل منزل يصل إليه لأنه كان رجلا عاقلا مدبراً ، لم يعط فرصة للتأنى أو التأخر وسار بسرعة

يعجز عن مثلها الفلك . وقد وصل مسعود إلى شاطىء نهر جيحون — على قول صاحب تاريخ الوصاف — فى ظرف أربعة أيام ، ولما عبره كالريح ووصل إلى براق عرض عليه كل ما كان قد رآه ، فقرر براق فتح خراسان والعراق وأمر بتخريب ونهب بخارى وسمرقند لتدبير لوازم الجنود وضروريات السفر ، فقال له الوزير مسعود بيك : « إن تخريب ولاية تابعة للسلطان من أجل فتح ولايات أخرى ، إنما هو أمر بعيد عن مقتضى العقل والكياسة فالواجب رعايتها حتى إذا — لاقدر الله — حدثت هزيمة ، أمكن لرعاياها ترتيب استقبال الجنود وخدمتهم ! »

(بيت ، ترجمته) :

— اسع كى تستطيع تحقيق كل ما تتمناه

— وعليك أن تعمل على تحسين أحوال الرعية

فغضب براق من هذا الكلام وأمر رجاله بأن يضربوا مسعوداً سبع ضربات بالعصا ، ولكنه صرف النظر عن نية النهب والسلب ،وبعد أن دارت الحرب بين آباقا خان وبراق وهزم فيها براق ، تركه [٢٦٢] مسعود بيك وانضم إلى قيدوخان ، وفى النهاية مثل براق أمام قيدوخان فقتله ، وحينئذ نشب خلاف بين قيدوخان وأبناء براق ، ولهذا السبب أعملوا التخريب فى بلاد ماوراء النهر وخصوصاً بخارى ، وبلغت هذه الأخبار إلى آبا قاخان ، وقام شمس الدين محمد رئيس الديوان — لما كان فى نفسه من حقد على مسعود بيك — بتحريض السلطان على إرسال جيش قوى بقيادة « أفسك التركمانى » إلى ماوراء النهر ، فعبر أفسك بجيشه من نهر آمويه ، وأعمل الحرائق والظلم فى ولاية بخارى ، وأحرق مدرسة مسعود بيك — وكانت أكبر بقاع بخارى — بمكتبتها النفسية ، ولما عاد هؤلاء الجنود ، فظهر أناس فى تلك البلاد وبدءوا أعمال الزراعة والتعمير وظهر لهم — مرة أخرى — أولاد براق وأكثروا جراح هؤلاء المساكين ، وبلغ تخريبهم فى تلك الولاية — هذه المرة إلى درجة أنه لم يظهر أثر بعد ذلك لساكن أو حى فى تلك البلاد لمدة سبع سنوات ، وفى ذلك الوقت أرسل قيدوخان مسعود بيك إلى بخارى لتعميرها ، فقام بتجميع رعاياها المشتتين — بفضل كفاءته وخبرته وصارت بخارى — بعدله وإنصافه — مجمعاً للأشراف والعلماء مرة أخرى ،

(بيت ، ترجمته) :

— لقد هرع الناس إلى ذلك الحاكم

حيث وجدوا عنده الأمان من الظلم

وهكذا ظل مسعود بيك معززاً دائماً عندسلاطين ماوراء النهر إلى أن انتقل إلى جوار ربه .

[٢٦٣] الوزير الأمير احمد البناكتي : (١)

كان أحمد البناكتي وزيراً لقوبلاقاآن بن تولي خان بن هولاكوخان(٢) ، وكان يبدى اهتماما كبيراً بتقوية المسلمين ، ورعاية شئون أمة خير الأنام — عليه الصلاة والسلام — وقد جاء في كتاب روضة الصفا ما يلى : لقد وضع قوبلا قاآن زمام أمور الوزارة في قبضة أربعة أشخاص أكفاء ، لم يكن أى منهم يتفق مع آخر في المذهب ، حتى لا يتم الاتفاق فيما بينهم — بسبب اختلاف — العقيدة ويكون في ذلك ضمان لصون أموال الدولة وحراستها من الخيانة ، وكان من بين الوزير الأربعة الأمير أحمد البناكتي وآخر من أهل خطا . ونظراً لامتياز الأمير أحمد وتفوقه على سائرالوزراء ، كان القاآن ينظر إليه نظرة إعزاز وتقدير ولم يكن يتجاوز حدود رأيه الصائب في الفصل من أمور الدولة ، فحقد عليه الوزير الخطائي ، وأخذ يتحين الفرصة للعمل على عزله ، وفى الوقت الذى ذهب فيه قاآن من عاصمة ملكه إلى المصيف وترك الوزراء يدبرون أمور الدولة في العاصمة اتفق الوزير الخطائي مع أتباعه على القضاء على الأمير أحمد في الخفاء ، وعلم رجال الأمير أحمد بحقيقة الأمر ، وأخبروه بذلك ، فأخذ الأمير أحمد في نفس الليلة أربعين جوادا — أسرع من الريح — من اسطبل قاآن ، وخرج بها من المدينة ، وحينما وصل إلى مكان يقف عنده حراس الطريق — وكان لابد من عبور أحد الجسور منعوه من العبور ، وأخذوا يتحاربون معه ، وأثناء هذا الجدال كان الوزير الخطائي يجرى في أثر الأمير أحمد ، فلحق به وأمسك بعنان جواده [٢٦٤] وقال له : لقد تركنا قاآن لإدارة شئون الديوان ، وأنت الآن إلى أين

---

(١) نسبة إلى بناكت أو فناكت وهى إحدى مدن ما وراء النهر .

(٢) هذا الاسم خطأ والصواب جنكيز خان .

تذهب دون أخذ المشورة ؟ فأجابه الأمير أحمد بقوله : إنى ذاهب لملاقاة قاآن بناء على طلبه ! وفى تلك الأثناء كانت هناك جماعة من رجال قاآن قادمة من المعسكر إلى المدينة ، ووصلت إلى نفس الجسر ، فاستغاث بهم الأمير أحمد، وخلصته تلك الجماعة من مخالب الوزير الخطائى ، وتوجه الوزير أحمد مسرعاً إلى معسكر السلطان ، وكان معه طبق أسود ملىء باللؤلؤ الأبيض ، وضع فوقه خنجراً وغطاه بالحرير الأحمر وقدمه للسلطان العادل ، فسأله قاآن بقوله : ما السبب فى ترتيب هذا ؟ فأجاب قائلا : عندما التحقت بخدمة قاآن كانت لحيتى سوداء مثل هذا الطبق ، ومكثت فى خدمته حتى صارت بيضاء مثل هذا اللؤلؤ ، والآن يريد الوزير الخطائى بهذا الخنجر أن يجعل حلقى مثل هذا الحرير الأحمر ، فاشتد غضب قاآن بسماع هذه الأقوال وأمر باستدعاء الوزير الخطائى — وكان الرسل قد أخبروا الوزير الخطائى بما حدث قبل مجيئه — فلجأ إلى قلعة كانت تحت سيطرة نواب أمبراطور الصين فاستبشر أهالى القلعة بمقدمه وتقووا بوصوله . فأمر قاآن أن تقوم جماعة من الأمراء بمحاصرة تلك القلعة ومعهم طالب المنجنيقى — الذى جاء فى ذلك الوقت من بعلبك وكان صاحب مهارة فائقة فى ذلك الفن — وتوجه الأمراء حسب أوامر السلطان إلى ذلك الحصن الحصين ، وأقاموا استحكاماتهم حوله ، وبعث الوزير الخطائى — سرا — برسالة إلى الأمراء يقول فيها : « إننى لم أرتكب ذنبا جسيما . وكل ما هنالك أنه نظراً للعداوة التى غالباً ما تكون بين أصحاب المناصب ، كنت أنا والأمير [٢٦٥] أحمد يحاول كل منا دائماً الإيقاع بالآخر ، وقد واتته الفرصة وجعل السلطان قاآن يتغير من ناحيتى والآن لو يضمن لى الأمان ، فإننى يمكننى تسليمه هذه القلعة التى يتحصن بها جماعة من أهل الصين » وبعث الأمراء برسالته على الفور إلى قاآن ، فبعث قاآن برسالة أمان وسيف إلى الوزير الخطائى ، فاطمأن الوزير وتحين الفرصة ، وفتح ثغرة فى حائط سور القلعة ، ولما علم حاكم القلعة بهذه المكيدة ولى هارباً يجر أذيال الهزيمة ، ودخلت تلك القلعة فى حوزة رجال قاآن ، ولما وصل الوزير الخطائى إلى السلطان ، أسند إليه السلطان مرة أخرى منصب الوزير بالاشتراك مع الأمير أحمد . وبعد مرور تسع سنوات على هذه الحال ، اشتعلت نيران حسد الوزير مرة أخرى واتفق مع أحد متزهدى الخطا على قتل الأمير أحمد وانتهت حياته هو أيضاً فى تلك الواقعة .

(بيت ، ترجمته)

— يقبع الشر والأذى دائماً — فى نفس الشرير

— مثل العقرب قلما يشاركها أحد فى بيتها

وتفصيل هذا المجمل هو أنه فى ذلك الوقت كان قد ظهر مارق فى ولاية خطا ، صير — بأساليب المكر والشعوذة — جمعاً غفيراً من أهالى تلك الولاية مريدين وأتباعا له ، واتفق معه الوزير الخطائى على القضاء على الأمير أحمد وتقرر — فى الوقت الذى كان فيه قاآن فى المصيف — أن يذهب ألفا شخص من أتباع ذلك المتزهد إلى واد على بعد أربعة فراسخ من مدينة « خان باليق » على أن يدخل ألف منهم المدينة متتابعين [٢٦٦] يصيحون قائلين : « إن الأمير جيمكيم بن قوبلاقاآن لقادم ! » وذلك حتى يخرج الأمير أحمد لاستقباله فيتربصون له فى الطريق. والقصة أن الوزير الخطائى ذهب مسرعاً إلى ذلك الوادى متخفياً بين هؤلاء الألفى جاهل ، وأخذ يرسل بكل جماعة منهم تلو الأخرى ، ليشيعوا خبر وصول الأمير جيمكيم ، كما قالت جماعة — من أهل النفاق والتزوير — للأمير أحمد — : إن السلطان قاآن قد رحل إلى دنيا الخلود وسوف يصل الأمير جيمكيم ، وقد بعث بنا إليك لتعد مراسم العزاء على ألا تبوح بهذا السر الخطير أمام أحد» فانشغل الأمير أحمد بتجهيز ما يحتاجه العزاء ، وكان كلما يبعث بأشخاص ليأتوا إليه بميعاد جيمكيم حتى ينهض لاستقباله ، كان الخطائيون يقتلونهم ، ولما لبس الجميع ملابس العزاء وانقضى جزء من الليل ، وأضيئت الشموع والمشاعل ، ونقل الناس خبر قدوم جيمكيم جالساً فى محفته ، خرج الأمير أحمد لاستقباله ، وعندما اقترب من الخطائيين ، التفوا حوله ، وقتلوه ، فأطلق خدم الأمير أحمد — وكانوا يسيرون خلفه مسلحين — سهامهم ، فأصاب سهم منها الوزير الخطائى فى مقتله فقضى عليه هو الآخر .

(بيت ، ترجمته)

— الحقير الذى اللدغ الناس بلسانه

— كثيراً ما يهلك من كثرة اللدغ !

ولما سمع قاآن بهذه الحادثة غضب ، وبعث وهو فى المصيف : بجماعة من

رجاله قبضت على [٢٦٧] مؤيدى الوزير الخطائى وقتلهم ، ثم كفنوا جثة الأمير أحمد ودفنوه فى مكان مناسب به .

الوزير الصاحب السعيد شمس الدين محمد الجويني :

كان من الأبناء العظام لإمام الحرمين حجة الإسلام عبد الملك الجويني ، كما كان يتولى — أبا عن جد — المناصب الرفيعة ، ويتقلد المراتب السامية وقد اشتغل جده الشهير خواجه شمس الدين محمد مستوفياً لديوان السلطان محمد خوارزمشاه ، وبقى له ذلك المنصب أيضاً أيام حكم السلطان جلال الدين ، ونال شهرة فائقة ، كما تولى والده العظيم صاحب دنيا العز والجلال وشمس سماء الفضل والأفضال خواجه بهاء الدين محمد — أسكنه الله سبحانه وتعالى الجنة — نفس منصب والده فى بلاط سلاطين المغول ، وتوفى بعد ذلك مشكوراً له أعماله وآثاره ، ولما عبر هولاكوخان نهر جيحون ، ودانت له جميع ولايات إيران حتى حدود مصر ، أسند منصب الوزارة إلى شمس الدين محمد ، والحقيقة أن جمال حال ذلك الوزير كان قد زينه بأخلاقه الكريمة وصفاته الحميدة مثل كرمه الوافر وسخائه ، وفطنته الزائدة وفصاحته ، وإصابة رأيه وتدبيره وانشراح صدره وانفساح ضميره ، كما كانت له أياد بيضاء فى إدارة مهام الوزارة ، وإضفاء طابع الرونق والانتعاش على دار السلطان ، مثل الوزير آصف بن برخيا ، ووضع نصب عينه فى عهد هولاكوخان — بداية استيلاء المغول على ولايات إيران — المحافظة على [٢٦٨] الدين المبين والعمل على تقوية شرعة سيد المرسلين

(بيت ، ترجمته) :

— لقد أصبحت الشريعة النبوية

— قوية بفضل سعيك وكفاحك

ولما توفى هوكولاخان ، عتلى العرش الخانى آباقا خان ، فأحاط هذا الوزير العظيم بمزيد من العناية والرعاية أكثر من ذى قبل — وأنعم عليه بالسعادة والإقبال ، وترك له الانفراد بتدبير أمور الوزارة برأيه الصائب وفكره المستنير . وكان الوزير بالرغم من قوته وهيبته — يتملق أهل العلم والفضيلة ويتواضع معهم كثيراً ،

كما كان يبالغ جداً فى احترامهم ، فأينعت براعم خميلة هذه الطائفة بفيضه وإنعامه ، ونمت وترعرعت أمانيهم ورغباتهم فى بستان الدنيا ، وظهرت واتضحت — خلال وزارته مكانة الفضلاء على الوضعاء ، والعلماء على الجهال ، وبفضل عنايته وحسن رعايته امتنع الفلك الغادر كلية عن إيذاء الفضلاء ، ومجافاة العلماء .

(بيت ، ترجمته)

— لقد أينعت بساتين السعادة فى
—، عهده وانتهت المؤامرات والمحن

[٢٦٩] وعين نواباً كافين فى جميع أنحاء ولايات دولة المغول لضبط أموال وممتلكات الديوان ، وأمرهم بفتح أبواب الصدقات والمساعدات ، للمستحقين وأصحاب الحاجات ، فلا عجب بعد ذلك أن جعله أمراء وحكام العالم وأعيان خراسان والعراقيين وأهل فارس وأذربيجان وبلاد الروم والشام ملجأ وملاذا لهم ، واعتبر الجميع أعتابه السعيدة مقصداً لقضاء الحاجات ، وكعبة لتحقيق الطلبات ، وملاذا لذوى الأسرار ، وقبلة لكل محتاج .

بيت عربى :

جنابه مثل روضات الجنان ومنه ينال غايات الأمانى

وكل من عصاه من عظماء الدين وسادتها وخرج عن طاعته ، أغرقته قوة الصاحب فى بحار الحيرة ، وأنزل به العقاب جزاء ما فعل .

(بيت ، ترجمته) :

— كل من لايكون معك مستقيما كالسهم
— كانت عاقبته الإصابة بسهمك الفتاك

وقد تولى علاء الدين عطا ملك — شقيق الوزير شمس الدين محمد الصاحب وكان فريد عصره فى العلم والمعرفة ، ومن مؤلفاته كتاب « تاريخ جهانگشاى » — الحكم فى ولاية بغداد بأمر السلطان آباقا خان ، وقد غمر تلك البلدة فى فترة قصيرة من الزمن ، وكانت قد خربت بعد قتل المستعصم إلى درجة يصعب على القلم التعبير عنها .

[٢٧٠] (بيت وترجمته)

— لقد عمرت مدينة بغداد

— بمقدمه خلال فترة قصيرة من الزمن

وأبناء الوزير شمس الدين محمد هما خواجه بهاء الدين محمد وخواجه شرف الدين هارون ، وقد بذلا جهداً كبيراً فى بداية حياتهما وعنفوان شبابهما فى تحصيل الفضائل والكمالات الإنسانية ، ولكن خواجه شرف الدين هارون تفوق على أخيه وأصبح ماهراً فى شتى العلوم . ومتبحراً فى معظم الفنون ، وتلقى علومه الموسيقية على يد الأستاذ صفى الدين عبد المؤمن ، وكان الأستاذ لايفارقه وظل ملازماً له ، وقد ألف «الرسالة الشرفية » فى ذلك الفن باسمه الشريف. وأما خواجه بهاء الدين محمد فقد تولى فى بداية نشأته الحكم فى إصفهان ويزد — بأمر السلطان — فتجاوز بطشه وإظهاره لمقدرته وسطوته حدود العقل فى بوسون ، وأغلق تماماً أبواب العفو والمعذرة فى وجوه أهالى تلك الولايـــة ، وسلك معهم مسلك الغلظة ، وحطم قلوب المظلومين بتحميلهم مالا يطيقونـــه ، ولو أن قولا بسيطاً — لايؤثر فى صغيرة ولاكبيرة — يصل إلى مسامعه ولايكون على هواه . فإنه كان يدمر الديار ويجعل أموال المسلمين وأرواحهم هباء منثورا . وحينما كان أركان الدولة ونواب الديوان وسائر أعيان أصفهان يركنون للراحة لحظة من الليل ، فانهم كانوا يهبون مرتعدين خائفين على أرواحهم عند أول نسمة من نسمات السحر مثل أوراق الصفصاف الخائفة من الرياح الصرصر العاتية ، قائلين بينهم وبين أنفسهم : «بأى وسيلة يمكن لنا اليوم النجاة من قهره وجبروته ! ومن هو المسكين — من أهالى هذه [٢٧١] الديار — الذى سيكون عليه الدور ليحرق بنيران غضبه !» وقد كان الأسد الجسور يلعب — فى أيامه — مع الثعلب المسكين خوفاً من عقابه ، كما استقام عتاة اصفهان خوفاً من خنجره الفتاك ، وقالوا عنه :

(رباعى ، ترجمته) :

— كانت الدنيا ترتعد خوفاً من عقابه

— كما كان الزمن يرتعد أيضاً من فرط مهابته .

— وكانت الشمس ترتجف من سيفه الفتاك

— كما ترتجف أوراق الأشجار أمام رياح الخريف العاتية

وكان صاحب الديوان كثيراً ما ينهى والده — من قبيل الشفقة الأبوية عليه — عن التمادى فى سفك الدماء، ويوضح له بطرق مختلفة العواقب الوخيمة التى سوف تنجم عن تلك التصرفات غير اللائقة، ولكن بهاء الدين لم ينته أبداً ولم يتخل مطلقاً عن سياسة التدمير وسفك الدماء :

(مصراع ، ترجمته) :

— « دعاء الأب لا يمنع تمزق الجنين فى بطن أمه »

وفى النهاية طوى الدهر مواهبه ، وحطمت الأمراض المختلفة صحته ، وانتقل وهو بعد لم يتجاوز الثلاثين من عمره من عالم الفناء إلى دنيا الخلود والبقاء :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— وا أسفاه من شدة هذا الألم القاتل

— وا وأسفاه من تقلب هذه الدنيا المحبة للجور

— فقد تخلت عن الشخص الذى احتضنته طويلا

— وحطمت الجواهر التى نظمتها على مر السنين

وقد جاء فى كتاب روضة الصفا « أن الجهد الذى بذله خواجه بهاء الدين محمد فى تطبيق أسلوب العقاب والانتقام ، قد بذل ضعفه فى نشر الجود والسخاء بل إنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أجل[٢٧٢] تعظيم الفضلاء والعلماء إلا واهتم بها وكان يقسم أوقاته كالتالى : يجلس لتناول الشراب من الصباح حتى الضحى بصحبة جماعة من أصدقائه وإخوانه ، ثم يقضى بعد الظهر ساعة يتعاطى خلالها كئوس الخمر الحمراء مع أفاضل زملائه ، ثم يقضى أوقاته فى تدبير أمور البلاد والتعرف على أحوال العباد . » والخلاصة أنه لما بلغ خبر وفاة خواجه بهاء الدين محمد مسامع صاحب الديوان ، قام بنظم هذا الرباعى يرثى فيه قرة عينه :

(رباعی ، ترجمته) :

— ابنی محمد یا حارس الفلك !

—، لا أرى الآن فی الدنیا ما یساوی شعرة منك !

—، فلقد كنت ظهر والدك لذا فقد انحنى

—، من بعدك فصار كحاجب الحسناوات !

ومن الموثوق فی صحته أنه بعد وفاة خواجه بهاء الدین محمد ، أخذت أحوال صاحب الدیوان تضمحل ، وفتح الدهر الغادر أبواب التشتت والعذاب أمام الصاحب وأخیه علاء الدین عطا ملك .

(بیتان ، ترجمتهما) :

— لم أجد على جدول روضة الأمل طیلة حیاتی

— غصنا أخضر أو یانعاً

— ولم أجد قمراً منیراً ولا نجماً ساطعاً

— وإلا أصابته وصمة الزوال

والواقعة التی أصابتهما هی كما یلی : كان مجد الملك الیزدی بن صفی الملك أبی المكارم — أحد وزراء أتابكة یزد — قد غضب لسبب من الأسباب من الأتابك یوسف شاه الیزدی وتوجه إلى أصفهان ، [٢٧٣] وعمل مع خواجه بهاء الدین محمد ولكنه حینما وجده مدللا حاد الطباع سارع للعمل مع الوزیر شمس الدین محمد ، فعهد إلیه الصاحب ببعض أعمال الدیوان ، وقام مجد الملك بتسییر تلك الأعمال على ما یرام ، وفی النهایة لاحظ الصاحب فی تصرفاته علامات النفاق ، وزاد علیها سعایات الحساد ، فتغیر علیه الوزیر ولم یصفح عنه مهما توسط له الشفعاء ، ومهما قدم إلیه من التماسات ، ولم یحظ مجد الملك بعد ذلك برعایة الصاحب . وعنایته .

(قطعة بیتان ، ترجمتهما) :

— لا تجعل لك من أهل الفتنة صدیقاً ولا جلیساً !

— والذین ینظرون إلیك بعین الفتنة یمكن أن تتقیهم من نظرك ، كما یقول المثل :

والخلاصة أن مجد الملك أخذ يصل الليل بالنهار والنهار بالليل بين اليأس والحرمان وأخذ يتردد على الأمراء يشكو إليهم حاله ، ويوطد علاقته بهم . وكان دائماً يلم بأحوال الملك والمال ويحفظ تفاصيلها فى ذاكرته ، وذات يوم خلال تلك الأوقات كان مجد الدين بن الأثير — نائب علاء الدين عطا الملك — قد ذكر جانباً من عظمة حاكم مصر وكثرة جند تلك الديار ، فسلك مجد الدين الملك سبيل الخيانة وأبلغ آبا قاخان — بواسطة أحد المسئولين — بأن مجد الدين بن الأثير أحد خاصة شقيق صاحب الديوان ، يقوم بالاتصال بالمصريين بناء على تعليمات الأخوين وبموافقتهما ، ويتحدث فى المجالس دائماً بالثناء على سلطان مصر ، فاشتعلت نيران غضب السلطان بسماع هذا الحديث وأمر بالقبض على مجد الدين بن الأثير وتعذيبه ولكنهم مهما كانوا يعذبونه فانه لم يعترف بشىء مما ادعاه مجد الملك وعندئذ سلموه للصاحب .

ولما رأى الصاحب إصرار مجد الملك وعناده ، عينه مسئولا عن ضبط أموال ولاية سيواس وأنعم عليه بمبلغ من المال ولكن مجد الملك — من جراء الفعلة الدنيئة التى كان قد ارتكبها — لم يأمن من جانب الصاحب بهذا التعيين ، وبدأ يفكر فى أعمال المكر والخديعة ، ويتحين الفرص ويعقد الصداقات ، ويقيم الصلات مع أعداء الصاحب إلى أن جاء الأمير أرغون خان لمقابلة والده ، فتمكن مجد الملك بمساعدة أباجى — أحد نواب الأمير — من مقابلة أرغون خان وقال له : « إن الأموال الكثيرة التى ترد للخزانة العامرة من مختلف أرجاء المعمورة ، إنما هى من عائد الأملاك الخاصة بنواب صاحب الديوان التى اشتراها — بطريق الخيانة بأموال السلطان ، ورغم ذلك فهو ينكر النعمة ويسلك سبيل المحبة والإخلاص مع سلاطين مصر والشام ، كما تصور شقيقه علاء الدين عطا ملك بأن ملك بغداد والعراق العربى ملكاً خالصاً له ، وأعد لنفسه — كعادة الملوك العظام — تاجاً مرصعاً . فلو يسمح لى السلطان فإنه يمكننى أن أثبت على [٢٧٥] صاحب الديوان أنه اشترى لنفسه أملاكاً مايقرب من أربعة آلاف تومان من أموال السلطان . بالإضافة إلى مايقدر بمبلغ ألفى تومان أخرى فى حوزته من النقود والجواهر والأغنام ، ونظراً لأنه يعلم أننى أقف على عيوبه ، فها هو منشور أصدره باسمى لتولى ضبط أموال ولاية سيواس ، كما أنه بعث إلى مبلغ من المال كرشوة »

وقد أصغى الأمير أرغون خان لعدة الأقوال المختلفة بعين الرضاء ونقل بعضاً منها إلى أبيه وهو منفرد به ، فقال له آباقا خان : لا تفش هذا السر حتى تتضح حقيقته تدريجاً .

(بيتان ، وترجمتهما) :

– لا تتسرع فى أمر يهمك
– ولا تبتعد عن سبيل الأناة والتعقل
– لأنه فى التأنى السلامة
– وفى العجلة الندامة

وبعد فترة قليلة من هذه المحادثة وجد مجد الملك طريقه إلى مجلس السلطان وقال له الأقوال المذكورة مباشرة ، وقد استقرت أقوال مجد الملك فى نفس السلطان فتغير السلطان على وصاحب ، وصار مجد الملك موضع رعايته وعنايته وقد ناوله آباقا خان بنفسه كأساً فى ذلك المجلس وسأله عن أحوال جميع الولايات الخرب منها والعامر ، فأجابه عن أحوالها بعبارات منمقة استطاع بها جذب انتباه السلطان ، وقد أمر السلطان بأن يشرف مجد الملك على أموال السلطنة ويراجع حسابات السنوات الماضية ، على أن لا يتدخل فى عمله أحد قط من الأمراء أو المقربين .

وخلاصة القول أن مجد الملك الذى شملته عناية السلطان ، قد ارتفع فى لحظة واحدة من حضيض الانحطاط إلى أوج الارتفاع ، وخصص له السلطان الغلمان الحسان بملابسهم المزركشة ، والفرسان بجيادهم العربية والشامية والحجازية السريعة ، كما خصص له أربعين خيمة كبيرة لمعسكره ، ومفروشات حريرية لبلاطه ، وأقام له قصرا يناطح السحاب .

(قطعة ثلاثة أبيات ترجمتها) :

– هذه حالة من حالات الدهر
– رأيت الطيب والردىء يمر بها
– ورأيت كلاماً نقش كماء الذهب
– بقلم الشمس فوق هذه الصفحة البيضاء كالميناء ..

ويقوله : يامن صرت قويا بالجاه بضعة أيام

— لا تغتر لأنى رأيت أعظم منك !

وقد سارع الرسل كالرياح للاتيان بوكلاء ونواب صاحب الديوان الذين كانوا فى تبريز وعلم الصاحب ورجاله بأن سهم الأعداء قد أصاب هدفه بمجىء مجد الملك ، فلا جرم أن استولى الحزن على نفس الصاحب الطاهرة ، وفترت همته عن تدبير أمور الديوان ، وإنجاز لهم السلطان ، وفى تلك الأثناء نظم مجد الملك هذا الرباعى وبعث به إلى الصاحب :

[٢٧٧] (رباعى ، ترجمته):

— أريد أن أغوص فى بحر أحزانك

—، فإما أن أغرق وإما أن آتى بالجواهر

— فأنت الخصم القوى إما

—، أن تقتلنى وإما أن أقتلك

ولما قرأ صاحب الديوان ذلك الرباعى ، نظم هذا الرباعى رداً عليه :

(رباعى ، ترجمته) :

— لا يليق بى التهجم على السلطان

— وعليك مواجهة تقلبات الزمان

— فهذا العمل الذى أسنده إليك

— إما أن تقتله وأما أن يقتلك !

والخلاصة أنه حينما التقى صاحب الديوان — والحزن والغرابة بادية عليه — بالسلطان آباقا خان ، عاتبه السلطان قائلا له : إنك فى خدمتنا منذ سنوات طوال ، وقد رعاك والدنا وصرت موضع عطفه وعنايته ، ولما ازدان عرش السلطنة بنا أظهرنا نحوك عطفنا — أكثر من ذى قبل وعهدنا إليك بضبط أموال جميع ولايات السلطنة كما أننا

(بيت ، ترجمته) :

— احترمناك أكثر من الجميع

— وولیناك منصب الوزارة الرفيع

واليوم يؤكد مجد الملك أن إهمالك وتقصيرك كثير ، والخراب دب بدولة السلطان ، وتسببت في ضياع أمواله بصورة لا حد لها .

وقد فهم صاحب الديوان — بماله من خبرة وحنكة — دقة الموقف وصعوبته مستدلا على ذلك من خشونة حديث السلطان ، ووجد أن تكذيبه الآن من المحال ، فرد عليه — بتلقين من ملهم الغيب والسعادة ، وبتأييد من مرشد العقل [٢٧٨] وفصيح البيان — بقوله : « لتكن رأسي ومالي وشخصي وروحي ومتاعي وعائلتي فداء للسلطان كيف يمكن لأحد — بأي شكل من الأشكال — إنكار أيادي السلطان الكريمة ، ومن يجرؤ على التفكير في إطفاء أنواره الساطعة !

فكل حبة أهديت إلينا أنا وأخي وابني أو تملكناها أو ضعناها أو أكلناها أو أخذناها أو حرقناها — أثناء العمل في خدمة السلطان — أو أخرجناها على سبيل الصدقات ، أو ما في حوزتنا اليوم من ضياع وعقار وأملاك وأموال ، ودواب واماء وعبيد إنما كله فيض من إنعام السلطان ! ولذلك فكل ما يرضى السلطان فأنا راض عنه وموافق عليه من كل قلبي ! .

(بيت ، ترجمته) :

— سواء أرهبتني أو بشرتني بالأماني

— فإن كل ما تريده هو مرادي

وكلما تأمر بشيء وكلما تنادي المصلحة ، فإن أمرك ينفذ على الجميع ، وما علينا الا الاستسلام لأمرك ، وليس لنا أن نبدي بأي وجه من الوجوه أو في أي ظرف من الظروف ألوان التباطؤ أو الإهمال ، ومادامت في أجسادنا قطرة واحدة من ماء الحياة ، فإننا نشد بها عزمنا مسرعين لخدمتك وداعين لك » .

(بيت ، ترجمته) :

— مادام الموت لم يلحقنى

— فإننى معك وتابعك مدى حياتى

ولما استمع آباقاخان — الذى كان مشهورا ببلاغة الحديث — هذا الكلام الشيق ، هبت نسائم الرضا على نفسه فمحت آثار الخلاف المستقر فيها ، وجدد مداعباته الملكية وملاطفاته للوزير شمس الدين محمد وأسند إليه [٢٧٩] منصب الوزارة كما كان ، فتبوأ الصاحب مرة أخرى مكانة عالية ، وأخذ يسجد لله شكراً ووزع الصدقات والنذور التى سبق أن نذرها ، كما بعث بالرسل إلى جميع الأقطار للإعلان عن تجديد آباقا خان الثقة فيه والعناية به ، وبعث بإحدى الرسائل إلى أخيه المخلص الخواجه علاء الدين عطا الملك » بدأها بهذه الآية « ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين (١) » كما ذكر البيت التالى بعد هذه الآية :

(بيت ، ترجمته)

— اليوم بحمد الله قد فرغ بالى من عدوى

— ولا يحمل قلبى الآن سوى المحبة

وقد جاء فى كتاب روضة الصفا : « أنه رغم أن الصاحب أمن سخط السلطان ، وتولى منصب الوزارة مرة أخرى ، إلا أن مجد الملك بما له من مكانة عالية ظل يعمل على الإيقاع به ، ولكن الصاحب بما يمتاز به من طيب النفس وعلو الهمة ، لم يتقاعس لحظة واحدة عن ملازمة آباقا خان ، وذات يوم جاء آباقاخان بالصاحب ومجد الملك اليزدى عنده وأمرهما بأن يحدث كل منهما الآخر مشافهة وحيث إن المراسم كانت تقضى بأن يجلس كل منهما بجانب الآخر إلا أن آباقاخان أمر بأن يجلس الوزير شمس الدين محمد فى مكان متأخر عن مكان مجد الملك ، فذاق الصاحب أمام عدوه ذلك الكأس المر المذاق على يد السلطان الذى أظهر قلة العناية به ، وصاغ إجاباته الصادقة بأسلوب بليغ » . كما يروون

(١) سورة ، يس ، آية « ٢٧ » .

كذلك أن الصاحب جلس ذات يوم ثلاث مرات فى مجلس الطرب والشراب ، كان يقدم فى كل مرة منها كأساً إلى آباقا خان ، ولكن السلطان رفض فى كل مرة قبول تلك [٢٨٠] الكأس ، وكرر الصاحب ذلك الأمر فى المرة الرابعة فأعطى السلطان الصاحب قطعة شقها بالسكين من لحم حرمه الله ، فأكل الصاحب تلك القطعة ، وقبّل الأرض أمام السلطان ، وبعد ذلك قبل السلطان كأس الشراب من الصاحب وشربه ، وقال للحاضرين « إن هذا الإيرانى لرجل ذو صبر وجلد لقد رفضت قبول كأسه عدة مرات ، ولكنه لم ييأس وظل يقدم الكأس إلى ، وقد ذكرت بينى وبين نفسى أنه لو رفضت تناول القطعة — حفاظاً منه على دينه — لأخرجت عينيه من مكانهما بهذه السكين » .

وخلاصة القول أنه حينما شاهد مجد الملك أن دسائسه ومكائده فى حق الصاحب لم تحقق هدفها بدأ يكيد لأخيه علاء الدين عطا ملك وخدع نائبه مجد الملك بن الأثير حتى أفضى ببعض الأقوال عن علاء الدين ، فأمر آبا قا خان بالقبض على عطا ملك وإيداعه السجن ، ونظراً لأن الوزير محمد كان قد شاهد تدبير ذلك العمل ، فإنه بعث على الفور برسالة إلى أخيه قائلا له « أقبل كل ما يقوله لك الرسل ، ولاتعترض بأى وجه من الوجوه على كلامهم ، » وبعد مناقشة طويلة قبل علاء الدين دفع مبلغ ثلاثمائة تومان ، ورغم ذلك لم يرض ذلك المعاندين وبلغ الأمر إلى حد أن قام الرسل بإحضاره إلى بغداد مقيداً بالسلاسل والأغلال وكانوا يعذبونه بمختلف الطرق والأشكال حتى اضطروه إلى بيع كل ما كان يحتفظ به وسلمهم قيمتها ، ولم يكتف المعاندون بكل هذه الأمور [٢٨١] واتهموا علاء الدين بمصاحبة حكام مصر والشام والولاء لهم ، وبهذه التهمة لحق الذل بذلك العزيز ، وفى ذلك الوقت كان آباقاخان قد سافر إلى همدان ، فبعث مجد الملك — الذى كان فى غاية الاعتبار والمكنة — بعض الرسل إلى بغداد ليحضروا علاء الدين إلى معسكر السلطان فاصطحبه الرسل مقيداً إلى همدان ، وفى تلك الأثناء توفى آباقا خان فى العشرين من ذى الحجة عام ٦٨٠ هـ ، وفى ربيع الأول ٦٨١ هـ اعتلى عرش المغول تكودار ابن هولاكوخان الملقب بالسلطان أحمد ، فعمت عدالته المسلمين ، وكان أول أمر أصدره أن بعث بالرسل إلى همدان لتخليص علاء الدين عطا ملك من حبسه ، وإحضاره إليه ، كما أسند الوزارة إلى الرجل الكفء الصاحب شمس الدين محمد وشمله

بكثير من العناية والاهتمام – أكثر من ذى قبل فاشتعلت مرة أخرى نيران الحقد والحسد فى نفس مجد الملك، وقدم عريضة إلى أرغون خان يقول فيها: لقد قتل صاحب الديوان والد الأمير بالسم، ونظراً لأنه يعلم أنى عرفت ذلك السر فهو الآن يهدف إلى قتلى ! »، وقد اطلع سعد الدين – ابن شقيق مجد الملك – على هذه العريضة ونظراً لأنه كان قد أوذى من عمه والتحق بخدمة الوزير شمس الدين محمد، [٢٨٢] قام بأخذ صورة العريضة وعرضها على السلطان أحمد، فأصدر السلطان أمره بأن يكبلوا مجد الملك بالأغلال، وأمر أيضاً برد كل ما أخذ ظلماً من علاء الدين عطا ملك خلال حكم آباقا خان، وقد تحدث خواجه علاء الدين إلى السلطان بقوله: « إن كل ما حصلنا عليه نحن الإخوان خلال فترة خدمتنا بدار السلطنة إنما هو من صدقات حضرة السلطان، وإننى الآن أفضل أن ينفق كله فى هذا الغرض، وأشار بتوزيع تلك الأموال الكثيرة التى أعادها إليه على المحتاجين من المترددين على بلاط السلطان، وبعد ذلك أمر السلطان الأمراء العظام بالتحقيق مع مجد الملك فنفذوا ما أمروا به، وأثناء قيامهم بهذا العمل وجدوا بين ملابس مجد الملك قطعة من جلد الأسد مكتوب عليها بضعة أسطر بماء الزعفران، ونظراً لأن الأتراك يتشاءمون من السحر خشى السلطان من تلك الكتابات – وقد ترددت أقوال كثيرة حول ذلك الموضوع – وفى النهاية وبالاستعانة بآراء العارفين والمنجمين تقرر أن توضع تلك التعويذة فى الماء ويشرب مجد الملك عصارتها حتى تعود عليه نتيجتها وقد رفض مجد الملك تنفيذ ذلك لأنه ظن أن تلك التعويذة قد دسها الشيخ عبد الرحمن دوست صاحب الديوان بين أمتعته مضمناً إياها مكيدة له، وبعد الانتهاء من التحقيق ثبت على مجد الملك ما اتهم به، ولكن السلطان لم يرض بقتله، وفى تلك الأثناء مرض [٢٨٣] السلطان فذهب الشيخ عبد الرحمن لزيارته، وأثناء ذلك أقنعه بالموافقة على قتل مجد الملك، وحينئذ سلمه لرجال خواجه علاء الدين عطا ملك، ونظراً لما اتصف به علاء الدين من سلامة النفس وحسن الخلق، فقد عامله بمقتضى القول المأثور « العفو عند الاقتدار من علو الأقدار » وعفا عن مجد الملك.

(بيتان، ترجمتهما):

– حيث إن الملك العادل وهبك العدل

— فامنح العدل بكرمك ولطفك !

— وكل مذنب يقف أمامك

— يطمع في عدلك وإنصافك

ولكن جماعة من أنصار الصاحب وأعوانه المخلصين قالوا « لقد ثبت للجميع أن هذا المتآمر لم يتخل — خلال حكمه — دقيقة واحدة عن انتهاج سياسة الإيذاء ولم يراع مطلقاً جانب الحق والخلق الكريم ، ولو تحقق له الخلاص اليوم فإن يسلم العالم من ظلمه وشروره ، فلا ينبغي أن تضيع فرصة القضاء عليه واجتثاث العدو من أساسه » .

(بيت ، ترجمته) :

— الحجر في يديك والحية على قمة الحجر

— فلا تترك الفرصة للتحسر على معرفتك بذلك والتأخر في التنفيذ !

وفجأة أخرج أعوان الصاحب مجد الملك اليزدي من محبسه ، وفي طرفة عين ضربوه بالسيف وقطعوه إربا إربا بالخناجر ، وبعثوا بكل عضو من أعضائه إلى ولاية من الولايات . وكان ذلك عزاء لقلوب الرعايا والمظلومين الذين كانوا قد امتد ظلمه إليهم ، وقد وصلت رأسه إلى بغداد وظلت معلقة على سبيل العظة والاعتبار — [٢٨٤] مدة كما أرسلت قدمه المشئومة إلى شيراز وحملت يده إلى العراق ، ونظم أحد الفضلاء هذا البيت :

(بيت ، ترجمته) :

— كان يريد أن يمتد بالتآمر إلى العراق

— فوصلت يده ولم تصل سلطته

وجاء أن شخصاً اشترى لسان مجد الملك بمائة دينار من حاكم تبريز ، وقد نظم أحد الشعراء هذا الرباعي حول هذا الموضوع :

(رباعي ، ترجمته) :

— لقد صرت لبضعة أيام تعيث برئاسة الديوان

— وأصبح هدفك هو البحث عن الملك والمال والسلطان

— والآن أخذ كل أقليم من الأقاليم عضواً من أعضائك
— فصرت بذلك فى ظرف أسبوع حاكماً على جميع البلاد !

والرجل العاقل هو ذلك الذى لايلقى بنفسه فى شراك الهلاك رغبة منه فى السلطة والجاه ، ولايجعل نفسه الغالية هدفاً للملامة فى الدنيا وعرضة للعذاب فى الآخرة.

(قطعة بيتان ، ترجمتهما) :

— افترض أنك قد بلغت ماتطلبه
— وافترض أنك أصبحت كما تحب أن تكون
— فهذا ليس معناه أن كل ما وجدته كان ناقصا قبلك
— وليس كل ما أخذته بالعدل سوف يسلبه الفلك منك !

وخلاصة القول أنه بعد مقتل مجد الملك بعث السلطان أحمد با لصاحب علاء الدين لتولى حكم بغداد مرة أخرى ، ورغم أن خواجه عطا ملك كان قد قرر بينه وبين نفسه الاعتكاف بقية عمره فى مكان بعيد وعدم السعى وراء[٢٨٥] المناصب.

(بيت ، ترجمته) :

— انتهز الفرصة بضعة أيام فى هذه المرحلة
— لأنها أفضل أيام العمر التى لايجود كثيراً بمثلها

لكنه نظراً لأن العواطف السلطانية والفضائل الملكية كانت قد أنقذته من محنتين ، الأولى شماتة الأعداء والثانية هلاك النفس ، ونظراً لأن السلطان قضى كذلك على خصمه العنيد وعدوه البغيض ، ورد له كل ماله ولم ينقص منه شيئاً ، فإنه بناء على ذلك لم يستطع الهرب — من قبول ذلك المنصب الخطير ، والخلاصة أن الوزير شمس الدين محمد صاحب الديوان وأخوه قد توليا مرة أخرى تدبير شئون الملك والمال بقوة واستقلال وبذ لا جهدا كبيراً من أجل نصرة الدين المبين وتيسير مهام علماء شريعة سيد المرسلين ، وأبديا اهتماماً كبيراً بأهل الفضل ، وسعد الرعايا واغتبطوا بكثرة عدلهما وإحسانهما ونعموا بالأمن والسلام فى أيامهما .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد وجد الحيوان المفترس والطير الضعيف الراحة فى كنف عدله

— ولقى الإنسان والجان الهدوء والسكينة فى ظل أمنه

وفى تلك الأثناء بعث الأمير أرغون برسول من عنده إلى بلاط السلطان أحمد، سلمه مذكرة بخصوص واقعة التحقيق[٢٨٦] مع مجد الملك ، وشدة غضب آياقاخان بسبب ذلك ، وكذلك عن عودة صاحب الديوان وعلو نجمه .

وخلاصة ما جاء بالمذكرة قوله : « لقد أعطانى الوزير شمس الدين محمد وثيقة تفيد بأن كل ما يمتلكه من مال ومتاع وضياع وعقارات وخلافه جميعه ملك السلطان ، وحينما تقتضى المصلحة — وبإشارة واحدة سوف يتم تسليمها دون ما تأخر منى أو إهمال ، وإنى التمس الآن من السلطان أن يبعث إلى بالصاحب بصحبة رسولى حتى يستفسر منه الكتبة عن ذلك الموضوع ولكن السلطان فهم بعد سماعه هذه الكلمات أن أرغون خان لا يقصد أموال صاحب الديوان وإنما هو يقصد إزهاق روحه ، فقال فى رده عليه أنه بفضل الوزير — صاحب التدبير الصائب — نعمت جميع أرجاء الدولة بالكفاية والعدل والرخاء ، ولو تغيب عن البلاط فسوف يصيب مصالح الملك والمال الخلل والإهمال ، ولم يعر السلطان الرسول أو الرسالة أى قدر من الاهتمام ، فعاد الرسول يائساً غير سعيد إلى ولاية أرغون ، وكانت هذه الواقعة سبباً فى الشكوى وكشفت الغطاء عن حقيقة عداء أرغون للسلطان .

(قطعة بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد صار صاحب الديوان وحيدا فى الدنيا

— حيث توفى علاء الدين الدولة والدين سيد الدنيا والزمان

— فى مساء السبت الرابع من ذى الحجة عام

— واحد وثمانين وستمائة وورى التراب فى أران

[٢٨٧] وانتقل من دنيا الفناء إلى جنة الخلود ، وبموته دفن عالم الفضل والأدب معه فى قلب التراب .

(مصراع ، ترجمته) :

« أتعلم أيها التراب ما تحتويه بداخلك !! » .

وقد ترك الوزير شمس الدين محمد مقعد الوزارة وأخذ يتقبل العزاء ، وطلع النهار عليه وهو يرتعد وثيابه ممزقة وقد غسلت دماء قلبه وجهه من شدة الأحزان .

(بيت ، ترجمته)

— كانت دموعه الطاهرة تتصبب من مآقيها من شدة الحزن

— ولا تقل دموعه بل كانت دماؤه الطاهرة تتصبب

وقد أدى السلطان أحمد مراسم العزاء ، وخلع على صاحب الديوان خلعة خاصة ، وأخذ يخفف عنه أحزانه بمختلف أنواع العناية والرعاية . وفى تلك الأثناء بعث الأمير أرغون إلى جميع الولايات بتعليمات مؤداها : « تؤدى الضرائب الخاصة بالصاحب إلى نوابه هو ، وأن يمتنع عمال الصاحب كلية عن التصرف فيها » .

ونظراً لأن الأمير أرغون كان يقيم بالقرب من العراق ، خاف العراقيون وترك كل واحد منهم من وكلاء الصاحب ما فى حوزته تحت تصرف أرغون خان ، وتوجه الأمير مزهوا بكثرة النفائس إلى مدينة بغداد ، وأغرق عليه العمال والمتصرفون الكثير من أموال تلك البلاد . وفى أوائل عام ٦٨٢ ه توجه على رأس جيش مجهز إلى بلاد الشرق ، وكان دائماً مشغولا بالتفكير فى أى وسيلة تمكنه من الاستيلاء على عرش السلطنة وانتزاعه [٢٨٨] من قبضة عمه ، ولم تهدأ نفسه ليلا أو نهارا من التفكير فى كيفية القضاء على السلطان أحمد ، ولما أحس السلطان بهذا الموضوع بعث رسله إلى بغداد فى أواخر السنة نفسها للقبض على رجال الأرغون ، وانشغل صاحب الديوان بإعداد الجند ، وجهز الكثير من أدوات الحرب وآلات الطعن والضرب ، وأما الأمير أرغون فقد توجه فى غرة صفر عام ٦٨٣ ه إلى آذربيجان ، ودارت معركة فى صحراء راغخواجه بينه وبين أليناق قائد مقدمة جيش السلطان — هزم فيها جيش أرغون خان —

وقرر الأمير الشجاع التوجه إلى قلعة كلاه ، وسار أليناق إلى تلك المنطقة ورأى الأمير الذى كان قد جاء من أسفل القلعة ، فأوقفا الحرب ودخلا القلعة سويا وأخذا يتبادلان الحديث ، فجعل أليناق - بنصائحه المختلفة - أرغون خان يأمن جانب السلطان ، ونظرا لأن الأمير لم يجد أمامه سوى التسليم ولا ملجأ له سوى التوكل على الله ، فإنه سار بصحبة أليناق إلى المعسكر ووصل إلى مقر السلطنة فى غوجان القديمة ، وبعد فترة كبيرة من الانتظار أذن له السلطان بالدخول ، واستقبله بالعناق والترحيب ، . واستبقاه فى معسكره ومناه بحكم ولاية [٢٨٩] خراسان وخصص لإقامة ابن أخيه خيمة كبيرة ، وأمر أوذوق - شقيق بوقا - بحراسة تلك القلعة بأربعة آلاف فارس وفى اليوم التالى رغب السلطان فى لقاء حرمه المصون وتوجه لاداء هذا الغرض ، وكلف أليناق - بحجة إشرافه على المعسكر - بقتل الأمير أرغون خان .

(بيت ، ترجمته) :

- وكان غافلا عما يخبئه القدر

-، ويخفيه خلف الحجاب

فبعد رحيل السلطان أقنع بوقا - بالاستعانة بقوة أخيه صاحب المكانة القوية - النبلاء والأمراء قائلا :

« لقد أسقط السلطان أمجد أسرة جنكيزخان وقوض بنيانها ، ورفع راية عزة المسلمين بتوجيهات صاحب الديوان - عالية خفاقة إلى عنان السماء » ، وأوضح لهم بأن المطلوب الآن هو تنصيب هلاجوب سلطاناً وإقصاء أحمد عن العرش على أن يبدأ تنفيذ هذا الأمر حينما يخرجون أرغون خان من الحبس مثلما يخرجون الدر من الصدف ، فأقر الجميع على هذا الرأى الصائب على أن تخرج الفكرة إلى حيز التنفيذ حينما تصبح الدنيا - كقلوب العصاة - مظلمة .

وعلى هذا الأساس توجه بوقا ، (مصراع ، ترجمته) :

« حينما أظلمت الدنيا »

ناحية مخدع أرغون خان ورفع كالحجاب - خجلا واستحياء - باب خيمته فنهض أرغون خان من فوق مخدعه مضطرباً مذعورا - لأنه تخيل أن فى ذلك

نهاية لحياته — ولكن بوقا أمسك بيديه وأخرجه من الخيمة ، وأفضى إليه بالخطة التي تم الاتفاق عليها ، وفي نفس اللحظة تجمع المؤيدون لها وامتطوا ظهور جيادهم السريعة وساروا إلى معسكر أليناق ، ووجدوه [٢٩٠] في فراشه فمزقوه إربا إربا.
وقد شاهدت صحراء الأفغان في تلك الليلة يوماً كيوم المحشر والفزع الأكبر حيث قتلوا معظم رجال السلطان أحمد والمقربين إليه ، وقد تمكن واحد من تلك الجماعة من الهرب وسار مسرعاً خلف السلطان ولحق به — بعد تجاوزه مدينة أسفرايين بأربعة فراسخ — وشرح له حادثة خروج أرغون والدماء التي سفكت في تلك الليلة وتقلبات الأيام المفاجئة ، وقتل الأعوان والأنصار ، فحزن السلطان واضطرب بسماعه هذه الأخبار المؤلمة ، ولوى عنانه صوب معسكر والدته قوتي خان ، وكان يتخلى عنه — في كل منزل يصل إليه — فوج من الأمراء والقادة ، وينضمون للجانب الآخر.

(بيت ، ترجمته) :

— فكان كلما تجرع كأساً يزيد ابتعاده عن أمله
—، ويواجه صفحة جديدة من صفحات المأساة

ولما وصل صاحب الديوان إلى « جاجرم » تمكن من الحصول على بعض الخيول وتوجه مسرعاً إلى أصفهان فاستقبله أشرافها وأعيانها استقبالا طيباً وقدموا له الخدمات اللائقة به ، وبعث الصاحب ببعض الرجال إلى مختلف الجهات لمعرفة الأخبار ، ولما تأكد أن أرغون خان تمكن من القبض على السلطان أحمد في معسكر قوتي خان وقضى عليه ونصب نفسه سلطانا على عرش المغول ، فكر صاحب الديوان في مغادرة أصفهان إلى شيراز ، ومن [٢٩١] شيراز يتوجه إلى هرمز ثم يصل — عن طريق البحر — إلى بلاد الهند ويقضي بقية أيام حياته خالي البال في تلك البلاد ، ولكنه بعد أن فكر في شدة بطش المغول ، جال بخاطره المنير مايلي : « لو أنني استطعت أن أنقذ نفسي من محنة الفناء هذه ، فإنه لن يمكنني إنقاذ أبنائي وعشيرتي ونوابي من نيران الخطوب ، وبوتقة الأذى والعذاب ، وأنا الذي قضيت ثلاثين عاما في غاية من العظمة والسلطان ، هاهو صبح يوم نشاطي وقوتي ينتهي مغربه بالمآسي والأحزان ، فلوأن الفلك الغادر

كعادته – أبدى لى عدم وفائه وأظهر لى – فى البداية – علامات جفائه ، لا تضح لى بفضل تدبيرى الصائب ورأيى المستنير كيف أحل وكيف أربط ! ولكن مايناسبنى الآن هو أن أقوى أملى بالتوكل على الله وأعتمد على كرم السلطان ، وأتجنى إلى بلاطه ، وأفرغ من التفكير فى الأحزان وأستريح من الملل والنزول والترحال ، فربما يهب نسيم العناية السلطانية على ، ويتجاوز أرغون خان عن جريمتى التى لاذنب لى فيها .(مصراع ، ترجمته) – فليس هناك أبدع من رائحة المسك ولامن نور الشمس ، الا فلا أقل من أن أستطيع إنقاذ كثير من الناس من محنة الألم والعذاب » .

وعندئذ تمثم بالآية الكريمة ، وأفوض أمرى إلى الله[1] » ، وتوجه سرب معسكر السلطان ، وفى الطريق التقى به الأمير «خمارى» والأتابك يوسف شاه ، وملك إمام الدين القزوينى – وكان قد أرسلهم أرغون خان لاستمالة صاحب الديوان – وقالوا له : إن السلطان الأعظم يقول : « لقد وهبنى الله سبحانه النصر على الأعداء ، وقلدنى تاج المغول ، ووفقنى إلى نيل عرش السلطنة ، والذلك فقد عفوت عن [٢٩٢] المذنبين جميعا ، ووقعت مرسوم العفو عن خطايا الجميع ، فلو أن صاحب الديوان يعود للخدمة ، فسوف يلقى أطيب معاملة وأفضل تكريم » ، وأظهروا له دليلا على صحة هذه الأقوال ، فاطمأن الصاحب لسماع هذه الكلمات وأخذ يطوى طريقه إلى السلطان بسرعة البرق والرياح إلى أن وصل إلى معسكره فى يوم الجمعة العاشر من رجب عام ٦٨٣ هـ ، ونزل فى مقر الأمير بوقا ، وفى اليوم التالى صحبه بوقا إلى مجلس السلطان ، فاستقبل أرغون خان الصاحب استقبالا حسناً وبشره بتولى منصب الوزارة ، فقبل الصاحب الأرض أمام السلطان مرددا الدعاء له بدوام دولته وسلطانه ، ثم عاد إلى منزله . وبعد أن مرت بضعة أيام على هذه الواقعة ، واتضح للجميع أن خواجه شمس الدين محمد سوف يتولى مهام الوزارة ، قال فخر الدين المستوفى وحسام الدين الصاحب – اللذان كانا على عداء شديد مع الصاحب – لبوقا : «إن نفوذك لن يستمر قويا منتعشا ما دام للصاحب تدخل فى أمور الملك والمال » لأن الصاحب سوف يسلك سبيل التملق لبضعة أيام ،

---

(١) سورة غافر ، آية « ٤٤ » .

وبعد أن يتمكن من تثبيت أقدامه سوف يسلبك سلطانك أيضا مثلما فعل مع سائر الأمراء » ،

(رباعى ، ترجمته) :

— حينما ينتصر العدو وتجد لك عملا عنده

— ، فاحذره لأنك لن تفلت من يديه

— ولو تفلت فانك لن تجد عنده

— ، سوى الأحزان الدائمة والهموم

فلا عجب أن عاتب الأمير يوقا أرغون خان كثيرا وهو مختل به وقال له : — « إن الشخص الذى كان ينوى شرا لوالد السلطان ، ويكفر بنعمته ، ويدس له السم ، كيف يمكن توقع إخلاص منه فى الخدمة ! [٢٩٣] واستقرار دولة السلطان الآن مرهون بالقضاء على الوزير الخائن ، ولا يجب أن يترك حياً ! »

(بيت ، ترجمته) :

— إذا وجدت فرصة تمكنك من عدوك الغادر

— ، فاقض عليه ولا تتردد

وعلى ذلك أمر أرغون خان بالتحقيق مع صاحب الديوان ، وأوكل إلى الأمراء القيام بهذه المهمة ، وعندئذ كبلوا الصاحب بالأغلال — تنفيذا للتعليمات — وأتوا به إلى الديوان ، فصاح الناس وعلت صرخاتهم إلى عنان السماء قائلة : « لماذا قيدوا أرزاق الخلائق ؟ ولأى سبب من الأسباب حطموا قلوب العجزة والمساكين والفضلاء بالقبض على الوزير ؟ » ، وفى التحقيق قال الوزير شمس الدين محمد مجيباً على أسئلة أهل البغض والحسد : « إننى لدى مئات الاعترافات حول تقصيرى فيما عرضه أصحاب الأغراض والطامعون ، ولكننى لا علم لى مطلقا بأمور الغدر والخيانة بجناب ولى نعمتى ! »

(بيت ، ترجمته) :

— إننى ما ذكرت هذا على لسانى أبدا

— وما فكرت فيه وليس من عقيدتى !

ولكن طلاقة لسانه وفصاحة بيانه لم تفده قط ، (مصراع ، ترجمته) :

— « ماذا يفيد دم المسيح مع حكم القضاء والقدر »

وأمر السلطان رجاله بتدمير أسس الفضائل والمعالى ، وتحويل ينبوع الجود والإحسان إلى سراب فلما تيقن الصاحب أن خلاصه من المستحيل ، توضأ وأدى ركعتين لله ، وفتح مصحفا [٢٩٤] كان يحمله — على سبيل التفاؤل — فكانت هذه الآية « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون (١) » ، ولا عجب أن نفض نفسه من هموم الدنيا وقال راضيا : مصراع :

« كل شيء يأتى منك فهو طيب ، سواء فيه الجفاء أم فيه الآلام »

وبعد أدائه صلاة الظهر فى بلدة « أهر » يوم الاثنين الرابع من شعبان من نفس السنة المذكورة ، فاز بالشهادة على يد جلاد ظالم ، وودع الحياة الدنيا إلى روضة الجنات .

(بيتان ، ترجمتها) :

— إن هذا الفلك المحدودب يحمل سيفا مسلطاً على الجميع

—، قتل به ظلماً مئات الآلاف من الملوك والفقراء

— ونظرا لأن الفناء عاقبة كلا النوعين فى الدنيا

—، فقد أصبح قضاؤه على الطيب والردىء أمراً سهلا وميسوراً

كما نظم أحد الفضلاء هذا الرباعى فى رثاء ذلك الرجل العظيم :

(رباعى ، ترجمته) :

— لقد انهمرت الدماء من السماء برحيل شمس الدين

—، واختفى القمر ومزقت الزهرة ذوائبها

— وارتدى الليل السواد حزناً عليه حتى الصباح

—، وتنفس الصعداء ثم شق الجيوب

---

(١) سورة فصلت ، آية « ٣٠ » .

ونظم شخص آخر هذه القطعة فى هذا الغرض :

(قطعة سبعة أبيات ، ترجمتها) :

— لقد كان سيد الأرض والزمان ووحيد الدهر والأوان

—، وكان كريما سعيدا رحيما وسيداً على الأنام

— وكان حامياً للدنيا وصاحب أصل عريق وقدر عال

—، وكان حامياً لقوة الإسلام وصاحباً للديوان

— [٢٩٥] وقضى فى عهده على الدهر الغادر

—، بفضل سخائه كالسلطان محمود وعدله كعدل أنوشيروان

— ثم استشهد فى يوم الاثنين الرابع من

—، شهر شعبان عام ٦٨٣ هـ

— ولم تشهد مثله الأفلاك فى الجود

—، والهمة العالية والفضل والسخاء والإحسان

— فواحسرتاه من تقلب الفلك وغدر الزمان

—، الذى دفن عين الشمس تحت التراب

— فاجعل يا إلهى بحق ذاتك مسكنه ومأواه

—، فى جنة رضوان بلا حساب !

الوزير جلال الدين مخلص السمنانى :

كان جلال الدين من أسرة حاكمة ، ومن عائلة فاضلة . وكان جده الأمير ضياء الدين يلازم السلطان محمد خوارزمشاه ، وفى الوقت الذى كان فيه أرغون خان يتولى الحكم فى خراسان ، نهض جلال الدين مخلص للالتحاق بخدمته ، فنال خلال فترة قصيرة من الزمن مكانة عالية عنده ومزيدا من التقرب إليه ، ثم أسند إليه الأمير بوقا — وكانت له اليد الطولى فى تنظيم شئون الدولة — منصب الوزارة للسلطان أرغون خان بعد استشهاد الوزير شمس الدين محمد . ولما ارتكب الأمير بوقا جريمة الكفران بالنعمة ، وظهر منه الغدر بالسلطان أرغون خان ، وعلم

السلطان بجريمته وقتله ، تم القبض أيضا على جلال الدين مخلص – نظرا للعلاقة القوية التي كانت بينه وبين الأمير بوقا – وقضى بعدها عاماً من الزمن وهو فى غاية من الاضطراب والسوء إلى آن قضى عليه بإيعاز من سعد الدولة اليهودى .

الوزير سعد الدولة بن صفى الدين الأبهرى :

وصل سعد الدولة إلى منصب الوزارة وحقق مكانة عالية ، وتفاصيل ذلك فيما يلى :

كان سعد الدولة اليهودى واحداً من أطباء اليهود أيام أرغون خان ، وفى عهد أرغون خان أيضا ضم نفسه إلى أطباء الأسرة المغولية وجعل إقامته فى دار السلام بغداد ، واختلط بالأتراك والإيرانيين فى كل البلاد والديار وصار عارفاً بكل اللغات ، وتيسر له الوقوف على حقيقة أحوال العمال والمتصرفين فى أموال بغداد وعرف نواحى قصورهم وإهمالهم . وفى تلك الأثناء انتهز جماعة من نفس دينه من الملازمين دائما لدار السلطنة الفرصة وقالوا لأرغون خان : « إن سعد الدولة يمضى أوقاته فى فراغ دون عمل فى ولاية بغداد وقد ضرب عرض الحائط بالخدمة فى بلاط السلطان ، ونظرا لأنه يتقاضى تكاليف معيشته من أموال السلطان ، فإنه من المناسب أن يعمل مثلنا من الصباح حتى المساء ، ولايسمح له بالتغيب عن معسكر السلطان » . وكانت هذه الوشاية سببا فى تحقيق آمال سعد الدولة حيث استدعى بناء على أوامر أرغون خان لملازمة بلاط السلطان .

(بيت ، ترجمته)

– كل ما فيك من حسنات ومساوىء

–، لو تتمعنها صلح أمرك !

وقد مرض – صدفة – السلطان أرغون خان فى تلك الأوقات ، فاهتم سعد الدولة بعلاجه ووصف له نوعا من الدواء أفاده وخفف من آلام المرض عليه . وأثناء نقاهة أرغون من مرضه طلب من سعد [٢٩٧] الدولة أن يقص عليه حكاية تبعد عنه الملل ، ونظرا لأن سعد الدولة كان قد عرف شغف السلطان بجمع الكثير من الأموال فقد قص عليه بأسلوب رائع قصة توضح إسراف النواب والكتاب فى فى جميع البلاد والديار ، وخصوصا الموجودين منهم فى ولاية بغداد ، وقال : « إن الأمير بوقا وأقاربه يسيطرون على جميع أموال الدولة ، ولا يتركون – عن قصد –

شيئا منها يصل لخزانة السلطان ، كما فتح أخوه « أروق » فى ولاية بغداد أبواب الظلم والعداء على مصراعيها أمام الناس ، وأصبح العدل والرفاهية بالنسبة لأهل الفضل فى تلك الولاية فى تراجع ونقصان » .

(بيتان ، ترجمتها) :

— لقد سرى ظلمه بين الناس

— ، فضاقوا بمظالمه وصرخوا جميعا

— شاكين للسماء ظلمه واعتسافه

— ، وقد تقوس ظهر المظلوم وصار كالخلب لثقل أعبائه !

وبناء على هذه القصة صدر حكم السلطان بأن يتوجه سعد الدولة بصحبة « أردوقيا » و « بيان شكورجى » إلى بغداد ليبذلوا مافى وسعهم من أجل تحصيل الأموال ومعرفة أحوال العمال وصرف مطالبات الديوان ، والقضاء على أعمال التخريب والإهمال . وذهب سعد الدولة — بصحبة المذكورين — إلى دار السلام فى أواخر عام ٦٨٦ هـ فجمع الأموال الطائلة خلال مدة وجيزة وذلك بتحصيله ماتبقى من أموال العام السابق وضرائب العام الجديد ثم عاد إلى معسكر السلطان . فلما قدم تلك الأموال — التى لاحصر لها والبضائع التى لاحد لها إلى السلطان أرغون خان ، خلع عليه السلطان الكثير من الهدايا وعينه مشرفاً [٢٩٨] على جمع وإنفاق أموال ولاية بغداد . وعاد سعد الدولة مرة أخرى إلى بغداد وأدخل للخزانة — بكل الطرق — أضعاف المرة الأولى من الأموال . ثم توجه إلى قنغور الناكك — التى يطلقون عليها الآن السلطانية — وقبّل البساط السلطانى وسلم تلك الأموال . وقد زاد اعتقاد أرغون خان بخبرته وحسن كفاءته إلى حد كبير ، كما تحدث كذلك أردوقيا كثيرا أمام السلطان عن إخلاصه وكفاءته وأبدى إعجاباً كبيرا بتنظيم أعماله وقال :

لقد أدخل سعد الدولة كل هذا المال إلى الخزانة العامرة على دفعتين وذلك من ولاية واحدة وخلال فترة قصيرة جدا ، وانتهى من مراجعة وتنظيم حساباتها ومعاملاتها بمنتهى الدقة ، كما عمر أيضا تلك الولاية ، فلو توكل إليه مهمة الإشراف على جمع وتنظيم أموال جميع ولايات السلطنة ، لأوصل أحوال الخزانة والدولة إلى درجة يحتار العقل الخبير أمامها ويعجز — من حيث تنظيمه أمور الرعية وتوفيره

الرفاهية لأهالى كل مدينة وولاية . وقد صدق السلطان هذا الكلام وأمر بتعيين « طغاجار نوئين » ، « وارد قيارجوشي » فى منصب الإمارة وعين سعد الدولة فى منصب الوزارة ومسئولا عن شئون الملك والمال ، على أن لايعرض الأمراء أمرا على السلطان دون مشورته ؛ أما سعد الدولة فله أن يعرض — فى أى وقت يرغبه وفى أى مكان — مالديه من أمور دون الانتظار للمشورة .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— ما أطيب المال الجالب للشهرة

— ولا حرمت الدنيا من هذا المال !

— فالشخص الذى يريد أن يرتفع فى الدنيا

— [٢٩٩] هو الخبير بتدبير أمور العالم

والحقيقة أن كوكب إقبال سعد الدولة بلغ أوج الاستعلاء والاستقلال ، وفوض إليه أرغون إدارة جميع مصالح الولايات — بكفاءته وعبقريته — ورعاية شئون المخلوقات ، وقد فاقت راية عظمته — فى الدولة — أعلى الأفلاك ارتفاعاً فى السماء وعزمه النافذ قد أوصد الطريق أمام أعتى الرياح .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد أطلقت الدنيا لوزارته العنان بالطاعة

— كما وهب الفلك لسعادته الضمان بالانتصار

وقد أسند سعد الدولة إلى أقاربه حكم أكثر ولايات السلطان أرغون خان ، فبعث أخاه فخر الدولة — وكانت نسبة الجهل فيه بنسبة الحكمة فى إفلاطون — حاكما على بغداد ، كما عين شقيقه الآخر حاكما على ديار بكر وربيعة ، وعين كذلك لبيد بن أبى ربيع فى بعض مناطق آذربيجان ، وولى حكم ولاية فارس شخصا آخر من أقربائه وهو شمس الدولة ، ولو لم يكن الأمير كيخاتوخان والأمير غازان خان يحكمان فى بلاد الروم وخراسان ، لكان سعد الدولة قد أسند الحكم فيها أيضا إلى أقاربه . وخلاصة القول إنه فى ظل وزارة سعد الدولة كانت جميع الولايات عامرة ومنتعشة ، ولم يستطع أحد قط من أمراء أرغون خان أو المحيطين به أن يظلم الرعايا والمزارعين فى أى مجال من المجالات .

(بيت ، ترجمته) :

— في عهده لم تتزعزع مياه الأنهار من العواصف

—، كما لم تقع الزهور أو تهتز بسبب الرياح !

[٣٠٠] وقد تمكن سعدالدولة خلال عامين — استقل فيها بإدارة تلك الأعمال — من تخزين الآلاف من النقود الذهبية في الخزانة العامرة ، كما كرس جهوده لتنظيم الخلل الذى حدث خلال عدة سنوات سابقة .

ولاشك أن اهتمام السلطان وتقديره له قد زاد ، فكان يحقق كل يوم المزيد من الرفعة والكمال واتساع النفوذ ، إلى أن وصل الأمر إلى درجة أنه كان يوماً يلعب النرد منفردا مع السلطان ، ولشدة تقربه منه ترك قدميه ممدودتين وكان يحركها بلا أدب ، وعندئذ دخل عليهما « قجعبال » فنادى عليه وقال له :

مهما يكن من عناية السلطان بك ، وحبه البالغ لك ، فانه لا يجوز جلوسك هكذا في حضرته ! !

(بيت ، ترجمته) :

— مهما زاد كرم السلطان وتسامحه

—، فيجب على الإنسان أن يعرف حدوده

فقال سعد الدولة له مجيبا بقوله : « إن السبب في جلوسي هكذا يرجع لألم في مفاصلي ، وكل ما يقال غير كلام السلطان العادل ، إنما هو من تصرفات الجهال ! » !

(بيت ، ترجمته) :

— ابتعد فإن قوته مستمدة من السلطان

—، ولن يهزم بسبب آلاف من هذه الأخطاء !

ونظرا لأن مكانة سعد الدولة كانت قد وصلت إلى هذا الحد ، فقد اشتعلت نيران العداوة له في نفوس أمراء الدولة ورجالها ، وتمكن طوغان — الذى لحقه الضرر منه أكثر — أن يجعل جميع أعيان البلاط يتفقون على التخلص منه ، كما ناقش مع النبلاء — أصحاب البيعة — طريقة القضاء عليه ، ولكنه نظرا لعدم مناسبة الظروف وقتها ، فقد أخفى ذلك السر في أعماق نفسه حتى تواتيه الفرصة ويتمكن من

[٣٠١] القضاء عليه. ومن الثابت أن سعد الدولة كان يتظاهر – في بداية اشتغاله بالوزارة – بالعمل على نشر شريعة سيد الأبرار – صلى الله عليه ما دار الفلك الدوار – ففي شهر رمضان من عام ٦٨٨ هـ بعث برسالة إلى دار السلام بغداد يوصي فيها برعاية الحجاج وتقديم المساعدة لهم ، ولكنه اغتر بعد ذلك بسبب علو مكانته واستقلاله بادارة دفة الأمور في البلاد ، وقد زاد جبروته واستبداده وتكبره وخيلاؤه عن الحدود ، ووضع اليهود – الذين لاقيمة لهم – أقدامهم على مدارج العظمة والاستعلاء ، وتفوهوا بعبارات الاستهزاء والإهانة لأمة حضرة صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، وعرض سعد الدولة – أكثر من مرة – على أرغون خان بمنتهى التبجح قوله : « إن النبوة موصلة بالميراث من جنكيز خان إلى حضرة السلطان ، وقد يسرت العناية الإلهية لحضرة السلطان إرساء قواعد الملك والملة ، وتشييد مباني الدين والدولة على خير وجه ، وحيث إن النبي العربي صلوات الله عليه هو وأصحابه وأنصاره قد رفعوا راية النصر متحدين ، وقضوا على الكثير من المخالفين لهم والمعارضين ، ووضعوا قلادة القبول والاعتناق لأركان الاسلام في رقبة الخاصة من الناس والعامة ، فلو أن سلطان العالم يتصرف بما تقتضيه همته العالية ويسلك غاية اللطف مع المؤيدين له ومنتهى العنف مع المعارضين ، لأمكنه أن يخلق أمة جديدة في هذا العصر ، ويقضي على عادات ورسوم السابقين ، وعلى قواعد وأطوار المتأخرين »

[٣٠٢] وكان أرغون خان عدواً للمسلمين بسبب حبه للأموال ، فبعد سماعه لهذا الكلام المهلهل ، أخذ يقدم على قتل الأبرياء لأى سبب من الأسباب ، وأمر بأن لا يعمل أحد من المسلمين في الديوان مطلقا . وكان يمنع أفراد تلك الطائفة من التردد على المعسكر السلطاني ، كما اتفق سعد الدولة مع أرغون خان على تحويل الكعبة إلى معبد للأصنام وتحويل المسلمين وسائر الخلق من عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان وبهذا المفهوم بعث برسائل ومكاتبات إلى اليهود – صناع الأوثان – من الأعراب يخبرهم باستعدادهم لصناعة أعلام الضلال للتوجه بها إلى مكة . وفي تلك الأثناء بعث نجيب النحال – وكان من نفس طائفة ذلك الشرير – إلى ولاية خراسان ، وسلمه قائمة مفصلة بأسماء مائتين من أعيان وأغنياء تلك البلاد ليتولى القضاء على حياتهم ، ويحول أموالهم وما يملكونه إلى ديوان السلطان ، كما كلف أيضا شمس الدولة بقتل سبعة عشر شخصا من أئمة اصفهان العظام الذين لم يكن لهم ذنب قط

سوى أنهم كانوا يتمتعون بالسمعة الطيبة بين الجميع ،ويعرفون بعلو النسب وكثرة البذل والعطاء ، ولما زادت تصرفات سعد الدولة اليهودى غير اللائقة وأفعاله غير الواجبة عن حد الاعتدال ،خرج سهم البلاء فجأة من يد القضاء وأصابه فى مقتله ، وأنزل بأرغون خان مرضا عضالا لم يشف منه قط ، ومهما حاول الأطباء وصف العلاج له والدواء ، لم يأت ذلك بفائدة على الإطلاق .

[٣٠٣] (بيت ، ترجمته) :

— لقد اشتد عليه مرض الصفراء .

—، وأصبح لونه كلون الزيت .

واحتار الأمراء والمقربون بسبب صعوبة تلك الحال ، وقدموا المساعدات والصدقات للفقراء والمحتاجين ،وأطلقوا سراح الكثير من المحبوسين ، وكان سعد الدولة يتجرع نيران الألم أكثر من الآخرين ، وصار نادماً بسبب نواياه السيئة وخطاياه ، فكان يخرج من كبده المحترق الآهات وبلغ به اليأس غايته بمشاهدة حالة السلطان وصحته ، وتملكه الرعب والارتعاش — كشجرة الصفصاف — خوفا من وخامة عاقبة أعماله السيئة .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد انشطر قلبى اليوم نصفين بسبب هموم الدنيا

—، ولكننى مازلت أخشى أن يتسرب الخوف إلى روحى

وبعث بالأوامر الرسمية إلى كل مكان ، لعمل اللازم نحو رفاهية الرعية واستمالة الناس فى جميع الولايات . وقد أرسل فى يوم واحد سبعين مرسوماً — إلى كل ولاية تشتمل جميعها على إظهار العدل ورفع الظلم والفساد ، ولكنه حسب ماجاء بالآية الكريمة « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون(١) » ، فمن المحال أن يكون لحكم الله المحكم ولقضائه المبرم صفة التأخير أو التقديم ، أو يكون لدعاء الكافرين شرف الاستجابة أو القبول « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال(٢) »

(١) سورة يونس ، آية « ٤٩ » . قد وردت الآية بالنص الفارسى هكذا ، « إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

(٢) سورة الرعد ، آية « ١٤ » ، سورة غافر آية « ٥٠ » .

ولم يأت إخراج الأموال الكثيرة ، وإظهار العدل والإحسان بفائدة ، فقد اشتد مرض أرغون خان اشتداداً كبيراً ، وخرج الأمر عن نطاق محاولات الشاب والشيخ والصغير والكبير ، ولم يكن يسمح لأحد بدخول خيمة السلطان غير سعد الدولة والجوشي ، [٣٠٤] وقد بعثا سراً بالرسل إلى الأمير غازان في خراسان ليحضر بسرعة ويكون بالقرب من عرش السلطنة ، وكان هدفهما الحقيقي هو أن يجلساه على العرش قبل أن تقع الواقعة ، ويخلصهما بذلك من سيوف الأمراء ، وقد علم الأمراء والنبلاء بهذا الأمر ، فاجتمعوا في منزل طغاجار وقبضوا — في البداية — على جماعة من رجال سعد الدولة وأعوانه وأجهزوا عليهم . ونظرا لأن نجم سعد الدولة قد أفل فقد ألقوا عليه القبض أيضا وظل محبوساً لمدة يومين تقريبا أو ثلاثة في منزل طغاجار وبعد ذلك أدرك — بعين اليقين — أنه مقضى عليه ، فبعث ذات ليلة وهو في غاية من الحزن والتعب بورقة إلى أحد الأشخاص مكتوب فيها هذه العبارة : « بحق الله — سبحانه وتعالى — فإن هذا المسكين كان دائما صديقاً لأصدقائهم ، كما كان عدوا لأعدائهم ، ولو يمتد به العمر — « والله على ما نقول وكيل[1] » — فإنه سوف يظل على هذا النمط ويسلك معهم طريق الإخلاص » ، ولكن « المعلق بالشيء المحال محال » ففي اليوم التالي أجهزوا على صاحب الطالع المنحوس ، وصاحب النجم المقلوب بضربة سيف فتاك .

وبعد موته وجه المغول والمسلمون متحدين — الصلوات الطيبات صوب الروضة المنورة في أرض يثرب ، ولبس أتباع دين محمد — من لطف الله بهم — لباس البقاء ، وأما أعداء الأمة المحمدية فقد شربوا — بسبب غضب الله عليهم كأس الموت والفناء .

[٣٠٥] وقد فتح أرغون خان — الذي كان في ذلك الوقت في غاية الضعف والعجز عينه واستفسر عن سبب تغيب سعد الدولة والملازمين له ، فرد عليه أحد الحاضرين معللا ذلك بعذر غير مقبول ، فأدرك السلطان حقيقة الأمر ، ثم فارق الحياة في الثالث من شهر ربيع الأول عام ٦٩٠ هـ .

---

(١) سورة يوسف ، آية « ٦٦ » .

(مصراع ، ترجمته) :

— « وكانت هذه الحادثة نهاية الطريق كله »

ونظم الإمام العابد الزاهد زين الدين على بن الصاعد قصيدة غراء حول هذه الواقعة مطلعها البيت التالى :

شعر عربى :

نحمد من دار باسمه الفلك هذا ليهود قرود قد هلك[1]

الوزير صدر الدين أحمد الخالدى الزنجانى :

كان صدر الدين من أبناء أحد قضاة ولاية زنجان ، والتحق وهو فى عنفوان الشباب بخدمة الأمير طغاجار وقبل النيابة له ولما أصبح طغا جار أميراً للالوس فى عهد أرغون خان — واستقل بحكم تلك البلاد ، جعل صدر الدين أحمد مسئولا عن تنظيم أموال هذه البلاد ، فنظم صدر الدين أعماله تنظيما كاملا .

والحقيقة أن صدر الدين أحمد تفوق على صاحب الرى وحاتم الطائى فى السماحة والكرم ، فكان كلما حصل على شىء أنفقه على السادات والعلماء والمشايخ والفضلاء .

وقد نظم أحد شعراء تلك البلاد هذه القطعة يمدحه :

(قطعة أربع أبيات ، ترجمتها) :

— لا يستطيع شخص أن يصير صدرا فى الآفاق بمجرد صدره

—، فالصدر الشهير فى أرجاء العالم

— هو ذلك الشخص الذى يكون أمام جوده

—، الجوهر والذهب مثل تراب الطريق سواء بسواء

— [٣٠٦] فاذا لم تكن تعرف كيف تصير صدرا

—، فتعلم من الصدر (الوزير) طغاجر !

---

(١) هذا البيت غير صحيح فى الأصل الفارسى وصحته :

محمد من دار باسمه الفلك هذى اليهود القرود قد هلكوا

« انظر تاريخ وصاف ، ص ٢٤٧ ، طبع بمباى » .

ـــ سماء المكارم أحمد الذى انتزع
ـــ، تاج العظمة من فوق هام الفلك الأخضر

ولما اعتلى كيخاتو خان عرش السلطنة ، أخذ الأمراء والنبلاء يتشاورون فيما بينهم حول اختيار الوزير ، وأعدوا قائمة بأسماء جماعة من أكابر العصر ممن كانوا ملازمين للسلطان أو للخواتين والأمراء ، ورغم أن اسم الوزير صدر الدين لم يكن ضمن تلك القائمة ، الا أن محرر الغيب لما كان قد حرر منشور الوزارة باسمه العظيم ، فقد حدث أثناء عرض قائمة الوزارة على السلطان أن جال بخاطره فجأة ودون تفكير سابق أنه يجب عليه أن يعين صدر الدين أحمد الزنجانى وزيرا لتدبير أمور السلطنة وادارة شئون الديوان ، ووافق الأمراء والخواتين والنبلاء على هذا التعيين ولقى قبولا واستحساناً من الجميع .

واختص كيخاتوخان الوزير صدر الدين أحمد الزنجانى بمنصب صاحب الديوان العالى وأسبغ عليه لقب « صدر الدنيا » كما أعطاه خاتماً ذهبياً وأطواقاً وطبلا ، وخصص له عددا من العسكر ، ووضع فى يدى صاحب الديوان مهمة التصرف فى جميع مهام الوزارة والإدارة ، وبلغ كوكب إقبال صدر الدنيا ــ فى نفاذ أمره وعلو شأنه ومزيد اقتداره وكمال اختياره ــ أوج الرفعة والشرف ، فغرق فى ماء الخجل لكثرة ما خصه به السلطان من جواهر ــ وكان يتوقف الدم فى عروقه بسبب رفع السلطان عنه جبال الأحزان بكثرة الجواهر والأنعام ، وكانت صورته تبدو كنجم من الياقوت القانى الإحمرار .

(بيتان ، ترجمتهما) :

ـــ لم يكن صدر الدنيا يرد سائلا قط
ـــ، مهما كانت الطريقة التى يطلب بها
ـــ وكان يعطى كل السائلين
ـــ، [٣٠٧] من قبل أن يبدوا نية الطلب أجمعين

وفى بداية إشتغاله فى الوزارة قلل من تدخل الأمراء والنبلاء فى أمور الملك والمال وكان يفصل فى أمور الدولة ومصالح الجيش والرعية ودون مشورتهم ،

وبناء على ذلك ألب عليه أمراء جماعة من الحاسدين فى شهر ذى القعدة عام ٦٩٢ ﻫ فوضعوا له سهم المكر والخديعة فى قوس الغدر والخيانة ، ووشوا به لدى السلطان بقولهم :

« إن صاحب الديوان ينفق الأموال الكثيرة حسب هواه ، ولذلك أصبحت مصلحة العسكر وإمدادات الجيوش ومعداتها مهملة ومختلة » ، ولكن السلطان صاحب الهمة العالية لم يصغ إلى تلك الوشاية المذمومة وجدد الالتزام بتنفيذ أوامره قائلا إن دولته – الممتدة من شاطىء نهر جيحون وحتى حدود مصر ، تدار بفضل بصيرة صدر الدين وكفاءته ، وأعطاه حق التصرف فى أمر جماعة الأعداء الحاسدين ، فشكره صدر الدنيا معبراً له عن إخلاصه فى خدمته وانصرف من مجلسه ثم قيد هذه الجماعة بقيود ثقيلة ، وبعد مرور بضعة أيام – حذرهم خلالها كثيرا وأنبهم – ثم عفا عنهم وتغاضى عن جرائمهم لأن شعاره كان العفو والرحمة ، ولما انتقل كيخاتون خان إلى الحياة الأخرى بسبب غدر الأمراء والنبلاء – فى شهر جمادى الأول عام ٦٩٤ ﻫ ، واعتلى عرش السلطنة . بايدوخان ، وأخذ فى تنظيم شئون البلاد عزل صدر الدنيا وعينه فى مهمة ضبط وتنظيم أموال مملكة الروم ونظرا لأن صاحب الديوان لم يكن يعتبر هذه المهمة تليق حتى بأقل واحد من كتابه ، فضل السكوت والانتظار على السفر والارتحال ، ولكن [٣٠٨] جماعة من الأعداء والحساد دست له ، وفهم صدر الدنيا بأن توقفه من المحال ، وفى النهاية توجه إلى بلاد الروم مرغما ، وفى الطريق لوى عنان جواده صوب جيلان فاغتبط ملك تلك الولاية وأمراؤها بيمن مقدم الصاحب ، وقدموا التحية التى تليق بمثل ذلك الضيف الكبير ، وفكر صدر الدنيا فى التوجه من هناك للالتحاق بخدمة الأمير غازان وسار إلى خراسان ، وبالقرب من سيزوار أنضم إلى معسكر الأمير وقدم له فروض الطاعة والولاء ، فاحتفى الأمير بالصاحب الذى عرض عليه رغبة جميع أهالى العراق الانضواء تحت لواء أمير الدنيا ، وقال له : « لو أن أمير العالم ينفض عن نفسه الطاهرة أقوال الواشين ، ويتوكل على الله – بعد هزيمة العدو والاستيلاء على العرش – وينوى السعى والاجتهاد من أجل تقوية الدين المحمدى ، ورعاية شئون الأمة الإسلامية بكل ما أوتى من قوة ، ويجعل الأوقاف والصدقات التى – قررها السلاطين والخواتين السابقين – محفوظة ومصونة من النفقات ، ويعيد

أملاك الطائفة التي قتلت إلى أولادهم — وأن لا يدمى قلوب هؤلاء المساكين بالتصرف فى تلك الأملاك والممتلكات — فاننى أتعهد بارسال الأمير نوروز على رأس جيش فتاك للانقضاض على « بايدو » وذلك عن طريق جيلان وأبعده بالقوة عن [٣٠٩] عرش المغول » ، فجعل أمير العالم أمر قبول ذلك الكلام — الباعث على الهداية — أمراً واجباً ولازماً عليه ؛ وتحرك بعزم راسخ وقوة صوب أذربيجان ، وجعل نوروز يسير — وقد رفع راية الانتصار — على رأس خمسة الآف فارس فى المقدمة ، وجعل صدر الدنيا ملازماً لمركبه — مثل الفتح والانتصار — فى ليلة الرابع عشر من شهر ذى الحجة عام ٦٩٤ هـ — وبعد مسيرة يومين — نزل بالقرب من معسكر بايدو وذاع هذا الخبر فى المعسكر وتوجه ، أمراء الدولة مسرعين نحوه ، ولوى بايدو عنانه صوب الهزيمة ، فتعقبه نوروز ولحق به فى منطقة نخجوان ، وقضى على حكمه الذى دام ستة أشهر .

والخلاصة أنه فى شهر ذى الحجة المذكور ، وفى يوم العيد الموافق أيضاً يوم عيد النوروز وضع السلطان محمود غازان تاج السلطنة فوق رأسه ، ووضع زمام أمور الوزارة ومهام الجيش والرعية فى قبضة صدر الدنيا الخبيرة ولكنه ، بعد فترة قصيرة — بسبب سعاية المفسدين — تغير الأمير نوروز — وكان هو المتصرف فى شئون الملك والمال — على صاحب الديوان ، فعزل ذلك الوزير ذى التدبير الصائب والضمير المستنير ، وفى تلك الظروف اتفق جماعة من الأمراء الأشرار على التآمر ضد غازان خان والأمير نوروز ، وبلغ خبر تلك المؤامرة سلطان الإسلام [٣١٠] والأمير الهمام ، وبعد محاربتهم ، انتصر عليهم وأرجأ أمر معاقبة الأشرار . وعند التحقيق فى هذه القضية انضم بعض المسئولين والعمال فى الديوان — الذين كان صدر الدنيا قد قلل من تدخلهم فى أعمال السلطنة لخيانتهم الزائدة — إلى جماعة ماكرة من المقربين ، وعرضوا على السلطان قولهم : « لقد كان صدر الدنيا متفقاً مع أعداء الدولة فى هذه المؤامرة »

(بيت ، ترجمته) :

— إننى يمكننى ألا أقول — طيلة عمرى — إن فلانا شرير

— ، ولكن لايمكننى أن أجعل الآخرين لايقولون عنى ذلك .

وبسبب هذه التهمة تم القبض على الوزير صدر الدين أحمد ، وسلم لرجال السلطان الأشداء الذين أنزلوا به شتى صنوف العذاب وجميع أنواع التعنيف والعتاب ، وقد أمر السلطان باقتلاع جميع مكارسه ومعاليه من الأساس ، وهدم بناء حياة ذلك السيد الحكيم بالقهر والظلم ، ولكن « هرقداق نوئين » أوضح براءة صدر الدنيا للسلطان وشرح له هدف الأشرار وغرضهم، وبعد أن تأكد غازان خان — صاحب الضمير الحى المستنير — من صدق ذلك الكلام ، أصدر أمره النافذ بإطلاق سراح صاحب الديوان . وقد جاء فى كتاب روضة الصفا مايلى :

[٣١١] « نقل عن صدر الدنيا أنه قال : حينما كنت فى الحبس ، تغلب النوم ذات ليلة على فرأت عينى فى المنام أنهم أخذونى يوم الجمعة إلى مكان الإعدام ، ووضعونى داخل غابة مخيفة ، وفجأة ظهر لى شخص نورانى من داخل الغابة خلصنى من رجال السلطان وقال لى : توجه إلى أى مكان تحبه وأفض بهذا السر إلى سبعة أشخاص من المخلصين لك ! ثم قال صدر الدنيا : وفى اليوم التالى قصصت الواقعة لسبعة أشخاص من المخلصين الحقيقيين لى ، وظللت أنتظر من الله العطف وأسلمت مصيرى لخالقى !

(بيت ، ترجمته) :

— حيث إن العناية الإلهية ليست فى مقدورنا

—، فلننتظر ماذا سوف تفعل كراماتها !

ولما جاء يوم الجمعة حملنى رجال السلطان بالفعل على ظهر جواد وأخذونى إلى غابة ، ولكنهم نظرا لما كنت قد قدمته فى عهد كيخاتون خان من الأفضال فإنهم كانوا يتمهلون فى تنفيذ الحكم ، وفى تلك الأثناء وقع نظرى على صورة الذى كنت رأيته فى المنام فغشى على ، وكان هو « هو رقداق نوئين» عائدا من رحلة صيد وجاء إلى ذلك المكان وعرف بحقيقة الحكم الذى كان قد صدر ضدى ، فعين شخصين لحراستى ، ولما أفقت من تلك الغشية ، بشرنى هذان الرجلان بالخير والطمأنينة ، ومنعا رجال السلطان من قتلى واستمرا يحرسانى فى تلك الليلة حتى الصباح :

(بيت ، ترجمته) :

ـ لاتيأس وقت الشدة

ـ، لأن السحاب الأسود يمطر ماء أبيض

[٣١٢] وفى اليوم التالى عرض « هورقداق » براءتى على السلطان وأنقذنى من القتل وأطلق سراحى » كما نقل أنه فى ذلك الوقت شمل غازان خان صدر الدنيا مرة أخرى بألوان اللطف والإحسان أسند إليه منصب الوزارة كسابق عهده .

(رباعى ، ترجمته):

ـ حينما تبسم الفلك لصدر الدنيا

ـ، طار إليه طائر السعادة

ـ ليقدم له تهنئة الأيام والشهور والأعوام

ـ، فقد رجع إليه الإقبال من أبواب المصلحين

وقد أقبلت طوائف الخلق مرة أخرى على ملازمة الصاحب ، وطابت نفوس الرعية ، بفضل عدالته واسترضت ضمائرهم ، ولكنه نظراً لأن الزوال مقرر لكل أمر يكتمل والانتقال مقدر لكل خط يرتفع ، فإن صدر الدنيا بعد أن أمضى مرة أخرى بضعة أيام فى العظمة والسعادة ، وشى به تورين نويين وقتلقشاه ـ وهما من أمراء الدولة ـ بالباطل لدى السلطان ، فتم القبض على الصاحب وإيداعه السجن ، ولم تنفعه هذه المرة فصاحة البيان وطلاقة اللسان وحسن التدبير ، ووضعت الأقدار نهاية ذلك الفاضل العالم الكريم فى يوم الأحد الموافق الثانى والعشرين من شهر رجب عام ٦٩٩ هـ .

(بيتان ، ترجمتهما) :

ـ كانت الورود تقول للرياح

ـ، ماذا حدث فى البداية حتى تكون النهاية هكذا !

ـ فتقول الرياح للورود : يامن

ـ، أنت راحة قلوبنا ، لاشىء ، فهذه طبيعة الأيام !

[٣١٣] **الوزير كمال الدين استجرداني :**

كان كمال الدين يتحلى بمختلف الكمالات والفضائل الإنسانية ، كما كان ذا مهارة فائقة في فن الكتابة وإدارة شئون الديوان ، وقد تولى الوزارة في عهد بايدوخان ، ولما توفي بايدوخان - بعد حكم ستة أشهر - اعتلى عرش السلطنة غازان خان بطريق الإرث والاستحقاق وعزل وقتها صدر الدنيا من منصب الوزارة لعدم رضاء الأمير نوروز عنه ، وارتفع مرة أخرى نجم الوزير كمال الدين إلى الآفاق وتولى الوزارة، ولكنه في أواخر عام ٦٩٥ هـ أراد الدهر الغادر- كشيمته المذمومة - استرداد عطاياه حيث أصبح الوزير كمال الدين من المغضوب عليهم من قبل غازان وقتل .

(بيتان ، ترجمتهما):

- أيها الفلك ! لقد خرجت الدنيا بسبب حقدك

-، وعاداتك العتيدة ظالمة !

- وأنت أيتها الأرض : لو أنهم يشقون صدرك

-، لوجدوا في باطنك الجواهر الثمينة !

الوزير سعد الدين محمد الأوجي :

كان سعد الدين وزيرا فاضلا وراعياً للفضيلة والفضلاء، ولم يكن له مثيل في علم السياق والاستيفاء ، أو في فن الكتابة والإنشاء ، وبعد استشهاد الوزير صدر الدين أحمد الزنجاني أسند إليه - بناء على أمر غازان - منصب الوزارة وتدبير أمور الدولة بالاشتراك مع الوزير رشيد الدين الطبيب ، ومرة أخرى [٣١٤] أخذت روضة الأمل للدنيا وللشعب رونقها ونضارتها بفضل انتشار العدل والإحسان وكثرة البر والامتنان . وبعد مرور بضعة أيام على هذه الحال ، أقدمت جماعة من الحساد - أمثال القاضي صاين الدين السمناني وشيخ المشايخ محمود وسيد قطب ومعين الدين غانجي - على أعمال المكر والتدبير ، وعقدوا اجتماعاً وضعوا فيه أساس الموافقة على الوزراء وأجروا القرعة فيما بينهم ، ولما بلغ خبر هذه الواقعة إلى غازان خان ، غضب وأمر بقتل معظم المدبرين .

(بيت ، ترجمته) :

– حينما أخبر سيف العدالة بالخبر

–، أطاح بالكثير من المشتركين فى التدبير

وفى الحادى عشر من شهر شوال عام ٧٠٣ ﻫ توفى غازان خان ، واعتلى فى شهر ذى الحجة من العام نفسه عرش السلطنة السلطان الجايتو –المعروف بالسلطان محمد خدابنده – فترك – كما كان فى عهد أخيه العظيم – تدبير شئون الوزارة وإدارة مصالح الجيش والرعية فى أيدى الوزيرين العظيمين رشيد الدين وسعد الدين . وطوال الفترة التى كان الوزير سعد الدين متفقاً فيها مع الوزير رشيد الدين ظلت ، مكانته ومرتبته مصونة ومحفوظة من النقص والزوال .

(بيت ، ترجمته) :

– مادام لم يخرب ورود البستان

–، فلن يدمى الدهر قلبه بالأشواك

ولما تبدلت تلك الموافقة بالمخالفة ، قام الوزير سعد الدين بتحريض تاج الدين الأوجى وجماعة أخرى من نوابه بالكيد للوزير رشيد الدين ، وتقاضوا مقابل ذلك خمسمائة تومان . وقد طلب السلطان محمد الوزير سعد الدين [٣١٥] وتلك الجماعة للتحقيق معهم ، وبعد أن ثبتت عليهم تلك الجرائم أمر السلطان بالقضاء على الوزير سعد الدين وجماعة المدبرين ، وتم تحصيل مبلغ الخمسمائة تومان – التى كانوا قد تقاضوها – من ممتلكاتهم ، وتم القضاء على الفتنة بفضل السياسة السلطانية الحكيمة .

(بيت ، ترجمته) :

– لقد ابتلت الأرض فى عهده بدم كل نمّام

–، وقلّ هبوب غبار الفتنة والتدبير

الوزير رشيد الدين الطبيب : [1]

كان رشيد الدين يتصف بفطنة أرسطو وحكمة أفلاطون ، وقد وفق فى أو اخر

---

(١) لمزيد من المعلومات حول الوزير رشيد الدين ، انظر « مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمزانى » للدكتور فؤاد الصياد . الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة عام ١٩٦٧ م .

حياته من إكمال دراسته لأقسام العلوم المختلفة ، فتعمقت معرفته بدقائق الفنون العقلية والنقلية وأصبح كما يقول الشاعر :

(بيتان ، ترجمتهما)

— لقد أعادت حكمته البالغة

—، السماع إلى الأصم

— ودرس العلوم الطبيعية كلها . :

—، فعرف سر المولود والعنصر والأجرام

وكانت رياض الفضل والفصاحة — بفضل كتابته القيمة — ناضرة مزدهرة ، وكانت حدائق الإنشاء والبلاغة مليئة بالجواهر المتلألئة من قطرات قلمه .

(بيت ، ترجمته) :

— كان قلمه ينثر الجواهر

—، وكانت كلماته تنظم اللؤلؤ والمرجان

ومن بين مؤلفات ذلك الوزير الحكيم كتاباه « جامع التواريخ رشيدى » ، « توضيحات » ، وهما معروفان [٣١٦] بين الناس ومشهوران ، وحكاياتهما الغريبة وموضوعاتهما الطريفة مذكورة ومترددة على ألسنة جمهور الفضلاء .

والخلاصة أن ذلك الوزير العظيم كان من حكماء المغول فى عصر آباقاخان ، كما صار موضوع الرعاية والاهتمام فى عهد أرغون خان وشملته العناية السلطانية . ولما أصبح كيخاتوخان سلطانا قلده منصب الوزارة ، ولكن رشيد الدين — لأمر اقتضته مصلحته فى ذلك الوقت — لم يتشرف كرسى الوزارة بوجوده .

(بيتان ، ترجمتها) :

— لقد ذكروا هذه الحكمة منذ الأزل

—، حقا لكل وقت عمل ولكل عمل وقت !

— فيجب توفير الوقت للأعمال

—، فأى عمل — دون توفير الوقت اللازم له يصبح ضعيفا واهناً !

وبعد أن اعتلى غازان خان عرش السلطنة ، استشهد الوزير صدر الدين

الزنجانى ، فتحول اهتمام السلطان المغولى إلى رشيد الدين وجعله متصرفا فى مصالح الناس برأيه الصائب ، ومنظما لأمور الرعية بفكره المتفتح .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد ارتعدت قلوب الأعداء خوفا من قوته وجبروته

—، وتيسرت أمور الأصدقاء أملا فى لطفه وعنايته

وعاش الوزير رشيد الدين فى غاية من السعادة والرفعة حتى آخر أيام السلطان غازان . ولما تولى السلطان محمد خوابنده مهام السلطنة ، قدم لذلك الوزير الحميد شتى أنواع العناية والاهتمام — أكثر مما قدمه له أخوه من قبل — وجعل [٣١٧] مكانته أعلى من مكانة جميع رجال الدولة ، وفتح ذلك الوزير العادل أبواب الإنصاف أمام الخواص والعوام ، كما جعل أهل العلم والفضيلة موضع رعايته المباشرة ، وأقام لهم بقاع الخير لسكناهم . ولازالت آثار خيرات ذلك الرجل العظيم واضحة وباقية حتى يومنا هذا فى ولايات العراق، وآذربيجان ، ولايزال الشعراء والكتاب يتحدثون بمدحه والثناء عليه لوفرة نعمه وعطاياه .

بيت عربى :

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ولما وضع القضاء والقدر نهاية لحياة الوزير سعد الدين — على يدى السلطان الجايتو — أشرك السلطان خواجه عليشاه الجيلانى فى الوزارة مع الوزير رشيد الدين . وقد قرب السلطان الجايتو — فى أواخر أيامه — الوزير عليشاه كثيراً ، فأخذ يفصل فى بعض الأمور دون علم من الوزير رشيد الدين ، ولهذا السبب سيطر الحزن والملل على نفس رشيد الدين وشكا إلى السلطان قائلا له : « حيث إننى أسبق من الوزير عليشاه فى منصب الوزارة ، فإنه يلزم عليه أن يتبعنى ! وإذا كان هو قد استقل بإدارة هذا المنصب فانه يلزم على أن انتقل إلى إدارة عمل آخر ! والآن على الوزير عليشاه أن يختار بين واحد من هذه الأمور الثلاثة ، ومن جانبى فأنا موافق عليها مقدماً : الأمر الأول ؛ يتعهد بإنجاز جميع شئون الديوان وأتفرغ أنا لعمل حسابات السنوات السابقة . الأمر الثانى ؛ يترك جميع الأمور المتعلقة بالوزراء حتى أقوى بالعناية السلطانية [٣١٨] وأفرغ من تدبيرها ، الأمر الثالث ؛ تقسم ولايات

السلطنة إلى قسمين ، ويقوم كل منا بالإشراف على قسم منها ونظهر كفاءتنا كل بقدر ما يستطيع ! » فرد عليه السلطان الجايتو بقوله : « إن الوزير رشيد والوزير عليشاه كلاهما رجل كفء ، فرشيد الدين رجل محنك عالم وعليشاه شاب مدرب عاقل ، ومصلحة الدولة هي في أن يقوم الاثنان متفقان بالبت في أمورها على أن ينظر الشيخ للشاب بعين الشفقة والرحمة وينظر الشاب للشيخ بعين التعظيم والاحترام ولا يخرجان عن دائرة الاتفاق »

وبناء على أوامر السلطان تصالح كل من الوزيرين العظيمين واشتركا في إدارة الأمور مرة أخرى ، ولكنه بعد أن توفي السلطان محمد خدابنده واعتلى السلطان أبو سعيد عرش السلطنة ، دب الخلاف مرة أخرى بين الوزيرين .

ومهما حاول الوزير عليشاه أن يتصيد للوزير رشيد الدين خطأ أو تقصيرا فإنه لن يصل إلى هدفه .

وفي تلك الأثناء توجهت جماعة من عمال الديوان إلى رشيد الدين وقالوا له : « بعد إذن جناب الوزير جئنا من أجل أمر يدين الوزير عليشاه ، لقد ثبت عليه مبلغ من المال ! » ولكن رشيد الدين — لطيب نفسه وطهارة منبته — لم يهتم بكلامهم وقال لهم : سوف أقول لعليشاه أن يسترضيكم فخاب أمل تلك الجماعة عند رشيد الدين ، لكنهم عند عليشاه قدموا الرشاوى للنواب والأمراء حتى تغيروا على [٣١٩] رشيد الدين ونسبوا إليه المعايب أمام السلطان أبي سعيد بهادرخان ، فعزله في أواخر شهر رجب عام ٧١٧ هـ .

وبعد انقضاء خمسة أوستة شهور تقريباً على هذه القضية ، طلب الأمير جوبان رشيد الدين وقال له : « إن وجودك في بلاط السلطان مطلوب ولازم لزوم الملح للطعام ، وتدبير شئون الجيش والرعية بدون الاستعانة برأيك الصائب إنما هو تدبير خاطيء ولابد لك أن تعود مرة أخرى إلى الخدمة ، وتقوم بالبت في أعمال السلطنة » فأجابه رشيد الدين قائلا : « لقد قضيت أيام عمري في الخدمة ، وقد ولى شبابي الآن وبدأت أستقبل أيام الشيب وانتهى عهد الشباب وعهد التطلع إلى العظمة والسعادة — وضعف غصن آمال الشباب بسبب تقلبات الأيام وهبوب رياحها العاتية !

(بيتان ، ترجمتهما)

ـ لقد أصبح ظهرى بسبب ذلك العمل ـ كالقوس

ـ، ونفذ السهم من عمرى الجليل

ـ وأمسك الدهر بى وهو يقول لى :

ـ، انهض ، فما نزلت به ليس منزلك

وما حققته أنا فى الوزارة لم يتيسر لغيرى ، وقد بلغ الآن ثلاثة عشر من أولادى رشدهم ، والأولى أن يكونوا هم عوضاً فى الخدمة ، أما أنا فعلى أن أتدارك مافات ، وعلى سادتى أن يطووا صفحة النسيان على حالى »

[٣٢٠] (بيت ، ترجمته) :

ـ إنه ليجب على الأسياد

ـ، أن يعتقوا ذلك الشيخ الكبير !

ولكنه رغم ما أبداه رشيد الدين من إسهاب أكثر فى مجال الندم والاستغفار فإن الأمير جوبان صمم على تكليفه بقبول منصب الوزارة ، فرضى رشيد الدين فى النهاية . ولما بلغ هذا الخبر عليشاه والجماعة التى كانت قد أوقعت بالوزير ، تملكهم الاضطراب وخدعوا أبا بكر أقا ـ وكان مقربا جدا من الأمير جوبان ـ بكثرة الأموال حتى يغير نفس الأمير على الوزير المخلص . ورغم أن الأمير جوبان كان طيبا جدا مع الوزير إلا أنه كان ذا عقل ساذج لدرجة أنه كان يحقق لكل شخص مايطلبه حسب مايقوله ، وقد بلغ الأمر إلى درجة أن أعداء رشيد الدين قالوا له : « إن إبراهيم بن رشيد الدين ـ وكان ساقيا للسلطان الجايتو ـ قد دس السم للسلطان بتحريض من والده وقد توفى السلطان محمد خوابنده بسبب ذلك ! » ونقل الأمير جوبان هذا الحديث إلى السلطان أبي سعيد بهادرخان وشهد بذلك أميران آخران كانا قد تقاضيا رشوة ـ فصدر الحكم بقتل ذلك الوزير الطيب وابنه إبراهيم . وكان استشهادهما فى السابع عشر من جمادى الأولى عام ٧١٨ هـ ، وقد سجل مولانا جلال الدين العتيقى تاريخ تلك الواقعة فى هذا البيت :

(بيت ، ترجمته) :

— حينما رحل رشيد الأمة والدين إلى الدار الآخرة

—، سجل كاتبها تاريخ رحيله وهو عام ٧١٨ هـ

[٣٢١] ومن المقطوع بصحته أن معظم أفراد تلك الجماعة التى أوقعت برشيد الدين — رحمه الله يشاء القدر أن يقتلوا فى نفس العام الذى قتل فيه ورحلوا إلى دار العقاب .

(بيت ، ترجمته) :

— دع المسىء إليك تحكم عليه الأيام

—، فسوف تجعله الأيام تابعا وعبداً لك !

الوزير تاج الدين عليشاه الجيلانى :

كان عليشاه وزيراً فاضلا ذا تدبير صائب ، وكان شعاره العدل ورعاية الشرع . وكما ذكر من قبل فإن السلطان محمد خدابنده أسند إليه الوزارة بالاشتراك مع الوزير رشيد الدين وذلك بعد مقتل الوزير سعد الدين محمد الأوجى . وقد جاء فى كتاب جامع التواريخ ما يلى :

«كان الوزير عليشان فى أوائل أيام اشتغاله بالوزارة فى غاية من علو الهمة ، وقد أقام حفلا للسلطان ولأمراء الدولة فى بغداد ، قدم فى ذلك الحفل هدية للسلطان عبارة عن درع مرصع باللآلىء الساطعة والجواهر الزاهرة يزن أربعة عشر رطلا ، وتاجا مكللا عبارة عن قطعة من الياقوت تزن أربعة وعشرين مثقالا ، وكذا تسعة غلمان حسنى الطلعة بمعاجم ذهبية ، وتسعة جياد عربية أصيلة أسرجتها وألجمتها كانت جميعها ذهبية ، ولما استشهد الوزير رشيد الدين فى شهر جمادى الأولى عام ٧١٨ هـ ، انفرد عليشاه بإدارة الوزارة ، وسلك سبيل العدل والإنصاف ، وأقام أبنية رفيعة من مدارس وخوانق وأربطة [٣٢٢] ومساجد ، وأوقف عليها أوقافا طيبة ، وفى عام ٧٢٣ هـ داهم الوزير تاج الدين عليشاه مرض شديد لدرجة أن الأطباء المهرة عجزوا عن علاجه وتوقفوا عن وصف الدواء له .

(مصراع ، ترجمته) :

ـ « ما فائدة العلاج إذا انتهى الأجل »

ولقد دميت قدما السلطان أبي سعيد بهادرخان من كثرة زيارته للوزير وعيادته ، ورغم ذلك لم يتوان عن زيارته . وقد انتقل ذلك الوزير صائب التدبير من دنيا الفناء إلى عالم الخلود ، وحملوا نعشه حسب شريعة سيد المرسلين — صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، ونقلوه إلى منطقة تبريز ودفنوه بجوار مسجد كان قد أقامه :

(بيت ، ترجمته) :

ـ ليغفر له الله من فضله

ـ، وليهنأ ويسعد فى رياض الجنات

ومن أغرب الحالات أن السلطان أبا سعيد بهادرخان كان يكرم ابنى الوزير عليشاه الجيلانى كثيرا ، وأراد أن يسند منصب الوزارة إلى أحدهما ، وفى تلك الأثناء تنازع الأخوان فيما بينهما وكادا لبعضهما ، ودخلا فى خصومة كبيرة حتى عزلهما من المناصب ، وصادر ماكانا قد جمعاه طوال العمر .

(بيت ، ترجمته) :

ـ إننى لا أشكو من الغرباء لأن

ـ، كل غم وصل قلبي إنما هو من الأقرباء

وعندئذ تصالح الأخوان وتصافيا مع بعضهما ، وأخذا يفكران ليل نهار فى كيفية حصولهم على ما يسد رمقهما .

(بيت ، ترجمته) :

ـ من الأفضل أن يظل الكلب جائعاً طالباً للخبز

ـ، لأنك لو أشبعته تحول إلى عدو !

[٣٢٣] الوزير ركن الدين صاين :

كان ركن الدين أحد أبناء ضياء الملك محمد بن مودود ، وضياء الملك كان يعمل فى وظيفة عارض الجيش فى عهد السلطان محمد خوارزمشاه ، وفى الوقت

الذى هزم فيه السلطان جلال الدين – عند شاطىء نهر السند – على يد جيش الفاتح جنكيزخان وتوجه إلى الهند ، كان ضياء الملك فى صحبة السلطان . ولاشك أنه لما عاد السلطان من هذه البلاد ، قدر خدمات ضياء الملك السابقة وجعله موضع عنايته ورفع قدره ومنزلته إلى عنان السماء ، ولكن ضياء الملك توفى وهو فى قمة المجد والسلطان ، وأما ركن الدين صاين فقد نال لقب « نصرة الدين العادل » ورفع لواء الاستقلال ونسى أفضال الأمير جوبان عليه ، فكان يتحدث دائماً عن معايبه هو وأولاده أمام السلطان أبى سعيد . ولما علم الأمير جوبان بتغير السلطان عليه ، وبخبث الوزير السيىء التدبير ، اصطحب معه ركن الدين صاين بحجة قيامه بتنظيم العمل فى ولايات خراسان ، وتوجه مسرعاً إلى تلك البلاد .

وأثناءغياب الأمير جوبان اتهم ابنه « دمشق خواجه » – وكان صاحب تصريف أمور الملك والمال – بإحدى محظيات السلطان أولجايتو ، فأصدر السلطان أبو سعيد خان – الذى كان قد ضاق بتسلط الجوبانيين – الأمر بقتله ، وطوى القدر بساط حياة دمشق خواجه ، ولما وصل هذا الخبر إلى الأمير جوبان فى خراسان – الذى كان يتصور بأن تغير السلطان إنما هو بسبب وشاية وكيد الوزير نصرة الدين العادل – استدعى [٣٢٤] الوزير وأمر الجلاد بقتله فى الحال ، فتحير ركن الدين صاين ولم يجد فرصة للمناقشة ورجا الجلاد قائلا له :

اقطعنى نصفين !! فسأله الجلاد عن هذة الحكمة من هذا الرجاء . فأشار الوزير إلى الأمير .

(بيتان ، ترجمتهما) :

– وقال له : لأن الظهر الذى يجعل

–، اعتماده عليك فى الدنيا

– يلزم أن تكون نهايته بضربة سيف

–، وهذه تكون عاقبته أيضاً

الوزير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد

كرس غياث الدين همته العالية وهو فى عنفوان الشباب – أطيب فترات العمر – فى تحصيل الفضائل النفسانية ، والتزود بالكمالات الإنسانية ، وأصبحت

ذاته المحمودة الصفات - خلال فترة قصيرة - محلاة بحلية الكمال والفضيلة .
كما أبدى مهارة فائقة فى أكثر الفنون والعلوم واشتهر بطلاقة اللسان وفصاحة البيان ، وحسن الخلق ولطف الطباع ، وسلامة النفس وتفتح الذهن . وقد سعد وهو فى أوائل أيام شبابه بأداء فريضة الحج والطواف بروضة خير الأنام عليه الصلاة والسلام ، وعصم نفسه عن ارتكاب المنهيات ، ولما قتل السلطان أبو سعيد بهادرخان الأمير دمشق خواجه بن جوبان ، أسند إلى غياث الدين محمد مقاليد الأمور وإدارة مهام الملك والمال ، وأشرك معه فى الوزارة خواجه علاء الدين محمد - من أعيان خراسان ، ولكن الوزير علاء الدين محمد تولى ديوان الإستيفاء بعد مرور [٣٢٥] ثمانية أشهر ، وانفرد غياث الدين محمد بالوزارة ، وجلس ذلك الوزير صافى الضمير على عرش السلطنة بالإرث والاستحقاق ، فعمل على إحياء مراسم العدل والإحسان ، وتوفير الأمن والأمان ، وكسب حب الجيش والرعية ، والاهتمام بالزراعة والعمارة ، كما بذل جهداً كبيراً من أجل تدعيم أركان الدين المتين ، وتثبيت شريعة سيد المرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين ، ونمت وترعرعت أغصان آمال أهل الفضل والكمال من رشحات كرمه وأفضاله وأخذت رياض أمانى علماء الدين والسعداء فى الحياتين رونقها ونضرتها من قطرات فضله وإحسانه ،

(رباعى ، ترجمته) :

- حينما صاح هاتف دولتك فى العدل
- ، فتح العدل أبواب الرحمة على الناس
- فطمع العجوز فى العيش فى هذه الدنيا البالية
- ، لأنه أصبح بفضل شبابك شاباً

ونعمت الأمم جميعاً بالراحة بفضل رعايته ، وعمت الرفاهية والسعادة جميع الناس بيمن عدالته

(بيت عربى) :

عاد الزمان إلى جميل صفاته ويفوح رياح المسك من نفحاته

وقد عم غمام إنعامه العامة والخاصة ، وامتدت يده الكريمة إلى كل محتاج ورام ،

(بيت ، ترجمته) :

ـ لقد سقا كأسه الطاهر الأزهار فى كل مكان

ـ، فكل قطرة تنزل على الأرض إنما هى من إنعامه

وقد شيد غياث الدين مدرسة فى منتهى الجمال والاتساع تبريز ، سميت تلك المدرسة بالغياثية وأوقف عليها مزارع طيبة ومشروعات نافعة .

[٣٢٦] فلا عجب أن ألف أعلام العلماء وأفاضل الناس كتبا قيمة ورسائل مفيدة باسم ذلك الوزير العظيم ، ونالوا بذلك قسطاً وافرا من نعمه وإحسانه ،

(بيت ترجمته) :

ـ لقد تحدث الخلق جميعاً بمدحه

ـ، كما تفانوا فى خدمته وطاعته

فكتاب المختصر لابن الحاجب ، وكتاب مواقف وفوائد غياثية لفخر العلماء المتبحرين القاضى عضدالدين الإيجى ، وشرح المطالع وشرح الشمسية لزبدة الفضلاء المتأخرين مولانا قطب الدين الرازى ، وكتاب تاريخ كزيده لحمدالله المستوفى القزوينى وقصيدة المصنوع والمنظوم لسلمان الساوجى ، جميعها أدلة وبراهين صادقة على ماذكرناه ومن الكلمات المضيئة لبعض الكبراء العظام ـ الذين لايشك فى صحة رواياتهم ـ سمعوا مايلى : « فى يوم من الأيام سأل الأمير الشيخ أبو إسحاق ـ الذى كان قدوة لسلاطين الآفاق وحاكماً لولايتى فارس والعراق ـ القاضى عضد الدين الإيجى قائلا له : هل لقى أهل الفضل والفضيلة فى عهد السلطان أبى سعيد بهادرخان رعاية واهتماماً أكثر أم فى عهدى ؟ فابتسم القاضى وأجاب بقوله : سوف أقص لك حالى أنا العبد الفقير وهو أن غياث الدين محمد وزير السلطان أبى سعيد بهادرخان حينما أنعم على بعطاياه ثلاث مرات خلال مجلس واحد تحقق لى هذا القدر من المال ، الذى يأخذ عنه نواب ديوانكم الآن سنوياً [٣٢٧] مبلغ ثلاثين ألف دينار عراقى وهو مايوازى عشر أملاكى (١) ، وعندئذ طلب منه السلطان توضيحاً لهذا الكلام ، فقال القاضى : كان من عادة الوزير السعيد أن يلتقى مساء كل جمعة

---

(١) إشارة إلى زكاة العشر التى تؤخذ عن الأموال التى يمر عليها عام دون أن تتحرك فى تعامل حسب الشريعة الإسلامية .

بالعلماء والفضلاء ، ويحكى لهم من عنده أربع مسائل ويجلس ، ثم يعطى الفرصة لتلك الجماعة يتحدثون على اختلاف مشاربهم ، وبعد عمل المناظرة العلمية ، كان يقرب إليه الشخص الذى يستحسن كلامه ، وفى أحد مجالس المناظرة هذه لقى كلامى قبولا لدى ذلك الراعى لأهل الفضل والكمال ، وناد انى للجلوس بالقرب منه ثلاث مرات وأجلسنى بجانبه مباشرة ، ولما علم أركان الدولة بهذا الاهتمام بى من جانب الوزير ، شملونى هم أيضا برعايتهم فلما سمع الأمير الشيخ أبو إسحق هذه الحكاية أهدى القاضى الأموال التى كان يأخذها عمال ديوانه منه كل عام وذلك فى صورة هدية من أملاك السلطان . وطبقاً للكلمة المأثورة « هذا من بركات البرامكة » فاز ذلك الفاضل بهذه العطية لمجرد نقله لإحدى السير الحميدة لذلك الوزير العظيم » .

(رباعى ، ترجمته) :

— يامن أصبح عرش الإقبال مقامك ومقعدك

—، يامن نظمت برأيك الصائب شئون البلاد

— إذا أردت أن تصبح محمودا فى العالمين

—، داوم على الاهتمام بأهل الفضل ؟

والخلاصة أن مكانة الوزير غياث الدين محمد قد تغلبت فى القوة والاقتدار على الفلك الدوار ، وقد[٣٢٨] خشيت منه جماعة كانت قد أساءت إلى أسرة رشيد الدين ، ولكن ذلك الوزير الحميد — على عكس ما ظنته فيه تلك الجماعة — جعلهم جميعاً موضع عطفه وإحسانه .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كل شخص يضع الخالق فى

—، يده تدبير أمور الخلائق

— الأفضل له أن يعمل على تحقيق

—، السمعة الطيبة لأنها هى التى تبقى تذكارا للعظماء

كما يحكون كذلك عن حلم الوزير غياث الدين محمد وسلامة نفسه فيقولون :

كان نارى طغاى من الأمراء العظام للسلطان أبى سعيد بها درخان ، وقد أسند إليه السلطان لفترة حكم خراسان ، وبعد ذلك أعمل الفتنة والظلم والفساد فى ولايات خراسان ، ثم توجه إلى قصر السلطان بهدف قتل الوزير غياث الدين محمد ، ونظرا لأن السلطان كان قد سمع عن ظلمه وطغيانه ، وما ينتويه بالنسبة للوزير ، فقد تجاهله ولم يسمح له بلقائه ، فسلح نارى طغاى مجموعة من خدمه وجهزهم وأوقفهم على باب مدرسة كانت تقع بجوار منزله وحمل هو سلاحه وتوجه إلى منزل الوزير ، وطلب الدخول مع عدد من الخدم بحجة قيام الوزير بالفصل فى مشكلة تخصهم ، فقال له ، شقيق الوزير غياث الدين محمد : إن أوامر السلطان تقضى بأن لايدخل على الوزير أى شخص مسلح ! فترك نارى طغاى سلاحه مضطرا ودخل بمفرده ، ولما وجد أن سهم تدبيره لم يصب هدفه أبدى التواضع [٣٢٩] للوزير والاحترام ورجاه أن يعمل على تطييب خاطر السلطان من ناحيته ، ويسعى بأى شكل من الأشكال ليجعله يتشرف بلقائه ، فوافق الوزير على هذا الملتمس وقال له : عليك أن تركب الآن لأننى سوف أخرج أنا أيضاً لمقابلة السلطان وأعرض أمرك عليه؟ فركب نارى طغاى وانضم إلى الرجال الذين كان قد أوقفهم أمام باب المدرسة ووقف معهم متحيناً فرصة تنفيذ فكرته السيئة ، ولكن الوزير خرج من باب آخر وتوجه لمقابلة السلطان ، وقد حدث الوزير السلطان ببيانه الفصيح عن ملتمس نارى طغاى الشرير .

(بيت ، ترجمته) :

– القمر ينشر الضياء وتعوى الكلاب

– ، وكل شخص يحب طبيعته وطينته يتصرف

فتعجب السلطان من سلامة نفس الوزير الزائدة وقال له : ألا تعلم قط ماذا يكنه لك نارى طغاى ؟ فقال الوزير : أنا عبد هذه الحضرة ومحاط برعاية السلطان وكل شخص ينتوى لى شراً دون ماسبب فسوف يحيق به حتى بمقتضى الآية الكريمة « ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله(١) »

---

(١) سورة فاطر ، آية «٤٣»

(مصراع ، ترجمته) :

ـ « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » .

فأمر السلطان على الفور بالقبض على نارى طغاى وهرب نارى حينما علم بصدور هذا الحكم لكنه فى النهاية وقع فى الفخ وقتل فى غرة شوال عام ٧٢٩ هـ وصدق عليه معنى القول المأثور « من حفر بئراً لأخيه وقع فيها »

وقد ظل الوزير غياث الدين محمد يعمل وهو فى غاية من الحرية والاستقلال بنشر العدل والإنصاف ، ورعاية أهل [٣٣٠] الفضل الأشراف حتى آخر أيام حياة السلطان أبى سعيد بهادرخان ، ولما توفى السلطان أبو سعيد فى الثالث عشر من شهر ربيع الآخر عام ٧٣٢ هـ ، اتخذ الوزير غياث الدين محمد برأيه الرزين وعقله الخبير الإجراءات اللازمة وجعل أركان الدولة يتفقون على تولى أرباخان السلطنة ، ففى الرابع عشر من الشهر المذكور اعتلى أرباخان عرش السلطنة ، فعمل على إقامة مراسم العدل والإنصاف بمشورة الوزير الهمام ، ولكن الأمير على بادشاه ـ خال السلطان الراحل والذى كان يتولى الحكم فى ديار بكر ـ رفع راية العصيان ونادى بتنصيب موسى خان سلطاناً ، وأعد جيشاً كبيراً ورفع راية الحرب والجدال ، فاستعد أرباخان للقائه ومحاربته . وفى تلك الأثناء جاءته رسالة من قبل المتمردين تقول : او يمنح السلطان الأمير على بادشاه منصب أمير الأمراء فإنه سوف يترك العصيان وينهض لمقابلة السلطان ، فلم يقبل الوزير غياث الدين محمد ذلك العرض وقال :

(بيتان ، ترجمتهما) :

ـ لن يتم الرضوخ للعدو مطلقاً

ـ ، حتى لو اتخذ له السماء مسكناً !

ـ فهل تتلقى الصقور الأوامر من العصافير !

ـ ، وهل تخضع الأسود للثعالب !

وفى تلك الأثناء أراد أرباخان القضاء على جماعة من العسكريين اتهموا بالموالاة لموسى خان والأمير على بادشاه فاعتبر الوزير غياث الدين محمد ـ من بالغ غروره ـ وجودهم وعدمهم سواء وقال :

(مصراع ، ترجمته) :

« أي داع لهذا الأمر والفكرة لاتصم الآذان ! »

والخلاصة أن الجيشين التقيا بالقرب من تفتوان فى يوم السبت السابع عشر من شهر رمضان عام ٨٣٦هـ [١٣٣١] ودارت بينهما حرب طاحنة، كتب فيها للأمير على بادشاه الظفر والانتصار مصداقاً لنص الآية الكريمة « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله[1] » وأما أرباخان والوزير فقد هرب كل منهما إلى ناحية وتعقبهما جند موسى خان وقبضوا على الوزير غياث الدين محمد فى قباب مراغة الثلاث وحملوه إلى الأمير على بادشاه — ورغم أن الأمير على ماكان يحمل فى نفسه الكثير من الآلام للوزير ، إلاأنه قدم له مراسم الإعزاز والاحترام ونادى بمعاملته بمنتهى المروءة والإنسانية ، لكن سائر الأمراء اتفقوا جميعاً على قتل ذلك الوزير العالم العادل ذى الأخــلاق الحميدة . واستشهد الوزير غياث الدين محمد بن رشيد الدين فى الحادى والعشرين من شهر رمضان من العام نفسه ، كما تم القبض فى تلك الأيام كذلك على أرباخان ولحق بالوزير ، وقد نظم أحد الفضلاء هذه الأبيات فى رثاء ذلك الوزير الفاضل :

(مرثية أربعة أبيات) :

— من كانت مرتبته اليوم كمرتبة النجوم

—، قضى عليه الفلك وواراه التراب

— وأخذ الخزانى يمزقون ثيابهم

—، حزناً عليه وتعلقا به حتى الصباح

— ويصيحون الغياث الغياث ، ويردد

—، المغمومون النواح والأنين !

— لأنهم يهلكون وزيرا له تلك المكانة

—، الرفيعة . بهذه الطريقة الوضيعة

(١) سورة البقرة ، آية « ٤٩ » .

الوزير علاء الدين :

كان الوزير علاء الدين من أعيان خراسان ، وكما ذكرنا من قبل فقد اشترك في الوزارة غياث الدين[٣٣٢] محمدمدة ثمانية أشهر للسلطان أبي سعيد بهادرخان ، وبعدها رأس ديوان الاستيفاء ، ثم أسندت إليه وزارة ولايات خراسان فتوجه علاء الدين إلى تلك المنطقة وظل يعمل بضبط وتنظيم أموال تلك المنطقة حتى وفاة السلطان . وبعد موت السلطان توجه إلى طغا تيمورخان الذى كان حاكماً على عرش المغول فى منطقة جرجان وأصبح موضع عنايته واهتمامه وأسند إليه كما كان – منصب الوزارة فى منطقة خراسان .

وفى الوقت الذى تمرد فيه الأمير عبد الرزّاق أول ملوك السربدرايين فى قرية باشتين ، كان الوزير علاء الدين محمد فى قرية فريومد وتقدم للقضاء على فتنة الأمير عبد الرزّاق ، وقد نشب القتال بين الجانبين ، فاستشهد الوزير فى تلك الحرب « يفعل الله مايشاء ، ويثبت ما يريد أنه حميد مجيد »

الوزير الأمير جمال الدين بن تاج الدين على الشروانى

حينما بلغ الأمير على بادشاه مرتبة عالية ووصل إلى مركز قوى أسند منصب الوزارة وإدارة الديوان إلى الأمير جمال الدين الشروانى الذى كان والده حاكماً لفترة من الوقت على بعض ولايات عربستان ، وقد فتح ذلك الرجل العاقل عين بصيرته خلال فترة توليه الوزارة – لأنه لم تكن لديه ثقة فى تلك الدولة – فلم يتسع إلا لمحبة الناس ولم يقدم على تنفيذ عمل قط دون إرضاء العدو والصديق ، لأن :

(بيت ، ترجمته) :

– الراحة فى الدنيا والآخرة هي فى معنى هذين اللفظين :

– المروءة مع الأصدقاء ، والمداراة مع الأعداء(١) !

وحدث فى ذلك الوقت أن نادى الأمير الشيخ حسن نويان – وكان ابن عمة السلطان أبى سعيد بهادرخان –[٣٣٣] بسلطنة محمدخان ، وتحرك من بلاد

---

(١) هذا البيت من نظم حافظ الشيرازى .

الروم لقتال الأمير على بادشاه وموسى خان ، ودارت معركة بين الطرفين في منطقة « قره دره » من توابع « اله ثاق » وذلك في الرابع عشر من شهر ذي الحجة عام ٧٣٦هـ ، انتصر فيها رجال محمد خان على رجال موسى خان وقتل بادشاه وانتهت وزارة الأمير جمال الدين ولكنه نجا من تلك الكارثة بفضل سلوكه الحميد :

(مصراع ، ترجمته) :

— « لقد أنقذته طيبته من الهلاك ! »

الوزير شمس الدين زكريا :

حينما وضع الأمير الشيخ حسن نوبان — وكان من أولاد أقبوقاء جلاير ومشهور عند المؤرخين بالأمير الشيخ حسن الأكبر — محمد خان على عرش السلطنة وانتصر على الأمير على بادشاه والسلطان موسى خان وأدخل مملكتي العراق وآذربايجان في حوزته ، وأسند منصب الوزارة إلى خواجه شمس الدين زكريا ابن أخت وصهر الوزير غياث الدين محمد — وقد ظل الوزير شمس الدين يدير ذلك المنصب طوال فترة سيطرة الأمير الشيخ حسن وولديه السلطان آويس والسلطان حسين ، ونشر لواء العدالة والإنصاف خلال وزارته ، وعندما وافاه الأجل توفى على فراشه وترك السمعة الطيبة تذكارا له .

الوزير غياث الدين محمد عليشاهى :

في الوقت الذى ولى فيه الأمير الشيخ حسن جوبانى — المعروف بين المؤرخين بالشيخ (حسن كوجك)— سليمان[٣٣٤] خان سلطانا وأخضع مملكة آذربايجان ، أسند منصب الوزارة إلى خواجه غياث الدين محمد ، وظل غياث الدين يشغل ذلك المنصب حتى آخر أيام حياة الأمير الشيخ حسن ، وبعد أن :

(بيتان ، ترجمتها) :

— زال عصر الشيخ حسن جوبانى

— ، بحكم القضاء والقدر الإلهى

— وقضى عليه على يد امرأته

ـــ، فى يوم المعراج عام ٧٥٤ هـ(١)

ونادى شقيقه ملك أشرف، بسلطنة أنوشيروان نامى — وهو من نسل جنكيز خان — وتوجه إلى سليمان خان ، فهم الوزير غياث الدين محمد بأن أسس سلطنة سليمان خان فى سبيلها إلى الزوال ، ولا جرم أن ترك الوزير الوزارة وانضم إلى ملك أشرف وقضى — دون ماتدخل فى شئون الديوان — بقية أيام حياته فى كنفه .

الوزير عبد الحى :

كان عبدالحى وزيرا للسلطان أنوشيروان خان وملك أشرف ، وبعد أن تولى ذلك العمل فترة طويلة وبذل فيه جهدا طيبا ، قبض عليه الملك أشرف وأرسله إلى كيا اسماعيل رودبارى ليحبسه فى قلعة « الموت » ، ولكن كيا اسماعيل نظر إلى الوزير نظرة إعزاز واحترام وزوجه ابنة أحد أقاربه ، وبدأ الوزير [٣٣٥] عبدالحى يراسل ملوك كيلان ، وبعث برسالة إلى الملك أشرف يقول له فيها : « سوف أدخل ملوك كيلان فى حوزة نفوذك عن قريب ! » ولما عرف ملك بأن الوزير يقضى أوقاته فى فراغ وبلا عمل ، ندم على إرساله إلى الموت ، ورأى أنه لو يطالب استدعاء الوزير فإن كيا سوف يرفض مطلبه ، وأخذ يفكر فى حيلة توصله إلى هدفه ، فأفرج عن أبناء الوزير عبد الحى وعمن كان قد قبض عليهم من أقاربه ، وأسبغ عليهم الكثير من النعم والحسنات ، فبعثت تلك الجماعة إليه قائلة : « إن السلطان يهتم برعايتنا وينبغى عليك العودة ؟ » ، وأثناء ذلك كتب ملك أشرف رسالة وأرسلها إلى الوزير مع « بحرى الفراش » — أحد رجاله المخلصين — يلتمس فيها حضوره ، فما وقعت عينا الوزير عبدالحى على تلك الرسالة تملكه القلق وأخذته الخفة حباً فى الجلوس على كرسى الوزارة ، ولوى عنانه صوب تبريز ، ومهما نصحه كيا إسماعيل قائلا له : « لاتعول على أقوال وأفعال ملك أشرف وابق فى هذه الولاية خالى البال » ، لم تجد نصائحه ، وصحبه بحرى وتوجه مسرعاً لمقابلة

---

(١) من شعر شاه مظفر الدين محمد الخالدى القزوينى .

— كتب التاريخ بطريقة حساب الجمل — لمعرفة طريقة حساب الجمل ارجع الى

— كتاب « راحة الصدور وآية السرور » للراوندى ، نقله من الفارسية إلى العربية : الدكتور إبراهيم الشواربى ، الدكتور — عبدالنعيم حسنين ، الدكتور — فؤاد الصياد . الترجمة العربية ، ص ٦٢٣ ، دار القلم ، القاهرة .

ملك أشرف ، وأخبر بجرى أشرف بمجيء عبد الحى ، فقال أشرف لبجرى : « أنزله فى منزلك وقل له بأن الأمير سيطلبك غداً ويقلدك الوزارة » ، ونفذ بجرى ما أمر به ، وفى اليوم التالى أركب جناب الوزير حصاناً هزيلا وأخذه إلى قلعة ألنجق — بأمر ملك أشرف — وسلمه لحاكمها . وبعد بضعة أيام بعث ملك أشرف بعادل — رئيس الإسطبل — أخرج الوزير من قلعة ألنجق وحبسه فى قلعة من قلاع كردستان [٣٣٦] كان حاكمها يدعى موسى حيحى . وقد احترم موسى عبد الحى كثيراً ، وظل الوزير يعيش معه معززاً مكرماً . وفى تلك الأثناء بعث الوزير عديم التدبير بعريضة إلى ملك أشرف ذكر فيها أن موسى يهمل المحافظة على القلعة وربما يستولى عليها الأكراد !

(بيت ، ترجمته) :

— حينما يغضب الدهر على أحد

—، فإنه لا يوفقه فى أى عمل يقدم عليه

فطلب أشرف موسى على الفور وعنفه ، ولما استفسر ذلك المسكين منه عما جناه ، قدم له عريضة عبد الحى ، فطمأنه موسى بأدلة موضوعية بما يثبت أنه لم يقصر مطلقا فى حراسة القلعة ، وحصل منه على مرسوم تجديد رئاسته للقلعة ثم عاد ؛ وعندئذ قيد موسى ذلك الوزير وحبسه فى غرفة مظلمة ، سد بابها بالأحجار والجص وخرق ثقباً فى سقفها ، كان يلقى كل يوم منه برغيفين من الخبز للوزير الجاهل ، وظل حال الوزير على هذا المنوال إلى أن انتقل من ذلك السجن إلى سجنه الأخير .

الوزير مسعود الدامغانى

أصبح مسعود وزيراً لملك أشرف بعد عزل الوزير عبد الحى ، وكان صهراً للوزير المذكور ، كما كان ذا خط جميل وإنشاء بليغ . وبعد أن عمل فترة قصيرة بإدارة ذلك المنصب الخطير ، قبض عليه ملك أشرف فى [٣٣٧] أوائل محرم عام ٧٥١ هـ وسجنه فى قلعة « روئين دز » . وفى ذلك الوقت سمع الملك العادل « جانى بيك خان » من القاضى محيى الدين البرادعى بأنباء ظلم وتحسس ملك أشرف ، ورأى أنه من الواجب عليه دفع شر أشرف « الحمار » وظلمه ، فتوجه على رأس جيش كبير صوب آذربايجان وتمكن من أسر أشرف ، وبذلك نعمت تلك المملكة بالعدل والإحسان ، وأسند

« جانى بيك خان » حكم آذربايجان إلى أمير العالم « بيردى بيك خان » وعاد هو إلى عاصمة ملكه. وبعد أن حقق هدفه — بعد فترة قليلة من الزمن — انتقل إلى جوار ربه ، وترك بيردى بيك خان حكم تلك المملكة مضطربا وتوجه إلى عرش والده العظيم ، فاستولى شخص يدعى « أخى جوق » بمساعدة جماعة من أمراء أشرف على آذربايجان ، وأسند منصب الوزارة إلى خواجه عماد الدين محمود الكرمانى والأمير أبى بكر بن خواجه على شاه الجيلانى. وفى عام ٧٥٩ هـ قاد السلطان أويس بن الأمير الشيخ حسن الأكبر جيشا من بغداد إلى تبريز ، وهزم « أخى جوق » ، وبذلك انتهت وزارة الوزيرين المشار إليهما .

الوزير نجيب الدين :

حينما تولى السلطان أويس الحكم فى تبريز ، أسند منصب أمير الأمراء إلى سليمان نامى ومنصب [٣٣٨] الوزارة إلى نجيب الدين — وكان شقيقا للأمير شمس الدين زكريا — وقد نظم مولانا إلياس قلندر — وكان على عداء مع صاحبى هذين المنصبين — هذه القطعة يهجوهما :

(بيتان ، ترجمتها) :

— لقد تقررت الإمارة لسليمان

— ، والوزارة لنجيب الحيران

— فكان الفلك يقول للدنيا دائما عنهما :

— ، ها هو آصف وذلك سليمان

وبعد فترة قصيرة من الزمن عزل الوزير نجيب الدين .

الوزير علاء الدين :

لقد جلس الوزير علاء الدين على كرسى الوزارة بالاسم فقط حيث مرض فى أوائل أيام إسناد الوزارة إليه وتوفى . كما توفى السلطان أويس فى جمادى الأولى عام ٧٧٦ هـ وخلفه ابنه السلطان حسين الذى قتل بعد بضعة أشهر على يد أخيه السلطان أحمد . وأثناء تلك الشهور القليلة بلغت انتصارات الفاتح الأمير تيمور گوركان إلى تلك الديار وأخضع وفتح جميع ممالك العراق وآذربايجان وفارس ؛

وزراء قطب الدين الأمير تيمور گوركان

وأولاده المشاهير

يرجع نسب السلطان الموفق الأمير تيمور گوركان — حسب ماذكرته الكتب الشهيرة — إلى « قراجارنويان » الذى كان — فى عهد الفاتح جنكيز خان — رأس قبيلةبرلاس. وقد أصبح الأمير تيمورگوركان[٣٣٩] حاكما على العالمفى عام٧٧١هـ ، وظلت السلطنة فى أسرته مدة ١٤٢ عاماً .

وفيما يلى أسماء طائفة من أولاده الذين ألقيت الخطبة وضربت العملة بأسمائهم :

١ — ميرزا خليل سلطان بن ميرزا ميرانشاه گوركان بن الأمير تيمور گوركان خلد الله ظله .

٢ — ميرزا پير محمد بن ميرزا جهانكير بن الأمير تيمورگوركان .

٣ — ميرزا شاهرخ بن الأمير تيمورگوركان .

٤ — ميرزا پيراشاه بن الأمير تيمورگوركان .

٥ — ميرزا أبو بكر بن ميرزا ميرانشاه .

٦ — ميرزا عمر بن ميرزا ميرانشاه .

٧ — ميرزا الاسكندر بن ميرزا عمر شيخ بن الأمير تيمورگوركان .

٨ — ميرزا ألغ بيك بن ميرزا شاهرخ .

٩ — ميرزا علاء الدولة بن ميرزا پايسنقر بن ميرزا شاهرخ .

١٠ — ميرزا سلطان محمد بن ميرزا پايسنقر .

١١ — ميرزا أبو القاسم بابر بن ميرزا بايسنقر .

١٢ — ميرزا عبد اللطيف بن ميرزا ألغ بيك .

١٣ — ميرزا عبد الله بن ميرزا إبراهيم سلطان بن ميرزا شاهرخ .

١٤ — ميرزا إبراهيم بن ميرزا علاء الدولة.

١٥ — ميرزا شاه محمود بن ميرزا أبي القاسم بابر .

١٦ — ميرزا سلطان أبو سعيد بن ميرزا سلطان محمد بن ميرزا ميرانشاه كوركان .

١٧ — [٣٤٠] ميرزا يادكار محمد بن ميرزا سلطان محمد بن ميرزا بايسنقر.

١٨ — أبو الغازى ميرزا سلطان حسين بن ميرزا منصور بن ميرزا بايغر ابن ميرزا عمر شيخ بن الأمير تيموركوركان .

١٩ — ميرزا سلطان أحمد بن ميرزا سلطان أبي سعيد .

٢٠ — ميرزا سلطان محمد بن ميرزا سلطان أبي سعيد .

٢١ — ميرزا عمر شيخ بن ميرزا سلطان أبي سعيد .

٢٢ — ميرزا ألغ بيك بن ميرزا سلطان أبي سعيد .

٢٣ — ميرزا سلطان سعود بن ميرزا سلطان محمود .

٢٤ — ميرزا بايسنقر بن ميرزا سلطان محمود .

٢٥ — ميرزا سلطان على بن ميرزا سلطان محمود .

٢٦ — ميرزا محمد حسين بن ميرزا سلطان حسين .

٢٧ — ميرزا بديع الزمان بن ميرزا سلطان حسين .

٢٨ — ميرزا مظفر حسين بن ميرزا سلطان حسين .

٢٩ — ميرزا أبو المحسن بن ميرزا سلطان حسين .

٣٠ — ميرزا محمد محسن بن ميرزا سلطان حسين والمشهور بـ «كبك ميرزا» .

٣١ — ميرزا بابر بن ميرزا عمر شيخ بن ميرزا سلطان أبي سعيد .

وكان من عادة هؤلاء السلاطين أنهم كانوا يقومون بتعيين الوزراء وعزلهم بسرعة جدا ، كما كانوا يعينون الرجال الأثرياء فى هذا المنصب الجليل ، فلا شك أن وصل إلى منصب الوزارة فى عهدهم عدد [٣٤١] كبير جدا ، والحديث عن جميع تلك الفئة يستوجب الإطالة ، ولذلك فسوف نكتفى بالحديث عن بعض أحوال المشاهير منهم ، ومن الله الإعانة والتوفيق .

الوزير عماد الدين مسعود السمنانى :

كان عماد الدين من أعيان سمنان ، وظل يعمل فترة طويلة بالوزارة للأمير تيمور گوركان ، وفى تلك الأوقات التى كان يحاصر فيها ذلك السلطان القوى مدينة بغداد ، ترك الوزير مسعود على رأس القوة المحاصرة ، وشاء القدر أن أصابه سهم القضاء ، ففاز الوزير بعز الاستشهاد .

الوزير جلال الاسلام :

كان يتولى جلال الإسلام الوزارة مدة طويلة فى عصر السلطان صاحب التأييد الأمير تيمور گوركان ، وكان يؤدى شئون الخدمة وواجبات الديوان كما يلزم وينبغى ، وفى الوقت الذى فرغ فيه الأمير تيمور گوركان من مهمة بغداد ، وسافر إلى تبريز ، التحق بخدمة ذلك السلطان السعيد خواجه على السمنانى من هراة وخواجه سيف الدين تونى من سبزوار . وقد جعلها الأمير تيمور گوركان موضع عنايته وإحسانه ، وأسبغ على كل منهما منصب صاحب الديوان ، وبدأت جماعة من كتاب الوزير مسعود السمنانى فى تحريض هذين السيدين للوشاية بجلال الإسلام ، وبالفعل نقل السيدان الحديثا عهد بالخدمة وشاية الواشين إلى الأمير تيمور گوركان ، ولكن الأمير لم يصغ إليهما بعين الرضا والقبول . وفى اليوم التالى أخذ يناقش [٣٤٢] ذلك الكلام مع الوزراء العظام . وقد اعتمد جلال الإسلام على الموقف الذى كان قد لمسه فى اليوم السابق ، ولم يهتم بما يدور فى المناقشة فاستثقل السلطان مسلكه هذا ، وفى الحال عزل جلال الإسلام وسجن فانتهز الراشون الفرصة ونسجوا خيوط الكذب والصدق ببعضها وحصلوا مبلغا كبيرا من ممتلكاته وممتلكات عماله . وفى تلك الأيام آثر جلال الإسلام الانتحار على تعذيب الجلادين له ، فطعن نفسه بخنجر ، ولكنه نظرا لأن طعنة الخنجر لم تحقق الهدف منها ، فقد تحسنت صحته

فى غضون يومين أو ثلاثة ، وأصبح مرة أخرى موضع عناية السلطان الذى أصدر أمره النافذ بإسناد قيادة جيش الايرانيين إليه على أن لا يتدخل مطلقا فى أمور المال .
وفى عام ٨٠٥ هـ حينما أسر السلطان السعيد « ايلدرم بايزيد » قيصر الروم وأخذ جنوده المظفرون فى فتح الولايات وتسخير القلاع فى تلك البلاد ، أصاب سهم من قلعة « ألغ برلغ » صدر جلال الإسلام واستشهد .
(بيت ، ترجمته) :

— الموت حق مهما تنوعت الأسباب

— فتارة يكون سببه الحجر وتارة يكون سببه السيف

وقد نظم أحد الفضلاء هذا البيت مثبتا تاريخ حادثة استشهاد جلال الإسلام :
(بيت عربى) :

— كان تاريخه بنصف رجب

— « طيب روح وطاب مثواه » (١)

الوزير الشيخ خسروشاهى :

كان خسروشاهى من عمال ماوراء النهر ، وفى الوقت الذى وقع فيه خلاف بين ميرزا أبى بكر وميرزا عمر من أولاد ميرزا ميرانشاه ، فى آذربايجان والعراق أغار ميرزا أبو بكر على خزانة ميرزا عمر — وكانت موجودة فى السلطانية — فجاء الشيخ خسروشاهى من سمرقند وانضم إلى ميرزا عمر وتولى منصب الوزارة ، وقد تكفل بجمع ما يساوى الأموال والأمتعة التى سلبها ميرزا أبو بكر من خزانة السلطانية ، ولذلك فقد دفع عماله إلى مصادرة أموال الرعية ، كما أثقل كاهل تجار تبريز بالضرائب الباهظة .

وفى خلال فترة قصيرة من الزمن لحق بالسلطان والوزير نتيجة ظلمهما للناس ، وهرب الشيخ بصحبة بعض الأمراء ولجأ إلى ميرزا أبى بكر فأسره ثم قتله جزاء الأعمال السيئة .

---

(١) هذه الجملة بحساب الجمل توازى عام ٨٠٥هـ . انظر المرجع السابق لمعرفة حساب الجمل .

الوزير كمال الدين محمود شهاب :

كان كمال الدين من بين الوزراء العظام لصاحب الجلالة ، وقد رفع راية الوزارة ومنصب صاحب الديوان مدة طويلة أثناء حكم صاحب القران الموفق.

الوزير غياث الدين سالار السمنانى :

كان غياث الدين يتولى دائماً إدارة عظائم المسائل الديوانية ، وكبار الأعمال السلطانية فى عصر السلطان[٣٤٤] تيمور كوركان ، وفى العام الذى كان السلطان صاحب القران الأمير تيمور كوركان قد وجه جيشا إلى بلاد الروم ، كان غياث سالار مشغولا بتنظيم دار العبادة يزد ، وكان يشيد سوقا لتجارة المنسوجات — فى منتصف سوق المدينة الرئيسى — وذلك على نفقة الديوان الأعلى ، وعندما أشرف ذلك البناء على الانتهاء جاء خبر فتح بلاد الروم ، فأسماها . « دار الفتح » ، والحقيقة أن أحدا لم يجد قط فى شتى أنحاء العالم دارا لتجارة المنسوجات بمثل تلك فى تكاليفها ونظامها ، وسارع غياث الدين سالار بعد وفاة السلطان صاحب القران الموفق للعمل فى خدمة السلطان العظيم شاهرخ ميرزا ، وقد شمله ذلك السلطان بعطفه وعنايته ، وفى عام ٨١٠ هـ كاد لسيد فخر الدين ، فعزل سيد وآل منصب الوزارة لغياث الدين سالار ، وبعد أن تولى شئون ذلك المنصب ، شمل الرعايا والمرءوسين بالعدل والإنصاف ، ولكنه ضايق الأمراء والمقربين للسلطان بكثرة التقتير معهم والمساءلة لهم . وعند ذلك أعد قائمة يوضح فيها تصرفات وأوجه إنفاق جماعة من كبار الأمراء ، وأحصى عليهم كل بيضة دجاجة ، وكل دجاجة خروفاً وكل خروف قطيعاً ، وكل ذرة هالة وكل قشة جبلا ، كما بالغ كثيرا فى ضبط ميزانية الأتراك ، فجعل كل دانق دينارا . ولما اكتمل تقييم الممتلكات فى ذلك العام ، وتوقع الأمراء وأصحاب المناصب أن الديوان سوف يحملهم بأعباء ثقيلة ، أبدى جمع من مشاهير الأمراء أمثال جهان ملك وحسن جاندار ووالده يوسف خليل وولد تيمور تاش وبهلول بن تياتيمور وسلطان بايزيد عثمان — حينما عرض المحصلون القائمة عليهم — استياءهم من تلك التقديرات ، وأخذوا يفكرون فى التآمر على [٣٤٥] السلطان السعيد شاهرخ ميرزا . ولما بلغ خبر تآمرهم إلى السلطان ، فضلوا الهرب على البقاء وتوجهوا إلى سيستان ، فتعقبهم الأمير « مضراب جاكو » ،

ودارت بين الجانبين حرب طاحنة ، ابتلى فيها بعض العاصين بشؤم الكفران بالنعمة ، والبعض الآخر تم القبض عليهم بعد ذلك بوقت قصير وأعدموا .

(بيت ، ترجمته) :

— لاتتمرد على ولى نعمتك والا حق القتل عليك بسيف قاطع !

والخلاصة أنه بسبب هذه التصرفات أصبح أكثر الأمراء والمقربين عطشى للشرب من دماء غياث الدين سالار كالمتعطش للشرب عن الماء الزلال . وبعد مضى عام واحد من توليه الوزارة أثبت سيد فخر الدين على الوزير غياث الدين مبلغ ثلاثمائة تومان ، كما أثبت الكثير من الخيانات فى أعمال الديوان عليه وعلى عماله ، فاستل الأمراء العظام سيف الانتقام من غمده وأودوا على الفور بحياة الوزير غياث الدين سالار .

(بيتان ، ترجمتها) :

— تمزق جسده على الفور إربا إربا

— بعمود ثقيل وحجر وبسيف حاد

— وهذه هى طبيعة الدنيا الغادرة

— ، فلم ير أحد وفاء من الفلك المتقلب

الوزير سيد فخر الدين محمد :

كان فخر الدين يتصف بعلو الهمة وسمو الرتبة ، وكان يزرع اللطف والإحسان فى قلوب السادات والعلماء ، ولكن طبيعته كانت مجبولة على صفات العجب والنخوة والكبرياء والأنانية ، وكثرة الظلم وقلة [٣٤٦] الرحمة ، وإلحاق الضرر بالناس ، وقد اعتلى منصب الوزارة فى أوائل أيام حكم السلطان السعيد شاهرخ ميرزا — وأدار ذلك المنصب منفردا ، كما نال حظاً وافراً من السلطنة — أكثر من ذى قبل — بعد مقتل الوزير غياث الدين سالار ، وأخذ فى إيذاء واستئصال بعض العمال الذين عادوا للعمل تحت رئاسته وحصل منهم بطريقة تعسفية ومؤذية مبلغ ثلاثمائة تومان

(بيت ، ترجمته) :

— لا تكن شجاعا فى إيذاء الناس .

— ، حتى لا تؤذى من الدهر العتيق

وأخذت مكانة سيد ومنزلته ترتفع يوما بعد يوم إلى أن بلغت أعلى مراتب العظمة والجاه ، ونفذت أوامره — كأوامر القضاء والقدر — فى جميع أنحاء البلاد وأصبح بلاطه محط آمال الصغار والكبار من شتى البلاد والديار ، ووفد على أعتابه أخيار وأشرار الممالك والأمصار .

(بيت ، ترجمته) :

— أصبحت مكانة الفلك تستمد من مكانته
— ، وأصبح الملك تابعاً لسلطانه

وعندما كان أعيان الدولة وأشراف البلاد يذهبون للقائه فإنه لم يكن يأذن لأحد منهم بالدخول إلا بعد طول انتظار ، وبعد أن يأذن لهم كان يتحتم عليهم بعد ذلك أن يمروا على مئات الأبواب المغلقة ، ثم لا يسمح بعد ذلك بالدخول إلا لعدد قليل من المشاهير الذين كانوا يعودون من أكثر اللقاءات دون ما شيء أنجزوه :

(بيت ، ترجمته) :

— ولم يكن يهتم بأمور المظلومين
— ، ولم يكن يسأل فى شكاوى الشاكين

[٣٤٧] وبعد أن قضى الوزير ما يقرب من عشر سنوات فى غاية الجبروت والاستقلال ، هبط كوكب عظمته وإقباله من أوج الشرف والكمال إلى حضيض النكبة والزوال :

(بيتان ، ترجمتهما)

— هكذا طبيعة الدنيا القاسية
— ، تجعل عاليها سافلها أحيانا وتجعل سافلها عاليها أحيانا أخرى !
— وتجعل مآسيها بعد عطاياها
— ، ومحنتها بعد راحتها !

وتفصيل هذا الكلام هو أنه فى خلال شهور عام ٨١٩ هـ أمر السلطان ميرزا شاهرخ بهادر بتعيين ابنه الرشيد ميرزا بايسنقر فى منصب رئيس الديوان السلطانى على أن يبحث مشكلات الفقراء والضعفاء ويبسط بساط العدل والإنصاف ويأخذ حقوق المظلومين من الظلمة والأشرار .

(بيت ، ترجمته) :

— ليسعد نفوس الناس بالإحسان

—، ويعمر الدنيا بالعدل والإنصاف

فلما زين الأمير بشرف جلوسه مقعد إدارة الديوان السلطانى ، ووجه عناية خاصة — بفضل خبرته وذكائه — بتجسيم السائل وضبط وتنظيم الأموال ، وقف على صورة كاملة لمسالك الوزير المذموم ، ولخياناته غير المحمودة وطمعه فى أموال المسلمين وسوء تصرفه فى عائدات الدواوين .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لقد أثبت غياث الدين والدولة بايسنقر

—، للسلطان تهوره البالغ

— ومسلكه المذموم ، وأن الناس

—، أضيروا جميعا بسبب ظلمه !

[٣٤٨] ولاجرم أن كرس الأمير همته العالية من أجل دفع شره وأشرك الصاحب السعيد خواجه نظام الدين أحمد بن خواجه داود مع سيد فخر الدين فى الوزارة ، فوقف الوزير نظام الدين أحمد — وكان متصفا بالذكاء الشديد وصفاء الذهن — على حقيقة الأمور خلال فترة قصيرة ، وكان يردد — بالجد تارة وبالهزل تارة أخرى — بعض اللطائف الغريبة والكلمات العجيبة عن سيد فخر الدين ، وقلل بذكائه وقوته من تدخل سيد فى الأمور ، وقد تضايق سيد من هذا التصرف .

(بيت ، ترجمته) :

— ماذا أفعل فى عشقك فليس عندى حيلة على الصبر

—، وماذا أفعل إن كنت أقدر أو لا أقدر !

ورغم هذا الوضع فإن عمال الديوان الذين لمسوا أخطاء سيد فخر الدين كانوا يرتعدون خوفا من بطشه كما ترتعد أوراق الصفصاف من الرياح العاتية ، وكانوا يعتقدون باستحالة الاختلاف معه .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد بدا للعمال بسبب شدة بطشه

—، أنه لا يوجد أحد يجرؤ على مخالفته

ولكنه حينما وضح للجميع تغير ميرزا بايسنقر عليه باستمرار ، وقف الأمير على شقانى — وكان قد أوذى كثيرا من سيد — موقف المعارضة منه ، وكتب للأمير قائلا له : « هل يخصص لسيد مبلغ مائتى تومان أم يخرجها من عهدته ! » فأمر ميرزا بايسنقر بالتحقيق فى هذه القضية ، فقال له الأمير على : « إن الوزير سيد صرف المبلغ كله من أموال الخزانة العامرة » ، وأنكر سيد هذا الكلام ، وقد صدر الأمر بجرد الخزانة فارتعد الخازن [٣٤٩] واضطرب وقال للذين كانوا قد أخذوا مبالغ باسم سيد : أعيدوا إلى الأموال التى كنتم قد أخذتموها منى وإلا فإنكم سوف تعاقبون جميعا !! ، وكان من بين هؤلاء خواجه بير على بن خواجه محمد بايزيد — كاتم أسرار سيد ، وتوجد باسمه مستندات لدى الخازن أخذ على أساسها مبالغ سلمها لسيد — الذى قاضاه الخازن وطلب منه الذهب ، فأخذ يماطل كل يوم إلى أن بلغ الأمر حد الخشونة معه فى الطلب واستغرق ذلك وقتا طويلا ، فانكشف الأمر ، وعرضت حقيقة هذه الأوضاع على ميرزا شاهرخ . وقد قام السلطان بنفسه بإجراء التحقيق ولما أصر سيد على الإنكار أمر السلطان بأن يسلم بير على ، أخذه من الخازن إليه كما يسلمه أيضا كل واحد ما أعطاه لسيد . وبناء على هذا حبسوا بير على وجماعة أخرى كانوا يتصرفون بتلك الطريقة ، وقوى سيد بهذا الاهتمام به وتثبت على مقعد الوزارة ، وأما تلك الجماعة التى وقعت فى الحبس فكانت تتحدث فيما بينها بصوت مرتفع يسمع فى الخارج لأنهم لم يكونوا يستطيعون التهامس خوفا من عقابه .

(بيت ، ترجمته) :

— حينما لا يجد الإنسان فرصة للهرب

—، ما عليه إلا أن يمسك السيف القاطع بيديه !

وقد قدمت جموع من كل مكان كانوا قد قدموا رشاوى إلى الوزير سيد صالحين نادمين ، فتأمل سيد الموقف واعتقد أن مصلحته الآن هى فى أن يعترف

بقبوله مبلغ المائتى تومان ولا يواجه أقوال المعارضين له ! فتعهد كتابه برد المبلغ المذكور خلال عام .

[٣٥٠] وحينئذ وضع الأمراء وعمال الديوان — حسب الأمر الصادر إليهم — قيدا ثقيلا فى قدمى الوزير سيد وسلموه للجلادين ، وقد بلغ الأمر أن أرسل سيد مضطرا رسالة إلى ميرزا بايسنقر تشفع فيها بروح حضرة النبى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — وأدرج هذا البيت ضمن الرسالة :

(**بيت** ، ترجمته) :

— إن كبدى لفى محنة وإن قلبى لغارق فى الدماء

—، فإن كنت تود أن تشملنى بالرحمة فالآن وقتها !

فأجاب عليه الأمير بقوله : ليس عندى شك مطلقا فى أن الروح الطاهرة لحضرة خير البرية — صلوات الله عليه وسلامه — غير راضية عن هذه الأفعال البذيئة التى صدرت عن سيد ، ومع ذلك فإننى ليس فى نفسى ضغينة له أو لأى شخص آخر من الناس وذلك الذى يحدث له الآن إنما هو نتيجة مظالمه ومساوئه !

(بيت ، ترجمته) :

— إن تظلم وتطمع فى العدل ، ذلك محال !

—، فما أسقيته للناس ، اشرب أنت منه الآن !

ولما استمع سيد لهذا الرد — الذى كان أمر من السم الزعاف — يئس من ناحية الأمير ولجأ إلى والدته المرحومة «گوهر شادبيكم أغا » التى تأثرت بتضرعه وابتهاله وتشفعت له عند ابنها. ولا شك أن [٣٥١] تم الإفراج عنه لكن المحصلين ظلوا يذهبون لمقابلة سيد كل يوم — تنفيذا للأوامر — طالبين منه سداد القسط المقرر من المائتى تومان ، وكان سيد يجهز ذلك المبلغ بأى شكل من الأشكال ، ويقترض نقدا وعينا من الناس بشتى الحيل والأساليب ويسدد القسط لنواب الديوان الأعلى .

ورغم حالته هذه فإنه لم يستقر له قرار ليلا أو نهارا حباً فى الوزارة ، وقد سد أذن عقله بغفلته فكان خياله يحلق فى سماء الجاه والسلطة ويحدث نفسه دائما فكان يقول مثلا :

« إنه يمكنه أخذ أموال كثيرة من فلان ! كيف يمكنه تحصيل الأموال من هذا ومن ذاك ! »

(بيت ، ترجمته) :

— إنه لمسلك قبيح استقر فى طبيعته

—، ولن يفارقه إلا إذا فارق الحياة

وفى تلك الأثناء استولت عليه — من كثرة الأحزان والهموم — الأمراض المختلفة والعلل المعقدة ولزم الفراش وعجز مهرة الأطباء عن علاجه ، وكان يتنفس الصعداء بصدر ملىء بالحقد وبقلب دام — من هول الانتقام وبجسم عاجز — تحسراً على الوزارة — إلى أن فارق الحياة فى أواخر شهر جمادى الأولى عام ٨٢٠ هـ .

وكان مشاهير خراسان والعراق ، الذين كانوا فى اضطراب دائما خوفا منه وأصبحوا بعد وفاته آمنين على حياتهم ومستقبلهم — يتبادلون فى مجلس العزاء التهنئة ،

(مصراع ، ترجمته) :

— « كانوا يبشرون الخاصة والعامة بلائن والسلام ! .. »

ويقول خواجه مرشد المكاتب فى تاريخ وفاة سيد فخر الدين :

[٣٥٢] (قطعة ثلاثة أبيات ترجمتها) :

— الوزير فخر الدين مشهور العصر وسيد الآفاق

— الذى تجاوزت هيبته عنان السماء

سقط من شدة صدمة القضاء مساء الأحد

وقضى عليه الفلك بصرخة قادمة من السماء

— فتأمل تاريخ وفاته من هذه الجملة :

« وأمن الناس من بطشه وجبروته ! »

الوزير الأمير نظام الدين أحمد داود :

ارتقى نظام الدين مقعد الوزارة بمساعدة ميرزا بايسنقر فى شهور عام ٨١٩ هـ فعقد العزم على الإخلاص فى خدمة صاحب التاج والسرير ، وعلى العداء للوزير

سيدفخر الدين . وقد أدار شئون الوزارة منفردا لبضعة أشهر بعد عزل سيد فخر الدين . وفى عام ٨٢٠هـ أصبح غياث الدين بير أحمد وزيرا كذلك ، فاستمر الوزير أحمد داود فترة أخرى يدير شئون الوزارة بالاشتراك مع ذلك الوزير . وقد روى أن الوزير أحمد داود كان حسن الطبع حلو الكلام حاضر الجواب ، وكان على علاقة طيبة بالوزير بير أحمد كما كان يمزح دائما معه . وقد وصفوا الوزير بير أحمد بالأقرعية ، ووصفوا الوزير أحمد داود -بسبب لونه المائل إلى الخضرة- بالأزرقية .

[٣٥٣] وبناء على هذا كان الوزير بير أحمد يرسل أثناء الاحتفالات — كلما كان هو المسئول عن إعداد الطعام — أطباق الكشرى[1] إلى الوزير أحمد داود . وكلما كان الوزير أحمد يتولى إعداد الطعام ، كان يرسل أطباق القرع المقلى[2] إلى الوزير بير أحمد . وذات يوم كان الوزير أحمد داود قد جلس بمفرده فى الديوان ، فجاءه أهالى قرية « شادى تبره » متظلمين ، وأخذوا يلقون بين يديه ما لديهم من قول . وفى تلك الأثناء وصل الوزير بير أحمد كذلك ، وسأل قائلا ماذا يقول رعايا شادى تبره ؟ فأجاب الوزير أحمد داود بقوله : يقولون هراء .

ويروى أن الوزير أحمد داود كان قد لبس ذات مرة حذاء أحمر ونزل إلى الحديقة ، فخاطبه ميرزا بايسنقر بقوله : يا إلهى ! لبست حذاء أحمد ! ! فأجاب قائلا : لو ألبس حذاء أسود ، فإن الناس يتصورون أن قدمى عارية !

وسائر أحوال وتاريخ وفاة الوزير بير أحمد داود لم تبد واضحة أمامى فى الكتب التى كانت فى متناول يدى أثناء تأليف هذا الكتاب ، وبناء على ذلك فقد اكتفيت فى الحديث عنه على ماتم تحريره .

الوزير غياث الدين بن أحمد الخوافى :

فى أواخر عام ٨٢٠ هـ عندما كان السلطان السعيد ميرزا شاهرخ بهادر

---

(١) طعام الكشرى يطهى فى الهند وأفغانستان وإيران من خليط من الأرز والماش ، والماش مادة تشبه العدس الذى يضاف إلى طعام الكشرى الذى يصنعه أهالى مصر . مادة الماش هذه تكسب الكشرى اللون الأزرق . هذا لون من المطايبة أثناء إقامة الموائد فى تلك البلدان .

(٢) إشارة إلى أن الوزير بير أحمد كان يوصف بالقرع .

متوجها صوب ولاية قندهار ، جمّل منصب الوزارة وزيّنه بتقليده لغياث الدين بير أحمد الذى كان إمام أبناء عصره فى كثرة الحسب وعلو النسب وإصابة الرأى والتدبير وانشراح الصدر وصفاء الضمير ، وذلك على شاطىء نهر « هيرمن » ، ووضع فى قبضته الخبيرة زمام [٣٥٤] حل وعقد وقبض وبسط أمور الملك والمال . وقد بدأ الوزير فى إدارة ذلك المنصب بكياسته وخبرته بطريقة نسخت أسطورة عدل وكفاءة آصف بن برخيا ونظام الملك الطوسى .

(بيت ، ترجمته) :

– لقد وفر العدل لتجميع خلال وزارته

–، وعمر الدنيا نبذله وعطائه

ولقد توفرت لجميع البلاد طوال ثلاثين عاما تقريبا رونق الجنات العلية وعظمة وجمال النقوش الصينية وذلك بفضل تدبير ذلك الوزير العالم . ورغم أن بعض الأشخاص قد اشتركوا معه فى منصب الوزارة أكثر من مرة فى ذلك الوقت ، إلا أن عظمة ذلك الوزير – صاحب النسب العالى – لم تسمح لأحد بالوصول إلى ذروة التصرف والاعتبار .

(بيتان ، ترجمتهما) :

– نظراً لأن نوره الساطع يجعل الشمس أكثر لمعاناً . .

–، فقد اختفت الكواكب عن الأنظار

– ولم يحاول النسر الكاسر فى عهده افتراس . .

–، الطائر المنزلى الوديع مراعياً آداب الطيران

وقد بذل الوزير غياث الدين بير أحمد خلال توليه الوزارة جهوداً من أجل رعاية الرعية ورفاهية الفقراء فى كل مدينة وولاية ، كما أقام البنايات – الرفيعة وأسس بقاع الخير فى جميع أرجاء خراسان . وما العمارات الموجودة بجوار مزار فايض الأنوار قطب السالكين ، هادى الخلائق إلى طريق اليقين زين الملة والدين الشيخ محمد الخوافى والمدرسة الواقعة فى ولاية خواف إلا بعض آثار ذلك الوزير العظيم ، والأوقاف الموقوفة على تلك المنشآت كثيرة وموجودة فى جميع أرجاء خراسان .

وقد ظل الوزير غياث الدين بير أحمد متربعا على عرش الوزارة معززا مكرماً وحتى آخر أيام حياة ميرزاشا هرخ ، ولما [٣٥٥] طوى السلطان السعيد بساط الحياة فى منطقة « بساورى » وانتقل إلى جوار ربه فى صباح يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة عام ٨٥٠هـ الموافق أول شهر فروراين من السنة الإيرانية

(مصراع فارسى ترجمته) :

— « لا لا يدوم غير الله فهو الحى الذى لا يموت »

ونظم ميرزا عبد اللطيف جيش السلطان وتوجه إلى خراسان ، هرب الوزير غياث الدين بير أحمد مضطرا بصحبة خواجه شمس الدين على السمنانى . وبعد أن وصل ميرزا عبد اللطيف إلى ولاية سمنان سارع الوزير لملاقاته وتولى الوزارة كما كان ، ولما بلغ خبر وفاة السلطان السعيد ومحاولة استقلال ميرزا عبد اللطيف إلى مسامع ميرزا علاء الدولة — وكان قد رفع راية الحكم فى دار السلطنة هراة — كلف جماعة من الأمراء والعسكريين للقيام بطرد ميرزا عبد اللطيف ، فتدفقوا أثناء الليل على معسكره ناحية نيشابور ، فحالفهم الانتصار وقبضوا على ميرزا عبد اللطيف وقدموه لميرزا علاء الدولة . أما الوزير غياث الدين بير أحمد فقد شمله ميرزا علاء الدولة برحمته فى بلدة هراة الفاخرة وولاه منصب الوزارة منصب الوزارة كسابق عهده . ولكنه حينما دب الخلاف بين ميرزا ألغ بيك وميرزا علاء الدولة ودارت الحرب بينهما فى منطقة « ترقاب » وهزم فيها ميرزا علاء الدولة وهرب وسار الوزير غياث الدين بير أحمد ، وكان وقتها فى دار السلطنة هراة ، بصحبة الأمير محمد صوفى طرخان وسلطان أبى سعيد ليكون حاكما مع العراق . وقد ألقى القبض على سلطان أبى سعيد فى الطريق أما الأمير محمد صوفى والوزير غياث الدين فقد وصلا بسلام إلى العراق ، وانتظما ضمن أركان دولة [٣٥٦] ميرزا سلطان محمد بن ميرزا بايسنقر . وفى أواخر عام ٨٥٣هـ عندما رفع ميرزا سلطان محمد راية الفتح لإخضاع خراسان ، شمل ذلك الوزير الحكيم بعطفه وإحسانه فى منطقة « كنندمان » وشرفه بمنصب أمير الديوان . ولما عاد ميرزا من خراسان ونزل بالعراق . طلب منه الوزير غياث الدين بير أحمد لسبب من الأسباب — السماح له بأداء فريضة الحج وتوجه إلى الحرمين الشريفين . ولقد دارت معركة فى أواخر عام ٨٥٥هـ بين ميرزا سلطان محمد وميرزا أبى القاسم بابر

فى منطقة « جناران اسفرايين » وحالف النصر فيها ميرزا بابر وقتل ميرزا سلطان محمد ، فتوجه ميرزا بابر مظفر مؤذرا إلى العراق . وبعد أن وصل إلى دار العبادة يزد فى عام ٨٥٦هـ ، كان الوزير غياث الدين بير أحمد – الذى فاز بنعمة أداء فريضة الحج والطواف بالروضة المطهرة لخير الأنام –عليه الصلاة والسلام– قد رجع وانضم إلى بلاط السلطان ميرزا بابر . وفى عام ٨٥٧هـ أمر ميرزا أبو القاسم بابر – لما يحمله فى نفسه من ذلك الوزير العظيم – بالقبض عليه وتقييده . وبذلك سقط الوزير [٣٥٧] بير أحمد فى فخ البلاء وورطة الألم والعناء . وقد أخذوا منه بعد ذلك مبلغ مائتى تومان ظلماً وجوراً ثم بلغ مرتبة الشهداء لكثرة الآلام النفسية وغيرها من الأمراض ودفن فى إحدى الأبنية التى كان قد شيدها عند مزار فايض الأنوار ولى الله زين الملة والدين الشيخ الخوافى قدس الله سره .

(بيتان ، ترجمتهما) :

– أيتها الدنيا : إنك لم تبق حبيبا لأحد .. والقلوب فيك أسرى القيود لاغير !

– فلا تعتمد على أموال الدنيا وجاهها ..

– لأنها كثيرا ما احتضنت مثلك ثم قتلته !

« كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون »

الوزير غياث الدين سيدى أحمد بن نظام الدين أحمد أندخورى :

كان سيدى أحمد يمتاز على أقرانه وأمثاله بالذكاء وشرف القدر وعلو النسب ورفعة منزلة الآباء . وقد اشترك فى عام ٨٣٨هـ فى الوزارة للسلطان ميرزا شاهرخ مع الوزير غياث الدين بير أحمد ، فرفع راية العدل والإنصاف ، كما كان معروفا وموصوفا بمكارم الأخلاق ورعاية الفضلاء ، وكان يكسب أيضا حب الناس بالسخاء والكرم وإيثارهم بالدينار والدرهم . وقد جاء فى كتاب روضة الصفا ما يلى :

« فى يوم من الأيام توجه الوزير سيدى أحمد إلى منزل مولانا فصيح الدين محمد الخوافى وكان رئيسا لديوان ميرزا [٣٥٨] بايسنقر لأمر ما ، وقدم مولانا عدة أطباق من طعام السماك المخلوط بدهن الخراف . ولما كان للوزير سيدى أحمد عناية خاصة واهتمام

بالمأكولات ، نظر إلى تلك الأطباق نظرة اعتبار وقال لمولانا فصيح الدين : الناس آكلون للحرام ، وهكذا يأكلون الحرام . وفى تلك الأثناء دفعت يد الوزير إحدى الأطباق فسال مقدار من الحساء على مفرش المائدة . وفى اليوم التالى أخذ مولانا فصيح الدين يتحدث فى الديوان مع بعض الناس بحضور الوزير سيدى أحمد قائلا : لقد جاء إلى منزلنا أمس الوزير سيدى أحمد وأغرق مفرش المائدة ! وسمع الوزير هذا الكلام فرد عليه قائلا : لا تضلل أفكار الناس فإنه لم يكن هناك ما يكفى من الزيت على الطعام يغرق مفرش المائدة بسكبه ! »

والخلاصة أنه بعد أن قضى الوزير سيدى أحمد فترة فى إدارة شئون الوزارة انتقل إلى رحمة الله فى العشرين من شعبان عام ٨٣٩هـ فى منطقة « قرا باغ أران » ، ونقل ابنه شمس الدين محمد نعشه إلى هراة ودفنه بجوار مزار بير خواجه أبى الوليد أحمد قدس الله سره .

الوزير الأمير علاء الدين على شقانى :

كان علاء الدين شريكا للوزير غياث الدين بير أحمد فى وزارة ميرزا شاهرخ لعدة سنوات . وقد دارت الخلافات بينهما أكثر من مرة وترددت حولهما الأقاويل عن تقصيرهما وإهمالهما ، ووصلت أخبار الخلاف [٣٥٩] إلى ميرزا شاهرخ ، فأصدر أمره إليهما بما يلى : « يقوم الوزير غياث الدين بير أحمد بالتفتيش على أعمال الأمير على كما يقوم أيضا الأمير على بالتفتيش على أعمال الوزير غياث الدين بير أحمد » ، وكان الوزير بير أحمد قد حصّل وقتها مبلغاً إجمالياً من قرية يحيى آباد -من توابع هراة- وأعطى جزء منه لصفى الدين ولد خواجه عبد القادر كو ينده - وكان رجلا مضحكا يمازح أكثر الأمراء وأركان الدولة فى مجلس ميرزا شاهرخ - وقد علم الأمير على بحقيقة ذلك الأمر فبدأ بالتفتيش على قرية يحيى آباد . وفى القرية المذكورة أنزل صفى الدين ذلك الوزير المدلل فى منزله وأخذ فى إعداد الطعام ، وقدم له وليمة طيبة كان قد خلط على بعض منها مسكرات كثيرة ، فامتنع الأمير على عن تناولها قائلا : ربما يحتويها مسكرات ! فأقسم له صفى الدين بالطلاق ، قائلا : بأن هذا الطعام لا يحتويه مسكرات ! وأشار إلى قسم من المائدة لا يحتويه مسكر ورفع قطعتين منه والتهمه . وبناء على هذا

اطمأنت نفس الأمير على ؛ وقبل أن يشبع بقليل أسكره ذلك الخليط فترنح ووضع رأسه على أوراقه فى نفس المكان الذى يجلس فيه ، ثم ركب صفى الدين على الفور وقابل ميرزا شاهرخ وقال له : « إن الوزير الذى كلفته بالتفتيش على أعمال الوزير بير أحمد جاء أولا إلى المزرعة التى استأجرها أنا الفقير وتناول قدرا من المسكرات لدرجة أنه لو يقطع عضو عضو من أعضائه ، فإنه لن يفيق ، فاستبعد السلطان التقى العادل حدوث هذا الأمر ، وبعث برسول من عنده إلى ذلك [٣٦٠] المكان ليرى ما جرى للأمير على . وقد توجه ذلك الرسول ، حسب أمر السلطان — إلى قرية يحيى آباد ووجد الأمير على فاقد الوعى فعاد وقص للسلطان ما رآه بعين اليقين فاشتعلت بلا شك نيران غضب السلطان وأرسل إليه رئيس الأسطبل لإحضاره ، فوجد رئيس الأسطبل الأمير على فى قرية يحيى آباد فى حالة تصدق عليه وقتها كلمة « لا يموت فيها ولا يحيى[1] » ، فحمله على جواد وأوصله إلى العرش السلطانى وقد عوتب الأمير على وأنب ودفع مبلغا من المال عقاباً له ، وهبطت مكانته كثيرا وبعد هذه الواقعة التزم الأمير على برأى الوزير غياث الدين بير أحمد فى البت فى جميع الأمور ، ولم يسلك معه طريق الخلاف بعد .

وقد روى أنه فى يوم الأربعاء آخر صفر ٨٤٥ هـ كان الوزير غياث الدين بير أحمد والأمير على يتحدثان مع السلطان عن ميزانية ولاية جام ، ودخل وقتها خواجه شمس الدين على باليجه والذى كان قد اطلع على تنظيم أموال الولاية المذكورة — وتحدث عن بعض جوانب تلك الميزانية ، واستفسر منه ميرزا شاهرخ عن جميع نواحى تلك الميزانية ، فقص له خواجه شمس الدين على بأسلوب شيق الوقائع التى كان قد عزمها ثم قال :

إننى لدى كلام مع الأمير على شقانى ، فأصدر ميرزا شاهرخ أمره بقيام الأمير جلال الدين فيروز شاه بمراجعة أعمال أهل الديوان ، فشق هذا الأمر كثيرا على نفس الوزير غياث الدين بير أحمد وغرق فى بحر من [٣٦١] التفكير والاضطراب . والخلاصة أن خواجه شمس الدين على السمنانى أثبت تهمة التقصير — خلال مجلس

---

(١) سورة الأعلى الآية : « ١٣ » .

أو مجلسين – على الأمير على شقانى وأبلغ صورة التهمة إلى ميرزا شاهرخ فأمر بعزل الأمير على .

الوزير شمس الدين على باليجه :

وكان من أعيان سمنان وأتصف بالفضائل والكمالات ، وكان يبذل همته دائما لرعاية أهل العلم والفضيلة . وقد تقلد شمس الدين منصب الوزارة فى عام ٨٤٥ ﻫ بأمر السلطان بعد عزل الأمير على شقانى ، ولما كان هذا الأمر على غير رغبة الوزير غياث الدين بير أحمد ، فإنه ذهب على إثره إلى بيته حزيناً مغموماً ولم يحضر إلى الديوان لمدة ثلاثة أيام . وفى تلك الأثناء وردت إلى الديوان السلطانى بضعة مذكرات من منطقة شيراز ، عرض مضمونها الوزير شمس الدين فى غياب الوزير بير أحمد ودون علمه لدى السلطان ، وكتب الرد عليها وختمها بخاتمه وبعث بها إلى الوزير بير أحمد . ورغم أن ذلك التصرف قد آلم نفس ذلك الوزير صائب التدبير ، إلا أنه خشى غضب السلطان شاهرخ وختم تلك الردود بخاتمه أيضا وحضر إلى الدوان فى اليوم التالى . وقد ظل الوزير شمس الدين السمنانى يشغل منصب الوزارة معززا مكرماً حتى آخر أيام حياة السلطان ولكن نهايته لم تتضح ، وبناء على ذلك فإننا لم نتعرض لها .

الوزير نصير الدين نصر الله الخوافى :

[٣٦٢] كان معروفا بعلو الهمة مشهورا با لكفاءة والكياسة. وقد ظل يشغل منصب الوزارة عدة سنوات لميرزا ألغ بيك فى مملكة ماوراء النهر ، ثم مرض فى عام ٨٤٥ ﻫ وعجز الأطباء عن معالجته وانتقل إلى رحمة الله .

الوزير سيد عماد الدين محمود جنابدى :

كان عماد الدين موصوفاً بمعرفة مختلف أنواع المعارف والعلوم ، ومعروفا بوقوفه على أسرار المعقول والمفهوم ، وكان والده سيد زين العابدين يشغل مصب الوزارة لفترة فى عهد السلطان تيمور گوركان و ميرزا شاهرخ . وقد التحق سيد عماد الدين بعد وفاة والده بخدمة ميرزا شاهرخ ، ولمع نجمه بسرعة وأخذ يلقى عناية ورعاية أكثر يوما بعد يوم . وفى عام ٨٤٧ ﻫ عين الأمير جلال الدين

فيروزشاه – وكان صاحب التصرف فى أمور الملك والمال – سيد عماد الدين للقيام بالتفتيش على أموال ولاية بلخ . ورغم أن سيد طلب إعفاءه من تولى ذلك العمل ، إلا أنه لم يجد جدوى من طلبه . ورغم أن السلطان شاهرخ قد أوصى بإسناد عمل أفضل إلى سيد من مهمة الإشراف على بلخ ، إلا أن سيد عماد الدين قد توجه على غير رغبة منه إلى قبة الإسلام لأنه لم يكن هناك من يستطيع أن يغير من رأى الأمير فيروزشاه .

ونظرا لأن ميرزا شاهرخ كان قد سمع بأن وكلاء الأمراء وخاصة وكلاء الأمير فيروزشاه يعربدون كثيرا ويهملون فى ولاية بلخ ، فقد أمر سيد عماد الدين محمود – خلال إجازة الأمير فيروزشاه – بالانتهاء من مراجعة حسابات تلك الولاية عن ثلاث سنوات بحضور ميرزا جوكى – وكان يقضى الشتاء [٣٦٣] هناك فى ذلك العام – ولما وصل سيد إلى قبة الإسلام بلخ وبدأ فى التفتيش على معاملات الديوان وأموال السلطان ، أثبت خلال تفتيشه على أموال الديوان مبالغ كبيرة صرفت إلى أقارب الأمير فيروز وحاشيته .

وبعد أن عاد سيد من ذلك السفر بصحبة الأمير ووصل إلى بلاط ميرزا شاهرخ ، أخذ ميرزا جوكى – وكان يكره الأمير فيروزشاه – سيدا والسجلات التى كان قد أكملها وأطلع السلطان على كيفية تصرفات وكلاء الأمير فيروزشاه ، فالتفت السلطان شاهرخ إلى الأمير فيروزشاه وطلب منه الرد على تلك التقارير ، ولم يكن يخطر ببال الأمير فيروز قط أن يتوقع مثل هذه الأسئلة من السلطان . فلا جرم أن نهض وخرج من المجلس وتغيب بضعة أيام عن الديوان ، إلا أنه ندم فى النهاية على ذلك التصرف غير المهذب وحزن كثيرا ثم مرض ، وبسبب ذلك المرض :

(رباعى ، ترجمته)

– لقد رحل كل شخص – لسبب من الأسباب – عن دار الغرور

–، وتوجه إلى الدار الباقية المليئة بالاحترام والسرور

– فلا يدوم أحد فى هذه الدنيا الفانية ،

–، سوى سبحانه الفرد الصمد ، الحى الغفور

وبعد وفاة السلطان شاهرخ ، ولما تيسر لميرزا ألغ بيك فتح خراسان ، أصبح سيد عماد الدين محمود موضع اهتمامه ورعايته ، وقلده منصب الوزارة . وقد ظل قائما بذلك العمل حتى آخر أيام حياة ميرزا ألغ بيك ، ولم يتيسر لنا معرفة أكثر من هذا القدر عن أحوال ذلك الوزير ، وبناء على ذلك لم يسطر صاحب اللسانين أكثر من ذلك .

الوزير وجيه الدين محمود بن اسماعيل السمنانى :

كان وجيه الدين شقيقا للوزير شمس الدين على باليجه ، وظل يشغل منصب الوزارة لميرزا بايسنقر وميرزا علاء الدولة مدة طويلة ، ولما اعتلى ميرزا أبو القاسم بابر عرش السلطنة ، بذل كل همته لرعاية الوزير وجيه الدين والعناية به ، وأخذ يرفع من مكانته يوما بعد يوم إلى أن ولاه إمارة الديوان السلطانى . وبعد وفاة ميرزا بابر وضع ابنه ميرزاشاه محمود — كما فعل والده من قبل أيضا — زمام أمور الملك والمال فى قبضة الوزير وجيه الدين الخبيرة . ولما هرب ميرزاشاه محمود أمام قوة ميرزا إبراهيم بن ميرزا علاء الدولة ابتلى الوزير وجيه الدين بتهمة عدم الوفاء ، وقبض عليه ميرزا إبراهيم وسجنه ، ثم فارق الحياة بعد أن لاقى الكثير من ألوان التعذيب .

(بيتان فارسيان ، ترجمتهما) :

— حينما يفقد قلبك الوفاء
—، فإنه سوف يبتلى بالكثير من المحن والآلام
— فكن وفيا مع كل واحد من أولياء نعمتك
—، لأن عدم الوفاء فيه الكثير من الإيذاء !

الوزير كلان تركشى والوزير على ابن الأمير خواجه :

وقد وصلا إلى منصب الوزارة بمساعدة الأمير الشيخ أبى سعيد الذى كان صاحب التصرف فى شئون ميرزاشاه محمود . ونظرا لأنهما كانا يتصفان بالصرامة والغلظة فإنهما بدءا أعمالهما بجمع الأموال ، وقاما :

أولا : [٣٦٥] بإلغاء ناتج الموقوفات عن المساجد والمدارس والخوانق وعن سائر

بقاع الخير ، وتصرفا فى تلك الأموال الحرام جميعها والتى كانت حقاً للمساكين والفقراء ، وحطما قلوب الضعفاء بكثرة الأعباء والأثقال .

(بيتان ، ترجمتهما) :

– جعلا جميع الأوقاف ملكاً لهما
– ، واجتثا أساس الديانة
– ولم يبقيا مسجداً فى أى مكان ولا خانقاهاً
– ، وساءت أحوال الناس من ظلمهما

وثانياً : فرضا ضريبة على محلات دار السلطنة هراة حميت عن الآفات ، وافتتحت سجلات لتحصيلها ، وبدأ المحصلون الغلاظ والشداد فى جمعها . ولما لم يكن من الممكن تحمل تلك الأعباء فقد اشتعلت نيران الظلم والاعتساف ، وعلا دخان الحزن والآلام من منازل الرعايا ، وبدا وكأن يوم الفزع الأكبر قدوقع . وأن يوم القيامة قد قام ،وأن النجاة سوف تكون إذا اختفت العنقاء . وقد ارتفع غياث الرجال والنساء إلى عنان السماء ،

(بيت ، ترجمته) : :

– لقد سمع النواح من اليمين ومن الشمال
– ، كما تردد الصباح قادماً من عنان السماء

ومهما حاول أمراء الأمير الشيخ أبى سعيد منع هذين الوزيرين الشريرين من القيام بمثل هذه التصرفات لم يفلحوا [٣٦٦] ، وهرب من الناس من استطاع الهرب تاركاً أمواله وأهله وأولاده .

(بيت ، ترجمته) :

– حينما ضاق الأمر بالناس
– ، سلكوا طريق الفرار !

وفى النهاية استجاب الله لدعاء المظلومين حسب وعده لهم بقوله(١) « أمن

(١) وردت الآية بالنص الأصلى : « أم يجيب المضطر إذا دعاه فيكشف السوء .

يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء[1] » ، ودارت الدائرة على الظالمين ، فقد أدخل الأمير حاجى – وهو من عظماء الدولة – ميرزا شاه محمود إلى المدينة عن طريق بستان الغربان ، وأمر المنادين بأن ينادوا قائلين « لايدفع أحد ضريبة المحلات ، وكل الذين دفعوا شيئا يستردون مادفعوه ! وعلى الخدم أن يغيروا على الشيخ أبى سعيد ! » ولاشك أن عامة الناس و بعض رجال الأمير قاموا بالإغارة على الأمير والوزيرين المكروهين . وفى اليوم التالى هرب الشيخ أبو سعيد فتعقبه الأمير شير حاجى بصحبة أناس كثيرين من عامة الشعب وقتلوا ذلك البائس فى موضع يقع شمال جبل المختار ، وخبت بذلك نيران شره هو والوزيرين الخاسرين .

و بناء على ماسمعناه فإنه بعد هذه الحادثة حوكم الوزير كلان تركش سجنه محمود طرخان وعذبه . وقد أتى الوزير كلان بسبب حالته السيئة بالفعلة الكبرى ، فنظم مولانا السالكى الشاعر قطعة شعرية فى هذا الغرض ، ولما نجا الوزير كلان من تلك العقوبة ، أخذ يعاتب ذات يوم السالكى ، قائلاله : [٣٦٧] هل يجوز لك أن تنظم قطعة شعرية فى أمر ألم بى ! ونشرت بذلك تلك الحادثة ؟ فقال له السالكى : إننى لاذنب لى لأننا جميعا خدام فى هذه الحضرة !

والخلاصة أنه عند مقتل الأمير الشيخ أبى سعيد ، توجه ميرزا إبراهيم لتسخير دار السلطنة هراة ، فهرب ميرزا شاه محمود ، واتضح للصغار والكبار صدق القول المأثور « الملك يبقى مع الكفر ولايبقى مع الظلم »

الوزيران شمس الدين محمد البخارى ومحمد سعد الدين :

حينما أخضع ميرزا إبراهيم دار سلطنة هراة ، جعل كلا من هذين الرجلين رئيساً للديوان وذلك فى أواسط شهر رجب عام ٨٦١هـ . ولكن مدة سلطنة ميرزا إبراهيم لم تدم أكثر من عام واحد أضاءت بعدها أنوار عدالة السلطان السعيد سلطان أبى سعيد على أحوال أهل خراسان :

الوزير شمس الدين محمد بن خواجه سيدى احمد الشيرازى :

كان شمس الدين إماماً لوزراء الدنيا بعلو نسبه وحسبه ، وحسن شيمه ومكارم

(١) سورة النمل ، آية « ٦٢ » .

أخلاقه .وقد أبدى اهتماماً كبيرا خلال توليه الوزارة بتمهيد بساط العدل والإنصاف والعمل على تحسين أحوال الجيش والرعية ، كما راعى مراسم الإعزاز والاحترام البالغين فى معاملة السادات والعلماء وأهل الفضل والتقوى . وكان يبذر دائما بذور الإنعام والإحسان فى قلوب سائر طوائف الشعب .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد رفع راية العدل والإحسان

— واجتث جذور الظلم والطغيان

[٣٦٨] وقد عين السلطان السعيد ميرزا سلطان أبو سعيد — فى أوائل أيام سلطنته — ذلك الرجل الحميد الخصال فى منصب الوزارة ، فصرف الوزير شمس الدين محمد همته فى إدارة ذلك المنصب الرفيع ، وأدى فروض الطاعة والولاء لصاحب العرش والسرير. وأخذ ميرزا سلطان أبو سعيد يزيد من الاهتمام بالوزير يوما بعد يوم إلى أن جعله فى عام ٨٦٥ هـ جليسه الخاص ونديمه المفضل أثناء الطرب والشراب ، وشمل ذلك الوزير بعنايته السلطانية وهمته الملكية . وفى عام ٨٦٨ هـ عرض خواجه نعمة الله القهستانى . وكان من بين وزراء السلطنة — كلاماً يكيد فيه للوزير شمس الدين محمد ، فاستفسر ميرزا سلطان أبو سعيد من الوزير عن حقيقة ذلك الكلام فأجابه الوزير شمس الدين محمد قائلا : « إننى أخذت الكثير من الناس مقابل أعمال أديتها لهم ، ولكننى لم أتصرف قط فى أموال الديوان ، ولم أرض أبداً بأى تقصير فى الأعمال التى كانت مسندة إلى! وما عدا ذلك فالحكم فيه لحضرة السلطان ! » . فقال له السلطان أبو سعيد : « لقد وهبتك كل ما أخذته وصرفته ! ولكنى عزلتك من منصب الوزارة ! لأنه حينما كان يحدث مثل هذا ، فإن الوزراء كانوا يصيرون موضع غضبى وحنقى — أحياناً — وأنا لا أحب أن أوذيك ! » فنهض الوزير شمس الدين محمد ومشى [٣٦٩] خطوات قليلة ثم خلع الخاتم من أصبعه ، ووضعه على ركن من أركان العرش وعاد وجلس فى مكانه هذا ولم يعرف قط فى أى وقت من الأوقات بأن وزيراً تم عزله بهذه السهولة ! . وفى ٨٧٢ هـ حينما رفع السلطان السعيد الرايات لإخضاع العراق وأذربيجان ، سير الوزير شمس الدين محمد من حدود كالبوش إلى إصفهان ،

فسارع شمس الدين إلى إصفهان وأخضع تلك المنطقة وتحارب مع ميرزا قاسم بن ميرزا جهانشاه – الذى كان قد توجه إلى إصفهان – وهزمه . ولما بلغ خبر هذه الخدمة الطيبة ميرزا سلطان أبى سعيد ، ظهر عليه الفرح والسرور وشمل شمس الدين بعنايته وعطفه . وفى الوقت الذى كان يخرّب فيه ميرزا سلطان أبو سعيد « قراباغ أران » ، استشهد على يد الأمير حسن بيك ، فأسرع خواجه شمس الدين محمد للالتحاق بخدمة ذلك الأمير وصار محل اهتمامه وعنايته واشتغل فترة فى ديوانه . وفى النهاية تخلى الدهر الغادر – كعادته – عن رعايته :

(بيتان ، ترجمتها) :

– الفلك ملتف حولنا كالحيات

–، ويلاحقنا رغماً عنا بالأضرار

– ويجعل حقده قريناً لحبه دائما

–، كما تصاحب المذلة إعزازه وإقباله

[٣٧٠] وتوضيح ذلك فيما يلى : حينما اقتربت شمس إقبال ذلك الوزير من الزوال ، حدث خلاف بينه وبين الوزير مجد الدين – أحد وزراء حسن بيك – واتهم خواجه مجد الدين إسماعيل بالاتفاق مع جماعة من أهل النفاق والتزوير ذلك الوزير العظيم عند حاكم أذربيجان والعراق بالتصرف فى أموال الديوان ، وصدق حسن بيك على هذا الاتهام وأمر بقطع يد الوزير شمس الدين محمد . وبعد وقوع هذه المصيبة كان ذلك الوزير الطاهر الصفات يقضى أوقاته فى العبادات وكتابة كلام حضرة الملك العلام إلى أن وافاه الأجل الموعود ورحل إلى العالم الآخر .

(مصراع ، ترجمته)

– « لتكن الجنات العلى مأواه ومستقره »

الوزير معز الدين الشيرازى :

وكان من وزراء السلطان السعيد ميرزا سلطان أبى سعيد . وفى تلك الأيام التى توجه فيها ميرزا سلطان أبوسعيد – بسبب تمرد السلطان صاحب القران السلطان حسين ميرزا – إلى استراباد ، ترك الوزير فى دار السلطنة هراة لصرف مرتبات

الجند والمشاهير ، فأخرج الوزير معز الدين مبلغاً كبيرا من تلك الأموال على [٣٧١] خاصته وجاد على العجزة والرعايا . ولما عاد السلطان السعيد منتصراً من تلك الرحلة ووقف على حقيقة ظلم وحيف الوزير معز الدين ، اشتعلت ثائرة غضبه وأمر رجاله بتقييد الوزير معز الدين وإلقائه فى ماء يغلى . وبذلك أخمدوا نيران ظلمه وعدوانه بماء العدل والإحسان .

لذلك يجب على صاحب هذا المنصب أن لايشعل نيران الظلم والضرر من أجل الحصول على زينة الحياة الدنيا ، والتى هى كظلال الغمام لاثبات لها ولادوام ، وعليه أن يسلك طريق اللطف والإكرام مع الجميع من خواص وعوام ، ويزين رياض الملك بتوفير العدل والإحسان ولا يؤذى نفسه العزيزة بالتفكير فى الظلم والعدوان من أجل جمع الكثير من الأموال. وأن يصقل عقله الساذج الذى يتصور قدرته على الحصول على غاية المراد ونهاية المرام ويجمع عنانه حتى لا يوضع فى الماء المغلى فى الدنيا – بسبب غضب السلطان عليه – ولا تصرخ روحه فى الآخرة بسبب العقوبات التى سيلقاها .

(مثنوى سبعة أبيات ، ترجمتها) :

– الوزير الذى بسط العدل والإحسان

–، واجتث جذور الظلم والفساد

– حظى فى الدنيا بالتوفيق والسداد

–، وحظى فى الآخرة بالغفران من الله

– والوزير الذى عمل على جمع الأموال

–، ورفع راية الظلم والضلال

– لم يكن له نصيب من السعادة فى الدنيا

–، وسوف يكون جزاؤه فى الآخرة الخسران

– فيأيها العاقل العظيم

–، الزم طريق العدالة عند توليك الوزارة

– [٣٧٢] وارفع أعلام العدل والإنصاف

ـ، واجعل قلوب الناس سعيدة بالإحسان

ـ لأنه بهذا الملك ستدوم دولتك

ـ، وليس هناك أفضل من هذا الكلام والسلام !

الوزير مظفر الدين مختار السبزوارى :

وصل مظفر إلى منصب الوزارة الرفيع فى أواخر شهر ربيع الأول عام ٨٦٥ ه وكان مفضلا على أكثر وزراء ميرزا سلطان أبى سعيد ، ولكن الوزير مظفر كان خالتا من حلية الفضائل النفسية وعاريا من معرفة شئون الحساب وإدارة مهام الديوان إلى درجة كبيرة . فلا شك أن وشى به بعد فترة قصيرة من توليةالوزارة من قبل عماله وأثبترا عليه تهمة التقصير وسوء التدبير وعزل من منصبه .

الوزير مظفر الدين مختار السبزوارى :

قضى نعيم الدين أكثر أيام شبابه فى تحصيل مختلف العلوم والفنون ، وسعى كثيراً من أجل اكتساب الكمالات وحفظ مسائل المحسوس والمعقول . ولسبب من الأسباب ـ سوف يأتى ذكره ـ رغب نعمة الله فى تعلم علم الاستيفاء فأصبح فى ذلك الفن إماما لنظرائه وأقرانه ، وبدأ تنظيم شئون الوزارة .

وكان والده خواجه علاء الدين على ، قهستانى الأصل ، وقدم إلى خوارزم لسبب من الأسباب ، وتصادف أن تمت ولادة الوزير نعمة الله هناك . ولما أقبلت الدنيا على صاحب القران محمود الخصال الأمير تيمورگوركان سارع خواجه على للالتحاق بخدمته ، فأسند إليه منصب الخازن . وبعد وفاة صاحب القران ، قام [٣٧٣] نواب ديوان السلطان شاهرخ بمحاسبة خواجه على ، وأثبتوا عليه مبلغ ألفى تومان ، فتحير خواجه على وفى تلك الأثناء توجه نعمة الله ـ الذى كان حتى ذلك الوقت مشغولا بتحصيل العلوم ـ إلى والده فى السجن ووقف منه على حقيقة الأمر . وبعد ذلك طلب أوراق المحاسبة ، ورغم أنه لم يكن أكمل استيعابه بعد لعلم الحساب والاستيفاء ، إلا أنه وقف بذكائه وتمكنه من علم الرياضة والحكمة على خطأ تلك المحاسبة وقال للمستوفى : «لم يبق على والدى أكثر من مائتى تومان» فتعجب حضار المجلس من قوة فهم وفراسة ابن خواجه على ، وأوصلوا صدى التعريف به والثناء عليه إلى كل مكان . ولما وصل إلى شاهرخ ميرزا بأنه أثبت

أن الباقى على خواجه هو مبلغ مائتى تومان بدلا من ألفى تومان ، شمله بعين عطفه وعنايته وتغاضى عن المطالبة بذلك المبلغ وأمر بإطلاق سراح خواجه على .

ويتضح من هذه المقدمة ظهور ميل وإقبال نعمة الله على تعلم علم الحساب ، فلما أجاد ذلك الفن وكل إليه منصب مستوفى أملاك شاهرخ ميرزا الخاصة . وفى العام الذى جاء فيه ميرزا ألغ بيك گوركان من بلاد ماوراء النهر لمقابلة والده العظيم فى منطقة خراسان ، طلب نعمة الله من السلطان شاهرخ أخذه معه إلى سمرقند وأسند إليه منصب مستوفى ولاية ماوراء النهر . وقد لقى نعمة الله الكثير من الحظوة [٣٧٤] فى تلك البلاد فكان يقضى أكثر أوقاته فى اللهو والطرب ، وأصبح الكأس والقدح فى يديه دائما كالوردة وشقائق النعمان ، وكان يقوم بشرب الخمور الحمراء وبسماع نغمات الناى .

[بيت عربى] :

إذا انقادت لك الدنيا وجادت بالمناشير

تشرب بين أزهار على صوت المزامير

وفى تلك الأوقات أقام نعمة الله حفلا ذات يوم فى غاية من الحسن والجمال ، وأحضر فيه خواجه محمد كنكر الذى كان وحيد العصر فى الظرف وحسن الصوت ودعا إليه ميرزا ألغ بيك .

(بيت ، ترجمته) :

— أى محفل هذا ! إنه لحفل ملكى

— أحيته البلابل الفاتنة وغمرته النعم !

وفى نفس اليوم أقام ميرزا ألغ بيك أيضا حفلا ملكياً حضره المشار إليه . وخلال الحفل قال ألغ بيك للحاضرين : هل يوجد فى الدنيا حفل فى حسن وجمال هذا الحفل ؟ فرد عليه أحد الحاضرين — وكان على عداء مع نعمة الله — قائلا : كان هناك اليوم بالمدينة حفل أجمل من هذا الحفل ! فسأله السلطان بقوله : حفل من ؟ قال : حفل نعمة الله المستوفى الذى كان يحضره خواجه محمد كنكر ! فتضايق ميرزا ألغ بيك جدا لهذا وأمر بالقبض [٣٧٥] على نعمة الله بل أمر بقتله ، ولكنه بعد لحظات هدأت نيران غضبه وتغاضى عن تنفيذ هذا الأمر . ولكن

نعمة الله لم يأمن البقاء فى سمرقند وعاد إلى دار السلطنة هراة ، فأنشأ له شاهرخ ميرزا ديوانا للطرب . وبعد أن عمل فترة بالإشراف على ذلك الديوان ، جاء ميرزا ألغ بيك مرة أخرى من سمرقند إلى تلك المدينة الجميلة ، وأخذ نعمة الله مرة أخرى معه إلى سمرقند . وقد بقى نعمة الله فى تلك البلدة حتى وقت طلوع كوكب إقبال السلطان الحميد الخصال السلطان أبى سعيد ميرزا ، وعندما قاد ذلك السلطان جيشاً من ماوراء النهر إلى خراسان ، جعل نعمة الله فى صحبة معسكر السلطان . وفى أواخر شهر ربيع الأول عام ٨٦٥ ﻫ شملت عناية السلطان أحوال نعمة الله ووصل إلى منصب الوزارة الرفيع :

(بيت ، ترجمته) :

— يالها من بشرى ! لقد أصبح الدهر وفياً

—، ووهبه ذلك المنصب الذى طالما تمناه !

وفى تلك السنوات التى أدار خلالها الوزير نعمة الله شئون الوزارة فى دار السلطنة هراة ، بلغته بعض الأقاويل عن طريقة جمع أموال ولاية فوشنج ، فتوجه بنفسه للتفتيش على تلك الولاية . ونظرا لأن رعايا تلك الولاية كانوا يدخرون الأموال ، فقدقبلوا دفع المبالغ المتأخرة عليهم على أساس العشرة خمسة عشر ، وضبط الوزير الأموال على هذا الأساس . وقد أبلغ أحد الأشرار [٣٧٦] طريقة جمع الأموال هذه على أنها نوع من الظلم — إلى السلطان العادل ، فاشتعلت نيران غضب السلطان وقبض على الوزير وعاقبه . ولكن السلطان خلال نفس الأيام وقف على حقيقة ذلك الأمر ، وجعل الوزير نعمة الله مرة أخرى موضع عنايته ورعايته ، وأسند إليه منصب الوزارة فى ولاية استراباد . وقد عاش فى تلك الولاية معززا مكرماً حتى آخر أيام حياته ، ففى عام ٨٧٢ ﻫ عندما قاد السلطان أبو سعيد جيشا من مملكة خراسان متوجهاً إلى العراق وأذربيجان ، وأخضع جانبا من تلك الولايات ، أمر كتابه العظام بنسخ مرسوم وزارة العراق باسم الوزير نعمة الله ، وبعثوا بالمرسوم إليه فى استراباد . ولما بلغ ذلك المرسوم السلطانى الوزير ، شرع فى التوجه إلى العراق تنفيذا لما جاء به ، ولكنه بمقتضى الكلمة

الطيبة « وما تدرى نفس بأى أرض تموت (١) » ابتلى الوزير فى أول الطريق بمرض الموت وانتقل إلى جوار الله . .

(مصراع ، ترجمته) :

— « لتهنأ روحه فى الجنة المنورة »

الوزير المظفر مختار السبزوارى :

حظى خواجه مظفر — فى نفس اليوم الذى وصل فيه خواجه نعمة الله إلى منصب الوزارة — أيضا بذلك المنصب الرفيع ، ولكنه نظرا لخلوه من حلية الفضائل النفسية وعدم إلمامه الكافى بأعمال المحاسبات وإدارة الشئون الديوانية فقد وشى به بعد ذلك جماعة من العمال ، وأثبتوا عليه تهمة التصرف فى الأموال والتقصير فى الأعمال . فلاجرم أن عزل من ذلك المنصب ، والله أعلم .

[٣٧٧] الوزير مولانا أمير السمرقندى :

كان أمير السمرقندى صاحب نفس طيبة جدا ، كما كان حليما قليل الإيذاء . وقد أسند إليه السلطان أبو سعيد فى أوائل أيامه منصب الوزارة ، ودامت وزارته مدة بفضل صدقه وعدله . ولما حان أجله الموعود رحل إلى العالم الآخر فى عام (٢) . .

الوزير اسماعيل الخوجانى :

فى الوقت الذى عزل فيه الوزير مظفر مختار من منصب الوزارة ، أنعم السلطان أبو سعيد على خواجه إسماعيل بمنصب الوزارة ، وكان الوزير إسماعيل يلقب بالذئب . وقد تولى الوزارة بالاشتراك مع خواجه قطب الدين طاووس ، وبناء على ذلك نظم أحد المعاصرين لهما قطعة شعرية عن واقعة اشتراكهما فى الوزارة . وفيما يلى البيت الأخير من القطعة :

(بيت ، ترجمته) :

— وخلت الدنيا من بنى الإنسان

— ، لأن هذا عصر الوحوش والطيور والشياطين

---

(١) سورة لقمان ، آية « ٣٤ » .

(٢) هكذا جاءت العبارة ناقصة فى النص الفارسى .

وقد عزل الوزير إسماعيل الحوجانى لاتهامه بالتصرف فى أموال الديوان وأودع السجن ، وأنفق ما كان قد جمعه على المصائب التى حلت به ، ولم يتول منصب الوزارة مرة أخرى :

الوزير برهان الدين عبد الحميد الكرمانى :

وكان إماما لوزراء العراق العربى فى علم الاستيفاء والحساب ، وكان والده خواجه حاجى محمود [٣٧٨] يتولى رئاسة ديوان الاستيفاء فى عصر شاهرخ ميرزا . وقد قدم برهان الدين عبد الحميد فى عهد السلطان السعيد ميرزا سلطان أبى سعيد من دار الأمان كرمان إلى ولاية خراسان ، وأصبح موضع رعاية السلطان . ولما علم السلطان السعيد بمدى نبوغه وخبرته ، جعله صاحب الأمر والنهى فى الديوان السلطانى . وبعد فترة قصيرة صار برهان الدين من المقربين للسلطان ، فكان يعرض عليه ما لديه من أعمال دون ما توسط من الوزراء ، ثم علت مكانته أكثر فى أواخر ذلك السلطان العظيم ووصل إلى منصب الوزارة الرفيع . ولما استشهد ميرزا سلطان أبو سعيد فى قراباغ ، وقع الوزير برهان الدين أسيرا فى يد رجال حسن بيك التركمانى ، وأسلم حاله — لفترة — إلى الأيام وأخذ يمضى أوقاته على أمل الإفراج عنه . وقد سمع كاتب هذه الكلمات من بعض الناس أن حسن بيك عقد يوماً مجلساً فى بلدة قم ، وطلب خواجه شمس الدين محمد وخواجه قطب الدين طاووس وخواجه برهان الدين عد الحميد ، وكانوا جميعا وزراء السلطان السعيد الذى كان ينوى وقتها أن من يجده منهم يليق بالوزارة فسوف يسندها إليه . ولما اجتمع المذكورون فى مجلس ذلك السلطان العظيم ، يتحدثون بمقتضى الكلمة المأثورة « كل حزب بما لديهم فرحون [1] » ، تحدث خلال المناقشة خواجه شمس الدين محمد — الذى كان يتصف ببراعته فى فن الإنشاء والفضيلة وحسن الخط — إلى الحاضرين كثيرا عن تلك الموضوعات .

[٣٧٩] ولما كانت طبيعة خواجه قطب الدين طاووس مجبولة على أعمال العمارة والزراعة فقد أخذ يستميل حسن بيك وحضار المجلس فى ذلك اليوم إلى تلك الأعمال . وأما خواجه برهان الدين عبد الحميد الذى كان ماهراً فى علم

---

(١) سورة المؤمنون ، آية « ٥٣ » .

السياق والاستيفاء فقد تحدث فى ذلك الفن . ولما كان الأساس فى إدارة مهام الوزارة يرجع إلى المهارة فى علم الاستيفاء والسياق ، فقد قرر حسن بيك مايلى :

يتولى خواجه برهان الدين عبد الحميد منصب الإشراف على ديوان الوزارة ، ويعين كل من خواجه شمس الدين محمد وخواجه قطب الدين طاووس فى درجة وزير على أن يكون توقيعهما أقل درجة من ذلك الوزير . ونظرا لأن المشار إليهما كانا يتقدمان — فى عهد السلطان السعيد — على خواجه برهان الدين عبد الحميد، فقد رفضا قبول هذا التعيين . وفى النهاية وافق خواجه شمس الدين محمد على تقدم ذلك الوزير عليه ، وأما خواجه قطب الدين طاووس - نظرا لاشتياقه إلى موطنه - توجه إلى بلاد خراسان . وقد بدأ خواجه برهان الدين عبد الحميد بإدارة مهام ذلك المنصب ، فأعلى علم الحشمة والأبهة . وفى عام ٨٧٧هـ حينما قاد حسن بيك جيشاً إلى بلاد الروم جعل الوزير برهان الدين محل عنايته واهتمامه أكثر من ذى قبل ، ووضع فى قبضته الخبيرة زمام حكم ولاية العراق وفوضه سلطة تعيين [٣٨٠] وعزل رؤساء تلك البلدان . ولما وصل حسن بيك إلى حدود بلاد الروم نما إلى علمه عن إبراهيم البتليسى — وكان قد تولى بالوراثة حكم مملكة بتليس لفترة من الزمن وكان فى ذلك الوقت يعيش فى بلدة قم — أنه ربما يتحين الفرصة ويهرب إلى موطنه الأصلى ، ويحدث فتنة طمعا منه فى تولى الحكم . وبناء على ذلك بعث حسن بيك برسالة إلى الوزير برهان الدين عبد الحميد ليقوم بتدبير قتله ، فتوجه برهان الدين من ساوه إلى قم ، ونزل فى إحدى المدارس واستدعى إبراهيم الذى وضع خنجرا تحت إبطه لأنه كان قد عرف السبب فى استدعائه من مستدعيه ، وتوجه لمقابلة الوزير . وأثناء المناقشة استل ذلك الخنجر فجأة وطعن به الوزير ، فقام حراس الوزير وخدمه على الفور بتقطيع جسم إبراهيم بسيف حاد إرباً إرباً . ونظرا لأن جرح الوزير كان جرحاً قاتلا ، فقد رحل إلى جوار ربه هو الآخر بعد يومين .

(بيت ، ترجمته) :

— إن الأجل لايبقى على إنسان قط

—، فملك الموت لايحابى أحدا مطلقا !

الوزير قطب الدين طاوس السمناني :

لقد عاد القلم ذو السن العنبرى — الذى حلق فى سماء ذكرى ذلك الوزير العظيم — وأخذ يحكى حصيلة [٣٨١] رحلته كما يلى : توجد بدار الوزارة سمنان قبيلتان تمتازان عن سائر أهل ذلك المكان المبارك بعلو الشأن وعراقة الأصل ، إحداهما قبيلة برهام التى يمتد نسبها إلى بهرام گور — الذى حاز شهرة أكثر من جميع ملوك الساسانيين فى الشجاعة والإحسان ، والأخرى قبيلة باليجه وكان أهلها يستجيبون دائما لسكان تلك الديار ، بل كانوا ملجأ الضعفاء صغارهم وكبارهم الذين أخنى عليهم الدهر. وكان والد ذلك الوزير العريق النسب من ضمن أكابر قبيلة برهام ، كما كانت والدته إحدى البنات المكرمات لأحد عظماء قبيلة باليجه . وهكذا فرد الوزير قطب الدين طاوس بقوة أصالة نسبه — جناح الإقبال ، وأخذ يحلق فى السموات العلى . كما كان موصوفا بكثرة الحسب فكان ينزع قصب السبق فى ميدان الامتحان من أمثاله وأقرانه .

(بيت ، ترجمته) :

— من نسبه كذلك وحسبه هكذا

—، يكون دائما قرين المجد والعظمة .

وكان ذلك الوزير دائما من بين عظماء أرباب القلم وأهل اللطف والكرم . وقد اعتلى كرسى الوزارة فى عصر السلطان ميرزا أبى القاسم بابر ، فبسط أجنحة العدل والإنصاف ، وعمل كما ينبغى فى إدارة مهام السلطنة وكسب حب الجيش والرعية . وقد شمله ميرزا بابر بمزيد من العناية والاهتمام دون سائر من تولوا منصب الوزارة . وذات يوم أقام الوزير قطب الدين طاوس وليمة فداء لنفسه ومكانته ، [٣٨٢] وأمل أن يحضرها ميرزا بابر ، وأعد لذلك حفلا ملكيا رائعا ، فاستجاب ميرزا أبو القاسم بابرا لملتمس الوزير ، وتوجه إلى منزله . وقد أدى ذلك الوزير المحظوظ فى ذلك الاحتفال مراسم الاستقبال وقدم مايليق تقديمه من هدايا وخلافه ، وذبح من أنواع الطيور ما يساوى مبلغ ثلاثين ألف دينار ، وقدم من أنواع الطعام والحلوى والفواكه الطيبة ما يصعب وصفه ويستحيل على الحاسبين الأكفاء إحصاؤه .

(مثنوى ثمانية أبيات ، ترجمتها) :

ــ ومن الشراب المختلف الألوان النقى

ــ، كالنور يشق الظلام بطلعته

ــ ملئت الكئوس البللورية عن آخرها

ــ، وعطرت بماء الورد !

ــ وقد فرش مكان الطعام بالموائد الذهبية

ــ، وازدان بالكئوس الفضية المتلئلئة كالنجوم

ــ وأصبحت تلك الموائد والكئوس

ــ، من حيث طيب الطعم والرائحة ــ غذاء للأجساد وحياة للأرواح !

ــ ففيها من الأطعمة ماتشتهى نفسك

ــ، من الطيور والأسماك

ــ كما ضم موائد من أنواع الحلوى الملونة

ــ، ماقيمته تشييد قصرا عاليا

ــ وجاء بأنضج الفواكه النادرة

ــ، وأمر البستانى بوضعها فى أوان مملوءة بالماء

ــ وأصبحت لاتتصور شيئا نادرا قط

ــ، لأنه يأتى من الماء ويؤخذ من تلك الأوانى الكثيرة

وقد احتفى الوزير قطب الدين طاوس فى ذلك اليوم بأمراء الدولة وأعيانها احتفاء عظيما . وقد شمل أيضا [٣٨٣] ميرزا أبو القاسم بابر ذلك الوزير الهمام بمزيد من الإنعام والاهتمام .

(بيت ، ترجمته) :

ــ لقد سعد الوزير وتباهى بالعطاء الوافر

ــ، وذلك بسبب حضور السلطان ذلك المجلس

وعلاوة على الإنعامات فإنه قد منحه ولاية سمنان ــ الموطن الأصلى للوزير ــ

وذلك هدية له من أموال السلطان الخاصة . ونظرا لأن تلك الولاية كانت من ممتلكات الديوان السلطاني وضعها في حوزة ذلك الوزير الحكيم دون ما خلل فيها أو نقصان ، وليس لأحد قط من أمثاله وأقرانه سلطة التدخل في أمورها .

وبعد وفاة ميرزا بابر وحينما أخضع السلطان السعيد ميرزا سلطان أبو سعيد مملكة خراسان ، شمل أيضا ذلك الرجل الفاضل بعنايته وأسند إليه منصب الوزارة وقد بدأ الوزير قطب الدين طاوس في إدارة شئون ذلك المنصب متوخيا سبيل العدل والإنصاف ، فبسط جناح الرحمة والإحسان على الرعايا والمزارعين الذين هم وديعة المنان في رقاب الحكام والرؤساء . كما عمل على زيادة الرقعة الزراعية وإقامة البنايات وكسب حب الخواص والعوام بكثرة العطاء والإنعام .

(بيتان ، ترجمتهما) :

لقد حمى الدنيا بالإنصاف

ــ وأسعد الناس جميعا بالإحسان

ــ وزرع أغصان المحبة في قلوبهم

ــ ووفر لهم راحة البال ببذل الأموال

[٣٨٤] وقد ظهرت عناية السلطان السعيد واهتمامه البالغ واضحة جلية على ذلك الوزير السعيد ، وفاقت منزلته منزلة سائر الوزراء . فلا عجب أن اشتعلت نيران الحقد والحسد عليه في نفوس الجميع ، واتهموا الوزير العظيم بسوء التصرف في الأموال لدى السلطان ، فعزله . ولكن حقيقة وشاية الواشين اتضحت وقتها للسلطان فكلفه مرة أخرى بإدارة شئون الوزارة . وقد استمع كاتب هذه السطور من بعض الصادقين من الناس ما يلي :

كان السلطان السعيد يشاور أحيانا في شئون الملك والملة وتثبيت قواعد الدين والدولة مع حضرة ولى الله صاحب الكرامات ، المتوجه دائما إلى الله شيخ الملة والدين محمد شاه المنتسب إلى ولاية فراه ، وكان يتصرف بناء على الرأى السديد لذلك الشيخ العظيم . وأثناء عزل الوزير قطب الدين طاوس ، استفسر السلطان من الشيخ عن سبب سعادة جميع مخلوقات الله ، فذكر الشيخ بطريقة الأولياء اسم الوزير قطب الدين طاوس ، فتسببت مشورته في اهتمام ذلك السلطان بالوزير

مرة أخرى ورعايته . ورغم أن الوزير كان يود الاعتذار عن قبول الوزارة إلا أنه لم يجرؤ على مخالفة الشيخ وقبل مضطرا ذلك المنصب مرة أخرى .

[٣٨٥] وقد لقى هذه المرة – أكثر من ذى قبل – عناية واهتماماً من جانب السلطان ، وفاقت مرتبته مراتب وزراء عصره .

(بيت ، ترجمته) :

– وعادت مياه إقباله إلى مجاريها

–، وصعد عرش الوزارة مرة أخرى

ولقد وجد لديه الدراويش والعلماء الحظوة والاعتبار ، ووجه همة الناس جميعا صوب الزراعة والفلاحة ، كما كان ينثر كل عام سبعة آلاف حمل من البذور فى أراضى ولاية خراسان . والحقيقة أن إنتاجه الزراعى لم يحققه أى من الوزراء مطلقا فى أى ولاية من الولايات .

(بيت ، ترجمته) :

– لقد كان مغرماً جدا بالزراعة

–، ولم يعتَن أحد بالزراعة أكثر منه

ومن بين الآثار العميمة لذلك الوزير العظيم « جدول السلطان » الذى مده من نهر باشتان شمال دار السلطنة هراة ، فبفضله خلق آلاف الحدائق والبساتين والحظائر فى كازرگاه وفى سفح جبلى زنجيرگاه والمختار وحتى عين ماهيان ، وحولها من صحراء جرداء إلى جنات النعيم ، وكانت كل منها مثل جنة رضوان فى نضرتها ، ومثل ساحة السماء فى خضرتها ، وكانت الببغاوات الفصيحة تتغنى بخضرة وجمال تلك الحدائق الغناء التى ينطبق عليها الوصف الوارد بالعبارة المأثورة « روضة من رياض الجنة » ، كما كانت البلابل البليغة تردد الألحان فى وصف حسن تلك الجنات » :

[٣٨٦] (مصراع عربى) :

– « روضة ماء نهرها سلسال »

(بيتان ، ترجمتها) :

— أصبح الجميع فى سعادة مثل الربيع

—، لأنه رسم فى عيونهم صورة الربيع

— وأخجل الحدائق الخضر بأيامه المزهرة

—، وغطى على المتنزهات الطيبة بجناته اليانعة !

وقد نقل أنه حينما أخبر الوزير قطب الدين طاوس السلطان السعيد بعزمه على إنشاء ذلك النهر العذب ، بعث إليه السلطان بمائتى فلاح وعامل أقوياء من مزارعه وأمره بأن يحفر نهرا فى جبل بيستون وذلك بشق الصخور بالفئوس والمعاول . وقد تحملت تلك الفرقة مشقة إنجاز ذلك العمل لمدة عامين ، حتى شاهدت فى النهاية مياه الأمانى والآمال تجرى فى نهر صاحب الدولة والسلطان . ولما تدفقت المياه ووصلت إلى سفح جبل المختار ، حمل الوزير قليلا من الماء ووضعه فى إناء وأرسله مع رسول إلى معسكر السلطان — الذى كان قد توجه فى ذلك الوقت إلى العراق — ولما وقعت عينا السلطان هناك على تلك المياه . شكره كثيرا ، وقال : « إن شق نهر السلطان أفضل عندى من فتح العراق ! فبفضله سوف يعمر شمال دار السلطنة هراة » ، وفى الواقع :

[٣٨٧] (بيت ، ترجمته)

— فإن هواء كازرگاه ومياه النهر السلطانى

—، ستمنح أكسير الحياة وتعيد الشباب

والخلاصة أنه بشق هذا النهر — الذى تم بفضل عناية الوزير قطب الدين طاوس — عمل ميرزا سلطان أبو سعيد على ازدياد مكانة الوزير ، وجعل قدره ومنزلته أكثر علواً وارتفاعاً .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد أينعت فى خميلة دولته ورود الإقبال

—، بفضل النهر الملىء بفيض المهيمن المتعال !

فوصلت أوامر السلطان إلى دار السلطنة هراة المتضمنة تقدير السلطان وإعجابه

بالوزير الحكيم تقضى بأن يجهز الوزير فرقة جيش خراسان المشاه ويتوجه على رأسها للالتحاق بموكب السلطان . وقد نفذ الوزير قطب الدين طاوس ماأمره السلطان وامتطى جواداً أصيلا وتوجه على رأس جيش مترجل لمقابلة السلطان . وفى الطريق اعترضته جماعة من المخالفين المنحرفين - الذين كانوا يطمعون فى منصب الوزارة - وصمموا على القتال معه ، فتصدى لهم الوزير قطب الدين طاوس وانتصر بعون الله عليهم ، وواصل طريقه مظفرا منصورا ، وأسرع للقاء السلطان العظيم . وبعد وصوله إلى العرش السلطانى أبلغ السلطان بواقعة محاربته للمخالفين ، فقدم له ميرزا سلطان أبوسعيد مراسم العناية والتقدير ، [٣٨٨] ولقب ذلك الوزير المخلص بلقب صاحب السيف والقلم ، وترك له مهمة تدبير شئون ولايات العراق وسلمه الخاتم الأعظم ليتصرف فى أمور الجماهير حيث يشاء ، فرفع ذلك الوزير لواء عدالته على أهالى البلاد المظلومين من قبل التركمان . ولكنه بعد أن هزم السلطان السعيد فى قراباغ آران ، وقتل على يد الأمير حسن بيك التركمانى ، رفض الوزير قطب الدين طاوس تولى الوزارة لحسن بيك ولوى عنانه عائدا إلى خراسان .

وعندما كان السلطان الراحل حسين ميرزا قد سيطر فى المرة الأولى على بلاد خراسان ، فإنه كان قد شرف الوزير العظيم بمنصب الإشراف على الوزراء وهو واسطة العقد بين الأمراء والوزراء. وفى أواخر ذى الحجة عام ٨٧٤ ﻫ حينما أخضع ميرزا يادگار محمد بن ميرزا سلطان محمد بن ميرزا با يسنقر منطقة خراسان بمساعدة الأمير حسن بيك بهادر ، اهتم كذلك بأحوال الوزير قطب الدين طاوس وأسند إليه منصب [٣٨٩] وزارة الديوان ولكن عمر سلطنة ميرزا يادكار محمد لم يمتد كعمر الزهور أكثر من أربعين يوما حيث انقض بعدها السلطان صاحب القران أبو الغازى السلطان حسين ميرزا - فجأة وفى جنح الظلام - على ذلك السلطان الغافل فى « باغ زاغان » وقضى عليه وعلى حكمه .

(رباعى ، ترجمته) :

لقد ارتعدت وردة فى الصباح الباكر وبكت

-، وقصت لرياح الصبا قصتها وانتهت !

ــ فانظر إلى طبيعة الدهر الغادر الذى غرس الوردة

ــ، ونماها وأزهرها خلال عشرة أيام وأفناها !

ورغم أن الوزير قطب الدين طاوس صار مرة أخرى مشمولا بالعطف والإحسان فى عهد السلطان صاحب القران ، إلا أنه مهما أغراه بالتكفل بمهام الديوان ، كان يرفض تولى ذلك المنصب فى قوة وإصرار ، ولم يسع مطلقا للحصول عليه وتغاضى كلية بمحض اختياره عن قبول أى منصب أو حكم . وقد قضى عدة سنوات فى دار السلطنة هراة فارغ البال ، ونفض ذهنه من التفكير فى أعباء الوزارة وشغل نفسه بأعمال الزراعة والعبادة . ولكنه فى العام الذى اعتلى فيه الوزير مجد الدين محمد عرش الوزارة ، فتح أبواب النزاع والجدال ــ طمعا فى الأموال ــ ضد[٣٩٠] قطب الدين حميد الخصال ففكر قطب الدين طاوس فى النجاة بنفسه ولوى عنانه صوب العراق وآذربايجان ، فلقى فيها شتى ألوان الإعزاز والاحترام .

وفى عام ٩٠٠هـ ــ وكان قد بلغ من العمر ٧٢ عاما ــ سمعت آذانه صوت ملك الموت ، وحسب قوله ــ تعالى ــ : «كل نفس ذائقة الموت[1]» ، حطمت روحه الطاهرة قفصها .

(بيتان ، ترجمتها) :

ــ وألقت بجسم طاوس هناك

ــ، بعد أن أتم للدنيا جمالها ورونقها

ــ وكل واحد فى الدنيا سلطانا كان أم فقيرا

ــ، لابد له من أن يمر من هذا الطريق !

الوزير عبد الله أخطب :

وكان يعمل فى بداية أمره باكتساب الفضائل وتحصيل العلوم، ثم مال إلى العمل مع السلاطين فأسند إليه السلطان أبو سعيد أعمال الوزارة ، وقد تصرف الوزير عبد الله فى إدارة ذلك المنصب بتمكن واقتدار لاحد لهما، وخلال فترة قصيرة من الزمن ، سطع نجمه وعلا شأنه :

---

(١) سورة آل عمران ، آية (١٨٥) .

وقد سمعت من صديق عزيز صادق القول مايلى : لقد حدث خلال وزارة الوزير عبد الله أخطب أن وشى أحد الأشرار بخواجه كمال الدين حسين كبرنكى — وكان فى ذلك الوقت من كبار أعيان ولايات خراسان وتولى الوزارة فى عهد السلطان المظفر سلطان حسين ميرزا كما وشى بأخيه خواجه عبد الله ، وكان هذا الأخوان يتصفان بكثرة [٣٩١] الأسباب ووفرة الأموال ، وأدخل ذلك الشرير فى روع ميرزا سلطان أبى سعيد أنهما يتهربان دائما من دفع الضرائب ، ولا يسجلان الأموال التى فى حوزتهما بصدق أبداً . فلاشك أن صمم السلطان على أن يعاقبهما ويدخل مبلغا كبيراً إلى خزانة السلطنة من أموالهما . وقد أوكل مهمة التحقيق فى ذلك الموضوع إلى الوزير عبد الله أخطب ، ولكن الوزير مهما فتش وراجع فإنه لم يثبت — من الناحية الحسابية — شيئا على الأخوين . واعتبر ميرزا سلطان أبو سعيد هذه النتيجة على أنها نوع من المداهنة ، فبعث برسالة إلى الوزير عبد الله يقول له فيها : « لقد أشفقت على الأخوين كبرنكى ولم تثبت تهربهما ، وإننى سوف آمر بسلخ وجهك ! » ولكن الوزير عبد الله بفضل همته العالية وعزة نفسه لم يحزن مطلقا . ولم يتشرب الخوف والتردد إلى نفسه بسبب هذا ، وانتزع خاتم الوزارة من إصبعه وأرسله إلى السلطان قائلا له : « ما دمت ستسلخ وجهى بسبب هذا الخاتم فهاهو الخاتم أرسلته إليك وتركت رئاسة ذلك المنصب » فأعاد ميرزا سلطان أبو سعيد الخاتم له وبعث إليه برسالة كلها حب ومودة ، ولهذا السبب علت مكانة الوزير عبد الله . ولما طوى القضاء والقدر بساط سلطنة السلطان السعيد وأصبح ميرزا سلطان حسين ملكا على خراسان ، أسند منصب الوزير أيضا إلى خواجه عبد الله . وفى الوقت الذى توجه فيه [٣٩٢] ذلك الملك العظيم صوب جناران لصد ميرزا يادكار محمد ، ظل الوزير عبد الله — بناء على أمر السلطان فى دار السلطنة هراة ، ففتح أبواب الظلم والاعتداء على الرعايا والمحكومين وبدأ فى إحصاء ممتلكاتهم وجردها ، وكان يقسم للمساكين بالطلاق والأيمان المغلظة قائلا لهم : « اذكروا تفاصيل كل ما تملكونه من نقد وجنس ، واحضروها إلى الديوان حتى يتم تقييمها بالذهب ! » فلا جرم أن نفذ الصغار والكبار أوامره مضطرين :

وقد بلغت آهات المغمومين وقتها أوج السماوات .

(بيت ، ترجمته) :

— لقب ارتفعت الأصوات والصرخات

—، فارتطمت أصداؤها بالسموات

وفى النهاية اجتمع عدد من الناس عامة وعملوا تجمهراً كبيراً شاملا، وفى الصباح عندما كان الوزير عبد الله متوجها — لإشعال نيران الظلم — إلى دار عدالة ميرزا شاهرخ ، أمطروه بالأحجار من جميع جهات السوق ، ولكن الوزير أنقذ نفسه بلطائف الحيل من تلك المهلكة واختفى فى مكان ما، ولما بلغ هذا الخبر السلطان حسين ميرزا أصدر أمره بالقبض على الوزير عبد الله الذى آثر الهرب على البقاء عندما علم بهذا الأمر وتوجه مسرعا إلى قلعة شادمان . فأسند إليه ميرزا سلطان محمود — أمير تلك البلاد — منصب الوزارة . وبذلك يجلس خواجه عبد الله مرة أخرى على مقعد الوزارة ، وقد ظل مدة طويلة يدير ذلك المنصب وهو فى منتهى [٣٩٣] العظمة والأبهة . وفى أواخر أيام حياته وبسبب خلافه مع أحد الوزراء — كان قد قام بضبط ومراجعة أموال ولاية ترمذ . توجه إلى تلك الولاية حتى يظهر خطأ فى ضبط أموال ترمذ ويثبت على خصمه الاختلاس والتقصير ، وبذلك ترتفع أعلام قدرته وكفاءته .

وقد غرق الرعايا والمزارعون — فى تلك المنطقة — فى بحر من الحيرة والاضطراب بسماعهم خبر قدومه المفجع ، فأخذ الفقراء والمساكين يبتهلون بالدعاء إلى الله أن يقضى على هذا الوزير . وقد استجاب الله لدعائهم فى نفس الوقت ، فقبل أن يصل الوزير عبد الله إلى ترمذ غرق فى بحر الفناء . وكانت تلك الواقعة كما يلى : حينما وصل الوزير عبد الله — أثناء طريقه — إلى إحدى فروع نهر آمويه ، طلب أن يعبر ذلك النهر بحصانه ، ونظرا لأن النهر كان هادئا جدا وكانت بعض قطع الجليد تطفو فوق سطحه ، فإن بعض المرافقين للوزير حاولوا منعه من العبور ، وحيث إن مشيئة الأقدار شاءت أن تطفىء شعلة حياته — فى ذلك اليوم بماء الفناء — فإنه لم يعبأ بكلامهم وقذف بجواده فى ذلك النهر ، فأغرق سفينة حياته فى محيط الفناء .

(رباعى ترجمته) :

— كل شخص يرحل بأحد الأسباب عن دار الفناء هذه

— ، قاصدا دار البقاء والخلود !

— ولا يخلد فى الدنيا أحد

— ، سوى ذات الله التى لا مثيل لها !

[٣٩٤] الوزير نظام الدين بختيار السمنانى :

وهو من أهل ولاية سمنان ، وكان فى عصر السلطان السعيد جابيا لولاية بادغيس ، وفى عهد السلطان حسين ميرزا اشترك فى الوزارة ، وأصبح مسئولا عن تحقيق الأموال الضائعة ، وتعهد بأن يدخل مبلغ ثلاثة آلاف تومان من هذا الباب إلى الديوان ، ونظرا لأنه لم يكن يتيسر تحصيل نصف ذلك المبلغ ، فقد انتهت مهمة نظام الدين رغما عنه خلال فترة قصيرة ، ودأب المسئولون على إيذائه والإضرار به ، وذات يوم على مرأى ومسمع من الموجودين بالديوان قال الوزير نظام الدين — نظرا لقلة عقله وإدراكه — مايلى : « حيث إن الحديقة البيضاء وحديقة الغربان وكل الحدائق السلطانية تدخل جميعا ضمن الموارد الضائعة فإنه يجب تثمينها وحسابها ضمن المبلغ المذكور. حتى يتحقق ماقلته ! » وقد بلغ هذا الهراء السلطان فأمر بعزل نظام الدين وتم تأنيبه وسجنه وفى سجنه انتقل من عالم الفناء إلى عالم البقاء لا بسبب كثرة الأمراض النفسية عليه بل بمحض القضاء والقدر .

(مصراع ، ترجمته) :

— « يجب أن لا يثقل أحد على نفسه من أعباء الدنيا » .

الصاحب السعيد الوزير شمس الدين محمد مرواريد :

كان شمس الدين يمتاز على معظم أكابر كرمان بعلو النسب وكثرة الحسب وعظم الشأن والقدم . وقد [٣٩٥] رحل ذلك الرجل عن وطنه الأصلى فى عصر ميرزا جهانشاه التركمانى :

بسبب ظلم التراكمة وتعسفهم ثم توجه إلى دار السلطنة هراة ، وبعد وصوله أصبح موضع عناية ورعاية السلطان السعيد ميرزا سلطان أبى سعيد وتولى الوزارة له ، وبذل فى تلك الأيام كل جهده للسهر على راحة العامة والخاصة ، وفتح

أبواب العدل والإنصاف أمام الجميع . وعندما توجه السلطان السعيد إلى العراق قصد ذلك الوزير تنفيذا لأوامر السلطان سمرقند ، ولكنه نظرا لأن يد القضاء والقدر قد طوت بساط حياة ميرزا سلطان أبي سعيد أثناء ذلك السفر وجلس السلطان صاحب القران على عرش السلطنة في خراسان ، فإن الوزير شمس الدين محمد قد رجع من تلك الولاية إلى دار السلطنة هراة وأخذ مكانة في خدمة ذلك السلطان ، وصار خلال فترة وجيزة موضع عنايته ، وبدأ في إدارة شئون الوزارة ويبذل جهودا لا حد لها من أجل إراحة نفوس كافة الرعايا وعامة البرايا . وكان ذلك الوزير المخلص — دون ما تكلف أو إسهاب — سليم النفس ، قليل الضرر ، طاهر العقيدة ، ودليل ذلك أنه قد تخلى باختياره عن ذلك المنصب في عام(1) .... ، وسلك طريق الفقر والمسكنة . وعند ذلك أسند إليه السلطان منصب شيخ وحارس موقوفات مزار فايض الآثار قطب الأقطاب المختار [٣٩٦] من رب الأرباب ، المقرب لحضرة الله إلى إسماعيل خواجه عبد الله الأنصاري قدس الله سره — وكما هو متوقع من حسن كفاءة وقدرة ذلك الرجل فإنه ظل فترة طويلة في إدارة ذلك العمل وبذل جهداً كبيراً وسعياً مشكوراً في تنمية الأوقاف وتعمير تلك المنطقة وتنظيم الرواتب والضيافة ، ولكنه في النهاية طلب إعفاءه من ذلك العمل أيضا ، وأخذ يقضي أيامه السعيدة في أداء مختلف الطاعات والعبادات كما شغل جزءا من أوقاته في نسخ المصاحف فنسخ اثنين وعشرين مصحفا على الورق ، ثم وافاه الأجل الموعود حسب قول — تعالى — : « كل شيء هالك إلا وجهه »(2) في العاشر من شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، وقد قام ولداه الكبيران شهاب الملة والدين عبد الله سلمه الله وأبقاه الذي لم يكن له في صفاته الملكية والذي بلغت شهرته في وفرة الفضائل والكمالات وكثرة المحاسن ومكارم الأخلاق شتى الأطراف والآفاق ، وحضرة الفاضل خواجه محي الدين يحيي — وحيد عصره في محامد السير ولطائف الأعمال — بإقامة مراسم العزاء اللازمة لوالدهما العظيم ، وقرآ على روحه الطاهرة الكثير من كلام رب العالمين ، وأطعما الفقراء والمساكين ، وقد واساهما السلطان الرحيم السلطان حسين [٣٩٧] ميرزا ، وقدم لهما العزاء ، وأنعم

(1) لم تكتب السنة في النص الأصلي.

(2) سورة القصص آية (٨٨)

عليهما بالخلع الفاخرة والأموال الوافرة ، كما رفع عن أبناء وأسرة المرحوم أردية الحزن والسواد ، وقد نظم نظام الحق والحقيقة والدين والمقرب من السلطانية الأمير عليشير هذا الرباعي في رثاء الوزير شمس الدين محمد مرواريد :

(رباعي ، ترجمته) :

– لقد رحل الوزير محمد إلى جنات النعيم

– ونجا من – هذه الدار – دار الجحيم

– وإذا كان مروان قد رحل عن دار الفناء هذه

– فإنه خلف درتين يتيمتين عنه كتذكار !

الوزير علاء الدين على الصانعي :

كان الصانعي من أشراف ولاية باخرز ، ونظراً لأن نسبه الشريف كان يتصل بالبرامكة فإنه كان دائماً يتباهى بذلك ويفخر ، وكان معروفاً بحدة الطبع وصفاء الذهن ، ومتصفاً بكثرة الجود والسخاء على أهل العلم والفضل. وقد تولى الوزارة في أوائل عصر السلطان حسين ميرزا ، وأخذ في إدارة ذلك المنصب الرفيع. ونظراً لأنه كان قاسياً في جمع الأموال ، فإنه كان يستبيح الظلم والإيذاء بالعجزة والرعايا ، كما كان يضمر دائماً في نفسه نية الكيد والتزوير لزملائه وشركائه ، ولذلك تغير عليه مقرب الحضرة السلطانية الأمير عليشير ، ولكثرة تمارضه غضب عليه أيضاً السلطان ، وعندما كان الوزير [٣٩٨] صانعي جالساً في مجلس الطرب ، رفع أحد الحراس – تنفيذا للأوامر – عمامة الوزير وكانت محكمة جداً ولفها حول عنقه ، وعند ذلك نظر الأمير عليشير إلى السلطان وأنشد هذا المصراع :

(مصراع ، ترجمته) :

– « حيث إنك كنت قد أحكمتها جيداً حول رأسه ، أحكمها الآن جيداً حول عنقه ! »

والخلاصة أنه تمت مؤاخذة الوزير صانعي ومعاقبته ، ثم حبس في الطابق الأعلى من السجن بعد أن دفع مبلغاً كبيراً لخزانة الديوان ، وقد ظل ما يقرب من ثلاثين عاماً في السجن ، نظم أثناءها غزلية رائعة وبعث بها إلى مقرب الحضرة السلطانية مطلعها :

(بيت ، ترجمته) :

ـ يا من لم تسمع أذناك أبداً صراخى

ـ، ويا من لايجول بخاطرك أبداً خيالى

ولكنه لم يحقق بذلك أية فائدة ، ولم يغفرله الأمير . وقد سمعت مايلى : لقد أقبل صانعى خلال سجنه على تحصيل الفضائل ، وانغمس فى قراءة مقدمات العلوم وطالع كذلك مختصر التلخيص ، كما [٣٩٩] تشرف أيضاً بحفظ القرآن الكريم ، ودرس القصيدة المصنوعة لسلمان الساوجى ، واستعمل الكثير من تلك الصناعات فى كتاباته ، وإن شاء الله سوف نتحدث قريباً عما آل إليه أمره .

الوزير سيف الدين مظفر شبانكاره :

كان مظفر من أعيان مملكة فارس والعراق . ولما رحل من تلك المنطقة إلى دار السلطنة هراة ، وأصبح من عظماء أهل القلم ، أسند إليه أخيراً السلطان حسين ميرزا منصب الوزارة ، وقد ظل الوزير مظفر يدير فترة – وهو فى غاية المكنة والاستقلال – شئون السلطنة والديوان . وفى تلك الأثناء اتهمه جمع من الأشرار بالاختلاس والتقصير ، فعزله السلطان حسين ميرزا وسجنه ، ولما مضى على سجنه بضعة أيام ، صدر الأمر - بسبب سعاية المغرضين – بقتل الوزير ، وقد استمعت والعهدة على الراوى –إلى ما يلى :

حينما غضب السلطان على الوزير مظفر وأمر بقتله ، قال أحد النواب : إلى متى سيظل الوزير صانعى فى السجن ؟ .. فقال السلطان : سوف يحاكم اليوم كذلك ! وفى ذلك اليوم – وكان من أيام شهر المحرم عام ٨٤٠هـ – صلبوا [٤٠٠] الوزير صانعى على مدخل سوق هراة ، والوزير مظفر على بوابة السلطان ... وقد نظم أحد الفضلاء وقتها هذا الرباعى .

(رباعى ، ترجمته) :

ـ أيها الناظر انظر إلى الفلك الظالم

ـ، انظر فى جبروت الدنيا القاسية !

ـ وقس وجرب على نهاية الصانعى

ـ، وتمعن فيما آل إليه حال مظفر شبكانكاره !

الوزير مجد الدين محمد بن خواجه غياث الدين پير احمد الخوافى :

كان مجد الدين يمتاز على أكثر عظماء الدولة وأعيان البلاط بعظم الشأن ورفعة وعلو الهمة ، وكان مجد الدين يعمل جاهداً أثناء اشتغاله بالوزارة على إسعاد الرعايا والوقوف على آلام الفقراء والضعفاء وحل مشاكلهم ، كما كان ماهراً في علم الفلك وفن الإنشاء ، وكانت له قدرة خارقة فى حسم المهام والقضايا المختلفة .

(بيت ، ترجمته) :

— كانت أسرار النجوم واضحة أمام فكرة المستنير

—، وببساطة حل تدبيره معضلات السلطنة

وقد تولى ذلك الرجل رئاسة ديوان الإنشاء فترة فى عصر السلطان السعيد ميرزا سلطان أبى سعيد وعمل لبضعة أيام — فى أوائل سلطنة حسين — فى وزارة الأمير ميرزا سلطان محمد — المشهور بميرزا كيجيك — ولدميرزا سلطان أحمد ابن ميرزا سيدى أحمد بن ميرزا ميرانشاه بن الأمير تيمور گورگان — والذى كان ابن شقيقه [٤٠١] السلطان العظيم . ولما بدت مهارته وظهرت كياسته أمام ذلك السلطان الفاتح . اهتم به اهتماماً خاصاً وأخذ يرفعه يوماً بعد يوم من درجة إلى درجة إلى أن وصل الأمر بأن أصدر أمره بأن يوقع مجد الدين محمد — رغم وجود رئيس ديوان الرسائل والخاتم الملكى — على الأحكام والمنشورات السلطانية بجوار الخاتم الأعظم بعبارة « اطلع عليه » . وحينما كان السلطان الأعظم يرتقى عرش السلطنة ويأخذ فى بحث شئون الدولة كان مجد الدين محمد يجلس وحده بجوار العرش السلطانى ، ويعرض على السلطان أمور الملك والمال ، وشكاوى الشاكين وغيرهم ويسجل كل حكم يصدره .

(بيت ، ترجمته) :

— هذا قليل على مدى وضعه ومكانته وهو

—، أنه كان يجلس فى حضرة السلطان ، فى حين كان الجميع يقفون !

ولما صدر له الحكم المذكور — على النهج السابق — اشتعلت نيران الحقد والحسد فى نفوس أركان الدولة ، فقال الأمير حسن شيخ تيمور — وكان أعلى درجة من الأمراء العظام — للسلطان : لم يعرف قط عن السلاطين الأقوياء أنهم كانوا يجلسون

أمامهم أحد الإيرانيين فى الوقت الذى يقوم فيه جميع أمراء الدولة وأركانها بالخدمة وهم واقفون فى خشوع بكل أدب واحترام ! فرد السلطان على الفور على [٤٠٢] مقرب الحضرة السلطانية الذى كان الحامى – من قبل – لمجد الدين محمد، قائلا له : ليس ضرورياً قط أن ينهج موظفو الديوان السلطانى نهج السلاطين السابقين فى كل شىء ، بل ينبغى أن تعطى الفرصة للموظفين الأذكياء للابتكار ،

(مصراع ، ترجمته) :

– « كان يجعل الجميع يفكرون تفكيراً سليما بفضل طباعه اللطيفة »

والخلاصة أن المناصب المذكورة قد أسندت إلى مجد الدين محمد ، وشملته العناية السلطانية ، وارتفعت مكانته ومنزلته أكثر مما يتصوره الخيال ، ووضعت فى قبضته الخبيرة إدارة شئون الملك والمال بحرية واستقلال ، وأصبحت أعتابه العلية ملاذاً للجند والرعية ، بل أصبحت ملجأ للأمراء الأقوياء والوزراء الأذكياء .

(بيت ، ترجمته) :

– أصبح إمام عظماء العالم ذلك

–، ملاذاً وملجأ لأبناء آدم جميعاً !

وطوال أيام ذلك الوزير الموفق ، لم يتبق فى نفس مخلوق أية غصة أو جراح ، لأنه كان يعرض جميع المسائل المالية صغيرها وكبيرها ، ويفصل فيها بمجرد وصولها . والحقيقة أن الوزير مجد الدين محمد كان يعمل كما يلزم وينبغى من أجل إنجاز جميع الأمور السلطانية ، والأعمال الديوانية . كما بذل جهداً مشكوراً لفتح أبواب العدل والإنصاف أمام العبد ، ورفع مستوى الشعب وتثمر العمران فى البلاد .

[٤٠٣] (بيت ، ترجمته) :

– لقد فتح أبواب العدل أمام العباد

–، وأغلق أمامهم أبواب الظلم والفساد

وبعد أن قضى بضعة أعوام فى الرفعة والإقبال ، استرد الغادر – كعادته – عطاياه .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لاتنظر بعيداً إلى الفلك وحبه السخى

—، لأنه لا يسلم من غدره أحد قط

— فإذا أحب أحداً فى الصباح

—، فسوف يتخلى عنه فى المساء !

وتوضيح هذا هو أن خواجه قوام الدين نظام الملك وخواجه أفضل الدين محمد — وكان كل منهما رئيس ديوان فى ذلك الوقت — قاما باتهام الوزير مجد الدين محمد بالاختلاس والإهمال لدى السلطان حسين ميرزا ، فسلم ذلك الوزير — بناء على أوامر السلطان — إلى الأمير بدر الدين فسجنه .

(بيتان فارسيان ، ترجمتهما) :

— أى ضرر يستطيعون إلحاقه بالسيف بوضعهم له فى غمده !

—، وأى عيب للمرأة بوضعها فى حافظتها !

— فلو حبست الشمس ليلة فى برج غروبها

—، فإنك تراها فى اليوم التالى سراج العالم !

وبعد بضعة أيام بدأ السلطان — الرحيم على أصدقائه المهلك لأعدائه — بنفسه التحقيق فى قضية الوزير [٤٠٤] مجد الدين وأحضر خواجه نظام الملك وخواجه أفضل الدين محمد للمناقشة وجها لوجه مع الوزير مجد الدين محمد ، ثم قال ذلك السلطان العادل لهما : إن الإنصاف يقضى أن تتناقشا معه واحداً واحداً حتى لا يكون فوزكما عليه بسبب اجتماعكما فقوى الوزير مجد الدين محمد بهذه اللفتة الطيبة ونهض وركع للسلطان . فلما شاهد الواشون هذه الصورة انعقدت ألسنتهم ، وعلى ذلك لم تثبت على الوزير مجد الدين مطلقاً تهمة الاختلاس والإهمال .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كل من يكون الصدق حرفته

—، فلن يندم فى الدنيا أو الآخرة !

— والسروة لما استقامت من أول الأمر

—، فلا يلحقها أذى من حجارة الناس !

ومما لاشك فيه أن السلطان العادل أصدر عفوه عن ذلك الرجل على أن يقوم بدفع مبلغ ستين ألف دينار كبكى - كتعبير منه عن الشكر - لخزانة الدولة ، وقرر إعفاءه من تولى جميع المناصب هو والأمير محمد على أبو شكجى حامل الختم السلطانى . وظل ذلك الرجل الفاضل تسع سنوات بالأمل ، وقد انتوى السلطان عدة مرات خلال تلك المدة أن يقربه إليه ، ولكن كان لابد له من أن يتشاور فى هذا الخصوص مع الأمير العظيم نظام الدولة والدين الأمير عليشير الذى لم يرض بذلك ، لأن الوزير مجد الدين محمد - برغم الأفضال [٤٠٥] السابقة لذلك الأمير عليه - كان فصل فى الأمور أيام علوه واقتداره خلافا لرأى الأمير الصائب ، بل كان أحياناً يغتابه فى مجلس السلطان . ولكنه حينما سافر الأمير ليحكم ولاية استراباد مرة أخرى فى عام ٨٩٢ هـ ، اعتقل نجم الوزير مجد الدين محمد مرة أخرى من حضيض الوبال إلى أوج الشرف والسلطان ، وسلمه السلطان فى مشتى مرة أخرى جميع المناصب التى سبقت الإشارة إليها بالتفصيل ، ووضع فى قبضة ذلك الوزير زمام أمور الحل والعقد والقبض والبسط فى شئون الملك والمال ، وولت أيام الغضب وجاءت أيام الصفاء ، واستقبله السلطان وانطلق لسان الوزير معبرا عن حاله بهذه الأبيات :

(بيتان ، ترجمتها) :

- لقد ولت أطول ليلة لى فى الشتاء

- وظهرت تباشير الصباح وانفكت قيود أحزانى بنفتح الصباح

- ورغم أن القلب أصيب بشوك الجفاء ، فلله الحمد والمنة

- أن عاد لقطف من روضة الوفد ورود الأمل

ونظراً لأن الأمير العظيم لم يكن موجودا وقتها فى بلاط السلطان ، فإن استقلال الوزير مجد الدين - هذه المرة - كان أكثر مخ ذى قبل ، وارتفعت مرتبته وتجاوزت الأفلاك . وكان يقصده جميع الوزراء ومعظم الأمراء - كل صباح - كأنه سلطان ، وكان يخط كتاب السلطنة لقبه « معتمد السلطنة ومؤتمن المملكة » على الأوامر والمنشورات السلطانية ، وكان يفصل [٤٠٦] فى أمور جميع دواوين السلطان بحرية واستقلال ، وكان كل من يعرض من الأمراء أو الوزراء أمراً دون مشورته ،

يقع في قيد البلاء ومحنة الألم والعناء، وقد استمرت فترة حكم ذلك الوزير هذه المرة ما يقرب من ثلاث سنوات »عمل خلالها على تعمير البلاد وإسعاد العباد ، وطوى فيها بساط الظلم والاعتساف .

(بيت ، ترجمته) :

— تدارك وجوه الخلل السابقة

— وكان عهده صبحاً لليل الظلم

فقد أبدى سلوكاً في منتهى العدل والإنصاف نحو المزارعين والحرفيين ، وأعفاهم بصورة تامة من جميع الضرائب والالتزامات ، ودفع للحراس والجند كافة مخصصاتهم ، ولم يدع في الديوان فلساً بسبب مستحقاتهم .

(بيت ترجمته) :

— لقد وهب العدل وقضى على الظلم وزين الدنيا

— وسعدت في عهده الرعية والجند

ولكنه غلق أبواب منافع الأمراء والمقربين ، وعنف وآخذ عمال الديوان وكتابه، وعذب كل واحد كان قد تولى عملا من أعمال الديوان قبل مجيء ذلك الوزير ، وألقى بأمواله وممتلكاته في الخزانة العامرة، وحصل ما يقرب من ألف تومان من أموال الوزراء وعمال الديوان وغيرهم ، وقطع هبات أكثر الكتاب الذين كانوا [٤٠٧] في ذلك الوقت في أمس الحاجة إلى لقمة العيش ، ولفرط مهابته لم يجرؤ واحد قط من أصحاب الأعمال ، على طلب دينار واحد أو من تمر على سبيل الرشوة من الرعية ، وخوفا من عقابه لم يجرؤ لص من اللصوص على إلحاق الأذى بالأسواق بمقدار شعرة وحدة

(بيتان ترجمتها) :

— ولقد بلغ نطاق عدله إلى درجة

— لم يستطع أي من أعوانه طغيانا وظلما ،

— أن يأخذ من أحد دانقاً

— اللهم إلا بقدر ما يأخذ المتقاب (المبرد) من يد الصائغ .

وكان الوزير مجد الدين محمد يتفرغ كل يوم — من الصباح حتى صلاة الظهر للفصل فى أعمال السلطنة وإنجاز شئون الديوان، ثم يلتقى بعد ذلك بطائفة من أفاضل العصر وكبار العلماء وذلك إلى ما يقرب من منتصف الليل، وكان يدور فى مجلسه هذا الكثير من اللطائف والنكات الباعثة على البهجة والسرور، وكل من كان يكثر فى هذا المجال كان يصبح أكثر قبولا لدى الوزير. ودائما ما كانت تبسط موائد الإحسان فى منزل الوزير مجد الدين محمد، وكان يأمر بإعداد المزيد من الأطعمة المختلفة «وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون(١)» .

(بيت ، ترجمته) :

— كان يرتب موائد كثيرة

—، ويزينها بالأطعمة المختلفة

وكان معتمد السلطنة رغم أفعاله الحميدة هذه وأعماله الطيبة حاد الطباع جدا وجاف الحديث، ويستولى [٤٠٨] الغضب على نفسه لأقل سبب فيسب ويلعن . ورغم أنه كان يراعى — فى الظاهر — شروط المداهنة ومراسم المواربة بالنسبة للأمير العظيم نظام الملة والدين الأمير عليشير، إلا أنه كان يغتابه حينما تحين له الفرصة ويتهمه لدى السلطان بكثرة التدخل فى الأمور وغير ذلك من التصرفات غير اللائقة .

(بيتان ، ترجمتها) :

— الأفضل أن لا تغتاب الناس

—، حتى لا يغتابك أيضا أحد !

— وذلك الذى جبل سيده على الطيبة

—، أنى له أن يقبح كلامك القبيح !

كما كان يؤلم سائر أمراء الدولة وأركانها دائما بكلامه القبيح وكان لسانه السيء يمتد كثيرا إلى معظم طوائف الشعب .

---

(١) سورة الواقعة ، آية «٢٠ — ٢١»

(بيت عربي):

جراحات السنان لها التئام   وما يلتام ما جرح اللسان

وكان يغفل تماماً مغزى كلام الله المجيد « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا (1) من حولك » ، كما كان يبتعد دائما عن مفهوم الآية الكريمة « والكاظمين الغيظ والعافين عن (2) الناس »

(بيتان ، ترجمتها)

— أتدرى أنه لا يعتبر فى مصاف

— ، الرجال لدى أدل المعرفة

— ذلك الذى يتألم من لسانه

— ، ويده الأخ المسلم !

وبناء على هذا أضمر أكثر أمراء الدولة وأركانها العداء له ، وظلوا يترقبون الفرصة للإيقاع به ، ولكنهم وعلى مدى [٤٠٩] ثلاث سنوات تقريبا كانوا كلما أوقعوا به وأظهروا عيوبه وأخطاءه للسلطان ، لم يحققوا فائدة ! فلم يعاقب السلطان أو يؤنب الوزير مجد الدين محمد ،

(بيت ، ترجمته) :

— لم يعاتبه ذلك السلطان

— ، نتيجة لأقوال المغرضين !

ولما وصل الأمر — بسبب إجماع الأمراء على معارضة الوزير مجد الدين محمد — إلى حد تفشى الخلل فى أوضاع الدولة ، أعفاه السلطان المهيب مضطرا من تولى شئون السلطنة ، ومن فرط اهتمامه به أهداه فى يوم عزله أربعة أردية فاخرة وأنعم عليه بمائة ألف دينار كبكى ، ولكنه بعد أن ابتعد معتمد السلطنة بضعة أيام عن عرش السلطنة وبقى فى منزله ، تحين الأعداء الفرصة ونسبوا إليه سرا وجهرا — عند السلطان — الأخطاء الصادق منها وغير الصادق ، كما كانوا يتهمونه كل يوم

---

(1) سورة آل عمران ، آية « ١٥٩ » .

(2) سورة آل عمران ، آية « ١٣٤ » .

بل كل ساعة فى مجلس السلطان بكثرة الأموال والهدايا التى حصل عليها أثناء توليه الوزارة ؟

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا تصدق ببساطة آراء المغرضين فى حق

—، الناس حتى ولو كانت بسيطة ومختصرة

— [٤١٠] لأن الشعيرات الرفيعة لو تجمع ويصنع منها رسن

—، فلن يستطيع الفيل الضخم قطعه !

ومما لاشك فيه أنه بناء على الحكمة القائلة « من يسمع يخل » ، تغيرت نفس السلطان عليه . وقد أبلغ أحد الأشخاص حقيقة الأمر إلى الوزير مجد الدين محمد ، فاختفى فى دار السلطنة هراة ، ومهما بحث عنه الأعداء فإنهم لم يعثروا له على أثر . وفى تلك الأثناء توجه السلطان إلى بلخ وقندهار ، وفى غيابه عزم الوزير مجد الدين محمد على السفر إلى الحجاز ، وأخذ يدبر الأمر وبلغ هذا الخبر إلى أعداءه الذين كانوا فى ركاب السلطان فأبلغوا السلطان بما يلى : « ما هى الضرورة التى تجعل عمال السلطان يتركون للوزير مجد الدين محمد مبلغ ألف دينار تقريبا من أموال السلطان يتصرف فيها ويأخذها معه إلى الحجاز ! » فتحرك عامل الطمع فى نفس السلطان وأصدر أمره بأن يبعثوا برسائل كثيرة إلى هراة لاستمالة معتمد السلطنة حتى تطمئن نفسه ويفضل البقاء على الرحيل . فلما وصلت الرسائل إلى الوزير غفل عن مكيدة السلطان والأعداء الأشرار وألغى نية السفر ، وحيث إنه كان لايزال خائفا فإنه ظل مختفيا فترة من الوقت . وبعد أن عاد السلطان منصورا مظفرا من ذلك السفر ، بسط الوزير مجد الدين محمد [٤١١] سراً بساط المودة والمحبة مع أمراء برلاس ، أمثال الأمير شجاع الدين محمد برندق والأمير جهانكير ، بعث إليهما بمبلغ كبير من المال على سبيل الرشوة ، وتعاهدوا فيما بينهم على مايلى : « إذا وصل مجد الدين هذه المرة إلى منصب الوزارة فعليه أن يتحد معهما ويخلص لهما وأن لا يترك صغيرة ولا كبيرة من مستلزمات الوفاء بالعهد إلا ويراعيها ، وعلى هذين الأميرين أن يبذلا ما فى وسعهما للعمل على حل موضوعه » وقد نقل الأميران إلى السلطان حسين ميرزا كلاما كثيرا حول ذلك الموضوع ، فوافق السلطان عليه

فى الظاهر . ولكن الوزير مجد الدين لم يقنع بهذا القدر من الحماية وإظهار العناية ، وتوسل بصاحب الهداية وملاذ الحقيقة وشعار المعارف ومخدوم نور الحق والحقيقة والدين مولانا عبد الرحمن الجامى — روح الله روحه — والتقى ذلك الشيخ بالسلطان وطلب منه عدم التعرض لمعتمد السلطنة ، فوافق السلطان حسين ميرزا على ذلك الكلام ، وأخبر الشيخ مجد الدين محمد بما تم فى اللقاء فاطمأنت نفس الوزير كثيرا ، وتوجه فى اليوم التالى سعيدا مسروراً إلى قصر السلطان ، وتشرف بحضور مجلس السلطان على يد أمراء برلاس ؛

[٤١٢] وقد فهم للوهلة الأولى من دخوله المجلس تغير نفس السلطان عليه ، فندم على خروجه من مخبئه ، ولكنه نظراً لخروج الأمر من بين يديه ، فقد أسلم نفسه لله الواحد القهار ، وقضى بضعة أيام متردداً فيها على مجلس السلطان وبعض الأمراء . وفى تلك الأثناء جاء إلى الوزير مجد الدين محمد أحد رجال السلطنة وقال له : « لقد قرر السلطان أن ينعم عليك غداً ويوليك المناصب التى كانت لك من قبل ، وقد أرسلنى الآن لأفضى إليك بهذه البشرى ، وآخذ منك قائمة بأسماء بعض رجالك لإعداد اللازم نحوهم أيضا » .

فاستبشر الوزير خيراً بسماع هذا الخبر وسلمه قائمة ببعض بأسماء المقربين إليه ، وفى اليوم التالى وكان . يوافق يوم جمعة « توجه الوزير بين الخوف والرجاء — بعد الصلاة — إلى الأعتاب السلطانية ، فتم القبض عليه فى الحال وإيداعه السجن ، كما تم فى نفس اليوم تجريد الأمير محمد برندق برلاس والأمير جهانكير برلاس — اللذين كانا يعملان على عودة الوزير مجد الدين — من مناصبهما وتم حبسهما فى قلعة اختيار الدين .

وبعد بضعة أيام جلس ميرزا سلطان أحمد هو وجماعة من كبار الأمراء والوزراء فى الديوان ، وأحضروا الوزير مكبلا بالأغلال للتحقيق معه ، ولم يتألف لذلك الوزير من الحاضرين سوى خواجه عماد الإسلام الذى كان يتولى منصب الوزارة . وقد بدأ المحققون يوجهون إليه أسئلة مختلفة فسألوه قائلين :

أى ذنب اقترفه خواجه نعمة الله حتى تقبض عليه وتعاقبه وتقتله بعد تعذيبه ؟ فأجابهم قائلا :

إنهم كانوا ثمانين جابيا ، سرق كل منهم مبلغاًمن أموال السلطان فاستحقوا المحاكمة وقبضت عليهم ، ولكنه بعد التحقيق معهم لم يثبت إدانة أحد منهم سوى خواجة نعمة ! ثم سأله المحققون مرة أخرى قائلين : إنك كنت تصدر مايقرب من سبعمائة أمر سلطانى كل يوم حول الفصل فى القضايا والمهام — وفق رأيك — وتختمها وتسلمها لأصحابها . وكنت تذكر فى جميع تلك الأوامر عبارة « تم العرض» ومن هذا يتضح أنك لا يمكن أن تجد الوقت الكافى ،حتى تعرض جميع تلك الأعمال على السلطان وتحصل على حكم فيها . فلماذا كنت تقدم على ختم الأوامر دون العرض على السلطان ؟ فأجاب بقوله : لقد أمرنى السلطان بأن لا أؤجل أى أمر يتضمن مصلحة الدولة ويكون من شأنه صالح الجيش والرعية انتظاراً للعرض عليه بل أختمه حتى لاتتعطل مصالح الناس ! وبعد ذلك سأله المحققون قائلين : لو تظهر دليلا يؤيد قولك هذا لاعتبرنا إجابتك هذه صحيحة وإلا فلا ؟ فلما سمع الوزير مجد الدين محمد مثل هذا الكلام اعترض عليهم وقال لهم : أنتم لماذا قيدتمونى بمحض إرادتكم فقط ؟ فقالوا له : [٤١٤]لقد نفذنا هذا العمل بناءعلى الأمر الصادر إلينا ! فقال لهم: أظهروا الدليل المتضمن هذا حتى يمكن تصديق كلامكم ؟وبعد هذا القيل والقال جلس محمدعمرو أبادي— وكان خاويا من المعرفة بجانب الوزير ليأخذ دوره فى استجواب الوزير ، فنظر الوزير إلى الأمراء وقال لهم : اجلسوا بجانبى الشخص الذى يماثلنى حتى أستطيع تحمله إذا وجه إلى كلاما خشناً ؟ فرد عليه محمد عمرو آبادى قائلا : أنا لست أقل منك ! بل إن أصلى أكثر عراقة منك لأننى حر فى الأصل ، وأما أملك فمطعون برقيتها ! فلما استمع الوزير مجد الدين محمد لمثل هذه الاهانات الشنيعة ، انكمش فى نفسه وعرف بأن حقه لن يأتيه بطلاقة لسانه وفصاحة بيانه ، فلاشك أن نظر إلى أمراء الدولة وأركانها الذين كانوا جميعاً يعاونوه وقال لهم : أنا على استعداد للموافقة على ما تقوله واعفونى من الرد على أسئلة محمد عمرو أبادى ! فقالت له تلك الجماعة :اكتب وثيقة اعترافك بخطك عن أعمال اختلاسك وإهمالك حتى يمكن عرضها على السلطان وتنفذ ما يأمر به على أساسها ؟ فكتب الوزير مجد الدين محمد وثيقة يعترف فيها بكل ما نسبوه إليه ! وقال لهم : قدروا جريمتى بمبلغ معين من المال حتى أقوم بسداده ! ونظراً لأن الأمراء والوزراء كانوا يعلمون بأن موضوعه لو ينتهى بسهولة فإنه سوف

يتولى الوزارة مرة أخرى ، ولذلك قالوا له : لا يجوز لنا أن نفعل ذلك ونفصل [٤١٥] فى الأمور على هوانا مثلك ! ولكننا سوف نعرض الوثيقة التى كتبتها بخطك على السلطان ، وما علينا إلا أن ننفذ ما يأمر به ، وحينئذ أخذ الأمير محمد على بوشكجى الوزير مجد الدين محمد إلى بيته ، وذهب الأمراء والوزراء لمقابلة السلطان ، وعرضوا عليه الوثيقة الخطية التى أخذها عليه . فأصدر أمره إليهم بحصر أموال وممتلكات الوزير مجد الدين محمد ، وأمر نوابه بتعذيبه حتى يعترف لهم بما لديه ! فأظهر لهم مبلغاً كبيراً من الذهب وكمية من الجواهر والكتب النفيسة والتحف الثمينة ، وكذلك أدوية نادرة تبطل سم الحيوانات ، وأوانى وأدوات صينية أصيلة ، وملابس حريرية وخياماً منقوشة ملونة بحيث لم يكن يتصور أحد وجود عشرها . ولما عرضت تلك التحف والنفائس على السلطان حسين ميرزا قال : « لقد كان أملنا فى مجد الدين محمد أنه حينما تقع فى يديه تحفة نفيسة فإنه سوف يعرضها فى الحال علينا ، ويهديها لنا لأنه كثيراً ما قال لنا هذا الكلام ، وأكده بالإيمان المغلظة ، ولكن اتضح لنا الآن أنه لم يصدق معنا ، كما أنه كان يضمر فى نفسه أعمال النفاق والتزوير بالنسبة لرعايانا [٤١٦] وعمالنا » . ولما سمع الأعداء هذا الكلام انتهزوا الفرصة وقالوا للسلطان : « ورغم وجود ذلك كله فإننا لم نعذب الوزير مجد الدين محمد وحصلنا منه على هذا القدر من التحف والممتلكات ! » وربما كان أغلب ظنهم أنهم لو عذبوه لأمكنهم الحصول على أشياء نفيسة أخرى تليق بالخزانة العامرة ، ولكن السلطان لم يهتم فى البداية بكلامهم هذا وفى النهاية أصدر حكمه عليه طبقا لما تقصده تلك الجماعة ، ولكنه قال لهم : « ينبغى عليكم أن تلاحظوا أننى لا أوافق إطلاقاً على المساس بحياة الوزير ! وكل من يسعى إلى القضاء عليه فسوف يتم قتله ! » ففهم الوزراء والأمراء من هذا الكلام الرحيم أن السلطان ينوى إسناد الوزارة مرة أخرى إلى الوزير مجد الدين محمد ، فلا عجب أن فكروا فى حيلة أخرى لإبعاده ، فأخرجوه ليس من دار السلطنة هراة فقط ، بل من جميع ولايات خراسان وتفاصيل هذا فيما يلى : بعد أن عذب المحققون الوزير مجد الدين محمد ، ووضح لهم أنه لا يمكن الحصول منه على أموال أخرى نقدا ، بعثوا إليه بأحد الأشخاص قائلين له : « لو توافق على دفع المبلغ الفلانى خلال بضعة أيام إلى بعض عمال البلاد ، فسوف نطلق سراحك ؟ » ، ولما وجد الوزير مجد الدين محمد أن خلاصه

ينحصر فى قبول هذا العرض ، نفذ ما طلبه الخصوم : وحينئذ فكوا قيوده وأصدروا الأمر بالإفراج عنه ، وأما المبلغ المستحق فقد كتبوا الإذن بتحصيله وسلموه لجماعة من الأتراك الأشداء لتحصيله . ونظرا لأن سداد ذلك المبلغ لم يكن فى مقدور الوزير مجد الدين محمد ، فإنه اختفى مرة أخرى مضطرا فى مكان ما .

(بيتان ، ترجمتهما) :

ـ الدنيا هى عرش الفناء

ـ وراحة البال فيها من المحال

ـ وهى منزل ضيق ومظلم للآلام

ـ ولا يوجد فيها رائحة من الوفاء ولا لون

وبعد ذلك تأهب الوزير مجد الدين للسفر إلى الحجاز ، وسار متخفيا بصحبة جماعة من الفرنج عن طريق صحراء كرمان عاقداً العزم على أداء فريضة الحج والطواف بالروضة المطهرة لخير الأنام .ـ عليه الصلاة والسلام . وفى الصحراء ألم به مرض الموت ونبى نداء ربه حينما وصل إلى منزل تبوك فى عام(١) ... وصعدت روحه إلى جنة الرضوان .

(مثنوى أربعة أبيات ، ترجمتها) :

ـ ها هى تصرفات الفلك الدائر

ـ ، يقدم السم وأحيانا يقدم الحب

ـ وإذا احتضن أحداً وأسبغ عليه حبه

ـ ، فإنه يلقيه فى النهاية على الأرض ذليلا حقيراً !

ـ [٤١٨] فلا يجب الاطمئنان إليه

ـ لأن الظلم والجفاء من عادته ،

ـ وهو لم يف لأحد قط

ـ بل له أضرار كثيرة

---

(١) أمامها خال فى النص الأصلى .

الوزير قوام الدين نظام الملك الخوافى :

كان نظام الملك قائما بتنظيم شئون الدولة فى عهد السلطان حسين ميرزا ، ومخططاً لمنهاج السلطنة ، ورغم أن ذلك الرجل لم يكن يتصف باكتساب الفضائل النفسانية ، إلا أنه كانت له أياد بيضاء فى سرعة البت فى أعمال الديوان وإدارة شئون السلطان ، وكان لتدبيره الصائب الفضل فى حل المعضلات ولرأيه السديد الفضل فى ارتفاع الرايات ، وكان والده مولانا شهاب الدين إسماعيل من قضاة ولاية خواف . وقد التحق ذلك الوزير بالعمل — قضاء وقدراً — فى بلاط السلطان ، فارتفع نجمه خلال فترة قصيرة وقلده السلطان منصب الوزارة الرفيع ، وحدثت خلافات بين الوزير نظام الملك والوزير صانعى — وكان صاحب ديوان أيضا فى ذلك الوقت — من أجل محاولة تقدم كل منهما على الآخر . وفى تلك الأثناء نظم الوزير صانعى قطعة يوضح فيها رفعة نسبه وكثرة حسبه ، فلما سمع مقرب الحضرة السلطانية الأمير نظام الدين عليشير — وكان يكره الوزير صانعى — تلك القطعة قال : « علينا أن نتصرف مع الوزير بمقتضى [٤١٩] آخر مصراع فى هذه القطعة ، وهو (مصراع ، ترجمته) :

— « أن يتقدم نظام الملك على ! »

وعلى ذلك نحكم بأن يكون نظام الملك أعلى — فى الجلوس والتوقيع — من الوزير صانعى » . وهكذا تقدم الوزير نظام الملك على الوزير صانعى وبلغ كوكب آماله ذروة المجد ، وأخذ فى إدارة منصب الوزارة بقوة واقتدار . وبعد أن ملك زمام ذلك العمل عدة سنوات ، اتهم — بسبب مكائد أعدائه — بالاختلاس والتقصير وعزل ؛ ولكنه عندما قدم مبلغاً كبيرا إلى خزانة الديوان ، تولى الوزارة مرة أخرى ، ووضعت فى قبضته الخبيرة مهمة إدارة ذلك المنصب الخطير . وبعد أن أمضى عدة سنوات أخرى فى السعادة والمجد ، ذهب رونق وزارته خلال عام ٨٩٢ هـ حينما علت مكانة الوزير مجد الدين محمد وأسندت إليه إدارة جميع أعمال الديوان وشئون السلطان بحرية واستقلال ، وطغت قوة معتمد السلطنة على ذلك الوزير .

(بيتان ، ترجمتها) :

ـ لم يزدهر البستان

ـ ، حتى لايضار من الخريف

ـ ولم ترتفع شجرة السرو من مكانها فى الخميلة

ـ حتى لا تجتث فى النهاية

وقد أمضى الوزير نظام الملك خمسة شهور أو ستة تقريبا فى منصب الوزارة بلا نفوذ ، وفى النهاية وجد أن :

[٤٢٠] (مصراع ، ترجمته) :

ـ « الموت أحب إليه من الحياة بلا اعتبار ! »

وأخذ يضطرب اضطراب السمكة فى الشبكة ، وبعث إلى السلطان بشكوى ضد الوزير مجد الدين محمد ، وأحال السلطان تلك الشكوى إلى معتمد السلطنة ، فلما قرأ الوزير مجد الدين محمد ، ووقف على حقيقة نوايا الوزير نظام الملك ، قصر كل همته على دفع شره ، وحرض عدداً من أشرار العمال على الدس له حيث نسجوا حوله الأقاويل ، فازداد حنق السلطان عليه وأمر بالقبض عليه هو وأبناؤه وأتباعه ، وقام السجانون الغلاظ بتعذيبهم والاستيلاء على مبالغ كبيرة من أملاكهم ولما تجاوزت أعمال الإيذاء والتعذيب لذلك الوزير الحكيم حد الاعتدال ، أشفق عليه الوزير مجد الدين محمد وأمر بفك قيوده وإطلاق سراحه : وقد صاحب هذا الأمر مسألة إتفاق الأمراء على معتمد السلطنة من إدارة [٤٢١] شئون السلطنة ، ففكر الوزير مجد الدين محمد أنه من المحتمل ـ بعد أن يتنحى هو ـ أن يقلد بعض أركان الدولة الوزير نظام الملك مرة أخرى منصب الوزارة ويقدم على الانتقام منه بسبب ما استقر فى نفسه من كراهية له ، وبناء على ذلك انفرد مجد الدين بالوزير نظام الملك وقال له : سوف أمكنك مرة أخرى من منصب الوزارة وأضع فى قبضتك زمام الأمر والنهى فى شئون الديوان .

(بيت ترجمته) :

ـ تعال يا من جاء وقت الصلح معك والصداقة لك

— والعناية بك ، وذلك شريطة أن ننسى ما فات

وذلك شريطة أن تؤكد لى بأغلظ الأيمان أسس العهد والميثاق ، وأن لاترفع بعد ذلك راية الاختلاف معى والعصيان لى ، وأن تسلك معى بقوة سبيل الموافقة والمصاحبة ، وأن لا تبسط بساط المحبة والموالاة مع أعدائى والمخالفين لى .

(بيت ، ترجمته) :

— ما دام هو لم يقطع أيامك وتركها متصلة

— فحافظ على العلاقة حتى تحفظك

وعرف الوزير نظام الملك أن هذا الأمر يعد نصرا كبيرا ، فعقد الميثاق كتابه مع الوزير مجد الدين محمد ، وأكد أسس المعاهدة بالإيمان المغلظة ؛ وبذلك تولى مرة أخرى منصب الوزارة . ونظر لأن الوزير مجد الدين محمد قد نفض يديه [٤٢٢] مضطرا من إدارة شئون السلطان ، فإن الوزير نظام الملك قد جعل قواعده الحميدة دستوره فى العمل لعدة أيام وظل يفصل على أساسها فى أمور الملك والمال ولكنه فى النهاية تناسى قواعد العهد والميثاق مع مجد الدين وانضم للمخالفين له وبدأ يفكر فى الانتقام منه ، فبعد انقضاء فترة وجيزة من الزمن ألقى بالوزير مجد الدين محمد فى محنة الألم والفناء .

(بيت ، ترجمته) :

— إذا أتيت بأمر سيء فلن تسلم من المحن

— وجاز عليك أن تعامل بمثل ما عاملت !

وبعد ذلك وحينما تشردت نفس معتمد السلطنة الشريفة فى بلاد خراسان بل فى فضاء الدنيا الواسعة ، تجاوزت مكانة الوزير قوام الدين نظام الملك أعلى السموات ، وشع كوكب طالعه من كواكب السعادة ، وأشرقت شمس دولته من أفلاك العظمة ، وقصر المغفور له السلطان على رعايته ، ورفع مكانته ومنزلته على مرتبة الوزراء ، وأمر بأن يكون نظام الملك مشرفاً على الوزراء ، ويكون توقيعه بين توقيع الأمراء والوزراء . وهكذا جلس ذلك الوزير على مقعد الأشراف على الديوان ، وعقد العزم على الخدمة الطيبة ، وبعد بضعة أيام ترقى إلى درجة أخرى

ونال إدارة الديوان . [٤٢٣] ووقع فى مصاف الأمراء والنبلاء ، وأصدر السلطان أمره بأن يكتبوا لقبه على الأوامر السلطانية باسم « أمين الدولة القاهرة » .

والخلاصة أن خميلة آمال وأمانى الوزير نظام الملك أصبحت يانعة ومزدهرة بفضل عناية السلطان له وأفضاله عليه لدرجة أن مكانته ومرتبته لم تتجاوز مراتب الوزراء السابقين فقط بل تجاوزت مكانة الأمراء السابقين أيضا .

(بيتان ، ترجمتها) :

— لقد أوصلت المقادير كل شخص كان

—، يقبل التراب على أعتابك إلى أوج السموات

— فمن هو قدره عندك فى مصاف النعال اليوم ،

—، سيوصله غداً الحظ السعيد إلى قمة المجد !

وكان معظم أركان الدولة وأعيان الحضرة فى حاجة إلى مثل ذلك الوزير — فى إنجاز الأمور — وكان أكثر العلماء الكبار والفضلاء العظام يقصدون أعتابه العلية ، وفى الحقيقة أن الوزير نظام الملك كان يتصف بالوقار والحلم والتواضع ، كما كان يواظب دائما على ترديد الأدعية والأذكار ، ورفع راية الزهد ، ولم يتخذ أبداً لنفسه حرساً ، وكان كل شخص — له مصلحة — يجد الفرصة لعرضها عليه ، ولم يكن يردد الألفاظ القبيحة على لسانه مطلقاً ، كما كان يتحدث مع الجميع بدماثة خلق واحترام .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد كانت قامته العظيمة

—، مزدانة بعلامات الرجولة والإنسانية

[٤٢٤] وكان الأبناء العظام لذلك الوزير العريق الأصل عبارة عن شابين هما خواجه كمال الدين حسين وخواجه رشيد الدين عبد الملك ، وكانا يتصفان بحسن السيرة والصورة ، ويتطهران من الصفات الذميمة والدنيئة ، وكان خواجه كمال الدين حسين معروفاً بجودة الطبع والذكاء ومشهورا بفصاحة البيان وطلاقة اللسان . كما كان يتصف خواجه رشيد الدين عبد الملك بالإضافة إلى الصفات السابقة بأنه كان ينتزع

قصب السبق فى ميدان الشجاعة والقتال من أمثاله وأقرانه . وكان هذان الابنان من بين المقربين فى فترة علو شأن والدهما العظيم ، ورغم ان خواجه كمال الدين حسين لم يكن صاحب ديوان الرسائل إلا أن أكثر الأوامر السلطانية كانت تصل إليه ليختمها بخاتمه . وكان قد أعد لنفسه خاتماً مربعا طويلا يوقع به على ظهر المنشورات السلطانية بمحاذاة الخاتم السلطانى العظيم ، وإذا لم يوجد ذلك الخاتم على أحد المنشورات فإن أحداً قط لم يكن يقيم أى اهتمام بالمنشور ، وأما خواجه رشيد الدين عبد الملك فإن كان يبعد نفسه عن التدخل فى شئون الديوان ، وكان يمضى أغلب أوقاته فى مزاولة التدريب على أعمال الحرب والقتال ، وقد تعلم هذان الأخوان على يد المغفور له مولانا كمال الدين عبد الواسع الذى كان [٤٢٥] فى فن الإنشاء والبلاغة — إماماً لأهل الفضيلة ، وقد نظم قطعة توصلية باسمهما ، يقول ، فيها :

(قطعة سبعة أبيات ، ترجمتها) .

— لقد وهبك الله ولدين جاءا من السماء

— ، فذاك صاحب وزارة وهذا صاحب إمارة

— ذاك كمال الدولة والدين الرشيد فى كل شىء

— ، وهذا رشيد الملك والملة البالغ حد الكمال

— وقد أضاء ذلك بتدبيره صبح السعادة

— ، وأكسب هذا بحسن وجهه شمس المجد الجمال

— وهما يفوقان الشمس والقمر ، ذلك فى الرفعة وهذا فى المجد

— ، وهما يفضلان البحر والمنجم ! ذلك فى السخاء وهذا فى النوال

— ولن تستطيع الدولة البعد عن ذلك

— ، ولن يستطيع المجد الانتقال عن هذا

— ذلك كالشمس فى صورته ، وهذا كبرجيس فى مكانته ،

— ، وذاك محمود الطالع ، وهذا ميمون الحظ

— فليحفظ الله عمر عظمة ذلك ! من الخسوف

— وليحم الله شمس مجد هذا ! من الكسوف

والخلاصة أنه بعد أن ظل أمين الدولة ووالديه وأقاربه عدة سنوات ينسقون وينظمون بحرية واستقلال مهام السلطنة وشئون الديوان ، فان أمرهم قد وصل فى النهاية إلى ما ينطبق عليه قول الشاعر :

(بيتان ، ترجمتها) :

— أى شجرة باسقة منحها الفلك الحياة

—، ولم يصبها فى النهاية بالذبول والفناء بنار ظلمه !

— ومن هو ذلك الذى قلده الفلك تاج العظمة

—، [٤٢٦] ولم يدهمه فى النهاية بالكوارث ويكبله بالأغلال !

وتغيرت نفس السلطان على الوزير نظام الملك وأتباعه ، وفى هذه المرة بلغ غضب السلطان درجة الاشتعال حيث لم يخمد مطلقا بسماحة العفو والإغماض ، كما يقولون :

(بيتان ، ترجمتها) :

— كان التقرب من عرش السلطنة أمرا بعيداً

—، فلا تقرب ذلك العرش العالى

— لأننى أخشى لو أنك اقتربت منه

—، فسوف تقع فريسة سائغة لغضبه

وكان لاستشهاد تلك الجماعة عدة أسباب : أولها تغير نفس الأمير العظيم نظام الدولة والدين الأمير عليشير عليهم بسبب وقيعة الأشرار والنمامين ، وغرورهم بمالهم من قوة وصولجان حيث لم يحاولوا استرضاءه رغم ما للأمير من أفضال سابقة عليهم ، بل إنهم كانوا يغتابونه بمجلس السلطان كلما وجدوا مجالا لذلك ! كما كانوا يقدمون على الإتيان بالأعمال المخالفة لرأيه الصائب .

(ثلاثة أبيات ، ترجمتها) :

— كل من يكون له فضل رعايتك ،

—، احذر قدر ما تستطيع أن تخرج عن طاعته

— وإذا لم يكن العمل معه يريحك ،

—، فاعرف قدر مرحمته عليك وإحسانه إليك واشكره !

— ولو لم يتيسر لك القيام بأحد هذين الأمرين ،

—، فإننى أخشى أن تحل عليك لعنة الكفر بنعمته !

[٤٢٧] وفى النهاية بلغ الأمر إلى حد أن فكر الأمير العظيم فى الانتقام وحرض جماعة من المقربين على اغتياب الوزير وأولاده وأقاربه أمام الملأ وكانوا ينقصون على السلطان كل ما يستطيعون فى هذا الخصوص .

وقد سمع كاتب هذه الكلمات من ذلك الأمير المخلص مايلى : « فى الوقت الذى وضح فيه للسلطان حقيقة غضبى على الوزير نظام الملك ، انفرد بى ذات يوم وسألنى بقوله : هل قربك منى أكثر أو كان قرب مجد الدين محمد ؟ فأعرضت عن الإجابة على هذا السؤال . وكرر السلطان سؤاله ، وحينئذ قلت له : إن مجد الدين محمد لم تكن له السلطة والصداقة التى تؤهله للمقارنة بى ، لأنك قد أمرت بأن يكتب كُتّابُ البلاط السلطانى اسمى فى الأوامر السلطانية بلقب « مقرب الحضرة السلطانية » ، كما أن أولادكم الأمجاد الذين هم درر عرش السلطنة والخلافة يقفون احتراماً لى ولم يكن لمجد الدين محمد حظ من مثل هذه النعم والعطايا ! فقال السلطان المهيب : رغم أن مجد الدين محمد لم يكن له أى اعتبار بالنسبة لك فى هذا البلاط ، إلا إننى أصدرت أمرى مرة —بسبب مكيدته— بالقبض على نظام الملك وأمرت بتعذيبه والآن [٤٢٨] أسمع أن نظام الملك بات مغرورا يعنا تى به ويسلك معك سبيل المخالفة والمعاداة ، فلو أنك ترضى فإنى آمر بالقبض عليه فى هذه اللحظة وإيداعه السجن . فقلت له : إن كل من أضمر لى سوء فى ظل دولتكم الخالدة قد نال جزاءه . وإنى لعلى يقين من أن نظام الملك سوف يبتلى بمصيبة أيضا ، ولكننى لا أحب أن أكون أنا السبب فى ابتلائه !

(رباعى ، ترجمته)

— أى ضرر لنا لو ينظر إلينا شخص بعين السوء

—، ويرى مئات العيوب فينا منها عيب واحد !

— فنحن كالمرآة ، كل من ينظر فيها

—، يرى صورته ، جميلة كانت أم قبيحة !

وألتمس من رجال السلطان الآن ألا يتعرضوا له بسببى ، وأن يتغاضوا عن الجرائم التى صدرت منه فى حقى . فتمت الموافقة على التماساتى وتغاضى السلطان الرحيم فى ذلك اليوم عن فكرة القبض على الوزير نظام الملك ! »

ومن الأسباب الأخرى أيضا أنه فى تلك الأيام التى كانت إدارة الأمور فيها فى يد الوزير نظام الملك حدث أن خرجت — بسبب تقلبات الأيام — جماعة من الأمراء العظام — كانوا يحكمون فى أطراف البلاد — على [٤٢٩] والدهم العظيم ، وكانوا لايدفعون فلساً واحداً من الضرائب المستحقة على الولايات التى كانت تحت حكمهم . ولهذا السبب أخذت إيرادات الديوان السلطانى فى النقصان ، وقام الوزير نظام الملك — تنفيذاً لأوامر السلطان — بتحصيل مبالغ كبيرة من الحرفيين والمزارعين فى دار السلطنة هراة — سلمت من المصائب والبليات — أكثر من مرة خلال مايقرب من عامين تحت ستار الضرائب ورسوم متنوعة ، حتى يتسنى تغطية نفقات الجيش وأوجه الإنفاق الضرورية الأخرى ، وترتب على ذلك اضطرب الخاصة من الناس والعامة ، وأرجعوا السبب فى زيادة هذه الأعباء إلى سوء تدبير الوزير .

ومن الأسباب الأخرى أيضا أن خواجه أفضل الدين محمد — الذى كان قد ذهب عام ٨٩٢ هـ إلى العراق والحجاز بسبب اضطهاد الوزير مجد الدين محمد له — وصل فجأة إلى دار السلطنة هراة ، وحظى بالقرب بفضل مساعى بعض المقربين ، وجعله السلطان حسين ميرزا بمقتضى الحكمة القائلة « لكل جديد لذة » موضع عنايته ورعايته ، كما أن مقرب الحضرة السلطانية — نظرا لصداقته القديمة لخواجه أفضل وعداوته الجديدة للوزير نظام الملك — احتضن خواجه أفضل الدين محمد وجعله فى حماه ، وبذل مساعيه حتى أسند السلطان حسين إليه الوزارة مرة أخرى . [٤٣٠] كما انشق على الوزير نظام الملك بعض أركان الدولة وأعيان الحضرة وأصحاب الدواوين ورجالهم الذين كانوا قد أضيروا بسببه وانضموا إلى الوزير أفضل . وأخذ الوزير أفضل يتقصى أخطاء أمين الدولة وأتباعه ، ويكشف كل يوم أمرا خفيا يتضمن إما إهمالا أو اختلاساً — بموجب القول المأثور « الإنسان مركب من السهو

والنسيان » — على نوابه، ويفضى بذلك صراحة وتفصيلا إلى السلطان، فكان ذلك باعثا على تغيير نفس السلطان . وكان أول عمل قام به الوزير أفضل الدين فى ذلك الوقت — على غير رغبة من الوزير نظام الملك — هو قيامه بالقبض على خواجه عماد الإسلام بن خواجه محمد عتيق الله — وكان شقيقا لأبناء الوزير من أمهم وكان يعمل بالوزارة — وذلك فى يوم الأحد الموافق الحادى والعشرين من شهر رمضان عام ٩٠٣ هـ وسجنه وتعذيبه . كما حدث أيضا فى تلك الأيام أن وقع مرسوم سلطانى فى يد السلطان حسين ميرزا ، وشاهد على ظهره خاتم خواجه كمال الدين حسين فقال السلطان : « إننى لم يكن لدى علم بأن كمال الدين حسين كان يوقع على الأوامر السلطانية » ، وأصدر أمره بأن يكف كمال الدين عن الاستمرار فى ذلك العمل من الآن فصاعداً .

و الخلاصة أنه بعدتوفرت أسباب قتل نظام الملك وأتباعه ، قام الأمراء العظام — تنفيذاً لأوامر السلطان المهيب — فى [٤٣١] منتصف شهر شوال من العام المذكور بالقبض على الوزير نظام الملك وخواجه كمال الدين حسين وخواجه رشيد الدين عبد الملك وعلى أقاربهم وأتباعهم وحبسوهم فى قلعة أختيار الدين ، واستولوا على أموالهم وممتلكاتهم التى كانوا قد جمعوها خلال عشرين عاماً أو أكثر ، وضموها لأموال الديوان . وفى يوم السبت الموافق ٢٥ من الشهر المذكور دارت معركة حربية فى « الذك نشين » بين السلطان والسلطان بديع الزمان ، انتصر فيها الوالد العظيم وهزم الابن ، فانتهز أعداء الوزير نظام الملك الفرصة وقالوا للسلطان لقد انضم الوزير نظام الملك وأولاده يوم المعركة إلى قائد القلعة ، واتفقوا فيما بينهم أنه إذا انتصر بديع الزمان ميرزا فإنهم سوف يهربون من القلعة وينضمون إليه ، كما أرسلوا الأمير شاه منصور — الذى هرب من المعركة وجاء إلى المدينة وتسلم أسلحة — إلى بديع الزمان ميرزا ، فاشتعلت نيران غضب السلطان أكثر من ذى قبل بسماع هذه الأقوال ، وأسر فى نفسه نية القضاء على حياتهم من أساسها ، وذات يوم أفضى بكل ما يجول بخاطره نحوهم إلى مقرب الحضرة السلطانية وقال له : « إننى أريد أن أقضى على هذه الجماعة ، وأرجو منك أن تتردد فى تنفيذ ذلك! » فأجابه ذلك وقتها بجواب مناسب ، ولكن حدث بعد هذه المناقشة ببضعة أيام أن انتهز خواجه كمال الدين حسين وخواجه رشيد الدين عبد الملك الفرصة وهربا ذات ليلة من قلعة

اختيار الدين ، واختفيا فى منزل أحد [٤٣٢] أعوانهما ، وفى اليوم التالى تمكن رجال السلطان من الوصول إلى المكان الذى اختفيا فيه وألقوا بهذين الشابين مرة أخرى فى السجن ، ولما بلغ خبر هروبهما وكيفية القبض عليهما إلى السلطان ، توهجت نيران غضبه وأصدر حكمه القاطع بإعدام تلك الجماعة ، وفى شهر ذى القعدة من العام المذكور تم إعدام الوزير نظام الملك هو وأولاده وبعض أقاربه أمثال خواجة عبد العزيز ، وخواجة نظام الدين ، فسبحان الحى الدائم الذى لايزول بقاؤه .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— يامن بقاؤك سابق على الفناء
، — وفناء الآخرين لاحق لذلك الفناء
— وبقاء هؤلاء ليس ببقاء بل عين الفناء
، — وأما البقاء الحقيقى فهو بقاء الله !

الوزير عماد الاسلام :

كان عماد الإسلام متصفاً بالحلم وطيبة النفس ، ومعروفاً بحسن معاملة الرعية والاعتناء بشئونهم ، كما كان يعشق كثيرا تناول الشراب ومجالسة الشباب الملاح ، فكان الكأس الأرجوانى على شفتيه دائما وصوت الدف والرباب على أذنيه ، وكان وجهه الصافى دائم النظر إلى الفتيان — فى مجلسه — ذوى الوجوه الوردية وإلى الفتيات الجميلات ذوات الشعور البنفسجية .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كان الكأس الوردى دائما فى يديه
—، كما كان لايستمع إلا لصوت الموسيقى !
— [٤٣٣] وكان لايرى سوى وجوه الفتيان الجميلة
—، ولايبحث الا عن مجالسة الفاتنات الرقيقة

وقد تقلد عماد الإسلام منصب الوزارة فى أواسط أيام حكم السلطان صاحب القران . ولما قضى ما يقرب من عشرين عاماً فى ذلك المنصب تم القبض

عليه وإيداعه السجن — وذلك قبل القبض على الوزير نظام الملك بعدة أيام — كما انتقل إلى جوار ربه أيضاً فى نفس اليوم الذى استشهد فيه الوزير المذكور .

(بيت ، ترجمته) :

— أى عظيم أوكبير منحه الفلك العلو والازدهار

، — ولم تقتله رياح الأحداث العاتية من الأساس !

الوزير افضل الدين محمد الكرمانى :

كان أفضل الدين يمتاز على سائر الوزراء العظام بكثرة الفضائل والكمالات ، ويفضل عليهم بالقدرة على إنجاز أعمال الديوان ، كما كان إمام عظماء الدنيا فى سيرته الحميدة ، وأخلاقه الكريمة ووجهه الجميل وأناقته ، وفى جميع مراحل حياته السعيدة وآثاره الخالدة ، حيث وصل إلى مرتبة عالية من المهارة فى فن السياق والاستيفاء لدرجة أن أحدا قط من معاصريه لم يكن يجرؤ على التفكير فى المساواة به . كما كان يشغل نفسه أحياناً بنظم الأشعار ، وكان يكرم أهل الفضل والعلم ويبجلهم .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد استطاع بفضل قلبه المتزن

—، واطفه الشامل أن يحقق أغلى الآمال

وقد أتصل أفضل الدين محمد — فى عهد السلطان السعيد ميرزا سلطان أبى سعيد بالوزير برهان الدين عبد الحميد ، ووجد طريقه إلى مجلس السلطان بواسطة الوزير المشار إليه ، ولما شاهد ذلك السلطان السعيد الفراسة والنجابة [٤٣٤] والاتزان بادية على جبينه الطيب ، عينه — رغم صغر سنه — فى منصب مستوفى الديوان الأعلى ، وكان المستفسر منه مباشرة عن حالة الحسابات . وقد أصبح أفضل الدين محمد أثناء حكم السلطان حسين ميرزا موضع رعايته وعنايته حيث قلده منصب الوزارة فى عام ٨٧٨ هـ ، فحقق مجدا أكثر من سائر الوزراء بفضل ذكائه وخبرته كما جعل أبواب البر والإحسان مفتوحة أمام جميع فئات الشعب .

(بيت ، ترجمته) :

— لقد فتح أبواب العدل للناس جميعاً

—، وعاملهم بالبر والإحسان !

ومن بين المصادفات الحسنة التي توفرت لذلك الوزير أنه جعل صفحة قلبه مزينة بنقوش الحب والإخلاص لمقرب الحضرة السلطانية الأمير عليشير نظام الدولة والدين ، وعاش العمر كله مخلصاً لذلك الأمير العظيم ، وكان دائماً يترنم بهذه الأبيات :

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لايمكن الحصول على المنة الإلهية مطلقاً عن

—، طريق إفساد ضمير هذا وذاك لأن ذلك يفكك بناء المحبة !

— فصورتكم مستقرة في رءوسنا على مر الشهور والأعوام

—، وحبكم دائم في نفوسنا على مر الليالي والأيام !

وبناء على ذلك كان الوزير العظيم يبذل جهدا كبيرا من أجل رعاية ذلك الوزير الحكيم ، ومنحه الأمن والرعاية في كنفه ، ولم يكن يتوانى مطلقاً عن حمايته ورعايته ، وفي عام ٨٩٢ هـ حينما أصبح الوزير مجد الدين محمد — في مشتى مرو — صاحب التصرف في أمور الملك والمال ، وبلغ ذروة الجاه والجلال ، تصرف الوزير أفضل الدين محمد بوحي من فكره الصائب ، فتوجه إلى ولاية استراباد بحجة تحصيل الضرائب المستحقة عليها ، وسعد بلقاء الأمير السعيد بمجرد وصوله ، وعرض عليه [٤٣٥] بعضاً من علامات تقرب الوزير مجد الدين محمد وسيطرته ، وشرح له بأسلوب شيق أساليب دسه للوزراء ، والسبب من مجيئه بنفسه ، فكرس الأمير ذو التدبير السديد كل همته من أجل إنقاذ الوزير المخلص وأرسل خواجه غياث الدين محمد أهدار — الذي كان يتميز على معاصريه بشدة الذكاء وكثرة الدهاء — إلى العرش السلطاني بحجة تسليم رسالة منه إلى السلطان ، وأوصاه الأمير بأن يستدرج الوزير مجد الدين محمد بلطائف الحيل ليفهم منه أي تدبير ينويه بالنسبة للوزير أفضل الدين محمد حتى أنه لو يعرف أن الأموال فقط سوف تقضي حاجته يقوم بتقديم مايلزم من ممتلكاته أو يحتاط لنفسه إذا كان مجد الدين يفكر له في أمر آخر !

ولما رجع خواجه غياث الدين من ذلك السفر أخبر الأمير أن هدف الوزير مجد الدين محمد من الوزير أفضل الدين محمد ليس هو الطمع في أمواله وممتلكاته بل

إنه يهدف إلى القضاء على حياته "وعند وصول خواجة دهدار وصلت أوامر السلطان الكثيرة والمتعاقبة إلى دار الفتح استراباد من أجل استدعاء الوزير أفضل الدين محمد ، ولم يجد ذلك الوزير خيرا فى البقاء ، وتوجه حسب نصيحة الأمير إلى العراق وآذربايجان فجعله يعقوب بيك الذى كان حاكما عاماً على تلك الولاية موضع عنايته ورعايته .وبعد أن قضى الوزير أفضل الدين محمد بضعة أيام فى منطقة تبريز عزم على الرحيل ، وأبدى الرغبة فى آداء فريضة الحج والطواف بالروضة الشريفة لسيد الأنام -عليه [٤٣٦] أفضل الصلاة والسلام ، وقد وفر له الحاكم سبيل العناية والاهتمام فأسند إليه إمارة قافلة الحج عام ٨٩٣ هـ ، وتوجه الوزير أفضل الدين محمد مسرعا بعد أن اكتملت [له] جميع الأسباب إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وكان قد حمل الكثير من خيرات خراسان بالإضافة إلى الهبات التى حصل عليها من يعقوب بيك وأعيان دولته ، وبذلك تمكن من أداء فريضة الحج المبارك والفوز بالزيارة والطواف بقبر أشرف بنى عبد مناف- صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم - ، ثم عاد بسلامة الله سعيدا إلى العراق ، وقضى بضعة سنوات فى تلك الولاية فى فراغ وفى عام ٩٠٣ هـ بلغه أن السلطان السعيد كان يذكره أحياناً كما كان الأمير عليشير فى غاية الشوق إلى رؤيته ، [ف]فكر فى التوجه إلى هراة رغم سيطرة أعدائه وعلو شأنهم بل إنه بهداية الله وإرشاده اتجه صوب هراة فى نفس العام المذكور ، وأخذ يطوى الطريق بسرعة البرق والرياح ، وفجأة ظهر ذات صباح فى بستان السلطان ، فغرق أركان الدولة وأعيان الحضرة - الذين شاهدوا هذا المنظر - فى بحار الحيرة - وظهرت علامات البهجة والسرور على السلطان السعيد بوصول الوزير العظيم ، وقد حزن الوزير نظام الملك وأتباعه وتملكهم الغضب وعزموا على الإيقاع بالوزير أفضل ، ولكنه نظرا لأن مقرب الحضرة السلطانية كان هو المتكفل بحماية ورعاية ذلك الوزير ، فلم ينفع الماكرين مكرهم .

[٤٣٧] (بيت ، ترجمته)

- إن الشمع المضاء بنور الله

-، لاينطفىء مهما تعرض للرياح !

وأسند منصب الوزارة إلى أفضل الدين محمد .

وقد سعى ذلك الأمير حتى جلس أفضل الدين محمد على كرسى الوزارة ، كما عزم على العمل على عزل نظام الملك . ولما تم القبض على تلك الجماعة — كما سبق أن ذكرنا — ارتقى الوزير درجة أعلى من منصب الوزارة حيث أسند إليه منصب الإشراف على الديوان ، وجعل توقيعه بين الأمراء والوزراء ، وبعد أن عمل بضعة أيام بعد ذلك بجد واجتهاد ، شملته عناية السلطان مرة أخرى ، وأسند إليه منصب رئاسة الديوان الأعلى ، وبذلك وضع توقيعه فى مصاف الأمراء العظام والنبلاء الكبار ، وصار بلا منازع صاحب التصرف فى إدارة أمور الملك والمال وارتقى مراتب الرفعة والأبهة ، وبلغت منزلته ومكانته عنان السماء ، وكتب كتّاب السلطان وناسخو توقيعات الديوان الأعلى لقبه على الأوامر السلطانية باسم « الناظم الأعظم لقواعد السلطنة والخلافة معتمد الملك ذو الرأى السديد خواجه أفضل الدين محمد إمام الوافين » . كما وصل إخوته وأقاربه أيضاً الملازمون لبعض الأمراء إلى مرتبة الإدارة ، وقد حظى ابنه العزيز خواجه ضياء الدين محمد بمكانه رفيعة عند ميرزا مظفر حسين كوركان الذى كان أعز أبناء السلطان ، فكان يوقع فى مصاف الأمراء . وقد ظل الوزير أفضل الدين محمد فى أوائل أيامه عدة أيام يتشاور مع الأمير مبارز الدين محمد ولى بيك — وكان أعظم الأمراء — فى البت فى أمور السلطان وشئونه ، وفى النهاية دب بينهم الخلاف بسبب وقيعة المفسدين مما [٤٣٨] دفع الوزير أفضل الدين محمد إلى البت فى أمور دون مشورة ذلك الأمير . وقد قلده فى ذلك جميع أمراء الدولة وأركانها ، ولم يستعينوا برأى الأمير الأعظم فى أى أمر من الأمور ، وكان الوزراء العظام يعتبرون أعتاب أفضل الدين ملجأ وملاذا لهم ، وكانوا يتوجهون يومياً لمقابلته مقدمين له فروض الطاعة والولاء .

(بيت ، ترجمته) :

— كانت أعتابه ملجأ العظماء

— وكان الجميع يولون وجوهم شطره

وكان ذلك الوزير يقيم بالديوان الأعلى من الصباح حتى المساء يعمل على إنجاز شئون الدولة وتنظيمها .

وحقيقة أنه كان يفصل في شئون العامة والخاصة بمنتهى العدل والإنصاف ، وكان يبقى كل أسبوع ليلتين فى الديوان يجتمع خلالها بالفضلاء والموالى ، يخرج معهم ويلاطفهم ، ويرسخ فى قلوبهم بذور المحبة والإخلاص له ، كما كان يعشق كثيرا تعميم الخيرات وإقامة البنايات ، وقد أقام فى عهده الكثير من المؤسسات الخيرية مثل المسجد الجامع والمدرسة والخانقاه .

(بيت ، ترجمته) :

ـــ اعمل الخير لأنه لايبقى للإنسان

ـــ، سوى عمله يذكر به على صفحات الأيام !

وفى اليوم الذى تم فيه بناء المدرسة والخانقاه اللتين أقامهما فى ضواحى دار هراة ، شرف حفل الافتتاح ـــ بناء على دعوة ذلك الوزير الحكيم ـــ جلالة السلطان ميرزا بديع الزمان وميرزا مظفر حسين كوركان أكثر مشايخ وسادات وعلماء دار السلطنة هراة ، وقد قام ذلك الوزير بإعداد الهدايا المناسبة للمدعوين [٤٣٩] واستحضر تسعة من كبار المشايخ والعلماء للتدريس والوعظ والإرشاد فى مؤسستى الخير هاتين ، وألبسهم القفاطين الغالية والثياب النفيسة ، فأعجب السلطان كثيرا بتلك المراسم والأعمال ، وأنعم على ذلك الوزير المخلص بل ذلك الأمير الهمام بأربعة أردية فاخرة ، وأخذ يرفع هذه المرة من مكانة أفضل الدين محمد يوميا ولمدة سبع سنوات درجة بعد درجة بقدرة الله ـــ تعالى العلى العظيم .

ولما توفرت أسباب الجاه والجلال لذلك الوزير وبلغ مجده وسلطانه حد الكمال ، فكر أن يستضيف السلطان السعيد فى منزله ويهديه ما وسعه من أثمن الأموال وأنفس التحف والمنقولات ، وأجود الجياد والبغال ، وذلك ليعلو قدره أكثر بحصول هذا الأمر ، وبالفعل أفضى برغبته هذه إلى السلطان ، فاستجاب السلطان لدعوته ، ولكن ذلك الوزير انتقل إلى جنة الله قبل أن توضع رغبته هذه موضع التنفيذ ، ورحل عن دنيا الفناء إلى عالم البقاء فى منتصف شهر رجب عام ٩١٠ هـ .

(بيت ، ترجمته) :

ـــ منصب الوزارة الذى كان باردا غير منتعش

ـــ، وحينما منحته الدفء والانتعاش قال لك قم وارحل !

وقد سار فى جنازة ذلك الوزير بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا وجميع الأمراء والسادات والعلماء وحملوا نعشه فى موكب [٤٤٠] مهيب إلى كازركاه ودفنوا جسده فى المدرسة التى كان قد شيدها بجوار مزار فائض الأنوار مقرب الحضرة الإلهية خواجة عبد الله الأنصارى قدس الله سره .

(ثلاث أبيات ، ترجمتها) :

- لو تكشف لك الدنيا عن أسرارها
-، وتطلعك على ما تضمه فوقها وتحتها
- لوجدت جوانبها مليئة بالمشاهير
- وصدرها ممتلىء بدماء الفرسان !
- ووجدت مؤخرتها مزدحمة بالعلماء
-، وجيوشها مليئة بالفضلاء !

وبعد الواقعة المذكورة ، انتهز الأمير محمد ولى بيك وجمع آخر من أركان الدولة ممن كانوا ينتظرون ذلك اليوم الفرصة ونقلوا للسلطان صورة عن كثرة صورة أموال الوزير ومتروكاته ، كما قالوا له : إن الوزير ادعى أثناء حياته أنه كان يأخذ رجال السلطان إلى منزله ويقدم لهم الهدايا من أمواله وممتلكاته . فتحركت فى نفس السلطان رغبة الطمع فى أموال ذلك الوزير وأمر بالقبض على أولاده وأقاربه وإيداعه السجون وهم الأمراء بالانتقام منهم ، وعذبوهم بشتى ألوان العذاب ، ونقلوا أموال ومتروكات المغفور له ذلك الوزير وأولاده إلى الديوان ، كما أخذوا من عماله ونوابه والمقربين إليه أيضاً مبالغ كبيرة من الأموال .

[٤٤١] (بيت ، ترجمته) :

- لطالما دميت القلوب ودمعت العيون
-، فسبحان الله فى ما أتلفته القلوب وادخرته العيون

والعزة والبقاء لله الملك المعبود وهو العفو الغفور الودود .

الوزير أمين الدين محمود :

كان شقيق الوزير أفضل الدين محمد ، وكان يميل كثيرا إلى تناول شراب المسكر ، ومجالسة الفاتنات الجميلات . وقد امتاز على أمثاله وأقرانه بحسن الخلق

وكثرة الكرم ، وكان دائماً يرغب فى مصاحبة العلماء والفضلاء ، ووصل فى عام ٨٨٩ هـ إلى منصب وزير السلطان السعيد ، ولكنه بعد أن قضى خمس سنوات فى ذلك المنصب ، تم عزله فى الفترة التى توجه فيها شقيقه العظيم إلى العراق . وبعد أن عاش فترة بلا عمل فى دار السلطنة هراة ، أصبح مرة أخرى — موضع عناية السلطان ، وتولى منصب الوزارة مرة أخرى ، ولكن الوزير قوام الدين نظام الملك — فى فترة تسلطه واقتداره — قبض عليه وسجنه . وبعد عامين تقريباً تحين الوزير أمين الدين محمود الفرصة وهرب من السجن متخفياً فى لباس امرأة واختفى فى مكان ما إلى أن وصل شقيقه الوزير أفضل الدين محمد ، فلما تقلد ذلك الوزير بعد عودته من العراق — المناصب الرفيعة ، خرج الوزير أمين الدين محمود من مخبئه وعمل [٤٤٢] فى خدمة مظفر حسين ميرزا ، فنال عنده المكانة العالية والدرجة السامية نظير خدماته السابقة وأعماله اللاحقة . ولما وافاه أجله انتقل إلى عالم الخلود فى أوائل عام ٩١٠ هـ .

(رباعى ، ترجمته) :

— مهما احتسى شخص كأساً من شراب البقاء

—، ومهما نال مقصده وحقق أمنيته فى دار الفناء

— ومهما تقدمت السنون

—، فإنه سوف ينتهى كالآخرين

الوزير علاء الدين على ميكال :

كان علاء الدين يتصف بالأصالة واشتهر بحسن الخط ، وكان هو الموجه لديوان السلطان السعيد ميرزا سلطان حسين لعدة سنوات ، وفى النهاية وصل إلى منصب الوزارة ، وظل يعمل بضع سنوات فى إدارة ذلك المنصب ، و لم يبتل خلال مدة خدمته مطلقاً بمحنة السجن أو التعذيب ، ولما جاءه أجله الموعود لبى نداء ربه وانتقل إلى دنيا الخلود .

(رباعى ، ترجمته) :

— لقد رحل فخر الوزراء الوزير على ميكال

—، من دار الفناء هذه إلى جنة الخلود

ــ وهكذا وبمشيئة الله الكريم المتعال

ــ، تكون نهاية الجميع فى كل وقت وآن

الوزير كمال الدين حسين منصور :

كان الوزير حسين متواضعاً جدا سليم النفس لا يميل إلى الأذى ، وقد ظل يعمل لمدة كبيرة فى بلدة مرو بالوزارة للسلطان أبى المحسن ميرزا ، ثم توجه الأوامر الصادرة إليه فى عام ٩٩٣هـ إلى دار السلطنة [٤٤٣] هراة فعينه الوزير مجد الدين محمد فى وزارة السلطان السعيد ، ولكنه نظرا لحلمه وتواضعه الجم لم يستطع الاستمرار فى إدارة ذلك العمل الخطير ، ولذلك تم عزله ، فعاد إلى مرو مرة أخرى حيث توفى فى تلك البلاد عام .. ..[1]

الوزير ابو اسحق :

كان أبو اسحق إماماً للمستوفين فى العالم ، كما كان الجميع يشهدون بتفوقه فى علم السياق . وقد وصل إلى منصب الوزارة عدة أيام أثناء فترة تسلط وسيطرة الوزير مجد الدين محمد ، ثم عزل . وقد توفى فى عام .. ..[2]

الوزير نعمة الله سرخ :

كان يعمل لمدة طويلة ضمن كبار كتّاب ديوان السلطان البعيد ، وكان يتولى الأعمال العظيمة والأمور الخطيرة ، وفى الوقت الذى بلغ فيه كوكب إقبال الوزير مجد الدين محمد أوج الجاه والجلال ، وقام بالقبض على عمال الديوان وسجنهم ، خشى خواجه نعمة الله على نفسه وفضل الهرب على البقاء . فتعقبه أحد رجال السلطان وقبض عليه وقدمه للوزير مجد الدين محمد ، فعاقب مجد الدين خواجه نعمة الله سرخ بتغريمه مبلغاً كبيرا من المال ، ولكنه بعد أن دفع تلك الأموال ، اهتم به الوزير مجد الدين محمد ورعاه وقلده منصب الوزارة ، ولما قام الوزير نعمه الله بادارة ذلك المنصب فترة ، ضاقت نفسه بتحكمات الوزير مجد الدين محمد ، [٤٤٤] وأخذ يغتابه فى مجالسه ، فأمر الوزير مجد الدين محمد بالقبض عليه وسجنه ، وكلف محمود الحمال الذى كان واحدا من العمال

---

(١) هكذا جاءت العبارة فى النص الفارسى

(٢) هكذا وردت العبارة فى النص الفارسى

الأشرار بالتحقيق معه ، فاتهمه بالإهمال والاختلاس وأنزل به الكثير من التعذيب ويقولون إنه فى الوقت الذى كانوا يعذبون فيه نعمة الله ، اعترف لهم بانه يخفى عدة صناديق من المال فى مكان معين ، فقال محمود الحمال : ابعث بأحد الأشخاص ليحضر الصناديق إلى هنا ؟ فرد عليه نعمة الله فى نفس الوقت ساخراً حيث قال له : ما حاجتى إلى شخص يحمل الصناديق وأنت الحمال !

وخلاصة القول أنه لما ضاق الوزير مجد الدين محمد ، بل أكثر وزراء الدولة بلسان نعمة الله اللاذع ، أنزلوا به الكثير من التعذيب حتى استشهد .

(رباعى ، ترجمته) :

— يجب أن لايتعلق أحد بالدنيا الفانية

—، فتنبه ولا تركن إليها ، ولا تغفل

— ولا تتعلق بذؤابتها الجميلة فتشقى !

—، ولا ترتبط بوجهها المنمق فيقضى عليك !

الوزير عتيق الله :

كان والده مولانا نصر أبناء محمد من أبناء حامى الشريعة وصاحب الفضيلة مولانا حميد الدين عتيق الله ، وكان ذلك[٤٤٥] الرجل يتولى منصب المحتسب فى عهد السلطان شاهرخ فى دار السلطنة هراة ، وكانت أمه من حفدة خواجه شرف الدين حاجى ، وكان خواجه حاجى وزيرا أثناء حكم الملك حسين . وقد توفى مولانا نصير الدين خواجه عتيق الله وهو لم يزل بعد فى سن الطفولة ، ولما بلغ عتيق الله سن الرشد اختلط بأقارب أمه وانشغل بتعلم علم السياق ، ولما أصبح ذا باع طويل فى ذلك العلم أسند إليه الوزير مجد الدين محمد — وقت علوه واقتداره — بعض أعمال الديوان ، وبعد أن أنجز تلك الأعمال على خير وجه وأصبح موضع عنايته . ولما قبض على الوزير مجد الدين محمد وسجنه ، توجه خواجه عتيق الله من دار السلطنة هراة إلى قلعة شادمان ، فحظى برعاية السلطان مسعود ميرزا الذى كان حاكماً عاماً على تلك الولاية ، وتولى منصب الوزارة له وظل يدير ذلك المنصب مدة طويلة بحرية واستقلال ، ولكنه كان يتعالى ويتكبر على أمراء الدولة وأعيانها مما جعل تلك الطائفة تنفر منه .

وحينما نكبت دولة السلطان مسعود ميرزا ، وتنكر خسروشاه لأفضال أخيه عليه ، وأجلس ميرزا بايسنقر على عرش السلطنة ، أسند منصب الوزارة أيضاً إلى خواجه عتيق الله . وبعد أن مرت بضعة أيام على تلك الحادثة ، قام ميرزا بايسنقر بقتل خسروشاه وقبض محمد الباقر المشهور بالأمير اليمانى على خواجه عتيق الله وأودى بحياته نظرا لما كان يكنه له من عداوة سابقة .

[٤٤٦] (ثلاثة أبيات ، ترجمتها) :

— هذه هى طبيعة الفلك الدائر

—، تكون دائما نقمته قرينة لنعمته

— من قطف ورود العظمة من بستان لدنيا

—، ومن لم يصبه الضرر من أشواك النكبة

— ولن يدوم فى الدنيا أحد

—، فمتى كان البقاء فى الدنيا خلوداً !

الوزير غياث الدين منصور شبكانكاره :

وهو شقيق خواجه سيف الدين مظفر ، وكان يعمل وزيرا لأبى المحسن ميرزا فترة من الوقت فى ولاية مرو ،ولما سجنه ذلك السلطان ، توجه بعد الإفراج عنه إلى دار السلطنة هراة ، وصار ضمن وزراء السلطان السعيد حسين ميرزا . وبعد أن عمل ما يقرب من عام فى ذلك المنصب انتقل إلى رحمة الله بعدأن وافاه الأجل الموعود فى عام .. .. (١) وأقام شقيقه العظيم زبدة وزراء الخافقين خواجه معز الدين حسين — الذى كان وقتها وزيراً للسلطان السعيد ، وهو الآن يعمل رئيس الديوان لإمام الزمان وخليفة الرحمن أبى الفتح محمد الشيبانى — مراسم العزاء وطعام المساكين والفقراء ، كما قدم السلطان السعيد العزاء لخواجه معز الدين حسين وكرمه بالخلع الفاخرة .

(بيت ، ترجمته) :

— إذا كانت رحمة الله قد شملته

—، فليبق الله مجد معز الله

---

(١) هكذا جاءت العبارة فى النص الفارسى

الوزير سيد زين العابدين :

ظل والدزين العابدين محمود يضطلع بانجاز عظائم الأعمال الديوانية لمدة طويلة ، وأما والدته فكانت [٤٤٧] من أعرق عائلات خجند ، وكان سيد زين العابدين الخجندى - أحد المشاهير - شقيقاً لتلك الأم ، فكانت تغرس فى ابنها صفات خاله العظيم حيث كان ذلك الرجل موصوفاً ومشهورا بمحامد السير ومحاسن الشيم . وكان سيد فى بداية أمره يتولى الوزارة للأمين محمد برندق برلاس ، وبعد ذلك بلغت أخبار كفاءته وجدارته إلى السلطان السعيد وأسند إليه منصب الوزارة وبعد أن قضى سيد زين العابدين فترة فى القيام بأعباء الوزارة ، تولى الوزير قوام الدين نظام الملك منصب الإشراف العام ، فقام بعزل سيد زين العابدين ، وفى العام الذى استشهد فيه الوزير نظام الملك هو وأبناؤه وأقاربه أسند السلطان السعيد إلى سيد الوزارة مرة أخرى ، وأثناء فترة اقتدار الوزير أفضل الدين محمد وارتقائه اختلف مع « سيد » وعزله مرة أخرى ، فترك سيد الوزارة وظل بضعة أيام يتردد على الديوان دون الارتباط بمنصب من المناصب . وبعد وفاة الوزير أفضل الدين محمد عرض السلطان السعيد على سيد زين العابدين منصب الوزارة أكثر من مرة ، ولكنه يعتذر ، وفى النهاية تقرر أن يحضر ذلك الوزير يومياً إلى الديوان ، وأن لا يفصل الوزراء العظام فى أى أمر من الأمور دون الأخذ برأيه ، وأن يوقع سيد على الأوامر السلطانية قبل الوزراء بعبارة « اطلع عليه » وقد ظل ذلك الرجل يعمل على النهج المذكور حتى آخر أيام حياة السلطان السعيد . وبعد وفاة ذلك [٤٤٨] السلطان العظيم اهتم بديع الزمان ميرزا أيضاً بذلك الرجل ، وأصدر أمره بأن لا يبت الوزراء مطلقاً فى الأعمال الديوانية أو الأمور السلطانية دون استشارة سيد ، وبذلك استمر فى الحضور يومياً إلى الديوان ، وصار يبذل جهدا ملموسا فى تسيير الأعمال السلطانية . وبعد أن انقضى ما يقرب من عام على سلطنة بديع الزمان ميرزا طوت يد القضاء والقدر بساط سلطته ، وارتفعت رايات انتصار إمام الزمان وخليفة الرحمن فى سماء دار السلطنة هراة ، فآثر سيد زين العابدين الهرب على البقاء . وبعد أن قطع مسافة قصيرة اعترضه نفر من الجند الرافعين راية الانتصار فاشتبك سيد معهم محاولا إبعادهم . ولكن سهما قاتلا أصابه فى المقتل ، فرحل كجده الأكبر فى يوم عاشوراء لملاقاة آبائه .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— دائما ما نكون هدفا لتلك اليد التي
— ، يأتي منها السهم وينفذ حكم القضاء
— ولا يستطيع أحد أن ينقذ نفسه منها
— ، فقد أصاب سهمها قمر أهل البيت !

الوزير نظام الملك الدين أحمد :

كان نظام الدين معروفاً بالصفات الجميلة ومشهورا بالأخلاق الكريمة ، كما كان يمتاز على جميع وزراء بديع الزمان ميرزا . وقد عمل خاله العظيم شمس الدين محمد لعدة سنوات وزيرا للسلطان السعيد ميرزا سلطان [٤٤٩] أبي سعيد ولحسن بيك — كما سبق أن ذكرنا من قبل — كما كان والده مولانا نظام الدين محمود وزيرا ومستشاراً لحكام قبة الإسلام بلخ مدة طويلة ، ولما توفي بقي نظام الدين أحمد في تلك الولاية . وبعد أن اعتلى الحكم في تلك الولاية السلطان بديع الزمان ميرزا ، أسند إليه منصب الوزارة والنيابة له ، فانهمك الوزير نظام الدين أحمد في إدارة ذلك المنصب بحرية واستقلال بفضل كفاءته وقدرته . ولما هزم بديع الزمان ميرزا في منطقة « جهل جراغ » على يد والده العظيم ، ودخلت مرة ثانية قبة الإسلام بلخ في حوزة السلطان السعيد ، سارع نظام الدين أحمد إلى الأعتاب السلطانية ، فلقي ترحيباً كبيراً من السلطان وألحقه بالعمل في الديوان ، وجاء إلى دار السلطنة هراة ملازما لركب السلطان المنتصر . وبعد بضعة أيام طلب إعفاءه من ذلك العمل الكبير فأجيب إلى طلبه ورجع معززا إلى قبة الإسلام . وبعد أن وقعت تلك الولاية في عام ٩٠٤ هـ مرة أخرى في يد بديع الزمان ميرزا ، أسند الوزارة إلى نظام الدين أحمد . فحظي ذلك الوزير هذه المرة بمزيد من القوة والنفوذ وشمله السلطان كثيرا بعنايته . وأخذت مكانته في الارتفاع يوما بعد يوم عند السلطان ، فرغم أن مكانته كانت قد فاقت مرتبة الوزراء إلا أن السلطان أسند إليه أيضا إمارة الديوان ، واستقل بالفصل في جميع الأعمال والمهام [٤٥٠] وأمضى خمس سنوات في غاية من العظمة والسعادة . ولما سلك الأمير عمر بيك في عام ٩٠٩ هـ سبيل الخلاف مع السلطان بديع الزمان ميرزا وتحصن في قلعة شيرغان ،

هبطت مكانة الوزير نظام الدين أحمد بسبب العلاقة التى كانت بينه وبين الأمير عمر بيك . أما الوزير كمال الدين محمد الذى كان يتولى منصب الإشراف على الديوان ويضمر فى نفسه دائما العداء للوزير نظام الدين أحمد فقد انتهز الفرصة وعرض على السلطان بديع ميرزا جانباً من إهمال وسوءتصريف ذلك الوزير وبناء على ذلك عاقب السلطان الوزير ، وكلف الشيخ عبد الله بكاول بالتحقيق معه ، فتدخل الأمير شجاع الدين والتون أرغون للدفاع عنه ، وحل موضوع الوزير نظام الدين أحمد على أن يدفع مبلغ ثلاثين تومان كبكي . وقد دبر الوزير ذلك المبلغ خلال بضعة أيام . وصار مرة أخرى موضع عناية السلطان . واستأنف إدارة شئون الوزارة كما كان ، وبعد أن قضى ما يقرب من عام على هذه الواقعة ، كلف الوزير نظام الدين أحمد بالتوجه لحكم ولاية شبرغان . فذهب إلى تلك الولاية وعمل على إحياء مراسم العدل والإنصاف فيها ، وجعل الرعية يسعدون وينعمون بالعدل والإحسان .

وخلال تلك الفترة تقدم جند السلطان العظيم إمام الزمان خليفة الرحمن أبو الفتح محمد الشيبانى — خلد الله ملكه — لفتح شبرغان ، وكانوا يغيرون على تلك الولاية كل بضعة أيام . وأما نظام الدين أحمد فلم يسعده الحظ [٤٥١] وجعل ملجأه الحوائط الأربعة لقلعة شبرغان ولم يتقدم للقتال سوى بضعة أقدام . كما كان يحاول أحيانا خديعة جند السلطان الأقوياء بشتى أنواع المكر وكثرة الوعود الكاذبة ، ومهما كان الزمن يقول له بلسان حاله :

(بيت ، ترجمته) :

— أى صمود تقفه أنت أمام

—، شخص أعد العدة للقتال أكثر منك بكثير !

فإنه لم يكن يصغى لكلامه . ولما عبر السلطان نهر جيحون بنفسه فى شهر ذى الحجة عام ٩١٢ هـ ، تزلزل موقف نظام أحمد وترك قلعة شبرغان وهرب إلى منطقة كرزوان الجبلية ، وبعد ذلك دخلت جميع ولايات خراسان فى حوزة السلطان . وأثناء عودة قنبر ميرزا حاكم قبة الإسلام بلخ من خراسان متوجهاً إلى مقر حكمه ، توجه نظام الدين أحمد إلى معسكره ونظراً لما كان قد لاحظه قنبر ميرزا

من أمور الغدر والخداع فى تصرفات نظام الدين ، فانه قام بالقبض عليه واعدامه .
« لا مرد لقضاء الله ولا معقب لحكمه »

الوزير غياث الدين ميكال :

كان غياث الدين من أكابر نواب الديوان فى أوائل عصر السلطان سعيد ، وكان يتقرب أكثر للوزير قوام الدين نظام الملك حيث كان يسند إليه عظائم الأمور . وفى العام الذى تم فيه القبض على الوزير نظام الملك — بسبب سعاية الوزير مجد الدين محمد — وإيداعه السجن قرب الوزير مجد الدين محمد — على عكس ما كان يتصوره الناس — غياث الدين وعينه [٤٥٢] نائبا له . ولما سافر الوزير مجد الدين محمد إلى الحجاز . وحظى الوزير نظام الملك مرة أخرى بالجاه والسلطان ، اختص غياث الدين ميكال أيضاً بمزيد من النفوذ ، وأمر السلطان السعيد بأن لا يفصل الوزراء العظام فى أى أمر من الأمور قبل الأخذ برأيه ، وأن يتصرفوا بما يشير به ، ويعرضوا عليه الأحكام السلطانية للتوقيع عليها . وقد أمضى غياث الدين ميكال عدة سنوات فى السعادة والجاه وكان يوقع على ظهر الأوامر السلطانية أمام توقيع الوزراء بعبارة « أنا المطلع عليه » . ثم استقال من ذلك العمل فى عام ٩٠٢ ﻫ واشتغل ضمن نواب مظفر حسين ميرزا وسافر إلى استراباد — لملاقاة ذلك السلطان — وفى تلك الولاية فى العام الذى دارت فيه الحرب — ناحية برج قابوس بين مظفر حسين ميرزا ومحمد حسين ميرزا ، وقد انتصر فيها محمد حسين ميرزا وشمله بعطفه وعنايته وأمر وزراءه بالانقياد له . وقد عاش الوزير غياث الدين تلك الولاية معززا مكرماً حتى وفاة محمد حسين ميرزا ، وكان يوقع على الأوامر السلطانية مكان الوزير مجد الدين محمد ، وكان ينجز أمور الديوان ومهام السلطان بقدرة وكفاءة ، ثم عاد إلى دار السلطنة هراة بعد وفاة محمد حسين ميرزا وعمل مرة أخرى ضمن خاصة مظفر حسين ميرزا ، ولكنه لم يختص بمنصب معين فترة من الوقت .

وفى عام ٩١٢ ﻫ حينما اعتلى الأمير المذكور عرش السلطنة بالاشتراك مع بديع الزمان ميرزا . جعل الوزير غياث الدين [٤٥٣] محل عنايته واهتمامه أكثر من ذى قبل وجعله يوقع فى مصاف الأمراء العظام . ولما انقضت بضعة أيام على

إمارة غياث الدين ، طوى القدر بساط سلطنة مظفر حسين ميرزا ، وعاش غياث الدين بعد ذلك فى عزلة وانزواء إلى أن مرض فى عام ٩١٤هـ وانتقل إلى رحمة الله :

(بيت ، ترجمته) :
ـــ كان هذا قائماً منذ عرفت الحياة وسوف يظل هكذا
ـــ، وسوف تكون هكذا نهاية الجميع !

الوزير درويش أحمد القابض :

وكان فى بداية أمره من بين أرذل العمال ، وكان يعمل معظم أوقاته فى وظيفة جمع الأموال واستلامها ثم ترقى بعد ذلك وأصبح أميرا للعمال فى دار السلطنة هراة . وأمضى فترة طويلة فى ذلك المنصب ، وفى عام ٩١١هـ حينما عمل الوزير صاين الدين على فى ديوان السلطان العظيم حسين ميرزا ، عرض صاين الدين على السلطان جانباً من تصرفات ذلك الحقير الذى كان سبباً فى الحقد والحسد والفساد، ومصدرا للجاج والعناد ، فأمر السلطان العادل بالقبض عليه ، ووضع الوزير صاين الدين على قيدا ثقيلا فى قدميه . ولما كانت إدارة شئون الملك والمال فى ذلك الوقت آلت إلى الأمير محمد ولى بيك ، ونفذ الوزير صاين الدين هذا الأمر دون الأخذ برأيه فأضمر الأمير محمد الحقد فى قلبه على الوزير صاين الدين ، وتقدم للدفاع عن درويش أحمد القابض واتهم الوزير صاين الدين على بإساءة التصرف وكثرة الأخطاء ، وغير نفس [٤٥٤]السلطان عليه ، وأعلن السلطان أن كل ماقاله الوزير المشار إليه عن درويش أحمد القابض ما هو إلا محض افتراء وبهتان ، وبالغ الأمير محمد ولى بيك فى الحديث عن هذا الموضوع لدرجة أنه قال : إن السلطان السعيد هو الذى فك بنفسه قيد درويش أحمد وقيّد صاين الدين على بنفس القيد وأسند منصبه إلى درويش أحمد .

وقد علا نجم درويش أحمد ـــ الوضيع ـــ من حضيض الوبال إلى أوج الإقبال ، وتولى ذلك المنصب الرفيع وأمر السلطان بألا ينادوا الوزير بعد الآن بالقابض بل يسموا درويش أحمد بالكافى وبدأ ذلك الشرير ـــ بسبب طبيعته الشريرة ووضاعته ـــ سوء الأدب وفتح أبواب الظلم والتعدى على الرعية الذين هم وديعة

الخالق فى عنق الحاكم ، وأثقل كاهل المظلومين بالأعباء الكثيرة ، وأقام أسباب الفتنة والفساد . وكان يفكر من الصباح حتى المساء فى : هل من مسكين يلقى فى قيد البلاء ويفكر من المساء حتى الفجر فى : هل من برىء يشتت فى الآفاق دون ماذنب جناه ورغم أنه كان يأخذ مبالغ كبيرة من الناس على سبيل الرشوة ، إلا أنه كان لا ينجز أعمالهم فيضطربون أكثر ويقوم هو بمضاعفة ما كان قد كتبه عليهم

(رباعى ، ترجمته) :

— ليس الكافر مثل الحارس السىء الظالم

—، فليس لدى الحارس شأن لقريب أو أخ .

— كل من لايؤدى الحراسة يكون كافرا

—، لكن لا يكون حارسا كل من لا يكون كافرا

[٤٥٥] وبسبب زعيم الأفاقين هذا صعدت عائلة من العائلات واحترقت عائلات كثيرة بنيران الظلم والطغيان ، وزالت .

(بيت ، ترجمته) :

— حينما اشتعلت نيران ظلمه

—، احترقت عائلات كثيرة !

ولما انتقل السلطان السعيد إلى جوار ربه فى الحادى عشر من شهر ذى الحجة عام ٩١١ هـ وجلس بديع الزمان ميرزا بالاشتراك مع مظفر حسين ميرزا على عرش السلطنة ، أراد ذلك الأفاق الشرير أن يعمل فى ديوان كل من السلطانين ولكنه نظرا لأن هذه الرغبة كانت غير معقولة فإنه لم يتيسر له ذلك وأصبح فقط رئيسا لديوان مظفر حسين ميرزا ، وعمل كسابق عهده بالظلم والعدوان بل أكثر ، وعلت صرخات العباد من شدة ظلمه وطغيانه ، وبلغت استغاثات الخلق جميعاً مسامع ساكنى السموات لكثرة فساده ومؤامراته

(بيت ، ترجمته) :

— لقد خربت قلوب المساكين بسبب ظلمه

—، وتحطمت أكبادهم بسبب طغيانه

فرفع أهل الصلاح والتقوى أيديهم إلى السماء سائلين الله بحق الظلم الواقع عليهم أن يخلصهم من ذلك الشرير وفى النهاية استجاب الله لدعاء البائسين وتحقق رجاء المظلومين

(رباعى ، ترجمته)

— إلى متى يستمر ظلمك هذا وجفاؤك

—، وإيذاؤك للناس هذا بلاسبب !

— [٤٥٦] فأصحاب الحق فى يدهم سيف قاتل

—، عله يصيبك ويقضى عليك !

وفى شهر ذى الحجة عام ٩١٢ هـ وفى أمسية من الأمسيات كان ذلك الشرير يتناول فيها كئوس الخمر فى منزل الأمير يوسف على كوكلتاش — وكان حاكماً على هراة من قبل مظفر حسين ميرزا — دارت مناقشة بينه وبين طرخانى بياك شقيق الأمير المذكور ، فاستل ذلك الشاب حسامه الفتاك من غمده وقضى على ذلك الخبيث بضربة واحدة ، وخلص الناس من شره وفساده ، وفى صباح اليوم التالى ذاع هذا الخبر السعيد ، فتجاوزت أفراح أهل هراة عنان السماء ، وكان كل اثنين يلتقيان ببعضهما يهنئان نفسيهما كما يحدث فى أيام الأعياد ، كما كانت كل جماعة يجمعها مجلس واحد تتذكر ظلم ذلك الشرير وطغيانه فتكيل آلاف اللعنات على روحه الخبيثة .

(بيت ، ترجمته) :

— اعلم أن الذى يؤذى الناس

—، لجدير بلعنة جميع الناس

ولما كانت هناك خشية من أنه إذا وقعت عيون الشعب على جثمانه فسوف يتزاحمون ، ويهجمون عليه ويفنون جسد ذلك الجاهل برجمه بالأحجار ، فقد ظل الجثمان لمدة ثلاثة أيام فى أسطبل الأمير يوسف على .

وفى تلك الأيام كان سياس الأمير المذكور يمررون الناس الذين كانوا يرغبون فى إلقاء نظرة اعتبار على جثمان ذلك الشرير واحدا أو اثنين داخل المنزل ، ويأخذون منهم مبلغاً من المال كرسم مشاهدة ، فتحققت للسياس من وراء هذا

العمل أموال كثيرة ، وفى النهاية لفوا جثة ذلك الظالم المتعفنة فى ملاءة وخرجوا بها فى منتصف الليل من المدينة ودفنوها فى حفرة من الحفر ، ولم يجعلوا مكان دفنه ظاهرا خوفاً من الناس .

[٤٥٧] ما أشقى الإنسان الذى يجعل نفسه العزيزة هدفا للملامة حبا منه فى نيل المناصب ، ورغبة منه فى حكم الدنيا الفانية ، ويسىء إلى نفسه ويستهين بها بسوء خلقه وشؤم حياته ، ويلقى بها من أوج الشرف والسعادة إلى حضيض المذلة والهوان ، فيقولون :

(بيت ، ترجمته) :

— عش ياعزيزى بحيث إذا زل قدمك

—، يصونك بدعائه ملاكك

وما أسعد ذلك الذى لا يغبر همته مطلقاً بغبار الحب للعظمة والجاه ويلبس دولته وسلطانه الزائل ثوب العفة « يلقى بنفسه فى مهالك الظلم والعدوان متعظا بقوله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة[1] » . وأن يبعد نفسه الغالية قدر طاقته عن المضى فى دروب الظلم والطغيان ، وأن يقنع من متاع الدنيا بالقليل من أموال الفقراء والمساكين ، وأن لا يسعى إلى المناصب الرفيعة بهدف الاستمتاع بكثرة الأموال والحصول على أسباب الجاه والسلطان .

(ثلاث أبيات ، ترجمتها) :

— رغيفان من الخبز سواء أكانا من القمح أو من الشعير

—، ورداءان من القديم كانا أو من الجديد

— والعيش فى أمان داخل حجرة صغيرة خير من

—، ذلك أن يقول لك أحد : قم من هنا واذهب إلى هناك !

— [٤٥٨] وأفضل آلاف المرات عند أهل اليقين

—، من ملك وسلطنة كيقباد وكيخسرو

---

(١) سورة البقرة ، آية « ١٩٥ » .

وإذا قدرله بالضرورة وبمشيئة الله — سبحانه وتعالى — أن يخرج من عش العزلة ويجلس على عرش السلطة ، ويضع قدمه فى مركز الخدمة ، ويحوله القضاء والقدر إلى صاحب مناصب ويضع فى قبضته زمام أمور العباد ، فعليه أن يخشى الله فى السر والعلن حتى يعنيه على إبعاد المصائب ويأخذ بيديه وقت الأزمات ويعطيه القوة والطمأنينة . وعليه أن يجعل الخالق شعاره ودثاره ، وأن يتجنب ويحترس من الاعتماد على مساعدة الفلك الظالم وأن لايركن إلى نعيم دار الغرور الذى لا يدوم ولا يبقى .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا تغير بهذه الدنيا الفانية

—، لأنه لا يخلد فيها أحد

— ولو تغتر بالنعمة الفانية

—، فستظل بعيدا عن العز الدائم

وعليه أن يظهر المساعى الطيبة والأعمال الحميدة بإرساء قواعد العدل والإحسان مستعيناً بقول — تعالى — : « إن الله يأمر [٤٥٩] بالعدل والإحسان(١) » . وعليه أن يزهر أغصان آمال الخاصة والعامة بفيض من سحاب « سخائه وإنعامه ، وبقطرات من غمام عنايته وإكرامه ، ويعلم أن العدل وعمل الخير عبارة عن شجرة يمكن الاستمتاع بثمراتها فى الدنيا والآخرة ، وأن يعرف أن البذل والتعفف عبارة عن بداية يمكن أن تكون نتيجتها فتح أبواب السعادة فى الأولى والآخرة .

(رباعى ، ترجمته) :

— يامن أصبحت روضة الإقبال مسكنك

—، أغرس أغصان الإنصاف فى روضة الدنيا

— واجعلها خضراء مزهرة بكثرة الإحسان

—، حتى تمدك بالسعادة فى كلا العالمين

(١) سورة النحل ، آية « ٩٠ » .

وعليه أن يصغى بعين الرضا لأقوال المظلومين وتظلم المغمومين في جميع الأحوال وأن يعمل بنية صادقة وبقبول حسن بمضمون الحكمة القائلة « استماع كلام الملهوفين صدقة (1) »

(بيتان ، ترجمتهما) :

— استمع لأقوال المظلومين

—، وتلطف معهم في الكلام

— واقض حاجات الفقراء والمظلومين

—، ولا تحطم قلوب أحد مطلقاً

كما يجب عليه أن يضمد بالرحمة والإحسان جراح المجروحين ، ويشفى بالمناسب من الدواء أسقام المتألمين .

[٤٦٠] (بيتان ، ترجمتهما) :

— امنح الشفاء والصحة للناس

—، وقدم الدواء للمتألمين

—، وضع المرهم على قلوب المجروحين

—، وحينما ترى محزوناً أسعده

وعليه أن يبعد يد الأقوياء عن الضعفاء والعاجزين ، ويقهر الظالمين ، وأن لا يدع صورة آمال المحتاجين خلف الحجب بسبب المهملين والمقصرين .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا يجوز لك أن تساند الظالمين

—، وحقق آمال المظلومين

— وإذا أنعم الله عليك بسلطان

—، فلا تحجب حاجة المحتاجين

---

(1) حديث شريف .

ويجب عليه أن يجعل دائما فحوى عبارة « أنزل الناس منازلهم » موضع نظره الثاقب ، وأن يقدم لجميع فئات الشعب « على اختلاف طبقاتهم وتباين درجاتهم » مراسم اللطف والإحسان وأن يوفر ويكرم ويعزز ويحترم سادات أهل البيت الذين هم درة سماء النبوة ، ولؤلؤة بحر الرسالة وكما توضح الآية الكريمة « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى (١) » حتى يجعلهم ينقشون محبته ومودته فى قلوبهم ، ويتشفعون له عن جرائمه وآثامه يوم الحساب عند خاتم الأنبياء عليه من الصلوات أكملها ومن التحيات أفضلها .

[٤٦١] (بيتان ، ترجمتهما) :

— لو يكن لك عقل وفهم وإدراك

—، فاعمل دائما على احترام أهل البيت

— لأن احترام هؤلاء القوم الكرام

—، ينفعك كثيرا يوم القيامة

وعليه أن يكون واضحاً وصريحاً مع العلماء الكبار الذين هم — بآرائهم المشرقة — هداة مشكاة الإيمان ، ومصابيح العرفان ، وأن يطرز ويزين وجودهم الوضاء بحق إعزاز الآية الكريمة « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٢) » ويلحظهم بعين العاطفة حتى يملأوا وقتهم بالبحث والتبحر فى بحار العلم والمعرفة ، ولا ينشغلون من أجل تدبير ضروريات معيشتهم .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— لا تكن غافلا عن أحوال أهل العلم

—، لأن أقوالهم فيها الحل للمعضلات

— واجعل مقامهم مقام السعادة

—، وأقوالهم مصابيح الهداية

---

(١) سورة الشورى ، آية « ٢٣ » .

(٢) سورة الزمر ، آية « ١٣ » .

وعليه أن يميز ويستثنى المشايخ أصحاب الكرامات — الذين كانوا يثبتون إيمانهم بشعار « الفقر فخرى » جاعلين نصب أعينهم وضمائرهم فحوى الآية الكريمة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم(١) » ، كما كانوا يقضون أوقاتهم المباركة بأداء الطاعات والعبادات على سجادة « لى مع الله » — بمزيد من حرية الإرادة والإخلاص فى العبادة ، والتفرغ للعقيدة ، ويلتمس عندهم الدعوات الصالحات .
وبهذه الطريقة الشريفة يرفع راية التوفيق والسداد .

[٤٦٢] (بيتان ، ترجمتهما) :

— إن الجماعة الذين يكون شعارهم التقوى

—، ويختارون طريق العبادة

— لا تتبع سوى طريق إخلاصهم

—، وابحث عما تريده عندهم

وعليه أن يجعل الشعراء وأصحاب الإنشاء — الذين ربما تكون روائع منظوماتهم « كأنهن الياقوت والمرجان (٢) » وشاحاً لفاتنات جميلات « حور مقصورات فى الخيام(٣) » ، وبدائع منثوراتهم التى هى « كأمثال اللؤلؤ المكنون(٤) » تزين بأبهى صورة آذان رقاب « ولدان مخلدون(٥) » — راضين شاكرين وسعداء متطمئنين بلطفه معهم ، وكرمه لهم وإحسانه عليهم بالأموال حتى ينشئوا أشعارهم الرقيقة ، ومنشآتهم الفصيحة من كرم أخلاقه ومحاسن أعماله ويكتب لاسمه البقاء والخلود على صحائف الزمان وأوراق الليل والنهار .

(بيتان ، ترجمتهما) :

— كان لحسن كلمات الأنورى الفضل فى

—، ترديد قصة إحسان أبى الحسن حتى يومنا هذا !

---

(١) سورة الحجرات ، آية « ١٣ » .
(٢) سورة الرحمن ، آية « ٥٨ » .
(٣) سورة الرحمن ، آية « ٧٢ » .
(٤) سورة الواقعة ، آية « ٢٣ » .
(٥) سورة الإنسان ، آية « ١٩ » .

ـــ وبقيت في الدنيا بسبب قول الشاعر الطوسى

ـــ، شهرة شجاعة كاوس وتهمتن !

وعليه أن يغمر البسطاء والمزارعين برحمته وشفقته لأن مهمة انتظام الدنيا وإنجاز شئون [٤٦٣] الخلق منوطة بأحوالهم ، ورضاء الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ ودوام مجد السلطنة مربوط براحة بالهم . وأن يمطر بستان آمالهم من سحائب رأفته وغمام عاطفته وقطرات عنايته ورعايته ، حتى يشمل حاله بمضمون الحديث الشريف . « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء[1] » ، ويشاهد ـــ بعد إراحة نفوسهم ـــ صورة التحسن واضحة فى مرآة آمالهم .

(بيتان ، ترجمتهما) :

ـــ أمطر ياعزيزى بضع قطرات من سحائب كرمك

ـــ، على بستان آمال المزارعين

ـــ لأن اخضرار بستانهم

ـــ، يزيد فى فترة علوك واقتدارك !

وعليه أن يعزز ويكرم تجار البحار والأمصار ، الذين يتجولون فى البحار والأقطار من أجل الكسب الحلال ، ويأتون بالنفائس من بطون البحار ، وبالروائع من جمع البلاد والديار إلى مواطنيهم الصغار منهم والكبار ، ويجعلون تحت تصرفهم ـــ بمقتضى الحديث الصحيح المتفق مع الشريعة الغراء [« من أراد الدنيا فليتبحر » ـــ الأقمشة النادرة الطاهرة الموجودة فى ربوع الدنيا الفانية ، ويزين قامتهم الطيبة بالهدايا الخاصة ، ويخفف عنهم بقدر الإمكان جزءا من الضرائب والرسوم والأعباء المستحقة عليهم .

(بيت ، ترجمته) :

ـــ حتى ينتشر صيت سمعته الطيبة

ـــ، ويشتهر الحديث عن فعل الخير بسببه

---

(١) حديث شريف

ويجب عليه أن لايؤلم الحرفيين وأهل الأسواق الذين يتحملون مختلف المشاق ويضطلعون بمالا يطاق بالأعباء الثقيلة وأن [٤٦٤] يتطلف بهم . وبتلك الطريقة يجعل دولته عامرة .

(ثلاث أبيات ، ترجمتها) :

— تنبه واحزن لآلام المغلوبين
—، واخش غلبة الأيام عليك
— فعندما تقضى على أحزان المغلوبين
—، وتقدم اللطف والإحسان لأهل الفضل
— يعمر ملكك ويقوى جندك
—، وتتحقق لك عظمة الأكاسرة

وعليه أن يحقق مسألة الغرباء والجياع والفقراء فى كل مكان الذين يستمدون الدفء بالنهار فى قرص الشمس — لشدة جوعهم — ويرقبون بذور الأمل بالليل من هالة القمر — لشدة فقرهم — فيطفىء لهيب جوع الغرباء بإحسانه ، وينير صومعة الفقراء المظلمة بمصابيحه .

(مثنوى ١٨ بيتاً ، ترجمته) :

— تذكر الغرباء الجائعين
—، وأسعد الفقراء الهائمين
— وارحم ياعزيزى كل بائس
—، لأنه اغترب خوفاً من الأذى
— وحقق حاجة كل محتاج لأنه
— يلتمس العدل من لطفك
— ولا تجادل ياعزيزى فى النصيحة
—، وأغلق شفتيك وافتح أذنيك
— وتأكد بأن ذلك الوزير العظيم
—، باسط العدالة وقابل النصيحة
— السامى كالقمر المهيب كالشمس

ـــ، المسير فى ركابه الكواكب خاضعة ذليلة
ـــ الذى استمد منه كوكب المشترى السعادة
ـــ، وتعلم كوكب الزهرة من أفراحه الغناء
ـــ دنيا الكرم والسخاء ، وشمس عالية فى السماء
ـــ، وبهرام فى الانتقام من الأعداء ،
ـــ له فطنة عطارد وصفات الملائكة
ـــ، حامى الخلائق وراعى الأمم
ـــ يسمى الرسول قرشى الأصل
ـــ، ليكن محمودا دائماً فى العز والسلطان
ـــ ليس فى حاجة إلى هذه النصائح
ـــ، لأنها فى نفسه وطبيعته
ـــ وكل رواية خطها قلم البلاغة
ـــ، فى هذا الكتاب عن أخلاقه الحميدة ،
ـــ كانت جزءا فقط من أخلاقه الطاهرة
ـــ، ولايشك فى هذا الكلام أحد !
ـــ وكل مستحق فى عصره
ـــ، كان له نصيب وافر من ألطافه
ـــ والدعاء له فرض واجب على الجميع
ـــ، بأن يستمد منه الملك الحسن والجمال
ـــ فيا إلهى ! بحق خير خلقك عندك
ـــ، وبحق نجوم فلكك الهادية لعبادك
ـــ اجعل دائماً هذا الوزير الورع العادل
، قريناً للعظمة والسلطان
ـــ ولتكتب له العمر فى الدنيا
ـــ، محافظاً عليه ياذا الجلال والإكرام

الخاتمة

بعد أن وصلنا الى هذا القدر من الدراسة عن المؤرخ الاسلامى الكبير خواندمير ، وتناولنا عصره بالدراسة ، وتحدثنا عن موطنه وسيرته ، ومؤلفاته وقيمتها ، وقدمنا دراسة تحليلية عنه من كتابه دستور الوزراء بالمقارنة بينه وبين الكتب السابقة عليه ، اتضحت من خلالها قيمة دستور الوزراء وأهميته ، ونقلنا هذا الكتاب الى اللغة العربية وعلقنا عليه • بعد هذا كله وجب علينا أن نقف قليلا لنستخلص فى ايجاز نتائج هذه الدراسة سواء المتعلق منها بمؤرخنا نفسه أو بكتابه دستور الوزراء •

لقد شغل خواندمير بالدراسة والبحث والتأليف منذ نعومة أظفاره وحتى العام الأخير من حياته وعشق الكتابة التاريخية حيث شغلت الجزء الأكبر من مؤلفاته ، فوضع سبعة منها فى هذا الفن • واعتبره (١) « ريبكه Rypka » مساويا لحافظ آبرو وعبد الرزاق السمرقندى وميرخواند في فن الكتابة التاريخية، وعده (٢) عبد الحسين نوائى واحدا من فحول المؤرخين فى عصره •

مؤلفات خواندمير المؤرخ الاسلامى الكبير لم يلق معظمها حتى الآن الاهتمام الكافى من الدارسين ، فرغم كونها تسعة مؤلفات الا أنه لم يطبع منها حتى الآن سوى كتابى « حبيب السير » و « دستور الوزراء » ، كتب عنهما مقدمات قصيرة لا تفى بحقه ولا بقيمة مؤلفاته ، وبقيتها لا زالت مخطوطات موزعة بين المكتبات الايرانية والأوربية •

تضمن كتاب دستور الوزراء معلومات دقيقة عن وزراء بعض الدول ، التى لا يوجد مثلها فى الكتب الأخرى ، كما تضمن ذكرا لأسماء بعض المصادر التى لا توجد الآن ــ وكانت موجودة فى عصره ــ فالفضل يرجع له فى تعريفنا بأسماء تلك المصادر التى استفاد منها •

---

(١) فى كتابه History of Iranian Literature, p. 281.

(٢) فى كتابه : رجال كتاب حبيب السير ــ المقدمة ، ص (هـ) ــ طهران ١٣٢٤ هـ ش •

ولقد لاحظنا أيضا وضوح شخصية خواندمير طول الوقت فى كتابه دستور الوزراء وتوفيقه الشديد فى اختيار مصادره ، وطريقته العلمية الصحيحة فى عرض أخباره ، ونقده لرجاله ٠

كذلك اتضحت لنا حيدة خواندمير وتجرده من التعصب ، والبعد عن النظرة الضيقة ، وهذا ما وضح جليا أثناء حديثه عن الوزراء ــ من بنى جنسه ــ أمثال وزراء البرامكة والوزير ابن العلقمى وغيرهم ٠

لم يكن خواندمير مؤرخا فحسب ، بل كان كاتبا أديبا شاعرا حكيما ، وضع كتابه بأسلوب أدبى أفضل بكثير مما كان منتشرا فى عصره ٠ ضمنه الكثير من الأشعار ــ بعضها من نظمه والبعض الآخر من نظم غيره ــ والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، ووضعها فى مكانها المناسب من الكتاب ، مدركا أنه يتحدث عن سير الخلفاء والسلاطين والوزراء وأخلاقهم ــ للخلفاء والسلاطين والوزراء ــ من قبيل العظة والاعتبار ٠ ومن هنا يمكننا اعتبار كتابه هذا كتابا أخلاقيا ونموذجا طيبا لتطور الكتابة التاريخية فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين ٠

لاحظنا كذلك خلال البحث قلة نادرة للكتب التى ألفت عن الوزراء باللغة الفارسية ، يقابلها كثرة هائلة فى الكتب التى ألفت باللغة العربية ، رغم أن منصب الوزارة منصب ايرانى أصيل ٠ ومن هنا تتضح أهمية نقل كتاب دستور الوزراء الى اللغة العربية ٠

وختاما أقر بأن الباب ما زال مفتوحا على مصراعيه أمام الدارسين لتناول مؤلفاته العديدة بالدراسة والبحث والترجمة وحبذا لو تطوع المتطوعون من رجال العلم والأدب وعملوا على الحصول على مؤلفات خواندمير المخطوطة وقاموا بتحقيقها ونشرها لتعم الفائدة ويتيسر الاقتراب من الحقيقة ٠

أرجو أن يكون قد حالفنى بعض من التوفيق فى اعطاء صورة عن المؤرخ الاسلامى الكبير خواندمير وكتابه دستور الوزراء ٠

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ٠

ثبت باسماء المراجع (١)

١ ـ المراجع التى كتبت باللغات الشرقية

(أ) المراجع الفارسية :

استرابادى : (سلطان حسين واعظ) :

١ ـ دستور الوزراء ، تصحيح وتحقيق اسماعيل واعظ جوادى ، طهران ١٣٤٥ هـ . ش .

اسكندر : (اسكندر بيك تركمانى منشى) :

٢ ـ تاريخ عالم آراى عباسى ، طهران ١٣١٤ هـ .

اقبال : (عباس) :

٣ ـ وزارت در عهد سلاطين بزرك سلجوقى ، بكوشش محمد تقى دانش بزوه ويحيى ذكاء ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش .

بداونى : (عبد القادر بن ملوك شاه) :

٤ ـ منتخب التواريخ ، مجلد أول ، بتصحيح مولوى أحمد على صاحب ، باهتمام كبير الدين أحمد ، باريس ١٨٦٨ م .

براون : (ت ١٩٢٦ م) ادوارد جرانفيل :

٥ ـ تاريخ أدبى ايران ازنيمة قرن هتفم تا آخر قرن نهم هجرى ، ترجمة على أصغر حكمت ، طهران ١٣٢٧ هـ ش ـ ١٩٤٨ م .

(١) ساذكر هنا المراجع التى ورد ذكرها فى ثنايا البحث ، والتى اعتمدت عليها فى كتابته ، وكذا المراجع التى رجعت اليها عند التعليق على الترجمة .

بهار : (محمد تقي ملك الشعراء) :

٦ ــ سبك شناسى يا تاريخ تطور نثر فارسى ج ٣ ، طهران ١٣٢١ ــ ١٣٢٦ هـ ٠ ش ٠

بهرامى : (اكرم) دكتور :

٧ ــ خاندان سهل ، بحث علمى مطول مستخرج من مجلة « وحيد » ، بعدد « ١١ » ، « ١٢ » ، « ١٣ » ، ١٣٥١ هـ ٠ ش ــ ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٢ م طهران ٠

جويني : (ت ٦٨١ هـ) علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد :

٨ ــ تاريخ جهانكشاى (ألف ما بين سنة ٦٥٠ ــ ٦٥٨ هـ) ، نشر وتصحيح محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، ليدن ١٣٢٩ ــ ١٣٥٥ هـ = ١٩١١ ــ ١٩٣٧ م ٠

خواندمير : (ت ٩٤٢ هـ) غياث الدين محمد بن همام الدين :

٩ ــ حبيب السير فى أخبار أفراد البشر ، المجلدات الثلاثة ، ١٢٧١ ــ ١٢٧٣ هـ بمباى ٠ حبيب السير فى أخبار أفراد البشر ، المجلد الأول ، طبعة طهران ١٣٧٣ هـ ٠

١٠ ــ نفس المؤلف : دستور الوزراء ، طهران ١٣١٧ هـ ش ٠

رشيد الدين فضل الله: (ت ٧١٨ هـ) :

١١ ــ جامع التواريخ ، جلد دوم ، در تاريخ باد شاهان مغول ازا وكتاى قا آن تا تيمور قا آن ، بسعى واهتمام بهمن ميرزا ــ كريمى٠از نشريات كتابخانة مركزى ، طهران ٠

رضـــا بازوكى :

١٢ ــ تاريخ ايران از مغول تا افشاريه ، ١٣٠٦ هـ ش طهران ٠

شبفق : (رضـــا زاده) :

١٣ ــ تاريخ أدبيات ايران ، ١٣٢١ هـ ٠ ش ، طهران ٠

عقيلى : (سيف الدين حاجى بن نظام عقيلى) :

١٤ ــ آثار الوزراء ، صححه وعلق عليه مير جلال الدين حسينى أرموى ، نشر جامعة طهران ، عام ١٣٣٧ هـ ٠ ش ، طهران ٠

على شير نوائى : (ت ٩٠٦ هـ) أمير نظام الدين :

١٥ ــ مجالس النفائس (مؤلف أصـلا باللغة التركيـة الجغتائية ثم ترجم الى الفارسية) ٠ نشر وتصحيح على أصغر حكمت ، طهران ١٣٢٣ هـ ش ٠

عوفى : (سديد الدين محمد) :

١٦ ـ جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، بانزده باب ، طهران ، ١٣٣٥ هـ٠ش٠

١٧ ـ جوامع الحكايات ولوامع الروايات ، جلد أول از قسم سوم ، با مقابله وتصحيح ومقدمة دكتر بانو مصفا « كريمى » ، ١٣٥٢ هـ٠ش٠ طهران ٠

قزوينى : (ت ٧٥٠ هـ) حمد الله مستوفى :

١٨ ـ تاريخ كزيده ، نشر وتحقيق المستشرق براون ، ليدن ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م

ميرخواند : (ت ٩٠٣ هـ) محمد بن خاوندشاه بن محمود :

١٩ ـ روضة الصفا ، ١٢٦٦ هـ ، بمباى ٠

نوائى (عبد الحسين) :

٢٠ ـ رجال كتاب حبيب السير از حملة مغول تا مرك شاه اسماعيل أول ، طهران ١٣٢٤ هـ ٠ ش ٠

(ب) المراجع العربية :

ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا :

٢١ ـ الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، نشر الحلبى ، ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨ م ، القاهرة ٠

أبو العينين فهمى محمد :

٢٢ ـ أفغانستان بين الأمس واليوم ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، فرع مصر ، ١٩٦٩ م ٠

أربرى : (أ ـ ج) :

٢٣ ـ تراث فارس ، كتبه نخبة من المستشرقين ، اشترك فى كتابته وأشرف على نشره أ ٠ ج ٠ أربرى ، نقله الى العربية محمد كفافى وآخرون ٠

البدليسى : (شرف خان)

٢٤ ـ شرف نامه ، الترجمة العربية ، ص ٢٠ ، القاهرة ٠

الجهشيارى : (أبو عبد الله محمد بن عبدوس) ٠

٢٥ ـ كتاب الوزراء والكتاب ، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م ، القاهرة ٠

الراوندى : (محمد بن على بن سليمان) ٠

٢٦ ـ راحة الصدور وآية السرور ، نشر وتصحيح محمد اقبال ، ليدن ١٩٢١م (وهو مؤلف أصلا بالفارسية) ، نقله الى العربية كل من : الدكتور/ ابراهيم الشسوار بى ، الدكتور/ عبــد النعيم حسنين ، الدكتور/فؤاد الصياد ، دار القلم ، القاهرة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م ٠

الساداتى : (أحمد محمود) دكتور :

٢٧ ـ تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ٠ القاهرة ٠

الشواربى : (ابراهيم أمين) دكتور :

٢٨ ـ مصادر فارسية فى التاريخ الاسلامى ، بحث علمى مطول مستخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السابع سنة ١٩٤٤ م ٠

الصابى : (أبو الحسن هلال بن المحسن بن ابراهيم) :

٢٩ ـ تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار احيــاء الكتب العربية ، ١٩٥٨ م ، القاهرة ٠

الصـــياد : (فؤاد عبد المعطى) دكتور :

٣٠ ـ المغول فى التاريخ (من جنكيز خان الى هولاكو خان) ، دار القـــلم ، القاهرة ١٩٦٠ م ٠

٣١ ـ مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمدانى ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م ٠

الطبرى : (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ) أبو جعفر محمد بن جرير :

٣٢ ـ تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الأول ، دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م ٠

الطرازى : (نصر الله مبشر) :

٣٣ ـ الفهرس الوصفى للمخطوطات الفارسية المزينـــة بالصـــور والمحفوظة بدار الكتب ، دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٨ م ٠

براون : (ت ١٩٢٦) ادوارد جرانفيل :

٣٤ ـ تاريخ الأدب فى ايران من الفردوسى الى السعدى ، نقله الى العربيــة الدكتور/ ابراهيم أمين الشواربى ، القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م ٠

حسن ابراهيم حسن : (دكتور) :

٣٥ ـ الدولة التيمورية فى الهند ، بحث علمى مطول استخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السابع سنة ١٩٤٤ م ٠

٣٦ ـ تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، الجزء الثالث الطبعة السابعة ، القاهرة ١٩٦٥ م ٠

رشيد الدين الله الهمدانى : (ت ٧١٨ هـ) :

٣٧ ـ جامع التواريخ ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون ، ١٩٦٠ م ٠ القاهرة ٠

طليمات : (عبد القادر أحمد) دكتور :

٣٨ ـ ابن الأثير الجزرى المؤرخ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ م ٠

ماجد : (عبد المنعم) دكتور :

٣٩ ـ التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٠ م القاهرة ٠

محمد فؤاد عبد الباقى :

٤٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٤ هـ ٠

مسكويه : (أبو على أحمد بن محمد) :

٤١ ـ تجارب الأمم وتعاقب الهمم ، ج ١ تحقيق آمد روز ، طبع شركة التمدن الصناعية بمصر ١٩١٤ م ٠

ولبر : (دونالد) :

٤٢ ـ ايران ، ماضيها وحاضرها ٠ نقله الى العربية الأستاذ الدكتور/ عبد النعيم حسنين ، القاهرة ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٨ م ٠

ياقوت : (ت ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى :

٤٣ ـ معجم البلدان ، المجلد الأول والثاني ، طبعة بيروت ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ٠

٢ ـ المراجع التى كتبت باللغات الأوربية

(أ) بالانجليزية :

٤٤ — BROWNE, E.G. :
A Literary History of Persia, Vol. II, III, Cambridge, 1928.

٤٥ — ELIOT :
History of India, Vol. 5, p. 116.

٤٦ — RIEU, CHARLES, Dr. :
Catalogue of the Persian Manuscripts in the British Museum, London, 1879.

٤٧ — RYPKA, JAN. :
History of Iranian Literature, pp. 279-281 (University of Leyden, Holland).

٤٨ — STOREY, C.A. :
Persian Literature, section II, Fasciculus 1, London, 1935.

(ب) بالفرنسية

٤٩ — BLOCHET, E. :
Catalogue des Manuscrits Persans de la Bibliothèque Nationale, Vol. 4, pp. 279-281, Paris, 1925.

٥٠ — FERTE, H. : Vie du Sultan Hossein Baikara, traduite de Khondémir, Paris, 1898,

الفهـــرس

الفصل الثالث :

القسم الثانى :

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٦٠٨/١٩٨١

ISBN ٩٧٧ ٧٣٤٥ ٣٢ ١

المؤرخ الإيراني الكبير
غياث الدين خواندمير

الدكتور حربي أمين سليمان

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

